khayal-world.blogspot.com

سبعة

بقلم: خيال

رفع عابد حاجبيه بدهشة، ورغم أن من عادته التزام الصمت كلما طلب منه عمل بأجر مجزٍ، إلا أنه تساءل هذه المرة "لماذا أنا؟"

قالت الفتاة "سأحدد لكما وجهة السفينة ومسارها.. وستبدأ الرحلة بعد شهر من الآن.."

قال عابد بإلحاح "لماذا أنا؟"

أكملت الفتاة دون أن تعير تساؤله أي اهتمام "لن يكون هناك ركاب أو عاملون آخرون على ظهر السفينة.. يكفيها قائدها وأنت كمساعد له.. وسيأتيكم شخص آخر من طرفي ليتأكد أن الرحلة ستصل لوجهتها المحددة دون مشاكل.."

عاد عابد يقول بصوت أعلى "لماذا أنا بالذات؟ كان يمكنك الحصول على أي عامل آخر من آلاف العمال في هذا الميناء.."

نظرت له بعينيها الزرقاوين اللتين عجز عن تفسير نظراتهما، ثم قالت وهي تعقد ذراعيها على صدرها "سأوكل إليك مهمة محددة.. وسيأتي معك طارق ليتأكد أنك ستنفذ تلك المهمة بحذافيرها دون خيانة.."

رآها تشير للشاب الأشقر القريب، ثم عاد بنظره إليها وهو يسأل بتوجس لم يدرك سببه "وما هي تلك المهمة؟"

ابتسمت الفتاة ابتسامة صغيرة، ثم قالت ببساطة "أريدك أن تدفن جثماني في موقع أحدده لك.. هذا هو كل شيء"

فصل تمهيدي

في عام ٢٢٠٧م، بلغ تطور الإنسان في مجال الفضاء شأناً كبيراً، واستطاع العلماء التغلب على ما يعترض الإنسان من عقبات في السفر، والسكن، خارج الكرة الأرضية التي كانت مستقراً وحيداً للجنس البشري منذ بدء الخليقة.. ومع الطفرة التي تسارعت في الأرض منذ ما يزيد على قرنين في كافة المجالات، بدأ البشر ببناء مستوطنات كبيرة بكامل احتياجاتها على عدة كواكب وأقمار في المجموعة الشمسية مشكلين مدناً لا تقل كثافتها عن نظيرتها على الأرض.. كانت المستوطنات البشرية تغطي مساحة مئات الكيلومترات مغطاة بقبة زجاجية سميكة توفر المناخ الملائم لسكنى البشر فيها وتحفظه من العوامل القاسية في الفضاء كانخفاض الحرارة الشديد واختلاف الجاذبية والضغط وانعدام الهواء.. وبذلك يعيش البشر في قلب المستوطنة بعوامل تناسب احتياجاتهم واحتياجات حيواناتهم ونباتاتهم التي جلبوها معهم..

لكن طمع الإنسان لم يقف عند هذا الحد، بل تجاوز المجموعة الشمسية لما جاورها من مجموعات وكواكب وطموحه يقوده نحو فكرة كانت مجرد خيال في الروايات القديمة.. وهو غزو المجرات الأخرى بعد التمكن من مجرة درب التبانة، ونقل الجنس البشري لأبعد مدى ممكن في العالم الفسيح الذي لا يُعرف له أي حدود.. ورغم أن السكنى في المجرات الأخرى ما يزال حلماً، إلا أن إصرار الإنسان على تحقيقه يقلص المسافة بينه وبين ذلك الهدف بسرعة الضوء.. وقد ساعد على ذلك استخدام الوقود الهيدروجيني الذي حمل السفن الفضائية مسافات بعيدة في وقت وجيز، واكتشاف الثقوب الفضائية التي قلّصت المسافات بشكل كبير وقفزت بالسفن مئات السنوات الضوئية مختصرة الرحلات التي كانت مستحيلة في الماضي لتصبح اعتيادية ويجتازها البشر بشكل يومي..

ورغم التطور الكبير الذي خاضه الجنس البشري، لم يستطع التغلب على أكبر مشكلة تواجهه، وهي تلوث الأرض الشديد والتأثير الذي يحدثه ذلك على الحياة فيه.. وبسبب فشل تجربة علمية قام بها أحد المراكز العلمية في الأرض، في بداية القرن الماضي، وهدفها خفض مساحة الثقوب التي تزايدت في طبقة الأوزون

باستخدام نوع خاص من القنابل المطوّرة.. كان هدف هذه التجربة بدء سلسلة من التفاعلات التي تؤدي لتحفيز الأوزون (وهو غاز ينتج عن طريق تحّول جزء من الأكسجين بفعل الأشعة فوق البنفسجية)، لكن النتيجة جاءت عكسية تماماً وأحدثت اضطراباً في توازن طبقات الجو، أو ما بقي منه في الواقع.. ومع ذلك الاضطراب، بدأت طبقة سميكة من الغيوم الكثيفة تتكون حول الأرض أثارت عواصف عاتية في أجزاء كبيرة من العالم.. دام ذلك الاضطراب عدة أيام وسبب دماراً كبيراً لم يكن شخص يتخيله، ومن أهم ملامح ذلك الدمار هو انفجار أغلب المفاعلات النووية وانتشار التلوث الإشعاعي الشديد محققاً أغلب كوابيس العلماء على الأرض.. ور غم هدوء العواصف النسبي، ظلت مشكلة تلك الغيوم المشبعة بالإشعاعات المميتة تشكل خطراً على الحياة بأكملها.. بدأت أشعة الشمس التي تنفذ عبر ها تنخفض بشكل كبير، وبدأت الحياة على الأرض تتأثر بشكل واضح بسبب التلوث الذري وبسبب انحجاب أشعة الشمس عنها.. أخذت الموارد النباتية، والحيوانية بالتالي، تنخفض بشكل متسارع وعانى البشر من آثار تلك التجربة.. لذلك كان الحل الوحيد، بعد محاولات فاشلة لعشر سنوات لتصحيح ذلك الخطأ، أن يغادر من بقي من البشر إلى المستوطنات الفضائية نابذين الأرض للمرة الأخيرة..

سعى الإنسان لحمل النباتات والحيوانات التي كانت تعيش على الأرض معه للفضاء، ولمستوطنات خاصة بحمايتها ورعايتها، بينما عانت الحياة على الأرض من تشوه كبير على مدى العقود التالية بحيث أصدر مجلس الأمن الفضائي قراراً بمنع الرحلات إلى الأرض مستثنياً رحلات علمية خاصة لدراسة التغييرات على الأرض وبإذن من مجلس الأمن الفضائي.. ولم تلبث تلك الرحلات العلمية أن انقطعت بدورها منشغلة بالعوالم الجديدة بدل مراقبة عالم قديم بدأ بالاندثار..

وبعد أن انقطعت الصلة بين الإنسان وبين موطنه الأم، أصبح أكثر لهفة على اجتياح عوالم جديدة، وبدأ البشر بالتكاثف في المستوطنات الأبعد تاركين أغلب مستوطنات المجموعة الشمسية فارغة محطمة تلتهمها الظروف الطبيعية القاسية في الفضاء.. فأصبحت الرحلات الفضائية للمجموعة الشمسية شبه منقطعة، وأصبحت الأرض، بعد كل ذلك، تستحق اسمها كعالم قديم، نبذه البشر بعد أن دمروه بشكل كامل..

ورغم أن البشر يحاولون تلافي الأخطاء ذاتها في المستوطنات الفضائية، إلا أن الأرض ستبقى شاهدة على ما

اقترفه الإنسان بأنانية وجحود تامين..

****

- المقطع الأول -

"سنة؟..."

نظرت الفتاة ذات العينين الزرقاوين الجميلتين للرجل ذي الرداء الأبيض الذي قال بهدوء "أجل.. وهذا مجرد تقدير.. ربما يطول الأمر أو يقصر، لكن سيمكننا التثبت من ذلك بعد الفحوصات المكثفة التي سنجريها على فترات متقاربة.."

نظرت الفتاة من النافذة بعينين زائغتين وهي تهمس "سنة؟"

نظر لها الرجل بإشفاق واضح، ثم ربت على يدها وهو يقول بلطف "بدل التحسر على ما مضى وعلى ما سيحدث، لم لا تفكرين بما يمكنك تحقيقه في هذه السنة؟.."

عادت الفتاة تكرر بمرارة "تحقيقه في سنة واحدة فقط؟"

ولم يجد الرجل أي جواب يمكنه أن يجيبها به..

****

- المقطع الثاني -

وقف الشاب باحترام شديد أمام ذلك الرجل ذي البزة الحريرية ورباط العنق بقطعة الحجر الغالية فيه، وأخذ يستمع له بصمت دون تعليق والرجل يقول بحنق "أريد معرفة كل شيء.. أتفهم؟.. أنت لست هنا لتستمتع بوقتك.. أنت هنا لتخدمني أنا فقط.. لو شككت بك للحظة، سأرميك خلف الشمس في ثوانٍ معدودة.. أتفهم؟.."

لاحظ الشاب أن الرجل يكرر كلمة (أتفهم) عدة مرات بشيء من العصبية.. وبدا له غير واثق مما يجري رغم شكوكه الواضحة.. لكن الشاب لم يعلق وهو يحني رأسه قائلاً "أفهم بالطبع يا سيدي.."

فليقل ما يقوله.. هو يعرف ما يريد فعله ويعرف كيف سيحققه رغم كل التهديدات التي يصبّها الرجل في أذنيه ليل نهار..

****

- المقطع الثالث -

(((نظرت للصبي بعينين باردتين وقالت بصوت مشمئز "أيها الخنزير الصغير.. كان يجب أن تموت منذ مدة.." وتجاوزته والصبي ينظر لها بذهول مرتعب والحلوى تذوب في يده المتعرقة السمينة بسرعة كبيرة.. نظر الصبي ليده المتعرقة وهو مشمئز بدوره، ثم سارع لرمي الحلوى ومسح يده في ملابسه وهرع خارجاً من المنزل بصمت... ذلك الوغد زيد، لابد أن ينال لكمة أو اثنتين.. لا يذكر ما فعله حقاً، لكن لابد أن ينال جزاءه اليوم بالتأكيد..)))

هبّ الرجل جالساً في فراشه وهو يتطلع للظلمة من حوله والعرق يسيل من صدغيه.. ثم شعر بالصداع العنيف يهاجم عقله بلا هوادة جراء نهوضه المفاجئ من النوم.. فضغط على جبهته بيده وهو يتذكر ذلك الحلم الغريب، ثم قال بصوت أجش "اللعنة.. ما الذي ذكرني بها الآن؟.. هذا نذير شؤم.."

****

- المقطع الرابع -

في عتمة إحدى الغرف، ظل الرجل يتطلع لساعة قديمة الطراز ذات غطاء معدني يحمل صورة صغيرة.. تأمل الصورة التي تظهر شاباً باسماً ذا منظار سميك قديم الطراز بدوره.. ثم زفر بشدة وهو يغمغم "أين

اختفيت أيها الشاب؟.. أأنت حيّ أم....."

لم يجرؤ على إكمال قوله وهو يغلق الساعة بحدة ويعيدها لجيبه.. وظل مطرقاً محنيّ الكتفين لفترة طويلة.. ربما عليه أن ينسى.. ربما عليه أن يكفّ عن البحث.. لو كان الشاب حياً لما اختفى بهذه الصورة طوال تلك السنوات.. فأي فائدة سيجنيها من اجترار ألمه لمدة أطول؟..

****

- المقطع الخامس -

تلقى ذلك الفتى الضئيل لكمة قوية على بطنه انثنى لها بألم، ثم نظر للفتى الذي يماثله في العمر لكن يتجاوزه في الطول والضخامة، والذي نظر له بابتسامة شرسة قائلاً "أنت تعمل وتكسب الكثير بالفعل.. أليس كذلك؟.. لا يضيرك بضع عملات نستدينها منك.."

سمع الفتى ضحكة من فتىً آخر، بينما اقترب منه ثالث ومد يده في جيبه قابضاً على بضع عملات ورقية وبدأ يعدّها بلهفة.. لكن الفتى الضخم استلبها منه ودسّها في جيبه، ثم طوّح قبضته في وجه الفتى المتألم قائلاً بمرح "سنعود في يوم آخر.. فاعمل بجد حتى ذلك الوقت.."

تضاحك الآخران وهما يلحقان بالفتى الضخم.. بينما بصق الفتى الضئيل بعض الدماء، ومسح فمه وهو عابس بشدة.. حتى متى عليه احتمال هذه الحياة وحيداً؟.. أيمكن لحياته أن تكون أفضل في يوم ما؟؟..

****

- المقطع السادس -

وقف الشاب محنياً رأسه أمام ذلك الرجل الذي قال بضيق شديد "حتى متى ستظل هكذا؟.. أنت تتأخر عن عملك بشكل يومي.. كيف تريد أن تنال راتبك عن هذا العمل بضمير مستريح؟"

قال الشاب بشيء من الضيق "لكني أقوم بعمل آخر قبل مجيئي إليك.. والمسافة بينهما بعيدة، لذلك لا أملك هذا التأخير.."

فقال الرجل بحنق "كل هذا بسبب ذلك الأب غير المبالي الذي تخلّى عن عائلته.. أين يمكن أن يختفي رجل مثله؟.. كان عليه تحمّل مسؤولية أبنائه بدل رميك في هذا الأتون في هذه السن.."

ثم حدج الشاب بنظرة حادة قائلاً "إياك أن تكرر ما فعله أبوك.. أنت رجل مسؤول عن عائلتك، وعليك تحمل ذلك حتى النهاية.."

دمدم الشاب بضيق "لا تقلق.. لن أكون أبداً جاحداً مسؤولياتي كذاك الرجل.. ولن أرمي عائلتي فيما رماني هو فيه.."

****

- المقطع السابع -

تنهدت تلك الفتاة وهي تجول في غرفة صغيرة من منزلها المتواضع.. ظلت تنظر للهاتف في يدها عدة مرات ثم تحاول تناسيه وهي تجول بقلق واضح.. وأخيراً، عادت ببصرها للهاتف ونظرت للبيانات الظاهرة على شاشته والتي تدلّ على اتصال لم يردّ عليه أحد في وقت سابق من هذا النهار..

بعد شيء من التردد، ضغطت الفتاة زر معاودة الاتصال.. ولما سمعت الصوت الدالّ على بدء الاتصال، سارعت لإنهائه بتوتر ظاهر وهي تتأمل الشاشة عاضة على شفتها السفلى.. لقد قررت نبذ تلك العلاقة منذ أمد بعيد.. فما الذي يجعلها تفكر ولو للحظة في إعادة وصلها من جديد؟.. لن تجني مما تفعله إلا المتاعب..

تنهدت من جديد وهي ترمي الهاتف على كرسي قريب وترتمي على كرسي آخر.. عليها أن تكون أكثر حزماً في تناسي تلك الفتاة، مهما كان الأمر عسيراً..

****

الفصل الأول

في الجانب البعيد من المجرة، في كوكبة قيطس، يقع النجم ميرا وهو عملاق أحمر يبعد عن الأرض حوالى ٢٠٠ سنة ضوئية.. هو في الأصل نجم ثنائي مكون من العملاق الأحمر (ميرا أ) وقرينه القزم الأبيض (ميرا ب).. وحول ذلك النجم الثنائي، يدور أربعة عشر كوكباً في مدارات متفاوتة الاتساع والاتجاه، والكواكب تتفاوت في أحجامها ومادتها وعدد الأقمار التابعة لها.. وفي هذه المجموعة، ابتنى الإنسان لنفسه عشرات المستوطنات المتفاوتة في أحجامها مستغلاً أكثر المواقع صلاحية لسكنى البشر بعيداً عن حرارة النجم المتوهجة بسطحه المتذبذب حيث يتزايد وينخفض ضياؤه خلال فترة زمنية بين ٨٠ و ١٠٠٠ يوم.. وفي أكبر مستوطنة على القمر فينون، وهو أحد أقمار كوكب رايا أكبر الكواكب في مجموعة ميرا، ومع بدء ذلك النهار الطويل من أيامه والذي يساوي بزمن الأرض ثمانية عشر يوماً، كانت الحركة في ذلك الميناء على أشدها كعادته.. ومع شروق الشمس التي تمتاز بلونها الأحمر والتي أنارت المنطقة بعد غياب طال، بدأت الكشافات العملاقة والموزعة بدقة في الموقع تطفأ واحدة تلو الأخرى بعد أن أنارت هذا الميناء لثمانية عشر يوماً دون توقف..

وقد سمّي هذا ميناءً مجازاً، فقد كان محطة إقلاع سفن فضاء بأحجام مختلفة وأشكال متباينة وكل منها له وظيفة ومهام تتفاوت وتختلف عن غيرها بشكل ينعكس على نوعية مرتادي مثل هذه الموانئ..

كانت الحركة على أشدها في ذلك الميناء الحيوي التابع لتلك المستوطنة، وكان الضجيج لا يكاد يهدأ فيه، والحرارة تخنق الأنفاس بفعل المحركات التي تعمل بالطاقة الهيدروجينية بشكل شبه مستمر في هبوط سفينة أو رحيل أخرى، مختلطة برائحة الحديد الصدئ والأخشاب والعرق..

وعلى سطح إحدى سفن نقل بضائع متوسطة، والتي تزخر بصناديق متفاوتة الأحجام والألوان الملأى منها والفارغة، انهمكت جماعة من العمال في أداء ما عليهم من مهام بسرعة استعداداً لرحيل تلك السفينة بعد ساعات معدودة.. فمن انهمك بتحميل، أو تنزيل، بعض الصناديق يدوياً أو باستخدام رافعة لتحميل

الحاويات الضخمة، ومن يقوم بتهيئة السفينة لرحلتها الطويلة التي تستغرق أسبوعاً على الأقل نحو إحدى المستوطنات في الجانب الآخر من المجموعة التابعة للنجم ميرا..

ومن بين الحركة الدؤوبة للعمال، حمل رجل على شيء من الطول أحد الصناديق غير عابئ بثقله وهو يهبط به عبر الممر الممتد لرصيف الميناء.. كان كالح الوجه، بوجه غير حليق وبشرة على شيء من السمرة، وشعره الأسود الطويل شيئاً ما لزج لشدة الحر، بكتفين عريضين وجسد طويل وعريض وثيابه البسيطة قد لطختها الزيوت والغبار والعرق الشديد.. كانت ملامحه جافة نوعاً تثير الريبة بشكل تلقائي في نفوس الآخرين، ولم يكن بحاجة إلا لجرح على وجهه ليبدو كأي قرصان محترم..

ابتعد الجميع عن طريقه وهو يحمل الصندوق حتى وصل للرصيف، وتوجه جانباً حيث صُفّت صناديق أخرى متماثلة في الحجم واللون، فوضع صندوقه هذا قربها بشيء من العنف.. عندها تعالى من خلفه صياح يقول "كن حذراً أيها الأحمق.."

لم يعبأ العامل بالصياح وهو يعتدل واقفاً ويشعر بتوق لإشعال لفافة تبغ وأخذ راحة قصيرة.. لقد استمر في العمل عدة ساعات دون أن يسمح له رئيسه بالراحة إلا لدقائق معدودة في كل مرة.. نظر حوله بترقب، ولما رأى رئيسه يلتفت بعيداً، أسرع العامل يجدّ السير لمنطقة قريبة تخفيه الصناديق فيها عن عين رئيسه التي تراقبه كالصقر.. عندها سارع لاستخراج لفافة تبغ ودسّها في فمه وهو يبحث في جيبه عما يشعل به اللفافة.. وفي غمرة انهماكه، فوجئ بمن يظهر من خلف الصناديق فيرتطم به بشيء من القوة أسقطت لفافة التبغ من فمه.. ولما انحنى ليتناول اللفافة وجد ذلك الحذاء يدوسها دون اهتمام..

رفع العامل بصره بصمت وهدوء ظاهري، بينما صدره يغلي بغيظ شديد، نحو صاحب الحذاء الذي وقف على مقربة منه.. فرأى شاباً لا يكاد يبلغ الثلاثين من عمره، مهندماً يرتدي بزّة رسمية بلون رمادي ورباط عنق متناسق معها، ويبدو لعينيه منعّماً ببشرته البيضاء وشعره الناعم الأشقر والنظارة السوداء التي تخفي عينيه في أناقه.. عندها لم يملك العامل أن زمجر بغضب وقد زادته هيئة الشاب الواثقة غيظاً "ما الذي تبغيه يا هذا؟.. ألا ترى ما أمامك؟"

لم يبدُ على الشاب ذي البزّة أي اهتمام بالغضب الظاهر على محدثه، بل سأله بكل هدوء "أأنت عابد؟"

نظر له العامل بشيء من الدهشة والصمت، قبل أن يقول بسخرية "إذن أنت أتيت لرؤيتي شخصياً.. هل عليّ أن أفرح لهذا؟"

قال الشاب دون اهتمام بتعليقه من جديد "هناك من يطلبك.."

فقال عابد بضجر "لا أذكر كوني شخصية هامة ليطلبني أحدهم بالاسم.. أم أنك من مجلس الأمن؟.."

قال الشاب "بل هو يطلبك لعمل مهم.."

ظل عابد ينظر له بحدة، ثم قال "ألا ترىٰ أنني أعمل بالفعل؟.. رحلتي ستنطلق بعد قليل ولن أعود قبل عشرة أيام، ولا أقبل أعمالاً أخرىٰ حتىٰ انتهاء هذا العمل.."

قطب الشاب شيئاً ما لعدم اهتمام عابد بالأمر، قبل أن يقول "سيكون المقابل مجزياً.. أكثر مما قد تتقاضاه من عملك البائس هذا بأربع مرات علىٰ الأقل.."

رفع عابد حاجبيه بدهشة وشيء من الاهتمام، عندما فوجئ الاثنان بصياح غاضب قريب ورئيس عابد في العمل يصرخ بحنق "ما الذي تفعله هنا أيها المأفون؟.. عد لعملك دون إبطاء.."

لم يتحرك عابد من موقعه وهو ينظر للرجلين موازناً الأمر في عقله، بينما اقترب رئيسه وهو يصيح بشدة "ألم تسمع ما قلته؟.. عد لعملك بسرعة وإلا خصمت هذه الساعة من أجرك.."

ابتسم عابد وهو يقول لرئيسه الغاضب بسخرية "احتفظ بأجرك كله يا هذا.. إنني أتخلىٰ عن هذا العمل.."

واستدار مغادراً وسط نظرات رئيسه المبهوتة قبل أن يصيح فيه "أيها الأحمق.. عد لعملك الآن.. لن تجد عملاً أفضل مما تحصل عليه بالفعل.."

لكن عابد تجاهله وهو يجذب الشاب المتأنق قائلاً بلهجة منذرة "يحسن بك أن تكون صادقاً بخصوص عملك هذا.. وإلا سأدق عنقك في اللحظة التي سيتبين فيها خداعك.."

تملص الشاب من يده وهو ينفض ملابسه قائلاً بشيء من التعالي "اتبعني بصمت رجاء.."

نظر له عابد بسخرية وقد اعتاد هذه النظرات وهذا الاشمئزاز من المتأنقين ذوي الدخل الثابت الذي يفوق ما يحصل عليه هو وأمثاله عشرات المرات.. رأىٰ الشاب يتقدمه ويسبقه بعدة خطوات، فتبعه عابد عبر تلك البقعة من الميناء التي تكدست فيها الحاويات والصناديق في أغلب المواقع بانتظار تحميلها علىٰ إحدىٰ

السفن أو ترحيلها لمواقع أخرى من المستوطنة.. دام سيرهم دقائق عديدة وعابد يتساءل في سره عن هوية ذاك الذي طلبه من بين مئات وآلاف العاملين في هذه الموانئ وعلى تلك السفن.. لِمَ هو بالذات؟.. ما الذي يميزه عن غيره؟؟.. لكنه احتفظ بتساؤلاته تلك في عقله حتى يعرف ما هو المطلوب منه.. عندما يكون المقابل مجزياً، فهو لا يمانع القيام بأي عمل عادة..

وصل الاثنان لجانب الميناء البعيد حيث الحركة أخف حدة والبشر أقل في ذلك الموقع، ثم لاحظ عابد أنهما يقتربان من سفينة متوسطة الحجم على شيء من القدم يغلب عليها اللون الأزرق رابضة في موقعها بصمت.. ورأى قربها رجلاً ينافسه في الطول بعضلات واضحة تلفت الأنظار إليه من مبعدة.. وقربه رأى رجلاً في أوسط العمر يرتدي ثياباً عادية، مربوع الجسد على شيء من القصر مقارنة بالرجل الطويل، منهك الوجه بعينين ضيقتين وحاجبين كثين معقودين بعصبية.. بدا واضحاً أن ذلك الرجل القصير هو صاحب تلك السفينة وقائدها في الآن ذاته.. وقد أخذ يردد بشيء من العصبية "هذا غير مقبول.. غير مقبول بتاتاً.."

سار عابد مع الرجل المتأنق إلى الرجلين، ومع اقترابه، استطاع أن يرى تلك الفتاة التي وقفت أمام الرجلين بثقة واعتداد.. واستطاع أن يسمع صوتها الناعم وهي تقول بحزم "بل هي ما أريد.. وسآخذها مهما كان الأمر.."

دهش عابد لوجود الفتاة في مثل هذا الموقع، وكانت دهشته أكبر وهو يتأمل ملامحها.. كانت ذات شعر أسود ناعم يصل لكتفيها، ببشرة بيضاء صافية وعينين زرقاوين وأنف دقيق وفم صغير يكمل جمالها الواضح.. ورغم أن ملامحها جميلة دون حاجة لتأنق، فقد كانت تكحل عينيها بكحل أسود زاد لونهما الأزرق وضوحاً، وتبالغ في الزينة حول رسغها وعنقها، عكس ردائها البسيط بلونه الأبيض والنقوش الزرقاء في حاشيته.. كانت جميلة، لكنه ذلك الجمال الذي يجذب ويثير قشعريرة في الجسد في الآن ذاته.. لكن لاحظ عابد أن مبالغتها في الزينة لم تكن تقدر على إخفاء الهالات السوداء تحت عينيها وبعض الشحوب في ملامحها.. وقد بدت كشيء شاذ وسط الميناء الذي لا يوحي بأي رُقي بسفنه المستهلكة ووجوه رواده المتعبة..

رأى عابد الشاب المتأنق يقترب من الجمع الصغير قائلاً "لقد أحضرته يا آنستي.."

لم تلتفت الفتاة إليه وهي تقول للرجل الكهل "ما هو سعرك؟"

قال الكهل بعصبية "لا أستطيع بيعك هذه السفينة.. إنها ثروتي الوحيدة، ولو بعتها فسأموت جوعاً خلال أشهر معدودة"

فقالت الفتاة "سأضاعف لك المبلغ.. عندها يمكنك شراء واحدة أكبر وأحدث تقنية.. لن تخسر شيئاً.."

دار عابد ببصره فيما حوله، ثم تساءل "إذن.. ما هو ذلك العمل المطلوب مني؟"

فوجئ بالفتاة تشير له بإصبعها ليصمت دون أن تنظر لوجهه، فبدا الاستنكار الشديد على وجه عابد قبل أن يزمجر "ما معنى هذا؟"

قال له الشاب المتأنق "اصبر ولا داعي للتذمر.."

صمت عابد مرغماً وهو يراقب ما يجري أمامه.. لو لم يفقد عمله السابق، لما وقف ليراقب هذه المهزلة التي ترتكبها الفتاة أمامه، والغريب أن الشاب المتأنق، والآخر الضخم، كانا يعاملانها باحترام شديد جعل استنكاره أشد.. وبعد أن أنهت الفتاة حديثها مع الكهل، أحنى الكهل كتفيه وهو يقول باستسلام "لا بأس.. لا يمكنني المعارضة مع الثمن الذي تعرضينه.. لكن ما يدهشني أنك مصرّة على شراء سفينة قديمة كهذه.. يمكنك بهذا المبلغ شراء ما هي أفضل منها بعشرات المرات"

قالت الفتاة بثقة "لكني أريدها هي.."

ومدت يدها له، فصافحها الكهل بعد تردد واضح، بينما أضافت الفتاة " وأريدك أنت أن تتولى قيادة السفينة في رحلتها القادمة.. ولا أريد جدالاً في الأمر.."

وقبل أن يتفوه الكهل بكلمة، التفتت الفتاة أخيراً إلى عابد الصامت تتأمل ملامحه للحظات، قبل أن تبتسم قائلة "حسناً.. أنت أيضاً ستنضمّ لهذه السفينة في رحلتها القادمة.."

رفع عابد حاجبيه بدهشة، ورغم أن من عادته التزام الصمت كلما طلب منه عمل بأجرٍ مجزٍ، إلا أنه تساءل هذه المرة "لماذا أنا؟"

قالت الفتاة "سأحدد لكما وجهة السفينة ومسارها، وستبدأ الرحلة بعد شهر من الآن.. توقعوا اتصالاً من

طرفي بعد مرور هذا الشهر.."

قال عابد بإلحاح "لماذا أنا؟"

أكملت الفتاة دون أن تعير تساؤله أي اهتمام "لن يكون هناك ركاب أو عمّال آخرون على ظهر السفينة.. يكفيها قائدها وأنت كمساعد له.. وسيأتيكما شخص آخر من طرفي ليتأكد أن الرحلة ستصل لوجهتها المحددة دون مشاكل.."

عاد عابد يقول بإلحاح وبصوت أعلى "لماذا أنا بالذات؟ كان بإمكانك التعاقد مع أي عامل آخر من آلاف العمال في هذا الميناء.."

نظرت له بعينيها الزرقاوين اللتين عجز عن تفسير نظراتهما، ثم قالت وهي تعقد ذراعيها على صدرها "سأوكل إليك مهمة محددة.. وسيأتي معك طارق ليتأكد أنك ستنفذ تلك المهمة بحذافيرها دون خيانة.."

رآها تشير للشاب الأشقر القريب، ثم عاد بنظره إليها وهو يسأل بتوجس لم يدرك سببه "وما هي تلك المهمة؟"

ابتسمت الفتاة نوعاً ما ابتسامة صغيرة، ثم قالت ببساطة "أريدك أن تدفن جثماني في موقع أحدده لك.. هذا هو كل شيء"

رفع عابد حاجبيه بدهشة كما بدت الصدمة على وجه الرجل الكهل، بينما ظل الشاب المدعو طارق والرجل الآخر صامتين دون انفعال.. وقبل أن يتفوه عابد بكلمة اقتربت الفتاة منه خطوة ومدت يدها له قائلة "إذن.. هل اتفقنا؟"

قطب عابد قائلاً بحدة "هل تنوين الانتحار؟"

ضحكت الفتاة ضحكة صغيرة وقالت "لا.. لكني لن أبقى حية بعد مرور الشهر القادم.. هذا شيء مؤكد.."

ثم استعادت يدها وتجاوزته بخطوات سريعة مضيفة "طارق.. اهتم بكل الأمور الأخرى.."

غادر الرجل الضخم خلفها، بينما وقف طارق بين الكهل وبين عابد المصدومين قبل أن يقول "حسناً.. يحسن بنا أن ندخل السفينة للتفاهم فيما بقي من أمور.."

صاح عابد في تلك اللحظة "أمور؟.. لم تكن هناك أي أمور منذ البداية.. أنت مجنون وتلك الفتاة مجنونة ولاشك.."

واستدار مغادراً، فاستوقفه طارق قائلاً بهدوء "لكنك فقدت عملك بالفعل.. هل ستعود لرئيسك وترجوه السماح لك بالعودة لعملك؟.."

نظر له عابد بغيظ وقد نسي ذلك في غمرة غضبه، فقال طارق وهو يتقدمهما نحو السفينة الخالية "هيا بنا.. لا أملك الوقت كله للحديث معكما.."

نظر الكهل لعابد المقطب بحنق، ثم سار خلف طارق بصمت.. ولم يملك عابد أن تبعه بدوره وهو يشعر بغيظ مما يجري..

في تلك الأثناء، كانت الفتاة تسير بخطوات واسعة خارجة من ذلك الميناء والرجل الضخم يتبعها.. فسمعها تقول بانشراح "بقي القليل فقط.. وكل الأمور ستسير كما أحب وأشتهي.."

غمغم الرجل الضخم "الأمور دائماً تسير كما تحبين يا آنستي.."

فقالت بابتسامة متسعة "إلا هذا الأمر.."

عندها قال الضخم بعد شيء من التردد "لكن، ما ذنبهم بكل ذلك يا آنستي؟"

ضحكت الفتاة قائلة "ليس لأحد أي ذنب.. وقد شاء لهم القدر أن يكونوا طرفاً في الأمر شاؤوا ذلك أم لا.."

والتفتت إليه قائلة بابتسامة "لماذا تظنني أصررت لاستخدامك كحارس شخصي لي؟.. لأنني أعرف أنك لن تخونني في يوم من الأيام.. وطارق أيضاً.. رأيتكم جميعاً، ولهذا يجب عليّ تنفيذ ما رأيته بحذافيره.."

وزالت الابتسامة من شفتيها وهي تقول بوجوم "يجب عليّ تنفيذه، مهما كانت العواقب.."

وأكملت سيرها بعزم تاركة الضخم ينظر لها بدهشة وتعجب، بينما مضت هي زامة شفتيها دون أن تلتفت لأي شخص يمر بها.. بينما كانت تلفت الأنظار بشدة في سيرها في ذلك الميناء الواسع..

****

في تلك السفينة القديمة، استقر الكهل في غرفة القيادة فيها بينما جلس طارق جانباً بلا أي حرج، فيما بقي عابد واقفاً وسط الغرفة قبل أن يتساءل "ألن يشرح لي شخص ما يجري هنا؟.. لم هربت الفتاة قبل أن تخبرني ما الذي تريده مني؟"

قال طارق "أنا من سيتكفل بذلك.. اجلس ولا تكن مملاً بتساؤلاتك المتكررة تلك.."

قطب عابد بشيء من الغيظ لتعليق طارق، ثم رمى نفسه على كرسي جانبي دون تعليق.. بينما التفت طارق إلى الكهل متسائلاً "لم نتشرف بمعرفتك بعد.."

قال الكهل "اسمي نوح.. نوح عبدالسلام.."

ابتسم طارق وقال "لي الشرف بمعرفتك يا سيدي.."

ظل عابد ينظر لطارق مقطباً وقد لاحظ جفاءه في الحديث معه مقارنة بحديثه مع نوح.. ألأنه مجرد عامل على السفن لا أهمية له؟..

سمع طارق يضيف "إذن، بعيداً عن أي تعقيدات، الآنسة قد وظفتكما لمهمة محدودة.. بعد شهر من الآن، سترحل هذه السفينة في رحلة طويلة.. لذلك عليكما الإعداد لها بشكل جيد.. لا أريد، عندما يحين وقت الرحيل، أن نكتشف أن السفينة بحاجة للصيانة أو ينقصها بضع صناديق من الطعام.. ضعا في ذهنيكما أن الرحلة ستستغرق أسبوعاً على الأقل حتى وصولنا لمستوطنة آريس، وبعدها ستبدأ المرحلة الثانية من الرحلة.."

تساءل نوح "وما هي وجهتنا بعد آريس؟.."

أجاب طارق "ستعرفان ذلك بعد أن تقلع السفينة من هذا الميناء.."

تساءل عابد مقطباً "ولم السرية؟.. ألا يحق لنا أن نعرف وجهة الرحلة الآن؟"

ابتسم طارق ببرود مجيباً "بما أنك تستلم أجراً من الآنسة، لا يحق لك سؤالها عن أي أمر يخص الرحلة.."

تبادل عابد ونوح نظرات متوترة، ثم قال عابد "أأنت متأكد أنكم لا تنوون تهريب بضائع محظورة أو كنوز على هذه السفينة؟.. أسلوبكم لا يوحي بالثقة بتاتاً.. ثم هناك حديث الفتاة عن نقل جثمانها....."

قال طارق "لا أظن أن هذه هي المرة الأولى التي يطلب منكما فيها السرية في عمل ما.. هذا معتاد دائماً ولا يجب أن يثير أي شكوك في نفسيكما.. وسنبلغكما بكافة التفاصيل بعد بدء الرحلة بالفعل.."

قال عابد بحنق "لكن هناك أمر مريب بالفعل.. ما معنى حديثها عن دفن جثمانها؟.. كيف لها أن تعرف بموعد موتها؟.. ولماذا يجب أن يحاط دفن جثتها بهذه السرية والتعقيد؟.. مقابر المستوطنة ترحب بجميع الموتى دون شك.."

قطب طارق معلقاً "لا داعي لهذه السخرية.. لن أجيب على أكثر مما أفصحت هي عنه بالفعل.. عليك أن تفعل ما يطلب منك بصمت.."

فقال عابد عاقداً حاجبيه "لا يمكن لفتاة أن تتحدث عن موتها وهي تحمل ابتسامة عريضة على وجهها.. الأمر مريب بالفعل.."

علق طارق "لو عرفتَ الآنسة حقاً لأدركت أن هذا ليس بغريب عليها.."

تساءل عابد بفضول "ومن هي هذه الفتاة؟"

ابتسم طارق مجيباً "لن أجيب هذا السؤال بالطبع.. يكفيك أن تنفذ ما يطلب منك إن كنت تريد الحصول على الأجر الذي وعدتك به الآنسة بعد انتهاء الرحلة.."

قال عابد بسخط "لكن آنستك تلك لم تعدني بشيء.. لقد هربت دون أن تبلغني بما سأحصل عليه بعد هذه الرحلة الغريبة"

فاعتدل طارق قائلاً "العمال على السفن يتقاضون عادة مائة عملة نقدية.. الآنسة ستعرض عليك ألف عملة نظير تنفيذ ما يطلب منك على هذه الرحلة"

التمعت عينا عابد بلهفة وقال "ألف؟.. أنت لا تمزح، أليس كذلك؟"

ابتسم طارق بشيء من الهزء مجيباً "طبعاً.. نحن لا نلهو هنا.. شرطنا الوحيد ألا تعارض ما يطلب منك وتنفذه حرفياً.. اتفقنا؟"

هبّ عابد ليصافح طارق رغماً عنه قائلاً بابتسامة متسعة "اتفقنا طبعاً.. وهل هناك جدال؟.."

جذب طارق يده من يد عابد بشيء من الامتعاض لم يغِب عن عين عابد، بينما قال نوح بتوتر "ولماذا شهر

من الآن بالتحديد؟"

قال طارق "أخبرتكم أنكم ستعرفون كل شيء بعد أن ننطلق بالسفينة بالفعل.. أما قبل ذلك فأطلب منكم التحليّ بالصبر.."

ثم لوّح بإصبعه مضيفاً "ولا زما السفينة قدر ما تستطيعان خلال هذه المدة.. قد نضطر للرحيل بسرعة في أي لحظة.. فلا تغادرا السفينة إلا للضرورة القصوى.."

قال عابد باستنكار "نلازم السفينة شهراً كاملاً؟"

أجاب طارق بلهجة قاطعة "هذا أمر لا جدال فيه.."

انتبه الثلاثة لصوت متقطع يصدر من هاتف طارق الموضوع جانباً، فنظر له طارق للحظة، ثم تناول من جيب قميصه بطاقة حمراء قائلاً "لقد وصلتني رسالة تدلّ أن تحويل ثمن السفينة هذه قد تم الآن.. وهذه البطاقة تحوي المبلغ كاملاً.."

ومد يده بالبطاقة لنوح الذي تناولها بشيء من اللهفة الواضحة وهو يغمغم بابتسامة "شكراً لك.. خدمة ممتازة فعلاً.."

فقال طارق "لا تنسَ أنك ستتقاضى أجراً عن الرحلة التي ستقوم بها بعد شهر كقائد للسفينة، وستنال أجرك بعد عودتنا من هذه الرحلة.."

نظر له نوح بدهشة وهو يقول "حقاً؟.. إن الآنسة كريمة جداً.."

قال طارق وهو يقف "بل هو حقٌ لك.. لا تنسيا.. بعد شهر من اليوم، سيردكما اتصالٌ مني لنبدأ الرحلة، فلتكن السفينة على أهبة الاستعداد.."

ظل عابد يراقب ما يجري بصمت ولهفة، ولما رأى طارق يبتعد مغادراً اعترض طريقه قائلاً بحنق "وماذا عني؟"

تساءل طارق بتعجب "ماذا عنك؟"

قال عابد محتجاً "لم أستلم راتبي عن ذلك العمل الذي تخليت عنه بسببك، ولا أملك أي مال لتأجير غرفة بشكل مؤقت هذا الشهر.. ما الذي سأفعله حتى يحين موعد الرحلة؟"

توقف طارق وهو يتناول من جيبه بطاقة أخرى بلون فضي ناولها لعابد قائلاً "كدت أنسى أمرها.. هذه بطاقة مدفوعة مسبقاً.. بها ما يكفي من المال لطعامك هذا الشهر.. أما المسكن، فيمكنك استخدام هذه السفينة حتى موعد الرحلة.."

قال نوح باستنكار "لا يمكنني السماح له بالمبيت في السفينة والعبث بها.. هذا غير مقبول.."

قال طارق بهدوء "هذه السفينة لم تعد ملكاً لك.. هل نسيت بهذه السرعة؟"

فابتسم عابد ابتسامة متسعة وهو يقول "إذن يمكنني البقاء في أي غرفة فيها.. سأختار غرفة القائد بالتأكيد، فهي الأكبر والأكثر رفاهية هنا.."

صاح نوح بعصبية "مستحيل.. هذه غرفتي، ولازلت قائداً للسفينة.."

فقال طارق "كفّ عن افتعال المشاكل يا عابد.. وإلا لن أعترض على طرده لك من السفينة.."

وغادر وهو يضيف "كونا على استعداد حتى ذلك الوقت.. وتذكرا، لازما السفينة بانتظار أوامري.."

صمت نوح وهو ينظر لعابد بتوتر بعد رحيل طارق، فقال عابد بابتسامة "لا تقلق يا أبتاه.. لن أثير لك أي مشاكل في هذه الفترة حتى موعد رحيلنا.."

قال نوح بغضب "نادني بالقائد.."

اتسعت ابتسامة عابد وهو يغادر قائلاً "كما تريد يا أبتاه.. سأحضر ما أملكه وأعود بعد قليل.."

وغادر تاركاً نوح يجلس في جانب غرفة القيادة ويتأمل المكان حوله بصمت تام.. ثم زفر وهو يقول بقلق شديد "كان عليّ أن أرفض عملاً كهذا.. كيف طاوعت هذه الفتاة الغريبة في طلبها الأغرب هذا؟.."

****

في اليوم التالي، خرج عابد يتمطّى من غرفته باسترخاء بعد ليلة قضاها في نوم طويل دون مقاطعة بخلاف ما يجري له عادة.. كان هذا الاسترخاء المفاجئ دون أن يحمل همّ أي عمل يقوم به قد بدأ يروق له.. لذلك بدا رائق المزاج وهو يغادر غرفته باحثاً عن نوح، فوجده في غرفة القيادة يقوم ببعض الاتصالات بهاتفه

الخاص.. عندها قال له عابد مقاطعاً حديثه "سأذهب لتناول الفطور.. أتمنى ألا أعود فأجد بوابة السفينة مغلقة وأغراضي ملقاة خارجاً.."

قال نوح دون أن يعبأ بمزاحه "منذ الغد، سنبدأ بإعداد السفينة لرحلتنا القادمة.. أتمنى أن تكون على أهبة الاستعداد لذلك.."

غمغم عابد وهو يغادر "ألست متعجلاً كثيراً؟.. لازلنا نملك تسعاً وعشرين يوماً قبل بدء الرحلة.."

لم يعلق نوح وهو يعود لمكالمته، فغادر عابد دون اهتمام وهو يشعر بانشراح كبير.. أمامه شهر كامل من الراحة والدّعة، دون القلق على ما يملكه من أموال وإن كان سيحصل على عمل جديد أم لا.. شهر كامل يمكنه أن يحصل فيه من النوم على ما لم يحضَ به في حياته كلها منذ غادر منزل أبيه.. أو ربما قبل ذلك بكثير.. كيف للحياة أن تكون أفضل بالنسبة لمن هم مثله؟..

توجه لمطعم بائس الحال في جانب الميناء يقدم وجبات متنوعة وسريعة للعاملين في الميناء وعلى ظهر السفن.. ورغم بؤس حاله وصغر حجمه ووضاعة المنطقة المحيطة به، فقد اكتض بعدد من العاملين ممن جاؤوا لتناول وجبة سريعة قبل رحيل سفينة أو بعد وصول أخرى.. وانشغل بعضهم بتلقي آخر أخبار المستوطنة وما جرى فيها والقوانين الجديدة التي تخصّهم وتخص أعمالهم والتذمر من حياتهم التي لا تزداد إلا بؤساً وصعوبة..

جلس عابد على طاولة شغلها أحد الرجال بعد أن عجز عن العثور على طاولة خالية، وابتسم قائلاً للرجل "مرحباً يا رئيس.. كيف حالك بعد رحيلي عنكم؟"

كاد الرجل يغصّ بما في حلقه من طعام لرؤية عابد وهو يسعل بشدة بينما انشغل عابد بطلب وجبة تكفي لثلاث أشخاص على الأقل.. وقبل أن ينهي عابد طلبه، وجد الرجل الذي كان رئيسه بالأمس يصيح بغضب "وتجرؤ على أن تُريني وجهك بعد الصفاقة التي أظهرتها البارحة؟.."

قال عابد مبتسماً "وماذا في ذلك؟.. حتى لو انتهى ما بيننا من عمل، فعلى الأقل سنبقى أصحاباً، أليس كذلك؟"

قال الرجل بغيظ "أصحاب؟.. لا أصاحب شخصاً مأفوناً مثلك.. ألا تدرك ما قاسيته البارحة وأنا أبحث

عن بديل لك قبل أن تقلع السفينة بالفعل؟.. لقد اضطررت للاعتذار لقائد السفينة مراراً على التأخير الذي حصل بعد تخليك عن عملك.."

مط عابد شفتيه معلقاً "طبعاً ستفعل.. أنا أقوم بعمل أربع أشخاص في وقت وجيز، بينما لا أحصل إلا كأجر أي عامل آخر رغم كل ما أبذله.."

قطب الرجل معلقاً "وهل ما تحصل عليه الآن أفضل؟"

ابتسم عابد ابتسامة متسعة قائلاً "طبعاً.. سأتقاضى أضعاف ما أحصل عليه عادة من رحلة واحدة فقط.. هذا عدا عن أنهم منحوني ما يغطي نفقاتي حتى قيام هذه الرحلة.. كنت أدرك أن هذا الحظ سيغمرني في يوم من الأيام ولابد، وأرجو أن يكون فاتحة خير لحياة أقل شقاء مما عشت فيه.."

لم تزل تقطيبة الرجل وهو يرى سعادة عابد الواضحة، وشرب القليل من الشاي من كوبه القريب قبل أن يقول "لست أدري ما ساق أولئك إليك أنت بالذات، لكن عليك أن تكون حذراً.."

تساءل عابد "ماذا تعني؟.. ومن هم أولئك؟"

رفع الرجل حاجبيه قائلاً "ألم تدرك هويتهم حقاً؟.. ظننت هذا واضحاً.."

قال عابد مقطباً "ماذا تعني؟.. أفصح يا رجل.."

انحنى الرجل نحوه قائلاً بصوت خفيض "ألم تلحظ الشعار المطرز على بزة ذلك الشاب الأشقر؟.. إنه أشهر شعار في هذه المستوطنة وفي عدد من المستوطنات الفضائية، وهو خاص بمؤسسة كبيرة تحتل جانباً ضخماً من مشاريع ومؤسسات المستوطنات، وصاحبها يعتبر من أكثر الناس غنىً في العالم الجديد.."

غمغم عابد مفكراً "حقاً؟.. ربما كان عليّ أن أطلب مبلغاً أكبر نظير خدماتي.."

قطب الرجل قائلاً بشيء من الحدة " ألم تدرك هويته بعد؟.. إنه دان مايدن، صاحب مؤسسة سولاريا والذي يلقب نفسه بالدوق رغم أنه كما يقال من أصل وضيع.. لكنه بفضل مهارته، وبفضل بعض الاحتيال، قد تمكن من الوصول لمكانته العالية هذه في فترة وجيزة نسبياً.."

ثم ازداد الرجل قرباً من عابد وازداد صوته خفوتاً وهو يقول "كما هو معلوم للجميع، فإن مؤسساته هي مافيا العالم الجديد، وصاحبها قد انغمس في أكثر الأعمال قذراة واحتيالاً قبل أن يصل لمكانته هذه.. لكنه

يغطي على هذا الجانب المظلم بكثير من الأعمال التي ظاهرها العمل لمصلحة المستوطنات وفائدة سكانها، وباطنها يصبّ في مصلحته ومصلحة تلك المافيا التي هي أقرب لأخطبوط ذو مائة ذراع.."

تساءل عابد رغم دهشته الواضحة "وما الذي تفترضه مني الآن؟"

قطب الرجل قائلاً "ليس من مصلحتك التعامل معهم.. أنت الخاسر في كل الأحوال، ونجاتك من قبضتهم مستحيلة.."

غمغم عابد وهو يرى الأطباق تصفّ أمامه برائحة شهية "قل ما بدا لك.. لن تستطيع أن تحرمني من هذا العمل مهما فعلت.. أنت تحسدني على مثل هذا العمل ولابد، ولو كنت مكاني لما ترددت لحظة واحدة في قبوله.."

قال الرجل وهو ينهض "لا تقل إني لم أحذرك مما يجري.."

استوقفه عابد متسائلاً "وماذا عن الفتاة؟.. هناك فتاة جاءت مع ذلك الشاب وكان يتعامل معها باحترام شديد.. فمن تكون؟"

أجاب الرجل بدهشة "فتاة؟ المدعو دان لا يملك أبناء ولا زوجة.. ربما كانت إحدى خليلاته الكثيرات، أو ربما كانت سكرتيرة له.."

غمغم عابد "لم تكن تبدو كمجرد سكرتيرة.."

فقال الرجل "خذ بنصيحتي وابتعد عن هذه المؤسسة.. ستكون أفضل حالاً بدون التعامل معهم ولابد.."

وغادر تاركاً عابد ينغمس في طعامه بشهية مفتوحة.. ولما غادر الرجل رمقه عابد مفكراً لبعض الوقت، ثم غمغم "هذا يستدعي المزيد من التحري.."

وعاد لطعامه من جديد دون أن تخفف هذه المعلومات من شهيته واستمتاعه بما يأكله..

****

في موقع آخر بعيد عن مستوطنة فينون، وفي مستوطنة آريس بالتحديد، وقف رجل في جانب ميناء

المستوطنة يصرخ بحدة.. رغم أن ذلك الميناء كان أكبر وأكثر حداثة من ميناء مستوطنة فينون، إلا أن ذلك الجزء منه كان قديماً بقِدَم الرحلات الأولى التي قامت بها البشرية في عمق الفضاء.. كان بائس الحال مقارنة بباقي أجزائه الأكثر حداثة، وقد تم تخصيصه لسفن نقل البضائع الأقل أهمية والتي تعمل بشكل فردي ولا تنتمي لمؤسسة نقل كبيرة.. وفي ذلك الموقع، وقف ذلك الرجل يلقي أوامره بشيء من العصبية وهو يصيح "متى تفرغون من عملكم يا حمقى؟.. السفينة ستقلع خلال ساعات معدودة ولم تتموا نقل نصف الصناديق المقررة حتى الآن.. ما الذي تنتظرون حدوثه لتعملوا بهمّة أكثر؟"

ظل يراقب العمّال لديه ويدقق في بضع أوراق يملكها، عندما لمح ظلاً يتسلل في موقع قريب خلف بضع صناديق تكدست جانباً.. قطب الرجل وهو يستدير متتبعاً المتسلل ويدمدم بحنق، ودار خلف الصناديق بهدوء ليصل لسمعه صوت مواء خافت تبعتها ضحكة صغيرة.. وخلف الصناديق، رأى فتىً صغيراً لا يكاد يتجاوز الثالثة عشر من عمره يجثو قرب قطة متشردة بلون رصاصي، وقد وضع أمامها قطعة صغيرة من السمك المعلب وراقبها وهي تتناول طعامها بابتسامة.. لم يطِق الرجل صبراً فجذب الفتى من عنق ملابسه مما أفزع الفتى وهو يشهق بعينين متسعتين، بينما ذعرت القطة وهي تتخلى عن الطعام وتنزوي في فرجة بين الصناديق مصدرة مواءً مزعجاً.. قال الرجل بحدة وهو يهزّ الفتى "أهذا وقت العناية بتلك المتشردة؟.. ألم أحذرك من ترك أعمالك والعبث في مثل هذه الأوقات؟"

حاول الفتى التملص من قبضته وهو يقول بسرعة "لكنني قد أنهيت جميع ما عليّ بالفعل يا سيدي.. انتهيت من ترتيب الغرف وتنظيف دورات المياه وغرفة القيادة أيضاً.. فعلت كل ما طلبته مني قبل أن أغادر السفينة.."

هزه الرجل بشدة أكبر وهو يقول بحنق "إذن كان عليك أن تساعد البقية في تحميل الصناديق للسفينة قبل الإقلاع.."

اعترض الفتى قائلاً "لكن هذا ليس عملي.."

صاح به الرجل "وهل عملك هو الاعتراض على كل ما أطلبه منك؟.. نفذ ما قلته وإلا طردتك من هذا العمل حالاً.."

ودفعه جانباً، فانطلق الفتى على الفور عائداً للسفينة، بينما نظر الرجل للقطة التي بقيت مختبئة تطلق مواءها المزعج.. فركل الرجل الصندوق وهو يدمدم "اغربي عن وجهي.."

فزعت القطة وهي تولي الدبر مبتعدة عن الموقع، بينما عاد الرجل لعمله وهو يصيح برجاله من جديد لينهوا أعمالهم في وقت أسرع.. وظل يراقب الفتى الذي بدأ بحمل بعض الصناديق الصغيرة التي تناسب حجمه، وسار بها بخطوات متعثرة عائداً للسفينة.. عندها صاح به الرجل "لو أسقطت أحدها فستنال عقاباً على ذلك.."

لم يعلق الفتى بكلمة حتى وصل إلى قلب السفينة، عندها وجد من يحمل الصناديق عنه بعد أن غاب عن عيني رئيسه.. نظر الفتى لرجل تجاوز العقد الخامس من عمره بشعر خالطه البياض ويدين خشنتين ناحلتين، والذي حمل الصناديق عنه قائلاً "هل أجبرك على معاونة الرجال في أعمالهم؟"

قال الفتى بتوتر "دعني أحملها.. لو رآني الرئيس فسوف....."

ابتسم الرجل قائلاً "لا تقلق.. لن يفعل شيئاً.. سأعينك على حملها فاذهب لإحضار المزيد منها.."

تردد الفتى للحظات وهو يرى الرجل يحمل الصناديق مبتعداً، عندها استدار وغادر السفينة لحمل المزيد منها مع البقية.. وبعد أن أنهى العمال نقل جميع الصناديق وتهيئة السفينة، جلس الفتى في جانب الموقع وجواره الرجل الذي عاونه وهما يراقبان استعدادات السفينة الأخيرة للرحيل.. ثم قال الرجل "ألن تنضمّ للسفينة في رحلتها هذه؟"

أجاب الفتى "لا.. ليس هذه المرة.."

لم يعلق الرجل بكلمة، فقال الفتى "شكراً لك يا عمّاه على معاونتي.."

ابتسم الرجل قائلاً "لا داعي لشكري.. لست أدري ما الظروف التي أجبرتك على القيام بهذه الأعمال التي لا تناسب سنك، لكن كان حرياً بذلك الرئيس أن يشفق عليك ويعفيك مما لا تطيقه.."

غمغم الفتى "لم يكن الأمر سيئاً.."

سمعا الرئيس ينادي على الرجال للاستعداد لرحيل السفينة، فربت الرجل على كتف الفتى قائلاً "حظاً موفقاً.. أتمنى أن تتحسن أحوالك وتتمكن من الاستغناء عن مثل هذه الأعمال.."

ابتسم الفتى دون تعليق، فغادر الرجل ليصعد على ظهر السفينة قبل رحيلها متوجهة لمستوطنة ساتور في الجانب البعيد من المجموعة، بينما تقدم الفتى من رئيسه قائلاً "سيدي.. أنهيت كل ما طلبته مني.. والآن أريد أجري.."

نظر له الرئيس رافعاً حاجباً وهو يقول "ما كل هذه الثقة؟"

لم يعلق الفتى مقطباً، فرأى الرئيس يستخرج محفظته ويتناول بضع عملات ورقية فيدفعها في يد الفتى قائلاً "كن شاكراً لأنني لم أخصم أغلب هذا المبلغ، فأنت لا تستحقه.."

أحصى الفتى الأموال بسرعة، ثم نظر للرئيس مقطباً وقال "المبلغ ناقص.. لماذا؟"

عقد الرئيس حاجبيه قائلاً بحدة "ألم تكن تلهو مع القطة قبل قليل؟.. هذا أكثر مما تستحقه.."

قال الفتى محتداً "لكنني أنهيت كل أعمالي قبل ذلك.. كيف تفعل بي هذا؟!.. أعطني بقية أجري.."

سمع الاثنان محركات السفينة تبدأ عملها بهدير واضح إعلاناً لقرب رحيلها، فقال الرئيس وهو يستدير "هذا كل ما تستحقه.. فاغرب عن وجهي.."

لكن الفتى تشبث به صائحاً "سأشكوك للشرطة إن لم تعطني ما بقي لي.."

دفعه الرئيس بقوة ليسقط أرضاً، بينما قال بحنق "هذا ما كان ينقصني.. اذهب واشكُني لمن تحب.. لن يغيرّ هذا من الواقع شيئاً.."

وغادر بخطوات سريعة نحو السفينة قبل أن تغلق أبوابها، بينما نهض الفتى واقفاً وهو ينفض ملابسه مدمدماً "أيها المأفون.."

نظر للقليل في يده من العملات الورقية، ثم زفر بيأس وهو يستدير مغادراً الموقع يجرّ خطواته بشيء من الإحباط.. سار عبر طرقات المدينة في طريق يحفظه جيداً، وهو لا يكاد يرفع بصره عن حذائيه الباليين بغمّ واضح.. حتى وصل لمنزل صغير متواضع الحال مكون من طابق واحد بالإضافة لغرفة صغيرة في العليّة اتخذها سكناً له منذ زمن بعيد.. زفر الفتى من جديد وهو يتأمل المنزل، عندما ظهرت من بابه امرأة كبيرة في العمر قد ابيض شعر رأسها وهي تقول بابتسامة "توقيتك رائع يا فتى.. هناك....."

قاطعها الفتى وهو يمد يده بالعملات الورقية نحوها "آسف يا سيدتي.. من المفترض أن أعطيك ما بقي

من أجر الغرفة التي أسكنها، لكن هذا كل ما حصلت عليه في الآونة الأخيرة.. وهو أقل من المطلوب بكثير.."

ربتت المرأة على رأسه قائلة بابتسامة "لو أعطيتني هذا فلن يبقَ لك مال لطعامك في الأيام القادمة، أليس كذلك؟.. لا بأس، قد توفّق في أعمال أفضل في المرة القادمة.."

خفض الفتى رأسه قائلاً بضيق "وكيف لأمنية مثل هذه أن تتحقق لشخص مثلي؟"

هتفت المرأة فجأة "رباه.. لقد أنسيتني ما جئت لأخبرك به.."

نظر لها الفتى بتعجب وهي تقول بعجلة "هناك من يتصل طالباً التحدث إليك.. لقد اتصل عدة مرات طوال الساعات الماضية بحثاً عنك.. ولقد كرر الاتصال الآن وهو ينتظرك على الهاتف.."

رفع الفتى حاجبيه بدهشة وهو يقول "من يكون؟.. أنا لا أعرف أحداً غيرك في المستوطنة كلها.."

قالت المرأة بابتسامة "ربما لم يكن الاتصال من المستوطنة.. إنها فتاة ذات صوت جميل.."

تعاظمت دهشة الفتى وهو يدلف المنزل مسرعاً ويتقدم من الهاتف الموضوع وسط المنزل.. من يمكن أن يطلبه هو وقد انقطعت أغلب صلاته بالبشر منذ أمد بعيد؟..

من يمكن أن يسعى إليه بعد أن أدار له العالم ظهره في وقت مبكر من حياته؟..

****

بعد بعض الوقت، كان عابد يعود للسفينة ولغرفة القيادة فيها قائلاً لنوح "ما الأخبار يا أبتاه؟.. ألم يتصل بك ذلك المدعو طارق؟"

قال نوح مقطباً "متى ستكفّ عن مناداتي بهذا اللقب؟.."

عاد عابد يسأل بإلحاح "ألم ترد أي أخبار من ذلك المتأنق؟"

قال نوح "لا.. لكن الرحلة المتوقعة بعد شهر من الآن، لذلك لا أظنه سيحاول الاتصال بنا قبل موعدها.."

جلس عابد جانباً وهو يقول "لكن قل لي، هل كنت تعلم أن تلك الفتاة ومن معها ينتمون لمؤسسة سولاريا؟"

انتفض نوح شيئاً ما وهو ينظر لعابد مصعوقاً للحظات، فغمغم عابد "يبدو أنك حقاً لم تنتبه لذلك البارحة.."

تساءل نوح بقلق شديد "من قال إنهم من تلك المؤسسة؟.. هل تعلم شيئاً لا أعلمه؟"

أجاب عابد "لا، لكن أخبرني شخص رأى طارق أنه يحمل على بزته شعاراً مطرزاً لتلك المؤسسة.. فهل هي كما سمعت عنها حقاً؟.."

ظل نوح متسع العينين يفكر للحظات، ثم قال بقلق شديد "مستحيل.. لو كانوا حقاً من تلك المؤسسة فليس من مصلحتنا التعاون معهم.."

وتناول هاتفه القريب قائلاً بتوتر " سألغي الاتفاق.. سأعيد لهم أموالهم وألغي اتفاقي معهم.. لا زلت أملك تلك الفرصة مادمت لم أنغمس معهم بعد.."

هبّ عابد وأمسك الهاتف مانعاً نوح من الاتصال وهو يقول عاقداً حاجبيه "لا تفعل ذلك.."

حاول نوح جذب الهاتف وهو يقول بحدة "اتركني.. لا أريد توريط نفسي مع أولئك الأشخاص.. لابد أنهم ينتوون أمراً، وحتماً لا أريد أن أكون طرفاً فيه.."

قال عابد بحنق " وهذا سيرمي بي في الشارع بكل تأكيد.. أهذا ما سيسعدك؟.. لا أريد أن أخسر عملي بسبب خوفك غير المبرر هذا.. يمكننا أن نقوم بما يطلب منا وبعدها ستنتهي علاقتنا بهذه المؤسسة ومن فيها.. الأمر ليس صعباً.."

قال نوح باعتراض "مستحيل.. خطأ واحد وسيضعوننا في قائمتهم السوداء.. ألا تعلم من هم حقاً؟.. نحن مقضيّ علينا في كل الأحوال.."

جذب عابد الهاتف من يد نوح ليمنعه من الاتصال بطارق وهو يقول مقطباً "ما الأمر؟.. لمَ الكل خائفٌ من تلك المؤسسة؟.. ما الذي يمكنهم فعله حقاً؟"

نظر له نوح باستنكار، ثم قال " أنت لا تعرف شيئاً حقاً..!.. مؤسسة سولاريا مافيا حقيقية كما يعرف

الجميع عنها، وفوق ذلك لهم صلات كبيرة بمجلس الأمن الفضائي، وهي تحظى بحمايته من أي خطرٍ يتهددها، رغم أن أحداً لا يجرؤ على تحدي تلك المؤسسة.. إنها فوق القانون، ومع انتشار المستوطنات في عدد من الكواكب والأقمار في المجموعات النجمية القريبة، فإن سطوة تلك المؤسسة ازدادت بينما تأثير مجلس الأمن ضعيف أصلاً لبعد المسافات واختلاف القوانين الخاصة بكل مستوطنة.. كونك في قائمتهم السوداء، يعني أنك مطلوب منهم ومن مجلس الأمن على حد سواء.."

استوعب عابد ما قيل بسرعة، وإن لم يُثر ذلك في نفسه أي قلق، وهو يتساءل باهتمام "وماذا عن الفتاة؟.. من هي حقاً؟"

هز نوح كتفيه بحيرة قائلاً "لست أدري حقاً.. لم أسمع عن هويتها وعن وجودها في المؤسسة.. ويبدو من معاملة الآخرين لها باحترام أنها شخصية ذات تأثير هام فيها.."

غمغم عابد مفكراً "لابد أن أعرف من هي حقاً.. لا أحب التعامل مع من يستغفلونني.. لو علمت أنهم ينتمون لمؤسسة بهذا الحجم لطلبت أجراً مضاعفاً.."

نظر له نوح باستنكار معلقاً "أهذا ما يهمك؟.. لو عبثت معهم ولو من باب المزاح فلن يترددوا في قطع عنقك.. إنهم أشخاص لا يتهاونون مع الآخرين بتاتاً.."

نظر له عابد متسائلاً "هل ستستمرّ في التعامل معهم أم أنك ستنسحب؟"

أدار نوح كفيه مجيباً "لست أدري، بودي أن أنسحب في التو واللحظة، لكن أخشى من غضبهم.. لقد استلمت قيمة السفينة بالفعل، والفتاة كانت مصرّة على شراء هذه السفينة بالذات.."

فقال عابد على الفور "إذن لا تفعل.. لا توقعنا في مشاكل نحن في غنىً عنها.. لنتمّ هذه المهمة وننساها بعد أن نتقاضى أجورنا عليها.. اتفقنا؟"

غمغم نوح "أنت قلق فقط خوفاً على أجرك عن هذه المهمة.."

ابتسم عابد معلقاً "وما المانع؟"

وغادر غرفة القيادة خارجاً من السفينة وهو يتأمل هاتفه بصمت.. ثم أجرى اتصالاً سريعاً بأحد الأرقام، حتى إذا سمع استجابة من الطرف الآخر، قال بابتسامة "جوزيف.. كيف حالك يا رجل؟.. لم أرك منذ

مدة طويلة.."

وبعد لحظة صمت قال بجدية " استمع إليّ.. أريد منك بعض المعلومات عن مؤسسة سولاريا وعن صاحبها دان.. وهناك أيضاً فتاة في العشرين من عمرها لديها حارس شخصي وبعض التابعين، منهم شاب أشقر الشعر يدعى طارق.. إنها ذات شعر أسود وعينين زرقاوين وبطول مقبول، وهي جميلة بشكل يلفت الأنظار.. لا أعرف اسم الفتاة لكن يبدو أنها ذات مكانة في المؤسسة.. أريد معرفة من تكون وما صلتها بالمؤسسة.. أريد كل ما تعرفه صغيراً أو كبيراً، فهمت؟.."

وبعد حوار قصير أنهى مكالمته ووضع الهاتف في جيبه مغمغماً لنفسه "لا يضرّني أن أحتاط لكل شيء قبل أن نبدأ.. أليس كذلك؟"

وانطلق لجانب آخر من الميناء للتقصي بنفسه عن بعض الأخبار.. فكل ما جرى له في اليوم السابق يدفعه لمعرفة كل ما يمكنه معرفته عن المؤسسة وعن تلك الفتاة التي لا يعرف اسمها حتى.. فسعيهم خلف سفينة نوح بالذات قد يكون له تفسير، مهما كان جامحاً، لكن لماذا طلبته هو من بين الآخرين؟.. ما الذي يميزه عن غيره؟.. وكيف عرفت اسمه؟.. هذا ما يزيد حيرته بالتأكيد..

في تلك الأثناء، وفي الطرف الآخر من مجموعة ميرا حيث تقع مستوطنة آريس، وقف الفتى سارحاً بعد أن أنهى المكالمة الهاتفية التي لم تدم إلا دقائق معدودة، وظل يقضم أظفاره بتوتر شديد وهو غارق في أفكاره.. فاقتربت منه المرأة قائلة بقلق "ما الذي جرى يا بني؟ من كانت تلك الفتاة؟"

التفت إليها الفتى كمن يفيق من غيبوبة، ثم قال غاصباً ابتسامة "إنها.... إنها مجرد شخص يعرف شقيقي، وقد اتصلت للسؤال عنه.."

قالت المرأة بتعجب "شقيقك؟.. ذلك الذي قام بتلك الرحلة المجنونة؟"

غمغم الفتى وهو يستدير "تلك رحلة مجنونة ولاشك.."

وغادر راكضاً نحو الغرفة العلوية التي اتخذها مأوىً له والمرأة تصيح خلفه "إلى أين أنت ذاهب؟.. ألا تريد تناول بعض الطعام؟.."

لم تجد منه رداً وهو يغيب في غرفته مغلقاً الباب خلفه، فتنهدت المرأة وهي تقول "يا للفتى المسكين.. حتى

متى عليه أن يكافح وحيداً في هذا العالم القاسي؟.. والأدهى أن شقيقه وهو عائلته الوحيدة قد تخلى عنه بكل بساطة لأجل أهوائه الغريبة.. يا لها من حياة قاسية.."

أما الفتى، فقد رمى بنفسه على كرسي خشبي قريب من نافذة دائرية تطل على ذلك الحي وهو يعيد الحوار القصير الذي دار بينه وبين الفتاة الغريبة مراراً وتكراراً.. من هي تلك الفتاة التي حدثته بتلك الثقة؟.. كيف عرفته وعرفت ما يسعى إليه منذ أمد بعيد؟.. بل كيف استدلّت على رقم هاتف المنزل الذي يسكنه منذ وقت قصير؟.. لا يمكنه الاتصال بها لطرح أسئلته العديدة عليها فهو لا يعرف رقم هاتفها، ولا يملك إلا الانتظار كما وعدته.. لكن هل يمكنه الوثوق بكلمات شخص غريب دون أي دليل؟.. ولكن رغم كل شكوكه، إلا أنه لا يملك إلا الثقة بها، إن كان ذلك سيعني اقترابه من تحقيق ما يرغب به..

****

الفصل الثاني

بعد عدة أيام، تلقى عابد اتصالاً بعد وقت قصير من استيقاظه، ولدى رؤيته لاسم المتصل استجاب على الفور قائلاً "كيف تتركني أنتظر كل هذه المدة يا جوزيف؟.. لقد خيّبت ظني بك.."

أتاه صوت جوزيف من الجانب الآخر يقول "لكن الانتظار قد آتى ثماره بالفعل.. فما أملكه سيشبع فضولك بالتأكيد.."

استمع له عابد باهتمام، فأوجز له جوزيف ما يعرفه عن المؤسسة وهو لم يكن يتجاوز ما سمعه عابد من رئيسه السابق ومن نوح بالفعل.. وفي النهاية قال جوزيف بصوت مبتسم "ما رأيك بكل هذا؟"

قال عابد بشيء من الحنق "أيها الأحمق، أنت لم تجلب لي إلا ما أعرفه بالفعل.. حسناً، ماذا عن الفتاة؟.. ألم تعلم أي شيء عنها؟"

قال جوزيف "في الواقع، كان الأمر أكثر صعوبة معها.. لقد بحثت طويلاً وبإلحاح شديد بحثاً عن أي خيط يدلني على تلك الفتاة.. وجدت عدداً من النساء اللواتي احتللن مناصب عليا في مجموعة شركات تابعة للمؤسسة.. لكن أياً منهن لم تكن بذات المواصفات التي أعطيتني إياها.. أغلبهن يتجاوزن الثلاثين من أعمارهن، ومواصفاتهن الشكلية لا تطابق ما ذكرته لي.."

ثم أضاف "في الواقع.. بدأت أيأس من الموضوع.. وظننت عندها أن الصنف الذي تتعاطاه لا بد وأن يكون قد أثر على عقلك.."

قال عابد بحنق "لا أتعاطى أي أصناف مما يدور في ذهنك، فأنا لست أحمقاً.."

قال جوزيف بسرعة "كان هذا ظني حتى عثرت عليها بالفعل.."

استمع عابد باهتمام كبير وجوزيف يكمل قائلاً "بعد بحث طويل، عثرت على شخص كان يعمل في منزل دان مايدن الشخصي.. وعندما ذكرت له مواصفات الفتاة وسألته إن كانت إحدى خليلات دان العديدات، انتفض الرجل بشكل ظاهر وقال (الساحرة؟..).."

اتسعت عينا عابد بدهشة قبل أن يقول بشيء من الاستنكار "ساحرة؟.. أي هذيان هذا؟"

أجاب جوزيف "أجل.. هذا ما قاله بالحرف.. وإزاء استنكاري أوضح لي أن ذلك هو اللقب الذي اشتهرت به تلك الفتاة، واسمها الحقيقي هو (رُبى).. إنها تعمل لدى دان مايدن، لكن ليس بشكل رسمي.. مجال عملها معه غامض نوعاً ما، لكن كل ما يعرفه الرجل أنها تصاحب دان في كل رحلاته واجتماعاته، وإن كانت تبقى في الظل دائماً.. أعطاها دان مميزات كثيرة، لكنها لم تكن تغادر موقعها أو تتحرك إلا بأمره.. وفي الآن ذاته، فإن دان ينفذ جميع ما توصي به مهما كان عسيراً.."

ظل عابد يفكر بالموضوع بدهشة، بينما أضاف جوزيف "قليلون هم من يعرفون هوية عملها مع دان وأهميتها بالنسبة له.. وطارق الذي ذكرته لي هو من أولئك الأشخاص.. إنه مساعدها الشخصي، وهو كظلها لا يكاد يفارقها.."

غمغم عابد "وذلك اللقب؟"

أجاب جوزيف "لم يوضح لي الرجل سبب هذا اللقب بالتحديد، لكنه بدا قلقاً من الدخول في أي حديث عن الفتاة بشكل غريب.. لكن بعد بضع كؤوس فإن عقدة لسانه قد حلّت واستجاب لي بشكل كبير.. لذلك أنت مدين لي بثمن ما دفعته لقاء هذه المعلومات.."

زفر عابد وهو غارق في أفكاره، فتساءل جوزيف بفضول "هل ستخبرني بسبب هذا الفضول الذي انتابك فجأة تجاه المؤسسة؟.. وكيف عرفت الفتاة رغم أن الأغلبية يجهلون هويتها ويجهلون وجودها أصلاً؟"

قال عابد "إنها مشكلة، ويبدو أنني غرقت فيها حتى أذنيّ.. شكراً على هذه المعلومات يا جوزيف.. سأردّ هذا الجميل لك يوماً ولاشك.."

وأنهى المكالمة رغم احتجاج جوزيف الذي حاول معرفة الموضوع بالتفصيل.. لكن عابد تجاهل ذلك وهو يرمي الهاتف جانباً ويستلقي على سريره بصمت مفكراً في كل ما سمعه.. لا يزال الغموض يحيط بتلك الفتاة، ويحيط بظهورها فجأة في حياتهم.. لقد طلبت تلك السفينة بالذات، وطلبته هو من بين الآخرين.. فما السبب؟.. ما الذي تهدف إليه حقاً؟.. وكيف تدرك أنها هالكة لا محالة بعد شهر من الآن؟.. لو كان هناك من يسعى خلف عنقها، فمن الأسهل اللجوء لمجلس الأمن أو لحماية المؤسسة لها بدل الاستسلام..

فهل هي مريضة مرضاً لا شفاء منه؟.. تلك الأمراض قد انقرضت تقريباً بعد تقدم العلم بشكل بالغ منذ عقود.. فما هو سبب موتها الذي يجعلها تبتسم بتلك الطريقة؟.. أهي تنوي الانتحار؟..

فوجئ عابد وسط أفكاره بباب غرفته يفتح بقوة.. لم يكن من عادته إغلاق الغرفة بالمفتاح فلا يملك ما يحرص عليه، لكن العنف الذي صاحب فتح بابه قد أصابه بالدهشة وهو يعتدل متطلعاً لوجه طارق الذي وقف عند الباب مقطباً، ومن خلفه بدا الرجل الضخم الذي صاحب الفتاة أول مرة.. قال عابد بشيء من الحنق وهو يعتدل جالساً "لم كل هذا العنف؟.."

تقدم طارق في الغرفة بينما بقي الضخم عند بابها بتهديد واضح، فقال طارق وهو يجلس على كرسي جانبي في الغرفة "ما الذي تفعله هذه الأيام يا عابد؟.. يبدو أن أيامك حافلة بالفعل.."

قال عابد متعجباً "أيامي حافلة بساعات وساعات طويلة من الاسترخاء.. أهذا ما أقلقك وجاء بك إلى السفينة اليوم؟"

مال طارق قائلاً بتقطيبة "بل ما جاء بي هو تجسسك الواضح على المؤسسة وعلى الآنسة.. أتظن أن أمرك سيخفى علينا؟.."

قال عابد عاقداً ذراعيه "وما العيب في تقصيّ بعض الحقائق قليلاً؟.. أنتم من سعى إليّ، لكنكم ترفضون الإجابة على أي سؤال أطرحه.. فهل هذا عادل؟"

قال طارق بحدة "بل العدل أن تخشى على عنقك وتحافظ على حياتك التي قد تضيع لأجل معلومات لن تفيدك بشيء.."

قال عابد بتحدٍ "لماذا؟.. ما الذي يجعلني أفقد حياتي فقط لأنني حاولت معرفة هوية آنستك تلك؟"

نهض طارق قائلاً "سأكتفي اليوم بمحادثتك كصديق.. أبعد أنفك عن هذه الأمور.. تدخلك فيما لا يعنيك سيجذب الكثير من الأنظار التي لا نريدها أن تتحرك في هذه الأوقات.."

غمغم عابد بسخرية "لم أظنك تعتبرني صديقاً لك قط!.."

تجاهل طارق سخرية عابد وهو يتجه لباب الغرفة قائلاً "لقد حذرتك.. فلا تلُم إلا نفسك لو سارت الأمور أسوأ مما توقعت.."

تساءل عابد قبل أن يرحل طارق "من هي الفتاة حقاً؟.. إنها ذات مكانة عالية كما بدا من معاملتكما لها باحترام.. أهي تعمل في المؤسسة؟.."

قال طارق بجفاء "ألم أطلب منك الكف عن هذا الفضول؟.. الآنسة لا تعمل في المؤسسة.. ومهما حاولت البحث عنها هناك فلن تعثر على شيء.. هي بالنسبة للسيد دان أقرب للعائلة.."

ابتسم عابد بسخرية معلقاً "عائلة؟.. أتقصد أنها خليلته؟"

فوجئ بطارق يتقدم منه ويمسك قميصه بشدة قائلاً بغضب "هي ليست كذلك.. إياك أن تلوث سمعتها بفمك البذئ.."

هز عابد كتفيه قائلاً "لست أفعل.. هذا ما يدور حولها من أخبار.."

دفعه طارق بعيداً وهو يعتدل قائلاً بحزم "لا يهمني قول الآخرين.. الآنسة أنقى من أن تلوثها مثل هذه الاتهامات.. لكن لا أريدك أن تردد هذا أمامي بتاتاً.."

وغادر الغرفة وهو يعدّل بزته باهتمام، بينما غمغم عابد بهزء "يا إلهي.. ما هذه النظرة الرومانسية؟.. يبدو أن الشاب معجب بالآنسة الجميلة.."

وحك رأسه قائلاً "تباً.. لقد أشعل فضولي أكثر.. لكن ربما عليّ الصمت في الوقت الحالي.. وبعدها، لابد أن يتكشف كل ما يحاولون إخفاءه مهما طال الزمن.."

وعاد يستلقي في سريره باسترخاء رغم أن عقله يعيد عليه ما قاله طارق مراراً وتكراراً.. من العجيب أن يتحرك طارق ويصل لهذا المكان بنفسه لإسكات عابد ومنعه من التقصيّ عن أمر الفتاة.. وما معنى قلقه من اتجاه الأنظار إليهم وإلى ما يفعلونه؟.. ممن هو خائف؟.. لقد اشتعل فضول عابد بالفعل..

****

في جانب آخر من تلك المستوطنة، وبعد عدة طرقات على الباب وحصوله على الإذن بالدخول، دخل طارق أحد الأجنحة الفخمة في منزل دان مايدن الفخم المصمم ليبدو كقصر من القصور الفرنسية

القديمة.. وفور دخوله، استطاع أن يلمح رُبى التي جلست في مقعد مقابل للنافذة الواسعة في الغرفة سامحة للشمس بأن تغمرها بنورها بشكل كامل.. اقترب طارق ملاحظاً أن رُبى لم تفتح عينيها أو تنظر إليه، بينما قال هو فور اقترابه "أنا تحت أمرك يا آنسة.. متى تحبين أن نبدأ تنفيذ الجزء التالي من المهمة؟"

لم تجبه رُبى وهي تزفر بتعب واضح، فاستغل طارق تجاهلها لوجوده ليمعن النظر في ملامحها.. رغم جمالها، إلا أن شحوباً قوياً قد غمر ملامحها فبدت متعبة منهكة القوى، ولاحظ عند رسغ يدها اليمنى آثار بعض الحقن من زيارتها الأخيرة للمستوصف الخاص بطبيب دان الشخصي.. ورغم جهل طارق لما تعانيه حقاً، إلا أنها دائماً ما ترد على أسئلته بابتسامة صامتة..

انتبه طارق في تلك اللحظة لرُبى التي كانت تحدجه بنظراتها، فخفض طارق بصره على الفور باحترام فيما قالت رُبى بصوت متعب "ما رأيك يا طارق؟.. لقد أصبحتُ منهكة وبشعة المنظر.. أليس كذلك؟"

أسرع طارق يقول "بل أنت رائعة كعادتك يا آنستي.."

ابتسمت رُبى معلقة "ألا يمكنك قول الحقيقة بكل صراحة يوماً واحداً؟"

قال طارق وهو يواجه عينيها "لم أقل إلا الصراحة طوال عملي معك يا آنسة.."

زفرت رُبى من جديد وهي تعتدل جالسة وتساءلت "إذن، هل أنجزت جميع الترتيبات المطلوبة؟.."

قال طارق "أجل.. كل الأمور ستنفذ عند إشارة منك.."

فغمغمت رُبى "جيد أننا تمكنا من الحصول على تعاون موثوق به من طبيب دان الشخصي.. فهو لن يلجأ إلا إليه في مثل هذه الحالة.."

علق طارق قائلاً "الدكتور شين مدين لك بدين لا ينساه بتاتاً.. ورغم تعجبه من الطلب الذي طلبتِه منه، إلا أنه وعد بمعاونتك بكل ما يستطيعه.."

فقالت رُبى وهي تنظر إليه "ماذا عن السفينة؟"

أجاب طارق بسرعة "إنها على أهبة الاستعداد وفي انتظارك يا آنسة.."

غمغمت رُبى "عنيتُ السفينة الأخرى.."

أجاب طارق بسرعة "إنها على أهبة الاستعداد أيضاً.. لا تقلقي لأي شيء فلقد توليت مع مانو كل الأمور

بدقة تامة.."

همست رُبى وهي تنظر من النافذة للبنايات التي التمعت أسطحها بنور الشمس الحمراء الذي يدوم ثمانية عشر يوماً متواصلاً "أتظن لعملنا هذا أي فائدة؟.. أم أن كل شيء سيتهاوى من اللحظات الأولى؟"

تساءل طارق "ما الذي رأيته أنت يا آنسة؟"

نظرت له رُبى بابتسامة معلقة "للمرة الأولى تسألني عما رأيت.. لكن للحقيقة أقول لك إن ما رأيته كان مبهماً بشكل كبير.. لذلك لست واثقة بعد.."

علق طارق قائلاً "إذن، على الأقل، ضعي ثقتك بي.. سأعمل ما بجهدي لتنفيذ المهمة التي أوكلتها لي حتى النهاية.."

اتسعت ابتسامة رُبى وهي تقول "واثقة من ذلك دائماً يا طارق.. شكراً لك.."

كان هذا إيذاناً له بالرحيل، لكن طارق ظل واقفاً في موقعه بصمت للحظات يتأمل نظراتها القلقة، ثم قال "اعتني بنفسك يا آنسة.. أنت لا تحصلين على ما يكفي من الراحة.."

لم تعلق رُبى مكتفية بابتسامة صامتة كعادتها، فاستدار طارق مغادراً بصمت بدوره.. كان يعلم أن رُبى تكتفي بابتسامة صامتة عندما تعجز عن الرد، ويستطيع التأكيد أنها لا تكاد تأخذ قسطاً وافياً من الراحة برؤية الهالات التي بدأت تتشكل تحت عينيها.. لكن ما الذي يملك فعله وهو مجرد مساعد لها لا يملك من أمره، أو أمرها، شيئاً؟..

****

بعد أيام وأسابيع طويلة، كان الملل قد استنفذ صبر عابد الذي جلس في إحدى غرف السفينة وهو ينفث دخان لفافة تبغ بشيء من الحنق، ثم قال وهو ينهض فجأة "تباً لكل هذا.. كاد الشهر أن ينقضي وأنا أزداد سمنة بجلوسي بلا عمل.. لو لم يصرّ ذلك المتأنق ألا أغادر السفينة إلا للضرورة القصوى لكنت....."

قاطعه باب غرفته الذي فتح بشيء من الحدة وظهر خلفه نوح يقول بعصبية "ما الذي قلته لك عن التدخين

على ظهر السفينة؟.. هذا ممنوع بتاتاً.. أتفهم؟"

قطب عابد وهو يطفئ اللفافة قائلاً "وما المانع؟.. لا أظن السفينة ستحترق بسبب هذه اللفافة! ثم إن هذه السفينة ليست ملكاً لك كما أذكر.."

قال نوح بحنق "لكني أنا القائد.. وهذا ما أفرضه عليك.. ممنوع التدخين منعاً باتاً، أتفهم؟"

فقال عابد بضيق "هيا يا أبتاه.. لا يمكنك أن تكون جاداً!.."

قاطعهما صوت رنين متواصل من هاتف يحمله نوح في جيبه، فأسرع نوح يتطلع لشاشة هاتفه، قبل أن يقول بلهفة "إنه طارق.."

بدا الاهتمام على وجه عابد وهو يعتدل في جلسته ويراقب نوح الذي استجاب للاتصال قائلاً "مرحباً.. نوح يتحـ....."

قاطعه صوت طارق المتوتر قائلاً "هل السفينة جاهزة للرحيل؟"

أجاب نوح على الفور "طبعاً.. نحن جاهزان منذ أيام طويلة.. لكن كنا....."

قاطعه طارق من جديد قائلاً "حسناً.. كونا على أهبة الاستعداد.. سأصل بعد قليل.."

وأنهى الاتصال دفعة واحدة، فقال نوح وهو يعيد الهاتف لجيبه "سيصل طارق مع حمولته بعد قليل.. وعلينا الانطلاق بعدها فوراً.."

وقف عابد قائلاً "جيد.. مللت الجلوس دون عمل في هذه السفينة الخربة.."

قطب نوح شيئاً ما بانزعاج لذلك الوصف، بينما قال عابد "لكن لماذا أصرّ طارق على أن تظل السفينة باسمك حتى هذه اللحظة؟.. لقد اشتروها منك لكنهم لم ينقلوا ملكيتها إلى الفتاة أو إلى المؤسسة حتى الآن..!"

غمغم نوح "ليس هذا هو المهم الآن.."

وخرج من غرفة عابد متجهاً إلى بوابة السفينة، ففتحها وهبط إلى الرصيف قريباً من السفينة يتأمل ما بدا لهما من الميناء وعابد قربه واقف بتململ.. ومن مدخل الميناء الذي يبدو واضحاً أمامهما، رأيا موكباً صغيراً مكوناً من ثلاث سيارات سوداء من أحدث طراز معروف في المستوطنة، وإحداها تحمل صندوقاً كبيراً في

عربتها المكشوفة.. فقال نوح باهتمام "يبدو أنها وصلت.."

نظر عابد للموكب بتفحص، عندما فوجئا بالموكب يبتعد نحو سفينة أخرى أكبر حجماً من سفينتهما وأكثر حداثة، وقد وقفت في الجانب الآخر من الميناء.. فقال عابد معلقاً "أنت مخطئ هذه المرة يا أبتاه.."

ظلا يراقبان ذلك الموكب الصغير بفضول وعدد من الرجال ذوي البزات السوداء يخرجون من السيارات ويتناوبون على إنزال الصندوق بحذر إنما بشيء من العجلة.. وأثناء انشغالهما بالمراقبة، سمعوا صوت سيارة أخرى تقف أمام سفينتهما بشكل مفاجئ.. ولما نظرا إليها وجدا طارق والرجل الضخم يخرجان من السيارة وطارق يقول لهما بتوتر "أسرعا.. يجب أن نحمل الصندوق للسفينة بسرعة.."

كانت السيارة تحمل في حقيبتها الخلفية المفتوحة صندوقاً أسود بطول شخص عادي، أقرب لتابوت وإن كان معداً بصورة أكثر حداثة وتقنية.. غمغم عابد وهو يقترب منهما "لِمَ العجلة؟"

لم يجبه طارق الذي وقف جانباً يتلفت بتوتر متزايد أثار دهشة نوح، بينما صعد عابد لمركبة صغيرة خاصة بالميناء تستخدم لرفع الصناديق الثقيلة ووضعها في السفن دون جهد.. وبمعاونة الرجل الضخم، كان عابد يحمل الصندوق الطويل بواسطة رافعة حديدية ملحقة بالمركبة ويتجه به عبر ممر معدني وبوابة واسعة إلى قلب السفينة، بينما تنحّى نوح جانباً وهو يقول مقترباً من طارق "أحقاً هذا الصندوق يحوي....."

قاطعه طارق للمرة الثالثة هذا اليوم وهو يقول بقلق متلفتاً في الموقع " فور أن يتم تحميل الصندوق، سنصعد بدورنا للسفينة وسنغادر بها فوراً.. يجب أن نسرع.."

وتبع المركبة التي يقودها عابد قائلاً بشيء من الحنق "ألا تعرف كيف تقود هذا الشيء؟.. كن حذراً.."

علق عابد وهو يقود المركبة عبر قاعة واسعة في قلب السفينة ونحو غرفة جانبية تستخدم كمخزن لبعض الصناديق "هل تخشى إيذاء جثة؟.. مم أنت قلق؟"

قال طارق بحنق "تباً لك.. ألا تملك أي تهذيب تتعامل مع الآخرين به؟"

قال عابد بسخرية "للأسف أمي ماتت في صغري فلم يتسنّ لها تعليمي التهذيب اللائق.."

شدّ طارق قبضته بصمت محاولاً تمالك توتره الذي زاده عصبية، ولما أتمّ عابد نقل الصندوق ووضعه بحرص في مساحة فارغة في المخزن، اقترب طارق من الصندوق بلهفة واضحة واطمأن لحالة الصندوق..

ثم فتح غطاءه المصنوع من الفولاذ لينكشف تحته غطاء ثانٍ من زجاج، ورغم الضباب الخفيف الذي غطى الزجاج، استطاع طارق أن يرى ذلك الجسد الذي استلقى وسط الصندوق بصمت وسكون..

أعاد طارق الغطاء المعدني لموقعه قبل أن يسير بخطوات سريعة نحو مدخل السفينة ويقول لنوح الذي كان ينتظره "أغلق البوابة واستعد بالسفينة للانطلاق فوراً.."

تساءل نوح "وبم أبلغ مركز المراقبة عن وجهة السفينة؟.. أنت تعلم أنهم لابد أن يعرفوا بوجهة كل سفينة مغادرة من الميناء.."

قال طارق بسرعة "وجهتنا هي مستوطنة آريس كما أخبرتك سابقاً.."

غادر نوح دون أي تعليق ليبدأ الاستعداد بالسفينة، بينما نظر طارق للرجل الضخم الذي وقف قريباً وهو يتساءل "أتعتقد أن كل الأمور ستكون على ما يرام؟"

أجابه طارق وهو يرمق الموكب الذي أفرغ حمولته في السفينة التي تقف على مبعدة من موقعهم "هذا كل ما آمله يا مانو.. والآن ارحل قبل أن يراك أحد.."

ناوله مانو حقيبة تحوي أغراض طارق الشخصية، فتناولها الأخير شاكراً وراقب ابتعاده حتى رآه يعود لسيارته ويغادر بها بسرعة.. عندها أغلق طارق بوابة السفينة باستخدام لوحة تحكم قرب مدخله وهو يغمغم بتوتر "آمل أن تسير الأمور وفق توقعاتك يا آنسة.. لكن يعلم الله إن كان مسعانا سيؤتي ثماره في النهاية.."

وانطلق نحو غرفة القيادة ليجد نوح يعدّ العدة للانطلاق بالسفينة ويحادث مركز المراقبة الخاص بهذا الميناء، والذي ينسّق قدوم ورحيل السفن عبر الفتحات العشر التي تسمح لها بالخروج من تلك القبة المحيطة بالمستوطنة ونحو عمق الفضاء الشاسع..

وقف طارق قرب نوح يراقب الشاشة الواسعة التي تنقل لهم ما يجري في الميناء حول السفينة، ولما انتهى نوح من مكالمة مركز الملاحة التفت إلى طارق قائلاً "حصلنا على الإذن بالرحيل.."

قال طارق بتوتر "لنرحل بسرعة مادمنا نملك الفرصة لذلك.."

تساءل نوح بدهشة "وما الذي سيمنعنا في هذه المرحلة؟"

غمغم طارق "بل قل من.....؟"

لم يعلق نوح بينما دخل عابد غرفة القيادة بدوره وجلس جانباً بانتظار إقلاع السفينة.. وبعد أن أتمّ نوح استعدادات السفينة، انطلق بها بخبرته التي لا تقل عن خمس وثلاثين عاماً عملها على السفن الفضائية مختلفة الأحجام والمهام.. وفور انطلاقها شعر البقية بشيء من الاهتزاز غير المعهود في السفن الأحدث منها، مما حدا بطارق ليتساءل بقلق "ما الأمر؟.."

لم يعلق عابد وهو معتاد على تلك السفن القديمة، بينما قال نوح بشيء من الضيق "لا تقلق.. هذا معتاد في مثل هذه السفن، لكن لا خطر يواجهنا بأي شكل كان.."

صمت طارق وهو يراقب الميناء الذي خلّفوه خلفهم عبر شاشة السفينة، فاستطاع أن يرى في تلك اللحظة بضع مركبات ذات لون أسود وشعار مميز أحمر اللون تدخل الميناء من بوابته وتتقدم من الرصيف لتقف قرب السفينة الأخرى بالذات.. شعر طارق بشيء من التوتر واضطراب في صدره وهو يراقب ما يجري بإلحاح، بينما اقترب نوح بالسفينة من الممر الزجاجي المؤدي لمخرج القبة المحيطة بالمستوطنة.. وعندما بدأ بعبور البوابة المعدنية المصفحة المفضية للممر الزجاجي، تعالى نداء من مركز المراقبة قائلاً "نداء إلى جميع السفن في الميناء.. مجلس الأمن الفضائي يطلب منكم الانتظار وعدم مغادرة الميناء.. الرجاء الالتزام بهذا الأمر لتفادي عواقب ذلك.. أكرر.. مجلس الأمن....."

نظر نوح لطارق بتوتر قائلاً "ربما علينا العودة.."

لكن طارق انتفض واقفاً واقترب منه صائحاً "إياك أن تفعل ذلك.. استمر في طريقك، فنحن على وشك المغادرة.."

قال نوح بقلق متزايد "ولكن مجلس الأمن....."

قاطعه طارق بشيء من العصبية "مجلس الأمن يريد ما نحمله على السفينة.. لابد أن دان مايدن قد أرسلهم لإجبارنا على إعادة الآنسة.."

تساءل عابد باستنكار "لكنها ميتة.. ما الذي يريده منها؟"

لم يجبه طارق وهو يقول لنوح بإلحاح "غادر ولا تستدر للوراء بتاتاً.. لا تجب على النداء أيضاً مهما جرى.."

غمغم نوح "ماذا لو حاولوا منعنا؟"

أجاب عابد هذه المرة "عندما تتمّ عملية إفراغ الهواء من هذا الممر فإن البوابة الثانية تفتح بشكل تلقائي ودون إذن من مركز المراقبة.. لا يمكنهم منعنا إلا لو أرسلوا خلفنا دورية من دوريات مجلس الأمن.."

لم يعلق الآخران بكلمة ونوح يتقدم بالسفينة عبر الممر الذي أكمل إعداده بإفراغ الهواء استعداداً لفتح البوابة الأخرى المؤدية للفضاء الخارجي.. وبالفعل، فتحت البوابة المعدنية الثانية دون إبطاء فعبرها نوح بسلاسة ليجدوا أنفسهم يتركون المستوطنة خلفهم والسفينة تشق طريقها في الفضاء.. ظل النداء يتردد بإلحاح عبر أجهزة الاتصال في السفينة، لكن نوح لم يستجب وهو يقود المركبة لتتخذ مسارها وتستقر في سيرها بشكل كامل.. عندها قام نوح بتحويل قيادة السفينة للتحكم الآلي، بينما زفر طارق بشدة وهو يرمي جسده جانباً على كرسي قريب.. لقد انقضى أسوأ جزء في خطتهم في الوقت الحالي، وانجذبت أنظار مجلس الأمن للسفينة الأخرى التي تحمل اسم رُبى والتي اشترتها سابقاً لتضليل أعين مجلس الأمن ودان مايدن متيحة لهم الهرب قبل أن ينتبه مجلس الأمن للخدعة.. فمن سيشك بسفينة قديمة متهالكة بينما شخصية كرُبي تملك القدرة على شراء سفينة أكبر وأكثر حداثة منها؟.. كما أن قيام مانو، الحارس الشخصي لرُبى، بإرسال شحنة لتلك السفينة باستخدام أخلص أعوانه لابد أن يثير الشك لتزامنه مع اختفاء رُبى المفاجئ.. خطة رغم بساطتها فقد أفلحت في تمكينهم من الهرب من قبضة مجلس الأمن ولو بشكل مؤقت..

لاحظ طارق في تلك اللحظة أن نوح ينظر له بتقطيبة شديدة، فتساءل طارق "ما الأمر؟"

قال نوح "أنت وتلك الآنسة تحيكان خدعة ما، وتظنان أننا لكوننا أشخاصاً عاديين ذوي تفكير محدود لن ننتبه لخدعتكما تلك.."

زمجر عابد معلقاً "تحدث عن نفسك.."

فقال طارق "ماذا تعني؟.."

قال نوح بحدة "كل ما جرى منذ ظهوركما أمامنا ذلك اليوم يثير الريبة.. التزامكما بالصمت والغموض ورفضكما توضيح الأمور لنا.. هذا المقابل المالي الكبير.. وشرطكما بألا نكثر من الأسئلة.. ورفضكما تحديد وجهة السفينة حتى الآن.. وأخيراً ملاحقة مجلس الأمن لكما بهذه الصورة المفاجئة.. ما الذي تخططون له

حقاً؟"

قال طارق "مجلس الأمن لا يطاردنا، بل مؤسسة سولاريا هي من دفع مجلس الأمن لذلك.. يريدون استعادة الفتاة دون عراقيل، ولا أحد يجرؤ على معارضة مجلس الأمن لو طلب ذلك.."

فقال نوح بعصبية "لمَ أنتم هاربون من المؤسسة؟.. لابد أن يكون هناك سبب مقنع.. فما الذي يريده دان من الفتاة بعد موتها؟.. هل نحمل جسد تلك الفتاة على السفينة حقاً؟.. أم أنه شيء آخر؟"

رد طارق بحدة "أتتهمني بذلك؟.. لقد حملنا التابوت أمام عينيك..!"

قال نوح بحزم "بل أريد أن أرى محتوياته.. الآن.."

قال طارق حانقاً " أرفض هذا.. لا يحق لك اتهامي.. أنت مجرد عامل عندي، وعليك تنفيذ جميع أوامري.."

فقال نوح بصرامة "سنرى ما بداخل التابوت الآن وإلا أدرت السفينة في الحال وعدت بها للمستوطنة، ولمجلس الأمن الملهوف للقبض عليك.."

ثم أضاف بحدة أكبر "لو حاولت الاعتراض، فنحن الإثنان أقدر على تقييدك واحتجازك في إحدى الغرف بكل سهولة.."

دمدم عابد بخفوت "من قال إنني معك في هذا؟"

تجاهله نوح وهو يواجه طارق بحزم لم يعتده أي منهما من قبل.. وبعد لحظة صمت قلّب فيها طارق خياراته، قال وهو يشدّ جسده "حسناً.. لكن للحظات فقط.. وأطلب منكما عدم العبث بهذا التابوت أو لمسه دون إذن مني بتاتاً.."

نهض نوح ليتبع طارق بصمت ودون اعتراض، وسرعان ما لحقهما عابد بفضول كبير وهم يتقدمون نحو القاعة القريبة من مدخل السفينة، والمخزن الجانبي فيها حيث يرقد التابوت الأسود بسكون تام.. زفر طارق وهو ينظر لرفيقيه بتردد واضح، ثم قام بفتح الغطاء المعدني الذي يغطي التابوت ودفعه جانباً ليكشف ما تحته.. فلفحتهما نسمات باردة ونوح وعابد يقتربان لينظرا بنفضول لما في التابوت..

ومن بين البرودة التي بدت بوضوح على الغطاء الزجاجي الذي يلي الغطاء المعدني السابق، استطاع عابد

أن يرى الفتاة بشيء من الوضوح.. كانت تبدو نائمة بعمق، بملامح هادئة وبياض شاحب وسط سائل اتخذ لوناً أزرق وانعكس على بشرتها بحيث جعلها أكثر شحوباً.. كانت ترتدي رداء واحداً بلون أسود يغطي جسدها كاملاً من الرقبة وحتى الكعبين.. بينما ظل وجهها الجميل دون أن يغمره السائل وهي ساكنة كما كانت دائماً.. وبعيداً عن البهرجة التي رآها عليها في المرة الأولى، كانت الآن تبدو شيئاً خيالياً بعيداً عن هذا الواقع..

تساءل عابد "أهي ميتة حقاً؟.. وما الداعي لهذه التقنية التي يحتوي عليها التابوت؟ لماذا لم تنقلوها في تابوت عادي؟"

قال طارق وهو يعيد الغطاء على التابوت "إنها ميتة بالفعل.."

فسأل نوح بفضول "تبدو لي بخير وكأنها مستغرقة في النوم لا أكثر.. مم كانت تشكو؟"

قال طارق وهو ينفض يديه "كانت تشكو من مرض عضال أخبرها الأطباء ألا علاج له.. وأنها لم تكن تملك الكثير قبل أن تموت بالفعل، أرادت ذلك أم لم ترد.."

غمغم عابد "وما الداعي لنقل جثمانها؟"

أجاب طارق "هذه كانت رغبتها.. فلا يحق لكما الاعتراض وقد تقاضيتما مالاً نظير خدماتكما.."

عاد عابد يتساءل "لكن ما هذه التقنية التي يحتوي عليها هذا التابوت؟.. لم أر مثله من قبل.."

قال طارق "هذا ليس مجرد تابوت عادي.. إنه مجهز بنظام تجميد مطوّر يستخدم النيتروجين في صورته السائلة لتجميد الجسد ومنعه من التحلل.. فكما تعلمان رحلتنا إلى آريس ستستغرق أسبوعاً، ومن بعدها سنستغرق شهراً تقريباً للوصول إلى الأرض، وجهتنا الأصلية.."

نظر له نوح بصدمة ظاهرة، بينما صاح عابد "الأرض؟.. أتعني العالم القديم؟ أنت تمزح.."

قال طارق بحزم "لست أمزح.. هذه هي وجهتنا الأصلية.. لذلك كان من الواجب الحفاظ على جسد الآنسة حتى نصل وجهتنا ونقوم بدفنها كما هو مخطط.."

قال نوح بذهول "كيف يمكننا ذلك؟.. الأرض تبعد عنا مسافة كبيرة، وهي مع المجموعة الشمسية بأكملها شبه مهجورة وغير مصرّح لأي سفينة الاقتراب منها.. فكيف سنفعل ذلك؟.."

أجاب طارق "عندما نصل للأرض، سنتسلل دون علم مجلس الأمن بذلك.. ومهمتنا لن تستغرق أكثر من يوم واحد وسنغادر الكوكب بعدها دون أي مشاكل.."

قال عابد بشيء من الحنق "خطتك مثالية أكثر من اللازم.."

قال طارق بتقطيبة ولهجة صارمة "تذكرا أنكما مجرد موظفان عند الآنسة، وعندي بما أنني مسؤول عن سير هذه الرحلة.. لا يحق لكما الاعتراض أو إبداء الآراء ما لم يطلب منكما ذلك.."

ونهض باعتداد مضيفاً "تذكرا أن المقابل الكبير مرهون بطاعتكما لي طوال هذه الرحلة.. لذلك من الخير لكما تقدير ما تفعلانه جيداً.."

وغادر بخطوات سريعة تاركاً نوح يبادل عابد النظرات المتوترة، ثم غمغم نوح بقلق "الأرض؟.. لم أتوقع هذا بتاتاً.."

فقال عابد بحنق "ليت الآنسة استخدمت شخصاً آخر غير هذا المتكبر.. أكاد أفقد أعصابي كلما فتح فمه.."

علق نوح وهو يستدير مغادراً بدوره "ليس أمامنا إلا طاعة ما يطلب منا.. ولنرجو أن تنتهي هذه الرحلة دون مفاجآت.."

صمت عابد وهو يراقب التابوت القريب الذي غرق في صمت شبه تام إلا من هدير أجهزته الخافتة.. لم يكن ما يعرفه عن تلك الفتاة يوحي بأن هذه الرحلة عادية وستسير بالهدوء المفترض بها.. تذكر الحوار القصير الذي دار بينه وبين الفتاة والسفينة رابضة في ميناء مستوطنة فينون، ثم زفر وهو يغادر غرفة القيادة مغمغماً "لماذا أشعر أن الموافقة على هذا العمل من أكثر الاختيارات التي قمتُ بها حماقة؟.."

رغم ذلك الهاجس الذي يلحّ عليه بشدة، إلا أن عابد تجاهله بإصرار.. لقد بدأ حظه يتغير، وبدأ يخرج من روتين حياته القاسية والمملة.. ربما كان هذا بشيراً بمستقبل أفضل بالنسبة له وبحياة أكثر دعة وراحة.. لابد أن يكون كذلك..

****

الفصل الثالث

وقف عابد قرب إحدى النوافذ الواسعة التي تطلّ على الفضاء الشاسع الذي تقطعه السفينة بسرعتها الكبيرة في طريقها إلى مستوطنة آريس.. لم يكن المنظر خارجاً يبدو مبهراً لعيني عابد كما بدا في أول رحلة قام بها عبر الفضاء وهو صبي بالكاد تجاوز العاشرة من عمره.. في ذلك الوقت، بدا المنظر مذهلاً وشعر أنه من أكثر الناس حظوظاً ليرى هذه اللوحة الفنية المبهرة عن قرب.. لوحة تضم مئات وآلاف الشموس الصغيرة التي تلتمع في صفحة الفضاء السوداء لتمنحها ألقاً واضحاً يخلب البصر.. في ذلك الوقت، شعر عابد أن هذا المنظر لن يغادر ذهنه بتاتاً وأنه قد حفر في عقله للأبد.. لكن الآن، بدا المنظر مملاً مكرراً لكثرة ما مرّ به، حتى إنه يتعجب من نظرة الذهول التي تبدو في عيني أي مسافر جديد أو طفل صغير وهو يحدق عبر النافذة لأوقات طويلة..

مضى ذلك الأسبوع بشكل خاطف ودون مشاكل تذكر.. ورغم أن هذا ما تمناه الجميع، إلا أن عابد أصيب بملل بالغ في ذلك الوقت بشكل أفقده أعصابه.. فرحلة بدأت بشكل غامض مثل رحلتهم هذه، جديرة بأن تحوي مفاجآت أكبر كلما تكشف غموضها مرحلة مرحلة.. لكن شيئاً من هذا لم يحدث.. كل ما مرّ به عابد هو أوامر نوح اللحوحة ومتطلباته الكثيرة، وتعليقات ذلك المتأنق الذي يسبب له الغيظ بشكل دائم.. لم يكن يوماً على وفاق مع أشخاص مثل طارق، وزاد هدوء الرحلة وطولها من حنق عابد بشكل جعله لا يطيق أي إشارة تبدو من طارق، ويشعر بكل كلمة أو إيماءة منه أنها إشارة هازئة أو تعليق ساخر يجعل أعصابه تثور.. لكن ما الذي بيده فعله وهذا الرجل هو من بيده كل الأمور، والمقابل المادي الذي يسيل له لعاب عابد مرهون بطاعته لطارق؟..

بعد ذلك الأسبوع، بدا قمر آريس واضحاً لهم عبر شاشة غرفة القيادة.. كانت مستوطنة آريس من أكبر المستوطنات وأقدمها عمراً بعد مستوطنة فينون، وقد احتلت مساحة كبيرة من القمر الذي يبلغ نصف قطره ٥٠٠٠ كيلومتر تقريباً.. كان هذا القمر هو الأكبر في هذه المجموعة التابعة لنجم ميرا، ويدور حول

كوكب بايروس في ١٥ يوماً و ٢٢ ساعة و ٤١ دقيقة.. أما المستوطنة التي أقامها البشر على سطحه، فمع مساحتها الشاسعة فقد اكتضت بأعداد كبيرة وأصناف عديدة من البشر.. كانت نقطة تجارية مهمة في طريق السفن التي تعبر مجموعة ميرا بلا انقطاع، كما توفر وجهة سياحية مهمة كونها تحمل تراثاً مهماً من أوائل السفن المستكشفة للكواكب في الرحلات الأولى.. وقد انقسمت المستوطنة لقطاعات عديدة تتفاوت في مكانتها ورفاهيتها بين قطاعات غنية يحتلها التجار وأصحاب المؤسسات والمصانع في المدينة، وقطاعات متوسطة الحال تمثل أغلب سكان المستوطنة، بالإضافة لقطاعات فقيرة عجز أصحابها عن استيفاء مطالب السكنى في المستوطنة، كما فقدوا القدرة على العودة لموطنهم الأصلي.. لذلك بقي أغلبهم محتجزاً في المناطق السفلية للمستوطنة بينما حاول بعضهم التخلص من هذا المصير بالسطو على السفن التجارية مشكلين نوعاً جديداً من القرصنة في العالم الجديد..

اقتربت السفينة من مستوطنة آريس بسرعة بالغة، وقد انشغل نوح بإبلاغ مركز المراقبة في مينائها بقدومهم وطلب الإذن بدخول القبة الزجاجية والهبوط في ميناء المستوطنة.. بينما غاب عابد عن غرفة القيادة وهو منشغل بالإعداد لإنزال بعض الصناديق التي استهلكوا محتوياتها في الأسبوع الماضي والاستعداد لتعويضها عند وصولهم للميناء قبل بدء الجزء التالي من رحلتهم الطويلة تلك.. توجهت السفينة لأحد الأنابيب الطويلة التي تفضي لجوف القبة الزجاجية، وبعد أن حصل نوح على الإذن بدخول القبة، رأوا الأبواب المعدنية التي تحجز الأنابيب عن الفضاء تفتح ببطء سامحة للسفينة بالعبور عبرها.. وبعد أن فعلت السفينة، عادت الأبواب المعدنية تغلق المدخل بينما أبطأ نوح سير السفينة انتظاراً لعملية معادلة الهواء في الأنابيب قبل أن يسمح له مركز المراقبة باجتياز البوابة الثانية المؤدية لقلب القبة الزجاجية وميناءها الحديث.. سار نوح بالسفينة عبر البوابة الثانية مقترباً من الميناء الذي كان منيراً رغم الليل المسيطر على المستوطنة.. وكما كان الحال في ميناء فينون، كانت الكشافات القوية تنير ميناء مستوطنة آريس والذي لا يعرف الراحة في أي ساعة أو دقيقة..

وبعدما أتمّ نوح الهبوط بالسفينة في الموقع المعيّن لها في جانب الميناء، فتح بابها وسمح لعابد بإنزال الصناديق من السفينة والاستعداد لاستقبال غيرها بعد عدة ساعات.. بينما غاب طارق في ذلك المخزن

يتأمل التابوت ويتفحص الشاشة الملحقة به والتي تعرض بيانات عملية التجميد وحالة الجسد الراقد في النيتروجين السائل..

وبعد بعض الوقت، عاد طارق لغرفة القيادة متسائلاً "كم سنبقى هنا قبل مواصلة الرحلة؟"

أجاب نوح "هناك بعض الصيانة السريعة التي يجب القيام بها للسفينة، فالجزء التالي من الرحلة سيدوم شهراً أو يزيد، ولا أريد أن نفاجأ بأي خلل في السفينة.. وبعد أن نتزود بما يكفينا من مؤونة، سننطلق على الفور.."

صمت طارق وهو يفكر بشيء من القلق في الوقت الذي سيقضونه هنا.. ألن يجذبوا أنظار مجلس الأمن أبداً؟.. تساءل نوح مقاطعاً أفكاره "والآن؟.. بم سنخبر مركز المراقبة عن وجهة السفينة عند مغادرتها؟"

أجاب طارق بسرعة وكأن الإجابة جاهزة عنده "سنذهب بها إلى ساوا.."

قال نوح رافعاً حاجبيه "ساوا؟.. إن هذا القمر لا يحوي إلا مستوطنة خاصة بصيانة السفن والورش الصناعية.. فما الهدف من ذهابنا هناك؟"

قال طارق "ساوا هو القمر الأبعد في مجموعة ميرا، وعندما نمر به سنتخذ الطريق المؤدي بنا إلى المجموعة الشمسية وإلى الأرض بيسر كبير.. ولن يثير تعجب أحد ذهاب سفينة للصيانة بساوا.."

وتقدم من نوح ومن الشاشة التي تعرض الخريطة أمامه راسماً بإصبعه خطاً وهمياً لمسار السفينة المفترض مضيفاً "من هناك، بعد تجاوز ساوا، يمكننا استخدام الثقب الزمني X13 والذي سيقفز بنا في الجانب الآخر من المجرة وقريباً من الأرض.."

لم يعلق نوح على حديثه وهو يراقب الخريطة بشيء من التوتر، بينما تلفّت طارق حوله متسائلاً "بالمناسبة، أين اختفى ذلك العنيف؟.. لم أره منذ انتهى من عمله عند وصولنا للميناء.."

قال نوح وهو يسجل بعض البيانات في جهاز الملاحة الخاص بالسفينة "غادر قبل بعض الوقت.. قال إنه سيعود قبل رحيل السفينة بالتأكيد"

قطب طارق قائلاً "كيف تسمح له بذلك؟.. أين يمكن أن يذهب في هذه المستوطنة؟"

هز نوح كتفيه قائلاً "ربما يملك بعض المعارف هنا، فيبدو أن هذه ليست المرة الأولى التي يصل فيها

لمستوطنة آريس.."

قطب طارق وهو يدير الأمر في ذهنه، ثم قال بشيء من الضيق "لماذا لم يطلب الإذن مني؟.. ذلك الأحمق.."

غمغم نوح "لأنك كنت سترفض الأمر بالتأكيد.."

زفر طارق بضيق وشيء من القلق.. رغم أن أنظار المؤسسة ومجلس الأمن بعيدة عن هذه السفينة، لكن من يدري متى سيدركون الأمر كله ويسعون خلفهم؟.. من المفترض أن يلتزموا جانب الحذر حتى يستطيعوا الوصول للأرض دون أن يعترض طريقهم أي شيء ودون أن يجذبوا أنظار مجلس الأمن أو دان مايدن.. فكيف يمكنه أن يتوقع ذلك من شخصٍ لا مبالٍ منعدم الإحساس بالمسؤولية كعابد؟..

****

في تلك الأثناء، في جانب آخر من المستوطنة، سارت فتاة لا تكاد تتجاوز الثالثة والعشرين من عمرها بخطوات سريعة مرتبكة وهي تمنع نفسها من الالتفات خلفاً بصعوبة.. سارت في الطرقات المرصوفة لذلك الحيّ متوسط الحال والذي يمتاز بشوراع شبه ضيقة ومنازل متراصة وأزقة مظلمة.. تجاوزت عدداً من المارة الواقفين قرب أحد المحلات ذات البضائع المتنوعة وسارت عبر شارع ضيق جانبي وهي تكاد تركض بخطواتها السريعة.. كادت تتعثر عدة مرات، لكنها تعتدل بسرعة وتواصل السير بارتباك واضح، حتى وصلت لمنزل جانبي صغير ذي لون أخضر وسقف أبيض وعدد من الشجيرات المصفرّة أمام بابه.. فتحت الفتاة الباب الخشبي ودخلت المنزل بسرعة قبل أن تغلقه بشيء من العنف وتستند للباب لاهثة بوجه شاحب..

رأت شاباً لا يكبرها إلا بقليل يخرج من غرفة قريبة فينظر إليها بتعجب واضح وهو يقول "ميساء.. ما الذي جرى؟.. ما بالك شاحبة هكذا؟"

اندفعت الفتاة إليه وتشبثت بملابسه قائلة بلهجة مذعورة "لن تصدق ما جرى يا أحمد.. كنت عائدة من

موقع عملي كالعادة، عندما انتبهت لوجود شخص يتبعني على مبعدة.."

رفع أحمد حاجباً بتعجب وميساء تضيف بارتجافة "عندما رأيته، تضاعف رعبي أضعافاً مضاعفة.. كان ضخماً وأسمر اللون شيئاً ما.. نظراته الحادة لم تعجبني، وزاد ذعري إصراره على متابعتي باستمرار مهما حاولت تغيير طريقي.."

قال أحمد مقطباً "ولماذا لم تطرديه؟.. لا أظنه يجرؤ على فعل شيء لك في وضح النهار وفي هذا الجزء المزدحم من المدينة.."

قالت ميساء بذعر "كيف يمكنني ذلك؟.. ربما كان ينتمي لإ حدى جماعات اللصوص أو لقراصنة الفضاء.. مجرد نظرة إليه أثارت رجفة في جسدي.. لقد خفت كثيراً، حتى إنني خشيت إن بدأت الركض أن يلحق بي.. عندها لا أعلم ما الذي سيفعله عندما يفعل ذلك.."

وأشارت خلفها مضيفة "لقد تبعني حتى باب المنزل، ولا أدري إن كان بالخارج أم أنه رحل.."

توجه أحمد نحو النافذة القريبة التي تغطيها ستائر شبه شفافة، ونظر عبرها بحذر ليرى عبر الطريق الضيق شخصاً يقف في الزقاق المقابل لمنزلهم منزوياً في الظلام.. فقالت ميساء بذعر كبير "ما الذي سأفعله لو لاحقني كلما خرجت من المنزل؟.."

قال أحمد بحزم "انتظري هنا ولا تخرجي.."

وغادر من المخرج الخلفي للمنزل، بينما اختبأت ميساء شيئاً ما وهي تنظر عبر النافذة بقلق شديد.. كان وقوف الرجل في ذلك الزقاق المظلم بصمت وإلحاح يثير ذعرها أكثر، ثم استطاعت أن ترى بعد لحظات خروج أحمد من جانب المنزل وسيره عبر الطريق دون أن يلاحظه ذلك الرجل الضخم.. وعبر زقاق آخر، تمكن من الوصول خلف الرجل الغريب ووقف في موقعه يراقبه للحظات.. عندها تأكد له أن ذلك الغريب يراقب منزله بالذات محاولاً الاختفاء في الظلام الذي يجعل الأعين تغفل عنه.. وبعد عدة لحظات لم يطق أحمد صبراً فتقدم من الغريب وقبض على كتفه بقوة، رغم فارق الحجم، وهو يقول بحزم واضح "هل من الأدب ملاحقة الفتيات والتلصص على منازلهن بهذه الصورة؟.. لا أظنك في العمر الذي يسمح بهذه الأشياء.."

التفت الرجل الغريب إليه بهدوء ودون انفعال قائلاً " وهل من الأدب اتهام الآخرين بمثل هذه الاتهامات؟"

قال أحمد مقطباً بشدة "اتهامات؟.. إذن أخبرني من أنت وما الذي تفعله هنا؟.. لقد لاحظت أختي أنك تلاحقها منذ بعض الوقت حتى وصلت لمنزلنا.. وبقيتَ تراقبه لبعض الوقت مختبئاً كفأر.. فما الذي تنكر فعله بالضبط؟"

أزاح الرجل يد أحمد وقال "ربما يقتضي التهذيب أن تدعوني لكوب من القهوة قبل أن تستمع لما لديّ.."

قال أحمد بعصبية "لا أدعو غريباً متلصصاً لداري دون أن أعلم من هو حقاً.."

زفر الرجل بشيء من الملل، ثم قال "أنت أحمد.. أليس كذلك؟"

اتسعت عينا أحمد بدهشة وهو يقول "كيف.....؟"

قال الرجل مشيراً خلفه "وأختك اسمها ميساء.. أنتما تعيشان في هذا المنزل وحيدين.. أليس كذلك؟"

قطب أحمد قائلاً بحدة "كيف علمت بكل ذلك؟.. من أنت حقاً؟"

أجاب الرجل "ربما يهمك أن تعلم من أرسلني.."

ثم أضاف بابتسامة جانبية "عندها أشك أن ترفض دعوتي لكوب القهوة ذاك.."

****

بعد تردد طال وطارق يجول في غرفته بتوتر شديد، غامر بإجراء ذلك الاتصال الذي كان يخشى نتائجه.. ظل يستمع للرنين الطويل الدال على اتصال بين المستوطنات، ثم سمع الصوت عبر الطرف الآخر يقول بصوت خافت "طارق؟.. ما الذي دعاك للاتصال بي؟"

قال طارق بتوتر " أنت الوحيد الذي يمكنني الاتصال به يا مانو.. ما الذي جرى بعد رحيلنا؟.. هل اكتشف دان موقع الآنسة؟"

قال مانو "ليس بعد لحسن الحظ.. لكنه يقلب المستوطنة بحثاً عنها بعد أن أدرك أنها لم تكن في تلك

السفينة.."

تساءل طارق بشيء من القلق "وماذا عنك؟.. هل شك بما فعلته؟"

أجاب مانو "لا.. بعد تفتيش تلك السفينة وتفتيش الصندوق الذي قمنا بتحميله عليها، وجد دان أنه لا يحوي إلا بعض الأجهزة الحديثة التي اشترتها الآنسة وتبرعت بها لمرصد مستوطنة سيلين العلمي.. وعلم أن السفينة أيضاً قد تبرعت بها الآنسة لذات المرصد وأوصت بإرسالها في أقرب وقت ممكن قبل موتها.."

غمغم طارق "إذن سارت الأمور كما خططنا لها؟"

قال مانو "حسناً، لم أكن متوقعاً أقل مما جرى، لكن دان قد أقالني من عملي بتهمة إخفاقي في حراسة جثة.. وأكاد أجزم أنه يشك بي.."

تساءل طارق بقلق مضاعف "أتظنه سيتمكن من تتبع هذا الاتصال؟"

أجاب مانو بثقة "لا أظن.. هذا الرقم لا يعرف به أحد سواك في الوقت الحالي، ولن يستطيع دان تتبعه فهو مجهز بنظام يشتت أي أجهزة تنصت أو تتبع.. لا تقلق.."

زفر طارق قبل أن يقول "آسف يا مانو لما جرى لك.. لقد جررناك في قضية لا شأن لك بها.."

قال مانو بهدوء "لا تقلق يا طارق.. سعيد بخدمتي للآنسة حتى النهاية.. ولن يكون عثوري على عمل آخر صعباً نسبة لخبرتي وشهرتي في هذا المجال.."

شكره طارق مجدداً ثم أنهى الاتصال وهو يفكر بعمق.. رغم ثقة مانو المطلقة، إلا أن فرصة عثور دان مايدن عليهم ليست معدومة.. مازالوا بخطر من ذلك حتى يجتازوا الثقب الفضائي الذي سيرمي بهم للجانب الآخر من مجرة درب التبانة.. عندها لن يدور بخلد دان أن يبحث عنهم في ذلك الجانب المهجور من المجرة بتاتاً..

****

وضع أحمد كوباً من الشاي أمام الرجل الغريب الذي جلس باسترخاء وسط المنزل الصغير، بينما انزوت

ميساء في غرفة قريبة بتوجس مبقية على الباب شبه مفتوح لتتمكن من الاستماع لما يقال دون أن تقع عينا الغريب الحادتان عليها.. وظلت جالسة على كرسي خشبي وهي تفرك يديها بتوتر، عندما سمعت صوت الرجل الخشن وهو يقول بشيء من الاعتراض "من قال إنني أريد شاياً؟"

تزايد قلقها لصوته العالي الذي يحمل خشونة أفزعتها، وجعل توجسها يتزايد مرات ومرات، وهمست لنفسها وهي تهز قدمها بعصبية "ما الذي يريده منا ذلك الرجل؟.. أخشى أن يسبب لنا الأذى فشكله مشبوه تماماً.."

نظرت للهاتف القريب الموضوع على طاولة جانبية، وراودتها فكرة أن تتصل بمركز الشرطة التابع لهذا الحي، لكنها نبذت تلك الفكرة تماماً وهي تتذكر ما أوجزه لها أحمد بعد عودته.. عندها غمغمت بقلق أشد "ما الذي يجري هنا؟.. رباه، أخشى أن يكون قدومه إلينا فألاً سيئاً.."

أما في الجانب الآخر من المنزل، فقد جلس أحمد على الجانب الآخر من الطاولة قائلاً بحزم "والآن، أخبرني بكل ما تعرفه.."

دمدم الرجل "طلبت فنجان قهوة كما أذكر.."

قال أحمد بحدة وضيق "لا نملك أي قهوة هنا.. والآن أخبرني من أنت.. وما الذي دعاك للقدوم إلينا؟.."

نظر له الرجل قائلاً "أخبرتك بهوية من أرسلني إليكما.."

قال أحمد بحزم "أجل.. رُبى.. لقد سمعتك بوضوح.. لكن هذا لا يجيب أي أسئلة من أسئلتي.."

تنهد الرجل قائلاً "اسمي عابد، ولست أدري كيف سيجعلك معرفة اسمي أكثر اطمئناناً.. لقد التقيت بالآنسة رُبى في مستوطنة فينون، وهي قد قامت بتوظيفي على سفينة خاصة بها في رحلة شديدة الأهمية والخصوصية، و آريس هي مجرد مرحلة عابرة في رحلتنا هذه.."

ظل أحمد ينظر له بصمت وشيء من الحذر، فأضاف عابد "وقد طلبت مني بشكل شخصي أن أبلغكما بطلبها الأخير قبل أن ترحل السفينة من آريس.."

قال أحمد مقطباً "وما هي وجهة هذه الرحلة؟"

قال عابد "ليس مصرحاً لي ذكر ذلك.."

فقال أحمد باعتراض "لماذا؟.. ما الذي تنوي فعله تلك الفتاة؟.. ولماذا أرسلتك لنا الآن بعد كل تلك السنين؟"

سمعا صوت الباب يفتح خلفهما، فالتفتا ليريا ميساء تقف قرب الباب قائلة بصوت مرتجف "ما الذي تعنيه بطلبها الأخير؟.. أين هي؟"

عاد أحمد ببصره لعابد بانتظار الجواب، فتنهد عابد وهو يحك رأسه قبل أن يقول "لست أدري إن كان عليّ قول ذلك، لكن لا أرى ما يمنع إخباركما بالأمر.."

ظلا ينظران له باهتمام وشيء من القلق، فقال عابد "الآنسة رُبى قد توفيت قبل وقت قصير.. في اليوم الذي غادرنا فيه مستوطنة فينون قبل أسبوع.."

حلّ الصمت في الغرفة وأحمد ينظر له بصدمة قبل أن يطرق برأسه، بينما ظلت ميساء تنظر إليه بعينين متسعتين، ثم همست "ماتت؟.."

توقع عابد أن يبدي الاثنان بعض الانفعال لمثل هذا الخبر، بالنظر لمعرفتهما هويتها، لكن كل ما حدث هو صمت ساد المكان لفترة طويلة.. وقبل أن يتململ عابد بانتظارهما، رفع أحمد رأسه قائلاً بصوت أجش "إذن.. ما المطلوب منا بالضبط؟"

مال عابد نحوه عبر الطاولة قائلاً "طلب وحيد وصغير.. أتمنى ألا تخيّب ظن الآنسة فيه.."

نظر له أحمد وميساء بصمت، فأضاف عابد "أن ترحلا على ظهر السفينة في رحلتها هذه.."

نظرت له ميساء بدهشة بينما قال أحمد مقطباً "لماذا؟.. وما هي وجهة هذه السفينة؟"

أجاب عابد "كما قلت لك، ليس مصرحاً لي الإفصاح عن ذلك.."

فهبّ أحمد واقفاً وهو يقول بحنق "أتهزأ بي يا هذا؟.. كيف تريدني أن أنصاع لطلب فتاة ماتت منذ مدة والانضمام لرحلة لا أعرف وجهتها ولا هوية من سيرافقني فيها، والأدهى من ذلك أن أصطحب أختي معي.. أأنت مجنون؟"

قال عابد وهو يرفع كوبه ليرشف رشفة سريعة "اعتبرها وصية واجبة التنفيذ.. ثم ما السيئ الذي قد تتوقعه في هذه الرحلة؟.. أؤكد لك أنها ستكون ممتعة حقاً.."

جذب أحمد الكوب من يد عابد بشيء من الحدة وهو يقول بحزم "كما قلت لك، لا أدعو غريباً لداري.. غادر فأنا أرفض طلبك هذا.."

نظر له عابد بصمت للحظات، ثم نهض هازاً كتفيه وقال "كما يحلو لك.. القرار قراركما ولا شأن لي به.. إنما أنا رسول إليكما من تلك الفتاة.."

وغادر بصمت بينما عاد أحمد لكرسيه وارتمى عليه وهو يقطب بشدة، فقالت ميساء معلقة على الأمر "ما معنى كل هذا؟"

قال أحمد بحنق "كيف لي أن أعلم بم تفكر به تلك الفتاة؟.. وبعد كل هذه السنين؟!.."

ثم نهض واقترب من ميساء مربتاً على كتفها قائلاً "انسي كل ما جرى اليوم.. وإن لمحت هذا الرجل يلاحقك في أي وقت لا تترددي في إبلاغي أو إبلاغ أقرب مركز شرطة.."

ثم انزوى في غرفة قريبة مغلقاً الباب خلفه، تاركاً ميساء تقف في موقعها باضطراب ومشاعر متباينة..

أما عابد، ففور خروجه من المنزل استخرج لفافة تبغ من جيبه وانشغل بها للحظات متأملاً الدخان المتصاعد من طرفها، ثم نظر للمنزل بابتسامة جانبية قبل أن يبتعد مغمغماً "لا بأس.. هو قرارهما كما قلت.. لكن، من قال إنني لا أملك شأناً بالأمر؟.."

وابتعد عن المنزل دون أن يلتفت خلفه حتى واراه زقاق قريب..

****

مضت ساعات طويلة على وصول السفينة للميناء، قضاها نوح منشغلاً ببعض الصيانة السريعة للسفينة وفحصها بشكل كامل استعداداً للجزء التالي والأطول من الرحلة.. فوجود خلل ولو بسيط سيشكل لهم معضلة كبيرة في رحلتهم التي ستستغرق ما يزيد على الشهرين ذهاباً وإياباً، ناهيك عن انقطاع مراكز الصيانة في المجموعة الشمسية بسبب خلوها من خطوط الرحلات الفضائية.. أما طارق فقد قضى أغلبها يتابع آخر أخبار المستوطنات عبر قنوات خاصة في الشبكة العنكبوتية يديرها مجموعة ينتمون للعالم السفلي

في مستوطنة فينون.. حاول معرفة أي أخبار عن مؤسسة سولاريا أو تحركاتها بحثاً عنهم، لكنه لم يعثر على أي خبر يفيده بذلك.. ورغم أن ذلك لم يكن مطمئناً تماماً، إلا أن ذلك قد جعل فكره المضطرب يهدأ قليلاً ويسمح له بالحصول على بعض الراحة قبل أن تبدأ السفينة رحلتها من جديد..

وبعد عدة ساعات استغرقها طارق في نوم عميق لم يدرك حاجة جسده له من قبل، خرج من غرفته وهو يتأمل هاتفه بحثاً عن أي رسائل جديدة من الوطن قد تخبره بتحركات المؤسسة في اتجاههم، عندما سمع صوتاً مبتسماً من خلفه يقول "صباح الخير يا رئيس.. أرجو أن تكون بمزاج رائق بعد ساعات النوم الطويلة هذه.."

التفت طارق خلفه مقطباً بشدة ليرى عابد يقف بابتسامة لم ترق له بتاتاً.. فتساءل طارق بصرامة "أين اختفيت طوال الساعات الماضية؟.. وكيف تغادر دون إذن مني؟"

قال عابد باستخفاف "غادرت للترفيه عن نفسي بعد رحلتنا الطويلة هذه.. أهناك ما يمنعني من ذلك؟"

عقد طارق حاجبيه بشدة وهو يقول "ألا تدرك حساسية ما نحن فيه؟.. لا نريد لفت الأنظار لنا أكثر مما نبغي، وتصرفاتك غير المسؤولة هذه ستودي بنا للهاوية.."

قال عابد بهدوء "بل إن حذرك الزائد عن الحد هذا هو ما سيودي بنا.. تصرف بشكل طبيعي وصدقني هذا سيبعد عنا الأنظار أكثر.. مم أنت خائف حقاً؟.."

قال طارق بحنق "لا يزال مجلس الأمن يبحث عن الآنسة.. أتريد إيقاعنا كلنا في قبضتهم فقط لترفه عن نفسك قليلاً؟"

عقد عابد ذراعيه على صدره قائلاً باستخفاف "القانون لا يمنع ذلك.."

زفر طارق للحظات، ثم قال متجاوزاً تلك النقطة "لقد وصلت مؤونتنا الجديدة أثناء غيابك، فقم بنقلها إلى السفينة على الفور.. سنرحل بعد أن تتمّ عملك ذلك.."

دمدم عابد وهو يغادر "وطبعاً شخص مهم مثلك لا يتنازل للقيام بعمل مهين كهذا.."

لم يعلق طارق رغم أنه سمعه جيداً، بل استدار وغادر نحو غرفة القيادة بصمت.. لا يعلم ما الذي دفع الآنسة للإصرار على استخدام شخص بغيض وسوقي مثله.. هناك المئات ممن هم أكثر ثقة وطاعة من هذا

الشخص التافه، لكن إصرار الآنسة على استخدامه هو يثير حيرة طارق بشدة..

أما عابد، فقد غادر الموقع الذي كان يتحدث فيه مع طارق واتجه إلى بوابة السفينة، حيث الصناديق التي صفّت سابقاً ورآها عند عودته للسفينة.. لكنه لم يكد يبتعد، حتى فوجئ بمن يرتطم به بقوة ارتمى معها الشخص الآخر أرضاً.. نظر عابد لمن أمامه بدهشة فرأى فتىً لا يكاد يتجاوز الثالثة عشرة من عمره.. بوجه صبياني وشعر بندقي مبعثر بالغ القصر، وبعينين بنيتين وملامح لم تتجاوز الطفولة بكثير، وجسد ضئيل وقصير بأطراف صغيرة.. كانت ملابس الفتى تدلّ علي قيامه بالكثير من الأعمال اليدوية، بالنظر للبقع التي احتلت مساحة كبيرة منها.. ثم لاحظ أن عينا الفتى تتسعان وهو يرمقه بتوجس وقلق، وهو تصرف لم يكن غريباً على عابد.. فتساءل بتقطيبة "ما الذي تفعله هنا يا هذا؟"

وقف الفتى بسرعة متجاوزاً القلق الذي شعر به لمرأى عابد، وقال "أريد رؤية قائد هذه السفينة.."

قطب عابد متسائلاً "من تكون؟ وما حاجتك لرؤية القائد؟"

قال الفتى بإلحاح "أريد رؤية القائد الآن.."

زمجر عابد بحنق "ومن تكون أنت لتفرض علينا هذا؟!.. غادر السفينة الآن وإلا رميتك خارجاً.."

قال الفتى وقد تحول حديثه لتوسل واضح "أريد رؤية القائد.. أرجوك.."

ظل عابد ينظر له بصمت مقطباً، بينما ظهر طارق من خلفه بعد أن سمع الجدال متسائلاً "ما الأمر؟"

عاد الفتى يكرر طلبه بإلحاح، لكن طارق اعترض على الفور قائلاً "لا حاجة بك لذلك.. غادر فوراً.."

ونظر لعابد مضيفاً "لماذا لم ترمِه خارجاً حتى الآن؟"

استاء عابد لنبرة التأنيب منه، فقال بسخرية "أنا لا أتلقى الأوامر منك.."

وأمسك ذراع الفتى يقتاده معه قائلاً "يحسن بك أن تكون مقنعاً لئلا تجد نفسك ملقىً على رصيف الميناء.."

نظر طارق باستنكار لعابد الذي اقتاد الفتى معه نحو غرفة القيادة، وقد أدرك أن عابد ما قام بذلك الفعل إلا نكاية به.. بينما وجد عابد الفتى يبعد يده عنه ويبتعد خطوة بتوتر واضح جعلت عابد ينظر له بدهشة.. لكنه لم يعلق وهو يسير أمامه نحو غرفة القيادة حتى وجد الفتى نفسه أمام نوح الذي كان منشغلاً بالتدقيق

في خارطة تعرضها أجهزة القيادة أمامه على إحدى الشاشات..

استدار نوح متطلعاً للفتى ولعابد بتساؤل، فقال عابد "هذا الفتى يصرّ على رؤيتك.."

قال نوح "هذا غريب.. كيف سمحت له بدخول السفينة قبل مغادرتنا بقليل؟"

قال طارق الذي دخل الغرفة في تلك اللحظة "هذا ما يثير تعجبي في الأمر.. لماذا تصرّ على مخالفة كل ما نطلبه منك؟"

قاطعهم الفتى الذي صاح موجهاً حديثه لنوح "أرجوك.. خذني معك في رحلتكم القادمة.."

فوجئ الثلاثة بقوله، فنظروا له بتعجب بينما قال نوح "نحن لسنا ذاهبين في رحلة، ولا ننوي حمل أي مسافرين معنا.."

قال الفتى "لا أنوي الرحيل معكم كمسافر.. خذوني كأحد العمال على السفينة.. سأقوم بما تريدونه من أعمال ولن أتذمر.. ولا أريد منكم أي أجر كذلك.. فقط خذوني معكم"

عقد نوح حاجبيه وهو يقول "نحن ذاهبون بالسفينة للصيانة في ساوا.. ما الذي تريده أنت هناك؟.. هذا القمر يكاد يخلو من أي مستوطنات فيه بخلاف ورش الصيانة.."

أضاف طارق "طلبك مرفوض تماماً.. غادر السفينة حالاً.."

دار الفتى ببصره بينهم، ثم قال بتوتر "لكني أعلم أين أنتم ذاهبون حقاً.."

نظر له البقية بدهشة، فأضاف الفتى بتوتر أشد "أنتم ذاهبون للأرض.. أليس كذلك؟"

بدت الصدمة الظاهرة على وجه نوح كإجابة صريحة لما قاله، بينما أسرع طارق يقبض على الفتى من عنق قميصه وهو يقول مقطباً بشدة "ما الذي تهذي به؟.. نحن ذاهبون لساوا.. ألم تسمع ما قاله القائد جيداً؟"

واقتاده بحزم خارجاً من غرفة القيادة، بينما قاومه الفتى صائحاً "لا.. أنا أعلم أن وجهتكم هذه هي لإبعاد الأعين عنكم.. أنتم متجهون حقاً إلى الأرض.. لا يمكنكم الكذب عليّ.."

لكن طارق لم يعره بالاً وهو يجذبه بشده عبر ممرات السفينة ونحو بوابتها.. ورغم مقاومة الفتى إلا أنه لم يتمكن من التخلص من قبضته وهو يصيح باستماتة "اتركني.. يجب أن أذهب معكم.. لا تطردني.."

ولما وصل طارق إلى بوابة السفينة، دفع الفتى بشدة حتى ألقاه خارجاً على رصيف الميناء ووسط بعض

العابرين الذين نظروا له بدهشة.. بينما استدار طارق قائلاً بشيء من الحنق لعابد الذي تبعه "أغلق البوابة.. كان عليك أن تتأكد من عدم وجود متسلل للسفينة قبل انطلاقها.."

لم يعلق عابد وهو رافع حاجبيه باستنكار لتوجيه طارق غضبه إليه، بينما صاح الفتى في تلك اللحظة "الآنسة رُبى أخبرتني بذلك.."

تجمد طارق على الفور قبل أن يلتفت بحدة نحو الفتى الذي وقف في موقعه ينظر بقلق نحوهما.. ثم أعاد الفتى قوله بتوتر "الآنسة رُبى أخبرتني أنني أستطيع صعود هذه السفينة عند قدومها لهذا الميناء.. أليست هذه السفينة ملكاً لها؟"

فنظر عابد لطارق متسائلاً "أليس هذا هو اسم الفتاة التي نحمل جثمانها في السفينة؟"

قال طارق بغضب "اصمت.."

ثم نظر للفتى مضيفاً بأمر "اتبعني.."

أسرع الفتى يعود للسفينة بلهفة، بينما أغلق عابد البوابة خلفهم وهو يدمدم "لن تكف الفتاة تلك عن مفاجأتي في كل لحظة حتى بعد موتها.."

وتبع طارق والفتى نحو غرفة القيادة ليسمع الحكاية التي أثارت دهشة في نفوسهم جميعاً..

****

ظل طارق يحدج الفتى بنظرات حادة لفترة طالت بينما تساءل نوح بقلق "ما معنى هذا؟.. كيف يعرف الفتى اسم الآنسة؟.. وكيف يعرف بوجهتنا أيضاً؟"

لم يجبه طارق وهو متوجه إلى الفتى متسائلاً "ما اسمك؟"

قال الفتى بتوتر "اسمي نور.."

رفع عابد حاجبيه قبل أن يقول بسخرية "هذا اسم فتاة.."

فقال نور بشيء من الحدة "وهو اسم فتى كذلك.."

لم يعلق طارق وهو يعقد ذراعيه على صدره قائلاً "أخبرني بكل ما تعرفه عن هذه السفينة.. من أخبرك بأمرها؟"

أسرع نور يقول "كما أخبرتك.. الآنسة رُبى هي من أخبرني بذلك.."

قطب طارق بشدة وهو يقول "إياك والكذب.."

هتف نور "أنا لا أكذب.."

فمال عابد نحو نور قائلاً "لكن الفتاة ميتة منذ مدة.. كيف تدّعي أنها قد اتصلت بك؟"

رفع نور حاجبيه بشيء من الصدمة، ثم هتف "لكنها اتصلت بي فعلاً.. كان هذا قبل شهر.. أنا لا أعرفها حقاً، ولا أعرف كيف حصلت على رقم هاتفي، لكنها اتصلت بي حقاً وطلبتني بالاسم.. أخبرتني عن هذه السفينة ووجهتها، وقالت إنها تسمح لي بالسفر بها دون مقابل.. كل ما عليّ فعله هو الحديث مع قائدها وإخباره أنني من طرفها.."

فقال طارق "لكن ما الهدف الذي ترمي إليه بالسفر للأرض؟.. أم أنها هي من طلب منك ذلك؟"

خفض نور رأسه بتوتر ظاهر، قبل أن يقول "بل أنا من كان يبحث عن وسيلة للسفر إليه.. قضيت مدة طويلة أبحث عمن يأخذني هناك، ولو متسللاً مخالفاً قوانين مجلس الأمن.. لكني عجزت عن العثور على وسيلة وكدت أيأس مع رفض الجميع لمجرد التفكير بذلك.. حتى تلقيت منها اتصالاً.. كل ما أخبرتني به هو اسمها وأن هذه السفينة هي ملكها.. وأنها تسمح لي بالسفر فيها.."

فقال طارق "لكنها لم تبلغني أنا بشيء من هذا.."

ونظر لنوح الذي هز رأسه معلقاً "لم أسمع عن هذا الأمر شيئاً.."

فقال نور برجاء "لكني صادق حقاً.. كيف يمكنني التعرف على السفينة ومعرفة أن تلك الفتاة هي مالكتها؟.. عليك أن تصدقني وتأخذني معكم.."

قال نوح بضيق "أنت صغير جداً، ولا نملك ترف العناية بك.."

هتف نور "لا أحتاج لمن يعتني بي.. أنا معتاد على العمل في السفن، وأعتني بنفسي منذ كنت في التاسعة.. لن أكون حملاً عليكم صدقوني.."

فقال طارق "والسبب؟.. أنت لم توضح لنا سبب إصرارك على الوصول للأرض..!"

قال نور خافضاً وجهه "هذا سبب خاص بي.. أفضل عدم الإفصاح عنه.."

تبادل الثلاثة النظرات وقد بدا عدم الاقتناع واضحاً على الوجوه، عندها اقترب عابد من الفتى وقبض على مجمع ملابسه ليجبره على الوقوف قائلاً "انتهى وقت المزاح.. لا أظن أن قدومك معنا في هذه الرحلة يناسبنا بتاتاً.."

هتف نور بحنق "سأشكوكم لمجلس الأمن.."

نظر له عابد وطارق بحدة، فقال نور بحزم "سأشكوكم فور خروجي من هذه السفينة.. عندما يعلم مجلس الأمن بنيّة سفينتكم الاقتراب من الأرض لن يكون رد فعلهم محبباً بتاتاً.."

هزه عابد بشدة قائلاً "أتمزح معي يا هذا؟"

أبعد طارق يده قائلاً "مهلاً يا رجل.. يبدو ألا خيار لدينا إلا اصطحابه معنا.."

رفع عابد حاجبيه بدهشة بينما ابتسم نور قائلاً "حقاً؟"

قال طارق عاقداً حاجبيه "اسمع يا فتى.. لن يكون أحدنا مسؤولاً عنك.. عليك أن تلتزم بقوانين السفينة طوال الرحلة وتفعل كل ما يطلب منك.. وعندما نصل للأرض، لن يطول بقاؤنا عليها أكثر من أربع وعشرين ساعة.. وبعدها، سنغادر حتى لو لم تعد للسفينة.."

قال نور وهو يقف بحزم "أوافق على كل ما تطلبونه.. سأتكفل بأمر نفسي ولا أريد منكم أي رعاية.. أنا لم أعد طفلاً.."

علق عابد بسخرية "حقاً.. هذا واضح جداً.."

فقال نوح "سنرحل خلال ساعة واحدة.. وإن لم تكن متواجداً خلالها، لن ننتظرك ولو لدقيقة.."

فقال نور بلهفة "سأعود خلال عشر دقائق.."

واستدار مغادراً السفينة راكضاً، بينما التفت عابد إلى طارق قائلاً "أأنت أحمق أم ماذا؟.. لمَ وافقت على قدوم صبي معنا؟"

قطب طارق بضيق وهو يقول "ألا تملك وسيلة أفضل للتخاطب مع الآخرين؟"

ثم أضاف ملتفتاً إلى نوح "لا نريد أن نلفت الأنظار إلينا قبل أن نبدأ رحلتنا بالفعل.. ثم إن الآنسة قد أجرت اتصالها بالفتى بنفسها.. لابد أن لديها هدفاً لهذا.."

قال عابد ماطاً شفتيه "وأي هدف قد يكون هذا؟.. في النهاية، أنا من سيقوم بالعناية بهذا الصبي.."

علق نوح قائلاً "يمكنه أن يساعدك في أعمالك.. لابد أن يبذل مجهوداً مقابل السفر معنا ولاشك.."

فغمغم عابد بابتسامة "جميل.. هذا يروق لي بالتأكيد.."

وغادر ليتمّ ما لديه من أعمال، بينما قال نوح لطارق "أأنت واثق مما تفعله؟.. لا أظن أحداً سيهتم بحديث صبي صغير لو فكرنا بعدم أخذه معنا.. تهديده لا يعني شيئاً حقاً.."

قال طارق هازاً رأسه "لا.. لكن الآنسة لا تفعل شيئاً دون هدف ما.. كل خطوة لها محسوبة بدقة.. ولهذا يجب أن ننفذ كل ما تخطط له.."

زفر نوح دون أن يخفي قلقه من الجزء الثاني لرحلتهم، بينما تقدم منه طارق قائلاً "يحسن بنا أن نراجع مسار السفينة قبل الانطلاق.."

فقال نوح "حسناً.. ربما علينا فعل ذلك، رغم أنني فعلت ذلك عشرات المرات.."

وأشار نحو الخارطة وهو يحركها عبر شاشة صغيرة أمامه، فارتسم خط سير أمام عيني طارق يمتد من القمر آريس وعبر الفضاء قريباً من قمر ساوا ونحو موقع الثقب الفضائي الذي عيّنه طارق سابقاً.. ظل طارق يستمع لشرح نوح لخط سيرهم بالتفصيل وهو منشغل الفكر بخطتهم هذه التي تبدو بسيطة وسهلة نظرياً.. لكن من يدري ما الذي قد يعرقلها وما قد يتسبب بفشل هذه الرحلة التي أعدوا لها العدة منذ ما يزيد على الشهر.. بناء على أوامر فتاة تستلقي جثتها في أحد صناديق التجميد في عمق السفينة؟..

****

الفصل الرابع

استغرق عابد ما يقارب ربع ساعة في نقل بعض الصناديق المتبقية من المؤونة التي اشتراها نوح من مستوطنة آريس.. كانت تلك المؤونة، مع ما يملكونه سابقاً، مهمة لتأمين طعامهم وشرابهم خلال الأشهر القادمة التي ستستغرقها منهم الرحلة في الذهاب والعودة، وذلك لخلوّ خط سيرهم بعد مرورهم بساوا من أي مستوطنات أو موانئ يمكنهم عبرها التزود مما نقص منهم..

وعندما قارب عابد على إنهاء عمله، رأى الفتى نور يقترب من السفينة راكضاً ووقف قربه لاهثاً وهو يقول "ظننتكم كذبتم عليّ وسترحلون بدوني.."

فقال عابد بجدية مصطنعة "كيف يمكننا أن نغادر وأنت تهدد بالإبلاغ عنا..!.. لا يمكن أن نخاطر بهذه الصورة.."

نظر له نور بحيرة وهو غير مدرك إن كان جاداً حقاً أم يستهزئ به، بينما قال عابد وهو يناوله أحد الصناديق متوسطة الحجم "هيا.. ابدأ عملك الآن وانقل هذه الصناديق للمخزن بسرعة.. موعد انطلاق السفينة قد اقترب.."

حمل نور الصندوق وهو يقول بحيرة "لكني لا أعرف أين يقع هذا المخزن.. هل سأحمل هذه الصناديق كلها لوحدي؟"

جلس عابد على أحد الصناديق الموضوعة جانباً وأشعل لفافة تبغ قائلاً "ماذا ظننت؟.. هل تظن أننا سنخصص لك أحد الأجنحة الراقية في السفينة؟ ابدأ العمل هيا وإلا طردتك من السفينة دون تردد.."

عقد نور حاجبيه وهو يستدير حاملاً الصندوق بالإضافة لحقيبة صغيرة بها أغراضه الشخصية، وتوجه نحو السفينة بخطوات غير ثابتة.. بينما نفث عابد دخان لفافته وهو يغمغم بابتسامة "بدأت أستمتع بكل هذا حقاً.."

بعد جهد ووقت، استطاع نور نقل جميع الصناديق المتوسطة والصغيرة نحو السفينة، بينما اضطر عابد لنقل

الصناديق الأكبر حجماً بنفسه بعد أن عجز نور عن حملها.. وبعد أن أتمت السفينة فحوصاتها واطمأن نوح لاكتمال إعداداتها، أغلق بوابتها وبدأ تشغيل محركاتها والتواصل مع برج المراقبة في ذلك الميناء استعداداً للانطلاق بها خارج المستوطنة ونحو ساوا..

بعد أن وضع نور آخر صندوق في المخزن، وجد عابد يجلس في جانب المكان قائلاً "عليك أن تكون مستعداً يا فتى.. ستقلع السفينة بعد قليل، وصدقني هذه ليست تجربة محببة.."

تساءل نور "ألا يسمح لنا البقاء في غرفة القيادة مع البقية؟"

قال عابد "ومن يرغب بالبقاء مع ذاك المتعجرف؟.. أفضّل صحبة هذه الصناديق الخشبية على صحبة ذاك المتأنق.."

نظر له نور بتعجب، ثم تركه وتوجه نحو غرفة القيادة ليجد نوح منشغلاً بأجهزة السفينة بينما جلس طارق جانباً وهو يعبث بهاتف في يده.. ولما رآه طارق قال له مقطباً "ما الذي جاء بك هنا؟.. اختر أي غرفة من غرف السفينة الفارغة لك، وابقَ فيها أثناء الإقلاع.."

تساءل نور بفضول وهو يجلس جانباً "لِمَ لا تحوي هذه السفينة أي عمال بخلاف ذلك الضخم؟.. لا وجود لأي مهندسين أو متخصصي ملاحة.. ألن يثير رحيلها بأربعة أشخاص فقط علامات الاستفهام؟"

قال طارق "نحن ذاهبون بها للصيانة في ساوا كما هو مفترض، فما حاجتنا لاصطحاب عدد كبير من العمال على ظهرها؟ هذا العدد أكثر من كافٍ لمهمتنا هذه.."

تساءل نور باهتمام "وما هي هذه المهمة؟"

قطب طارق قائلاً "ألن تكف عن هذا الفضول؟.. أنجز ما يطلب منك فقط وكفّ عن طرح الأسئلة.."

شعروا بالسفينة ترتج قليلاً قبل أن تبدأ انطلاقها بشيء من السرعة.. كان هذا الاهتزاز غير مألوف في السفن الحديثة، مما أثار القلق في نفس نور ودفعه ليتساءل "هل كل الأمور على ما يرام؟.."

قال نوح عابساً وقد تلقى الكثير من تلك التعليقات المشابهة سابقاً "إنها سفينة قديمة لكنها ليست خَربة.. لا تزال في منتصف عمرها.."

لم يعلق نور وهو يراقب رحلة السفينة بقلق واضح، بينما ارتفعت السفينة عالياً في فضاء الميناء متجاوزة

عدداً من السفن القادمة من رحلاتها الخاصة، وعبرت سفينتهم الممر الزجاجي الذي يخرجها من القبة التي تحيط بالمستوطنة ويفضي بها للفضاء الشاسع مخلفّة المستوطنة خلفها.. اتخذ نوح بالسفينة المسار المحدد لها، وبعد الابتعاد عن المستوطنة وعن مسار السفن الكثيف قربها قام بتحويل القيادة في السفينة للقائد الآلي، وقال بشيء من التوتر "انتهينا من الجزء الأسهل من المهمة.."

علق طارق "ومن قال إن الباقي أصعب؟.. لو سارت الأمور كما خططنا لها فسينتهي كل شيء بسلاسة تامة.."

لم يعلق نوح وهو يراقب الخارطة في الشاشة أمامه بتوتر واضح، بينما استدار طارق ليغادر غرفة القيادة عندما لاحظ نور الواقف قريباً، فقال بشيء من العبوس "أمازلت هنا؟.. تذكر أنك مجرد عامل على ظهر هذه السفينة ولست مجرد مسافر يمكنه الجلوس باسترخاء في غرفة القيادة.."

قال نور بضيق "لم أكن أنوي الاسترخاء.. كنت....."

قاطعه طارق قائلاً وهو يغادر "جيد أن تعلم ذلك.."

نظر نور له ولنوح بتردد، ثم تنهد وهو يغادر غرفة القيادة بدوره عائداً للمخزن.. وهناك وجد عابد يحمل بضع صناديق على عربة معدنية يدفعها أمامه، ولما لمح نور قال "أين اختفيت يا فتى؟.. رحلتنا طويلة، لكن هذا ليس وقت استرخاء وراحة.."

لم يعترض نور وهو يسير خلف عابد في ممر السفينة، حتى وصلوا للمطبخ الخاص بالسفينة والذي كان متوسط الحجم يناسب حجم السفينة، ورغم قدم السفينة فقد كان مطبخها بحالة جيدة وحديثة.. انشغل عابد بإفراغ محتويات الصناديق التي تحوي معلبات متنوعة الحجم والشكل والمحتوى في خزائن المطبخ، وعاونه نور بصمت وسرعة لاعتياده مثل هذه الأعمال في رحلات سابقة قام بها.. وبعد بعض الصمت، قال نور بتردد "هل أستطيع سؤالك عن أمر يا سيدي؟"

ابتسم عابد ابتسامة جانبية وقال "يمكنني التنازل عن لقب (سيدي) فهو لا يليق بي.."

تساءل نور "إذن بمَ أناديك؟.. عماه؟.."

زمجر عابد "لا تجرؤ على ذلك.. لست كبير العمر لهذه الدرجة.. نادني باسمي.."

قال نور بحيرة "لكني لا أعرف ما هو اسمك.."

زفر عابد بملل قائلاً "اسمي عابد.. كيف تعمل عند أشخاص لا تعرفهم ولا تعرف حتى أسماءهم؟.. أأنت أحمق أم ماذا؟"

قال نور "لكنني كنت أريد الذهاب في هذه الرحلة مهما كان الأمر، ثم إن الآنسة رُبى أخبرتني أنها تثق بمن في السفينة لذلك لا حاجة بي للقلق من أي أمر.."

غمغم عابد "حقاً؟.. غريب أن تصف الآنسة هذه المجموعة المتنافرة من البشر بالثقة.."

تساءل نور باهتمام "هل يمكنني سؤالك عن الهدف من هذه الرحلة؟.. لماذا تكلّفت الآنسة إجراء هذه الرحلة بعد موتها بالفعل؟.. ولماذا الأرض بالذات؟.."

قال عابد "الهدف هو القيام بها بعد موتها بالفعل.."

ظهرت الدهشة على وجه نور بوضوح، فضحك عابد معلقاً "أنت لم تعلم بالأمر حقاً!.. ألم تخبرك الفتاة أنها تنوي حمل جثمانها عبر نصف المجرة ليتم دفنها على الأرض؟.."

قال نور بصدمة وانفعال "لا.. لم أعلم بذلك بتاتاً.. لكن لماذا؟.."

أجاب عابد وهو ينهي عمله ويحمل الصناديق الفارغة "هذا ما لا علم لي به.. كل ما نفعله هو تلبية طلب فتاة غريبة الأطوار.."

غمغم نور بشيء من الصدمة "هي غريبة الأطوار بالفعل.."

****

دام سير السفينة بعد انطلاقها عدة أيام مرت فيها بساوا، القمر التابع لأحد أصغر كواكب المجموعة التابعة للنجم ميرا.. كان القمر بدوره صغيراً نسبياً، لا يتجاوز قطره ٦٧ كيلومتراً، ومثلما الحال مع بقية أقمار ذلك الكوكب صغيرة الحجم، كان يتخذ شكلاً غريباً وغير كروي كما هو المعتاد في الأقمار الأخرى.. ويستغرق دورانه في مداره ثماني أشهر إلا قليلاً..

لكن ساوا لم يستخدم كمستوطنة سكانية كما هو الحال مع بعض الأقمار الأخرى الأكبر حجماً وأكثر ثباتاً.. لكنه استخدم كمحطة خدمات خاصة بالسفن العابرة مثل صيانة وإصلاح وتعبئة وقود وخلافه.. كما يحوي بعض الفنادق الرخيصة التي تشكل راحة لأصحاب السفن لعدة أيام ريثما تنتهي الإصلاحات الخاصة بالسفينة..

لكن عند مرور سفينتهم قريباً من ساوا، حرص نوح على الابتعاد عن مجال الأقمار الصناعية التي تدور حوله والتي ترصد اقتراب السفن وتتحقق من هويتها قبل السماح لها بالاقتراب من القمر للاستفادة من الخدمات التي يقدمها للسفن العابرة.. ظل نوح متوتراً عند اقترابهم من القمر وهو يتفحص أجهزته باستمرار، بينما جلس طارق جانباً وهو يتساءل "لم كل هذا القلق؟ من الذي سيتساءل عن مسار سفينة من بين مئات السفن التي تمر يومياً بهذا القمر؟"

أجاب نوح "ربما كان ما تقوله صحيحاً.. لكن ساوا هي المستوطنة الأبعد في هذه المجموعة.. ومرورنا من هذا المسار سيثير تساؤلات عدة وقد تلفت انتباه دوريات مجلس الأمن.."

تساءل طارق بدهشة "لماذا؟.. أنا أعلم أن هناك حظراً على الاقتراب من الأرض، لكن أهناك حظر على استخدام ذلك الثقب الفضائي بالذات؟"

هز نوح كتفيه مجيباً "ذلك الثقب الفضائي يؤدي لموقع قريب من المجموعة الشمسية، وكما تعلم يخلو ذلك الموقع من أي مستوطنات مأهولة.. لذلك اجتياز هذا الثقب يؤكد لمجلس الأمن أن وجهتنا هي الأرض أو إحدى المستوطنات المهجورة في الكواكب الأخرى من المجموعة الشمسية.."

وأضاف "بعد حادثة العلماء تلك أصبح مجلس الأمن متشدداً أكثر في منع السفن من الاقتراب من الأرض.. رغم مرور خمس سنوات، لم يخفت إصرار مجلس الأمن على منع الرحلات الفضائية لذلك الجزء من المجرة.."

لم يعلق طارق وقد أدرك الحادثة التي تحدث عنها نوح.. لكن مثل هذا الحظر سيشكل عقبة جديدة أمامهم.. فهل سيتمكنون من اجتيازها بسلام؟..

في تلك الأثناء، كان عابد يصيح بحنق في أحد جوانب السفينة "ما هذا الكسل؟ مضت ساعة منذ طلبت

منك استبدال تلك الاسطوانات في صندوق التجميد.. ألم تنته من عملك بعد؟"

قال نور بحنق وهو يحمل اسطوانة ثقيلة تفوقه طولاً "ألا ترىٰ أنني أبذل جهدي؟ بإمكانك مد يد العون بدل التذمر بهذه الصورة.. أنا أبذل كل ما بطاقتي بالفعل.."

قطب عابد وهو يجلس جانباً بتذمر "أنت من عرض العمل في السفينة دون شرط أو أجر.. لا يحق لك التذمر كالفتيات الآن"

قال نور بسخط وقد استاء من مقارنته بالفتيات كما اعتاد عابد أن يسخر منه "قلت عملاً ولم أقل استعباداً.. أنت تستمتع برؤيتي هكذا.."

ابتسم عابد قائلاً "طبعاً أستمتع بذلك.. ومن يمكنه لومي؟"

لم يعلق نور وهو يصمت بحنق منشغلاً بوضع الاسطوانة علىٰ عربة حديدية صغيرة، ثم دفعها أمامه خارجاً من المخزن ذلك تاركاً عابد وحيداً فيه.. بعد ابتعاد نور وخلو المكان من حوله، قام عابد بإشعال لفافة تبغ وهو يدمدم "متىٰ ستنتهي هذه الرحلة البغيضة؟.. ما الأسوأ من استراق لفافة تبغ مرات معدودة كل يوم؟ هذان الاثنان متجبران بقوانينهما تلك.."

بعد لحظات بقي فيها يستمتع بلفافة التبغ ويعدّ ما بقي لديه منها، سمع صوت العربة تعود للمخزن.. فأطفأ اللفافة التي في يده في مطفأة حديدية صغيرة يحملها معه في جيبه، ثم خرج من المخزن ليجد نور عائداً بالعربة الفارغة.. فقال له "اترك العربة في المخزن وتعال معي.. أريد مساعدتك هناك أيضاً، ولتتعلم الطريقة الصحيحة لتبديل الاسطوانات.. سيروقني أن تقوم بهذا العمل عوضاً عني في المرات القادمة.."

رأىٰ نور يلوح بيده بشيء من الحنق قبل أن يقول لعابد "حتىٰ متىٰ ستظل تدخن هنا؟.. التدخين ممنوع علىٰ السفينة.. وخاصة في موقع خطر كهذا المخزن.."

قال عابد رافعاً حاجباً "ما رأيك بأن تشكوني للقائد؟"

قطب نور قائلاً "لا.. لا أريد الصدام مع شخص مثلك.."

لوح عابد بيده وهو يغادر قائلاً "تصرف حكيم.. والآن اتبعني بسرعة لتعاونني في استبدال الاسطوانات.."

لم يعترض نور وهو يعيد العربة ثم يتبع عابد ملاحقاً خطواته الواسعة.. وفي الغرفة الجانبية في القاعة المواجهة لمدخل السفينة، قام عابد باستبدال الاسطوانة القديمة بالجديدة منها، لتحافظ على برودة اسطوانة التجميد التي تشبه التابوت.. وملحق بها لوحة تحكم تظهر البيانات الخاصة بعملية التجميد وحالة الجسد الراقد وسط الاسطوانة بسكون.. راقب نور عمل عابد للحظات، قبل أن يتقدم من الاسطوانة التي تحوي غطاءً معدنياً يحجب ما بداخلها.. فدار حولها بفضول شديد، قبل أن يقول لعابد "هل رأيت تلك الفتاة رُبِّيَ قبل بدء هذه الرحلة؟"

أجاب عابد بعد أن أنهى عمله ووضع الاسطوانات الفارغة جانباً "بلى.. إنها فتاة غريبة لا يوحي شكلها بأهوائها العجيبة.."

تساءل نور "هل يمكنني رؤيتها؟"

اقترب عابد من الاسطوانة معلقاً "لا تذكر هذا الأمر أمام طارق، وإلا سيمزقك إرباً بالطبع.. هو حريص عليها وكأن النظر إليها سيدنسها بعد موتها.."

لم يعلق نور وهو يرى عابد يزيح الغطاء المعدني الذي ارتفع بيسر ليظهر ما خلفه.. ومن الغطاء الزجاجي الذي يلي الغطاء المعدني السابق، استطاع نور أن يرى الفتاة بشيء من الوضوح.. ظل ينظر لها بصمت للحظات طالت، ثم همس "إنها جميلة.."

ابتسم عابد قائلاً "ومن قال إن الجمال مهم؟.. هي لم تستفد من هذا الجمال شيئاً وهي في هذا الوضع.."

لم يعترض نور وعابد يعيد الغطاء في موضعه، بينما سرت رجفة في جسده وهو يتساءل بحيرة "لكن، لماذا فعلت كل هذا؟.. ما الهدف منه؟"

أجاب عابد "اسأل ذلك الشاب المغرور طارق.. فهو يملك إجابات لا نملكها نحن هنا.."

وأشار لنور مضيفاً "والآن غادر.. ولا تنسَ إعادة الاسطوانات الفارغة لموضعها.."

وغادر دون أن ينظر خلفه، فحمل نور الاسطوانات الفارغة خارج الغرفة وهو يدمدم بغيظ "لماذا لم تخبرني لأحضر العربة معي؟.. يا لك من وغد.."

وبعد أن أخرج الاسطوانات، وقف قليلاً قرب الباب يراقب اسطوانة التجميد التي ربضت بهدوء وسط

الغرفة الباردة شيئاً ما.. ثم بعد تردد شديد، أغلق الباب خلفه وعاد للا سطوانة ليزيح غطاءها المعدني ويتأمل ملامح الفتاة مجدداً.. ثم همس "لماذا اتصلتِ بي أنا؟.. لماذا أبلغتني عن هذه السفينة والرحلة التي ستقوم بها؟.. أكنت تعلمين؟.. لكن كيف؟.. أأنت ساحرة؟"

لم يبدُ له هذا الوصف غريباً مع ملامح الفتاة الشاحبة وشفتيها اللتين بدتا تحملان ابتسامة خفيفة ماكرة..

فزفر نور وهو يدمدم "هل كنت تعرفين الحقيقة كلها؟.. أم أن كل شيء كان محض مصادفة؟"

لكن ذلك كان بعيداً عن حقيقة ما يجري حوله منذ تلقىٰ ذلك الاتصال لأول مرة.. لكن نور كف عن التفكير في الأمر وهو يغادر الغرفة مغلقاً الباب خلفه، لتغرق الغرفة في صمت تام وبرودة تثير رجفة في الأوصال..

****

في ذلك اليوم، عاشر يوم منذ انطلاق السفينة من ميناء آريس، استيقظ نور علىٰ صوت عابد الجهوري كالعادة، لكن لم يكن صياحه عادياً هذه المرة.. أسرع نور يرتدي ملابسه وخرج من غرفته التي لم تكن بعيدة عن غرف البقية وعن غرفة القيادة.. وفور خروجه استطاع أن يرىٰ عابد الذي سدّ ممر السفينة بجسده بتحفز واضح.. وأمامه وقف طارق عاقداً ذراعيه علىٰ صدره وتقطيبة شديدة علىٰ وجهه.. اقترب نور منهما يستمع لما يقال، فسمع عابد يقول بسخرية كعادته "لا أعتبرك رب عملي لتتحكم في كل ما أفعله يا هذا.."

فصاح طارق بغضب شديد لم يشهده نور من قبل "ما معنىٰ هذا؟.. من سمح لك بحمل صناديق مجهولة علىٰ السفينة؟.. افتح تلك الصناديق حالاً.."

قال عابد بهزء "افعل ذلك بنفسك.. يا رئيس.."

بدا اللقب مهيناً أكثر من كونه يعبر عن الاحترام، فقال طارق عابساً "الصناديق مقفلة بقفل إلكتروني.. ولا يمكنني فتحها دون أن أملك المفتاح الخاص بها.. وأنت قد تعمّدت وضعها في المخزن البعيد الذي لا

يصل إليه أحد عادة.. فما الذي تحويه هذه الصناديق حقاً؟.. مواد محظورة؟.. أسلحة؟.. ما الذي تهدف إليه حقاً من نقل هذه الصناديق معنا؟"

ضحك عابد معلقاً "أسلحة؟.. أظننت أنني قد أهتم بحمل مواد محظورة أو أسلحة لتهريبها لكوكب مهجور؟.. لماذا؟.. وعلى من سأتاجر بها هناك؟"

قال طارق مقطباً بشدة "هذا ما أريد معرفته.. لو لم تكن تخشى عثورنا عليها لما أخفيتها في المخزن الآخر البعيد عن موقع البقية.. فعلى ماذا تحتوي تلك الصناديق حقاً؟"

بدا من جدال الاثنين أن عابد لن يستسلم بتاتاً ولن يفصح عن حمولته المجهولة.. فتراجع نور بصمت وانطلق بخفة نحو المخزن الثاني في الجانب الآخر من السفينة.. كان ذلك المخزن شبه مهمل ولا يحتوي إلا على بعض معدات وأجهزة الطوارئ، بينما تم الاحتفاظ بالبضائع الخاصة بهذا الفريق الصغير في المخزن الآخر الأقرب لباقي مواقع السفينة المأهولة..

تسلل نور نحو المخزن مدفوعاً بشيء من الفضول الذي لم يستطع كبحه، وقد كان باب المخزن مفتوحاً على مصراعيه بعد اكتشاف طارق لأمره، فاتجه نحو صندوقين من خشب لا مع أسود اللون رآهما وسط المخزن.. كان الصندوقان طويلان شيئاً ما، بطول رجل وعرضه تقريباً، وقد وضع طولياً في وسط المخزن الذي عمّه الغبار والرائحة الخانقة.. نظر نور باهتمام للصندوقين وهو يحاول تفسير ما يهدف له عابد بإحضارهما في هذه الرحلة الغريبة بالأساس.. من المستحيل أن يحتويا على أسلحة أو مواد ممنوعة، فهي أكبر من أن تخصص لهذا الغرض.. إلا لو كان عابد ينوي تسليح فرقة صغيرة من الجنود..

وقف نور عند رأس الصناديق بشيء من الاهتمام وقد جذبه أمر ما، ثم انحنى قربها متأملاً تفاصيل ذلك الجانب من الصندوق.. وأخيراً، بعد طول تفحص، مد يده وعبث بجزء من ذلك الصندوق ليجد ذلك الجانب يفتح فجأة كاشفاً عن فجوة صغيرة بقلبه.. لم تكن تلك الفجوة تسمح برؤية ما بقلب الصندوق، لكن ما رآه نور كان كافياً ليرفع حاجبيه بصدمة ودهشة، قبل أن يعيد إغلاق تلك الفتحة بتوتر ويغادر المخزن راكضاً.. يبدو أن طارق لم يتمكن من رؤية هذا الجزء، وإلا لأدرك ماهية محتويات ذلك الصندوق بدون شك.. لكن، لماذا فعل عابد ذلك؟.. ما هدفه حقاً؟.. بدأت قشعريرة تسري في جسد نور وهو يبتعد

عن المخزن.. يجب ألا يدرك عابد أنه اكتشف هوية محتوى الصندوق، ليس قبل أن يعلم البقية بذلك بالفعل.. فلا يتمالكه أي شك أن عابد سيحاول إسكاته بأي طريقة كانت.. لكنه لم يكد يبتعد عن المخزن حتى ارتطم بجسد عابد ليسقط أرضاً بعنف.. نظر نور بتوتر لعابد الذي ابتسم بجانب فمه قائلاً "ما الأمر؟.. أنت لا تقترب من هذا الجزء من السفينة بتاتاً عادة.. هل اشتعل فضولك أنت الآخر لمعرفة ما تحويه تلك الصناديق؟"

نهض نور قائلاً بتوتر "لا.. كنت أتفحص الموقع فقط.."

وابتعد مغمغماً "عليّ الرحيل.."

لكن عابد أمسكه من عنق قميصه قائلاً "مهلاً.. ليس بهذه السرعة.."

حاول نور الإفلات من قبضة عابد قائلاً بتقطيبة "ما الذي تريده يا هذا؟"

لكن عابد جذبه معه نحو الصندوقين وهو يتفحصهما بنظرة مدققة، ثم وجده نور يشدّ قبضته على ذراعه قائلاً بلهجة حازمة "إذن، فقد رأيت ما بداخل الصناديق؟"

اتسعت عينا نور بشيء من الذعر، ثم ألقى نظرة سريعة على الصندوقين، ليدرك أنه في غمرة ارتباكه لم يغلق تلك الفتحة جيداً وبقي جانب منها متحركاً من موضعه بشكل ظاهر.. فزاد نور من مقاومته وهو يقول "لم أرَ شيئاً.. هذه الصناديق محمية بقفل إلكتروني، فكيف تظنني تمكنت من فتحها عنوة؟"

هزه عابد بغضب قائلاً "لكنك رأيت ما بجانب تلك الصناديق.. لا تكذب فعبثك بها واضح تماماً.."

صاح نور وهو يدفع يد عابد ويحاول إبعاده عنه بشدة، لكن عابد تجاهل محاولات نور البائسة وهو يدفعه نحو أقرب صندوق.. وقبل أن يتخلص نور من قبضة عابد وهو يشعر بالألم من ضغط الصندوق على جسده، وجد عابد يحيط بيده القوية عنقه ويضغط بشيء من القوة قائلاً بعينين تشتعلان غضباً "وكنت تنوي الهرب والإسراع إلى ذلك المتأنق لإخباره بما رأيته كأي فأر صغير.. أليس كذلك؟"

جحظت عينا نور وهو يقول بصوت متحشرج "لا.. لا.. أنا لم أرَ شيئاً.. لن أتحدث عن أي شيء.."

ظل عابد يرمقه بنظرات صارمة دون أن يخفف ضغط يده، فقال نور وقد بدأ وجهه يحمرّ بشدة ويجد صعوبة في التنفس "صدقني.. لن أتحدث عن أي شيء.."

فقال عابد بلهجة تحذير شديدة "اسمعني، لو حاولت مجرد محاولة أن تشكو أي أمر يخصني إلى القائد أو ذلك المتأنق، فلن يحميك أحدهما من انتقامي.. أتفهم؟"

هز نور رأسه بسرعة، فأطلقه عابد وهو يجذبه ليقف، فيما سعل نور بشدة والاحمرار يتزايد في وجهه دون أن يلقي له عابد بالاً وهو يعيد غطاء تلك الفتحة إلى موضعها بحذر.. ولما تمالك نور نفسه قال بصوت متحشرج "لكن ماذا في ذلك الصندوق حقاً؟.. ولماذا أحضرته في هذه الرحلة؟"

لم يجبه عابد، فأضاف نور بشيء من الحذر "ألا يعتبر ما تفعله جريمة بأي شكل كان؟"

قال عابد بجفاء "لا شأن لك بذلك.."

سمعا صوت طارق من قرب باب المخزن يقول بحزم "بل هو شأننا ولا شك.."

نظر نور بلهفة لذلك الجانب ليجد طارق يتقدم عبر الباب المفتوح وخلفه نوح الذي يتبعه بنظرات قلقة.. نظر عابد لهما مقطباً بدوره بينما تراجع نور خطوة بتوتر وهو يقلب بصره بين طارق وعابد محاولاً تقدير أفضل خطوة له.. هل الأفضل له الاعتماد على طارق والتصريح بحقيقة ما اكتشفه؟.. أم الأسلم له أن يصمت ويتجاوز غضبة عابد المحتملة لمثل هذا التصرف؟.. ظل في حيرته تلك لحظات وطارق يسأله "ما الذي تفعله هنا يا نور؟.. أأنت شريك عابد في هذا الأمر؟"

اتسعت عينا نور بقلق وكاد ينفي الأمر بشدة، لكن عابد سارع ليحيط عنقه بذراعه القوية بتهديد واضح وهو يقول بابتسامة متسعة "لا ينوي أحدنا أي شيء.. كنت أطلب مساعدة نور في أمر ما، هذا كل ما في الأمر.."

لكن نور كان قد حسم أمره، فركل ساق عابد ودفع ذراعه بعيداً عنه، وفور أن تخلص منه انحنى بعيداً عن متناول يده وركض نحو طارق المندهش.. ولما اختبأ خلفه قال له بلهفة "هناك شيء حيّ في هذين الصندوقين.."

نظر له طارق ونوح بصدمة بينما زمجر عابد قائلاً بصوت حاد "نور.. تعالَ هنا.."

لكن نور لم يتحرك من موقعه وطارق يتساءل بتقطيبة "شيء حيّ؟.. ماذا تعني؟"

أسرع نور يقول "عابد يخبئ شيئاً ما أو شخصاً ما في الصندوقين.. شيء يحتاج للهواء ويحتاج للتغذية

طوال الرحلة.. لقد رأيت هذا بعينيّ في فتحة في رأس الصندوق.."

صاح عابد بغضب "نور.."

انكمش نور على نفسه شيئاً ما وهو يقلّب بصره بقلق بين عابد وطارق.. فيما دمدم نوح بتوتر ظاهر "شخص ما؟.. من؟"

والتفت لعابد بعينين متسعتين قائلاً "هل قمت باختطاف شخص ما؟.."

وجدوا طارق يستلّ مسدساً من جيب سترته الداخلي ويصوّبه نحو عابد قائلاً بصرامة "اصمت وافتح هذا الصندوق.."

تراجع عابد قليلاً بقلق، ثم قال ساخطاً "لم كل هذه البلبلة لأمر صندوق؟.. أتصدق ما يقوله هذا الفتى على قولي؟"

فهتف نور "يمكنني أن أثبت ذلك.."

عندها قال طارق لعابد "ابتعد عن هذه الصناديق.."

ظل عابد في موقعه ينظر بشيء من التحدي للمسدس في يد طارق.. ثم قال بابتسامة جانبية "ستخاطر بالإطلاق وسط سفينة في عرض الفضاء؟.. لا أظنك بهذه الجنون.."

قال طارق بصرامة "نحن في وسط السفينة، وجدران السفينة مدرعة لا تخترقها الرصاصات بسهولة.. ظننتك تدرك هذا.."

ظل عابد ينظر له بتقطيب بينما كرر طارق "قلت لك ابتعد بصمت.."

لم يجد عابد بداً من التراجع خطوتين، عندها هرع نور نحو رأس أحد الصندوقين وفتحه بسرعة بينما اقترب طارق ونوح لرؤية ما يكشف عنه هذا الغطاء.. وخلفه، استطاعا أن يريا اسطوانة أكسجين مع اسطوانة أخرى أدركا هويتها على الفور.. وقد تم إيصال الاسطوانتين بجهاز صغير في رأس الصندوق يهدر بصوت خافت جداً.. قال نوح بصدمة وهو يضرب جبهته بيده "هذه بالفعل اسطوانة أكسجين، والأخرى تحوي مادة مغذية مركزة نعرفها تمام المعرفة.."

نظر طارق لعابد عابساً بينما علق عابد بسخرية "أنت تهذي يا أبتاه.."

قال نوح باعتراض "بل أنا واثق.. لقد نقلت في سفينتي عدداً لا يحصى من المرضى.. منهم من هو في غيبوبة ومنهم من يحتاج عناية خاصة.. وقد كنا نرى طاقم الإسعاف يضع جهازاً شبيهاً لهذا موصولاً بالمريض، وموصل به اسطوانة تضمن له التغذية الملائمة طوال الرحلة التي قد تستغرق أحياناً أسابيع بسبب مرورها بعدة محطات.. لا يمكن أن أخطئ في أمرها بتاتاً.."

فقال طارق بعصبية "افتح الصندوقين الآن يا عابد.. وإلا ألقيتك خارج السفينة في التو واللحظة.."

حك عابد شعره للحظات والثلاثة يراقبونه بشيء من التوتر، ثم قال عابد "حسناً.. لكن أعد مسدسك هذا لجيبك.. لا أضمن ألا تطلق رصاصة عليّ بالخطأ.."

عبس طارق وهو يعيد مسدسه لجيبه قائلاً "كف عن سخريتك هذه وقم بما طلبت منك.."

استخرج عابد بطاقة إلكترونية من جيبه، واتجه إلى أحد الصندوقين الرابضين أرضاً بصمت.. فمرّر البطاقة على القفل الإلكتروني في جانب الصندوق ليسمع الجميع صوتاً قصيراً يدلّ على فتح القفل.. عندها قام عابد بفتح الغطاء ونور يتقدم ليرى ما تحته بفضول، بينما بقي نوح وطارق يراقبان بصمت.. وفور أن انكشف الغطاء، تبدّى تحته جسد اتسعت له عينا نور بدهشة فيما قطب نوح وطارق باستنكار وغضب.. كان الجسد لشاب يتجاوز العشرين بسنوات قليلة، متوسط الطول ببشرة بيضاء شاحبة وشعر أسود فاحم، وقد غرق في نوم عميق أقرب لغيبوبة.. ملابسه بسيطة لا تدلّ على رفعة مكانة أو وضاعة حال، بينما اتصلت بذراعه عند الرسغ حلقة من مادة لدنة تتصل باسطوانة التغذية عبر أنبوب طويل شفاف..

دمدم نوح بقلق "من هذا؟.. أهذا اختطاف؟"

بينما صاح طارق بغضب "كيف تفعل هذا؟.. من سمح لك بذلك أيها المأفون؟.. الآن يسعدني تسليمك لأقرب دورية للأمن بتهمة اختطاف هذا الشخص.."

لم يعبأ عابد بصياح طارق بينما قال نور "ماذا عن الصندوق الآخر؟"

وإزاء نظرة تهديد من طارق، قام عابد بفتح الصندوق الآخر مغمغماً "هذه ساعة لن تنتهي بتاتاً.."

وعندما رفع غطاء الصندوق، استطاع الثلاثة رؤية تلك الفتاة التي لم تتجاوز العشرين إلا بسنوات قليلة، والتي تشابه الفتى في ملامحه بشكل كبير، وإن كانت تملك شعراً أسود طويلاً عقصته وربطت طرفه بشريط

ناعم بلون سماوي..

كان صبر طارق قد نفذ فتقدم من عابد ودفع مسدسه في وجه الأخير وهو يقول بغيظ "لقد احتملت صفاقاتك طويلاً خلال الأيام الماضية.. أما هذا، فلا يمكنني الصمت عليه.. كيف تجرؤ على فعل شيء كهذا في هذه السفينة؟.. وما هدفك من هذا كله؟"

أمسك عابد المسدس بقوة وأبعده عن وجهه قائلاً بلهجة حازمة "كف عن العبث بهذه اللعبة يا رئيس.. قد تصيب أحداً دون أن تنتبه.."

سمعا نور يقول "ما الذي تفعله يا سيدي؟.."

التفتا ليجدا نوح منحنياً على الصندوق الذي يرقد به الشاب وهو منشغل بنزع الحلقة من رسغه بشيء من الحرص، فقال نوح "من البديهي أننا يجب أن نوقف تدفق هذه المادة في عروقه.. لا بد أنها تحوي مادة مخدرة، ولن يستيقظ حتى نوقف تدفقها لجسده.."

قال عابد بضيق "لا تفعل هذا يا أبتاه.. سيثير بلبلة إن استيقظ ووجد نفسه على السفينة.."

فقال طارق بغضب "إذن هو اختطاف بالفعل.."

أجاب عابد بشيء من التحدي "أجل، هو اختطاف.. إن كان هذا ما يسعدك سماعه، فسأردده كما يحلو لك.. لكن عليك أن تدرك أن هذا لم يحدث إلا بطلب من آنستك المدللة تلك.."

تجمدت يد طارق الممسكة بالمسدس وهو ينظر لعابد بدهشة، بينما التفت نوح ونور إليهما بدهشة مماثلة..

فقال عابد "إن كان هناك من يجب أن تسأله عن السبب، فهو تلك الفتاة غريبة الأطوار.."

تساءل طارق بحيرة وتوتر "كيف؟.. لماذا؟ ما الهدف من هذا الطلب؟"

ونظر لعابد قائلاً بحدة "متى طلبت منك ذلك؟.. كيف اتصلت بك دون علمي؟"

ابتسم عابد بسخرية معلقاً "هل ساءك أنها اتصلت بي دون علمك؟.."

قال طارق بحنق "كف عن هذه التعليقات.. كيف تثبت أنها طلبت منك ذلك بالفعل؟.. أي هراء يمكن أن يبرر هذا الفعل؟"

قال عابد بتحدٍ "ربما كان الإثبات الوحيد الذي أملكه هو هوية هذين الشخصين، رغم أنني لا أعرف

هويتها حقاً.. أما زيارة الفتاة لي، وقد كانت وحيدة في ذلك الوقت، فلا أملك إثباتاً عليه.."

واتجه إلى الصندوق الذي يحوي جسد الشاب مضيفاً "أكنت تتوقع مني الحصول على إقرار مكتوب منها بأنها طلبت مني ذلك؟"

ظل طارق واقفاً بحيرة يحاول استيعاب هذه الفكرة، بينما طلب عابد من نوح التنحّي وقام بنزع تلك الحلقة من يد الشاب برفق وحرص.. فعلق نور قائلاً "أهذه الحلقة عبارة عن جهاز طبي؟"

أجاب عابد "أجل.. إنه جهاز صغير يمكنني من غرس حقنة في أوردة الشاب وتثبيت أنبوب السائل المغذي دون أن أملك خبرة طبية.. وهو أمر عملي وسريع كما ترى.."

بعد أن فرغ من ذلك، وقف قرب الصندوق مضيفاً "خلال وقت قصير، سيستيقظ هذا الشاب من نومه.. عندها يمكنكم أن تعرفوا منه علاقته بالفتاة والسبب الذي دعاها لهذا الطلب الغريب.. فهي لم تخبرني بشيء عدا عن ذلك.."

ظل طارق يحدق بوجه الشاب بصمت لفترة طالت، ثم قال لنور "ابقَ قريباً من الصندوق حتى يستيقظ الشاب، عندها أبلغني فوراً بالأمر.."

تساءل نوح "ماذا عن الفتاة؟"

أجاب طارق "أبقوها كما هي حتى نتحدث مع الشاب ونفهم الأمر.. لا نريد المزيد من البلبلة.."

وغادر المخزن بصمت وهو يشعر بشعور لم يدرك كنهه في البداية.. رغم أنه يثق بالآنسة ثقة عمياء لطول عمله معها، إلا أن أمراً ما من تصرفاتها الأخيرة يصيبه بشيء من التوجس.. وهذا الطلب الأخير الذي طلبته من عابد يزيد من جرعة التوجس في صدره بشكل كبير.. ما الذي تبغيه حقاً من كل هذا؟.. لم يعد الأمر مجرد رحلة للأرض بناء على طلبها، بل بدأ الأمر يصبح أكبر من ذلك بوضوح..

بعد مغادرة طارق ونوح، فوجئ نور بيد عابد تجذبه بقوة وتثبته على جدار قريب، بينما نظر له عابد بابتسامة غير مريحة قائلاً "شكراً لك يا فتى لكل هذه المتاعب التي سببتها لي.. كيف يمكنني أن أجازيك على كل هذا؟"

غمغم نور بتوتر لا محدود "ما رأيك بإطلاق سراحي؟.. سيكون هذا كافياً.."

نظر له عابد بتعجب، فقال نور بابتسامة صغيرة "هيا.. لا أظنك من النوع الذي يلجأ للانتقام.. ثم إن الأمور قد حلّت بمجرد نطقك اسم تلك الفتاة.. فممَ أنت متضايق؟"

تخلى عنه عابد وهو يقول "وما أدراك أنني لن ألجأ للانتقام حقاً؟"

أجاب نور بثقة "أنت لست من هذا النوع.. هذا كل ما أدركه.."

نظر له عابد بتعجب لهذه الثقة، ثم قال وهو يتناول لفافة تبغ من جيبه "في المرة القادمة لا تأمنّي بهذه الثقة يا فتى.. لا تعلم متى سأغدر بك حقاً.."

غمغم نور مقطباً "لا تبدأ بالتدخين في المخزن كعادتك.."

لوح عابد باللفافة في وجه نور قائلاً "وكنوع من العقاب، يمكنك أن تتولىّ تحضير طعام العشاء الليلة.. وكن حذراً من غضب طارق لو كان الطعام غير مستساغ له.."

فقال نور بحنق "لا يمكنك فعل ذلك بي.."

ضحك عابد وهو يغادر معلقاً "بل يمكنني ذلك بالطبع.."

سمع نور يدمدم بحنق "شخص بغيض.."

لكنه لم يعلق، فيما رأى في تلك اللحظة طارق يقف قرب باب المخزن قائلاً بشيء من الحدة "عابد.. اتبعني لغرفة القيادة.."

واستدار دون أن ينتظر رداً من عابد الذي غمغم بشيء من الحنق وهو يعيد لفافة التبغ لجيبه "تباً.."

جلس نور جانباً ووضع خده على يده وهو يزفر بملل مراقباً الصندوق بانتظار أن يفتح الشاب عينيه.. ولشدة لهفته لمعرفة الحكاية، راودته فكرة أن يهزّ الشاب بقوة ليجبره على الا ستيقاظ.. لكنه كفّ عن التفكير بهذا وهو يزفر من جديد.. تلك ساعة طويلة جداً لا يبدو أنها ستمضي بسهولة..

****

في تلك الأثناء، كان عابد في غرفة القيادة يجلس بضجر واضح وأمامه طارق الذي قال "أريد أن تخبرني

بكل ما تفوهت به الآنسة.. لا تغفل عن أي أمر بتاتاً.."

علق عابد قائلاً "ما الذي سيفيدك به ترديد ما قالته الآنسة كبيغاء؟.. أخبرتك أن هذا ما طلبته مني وهذا ما نفذته.."

عقد طارق حاجبيه قائلاً "أطِع ما طلبتُه منك.."

اعتدل عابد مغمغماً "كما تشاء.."

لاحظ أن نوح يجلس جانباً يستمع إليه باهتمام مماثل، فقال عابد "حدث هذا بعد عدة أيام من الزيارة التي قمتَ أنت بها لتهديدي.. في وقت مبكر من ذلك اليوم، وجدت الآنسة تقف على الرصيف وحيدة تتأمل السفينة بصمت.. لم يصحبها سوى ذلك الحارس الشخصي، وتعجبت لعدم رؤيتك أنت معها.. عندما سألتها عن سبب هذه الزيارة الغريبة، ابتسمت وقالت إنها كانت تنتظرني، وأنها تثق بي بشكل كبير، ولذلك أتت إليّ مباشرة.."

رفع طارق حاجبيه بدهشة وهو يستمع لحديث عابد.. أصابه العجب لثقة الآنسة بهذا الشخص، وساءه في الآن ذاته أنها قد توجهت لعابد بشكل شخصي دون أن تشركه في الأمر، وكأنها لا تثق به بشكل كافٍ.. لكنه طرح تلك الأفكار جانباً وهو يستمع لعابد الذي أضاف "سألتها عن سبب هذه الثقة وهي لا تعرفني حقاً، لكنها لم تجب.. بل قالت إنها تريد مني تنفيذ أمر ما.. أمر مهم قد أتعجب له أو أستنكره.. لكنني يجب أن أنفذه في جميع الأحوال حتى لو جوبهت برفض قاطع من جميع الأطراف.. أرتني صورة لهذا الشاب والفتاة، وأخبرتني بإسميهما وبأنهما يسكنان وحيدين في آريس.. لم تخبرني بعلاقتها بهما، لكنها شدّدت عليّ أنني يجب أن أصطحبهما معي على ظهر هذه السفينة مهما كانت العوائق.. طبعاً ألححتُ لمعرفة السبب، لكنها اكتفت بذكر أن الأمر مهم وضروري، وأن عدم إتمام ذلك قد يتسبب بفشل كل شيء.."

غمغم نوح بقلق "فشل كل شيء؟.. ماذا كانت تعني بهذا؟"

علق عابد "لست أدري.. ولا أعلم ما علاقة دفن جثمانها باصطحاب هذين الاثنين.. عندما توجهت للشاب بطلب الآنسة، بدا بوضوح أنه والفتاة يعرفانها منذ زمن بعيد.. لكنهما رفضا بإصرار الموافقة على هذا الطلب وطرداني من منزلهما.. عندها لم يكن أمامي إلا إحضارهما بهذه الطريقة ولم يبقَ على رحيل

السفينة من مستوطنة آريس إلا ساعات معدودة.. وليس من صالحي، ولا من صالح رحلتنا هذه، اصطحابهما بالقوة مما قد يلفت لنا الأنظار.."

تساءل طارق "أأنت متأكد أن الآنسة لم تذكر شيئاً آخر؟"

أجاب عابد "طبعاً أذكر ما دار بالحرف الواحد.. رغم مرور ما يزيد على الشهر عن ذلك اليوم، لكني أذكره وكأنه حدث بالأمس.."

نهض طارق وأخذ يدور في الغرفة مقطباً بينما علق عابد قائلاً " أنت أدرى الناس بالفتاة، ولا بد أنك تستطيع تخمين ما كانت تهدف إليه من إحضار هذين الشابين معنا.."

قال طارق بضيق "لكنني لا أدري حقاً ما الذي عَنَته الآنسة بهذا الطلب.. ولا هوية هذين الاثنين بتاتاً.."

غمغم نوح وهو ينظر لعابد " مازلت أظنك قد تسرعت بالأمر دون أي داعٍ.. كان بإمكانك إبلاغنا بالأمر.."

قال عابد بضجر "لو فعلت لقمتم بإيقاظهما قبل ابتعادنا عن المستوطنة، وعندها سيثير الشاب بلبلة حتى يجبرنا على إعادته هو والفتاة رغماً عنا.. لم أكن أتمنى إيقاظهما قبل وصولنا لنهاية الرحلة على الأقل.."

صمت نوح وهو يلاحظ طارق الذي وقف وسط غرفة القيادة مطرقاً بصمت، بينما لوّح عابد بيده مضيفاً "بهذا، أعتقد أنك لا تملك الحق لتأنيبي.. أليس كذلك؟"

لكن طارق لم يعلق وهو يدمدم واضعاً يداً على جبهته وقد عبس بشدة "لقد بدأت الأمور تخرج من مخططها الأصلي.. لماذا تلجأ الآنسة لمثل هذه الطرق الملتوية دون الرجوع إليّ؟.. كنتُ سأنفذ كل ما تطلبه مهما كان، فلماذا....؟!"

تساءل نوح بشيء من الضيق "مازلنا نجهل مخططاتكم الأصلية يا طارق.. هل ستبقينا في الظلام للنهاية؟"

اعتدل عابد في جلسته قائلاً بلهجة حازمة " أجل، ربما حان الوقت لتخبرنا بما لديك أنتَ وتلك الفتاة وتكفّ عن معاملتنا كمجرد عمال لديكما.."

نظر له طارق وقال بضيق "ما الذي تظنني قد أخفيه؟"

أجاب عابد " كل شيء.. أنتما تخفيان الكثير، وبما أننا لا نستطيع استجواب الآنسة، فلا يبقى أمامنا إلا

سؤالك أنت.. ربما من الأفضل للجميع لو بدأت اعتبارنا كشركاء في هذا الأمر.."

نظر له طارق بشيء من الاستنكار وقال "شركاء؟!"

ابتسم عابد بسخرية معلقاً "أيسيء لك هذا؟"

سمعا نوح يقول بقلق شديد "ربما كان من الأفضل تأجيل هذا الموضوع قليلاً يا رفاق.."

نظرا له بشيء من التعجب ليجداه يحدق في أجهزة تحكم السفينة مضيفاً "نحن نواجه مشكلة.."

اقترب طارق منه متسائلاً "ما الأمر؟.. أهناك خلل في السفينة؟.. لا أسمع أي إنذار بذلك.."

أشار نوح للشاشة أمامه قائلاً بتوتر كبير "أترى؟.. هذه السفينة تتبعنا وتقترب منا بسرعة كبيرة.."

غمغم طارق وهو يدقق البصر "أهي تابعة لمجلس الأمن؟"

رفع نوح بصره إليه قائلاً بصوت يرتجف "بل هي خاصة بقراصنة الفضاء.."

أطلق عابد شتيمة وهو ينهض بسرعة ويقترب منهما، بينما قال طارق عاقداً حاجبيه "ألا يمكنك زيادة سرعة السفينة؟.. لا نريد مواجهتهم، والفرار أسلم لنا في هذه الحالة.."

قال عابد باستنكار "يبدو أنك لا تملك أي خبرة بمواجهة القراصنة.. أتظن أنهم سيسمحون لنا بالفرار؟.. ليس الأمر بالسهولة التي تتخيلها.."

نظر طارق لعابد ونوح بدهشة وقال "لم يحدث شيء بعد.. يمكننا تفادي مثل هذه الكارثة.. أليس كذلك؟"

زفر نوح وهو يتراجع في كرسيه قائلاً بيأس "لا أظن هذا ممكناً بتاتاً.."

راقب طارق السفينة المعادية وهي تقترب منهم، ورغم كونها لجماعة من اللصوص، إلا أنها كانت أكبر وأكثر حداثة من سفينتهم بشكل كبير.. مما يجعل لجوءهم للسطو على سفينة قديمة مثل هذه يثير العجب..

كان نوح يزيد من سرعة سفينتهم بالفعل، بينما تساءل عابد "ما التسليح الذي تملكه سفينتك؟.."

قال نوح بتوتر "هذه سفينة نقل بضائع.. ما التسليح الذي تتوقعه فيها؟"

فقال عابد بضيق "إذن نحن مقضيّ علينا يا أبتاه.."

علق طارق قائلاً "لا داعي لكل هذا اليأس.."

رأوا في تلك اللحظة التماعة صدرت من مقدمة سفينة القراصنة، أعقبها انفجار محدود في الفضاء قرب مؤخرة السفينة دون صوت لعدم وجود هواء يحمله.. لكن الانفجار كان واضحاً على السفينة باهتزازها بشدة.. تشبث الثلاثة بسبب الاهتزاز وطارق يقول بغير اقتناع "إنهم لن يعمدوا لإصابة السفينة بالتأكيد.. ما الذي سيستفيدونه لو انفجرت السفينة لأشلاء؟.."

لم يعلق نوح أو عابد والأول يحاول الالتفاف جانباً لتجنّب الهجوم عندما حدث انفجار آخر أصاب السفينة مباشرة إصابة محدودة.. ومع اهتزاز السفينة بقوة والأضواء تتراقص في غرفة القيادة صاح عابد "لقد أصابونا.."

تفحص نوح أجهزته وقال بقلق "لا أعرف ما الضرر الذي حدث في السفينة بعد، لكنه لا يبدو خطيراً.."

والتفت لعابد قائلاً "اذهب لمؤخرة السفينة واستخدم أجهزة الصيانة لتفحص السفينة عن كثب.. قد نحتاج إليك هناك أكثر مما نفعل هنا.."

استدار عابد مغادراً غرفة القيادة بسرعة، بينما قلّب طارق بصره بين الشاشة وبين الخارطة بحثاً عن مخرج دون الحاجة لمواجهة القراصنة بشكل مباشر.. أما نوح فقد جاهد لزيادة سرعة السفينة والهرب بها وهو يدمدم بقلق شديد "فليرحمنا الله تعالى.."

****

الفصل الخامس

قفز نور من موقعه مع الاهتزاز الذي طرأ على السفينة بقوة ومع تراقص الأضواء في المخزن حيث قبع وفقاً لأوامر طارق.. ظل يتلفت حوله بتوجس مغمغماً بقلق "ما الذي يجري؟.. أرجو ألا تكون هذه السفينة الخربة قد قررت أن تنهي سنوات خدمتها الطويلة الآن.."

عادت السفينة تهتز بقوة وشدة أكبر ونور يتشبث بالصندوق الذي كان يجلس فوقه وقلقه يتضاعف بشدة.. ثم سمع أنيناً قريباً من الصندوق الرابض أرضاً، ولما نظر إلى الشاب الراقد وسط الصندوق رآه يعتدل جالساً بوهن وهو يضع يده على رأسه مغمضاً عينيه اتقاء للنور الذي أزعجه.. ثم قال بصوت ضعيف "ما الذي يجري هنا؟"

فقال نور بتوتر "جيد أنك استيقظت الآن.. سأذهب لغرفة القيادة وأرى ما يجري.. ابقَ في موقعك ولا تغادره فهذا أأمن لك.."

فتح الشاب عينيه على اتساعهما لما سمعه، والتفت حوله بصدمة وهلع قبل أن يصيح "أين أنا؟.. من جاء بي لهذا المكان؟"

صاح نور وهو يغادر "ليس الوقت وقت أسئلة.."

ركض في ممرات السفينة عندما شعر بارتجاج قوي يصيب السفينة وكأنها أصيبت بضربة ما، ووجدها تميل جانباً بشدة بحيث سقط نور على جنبه مرتطماً بالممر.. لكنه تمالك نفسه بسرعة ونهض من جديد راكضاً نحو غرفة القيادة وهو يهمس بجزع "هل تتعرض السفينة لهجوم؟"

بعد ركض قصير رأى عابد يعبر أحد الممرات المؤدية لجانب آخر من السفينة راكضاً والجدية بادية على ملامحه المقطبة.. فصاح نور "ما الذي يجري هنا يا عابد؟.. أتتعرض السفينة لهجوم؟"

صاح به عابد "إنهم قراصنة الفضاء.. الحق بي بسرعة، قد أحتاج مساعدتك.."

وركض في طريقه، فلم يبطئ نور سيره وهو يحوّل اتجاهه ليتبع عابد وقد زاده هذا الخبر قلقاً وتوجساً أكثر

مما سبق.. لم تكن له خبرة سابقة مع قراصنة الفضاء، لكن ما سمعه عن تلك الفئة يصيب أشد الرجال ثباتاً بالقلق الشديد.. بدأت القرصنة تظهر مع تمدد وتكاثر الجنس البشري في المستوطنات الفضائية ونشوء فئة عاجزة عن الانضمام لأي عمل أو الحصول على أي دخل بطريقة اعتيادية، وزادت المافيا من سوء حال تلك الفئة مما دفعها للسطو على السفن والاستيلاء على ما يملكه روادها وما تحمله في قلبها والإتجار به في السوق السوداء التي ترحب بمثل تلك الأعمال وغيرها الكثير مما يخالف كل القوانين في المستوطنات.. ومع مرور الوقت ازدادت سطوة أولئك اللصوص وبدأ شرهم يزداد بحيث أصبحوا خطراً يهدد أمن الملاحة الفضائية.. وعجز مجلس الأمن الفضائي ودورياته من ردع أعمال القرصنة والقبض على مرتكبيها إلا في نطاق محدود جداً وغير مؤثر في تلك الأعمال..

والآن، للمرة الأولى يشهد نور هجوماً من القراصنة على سفينة يرتادها، وهي خبرة لم يكن يتمناها بأي حال من الأحوال.. خاصة في سفينة قديمة وضعيفة التجهيز مثل هذه.. توجه نور لعابد متسائلاً بصياح ليغطي على الصرير الذي يصدر عن اهتزازات السفينة المتكررة "ما الذي يمكننا فعله لتفادي هذا الهجوم؟"

لم يجبه عابد وهو يتشبث بجدران الممر بقوة بعد أن مالت السفينة بشدة، بينما فقد نور توازنه بسهولة والاهتزاز يرميه عدة أمتار للأمام بعنف.. أسرع عابد يقبض على ذراع نور بقوة لئلا يؤذي نفسه بالارتطام بالجدران المعدنية وهو يقول بحنق "انتبه يا فتى.."

تمالك نور نفسه من جديد بعد ثبات السفينة وهو يبعد قبضة عابد عن ذراعه قائلاً بتوتر "آسف.. سأفعل ذلك.."

فقال عابد وهو يستمر بركضه "في المرة القادمة لن أعبأ بشأنك.."

أسرع نور يتبعه وهو غير مدرك لما يمكن أن يفعله في هذا الوقت.. أهما ذاهبان للاطمئنان على حال السفينة أم للإعداد لصدّ ذلك الهجوم؟..

في تلك اللحظة، سمعوا صوت ارتطامٍ مدوٍ في مؤخرة السفينة، عندها صاح نور "أصيبت السفينة.."

لم يعلق عابد وهو يركض نحو مؤخرة السفينة بقلق شديد، بينما صاح نور بفزع "إلى أين ستذهب؟.. قد

يكون الهجوم قد أحدث ثغرة في السفينة.. سنموت لو اقتربنا من ذلك الموقع.."

فقال عابد بحدة "لذلك علينا التأكد أن أجهزة الطوارئ ستعمل على إغلاق ذلك الموقع.. وإلا متنا جميعاً بالفعل.."

لاحظ نور أن أضواء حمراء قد بدأت ترتعش في الممر وصوت الإنذار يتعالى متقطعاً في أرجاء السفينة.. فركض خلف عابد وقد تزايد قلقه لذلك.. لابد أن إصابة السفينة خطيرة، وإلا ما اندلع صوت الإنذار في أرجائها بهذا الشكل.. وبعد أن عبرا عدة ممرات وإحدى القاعات متوسطة الحجم، تمكنوا من الوصول قريباً من الغرفة التي تحوي محركات السفينة.. حاول عابد دخول الموقع، لكن البوابة المفضية لغرفة المحركات كانت مغلقة بإحكام، فاستخدم شاشة مراقبة قريبة من البوابة ليتفحص الموقع قبل استخدام أجهزة الصيانة التابعة للسفينة لصيانة أي ضرر يصيبها..

ولما تبدّت غرفة المحركات على الشاشة، استطاع عابد أن يرى بوضوح ذلك الثقب الذي زيّن أحد جدرانها بشكل محدود.. ورغم صغر حجمه مقارنة بالضربة التي أصابت السفينة، إلا أن ثقباً مثل هذا يعدّ مميتاً في الفضاء.. استدار عابد إلى جهاز اتصال داخلي قائلاً بتوتر "يجب أن أبلغ نوح بذلك.."

تساءل نور بقلق "ماذا لو أصيبت السفينة بضربة أخرى؟"

قال عابد "أتمنى ألا يحدث ذلك.."

أجرى اتصاله بغرفة القيادة، وأدلى بتقريره لنوح بينما بقي نور يراقب ما يجري في غرفة المحركات عبر الشاشة.. وما لبث عابد أن سمع نور يصيح به "عابد.. هناك حريق محدود في غرفة المحركات.. ما الذي يمكننا فعله؟"

أنهى عابد اتصاله وهو يشتم وتقدم من الشاشة التي تعرض ما يجري في غرفة المحركات.. كان الدخان قد بدأ يتكاثف في الغرفة بسرعة كبيرة بسبب الضربة السابقة التي طالت بعض الأجهزة القريبة وتسببت بدمارها وانتشار الحريق في الموقع.. ورغم أن الهواء كان يحمل الدخان خارجاً من الثقب الذي يفرّغ الغرفة منه بسرعة رهيبة، ما بقي كان يعتم الشاشة والنار تأكل ما حولها بشراهة تامة رغم تناقص الأكسجين السريع وهو مادتها الرئيسية..

وخلال لحظات، بدأت أجهزة إطفاء الحريق عملها وهي ترش رذاذاً أبيض اللون على النار بسرعة، لكنها رغم ذلك عجزت عن ملاحقة النار التي انتشرت في عدة مواقع.. فقال عابد بتوتر "هذا لا يكفي.. نحن في ورطة.."

وابتعد راكضاً ونور يصيح به "إلى أين ستذهب؟"

لم يجبه عابد وهو يندفع نحو غرفة قريبة، فيبحث في خزائنها من بين أردية الفضاء الاحتياطية عما يناسب حجمه، فأسرع يرتدي الرداء الذي كان يتكون من مادة متوسطة السماكة بلون أبيض تغطي جسده بشكل كامل إنما بحجم يقل عشرات المرات عن أردية الفضاء الأولى.. ظل صوت الإنذار المدوي يزيد من قلقه بشكل كبير، وبعد لحظات اندفع نور للغرفة صائحاً "الحريق يزداد بشدة ويكاد يصل للمحرك.."

بهت نور وهو يرى الرداء الذي يرتديه عابد، بينما قال الأخير وهو يرتدي الخوذة "سأرى ما يمكنني فعله بنفسي.."

صاح نور "هذا خطير.. كيف تدخل موقعاً خطراً كهذا في مثل هذه الأوقات؟"

قال عابد وهو يزيحه من طريقه "لو لم أفعل، فستنفجر المحركات بقوة شديدة، وقد يؤثر هذا بالسفينة كلها.. أتريد أن تقضي نحبك الآن؟.."

تساءل نور "ألن يكفي خروج الهواء عبر ذلك الثقب؟.. لو لم تجد النار الأكسجين الذي يغذيها، ستموت تلقائياً.."

قال عابد مقطباً "الثقب ليس واسعاً كفاية ليفرغ غرفة كبيرة كهذه بسرعة.."

ظل نور يراقب ما يفعله عابد بقلق.. ثم علق وهو يراه يقترب من البوابة المعدنية التي تفصلهم عن غرفة المحركات "مع نظام الطوارئ، يستحيل فتح البوابة بطريقة اعتيادية.."

قال عابد "نوح سيزودني بالشفرة التي تمكنني من إجبار البوابة على الاستجابة لي.."

وعبر اتصال سريع، كان نوح قد زوده بشفرة من خمسة أرقام تستخدم في حالات الطوارئ، فأدخل عابد الأرقام في لوحة مفاتيح قريبة من الشاشة، لتفتح البوابة على الفور بينما بقيت البوابة الأخرى مغلقة لمنع تسرب الهواء عبر الثقب وتعريض راكبي السفينة للخطر.. التفت عابد لنور قائلاً "ابقَ مراقباً ما يجري عبر

الشاشة.. وإن رأيت أي خطر يتهدد السفينة أبلغ غرفة القيادة على الفور.."

هز نور رأسه موافقاً بتوتر، فتقدم عابد متجاوزاً البوابة، عندها أغلقت خلفه على الفور بإحكام، ليتم تفريغ الممر من الهواء قبل السماح له بالعبور للجهة الأخرى منه ونحو غرفة المحركات..

ظل نور يراقب عبر الشاشة ما يفعله عابد، ولاحظ أن السفينة لم تكف عن الاهتزاز والصرير بصوت مزعج وعالٍ.. فتلفت حوله بقلق شديد وهو يتساءل في سره إن كانوا سينجون من هذا الهجوم الغادر.. أم أن نهايتهم ستكون في هذا الجزء البعيد من الفضاء.. بعيد عن موطنهم وبعيد عن هدفهم في الآن ذاته..

****

استغرق نوح بكل انتباهه في المناورة بالسفينة بينما تطايرت الطلقات حولها بشكل كثيف.. لكن الإصابة الأخيرة التي أصابت السفينة جعلت المناورة بها أصعب كثيراً من السابق، كما أن صوت الإنذار الذي دوّى في المكان أصابه بتوتر شديد جعله يصيح في جهاز الاتصال "عابد.. ما الذي حدث في مؤخرة السفينة؟.. أبلغني بما عثرت عليه، وابدأ إجراءات الطوارئ على الفور.."

جاءه صوت عابد يصيح من بين صوت الإنذار العالي "هناك إصابة محدودة في المؤخرة، ويبدو أنها قد أحدثت ثقباً محدوداً في جدار السفينة.. لكن خطة الطوارئ قد بدأت بالفعل، وتم عزل تلك المنطقة بشكل محكم.. لذلك لا يمكنني الوصول إليها في الوقت الحالي.."

سمع نوح صياح نور الذي قال "هناك حريق محدود في غرفة المحركات.. ما الذي يمكننا فعله؟"

أطلق عابد شتيمة وهو ينهي الاتصال، بينما قال نوح بشحوب "نحن مقضيّ علينا.."

قال طارق بحدة "القراصنة لن يستفيدوا من قتلنا جميعاً وتفجير السفينة.. عليك أن تكون مدركاً لذلك.."

فقال نوح بعصبية "لكنهم لا يعبؤون بحياتنا أبداً.. لا يهمهم إن قضينا نحبنا بسبب ثقب في السفينة، فالمهم عندهم أن يستولوا على ما فيها حتى لو تحوّل أصحابها لأشلاء.."

قطب طارق وهو يراقب ما يجري على الشاشة، ثم قال بحزم "إذن، علينا الإفلات منهم مهما كانت

المعوقات.."

قال نوح بحنق "وما الذي يمكنني فعله في هذا الفضاء الفسيح؟"

نظر طارق للخارطة المرتسمة على شاشة قريبة، ثم قال لنوح "اندفع نحو الثقب الفضائي.. إنه فرصتنا الوحيدة.."

نظر نوح لطارق بشيء من التوتر، فقال طارق مؤكداً على حديثه "لن يغامر القراصنة باللحاق بنا عبر الثقب الفضائي، فما قد نملكه لن يستحق هذا العناء منهم.. سيتراجعون ويتركوننا نعبر في سلام وبذلك نكون قد وصلنا لهدفنا مع أقل قدر من الخسائر.."

قال نوح بتوتر شديد وهو يراقب الخارطة "ولكن، هذا صعب نوعاً ما.."

قال طارق بفراغ صبر "لا نملك الوقت الكافي للتشاور في الأمر.. افعل ذلك بسرعة، فالسفينة غير مؤهلة لمواجهة كهذه مع القراصنة.."

ظل نوح ينظر لمختلف الأجهزة بتوتر شديد، وينقل بصره بين الخارطة وبين شاشة المراقبة التي تظهر سفينة القراصنة بوضوح وهم يطلقون طلقة جديدة من سلاحهم موجهة نحو ذيل السفينة ولكنها أخطأت بقدر بسيط.. فقال طارق باستغراب "ما الأمر يا نوح؟.. لم أنت متردد هكذا؟.."

زفر نوح بشيء من التوتر، ثم نظر لطارق بقلق قائلاً "أنا لم يسبق لي المرور عبر الثقوب الفضائية.. ولست واثقاً من قدرتي على ذلك.."

قال طارق بحدة "والآن تقول لي هذا؟"

صاح نوح بعصبية "لقد أمضيت الأيام السابقة أجمع ما أعرفه من معلومات لتفادي أي كوارث أثناء الانتقال، لكن أن أعبر الثقب بهذه السرعة ودون حرص فهذا....."

قال طارق محنقاً "ليس هذا وقت القلق.. أنت تملك خبرة طويلة في قيادة السفن الفضائية، ولن يكون هذا صعباً عليك.."

ارتجت سفينتهم شيئاً ما بشكل زاد قلق طارق ونوح، فقال طارق بحزم "انطلق عبر الثقب الفضائي يا نوح.. هذا هو أملنا الوحيد.."

أمسك نوح مقود التحكم بالسفينة بيدين ترتجفان وغمغم "يبدو ألا مفر من ذلك.."

وزاد سرعة السفينة متجهاً نحو الثقب الفضائي الذي أصبح على مقربة منهم.. كان الثقب الفضائي عبارة عن قرص دائري كبير بلون أسود لا يُرى ما خلفه لشدة سواده، بينما تلتمع حافته بقوس من نور مبهر معاكس للظلمة في قلبه.. لاحظ طارق عبر شاشة المراقبة أن سفينة القراصنة كانت مصرّة على اللحاق بهم، وراوده شعور أنها قد تلحق بهم عبر الثقب الفضائي.. ولو حدث هذا، سيضطرون لمواجهتها دون ريب.. فما الذي سيفعلونه بسفينة متهالكة كهذه إزاء هجوم القراصنة الكثيف؟..

أما نوح، فقد قام بضبط إعدادات السفينة للمرور في قلب الثقب الفضائي والتوتر يتصاعد في أعماقه بشدة.. تلقّت سفينتهم في تلك اللحظة ضربة قوية من القراصنة في ذيلها، ورغم محاولة نوح تجاوز الهجوم، إلا أن الضربة قد أصابت جانب مؤخرة السفينة التي اهتزت بشدة ومالت لجانبها بشيء من العنف.. تشبث نوح بأجهزته بقوة وهو يتفحص تقرير جهاز الفحص الآلي الذي يعرض الإصابات التي أصيبت بها السفينة، بينما تماسك طارق لئلا يسقط لعنف حركة السفينة وهو يرى الثقب الفضائي يقترب بسرعة..

في تلك اللحظة، سمع نوح يقول بقلق "جزء من محركات توجيه السفينة قد أصيبت بشكل كبير.."

تساءل طارق بسرعة "أهي إصابة خطيرة؟.."

أجاب نوح وهو يتفحص أجهزته "ليس شيئاً خطيراً لكنه سيؤثر في سير السفينة.."

ونظر لطارق بتوتر قائلاً "ربما من الأفضل ألا نعبر الثقب الفضائي في هذه اللحظة.."

لكن طارق ضرب الطاولة بيده قائلاً بحدة "لا.. اعبر هذا الثقب الآن يا نوح.."

قال نوح بعصبية "هذا عمل يحتوي على خطورة بالغة.."

فصاح به طارق "لكن بقاءنا يعني فشل هذه الرحلة بالكامل.. نفّذ الأمر يا نوح.. أنت تقدر على اجتيازه بكل تأكيد.."

استجمع نوح شجاعته أخيراً وغمغم بتوتر وهو يدفع محركات السفينة لتعمل بكل طاقتها "فليرحمنا الله تعالى.."

بدأت السفينة تتسارع في سيرها نحو الثقب، وبدأ الثقب بجاذبيته الكبيرة يؤثر على السفينة بشكل أكبر

وهي تنجذب بقوة نحوه بحيث لم يعد لها فكاك منه.. تمسّك نوح بمقود السفينة بقوة وهو يحاول تقويم سيرها ومنعها من الميلان بعد أن فقد أحد محركات التوجيه الموزعة بدقة على جانبيها..

ومع تسارع السفينة، لم يعد تغيير وجهتها ممكناً بتاتاً والثقب يجذبها نحوه بقوة بينما لاحظ طارق أن سفينة القراصنة قد خففت سرعتها ومالت جانباً وهي تراقب سفينتهم من موضع آمن.. عاد طارق ببصره للثقب الذي كاد يبتلعهم، وسواد قلبه قد التهم الشاشة كلها بحيث لم يعد من الممكن رؤية ما يواجههم.. ولما وصلت السفينة لقلب الثقب، اكتسبت أضعاف سرعتها العادية بسبب جاذبيته بحيث غدا تسييرها مستحيلاً، ولم يملك نوح إلا أن يحاول منعها من الميلان بقوة والمحافظة على استقامتها في سيرها..

ساد الظلام التام من حولهم إلا من خيوط نور تتراكض في الاتجاه المعاكس، وبدت السفينة كمن يعبر ممراً اسطوانياً طويلاً وهي ترتجف بشدة بسبب سرعتها الشديدة بحيث شعر طارق أنها قد تتفتت في أي لحظة وتتحول لغبار كوني.. كان ضغط السرعة شديداً عليهم وهو يثبتهم في مواقعهم دون حراك، لكن كل شيء انتهى دفعة واحدة والثقب يقذف السفينة وسط الفضاء بنجومه اللامعة وسرعتها تبدأ بالانخفاض بشكل كبير حتى وصلت للسرعة العادية، وكفّت السفينة عن إثارة رعبهم باهتزازها العنيف.. اعتدل نوح زافراً بشدة وهو يوجّه السفينة مبتعداً عن ذلك الثقب قبل أن يجذبها من جديد، بينما نهض طارق قائلاً "أرأيت؟.. لم يكن هذا عسيراً.."

وربت على كتف نوح بقوة، فقال نوح بتوتر دائم "هذه ضربة حظ لا أريد تكرارها.."

وتوجه لجهاز الاتصال الداخلي قائلاً "ما الذي جرى عندك يا عابد؟.. هل تمكنت من السيطرة على الحريق؟"

جاءه صوت نور المتوتر قائلاً "لقد اضطر عابد لدخول تلك المنطقة للسيطرة عليه خشية أن يمتدّ الخطر للمحركات.. ومازال يحاول القضاء على النيران.."

قال نوح بقلق "ربما علينا الوقوف في موقعنا هذا حتى نتأكد من سلامة السفينة ونتمّ صيانتها قبل إكمال سيرنا نحو وجهتنا.."

تساءل طارق باهتمام "أين أصبحنا الآن؟"

أدار نوح الخارطة على الشاشة القريبة وقال مشيراً لموقع يبعد القليل عنهم "أترى هذا النجم القريب؟.. إنها شمس المجموعة الشمسية.. والأرض كما تعلم هي ثالث كوكب من الشمس.."

ونظر لطارق مضيفاً "بعد أن نتمّ إصلاح السفينة، سنستغرق شهراً على الأقل حتى نصل الأرض إن لم يعترضنا أي شيء.."

فقال طارق "رائع.. إذن الخطة تسير على ما يرام.."

وغادر غرفة القيادة قائلاً "سأذهب لرؤية ما حل بالمؤخرة.. لو اعترضنا أي خطر فأبلغني على الفور.."

انطلق عبر السفينة متجهاً نحو مؤخرتها، ولما وصل للموقع وجد نور يقف قرب إحدى البوابات المغلقة بإحكام يراقب الوضع من خلال شاشة مراقبة داخلية.. فتساءل طارق "ما هي الأخبار؟"

أجاب نور "لا يزال عابد في ذلك الموقع.. ولا أستطيع رؤية شيء بسبب الدخان الذي غمر غرفة المحركات.. ألن يكون عابد في خطر بوجوده هناك في هذه اللحظات؟"

قال طارق وهو ينظر عبر الشاشة "لا تقلق.. مع ارتدائه زي الفضاء لن يكون بخطر في ذلك المكان.."

لم يعلق نور وهو واقف بتوتر، وبعد وقت قصير، وجدوا البوابة المعدنية تفتح ويظهر من خلفها عابد بردائه الفضائي الذي اكتسب بعض السواد من الدخان الذي ملأ غرفة المحركات.. فنزع عابد خوذته وهو يزفر بقوة، ومسح العرق عن وجهه متمتماً "ما هذا الحظ؟.."

سأله طارق "هل تمكنت من إطفاء النيران؟"

أجاب عابد "طبعاً فعلت ذلك.. لا أنوي إهدار حياتي في مثل هذه الرحلة.."

ثم أضاف وهو يجلس جانباً "مع الإصابة الأخيرة التي أحدثت ثغراً في السفينة، بدأت أجهزة الطوارئ عملها على الفور وعزلت ذلك الجزء عن بقية السفينة.. وبعدها اندلعت النيران في بعض الأجهزة الجانبية.. ورغم أن أجهزة السفينة قد أدركت ذلك الحريق وتم تشغيل نظام الإطفاء الآلي، إلا أن سرعة النيران كانت كبيرة وخشيت أن يمتدّ أثرها للمحركات الرئيسية فتنفجر بدورها.. لذلك اضطررت للتدخل بنفسي لتفادي هذه الكارثة.."

نظر طارق عبر البوابة التي عادت تغلق من جديد "وهل الموقع آمن الآن؟"

أجاب عابد "السفينة تعزل ذلك الجزء باستخدام بوابتين اثنتين، لتضمن ألا يتسرب الهواء من السفينة عبر ذلك الثقب ويتخلخل الضغط فيها بشكل مفاجئ.. لذلك عليك أن تكون مطمئناً من هذه الناحية.. والآن علينا صيانة الموقع وإغلاق تلك الثغرة قبل التمكن من استخدام ذلك الجزء من جديد.."

تطلع طارق عبر الشاشة، بعد أن بدأت الرؤية تتضح مع خفوت الدخان في غرفة المحركات، ولاحظ على الفور الثقب الذي زيّن جدار السفينة الجانبي والفضاء يبدو واضحاً من خلفه.. ورغم أن الثقب كان محدوداً، لكنه كان مميتاً في حالتهم تلك.. ولولا قيام أجهزة الطوارئ بعزل ذلك الجزء من السفينة للقي الجميع حتفهم في لحظات معدودة..

نظر طارق لعابد متسائلاً "أيمكنك التعامل مع أجهزة الصيانة؟"

أجاب عابد بضيق "طبعاً.. ماذا ظننتني؟.. لست مهندساً متخصصاً، لكن أجهزة الصيانة الحديثة لا تحتاج إلا لبعض الخبرة في التعامل معها.. وأنا أملك ما يكفي.."

استدار طارق إلى نور الذي وقف جانباً بتوتر، وسأله "ماذا عن ذلك الشاب؟"

أجاب نور "لقد استيقظ عند بدء الهجوم على السفينة.. لكنني تركته وأتيت للمعاونة فيما يمكنني القيام به.. أظنه لا يزال في موقعه.."

استدار طارق مغادراً على الفور.. الآن، يمكنه أن يعرف هوية هذين الاثنين اللذين حرصت رُبى على اصطحابهما في هذه الرحلة الغريبة.. ربما عندها ينكشف ما حرصت رُبى على إبقائه في الظلام..

****

في ذلك المخزن المنعزل، وفي عمق السفينة حيث لا يُسمع أي صوت إلا اهتزاز السفينة المتكرر، تلفّت أحمد حوله بدهشة وصدمة كبيرة.. لا يذكر ما جرى منذ أوى لفراشه تلك الليلة، ولا يدري ما الذي جاء به لهذا المكان.. نظر للصندوق الذي كان فيه، وتفحص رسغه الذي كان ينبض بشيء من الألم فلاحظ آثار وخزة الحقنة التي تركت علامة داكنة على بشرته.. بدأ أحمد يشعر بعصبية بالغة وهو يتفحص الموقع الذي وجد

نفسه فيه، وازدادت عصبيته مع حركة السفينة العنيفة التي لا يدرك سببها، ومع صوت الإنذار الذي اندلع فجأة من كل مكان.. نهض متجاوزاً الدوار الذي ألمّ برأسه، ونظر حوله ليلاحظ الصندوق الآخر على الفور..

هبّ أحمد نحو الصندوق الذي كان غطاؤه ملقىً جانباً، ورأى ميساء الغافية وسطه دون حراك.. فأسرع أحمد يتفحصها بشيء من الجزع وقد ظن وسط ارتباكه أن ذلك الصندوق ما هو إلا تابوت.. لكن بعد فحص سريع أطلق زفرة وهو يجثو على ركبتيه بجوار الصندوق وقد تأكد أن ميساء غائبة عن الوعي لكنها بخير كما يبدو.. لاحظ الحلقة اللدنة التي تحيط بمعصمها، فحاول انتزاعها من يدها، لكنه تراجع عن ذلك وهو يلاحظ طرف الحقنة التي غابت في أوردتها..

كان اهتزاز السفينة وميلانها يزداد لحظة بعد لحظة، فغمغم بعصبية "رباه.. ما الذي جاء بنا إلى هنا؟"

حاول إيقاظ ميساء بشتى الطرق، ولما عجز عن ذلك ظل قرب الصندوق الذي ترقد فيه وهو يتلفت حوله بقلق شديد.. وبعد وقت طويل، تزايد فيه ذعر أحمد مرات ومرات إزاء عدم الثبات الذي تمر به السفينة وبالمقابل الصمت التام الذي يسود هذا الجزء منها، هدأ كل شيء فجأة كما بدأ.. ساد صمت تام واستقرت السفينة في سيرها وهي تخفض سرعتها، كما بدا له، واستمر الصمت يسود هذا الجزء منها..

نظر أحمد لميساء وهو يحاول تقرير إذا ما كان بالإمكان الذهاب واستطلاع ما يجري، أم أن الأفضل له البقاء قربها في هذا المكان الغريب الذي لا يدري من فيه؟.. سمع في تلك اللحظة صوت خطوات تقترب من ذلك المخزن، فنظر هناك بتوتر متوقعاً رؤية الفتى الذي غادر راكضاً منذ مدة.. لكنه رأى طارق يدلف المخزن ويتطلع إليه قائلاً "أنتما بخير؟.. جيد.. خشيت أن يصيبكما مكروه أثناء الهجوم.."

تساءل أحمد بعصبية "هجوم؟.. من الذي يهاجمنا؟.. أين نحن الآن؟.. وكيف تجرؤون على اختطافنا بهذه الصورة؟"

قال طارق بهدوء وهو يجلس على صندوق قريب "لا داعي لهذه العصبية.. هناك بضع أسئلة أريد إجاباتها منك، وبعد أن ننهي المهمة التي بين أيدينا....."

قاطعه أحمد وهو يقف بحدة "ماذا تعني؟.. أنا لن أجيب على أي أسئلة.. وأطالبكم بإعادتنا لمستوطنة

آريس في الحال.."

فقال طارق "هذا غير ممكن حالياً.."

نظر له أحمد باستنكار، وقبل أن يصيح مجدداً أضاف طارق "لقد اجتزنا للتو أحد الثقوب الفضائية بعد أن تعرضنا لهجوم من القراصنة.. ولو حاولنا العودة من ذات الثقب بهذه السفينة دون إصلاحها فستتفتت في الفضاء وتصبح أشلاؤنا نجوماً.."

قال أحمد بحنق "كيف لكم أن تفعلوا هذا بنا؟.. أأنت من أرسل ذلك الرجل؟.. اسمه عابد كما أذكر.. أأنت من أمره باختطافنا؟"

أجاب طارق "لا.. بل الآنسة رُبى هي من فعل.."

علق أحمد مقطباً "أليست ميتة؟"

نظر له طارق بدهشة لمعرفته بذلك، فقال أحمد "أخبرني ذلك الرجل أنها أوصته بهذا قبل موتها.. لكن ما كان عليه فعل ذلك رغماً عنا.."

وأضاف بحنق "عندما نعود لآريس سأشكوه لمجلس الأمن بتهمة الاختطاف.. لن يمرّ ما فعلتموه دون عقاب أبداً.."

ثم توجه إلى طارق قائلاً بأمر "أيقظوا ميساء.. وأعيدونا لآريس فور إصلاح السفينة.."

صمت طارق للحظات وهو يتأمله، ثم اعتدل في جلسته قائلاً "هذا ليس متاحاً.. مادمنا وصلنا لهذه المرحلة فلن نتوقف قبل أن نتمّها بشكل كامل.."

قال أحمد بعصبية "لا يحق لكم ذلك.."

فقال طارق بصرامة "لا يحق لك التذمر، فليست السفينة ملكاً لك ونحن لسنا تحت إمرتك.. عليك الصبر، فكما قلت لك وجودكما هنا لم يكن بتخطيط منا، إنما هي وصية للآنسة رُبى.."

جزّ أحمد أسنانه بغيظ وتوتر واضح.. بدا أن اسم رُبى يجلب له المزيد من التوتر، وهذا أشعل فضول طارق أكثر فسأله "كيف تعرف الآنسة رُبى؟.. لم يسبق لي أن سمعتها تذكركما بحرف، فما العلاقة التي تربطكما بها؟"

قال أحمد بشيء من الازدراء "طبعاً لا تتشرف بذكرنا، فهذا يعيد لها ذكريات لا ترغب بها.. ولست أدري لِمَ تذكرتنا بعد كل تلك السنوات.. وفي الواقع وددت أنها لم تفعل.."

قال طارق بحزم "هذا لا يجيب على سؤالي بتاتاً.."

زفر أحمد وهو يتطلع لميساء بصمت، ثم قال بشيء من الجفاء "رُبى هي شقيقتي الصغرى.."

لم يعلق طارق بكلمة وهو يحدق في وجه أحمد بصدمة، بينما قال أحمد "هي الصغرى بيننا نحن الثلاثة.. وهي قد رحلت عنا ما يزيد على السبع سنوات دون أن يكون بيننا أي اتصال.."

قال طارق بدهشة عارمة "لكنها لم تذكر بتاتاً أن لها أشقاء.. الكل يظنها وحيدة لا أهل لها.."

علق أحمد ببرود "كما قلت لك، هي لا تتشرف بتذكرنا أبداً.. لذلك تصرفها هذا ليس غريباً.."

فسأل طارق "وأنت.....؟"

أجاب أحمد "اسمي أحمد.."

ثم أضاف بعصبية "ما بالها ميساء لا تستيقظ؟"

اقترب طارق من الصندوق الآخر قائلاً "يجب أن ننزع هذه الحلقة من رسغها، وستستعيد وعيها بعد ذلك بشكل طبيعي.."

لم يعترض أحمد وهو يراقب عمل طارق بقلق.. وبينما انشغل طارق بإزالة تلك الحلقة المحيطة بمعصم ميساء، انتبه أحمد لاقتراب خطوات أخرى من المخزن.. ولما التفت ولاحظ دخول عابد يتبعه نور، صاح أحمد وهو يتقدم نحوه بعصبية "أيها اللعين.. كيف تجرؤ على اختطافنا بهذه الصورة؟.."

وقبض على مجمع ثياب عابد بحنق وهو يصيح " سأتأكد أنك ستنال جزاء فعلتك هذه بالتأكيد.. سوف....."

لطم عابد يده بعيداً وهو يقول "ما كل هذه العصبية يا رجل؟.. ألم أخبرك أنها وصية الآنسة؟.. لِمَ تحاسبني أنا على ذلك؟"

قال أحمد بغيظ "لكنني رفضت بوضوح.. ألم تفهم ذلك؟.. كيف لشخص همجي مثلك أن يتجرأ على إجباري على الرحيل بهذه الصورة الفجّة؟"

ابتسم عابد بسخرية قائلاً "أجل.. نسيت أنني همجي بالفعل.."

اشتدّ حنق أحمد وهو يصيح في وجهه بغيظ وعابد صامت بملل ظاهر، بينما أنهى طارق ما يفعله قبل أن يستدير إليهم قائلاً "عابد.. ارحل من هنا، فلا نريد المزيد من البلبلة.."

استدار عابد معلقاً "وكأنني أتشوق للبقاء.."

قبض أحمد على ملابسه صائحاً "مهلاً.. إلى أين تظن نفسك ذاهباً؟"

لكن عابد دفعه بشيء من القوة كادت تسقطه للوراء وقال ببرود "يحسن بك أن تكون مهذباً مع الآخرين يا هذا.."

وغادر دون أن يضيف كلمة أخرى، بينما وقف نور يقلب بصره بين الموجودين قبل أن يغادر بدوره.. بعد الأحداث الأخيرة مع القراصنة، فإنه يشعر بتوتر لا محدود.. ولم تكن رؤية ثورة أحمد وعصبيته بالشيء الذي يمكن أن يهدئ نفسه في هذه اللحظة..

أما أحمد، فقد زفر للحظات ثم استدار إلى ميساء متسائلاً بقلق "إنها لا تستيقظ..!"

قال طارق "سيستغرق الأمر بعض الوقت.. لا تقلق.."

فقال أحمد بعصبية "كيف تطلب مني ذلك بعد كل ما جرى؟.."

تجاوز طارق عصبيته وهو يسأله بحزم "عليك أن تدرك أننا قد تجاوزنا مسافة كبيرة في رحلتنا هذه، لذلك عودتنا لآريس مستحيلة.. عليك أن تتحلّ بالصبر حتى عودتنا، وعندها ستتمكنان من مغادرة السفينة وتنسيا كل ما حصل فيها.."

صمت أحمد بشيء من الضيق، فقال طارق بلهجة صارمة "وأنذرك أن أي مشاكل تثيرها بينك وبين عابد لن تمرّ مرور الكرام.. رغم أن ما فعله عابد لا يرضيني بتاتاً، إلا أنه قد قام بهذا بناءً على أوامر الآنسة.. لذلك حاول التأقلم مع الوضع في السفينة حتى عودتنا.."

زفر أحمد بشدة، ثم تساءل بضيق "وما هي وجهة هذه السفينة؟.. أنحن ذاهبون لمجموعة نجمية أخرى؟"

أجاب طارق بالإيجاب وقال "نحن متجهون للأرض.."

نظر له أحمد بذهول، وكما توقع طارق، فقد اشتعل أحمد بنوبة غضب جديدة.. لكن طارق تجاهله وهو

يقول "عليك الاهتمام بشقيقتك حتى استيقاظها.. وبعدها يمكنكما اللجوء لأي غرفتين من غرف السفينة.. سنوفر لكما الطعام طوال مدة الرحلة، وعدا عن ذلك، عليكما الاهتمام بنفسيكما فنحن لا نتحمل مسؤلية أحد.."

وغادر تاركاً أحمد يطرق بضيق شديد، ثم نظر لميساء وزفر قبل أن يقول بحنق "تباً لك يا رُبى.. ما الذي ذكّرك بنا الآن؟.."

****

في اليوم التالي، وبعد بعض الراحة بعد أحداث اليوم السابق، تولىّ نور تحضير طعام الإفطار كما كان يفعل كل يوم منذ انضمامه للسفينة في رحلتها هذه.. حاول الإسراع في عمله قبل أن يلاقى بتذمر من رفاقه في السفينة، عندما رأى طارق يدلف المطبخ متلفتاً حوله.. فقال نور بتوتر لم يملكه "سأحضر إفطارك بعد قليل يا سيدي.."

تساءل طارق "أين عابد؟"

أجاب نور " إنه في غرفة المحركات.. سيبدأ صيانة السفينة وإغلاق الثقب.. وسأحمل له إفطاره بعد قليل.."

فاستدار طارق مغادراً، وقال قبل أن يخرج "لا تنسَ إحضار بعض الطعام لأحمد وميساء.."

تذكر نور ذلك، وقد نسي أمرهما.. فزاد من كمية الإفطار الذي يقوم بتحضيره وهو يغمغم "هذا سيؤخرني أكثر فأكثر.. أتمنى ألا يتذمر عابد لتأخيري.."

في تلك الأثناء، كان عابد يرتدي أحد الأردية الفضائية، بينما وقف نوح قريباً وهو يقول "كن حذراً عند التعامل مع أجهزة الصيانة.. لا تبدأ بتدمير كل شيء بقلة خبرتك.. إغلاق هذا الثقب سيستغرق وقتاً وجهداً أتمنى أن تكون قادراً على بذله، ويتبقى لنا أمر محركات التوجيه التي أصيبت...."

قال عابد بضجر "لا تقلق يا أبتاه.. أملك خبرة مع أجهزة الصيانة أكثر مما تفعل أنت.. قد تكون قائداً

للسفينة، لكن هذا لا يعني أن لك خبرة في استخدام مثل تلك الأجهزة.."

نظر له نوح باستنكار، ثم قال بشيء من التحذير "سأبقى مراقباً لما تفعله.."

غمغم عابد وهو يرتدي الخوذة "افعل ما يحلو لك.. وكأن هذا سيخيفني.."

أتمّ ارتداء رداء الفضاء، وسار نحو البوابة ليفتحها كما فعل سابقاً.. وفور أن أصبح في غرفة المحركات، بدأ بتفحص الثقب وما جاوره لتقدير الخراب الذي حلّ بالموقع، قبل أن يبدأ باستخدام إحدى آلات الصيانة الموزعة في جوانب مدروسة من السفينة.. كانت تلك الآلات، والتي تقارب الرجل في طوله وتملك عجلات لتسهيل سيرها في ممرات السفينة، تقوم بكل الأعمال التي يقوم بها مهندس الصيانة وعلى أكفأ صورة، وتحمل جهاز حاسوبٍ مطوّر لتقدير الخراب في السفينة وأسلم السبل لإصلاحه، بالإضافة لامتلاكها كل الآلات المطلوبة لإتمام أعمال الصيانة.. كل ما يلزمها هو بعض المراقبة والتوجيه من أحد الأشخاص ذوي الخبرة في السفينة..

بعد فحصٍ مكثف، جذب عابد أقرب آلات الصيانة نحو ذلك الثقب، وبدأ العدة لإغلاقه، عندما تعالى صوت نوح العصبي من أجهزة الاتصال بردائه "ما الذي تفعله يا هذا؟.. عليك أن تضبط إعدادات الآلة وتتركها تتفحص الموقع بنفسها لتعطيك تقريراً شاملاً للضرر.. بهذا الأسلوب الفج الخاص بك ستنتهي بسفينتنا لدمار أكبر مما جرى....."

قال عابد بضجر "أجل أدرك ذلك يا أبتاه.."

وأغلق جهاز الاتصال ليمنع استقبال أي اتصال من بقية السفينة، وبدأ عمله مغمغماً "يا لها من رحلة لن تنتهي.."

وانشغل في عمله وهو مدرك أن نوح يصرخ بعصبية في الجانب الآخر من السفينة دون شك..

مضت عدة ساعات بقيت فيها السفينة متوقفة للصيانة في جانب بعيد من المجموعة الشمسية، ومن الهدف الأساسي فيها وهو كوكب الأرض.. وبعد تلك الساعات، عَبرَ نور ممر السفينة بعد أن أنهى كل ما لديه من أعمال، واتخذ طريقه نحو المطبخ لإعداد العشاء، بعد أن انشغل عنه عابد بصيانة السفينة الذي يلتهم أغلب وقته.. لذلك وقعت مهمة تحضير طعام البقية عليه بعد أن تجاهل الجميع الأمر ولم يتطوع أحدهم للقيام

به.. وبينما كان يعبر الممر الذي يحوي غرف نوم البقية، رأى أحمد يقف قرب باب غرفته يتلفت حوله.. حاول نور تجاهله بعد عصبيته السابقة، لكن أحمد قبض على ذراعه قبل أن يبتعد وهو يقول له "اسمع.. هل يمكننا أن نتحدث قليلاً؟"

جذب نور ذراعه بسرعة وهو يتساءل بدهشة "نتحدث في أي أمر؟"

قال أحمد "ليس هنا في الممر، هل يمكنك دخول غرفتي قليلاً؟.. هناك أمر مهم أريد الحديث معك فيه.."

صمت نور وأحمد يتراجع خطوات وهو يفتح باب غرفته، وتمكن نور من رؤية ميساء التي جلست بتوتر على أحد الكراسي في الغرفة.. عندها تبعه نور بصمت وهو يقلب بصره بينهما.. الكل هنا يعتبره مجرد صبي لا أهمية لما يقوله أو يفعله.. فما الذي يجعله بهذه الأهمية لأحمد ليطلب الحديث معه؟..

دعاه أحمد للجلوس، لكن نور فضّل الوقوف وهو يتساءل "ما الأمر؟.. أهناك ما تريد مني القيام به؟"

نظرت ميساء لأحمد بقلق، بينما قال أحمد وهو يجلس جانباً "ليس طلباً.. بل أريد الحديث معك قليلاً.. لقد علمت أنك من مستوطنة آريس.. أليس كذلك؟"

هز نور رأسه إيجاباً، فأضاف أحمد "البقية من مستوطنة فينون كما يبدو.. لذلك لجأت إليك أنت.."

ابتسم نور بشيء من التعجب معلقاً "وهل هذا يجعلنا حلفاء نوعاً ما؟.."

قال أحمد بتوتر "لا.. لم أقصد ذلك.. لكني دهشت لرؤية صبي صغير في هذه الرحلة الخطرة.. لذلك كنت أتساءل إن شاركت بهذه الرحلة بإرادتك، أم أن هذا كان رغماً عنك كما كان الحال معنا.."

قال نور بحزم "بل كان بإرادتي طبعاً.. بل إنني رجوتهم اصطحابي لو صحّ القول.."

نظر أحمد لميساء نظرات متوترة، ثم قال "لكن.. ظننت أن الحال مختلف معك.. ربما....."

زفر نور بشيء من الضيق للتوتر المخيّم عليهم، فأسرعت ميساء تقول محاولة تلطيف المحادثة "ما يعنيه شقيقي أننا نريد معاونتك.. نريد أن نعرف ما ينويه الباقون بنا.. لمَ اصطحبونا في هذه الرحلة رغم إرادتنا؟.. هذا كل ما في الأمر.."

فأجاب نور بسرعة "كما قيل لكما، لقد تم إحضاركما بناء على رغبة الآنسة رُبى.. ونحن كلنا نعمل لديها، ولا نملك إلا إطاعة ما طلبته منا.."

فقال أحمد بشيء من الحنق "لكن لماذا؟.. ما الذي تريده منا تلك الفتاة الآن؟.. ولم هذه الرحلة الغريبة ووجهتها الأغرب؟.. ما الذي يدور بينكم وتأبون الإفصاح عنه؟"

صمت نور للحظات وهو يرى العصبية البادية على وجه أحمد، ثم قال بعد شيء من التردد "حسناً.. الأمر ليس سراً حقاً، لكن ربما لم يرغب البقية بإخباركما به حرصاً على مشاعركما.."

نظرا له بدهشة وتساؤل، فأضاف "الآنسة رُبى قد توفيت قبل بدء هذه الرحلة من مستوطنة فينون.."

قال أحمد بسرعة "نعرف هذا بالفعل.. لكن هذا ليس مقنعاً.."

فقال نور "لكن هل تعلمان أن جثمانها موجود على ظهر هذه السفينة؟.. لقد أوصت بأن يتم دفنها في الأرض، وهذه الرحلة غرضها إتمام تلك الوصية.."

بهت الاثنان وهما ينظران إليه، ثم قال أحمد بهياج "أي عبث هذا؟.. كان يمكنهم دفنها في المستوطنة حيث تنتمي حقاً.. ما الذي يغري بالقيام برحلة خطرة كهذه لأجل وصية تافهة؟.. والأدهى أنكم سُقتمونا لذات المصير دون أي مسؤولية.."

ظل أحمد يتحدث بحنق بينما خفضت ميساء بصرها بذهول وهي تشدّ على يديها بقوة.. ثم همست "أهي هنا حقاً؟"

ورفعت رأسها لنور قائلة برجاء "أيمكنني رؤيتها؟"

صاح أحمد "هذا جنون.. ما الذي تريدين رؤيته يا ميساء؟.. تلك الفتاة ماتت منذ نصف شهر على الأقل.. بأي حال سترينها الآن؟"

قال نور معلقاً "لقد أخضعوا جسدها للتجميد حتى نصل للأرض ويتم دفنها هناك.."

نظرا له بدهشة، فأضاف نور بشيء من التردد "ربما كانت ترغب بأن تشهدا دفنها.. بما أنكما عائلتها الوحيدة.."

بدا السخط واضحاً على وجه أحمد، بينما هبّت ميساء قائلة "أريد رؤيتها.. أرجوك.."

تراجع نور خطوة وهو يقول "ليس الأمر راجعاً إليّ.. عليكما أخذ الإذن من السيد طارق قبل ذلك.."

قال أحمد بحنق وهو يجذب ذراع ميساء "كفي عن هذه الأفكار المجنونة.. ما الذي تريدين تحقيقه برؤيتها

الآن؟"

التفتت إليه ميساء قائلة "لكني أريد ذلك.. بعد كل تلك السنوات، أريد رؤيتها قبل أن يواريها التراب.. مهما كان الأمر فهي شقيقتي.."

خفض أحمد رأسه بضيق وصمت، ونور يراقب حديثهما بصمت بدوره متسائلاً في سره عن تلك العلاقة الغريبة بين الثلاثة.. يبدو أحمد شديد الاهتمام بأخته ميساء وحريصاً عليها، وفي الآن ذاته لا يخفي بغضه الواضح لرُبى التي هي أخته أيضاً.. فما السبب؟.. أيمكن أن تكون أختاً غير شقيقة له؟.. أو ربما هناك سبب آخر؟..

راودته فكرة طرح أسئلته تلك عليهما، لكنه صمت مجنباً نفسه عصبية أحمد إن حاول التدخل في ما لا يعنيه..

في تلك اللحظة، سمعوا صوت نوح بوضوح عبر مكبرات صوت موزعة في السفينة وهو يقول "حزام نيزكي كثيف على وشك المرور بالسفينة، لكنها بعيدة عن أي خطر محتمل.. ورغم ذلك، كونوا على أهبة الاستعداد لأي طارئ، ولا تقلقوا لأي اهتزازات تمر بها السفينة.."

تلفتت ميساء حولها بذعر دائم وهي تقول "نيازك؟.. رباه.. كيف سننجو؟"

ربّت أحمد على كتفها قائلاً "لا داعي لهذا القلق.. قائد السفينة لن يسمح لها بالارتطام بالنيازك.. حياة الجميع معلقة بقراراته، وأتمنى ألا يخذلنا.."

تساءل نور "لم تبدين مرتعبة ؟.. رغم وجهتنا الغريبة، إلا أن هذه الرحلة عادية تماماً ولن تواجه أي أخطار مميتة.."

خفضت ميساء وجهها قائلة "لكنها رحلتي الأولى في الفضاء.. لم يسبق لي السفر على هذه السفن من قبل.. لذلك أشعر بتوتر وخوف شديد لا أملكه.."

لم يستطع نور لومها وهو يتذكر انفعالاته الأولى في أول رحلة قام بها عبر الفضاء.. لم يكن النظر عبر نافذة السفينة لذلك الفضاء الشاسع المظلم إلا من نجوم متفرقة يثير أي انبهار في نفسه.. بل كل ما شعر به هو خوف غير متعقل، مثل أي فأر وجد نفسه في مصيدة محكمة.. بدت له السفينة كمصيدة كبيرة لن يمكنه

الإفلات منها مهما حاول.. ولم يغادره هذا الخوف إلا بعد عدة رحلات قام بها بعد ذلك واعتياده الأمر بشكل كامل..

بدأت السفينة تهتز بشيء من الشدة مما زاد الذعر في نفس ميساء التي ظلت تراقب الجدران بقلق واضح، وكأن شقاً واسعاً سيظهر في تلك الجدران وسيرمي بها في الفضاء المميت في أي لحظة، بينما لم يملك نور نفسه وغادر الغرفة راكضاً عبر الممر ونحو سلم قريب يفضي لجزء علوي من السفينة.. كان سقف الجزء العلوي من السفينة مصمماً من ألواح زجاجية مزدوجة ذات مقاومة كبيرة للحرارة ولأي صدمات عنيفة، وفي الآن ذاته تمنح الواقف تحتها منظراً شاملاً لجزء كبير من الفضاء المحيط بالسفينة.. رغم أن نور نادراً ما يأتي لهذا الموقع وتوتره لرؤية الفضاء المظلم ما يزال يعتمل نفسه، لكن هذه المرة راودته رغبة شديدة برؤية المنظر كاملاً لمثل هذا الحدث الذي لن يتكرر كثيراً في حياته.. وبالفعل، فور وصوله لذلك الموقع، استطاع رؤية الفضاء الشاسع الذي يمتد لما نهاية.. وأمام السفينة، رأى بوضوح ذلك الحزام الكثيف من النيازك التي سارت بسرعتها الهائلة عابرة الفضاء بحيث تمر أمام السفينة لكن على بعد آمن منها..

ظل نور يراقب النيازك التي تفاوتت بين أحجام صغيرة جداً وبين بعض الأحجام المتوسطة، مكونة حزاماً طويلاً قادماً من عمق الفضاء ونحو مسار لا يعلم نهايته أحد.. ومع سيرها بسرعات فائقة، فإن بعضها كان يسحب خلفه ذيلاً طويلاً من الغبار الكوني وقد انعكس عليه ضوء الشمس البعيدة ليمنحه ألقاً ولمعاناً بتدرجات الأزرق السماوي بشكل يبهر بصر الناظر إليه.. انغمس نور في تأمل المنظر الذي يراه للمرة الأولى وهو مستند على حاجز حديدي يفصل هذا الموقع عن جزء مكشوف من السفينة يطلّ على قاعة في الجزء السفلي منه، ولم يحوّل بصره المنبهر حتى مع قدوم عابد الذي علّق قائلاً "أجئت تراقب النيازك هنا أنت أيضاً؟.. أرجو ألا يصيبك هذا المنظر بالذعر.."

غمغم نور بانفعال "بل هو منظر مذهل لن يمحى من ذاكرتي أبداً ما بقي لي من عمر.. ليتني كنت أمتلك آلة تصوير لألتقط هذا المنظر الرائع.."

قال عابد "إنك حتى لا تمتلك هاتفاً، فكيف ستمتلك آلة تصوير؟.."

غمغم نور وهو يحدق في النيازك التي تسير بسرعة خاطفة أمامه " وما فائدة الهاتف وليس عندي أي

شخص في هذا الكون لأتواصل معه؟.."

لم يعلق عابد وهو يستند على الحاجز بدوره متأملاً المنظر بصمت.. فتساءل نور وهو يلتفت إليه "هل انتهت الآلات من صيانة السفينة؟"

أجاب عابد "ليس بعد.. لقد خرجت لبعض الراحة، فذلك الرداء يكاد يخنقني..."

عاد نور ببصره مراقباً تلك القافلة من النيازك التي تمرّ بهم، وبعد لحظات صاح وهو يشير لموقع بعيد "هناك نيزك على شيء من الضخامة يقترب منا.. ألن يصيب السفينة؟"

قال عابد "لا، لو كان نوح يعرف ما يفعله.. مسار النيزك على مسافة آمنة منا، لكن من يدري بم يمكن أن يؤثر مروره من هذه المسافة على سفينتنا المتهالكة؟"

ظلا يراقبان الوضع والانفعال يغمر نور عوضاً عن القلق لمثل هذه المواقف.. وبالفعل، فور مرور النيزك الضخم أمام السفينة فإن بعض الصخور الصغيرة التي خلّفها خلفه بسبب سرعته الهائلة قد ارتطمت بجانب السفينة التي ارتجّت بقوة أكبر مما سبق ونوح يحاول موازنتها لئلا تميل في موقعها وتقطع مسار أحد تلك النيازك المميتة.. ومع الاهتزاز الشديد، فوجئ نور بقدمه تزل حيث وقف مستنداً على الحاجز الحديدي واختلّ توازنه بشدة، فكاد يسقط من هذا الموقع العالي لولا أن وجد عابد يجذبه من قميصه بقوة ويرميه خلفاً بشيء من العنف.. لهث نور بعينين متسعتين وذعر واضح بينما وقف عابد قريباً وهو يقول مقطباً "أأنت أحمق أم ماذا؟.. لم لا تنتبه لما حولك؟"

غمغم نور "كدت أسقط سقطة عنيفة.."

فقال عابد ماطاً شفتيه "كف عن التصرف كالفتيات.."

علق نور على قوله وهو ينهض نافضاً ملابسه "ألن تكف عن سخريتك هذه؟.. تلك نكتة قديمة جداً.. متى ستملّ ترديدها؟.."

فابتسم عابد بسخرية قائلاً "من قال إنها نكتة؟"

قطب نور شيئاً ما وهو ينظر إليه، بينما أضاف عابد "ألن تكف عن التظاهر أكثر من هذا؟.. لقد كان الأمر ممتعاً في البدء، لكنه غدا مملاً بعد كل هذا الوقت.."

قال نور "ماذا تعني؟"

فقال عابد "أتعلم أن اسم نور يطلق على الجنسين؟.. إنه يطلق على الإناث كما يطلق على الذكور.."

زمجر نور قائلاً "أدرك ذلك طبعاً.. لكن ما قصدك بما تقوله؟"

مال عابد نحوه قائلاً بابتسامة "حتى متى ستستمر في خداعنا وتتظاهر بأنك صبي؟.."

****

الفصل السادس

في ذلك الموقع المرتفع من السفينة، حيث الجزء المغطى بالزجاج منها يكشف مساحة كبيرة من الفضاء الخارجي ومن حزام النيازك الذي جمع فلوله وأكمل رحلته في عمق الكون، ظل نور مبهوتاً للحظات بعدما ألقى عابد جملته تلك، وقد ظن أن سمعه خانه ولا شك.. أحقاً طلب منه عابد الكف عن التظاهر بأنه صبي؟؟؟؟.. ظن نور أنه أخطأ فهم جملته تلك، ولما فتح فمه ليعترض بكلمة قال عابد "لا تحاول الإنكار.. لو كان نوح أحمقاً، وطارق أحمقٌ بكل تأكيد، فلستُ مثلهما طبعاً.. أتظنني لم أدرك أنك فتاة منذ البدء؟.."

أخيراً، تمكن نور من أن يقول بصوت مبحوح "هذه مجرد خيالات منك.."

لكن عابد مد يده وقبض على مجمع ثياب نور بقبضته القوية ورفعه قليلاً قائلاً بابتسامة "حقاً؟.. يمكنني أن أجردك من قميصك هذا لنتأكد.. إن كان هذا ما تحبه.."

بشكل لا إرادي، رفع نور ذراعيه وتشبث بقميصه بقوة وهو يصيح بارتجافة واضحة "لا....."

فأطلقه عابد وهو يضحك بقوة قائلاً "ردة فعلك لا تشبه ما قد يفعله أي صبي في الدنيا.. أنا حقاً أستمتع بكل هذا.."

تهاوى نور أرضاً بعد أن أطلقه عابد وخفض رأسه بصمت، ثم همس بصوت مرتجف "هل ستخبر البقية بذلك؟"

كان هذا إقراراً واضحاً منه، رغم أن عابد لم يكن بحاجة له.. فتساءل عابد "أتريد مني أن أفعل؟"

قال نور بصوت خفيض "لا.. لا أريد مواجهة ردة فعلهم، ولا أريد لهم أن يعلموا بهذا قبل وصولنا للأرض.."

حك عابد رأسه بصمت للحظات، ثم قال "لا أريد أن أخسر مساعدي الوحيد، وهذا ما سيحدث لو علم طارق أنك فتاة.. من سيتحمل أعبائي عندئذٍ؟.."

لم يعلق نور وهو ينهض ويركض مبتعداً بصمت، بينما اكتفى عابد بابتسامة متعجبة قبل أن يغمغم "لمَ تهرب يا أحمق؟.. أنت مدين لي بتفسير.."

ثم نظر من نافذة السفينة لفلول النيازك التي تمر بهم قائلاً "لكن من يهتم؟.. سأحصل على ذلك التفسير مهما طال الوقت.."

في تلك الأثناء كان نور، أو بالأصح، كانت نور تركض في ممرات السفينة شاحبة الوجه بشدة.. ولم تنتبه لطارق حتى كادت ترتطم به في أحد الممرات، فوقفت لاهثة وهي تنظر له بصمت بينما سألها طارق "ما الأمر؟.. أهناك ما جرى في السفينة؟"

أدارت نور وجهها جانباً وهي تقول باضطراب "لا.. لم يحدث شيء.."

بدا اضطرابها مثيراً للشك أكثر من صمتها، فضغطت على بطنها بذراعيها وهي تقول متظاهرة بالألم "أشعر بمغص شديد.. يبدو أنني تناولت طعاماً فاسداً.."

ابتعد طارق من طريقها وهو يقول "هذا ما كان ينقصنا.. أنت تعلم أننا لا نملك أي طبيب على السفينة.."

غادرت نور بصمت نحو الغرفة الضيقة التي اتخذتها كمأوىً لها على السفينة.. وهناك، تهاوت أرضاً وهي تلهث بشدة ودقات قلبها تتسارع بمزيج القلق والذعر.. لقد كُشف أمرها.. هذا هو الشيء الذي لم تكن تتمناه بتاتاً في هذه الرحلة، ولا في أي رحلة مما انضّمت إليها سابقاً.. رغم أن هذا أمر متوقع دائماً، إلا أنها كانت تأمل ألا يحدث ذلك في هذه الرحلة على الأقل..

مسحت عرقاً بدأ يحتشد على جبينها، ونظرت ليدها المرتجفة وهي تعض على شفتها.. اكتشف أمرها أسوأ شخص ممكن على هذه السفينة.. صحيح أن نوح وطارق لن يهتما لأمرها وسيطردانها في أقرب مستوطنة، لو كان ذلك متاحاً بالفعل، لكن موافقة عابد على إخفاء هويتها لا تدعو للاطمئنان بتاتاً.. فما الذي ينتويه حقاً؟.. هل سيحاول استغلالها مستغلاً صغر سنها وخشيتها من كشف شخصيتها؟..

لكن لا.. هي ليست فتاة ضعيفة بتاتاً.. لم تكن ضعيفة أبداً، ولن يخيفها شخص مثل عابد مهما كان ضخماً ويفوقها قوة بمراحل.. كل ما عليها فعله هو الصبر والحذر حتى يقتربوا من الأرض، وعندها لن تخشى من إبلاغ نوح وطارق بأمرها.. وعندها لن يتمكن عابد من أن يسيء لها بكلمة أو تصرف كما قد تتوقع

منه..

ثم تذكرت أمراً جعلها تقطب بشيء من التعجب الواضح.. لقد قال إنه كان يعتبر الأمر مسلياً في البدء.. أكان يعلم بحقيقتها منذ البداية حقاً؟.. لم يبدُ أنه يعاملها كفتاة، بل عاملها بشيء من الخشونة كانت تراها متعمدة أحياناً.. فلماذا لم يكشفها منذ عرف بأمرها؟.. كما لم تبدر منه أي إساءة لها طوال تلك الأيام الماضية، إن تغاضينا عن التعليقات الساخرة والمزاح البغيض.. لكن عدا ذلك، فلم يحاول الإساءة إليها بشيء بتاتاً، فما معنى هذا؟..

شدت عزمها بعد أن هدأت قليلاً، ونهضت تتفحص ملابسها وتطمئن أن الحزام العريض الضاغط الذي ترتديه على صدرها لإخفاء معالم جسدها في موضعه.. ثم غادرت الغرفة بخطوات واثقة.. يجب أن تحسم أمرها مع عابد الآن، وقبل أن يتسنى له القيام بأي شيء قد يضرّ بها وبمخططاتها لهذه الرحلة.. لا يمكنها أن تفشل الآن، ولم يبقَ إلا القليل..

****

بعد وقت طويل قضاه عابد يدخن وحيداً في المخزن كعادته، بعيداً عن أنظار نوح وطارق وتأنيبهما الدائم له، رأى ظل نور يقترب من باب المخزن بصمت.. فأطفأ عابد لفافة التبغ وهو يقول "ما الذي جاء بكِ الآن يا فتاة؟.. ظننتكِ ستتجنبينني بعدما جرى.."

قالت نور وهي تتقدم في المخزن "لو أخبرتَ القائد بأنني فتاة، فسأخبره بأنك تدخن سراً في المخزن.. أنت تعلم أن التدخين ممنوع تماماً في السفينة"

أطلق عابد ضحكة عالية وقال "ومن يهتم لأمر ذلك القائد أو حتى لذلك المتأنق؟.. لكن يبدو أنك تملكين الجرأة الكافية لتهديدي.."

قالت نور بهدوء "التصرف بخنوع لن يكون في صالحي الآن.."

لوح عابد بيده معلقاً "يعجبني هذا.. يبدو أنك تملكين عقلاً أكبر من عمرك.. أحقاً أنت في الثالثة عشر؟"

قالت مقطبة "بل أنا في السادسة عشر.. لكن بفضل قِصرَي وضآلة جسدي فإن عمري لا يوحي بأكثر من صبي في الثالثة عشر.. وهذا أفادني في جرّ هذه الكذبة مدة أطول.."

نظر لها عابد بتعجب، بينما أضافت نور بصرامة تفوق عمرها "ثم إنني أحذرك من أي نوايا خبيثة قد تفكر بها.. يمكنني أن أقتلك لو نظرت لي بنظرة لا تعجبني.."

اتسعت ابتسامة عابد الساخرة وهو يتساءل "هل جربتِ القتل سابقاً؟"

قالت نور بحزم "لا، لكنني لن أتردد في فعل ذلك.. وأطلب منك مخاطبتي كفتى كما كنت تفعل دائماً.. لا تبدأ بالتعامل معي كفتاة، فلا أضمن ألا ينتبه القائد أو طارق لذلك.."

فقال عابد "أنت متطلبة كثيراً بالنسبة لفتى متنكر.."

قطبت نور بحنق ظاهر، ثم تساءلت "لكن.. منذ متى انتبهت لتنكري؟.."

أجاب عابد "منذ البدء طبعاً.. أستغرب أن خدعتك تلك انطلت على البقية.. لقد أدركت هويتك منذ اليوم الأول، لكني بقيت متشككاً في أمرك مدة طويلة.."

تساءلت نور "كيف؟.. ظننت أن أحداً لن يعرف تنكري.."

قال عابد "لا.. حتى لو كذبت بشأن جنسك، فملامحك لا تمت للفتية بصلة.. تملكين وجهاً صغيراً وأطرافاً صغيرة جداً لا تليق بفتى بتاتاً.. ويبدو لي ظاهراً أنك تحاولين الحديث بخشونة كي لا يفضح هذا نعومة صوتك.."

عقدت نور حاجبيها، بينما أضاف عابد "ثم إن نفورك من لمسة أي رجل منا واضحة نوعاً ما.. رغم أنك لا تحاولين جعل الأمر ظاهراً، لكنني انتبهت له من البداية.."

غمغمت نور "أتمنى ألا ينتبه الآخرون للأمر مثلك.."

علق عابد قائلاً "ربما لن يفعلوا.. عادة لا يهتم نوح أو طارق لأمرك ولا يلاحظان وجودك.. لكني، بسبب اشتراكنا في أعمال واحدة، كنت ألاحظك على الدوام.. ويوماً فيوم كنت أراك أبعد ما تكونين عن مجرد صبي.. لكنني التزمت الصمت بانتظار رؤية لأي مدى ستستمرين بهذه الخدعة.."

فقالت نور بصرامة "إذن، أرجو أن تحتفظ بصمتك حتى نصل قريباً من الأرض على الأقل.."

فقال عابد "حسناً.. لكن أنت مدينة لي بتفسير.. ويجب أن أحصل عليه الآن.. لماذا تفعلين كل هذا؟"

جلست نور على أحد الصناديق وهي تخفض رأسها بصمت، ثم قالت "رغم أنني لا أحب الحديث عن هذا، لكن لا بأس.. أنا مدينة لك بذلك.."

أشعل عابد لفافة تبغ أخرى رغم الضيق الواضح على ملامح نور، لكنها قالت دون تعليق "لقد فقدت أبي في سن صغيرة جداً.. وبقيت أعيش مع أمي في مستوطنة آريس سنواتي الأولى وأنا أرى أمي تعمل جاهدة لإعاشتي ولإبعاد شبح الفقر عنا.. لكنها ماتت بعد سنوات قليلة من موت أبي.. ماتت منهكة ضعيفة وقد أكل العمل المتواصل صحتها وشبابها قبل الأوان.. وعندما وجدت نفسي وحيداً، ومنبوذاً من عائلتي الوحيدة وهي عمّة لي فضّلت التخلي عني عن تحمل أعبائي.. ثم وجدت نفسي مطروداً من المنزل الذي آواني بعد أن عجزت عن سداد الإيجار المستحق عليه.. عندها لم أجد بداً من العمل بنفسي.. بحثت طويلاً عن عمل، لكن يتعذر لفتاة صغيرة لم تبلغ الثالثة عشر من عمرها كما كنت وقتها العثور على أي عمل، ناهيك عن أن يكون عملاً يخلو من أي مخاطر عليها.. عندها، حاولت التنكر بهيئة صبي.. حلقت شعري، وحاولت تقليد الصبية الذين لطالما لعبت معهم في الحيّ الفقير الذي ربيت فيه.. وقد كان الأمر ناجحاً.. عملت في الميناء عدة سنوات قبل المخاطرة بالعمل على إحدى السفن الخاصة بالمسافرين في إحدى رحلاتها التي لا تنقطع.. ولازلت أقوم بالعمل ذاته حتى الآن.."

صمتت بانتظار تعليق من عابد، فقال بعد أن نفث سحابة من الدخان "لطيف جداً أن تشاركيني تاريخ حياتك، رغم أنني لم أسألك عن هذا.. أريد معرفة سبب إصرارك على القدوم للأرض بالذات.."

احتقن وجه نور بشيء من الحنق وهي عاجزة عن الرد على تعليقاته، ثم قالت "ألم تسمع بتلك الفرقة من العلماء التي انطلقت في رحلة للأرض قبل خمس سنوات؟.."

نظر لها بجهل واضح، فقالت "أنت تعلم أن البشر قد نبذوا الأرض منذ ما يقرب قرناً كاملاً بسبب تلوثها الشديد واستحالة العيش فيها بشكل آمن.. وقبل خمس سنوات، قررت مجموعة من العلماء أنهم يرغبون بالذهاب للأرض لفحص التغيرات التي طرأت عليها طوال تلك العقود آملين أن تكون قد قامت بتطهير نفسها واستعادة صحتها بعد أن غادرها البشر وهم مصدر ذلك التلوث.. اعترض العالم أجمعه على قرار

كهذا، لما فيه من خطورة عليهم وبسبب قوانين مجلس الأمن المشددة من هذه الناحية.. لكن العلماء أصروا على قرارهم وأكدوا أنهم مسؤولون عن كل ما قد يجري لهم في مثل هذه الرحلة العلمية.."

تساءل عابد بتعجب "ما هذا الغباء.."

قالت نور هازة كتفيها "أنت ترى أن هذا غباء، لكن لعاب جميع العلماء قد سال لمثل تلك الرحلة وما قد يحصل عليه العالم منها من معلومات نادرة عن التطورات التي حدثت للأرض خلال العقود الماضية.. خاصة مع غياب أي متطوعين آخرين للقيام بهذه الرحلة لما لها من تأثير كبير على حياة أفرادها.. استطاعت تلك الفرقة من العلماء الحصول على موافقة عدد من الهيئات العلمية العالمية ودعمها.. وحصلوا على كل ما يحتاجونه من معدات وأجهزة ومولدات طاقة، وعلى غذاء يكفيهم سنوات دون الحاجة لاستخدام موارد الأرض الملوثة.. كانت كل الأمور مهيئة لتلك الرحلة التي ستخلد أولئك العلماء كأول فريق يطأ الأرض بعد ما يقارب قرناً من الهجر.."

قال عابد "وما دخلنا نحن بأولئك المهرجين؟"

أكملت نور حديثها دون أن ترد على تعليقه "انطلقت تلك الفرقة العلمية في رحلتها نحو الأرض بحراسة بضع دوريات من مجلس الأمن، وفور وصول سفينة العلماء للأرض وتجاوزها الغلاف الجوي، فوجئ العالم بانقطاع الاتصال معها بشكل تام رغم وجود الدوريات قريبة من القمر.. مر شهران كان الاتفاق بعدها أن تغادر الفرقة العلمية الأرض قبل أن يتأثر أفرادها بالتلوث ومخاطره على صحتهم.. لكن الشهران أصبحا ستة أشهر دون أن تعود سفينة الفضاء للقمر ودون أن يعرف أي شخص ما حلّ بأفراد تلك الفرقة.."

ظل عابد يستمع لها بشيء من الاهتمام وهي تضيف "وبعد تلك الشهور، انطلقت دوريات الأمن نحو الأرض بإيعاز من مجلس الأمن لاستطلاع ما حلّ بأولئك العلماء الذين حبسوا في قلبها.. وهناك، عثروا على سفينة الفضاء التي أقلت العلماء للأرض، وعلى المعسكر الذي أقامته الفرقة قرب السفينة.. لكن السفينة والمعكسر كان خالياً من أي حياة بشكل تام.. لم يجدوا أي أثر للعلماء ولا حتى للأجهزة التي حملوها معهم أو للمؤونة التي كانت تملأ مخازن السفينة.. بحثوا في المواقع القريبة دون أن يعثروا لهم على

أثر.. بدا واضحاً أن العلماء قد غادروا موقعهم، وإن عجزت الدوريات عن العثور عليهم أو الاتصال بهم، وانسحبت بعدها تاركة لهم السفينة الفضائية في حال رغبوا بالعودة للعالم المتحضر.. ظل أمر تلك الفرقة من العلماء لغزاً كبيراً عجز العالم عن معرفة مصيره حتى الآن.."

فقال عابد مقطباً "وما الذي يهمّك من كل ما جرى في الأرض؟"

أطرقت نور قائلة "أحد أولئك العلماء هو شقيقي الوحيد.. إنه يكبرني بخمسة عشر عاماً، وقد رحل مع بقية العلماء متجاهلاً توسلات أمي.. وقد ماتت أمي قبل أن تعلم ما حلّ بشقيقي وبقية من كانوا معه.."

قال عابد وهو ينفث دخان لفافته "إن أمرك مع هذا الأخ الغريب يثير تعجبي.. ما الذي ستهدفين له من اللحاق به وقد قرر العالم أجمع أن ذلك الفريق لا أثر له بتاتاً؟.. هل ستعثرين أنت عليه؟"

اعتدلت نور قائلة "أرجو ذلك.. رغم كل الضجّة التي أذيعت عن رحيل العلماء نحو الأرض، فإن اختفاء أولئك العلماء لم يحتلّ إلا خبراً بسيطاً تمت إذاعته على عجالة.. لماذا؟.. أشعر أنهم يخفون أمراً ما، لذلك أريد رؤية ما جرى بنفسي وأتحقق من ذلك بعينيّ.."

فقال عابد باستنكار "أتعلمين كم تبلغ مساحة الأرض؟.. إنها ليست مستوطنة لتبحثي عنه بين أرجائها في يوم وليلة.."

قالت نور لعابد برجاء "أعلم ذلك، لكن هل ستساعدني؟.. لن يمكنني التحرك بمفردي على الأرض، ولو أنجز طارق المهمة التي جاء لأجلها فسيصرّ على أن نرحل في تلك اللحظة دون إبطاء.."

تساءل عابد بدهشة "وما الذي تتوقعينه مني بالضبط؟"

قالت نور "لو استطعنا إرجاء دفن الجثة ليوم واحد، فسأتمكن من البحث عن شقيقي قبل رحيل السفينة.. يوم واحد فقط هو كل ما أطلبه.."

غمغم عابد "لا أعلم أين ينوي طارق الهبوط.. لكن يوماً واحداً لن يكفي لتحقيق أي شيء.."

فقالت نور برجاء "مهما يكن.. لا أطلب أكثر من ذلك.. فهل ستساعدني؟"

صمت عابد للحظات وهو يراقب دوائر الدخان التي ملأت الفراغ فوق رأسه، ثم قال "سنرى ذلك يا فتاة.. لكن لا تعتمدي عليّ كثيراً.. فأنا لا أعدك بشيء.."

صمتت نور وهي تراقب ملامحه الهادئة.. ثم تنهدت وغادرت بصمت وهي تتساءل في سرّها إن كان كشف أوراقها كلها أمام عابد هو الفعل الصائب في مثل هذا الوقت..
لكن ما الذي بيدها فعله إلا الاعتماد عليه في هذا الأمر بالذات؟..

****

في اليوم التالي، ولم تكن الأيام تتحدد إلا عبر ساعات السفينة الدقيقة، كانت نور تقوم بأعمالها المعتادة في جوانب السفينة محاولة تجنب الالتقاء بعابد ما استطاعت.. رغم وصولها لاتفاق معه في اليوم السابق، إلا أنها نوعاً ما شعرت بتوتر لرؤيته اليوم، وربما كانت سخريته هي ما تجعلها أشد توتراً من المعتاد.. ترى، بأي تعليق ساخر سيستقبلها فور الالتقاء بها؟.. أم أنه سيفضح أمرها عامداً أو سهواً بتصرفاته اللامبالية؟..
ظلت نور في حيرتها وتوترها وهي تحمل بعض المؤونة متوجهة نحو مطبخ السفينة، ولما دلفت المطبخ وهي تستعد لتحضير طعام الإفطار للبقية، فوجئت برؤية عابد الذي كان يقلّب بعض القدور في المكان..
تراجعت نور خطوة بشيء من التوتر وراودتها رغبة بالفرار، فلم تكن مستعدة لمواجهته في هذا الوقت بالذات.. لكن عابد انتبه لوجودها، ولاحظ على الفور توترها لرؤيته، فقال مقطباً "ما الأمر يا فتى؟.. لقد تأخرت هذا النهار في تحضير الفطور.. إن مزاجي يتعكر لو لم أجد الطعام موضوعاً أمامي فور استيقاظي.."
شعرت نور بتوترها يتشتت بسرعة وهي تراه يعاملها كدأبه دائماً، فتقدمت لتضع ما بيدها في جانب المكان وهي تغمغم "كان حرياً بك تحضير طعامك بنفسك إذاً.."
قال عابد وهو يجلس في جانب المكان بحنق "اتفقنا أن تقوم أنت بتحضير الفطور، بينما أتولى أنا الغداء والعشاء معاً.. هذا غير عادل.. لا أحب العمل بمعدة خاوية.."
لم تعلق نور وهي تقوم بتحضير كوب من القهوة كما اعتادت أن تفعل، ووضعته أمامه قائلة "سأفرغ من تحضير الفطور خلال وقت قصير وأجلبه لك.."

لم يبارح عابد موقعه وهو يرشف رشفة من كوبه، ثم قال وهو يراقب عملها "يبدو أنك اعتدت على الحديث بصيغة مذكر.. أنت لم تتخلّ عن أسلوب حديثك هذا حتى بعد أن عرفتُ هويتك الحقيقية.."

قالت نور وهي تنهمك في عملها "لقد أمضيت ما يزيد على الثلاث سنوات أتحدث بهذا الأسلوب.. ولا أريد تغييره لئلا أقع في أي مشاكل جراء سهوٍ مني.."

غمغم عابد "أحييك على مثابرتك تلك.."

لم تعلق نور وهي تحاول إنجاز عملها بأسرع ما تستطيع.. نوعاً ما شعرت بشيء من الراحة وعادت لها ثقتها بعد أن وجدت عابد يعاملها بالأسلوب ذاته الذي اعتادته منه في الأيام العشرة الماضية.. لا تدري أتكون شاكرة له ذلك، أم أن عليها الحذر من موافقته غير المشروطة لكل ما طلبته منه.. ما الذي يهدف إليه حقاً من التستر عليها؟..

تنهدت وهي تستكمل عملها دون إبطاء، عندما تعالى صوت طارق من مدخل المطبخ متسائلاً "ما الذي تفعله هنا يا عابد؟.. ألم تكن مسؤولاً عن آلات الصيانة؟.. نوح يبحث عنك ليوكل إليك إحدى المهام.."

قال عابد باسترخاء "يمكنه أن يطلبني بمكبرات الصوت عندما يحتاجني.. لكنني لن أقوم بأي عمل قبل أن أحصل على فطوري.."

قطب طارق قائلاً "هل يجب أن تعارض كل ما يُطلب منك؟"

مال عابد للأمام وهو يقول "ألم يخبرك أحد أن العبوس الدائم يزيد تجاعيد الوجه؟.. لم أرك تبتسم ولو لمرة واحدة منذ عرفتك.. لم أنت غاضب بشكل دائم؟"

لم يعلق طارق وهو يتناول بعض الماء من البرّاد ويشربه بجرعات كبيرة، ثم غادر المطبخ وهو يقول بجمود "غادر لعملك فور انتهاء فطورك.."

دمدم عابد بسخرية وهو يراقبه "وأنت لا عمل لك إلا إلقاء الأوامر.."

تساءلت نور بعد رحيل طارق بشيء من التعجب "لمَ تبغض طارق بهذه الشدة؟.. لم أركما على توافق منذ بدء لقائي بكما.. فما السبب؟"

قال عابد بلا اهتمام "أيجب أن يكون هناك سبب تفهمه؟.. أنا أبغضه دون سبب مفهوم إذاً.."

رأى حصته من الإفطار توضع أمامه، فشرع في التهامه بشهية، بينما وقفت نور جانباً وهي تقول بابتسامة "أنت تكرهه لأنه معاكس لك في كل شيء.. في الشكل والصفات والمكانة والطباع وربما النشأة كذلك.. أليس كذلك؟"

قال عابد "كفّ عن تحليل شخصيتي وانطلق لعملك.. ألن يغضب نوح لتأخير فطوره أيضاً؟"

تناولت نور الطعام ووضعته على طاولة متحركة، ثم دفعتها خارج المطبخ وهي تقول "أنت تتهرب من كل ما لا يعجبك.. يا لك من طفل.."

غمغم عابد "وما العيب في ذلك؟"

ابتسمت نور وهي تغادر دافعة الطاولة نحو غرفة القيادة.. شعرت أن أمراً كان يثقل عليها منذ اليوم السابق وقد انزاح بشكل تام.. رغم أنها ملتزمة بحذرها من عابد، وهي تجهل نواياه الحقيقية، إلا أن معاملته لها تشعرها بالراحة الآن أكثر من أي وقت مضى.. لا يزال يغلّف كلماته وتصرفاته بسخرية واضحة وربما بعض القسوة، إلا أن هذا لا يشعرها بقسوته قدر ما يشعرها بأنه يحاول أن يبدو كذلك.. نوعاً ما أدركت أنه ليس مجرد شخص سوقي يثير القلق والذعر في نفسها وهي التي وجدت أنها وحيدة بلا سند في هذا العالم.. الآن، على الأقل، بدأت ترى فيه صفات يحاول هو نفسه أن يخفيها عن الآخرين..

****

في غرفة القيادة، وفور دخول نور وهي تدفع طاولة الإفطار أمامها، لاحظت التوتر المخيّم على المكان.. وبينما بقي نوح بعيداً يراقب ما يجري، فإن طارق قد وقف عاقداً ذراعيه على صدره بشيء من الضيق بينما وقفت ميساء أمامه وهي تقول بإلحاح "أرجوك.. لِمَ ترفض طلبي هذا؟"

قال طارق بحزم "ما تطلبينه مستحيل.. أنا لا أعرفكما حقاً، كل ما أعرفه أنكما تبغضان الآنسة بشدة.. فكيف تطلبين مني أن أسمح لك برؤية التابوت وما يحتويه؟"

قالت ميساء بضيق " أنا لا يمكن أن أبغضها.. لكنها ارتكبت غلطة لم يكن أحمد ليسامحها عليها أبداً..

لذلك تراه يتعامل بكراهية لكل ما يخصّها.. لكني لا أكرهها.."

ونظرت لطارق قائلة برجاء "كل ما أريده هو رؤيتها.. أهذا عسير؟"

قال طارق بشيء من العناد "غير مقبول.. أنتما ترفضان تنفيذ وصية الآنسة والمشاركة في هذه المهمة، لذلك أنصحكما بالبقاء بعيداً عن كل ما يجري هنا.. وبعد أن ننتهي، سنعيدكما لمستوطنة آريس وينتهي كل ما يجمعنا.."

زفرت ميساء بضيق شديد وهي تفرك يديها بتوتر، بينما استدار طارق وجلس جانباً حيث قامت نور بصفّ ما تحمله من طعام على طاولة جانبية.. انشغل طارق بتناول إفطاره يشاركه نوح تاركاً ميساء تقف بتوتر وسط الغرفة.. وبعد أن فهمت أنه بصمته يطلب منها الرحيل، استدارت وغادرت غرفة القيادة، فأسرعت نور تلحق بها وهي تسألها "ألستِ جائعة؟.. سأحضر إفطاركما خلال وقت قصير.."

شكرتها ميساء دون أن يغادر الضيق ملامحها، فتساءلت نور بفضول لم تستطع كبحه "ما الذي جرى بينكما وبين الآنسة رُبى؟.. أليست شقيقتكما؟.. ما الذي ارتكبته ليكرهها شقيقك؟"

نظرت لها ميساء بشيء من التعجب لهذا الفضول الواضح، ثم غمغمت بشيء من التوتر وهي تدير بصرها جانباً "هذا شيء حدث منذ زمن طويل.. ولا أحب الحديث عنه.."

وصلا قريباً من غرفة ميساء، فرأتا أحمد يقف قربها يتلفت بحيرة.. ولما رأى ميساء قادمة من جهة غرفة القيادة، اقترب منها قائلاً بضيق واضح "أين اختفيتِ يا ميساء؟.. كيف تغادرين دون علمي؟"

قالت ميساء بهدوء خافضة وجهها "لا تقلق.. كنت أحدث السيد طارق قليلاً.."

تزايد الضيق في وجه أحمد وهو يقول بحدة "بسبب تلك الجثة؟.. ألم أقل لك ألا تهتمي لأمرها؟.. لماذا يجب أن تفعلي هذا؟.."

لم تعلق ميساء وهي تدخل غرفتها وهو خلفها يتذمر بوضوح، بينما غمغمت نور وهي تغادر "يا لك من متسلط.."

ألقى عليها أحمد نظرة ضيق وقد سمع تعليقها الأخير، لكن نور لم تهتم وهي تغادر للقيام بما بقي لها من أعمال.. عاد فكرها لشقيقها الذي كانت على وشك لقائه.. هل هو متسلط بالقدر ذاته؟.. هل ستسعد

للقائه أم أنها ستندم لسعيها خلف هذا اللقاء؟.. لكنها لم تقطع مئات السنوات الضوئية لتتردد في هذا الموقف وهذا المكان.. لقد سعت للقاء شقيقها، ولن تتراجع حتى يتحقق ذلك..

بعد عدة ساعات أخرى استغرقتها آلات الصيانة في عملها، أعلن عابد أن الآلات قد أتمّت عملها كاملاً وأن السفينة على أهبة الاستعداد لمواصلة رحلتها نحو الأرض.. سار نوح متفحصاً جوانب السفينة في غرفة المحركات بدقة تامة والتأكد أن ما قامت به آلات الصيانة سيصمد لما بقي من الرحلة في ذهابها وإيابها دون أن يواجهوا أي مشاكل.. وبعد فحص دقيق، أعلن بملامح تعبر عن راحة عميقة أن السفينة مستعدة لمواصلة الرحلة بأمان تام، شريطة ألا تتعرض لحادث شديد قد يكون مؤثراً على هذا الجزء الضعيف من السفينة.. هذا القول أثار القلق في نفس طارق وهو يتساءل "ومن يضمن ألا نتعرض لأي حوادث ثانية؟.. مازال الطريق طويلاً حتى نصل هدفنا.."

قال نوح بهدوء "هذا الجزء من الفضاء محفوظ في ذاكرة السفن عن ظهر قلب، فكل جزء منه قد تم تمحيصه بشكل تام في الماضي لذا لن نواجه أي مفاجآت فيه.. مشكلتنا الوحيدة كانت مع القراصنة، وأنا أضمن أننا لن نجد المزيد منهم في هذا الموقع المهجور من المجرة.."

غمغم طارق "أتمنى أن يكون قولك صحيحاً.."

في تلك الأثناء، كانت نور تهمّ بمغادرة المطبخ بعد أن تناولت وجبة غدائها بسرعة قبل أن تنهمك بما لديها من أعمال، عندما رأت أحمد يسدّ الطريق أمامها وهو يتلفت حوله.. تساءلت نور وهي عاقدة حاجبيها "ما الذي تريده هذه المرة؟"

نظر لها أحمد قائلاً "ما بك تتصرف معي بهذه العدائية؟.."

قالت نور بعجلة "لديّ الكثير من الأعمال.. فإن لم يكن ما تريده مهماً فأرجو تأجيله لوقت آخر.."

سدّ أحمد الطريق أمامها وهو يقول "بل هو مهم بالتأكيد.. كل ما أريده هو خدمة صغيرة.."

نظرت له نور بصمت، فقال أحمد بشيء من الخفوت "هل يمكنك أن تبلغني متى ما كانت غرفة القيادة فارغة؟.. لا يمكنني مراقبتها أو البقاء فيها دون أن أثير الشكوك، أما أنت فلن يثير وجودك أي شك من الآخرين.."

تساءلت نور مقطبة "ما الذي تهدف له بذلك؟"

أجاب أحمد "لن أسعى لتخريب شيء، فلا تقلق.. أريد إجراء اتصال صغير بواسطة أجهزة السفينة.. لا أملك هاتفاً هنا ولا وسيلة اتصال أخرى.."

صمتت نور وهي مدركة أنه سيحاول الاتصال بمجلس الأمن، وقد يتهم عابد أو أصحاب السفينة كلهم بتهمة الاختطاف.. وهذا بالطبع سيضرّ بمخططاتها الأصلية في الذهاب للأرض والبحث عن شقيقها.. سمعته يقول برجاء "هل يمكنك القيام بهذه الخدمة الصغيرة؟"

قالت نور "لا أظن ذلك متاحاً.. غرفة القيادة لا تخلو بشكل كامل.. نوح وطارق يتناوبان على البقاء فيها دوماً.. لذلك ما تطلبه مستحيل.."

قال أحمد بإلحاح "لكن لا بد أن أحدهما سيغادر الغرفة لأمر أو لآخر.. يمكنك أن تفتعل أمراً وتستدعي أحدهما بعيداً عنها حتى يتسنى لي إنجاز ما أريده.."

هزت نور رأسها نفياً وهي تقول "مستحيل.. ابحث عن شخص آخر للقيام بهذا لك.."

لكنها مدركة أن أحمد لن يلجأ لأي شخص آخر، فهو سيقابل بالرفض بالتأكيد.. بينما نور، في نظره، مجرد صبي صغير يسهل التلاعب به وتسييره كيفما يشاء.. فقال أحمد بعناد "لماذا ترفض ما أقوله لك؟.. استمع لي لمرة واحدة على الأقل.. لو أطعتني سأكافئك على ذلك.."

تراجعت نور وهي تقول مقطبة "لا يحق لي ذلك.. ألا تفهم؟"

أمسكها أحمد من ذراعها وهو يقول بإلحاح "لن يكلفك الأمر شيئاً.. ألا يمكنك أن تقوم بهذه الخدمة الصغيرة لأجلي؟.."

حاولت نور جذب ذراعها من قبضته، لكنه شدّ قبضته عليها بحيث منعها من الإفلات وجعل جسدها يتوتر بشدة وهي تقول بحنق "اتركني وإلا شكوتك للقائد.."

قال أحمد وهو يمنعها من الابتعاد "استمع إليّ يا فتى.."

صاحت نور بحنق متزايد وهي تجذب ذراعها بشدة "اتركني يا هذا.."

شعرت بمن يقف خلف أحمد، ثم وجدت عابد يبعد يد أحمد عنها قسراً وهو يقول ببرود "ما الذي تبغيه يا

هذا؟.. لا يحق لك إطلاق الأوامر لمساعدي.. لقد أوكلت له عدداً من المهام، ولن يفعل شيئاً آخر حتى ينجزها.."

ظل أحمد ينظر له بضيق لتدخله، ثم استدار مغادراً وهو يقول بحنق "لديّ كلمتان عليّ قولهما للقائد.. يجب أن يجد حلاً لهذا الأسلوب الفظ الذي تستخدمه مع الآخرين.."

لم يعلق عابد وهو يراقب رحيل أحمد، ثم وجد نور تقول مقطبة "اسمع.. أنا لا أحتاجك لحمايتي، لو كان هذا ما تحاول فعله.. لقد تدبّرت أموري جيداً في السابق، ويمكنني فعل ذلك ما بقي لنا في هذه الرحلة.."

دمدم عابد وهو يغادر "أأنت أحمق أم ماذا؟.. من الذي يحاول حمايتك؟"

لكن بدا لها واضحاً أن عابد تدخل عامداً ليبعد أحمد عنها.. فلمَ قد يفعل ذلك؟.. كان هذا أيضاً يسبب لها الضيق وشيء من الحنق.. هي ليست بحاجة لحماية أحد، ولو كان عابد يظن أنها ستكون مدينة له لذلك، فهو واهم بالتأكيد..

في الآن ذاته، كان عابد يشعر بضيق مماثل.. لا يدري لمَ شعر بحنق عندما رأى أحمد يعترض طريق نور ورأى التوتر في ملامحها.. ليس من عادته الاهتمام بأمور أحد، وليس مما يهمه ما يجري لنور بأي حال.. فلمَ تدخل بتلك الطريقة سابقاً؟.. هذا يشعره بضيق وبأنه قد بدأ ينغمس في أمور من حوله بأكثر مما يبغي.. ربما عليه أن يتراجع ويعود لسابق عهده من عدم المبالاة بكل من حوله.. كل ما يهمه هو المال.. هذا هو الشيء الوحيد الذي يحركه في هذه الرحلة الغريبة..

****

مضى شهر منذ اجتازت السفينة ذلك الثقب الفضائي، سارت فيه الأمور بأفضل مما توقع الجميع ودون مفاجآت تذكر.. قاد نوح السفينة بمهارة متجاوزاً كواكب المجموعة الشمسية، وحزام كايبر المكوّن من كويكبات وشظايا مختلفة الأحجام والذي يقع خلف كوكب نبتون، وحزام الكويكبات المماثل والذي يفصل المشتري والمريخ.. وبعدها، أعلن نوح عن اقترابهم من الأرض وظهورها في مجال أجهزة رصد

السفينة، وبذلك لم يبقَ إلا ساعات قليلة وتتم استعدادات الهبوط على الكوكب.. وعلى شاشة المراقبة، ظهر المريخ واضحاً لهم حيث مرّت السفينة على مسافة آمنة منه، وعلى مبعدة بدا كوكب الأرض وتابعه الوحيد قريب منه في زمالة دامت ملايين السنوات دون انفصام.. ظلت نور تنظر للأرض باهتمام كبير وهي تتخيل شعور شقيقها عندما اقتربت سفينة الفرقة العلمية من الأرض.. هل كان يشعر باللهفة والحماس؟.. هل كان قلقاً؟.. لا تستطيع التكهن بشعوره حقاً فهي لا تعرفه إلا من بضع صور احتفظت بها أمها له، وذكريات يغلفها الضباب منذ كانت صغيرة.. لكن هل ستعثر عليه حقاً؟.. وكيف سيكون بعد كل تلك السنوات التي قضاها في كوكب أقل ما يوصف به بأنه مميت؟..

لم تكن نور هي الوحيدة الغارقة في أفكارها، فقد التزم كل شخص في غرفة القيادة في عالمه الخاص وأفكاره التي تدور حول منبع القلق في نفسه.. وبعد ساعة ساد الصمت فيها غرفة القيادة، غادرت نور بعد أن أعجزها توترها عن البقاء في ذلك الموقع مدة أطول.. وأثناء سيرها في ممر السفينة بغير هدىً، قادتها الرائحة المميزة لذلك الجزء العلوي من السفينة حيث عثرت على عابد جالساً تحت تلك النوافذ الزجاجية المطلة على الفضاء الفسيح وهو يدخن لفافة تبغ بانهماك شديد.. ابتسمت نور وهي تتقدم منه معلقة "ما هذه العصبية؟.. من الغريب رؤيتك متوتراً بهذه الصورة.."

نظر لها معلقاً "وما الذي جاء بك أنت لهذا الموقع؟"

هزت كتفيها قائلة "مللت البقاء في غرفة القيادة وحيداً.. طارق شديد العصبية مع اقتراب المرحلة الأخيرة من هذه المهمة، وهو إما في غرفة القيادة أو ينزوي قرب ذلك التابوت يتأمله بإلحاح مدة طويلة.. أما نوح فمنشغل بمراقبة أجهزة التحكم على السفينة، وأنا كالهواء بالنسبة له لا يكاد يراني أو يستجيب لأي تساؤل أطرحه.."

تساءل عابد "ماذا عن أحمد وأخته؟.."

أجابت نور "هما منزويان في غرفتيهما كالعادة.. لا يزالان محتجّان على إحضارهما في هذه الرحلة.."

ثم تساءلت بدورها "إذن ما سرّ كل هذه العصبية؟.. عادة لا أراك إلا ساخراً أو حانقاً.. لكن لم أرك بهذا الحال قبلاً.."

غمغم عابد "أنت واهم.."

وقفت نور قرب الحاجز المعدني تتأمل الفضاء بدورها معلقة "أنت عادة تدخن لفافتك هذه باستمتاع كبير.. أما الآن، فأنت تشعل الواحدة بعد الأخرى بعصبية واضحة.. فما الأمر؟"

توقف عابد وقد كان يهمّ بإشعال لفافة جديدة، فأعادها لجيبه وتنهد قائلاً "لست أدري.. لما وقع بصري على الأرض، غمرتني قشعريرة شديدة.. أشعر بتوجس شديد، ولا أكاد أستطيع الجلوس براحة بتاتاً.."

ثم أضاف ملاحظاً التعجب في عينيها "أنا أدرك أن هبوطنا على الأرض لن يستغرق أكثر من يوم واحد كما هو مفترض، وأن تأثير التلوث في الأرض لن يكون مميتاً إلا لو تعرضنا له لمدة طويلة، لكن مجرد شعوري أن هذا هو الكوكب الذي يسمى الكوكب المميت يشعرني بخوف غير متعقل.. وكأنني على مشارف مجهول لن أستطيع الفكاك منه لو خطوت خطوة واحدة فيه.."

غمغمت نور وهي تجلس أرضاً "لو كنت أنت تشعر بذلك الخوف، فما الذي أستطيع قوله أنا؟.. لكن ما يطمئنني أننا في هذا سواء.. وقد أكد لنا طارق أن المهمة لن تتجاوز يوماً واحداً على الأكثر.."

دمدم عابد وهو يشعل لفافة تبغ من جديد "لا تثقي بما يقوله ذلك المتأنق.. أنا لم ارتح له ولوعوده منذ اللحظة الأولى.."

لم تعلق نور وهي تسند وجهها ليدها بصمت.. بعد ذلك الاتصال الغريب الذي أجرته رُبى معها، وبعد ما فعله عابد بطلب من رُبى، يساور نور شعور لا تستطيع تفسيره.. تلك الفتاة، ومعها طارق، ينويان أمراً ما ويخفيانه عن الجميع.. لكن ما السبب الذي لأجله اجتمع أولئك الستة حول جثة فتاة ذات أهواء غريبة؟.. ما الذي تبغيه حقاً منهم؟..

****

الفصل السابع

مضت عدة ساعات قبل أن تصل السفينة للقمر الذي استمر في مداره منذ الأزل.. وخلفه بدت الأرض قاتمة اللون، تختلف عما وصفت به قديماً بأنها الكوكب الأزرق الجميل.. بدت مظلمة، تغطيها سحب كثيفة رمادية اللون، وتغزو الكآبة أطرافها بشكل ملحوظ.. وخلال ساعتين، كانت السفينة تقوم باستعداداتها لعبور الغلاف الجوي للأرض، وقد بدأت بالاقتراب من مجال جاذبيتها بشكل كبير.. وبينما انشغل نوح باستعداداته للهبوط في الموقع الذي عينه طارق له، وقف البقية يراقبون الوضع عبر الشاشة في غرفة القيادة.. وخلافاً للعادة، انضمّ أحمد وميساء إليهم بتوتر واضح..

سمعوا نوح يقول وهو يتفحص أجهزته "لست أدري، لكن ينتابني قلق كبير من هذه الغيوم الكثيفة التي تغطي سماء الأرض.. لا أدري تأثيرها على السفينة، لكن سيكون من الخطر المغامرة بهبوط غير مدروس وسط ظروف لا ندركها.."

تساءل عابد "وما الذي يمكنك فعله؟.."

أجاب نوح "ربما من الأفضل لنا تفحص الوضع جيداً قبل دخول الغلاف الجوي.."

لم يعترض طارق بكلمة، فوجّه نوح السفينة لتتخذ مداراً حول الأرض، بينما انشغل هو ببضع أجهزة ليجري فحصاً شاملاً للغلاف الجوي ولنوعية تلك السحب التي تغطيه بشكل كامل وكثيف..

التفت عابد نحو طارق الذي يحدق بالشاشة متسائلاً "ما سبب تحديد الآنسة ذاك الموضع بالذات لهبوطنا؟.."

لم يستجب طارق للسؤال على الفور، وقبل أن يشتعل عابد حنقاً أجابه طارق باقتضاب "هذا شأن خاص بها.. إنه قبرها ويحق لها اختياره في أي موضع تشاء.."

بدا التردد على وجه نوح وهو يقلب بصره بين الخارطة وبين وجه طارق، ثم تساءل مقطباً "أليس هذا هو الموقع ذاته الذي حلّت فيه سفينة تلك الفرقة العلمية قبل خمس سنوات؟"

تساءل طارق "كيف تعرف ذلك؟"

أجاب نوح "لقد عثرت على الإحداثيات الخاصة بتلك الرحلة أثناء بحثي عن معلومات عن هذا الكوكب قبل الرحلة.. لذلك أدهشني الأمر عندما قمتَ بتحديد الموقع ذاته لهبوطنا الآن.."

قال طارق بسرعة "وما المهم في ذلك؟"

ظل عابد يحدق في وجه طارق بشيء من الاستغراب وهو يفكر في تلك النقطة، بينما نظرت نور لهم باهتمام كبير.. أيمكن أن تكون هذه مصادفة؟.. أم أن الآنسة رُبى قد تعمدت ذلك؟.. لابد أنها فعلت ذلك، وإلا ما معنى سماحها لنور بالمشاركة في هذه الرحلة إن لم تساعدها على الاقتراب من موقع الفرقة العلمية والبحث عن شقيقها المختفي منذ مدة؟..

بعد لحظات، قال نوح بقلق "أجهزة الرصد لا تعرض ما يكفي من البيانات عن حال الغلاف الجوي، ولا ما سيعترضنا من مخاطر لدى عبوره.. فما الذي سنفعله؟"

قال طارق بسرعة "إذن لا مجال إلا بعبوره بالفعل.."

ظل نوح يتفحص أجهزته بقلق، عندها قال طارق بصرامة "أطع الأمر الآن يا نوح.."

زفر نوح وهو يقبض على ذراع قيادة السفينة مغمغماً "حسناً.. أتمنى ألا أندم على هذا.."

فعلق عابد بضيق "ماذا لو حدث شيء للسفينة أثناء الهبوط؟.. هل ستتحمل نتيجة ذلك يا طارق؟"

لم يجبه طارق وهو يجلس جانباً يراقب السفينة التي أكملت دورتها قبل أن تتجه نحو الغلاف الجوي بثبات.. ولما اقتربت منه قال نوح "سنخترقه الآن.. كونوا حذرين.."

تعلقت الأعين بالشاشة وما ظهر من الأرض بتوتر كبير، بينما علق طارق "جيد.. كن حذراً أثناء الهبوط.."

لم يبدُ نوح سعيداً بهذه الملاحظة، لكنه علق رغم ذلك "بالطبع.."

سارت السفينة بشيء من السرعة نحو الغلاف الجوي ونحو الطبقة السميكة التي شكلتها الغيوم في طبقات الجو.. ورغم الاهتزازات التي صاحبت اقتراب السفينة من الأرض وتأثرها بجاذبيتها، إلا أن أحداً لم يعلق على ذلك سوى أحمد الذي أمسك يد أخته المذعورة وقال بقلق "هل كل شيء على ما يرام؟.. السفينة تهتز بشدة.."

أطلق عابد ضحكة لذلك التعليق الذي سمعه تكراراً بينما ظل نوح يدمدم بسخط.. وعند اقتراب السفينة من طبقة الغيوم واختراقها إياها، سادت ظلمة مخيفة شاشات المراقبة لا يقطعها إلا بعض النور الخفيف الذي تمكن من النفاذ من تلك الطبقة السميكة رمادية اللون.. ساد التوتر الشديد في نفوس الجميع دون استثناء، وعمّ الصمت وهم ينظرون للشاشة بتوجس بانتظار ظهور الأرض من بين الغيوم..

بعد لحظات، قال نوح بشيء من الارتياح "كل الأمور تسير على ما يرام.. يبدو أن شكوكي....."

قطع قوله بشكل مفاجئ وهو يقفز في كرسيه مقترباً من الشاشات التي اصطفت أمامه، فتساءل عابد بتوتر "ما الأمر؟.."

اندفت يدا نوح تعبثان بأجهزته وقلق شديد يبدو على وجهه، وبدأ الاهتزاز في السفينة يزداد بشكل مقلق وأخذت تصدر أصواتاً مريبة، فصاح عابد "ما الأمر يا رجل؟.. تحدث بالله عليك.."

أجاب نوح بذعر "هناك خلل شديد يصيب أجهزة السفينة.. هناك شيء في هذه الطبقة من الغيوم يشتت الأجهزة ويصيبها بالجنون.."

أخذ ينتقل من شاشة لأخرى بعصبية واضحة بينما قال طارق بقلق كبيرة "ما الذي ستفعله الآن؟.."

قال نوح بعصبية "أنا أبذل ما بوسعي بالفعل.."

لم يكن أحدهم يملك أي خبرة بالتعامل مع السفن، لذلك سادهم الصمت والأعين متسعة بذعر واضح، بينما تعلقت أبصارهم بنوح الذي ازداد عصبية مع مرور الثواني.. ثم فوجئوا بأجهزة السفينة تظلم تماماً وتوقف هدير المحركات الذي لم يهدأ أبداً في هذه الرحلة.. وفي لحظة، بدأت السفينة تتسارع وهي تخترق الغيوم وبدا أنها تهوي عوضاً عن الهبوط، وتسبب هذا باختلال توازنهم بشدة.. صرخت ميساء بذعر لم تتمالكه بينما ارتجفت نور بشدة وهي تتشبث بأقرب كرسي وتتلفت حولها بفزع.. اندفع طارق نحو نوح وعابد خلفه وهو يصيح "ما الذي تفعله؟.. ما الذي جرى؟.."

قال طارق بحدة مماثلة "استعدِ السيطرة على سفينتك بسرعة.."

لم يعلق نوح على أيهما وهو يعالج أجهزته بسرعة وخبرة بما يقدر عليه في مثل هذه الظروف.. وفي ثوانٍ قليلة، وسرعة السفينة تتزايد، انكشفت الغيوم من حولهم وغمر غرفة القيادة شيء من النور بدل العتمة

السابقة.. وفور ابتعادهم عن الغيوم، بدأت الأجهزة تعمل من جديد والشاشات تضيء واحدة تلو الأخرى..

قفز نوح عندها نحو الجهاز الرئيسي وأعاد تشغيل المحركات، فبدأت تهدر بصوت واضح أثلج صدورهم بشدة.. لكن الخطر لم يزل يهددهم والسفينة عاجزة عن استعادة توازنها وأصبحت الأرض تتسارع نحوهم بشكل مخيف.. فقال عابد بتوتر "ما الذي تفعله يا أبتاه؟ نحن نهوي بالفعل.."

لكن نظرة إلى نوح جعلته يدرك أن الأخير كان يبذل جهده بالفعل والعرق يغمر جبينه وهو يحاول تخفيف سرعة السفينة والميل بها لئلا تصطدم بالأرض بشكل عمودي.. كادت أنفاس البقية تنقطع وهم يرون اقتراب الأرض الصخرية التي ظهرت أمامهم وسفينتهم تتجه نحوها بتسارع خطير.. لكن، بجهد كبير، أفلح نوح في رفع رأس السفينة بشكل قليل وهو يقوم بتشغيل بعض المحركات النفاثة المسؤولة عن توجيه السفينة، وتوجيهها للأسفل لتخفيف هبوط السفينة العنيف الذي لم يتمكن من تمالكه حتى الآن.. ورغم كل محاولاته، فإن السفينة قد اقتربت من الأرض بشكل متسارع، ولولا ميلانها للأعلى لارتطم أنفها بالأرض وتحطمت بشكل عنيف.. لكن كل ما أفلح نوح بفعله هو في تفادي الارتطام المباشر، وإن اندفعت السفينة بقوة نحو الأرض الصخرية القاسية.. وفور ملامستها للأرض ارتجت بعنف وهي تصدر صريراً مزعجاً وتزحف على الأرض التي لم تفلح بتخفيف سرعتها بشكل كبير..

صاح عابد بنوح وهو يتشبث بكرسي قريب "أوقفها يا رجل قبل أن نرتطم بصخرة ما.."

جزّ نوح أسنانه وهو يتحكم بمحركات السفينة صائحاً "أنا أحاول بالفعل.."

زحفت السفينة بعنف وشدة ونوح يوجه المحركات النفاثة للأمام لتوقف اندفاعها قبل أن ترتطم بأحد التشكيلات الصخرية الكبيرة التي تناثرت في الموقع كله.. ثم، بعد زمن بدا أبدياً، توقفت السفينة مثيرة سحابة من الغبار في الموقع ومحركاتها تنطفئ بهدير متذبذب مطلقة احتجاجها على هذا الهبوط الذي لم تشهد مثله في عمرها الطويل..

زفر نوح وهو يعتدل في كرسيه، وتطلع للبقية متسائلاً "هل الجميع بخير؟"

نظرة إليهم جعلته يدرك أنهم قضوا أسوأ لحظات حياتهم من نظرات الفزع البادية في أعينهم والدموع التي

سالت بشكل تلقائي على خدي ميساء.. بينما غمغم أحمد محاولاً تمالك ذعره "أتظن أننا سنكون بخير بعد هبوط عنيف كهذا؟"

قال نوح مقطباً "لم يكن بيدي التحكم بهذا.. لم أحسب حساباً لتأثير الغلاف الجوي للأرض على أجهزة السفينة.. ولم أتوقع في أكثر خيالاتي جموحاً أنه سيفسد عملها ويجعلها تصاب بالجنون.. لنحمد الله تعالى أن السفينة لا تزال قطعة واحدة.."

فقال عابد وهو يعتدل واقفاً "هبوط رائع يا أبتاه.. لكن كن أكثر حذراً في المرة القادمة.. لا أريد أن أفقد حياتي قبل الأوان.."

سمعوا صوتاً خافتاً ينطلق من أحد الأجهزة، فتفحص نوح الشاشة بقلق ظاهر ثم قال "يبدو أن السفينة لم تنجُ من هذا الهبوط.. هناك عطب ما في أجد جوانبها.. وقد يكون الجزء الذي قمنا بإصلاحه سابقاً قد تضرر أيضاً.."

فقال طارق "إذن عليك رؤية ما يمكنك عمله بينما نحاول نحن إنجاز مهمتنا في هذا الوقت.."

زفر نوح قائلاً "أتمنى أن يكون الأمر بالسهولة التي تتوقعها.."

علق طارق "المهم الآن، علينا أن نتأكد من جو الأرض بشكل تام قبل المغامرة بالخروج من السفينة.. لا ندري إن كان الهواء ملوثاً بشكل خطر علينا أم لا.."

غمغم نوح "سأتأكد من ذلك بأجهزة السفينة خلال لحظات.."

قال أحمد "غامروا أنتم كما شئتم، نحن لن نغادر هذه السفينة حتى عودتها لمستوطنة آريس.. ويحسن بكم ألا تطيلوا بقاءنا هنا كثيراً.."

بقي طارق على هدوئه دون تعليق بينما غمغم عابد "ومن يريد البقاء في هذا الكوكب الميت؟"

فنهض أحمد قائلاً لميساء "لنغادر هذا المكان.. لم يعد هناك ما يهمنا في هذا الموضوع.."

تبعته ميساء دون اعتراض، بينما نظرت نور لعابد برجاء واضح وهي تتساءل في سرها إن كان يذكر وعده لها أم أنه نسيه.. لم يعلق عابد بكلمة وهو يتقدم من وسط غرفة القيادة حيث انهمك طارق بتأمل خارطة للموقع على أحد الشاشات.. فتساءل عابد "أين هو الموقع الذي يجب علينا دفن الجثة فيه؟.. أم أن كل

المواقع سواء؟"

غمغم طارق وهو يتأمل أجزاء الخارطة بتمعن "سأخبرك به عندما نبدأ عملنا بالفعل.."

ضرب عابد الطاولة بيده وهو يقول "استمع لي أيها المتأنق.. أنا مجرد عامل عندك، لكن يمكنني أن أفسد كل خططك لو عاملتني بهذه الصلافة مرة أخرى.. طلبتُ منك سابقاً معاملتنا كشركاء لك، وها أنا أعيد الطلب مرة أخرى.. ويحسن بك التفكير بعمق قبل إبداء رأيك.."

نظر له طارق بتقطيبة كعادته، ثم زفر قبل أن يقول "حسناً.. لا يضيرني معرفتك بالأمر.."

وأشار لموقع لا يبعد الكثير عن السفينة مضيفاً "هذا هو الموقع تقريباً.. وعموماً في هذه المرحلة فإن كل الأماكن تعتبر سواء.."

دقق عابد النظر في الخارطة وهو يحفظ تفاصيلها بسرعة كبيرة، عندما ارتفع صوت نوح قائلاً لهما "لقد انتهت أجهزة السفينة من تفحص حالة الأرض.. جميع المؤشرات عادية مع نسب ضئيلة من التلوث الذري الذي لن يؤثر فينا ما لم نُطِل البقاء على سطح الأرض.."

فاعتدل عابد واقفاً وهو يقول "لديّ عرض لكما.."

نظرا له بتعجب، فقال "ما رأيكما بأن أخرج لاستطلاع المكان في هذا الموقع قبل أن نبدأ عملنا بدفن الجثة بالفعل؟.. لا تنسوا بأن الأرض مهجورة منذ أمد طويل، ولا نعلم ما يعيش فيها من كائنات قد تكون خطرة علينا.. لا نريد أن يتعرض الجميع لخطر لم ندركه بينما يمكننا تفادي هذا برحلة استكشافية صغيرة.."

قال طارق "لا أظن أن لطلبك هذا أي معنى.."

اعترض عابد قائلاً "لكن هذا لا يمنع الحذر.. أليس كذلك؟"

فقال نوح بشيء من التردد "ربما كان قوله صحيحاً.. لن يضرّنا توخّي الحذر بأي شكل كان.."

صمت طارق دون أن يبدي موافقته أو يعترض على الأمر، فابتسم عابد قائلاً "إذن اتفقنا على هذا الأمر.. سأغادر باستخدام إحدى المركبات الصغيرة التي تحملها السفينة، وسأقوم بدورة سريعة في المكان قبل أن أدلي بتقريري لكم.."

واستدار نحو نور الواقفة جانباً مضيفاً "وسأصطحب نور معي.. هيا يا فتى، مغامرة مثيرة تنتظرنا بعد أيام وأيام من الملل الشديد.."

وغادر غرفة القيادة بخطوات واسعة، فتبعته نور بسرعة وشيء من اللهفة، بينما غمغم طارق "يا لك من أحمق.. أي مغامرة تنتظرك في موقع مهجور كهذا؟"

تساءل نوح "ما الذي سنفعله بهذين الشابين بعد انتهاء عملنا هنا وعودتنا لآريس؟"

تساءل طارق "أي شابين تعني؟"

قال نوح "أحمد وميساء طبعاً، من غيرهما؟.. إعادتهما لآريس قد تجلب على رؤوسنا المشاكل.. قد يعمد أحمد لاتهامنا باختطافه وأخته وإجبارهما على الرحيل للأرض رغماً عن إرادتهما.."

قال طارق وهو ينهض مغادراً غرفة القيادة "لنترك هذا لوقته.. ومهما جرى، لن يقع في تلك التهمة سوى عابد.. أنا وأنت بعيدان عنها تماماً.."

بدا طارق لعيني نوح غير مهتم لما قد يجري لعابد لو حدث ذلك فعلاً، رغم أنه فعل ذلك بطلب من الآنسة رُبى.. ثم غمغم نوح "ولكن قدومنا للأرض في هذا الوقت لن يعفينا من المسؤولية.. فقد خرقنا طناً من القوانين بهذه الرحلة.."

لم يعلق طارق وهو يزفر بتوتر شديد.. كان هذا آخر ما يقلق طارق لأمره.. بعد قليل، يبدأ المرح الفعلي في هذه الرحلة.. فهل كان مخطئاً لأنه أطاع تعليمات الآنسة بالحرف الواحد؟.. هل سيندم على هذا في وقت ما؟..

****

في جانب آخر من السفينة، في القاعة القريبة من المدخل، كان عابد منحنياً على إحدى المركبات الصغيرة التي تحملها السفينة في قلبها وهي مركبات صغيرة الحجم لا تتسع لأكثر من أربع ركاب، بظهر مكشوف وأجهزة اتصال حديثة متصلة بأجهزة السفينة.. أخذ عابد يتأكد من صلاحية المركبة للعمل وأنها مستعدة

لمثل هذه المهمة، بينما قالت نور بشيء من القلق "أليس من الأفضل أن نرتدي بعض الأردية الفضائية قبل خروجنا؟.. لا نعلم إن كان التلوث سيؤثر علينا أم لا.."

قال عابد وهو ينفض يديه "لقد أكد نوح أن كل الظروف ملائمة لخروجنا دون مشاكل.. فلماذا القلق؟"

غمغمت نور "أنت متساهل كثيراً.."

قال عابد وهو يتأكد من وجود حقيبة طوارئ في المركبة ويتفحص محتوياتها "ربما لأنني أكره تلك الأردية التي تقيّد حركتي أكثر من اللازم.."

غمغمت نور "لكن الأردية المطورة خفيفة ولا تختلف عن الأردية العادية إلا بشيء قليل.. لقد ارتديتَها أنت عندما قمتَ بصيانة السفينة"

علق عابد ماطاً شفتيه "وكدت أختنق منها حتى أنهيت مهمتي.."

وسار عبر القاعة نحو باب السفينة، فتساءلت نور وهي تتبعه "ما الذي سنفعله بعد خروجنا من السفينة؟"

أجاب عابد "سنقوم بجولة استكشافية كما كانت الخطة، لكنها ستتخذ مدىً أبعد من اللازم.."

اقترب من جهاز اتصال داخلي قرب الباب، فقال عبره "افتح أبواب السفينة الآن.. سنغادر خلال خمس دقائق.."

أتاه صوت نوح عبر الجهاز قائلاً "لا بأس.. وسأغلق الأبواب فور رحيلك.. ابقَ على اتصال مع السفينة عبر أجهزة المركبة.."

أنهى عابد الاتصال وعاد للمركبة قائلاً "هيا بنا.."

بدأ تشغيل المركبة الصغيرة ذات السطح المكشوف، فصعدت نور بدورها بصمت وشيء من القلق، بينما بدأت بوابة السفينة العريضة تفتح بصوت مسموع، عندها تسلل نور الشمس الخافت للقاعة مصحوباً بلفحة هواء على شيء من البرودة.. دفع عابد المركبة للحركة نحو البوابة بينما علقت نور "رائحة الهواء غريبة ولا تكاد تطاق.."

قال عابد "يا لك من مدلل.. أتعتبر هذه الرائحة سيئة؟.. أنت قليل الخبرة كما يبدو.."

لم تعلق نور وهي تحاول احتمال الرائحة التي زادت توجسها بشكل كبير، بينما سار عابد بالمركبة عبر الممر الصغير الذي يفضي بهما إلى الأرض الصخرية ذات اللون القاتم القريب من السواد والتي شكلت منبسطاً واسعاً، وبدا أنها على شيء من الارتفاع مما زاد من إحساسهم بالبرودة بشكل كبير.. تلفتت نور حولها متأملة معالم الموقع المهجور تماماً حيث لا تكاد تسمع فيه صوت حيوان أو عصفور بتاتاً.. لكنها شعرت بالهواء البارد يلفح وجهها وسمعت صفير الرياح عندما تمرّ ببعض التشكيلات الصخرية الضخمة، بينما امتدت الأرض أمام عينيها شبه منبسطة على مساحة كبيرة جداً لم يسبق لنور رؤيتها..

بدا كل هذا غير معتاد بالنسبة لها، فقد اعتادوا على المستوطنات المكتظة بالبنايات والسكان والتي تخلو من أي مناظر طبيعية إلا بعض الحدائق المتفرقة في مواقع قليلة منها.. كما أن وجود الرياح فيها مستحيل نسبة لكونها مناطق من صنع البشر مغلقة بإحكام لحماية ساكنيها من العوامل الجوية التي لا تناسب البشر في الفضاء الخارجي..

لم تدرِ نور بم تصف إحساسها والمركبة تنطلق عبر طريق صخري قديم يمر بهما بين بعض التشكيلات الصخرية الضخمة وقرب بعض الهوّات العميقة التي اتسعت لها عيناها بشدة.. كان شعوراً مختلفاً، شعورٌ بأن العالم حولها ليس محدوداً بحدود بشرية، حتى لو كانت من زجاج شفاف.. شعور بالانطلاق، وبالحرية لم يسبق لها مثيل.. الشيء الوحيد الذي أعادها لواقعها هي رؤية الأشجار الميتة على جوانب الطريق، وإدراكها أن هذا العالم، مهما كان فسيحاً وواسعاً، فهو مميت للبشر إن تعرضوا له مدة طويلة..

تساءلت نور وهي تقلب بصرها فيما حولها "أين سنتوجه أولاً؟.. أم أننا سندور بلا هداية؟"

استخرج عابد من جيب قميصه ورقة صغيرة ممزقة من دفتر ملاحظات عادي وقال "هذا رسم سريع للخارطة التي رأيتها في شاشة غرفة القيادة.. هناك بضع علامات لم أفهم معناها على الخارطة، لذلك سننطلق إليها ونرى ما هي.."

تناولت نور الورقة منه بينما أضاف عابد "لا أريد إثارة إحباطك يا فتى.. لكن لا تتوقع أن نعثر على شقيقك الغائب خلال وقت وجيز.. لو قضينا عدة سنوات لما كفتنا لنجول الأرض كلها بحثاً عنه.. وكما تعرف، لم يتم العثور على الفرقة قرب السفينة التي حملتهم للأرض أبداً.."

نظرت له نور بقلق وهي تتساءل "لكنهم قد يكونون قريبين من هذا الموقع.. هناك أجهزة اتصال في المركبة.. لم لا نرسل نداءً عبرها؟.. قد نتلقى استجابة منه أو من أي فرد من أفراد الفريق العلمي.."

قال عابد "لا أظن ذلك مجدياً في الوقت الحالي، قد ينتبه نوح وطارق لهذا النداء ويغضبا منا.. سنقوم بذلك بعد أن ننهي دورتنا هذه.."

غمغمت نور وهي تدير بصرها فيما حولها "أنت تؤكد باستمرار أن البحث عن شقيقي مستحيل.. لكنك مع ذلك تساعدني في هذا البحث دون تذمر.. لماذا؟"

ابتسم عابد معلقاً "وما المهم؟.. لسنا بعجلة لأي أمر وقد وصلنا للتو.. لا ضير من رحلة قصيرة في ربوع هذا الكوكب قبل أن ينتهي كل شيء.."

فغمغمت نور "لماذا تفعل كل هذا لأجلي؟"

قال عابد بشيء من التعجب "ألم يكن هذا ما طلبته مني؟.. أذكر بوضوح أنك رجوتني بشدة لأعينك على البحث عن شقيقك.."

خفضت نور بصرها قائلة "لكن مجرد الطلب لا يعني إجبارك على فعل ذلك.. وأنا شاكر لك ذلك.."

ثم نظرت إليه مضيفة بابتسامة "يبدو أنني أسأت الظن بك سابقاً.."

تساءل عابد عاقداً حاجبيه "وما كان ظنك بي سابقاً؟.."

قالت نور وهي تنظر بعيداً "ربما من الأفضل لك ألا تعرف ذلك.."

دمدم عابد بحنق "يا لك من..... يمكنني أن أدرك بالتحديد في أي خانة وضعتني بين البشر.."

هتفت نور فجأة "هل رأيت هذا؟"

تطلع عابد لحيث تشير فرأى، في الموقع الذي تشير إليه أقرب النقاط في الخارطة، بضع منازل حجرية قديمة متهالكة وقد تهدمت أغلب جدرانها بينما بقي بعضها سليماً يقاوم عوامل الزمن بصلادة وعناد تامين.. كان المكان مهجوراً بشكل تام، وبدا الطريق الحجري الذي تسير عليه المركبة يقطع تلك القرية الصغيرة، ومنازلها لا تتعدى عشرين منزلاً، ويتجاوزها ليغيب في الأفق..

توقف عابد بالمركبة وسط القرية الصغيرة وأنصت للصمت التام في جوانبها.. كان صمتاً موحشاً لم يسبق

له الإحساس به وكل ما اعتاد رؤيته هو المستوطنات المليئة بالحياة على مدار الساعة.. وللمرة الأولى يرى موقعاً مهجوراً من ساكنيه ويخلو حتى من أي أصوات مسموعة لطيور أو أي نوع من الحيوانات..

غمغم عابد وهو يدير بصره في المكان "إحساس بغيض.. لا أتمنى العيش في مثل هذا الموقع الموحش وحيداً.."

تساءلت نور "أتظن الفرقة العلمية ليست في هذه القرية؟"

أجاب عابد وهو يهبط من المركبة "أغلب الظن أنها ليست هنا.. سآخذ جولة سريعة في القرية، ابقَ أنت قرب المركبة مستعداً لأي طارئ.."

راقبته نور وهو يقطع ذلك الطريق نحو أقرب المنازل وغاب بقلبه متفحصاً.. لم يكن هناك ما يمكن تفحصه في تلك المنازل، فهي عابقة بطبقة من الغبار الكثيف وأغلب جدرانها مهدماً لا تكاد تخفي شيئاً خلفها.. دار عابد في عدد من تلك المنازل بحثاً عن أثر لساكن مرّ عليها منذ وقت قريب، لكنه تأكد أن تلك المنازل لم تشهد أي بشري منذ أمد طويل جداً..

بعد بعض الوقت، عاد عابد للمركبة ليجد نور واقفة قربها تنتظره بلهفة، ولما وصل إليها تساءلت "ماذا وجدت؟"

هز رأسه بالنفي في علامة واضحة، ثم صعد المركبة وتبعته نور دون أن يخفت حماسها مما جعل عابد يتساءل في سره كم سيدوم هذا الحماس؟.. قاد المركبة على الطريق الحجري وهو يقول "يبدو أننا في منتصف النهار، فالشمس تتوسط السماء.. قد يحلّ الليل سريعاً هنا، ولا نريد البقاء في العراء بعد مغيب الشمس.."

تساءلت نور بدهشة "بهذه السرعة؟"

قال عابد مبتسماً "ألا تذكر أي شيء مما تعلمته عن الأرض في المدرسة؟.. يوم الأرض لا يدوم إلا أربع وعشرين ساعة، وبهذا فإن النهار لا يتجاوز اثنتا عشرة ساعة فقط.. نحن معتادون على أيام المستوطنات التي تتجاوز أسبوعين وأحياناً ثلاثة.. لذلك التأقلم مع هذا النهار القصير جداً سيكون صعباً.."

تساءلت نور بقلق "كم ساعة بقيت لدينا؟"

أجاب عابد "ربما خمس ساعات على الأكثر.."

فغمغمت نور بشيء من الإحباط "هذا ليس بكافٍ للبحث.. أتظن طارق سينتظر حتى نهار الغد أم أنه سينتهي من مهمته هذه الليلة؟"

صمت عابد دون أن يملك إجابة لذلك، فقالت نور برجاء "هل تستطيع إقناعه بتأجيل الرحلة لعدة أيام؟.. لا أطلب أكثر من يومين أو ثلاثة.."

قال عابد "الحل الوحيد هو في إخباره برغبتك البحث عن شقيقك.. لكني أشعر أن شخصاً مثل طارق لن يعبأ بما ترغب به.. فاهتمامه ينحصر بالآنسة وبالمهمة التي جاء لأجلها، ولا يعبأ بأي شيء آخر.."

صمتت نور بقلق وإحباط ظاهرين، فقال عابد "كما قلت، ما زلنا نملك عدة ساعات قبل العودة.. من يدري ما قد يحدث فيها؟.."

سمعوا في تلك اللحظة صوت زئير تردد في المكان بشكل أصابهم بالصدمة.. تلفت عابد بحثاً عن مصدر الصوت، بينما قالت نور بدهشة "إنه زئير حيوان.. أما زالت الحيوانات تعيش على الأرض؟"

لم يجب عابد وهو يتلفت حوله بقلق واضح.. وعند مرورهم بإحدى الصخور الضخمة، فوجئ الاثنان بجسد أسود يقفز أمام المركبة فجأة والزئير يتعالى أكثر من السابق.. أدار عابد مقود المركبة جانباً بشكل تلقائي ليفاجأ بظهور صخرة في الجهة الأخرى لم ينتبه لها قبلاً.. حاول عابد تفادي الاصطدام بالصخرة وهو يدير المقود بسرعة.. فأفلح في ذلك بشكل بسيط، لكن مؤخرة المركبة ارتطمت بالصخرة بقوة جعلت توازن المركبة يختل وهي تميل جانباً في سيرها.. وقبل أن يستعيد عابد السيطرة على المركبة، وجد أنها تندفع نحو حافة منحدر قريب يفضي لهاوية عميقة تحته.. حاول عابد استعادة السيطرة على المركبة وإعادتها لطريقها السابق، ولما شعر أن الوقت قد فات على ذلك، صاح بنور المتشبثة بالمركبة بقوة وبعينين متسعتين "اقفز من المركبة.."

نهضت نور واقفة بذعر، فوجدت عابد يدفعها من فوق المركبة المنطلقة في الجانب البعيد عن الهاوية.. ثم أمسك حقيبة الطوارئ الموضوعة على الكرسي الخلفي للمركبة قبل أن يقفز خلف نور بسرعة.. شهقت نور وهي تشعر بجسدها يطير قبل أن تتدحرج أرضاً بعنف وهي تحيط رأسها بذراعيها.. وفور استقرارها أرضاً اعتدلت بعسر لتسمع صوت سقوط المركبة المدويّ في تلك الهاوية والجدران الصخرية تردد صداه

بشكل مفزع.. ورأت عابد يعتدل من موقع قريب قائلاً "ما هذا الحظ؟!.."

نهضت نور واقفة بينما تلفت عابد حوله بحذر شديد، ثم أسرع لجذع شجرة قريب قد جفّ وأصبح مجرد شبح لشجرة عاشت منذ زمن طويل.. فأسرع لأحد أفرعها اليابسة وكسرها بقوة قبل أن يكسر طرف الفرع بحذائه جاعلاً طرفه حاداً ليشكل سلاحاً بدائياً.. تساءلت نور بدهشة "ما الذي تفعله؟"

تلفت حوله قائلاً "لا نعلم ما هوية ذلك الحيوان، وأخشى أن يفاجئنا بالهجوم علينا دون أن نملك ما ندافع به عن أنفسنا.."

لكن المنطقة حولهما ظلت صامتة إلا من بعض النسمات الخفيفة التي حملت لهما صوت زئير بعيد.. فغمغم عابد "يحسن بنا أن نغادر بسرعة.. لكن علينا أولاً إنذار السفينة بهذا الحادث.. ربما يتمكن أحدهم من ملاقاتنا باستخدام مركبة أخرى.."

ثم سار نحو الحقيبة التي رماها أرضاً وفتش فيها للحظات قبل أن يقول "يا للبؤس.. لا تحمل هذه الحقيبة أي أجهزة اتصالات لنتواصل مع السفينة.."

ظل ينظر لمحتويات الحقيبة مقطباً ونور تتلفت حولها بقلق، ثم قال "على الأقل، هناك حبل متين من الألياف الصناعية.. سيفيدنا بالتأكيد.."

تساءلت نور بدهشة "يفيدنا فيمَ؟"

قال عابد وهو يتقدم من حافة تلك الهاوية "في القيام بمغامرة صغيرة وضرورية إن كنا نريد النجاة...."

في تلك الأثناء، في السفينة الفضائية، أعاد طارق جهاز الاتصال الملحق بالسفينة لموضعه بحنق وهو يقول "ما الذي يفعله ذلك الرجل؟.. إنه يرفض الاستجابة لنداءاتنا منذ مدة.."

قال نوح بقلق "أتظن أن أمراً ما حدث لهما؟"

قال طارق بضيق "وما الذي يمكن أن يحدث لهما في موقع مهجور كهذا؟"

غمغم نوح "ربما لم يتمكنا من احتمال التلوث في هذا الجو.. ربما....."

قاطعه طارق قائلاً باستنكار "ما هذا الخيال؟.. ألم تتفحص الجو بأجهزتك وتؤكد أن نسبة التلوث غير ضارة بشكل مباشر؟"

ظل نوح صامتاً دون أن يخفت القلق البادي على ملامحه، فزفر طارق قائلاً "لا بد أنه هبط من المركبة باستهتار كعادته.. سينال تأنيباً شديداً مني عند عودته دون شك.."

وقال لنوح " ابقَ في موقعك لتفحص المنطقة بشكل دوري.. لا ندري ما سنجد في هذا الكوكب المهجور.."

تساءل نوح "إلى أين أنت ذاهب؟"

أجاب طارق وهو يغادر "هناك عمل عليّ القيام به.."

وسار عبر الممر في طريقه نحو الغرفة التي لجأ إليها أوقاتاً عديدة طوال تلك الرحلة والتي أوت التابوت في قلبها وهو يتمتم "ساعة الصفر قد حانت أخيراً.."

****

تدلّت نور متشبثة بالحبل القوي عبر الهاوية العميقة وهي ترى تحتها ذلك الوادي الضيق الذي يقطعه نهر هائج وصدى صوته يتردد عبر الجدران الصخرية للهاوية.. تلفتت نور حولها لترى المركبة التي سقطت في موقع منبسط وسط ذلك المنحدر والذي احتفظ بالمركبة وحال دون سقوطها في النهر.. ثم رفعت بصرها للأعلى قائلة لعابد الذي وقف يراقبها ممسكاً بالحبل بيديه "أتظن الحبل سيتحمل ثقلي؟"

صاح عابد مجيباً "لا تقلقي.."

نظرت نور للأسفل متفحصة الموقع.. بعد أن عرض عابد عليها فكرته، واقترح أن يهبط هو بينما تبقى هي لمراقبة الوضع والتأكد أن الحبل الذي ربطه في الشجرة القريبة لن يفلت موقعه، فإن نور أصرّت بشدة على القيام بهذه المهمة بنفسها لأنها أخف وزناً.. ولو أفلت الحبل من رباطه، فلن تقدر أبداً على الإمساك به، وبعابد، لضعف ذراعيها مقارنة بحجم عابد.. هبوطها هي أأمن لهما معاً، ولم يكن التعامل مع هذه المرتفعات مخيفاً بالنسبة لها مع اعتيادها ذلك في عملها في الميناء.. وبوصولها للمركبة التي لم يدمرها السقوط العنيف بشكل كامل، يمكنها استخدام جهاز الاتصال الملحق بأجهزتها وطلب العون من سفينة

نوح.. وهذا خير من البقاء منقطعين في هذا العالم الغريب عليهما..

تفحصت الطريق الذي عليها أن تسلكه بالحبل، وتأكدت من موضع خطواتها وهي تنقل قدمها خطوة أخرى في طريقها للأسفل.. كانت نور تحاول توخي أقصى الحذر لتتمكن من الوصول لهدفها دون أن تسقط في النهر الهائج أسفل الهاوية.. وبعد أن وصلت منتصف الطريق، نقلت قدمها من جديد نحو جزء بارز من ذلك المنحدر بعد أن تأكدت من ثباته.. لكن ما كادت تنقل ثقلها عليه محاولة تغيير موضع قدمها الأخرى، حتى فوجئت بذلك الجزء ينهار من تحتها وهي تفقد توازنها للحظة وتزلّ بقوة..

تشبثت نور بالحبل بقوة، بينما أمسك عابد الحبل بقوة صائحاً "انتبهي.."

حاولت نور استعادة توازنها وإكمال طريقها بشيء من العسر، بينما قلّب عابد بصره بينها وبين الشجرة التي ربط الحبل حول جذعها اليابس المجوّف.. فلاحظ أن جذع الشجرة رغم ما بدا عليه من متانة كان أضعف من تحمل ذلك الاهتزاز الذي يشدّ الحبل بقوة.. فصاح بنور "مهلاً.. الحبل لن يتحمل ذلك.."

لم يكد ينهي جملته حتى فوجئ بجزء من جذع الشجرة يتهشم مرخياً الحبل حوله مما جعل نور تشعر بنفسها تهوي بقوة لمسافة بسيطة قبل أن يثبت الحبل وهو يميل بها بشكلٍ خطر.. تشبثت نور بالحبل بقوة وقد أفلت قلبها إحدى دقاته بفزع، ورغم ثباتها في الوقت الحالي إلا أن قلقها من انفلات الحبل من عقدته قد تزايد.. ولن ينتج عن ذلك إلا سقوطها من هذا الموقع المرتفع ونحو ذلك النهر الثائر بالأسفل والذي تزخر ضفتاه بصخور حادة مدببة.. رأت عابد يقبض على الحبل بقوة بيديه وهو منحنٍ فوق الحافة وصاح بها "تشبث بقوة ولا تسقط.."

كان هذا ما تفعله نور بالفعل، بينما حاول عابد الإمساك بالحبل بإحكام في اللحظة التي تهشم فيها الجذع الضعيف بشكل كامل وأصبح الحبل طليقاً ولا يعتمد إلا على ذراعي عابد.. ولحسن الحظ كانت قواه تمكنه من الإمساك بثقل جسد نور الضئيلة دون أن يفلتها.. أدركت نور المأزق الذي هي فيه، فحاولت الوصول للجدار الصخري والتشبث به لتستعين به على الارتفاع بسرعة قبل أن تخون عابد قواه، لكن الزئير القريب جعلها تجفل وهي ترفع بصرها للأعلى.. وجدت عابد يدير الحبل حول ذراعه عدة مرات لئلا يفلته ثم استدار خلفه متحفزاً.. كان صاحب الزئير نمراً ضخماً أخذ يقترب منه مكشراً عن أنيابه

بشراسة، وقد أثارت رؤيته صدمة شديدة في نفس عابد.. كان النمر ذا لونٍ كالحٍ يقترب من لون الصخور التي يمشي عليها، وجهه أضخم من المعتاد، ذراعيه قد استطالا بينما بقيت ساقاه قصيرتان نوعاً ما، وأحد نابيه قد انكسر سابقاً بينما الناب الآخر قد استطال بشكل كبير بحيث تجاوز فكه السفلي.. ومن شدقيه سال لعابه بشدة وهو يتقدم من عابد بخطوات واثقة..

لم يكن عابد يملك ما يدافع به بيده الحرة سوى ذلك الفرع الخشبي المدبب، كما أن وقوفه عند حافة الهاوية قد جعله عاجزاً عن المواجهة بشكل صحيح.. فصاح عابد وهو يرفع سلاحه البدائي في وجه النمر "اصعد الحبل بسرعة يا نور.."

أدركت نور المأزق الذي وقع فيه عابد، فحاولت صعود الحبل بسرعة وهي ترى عابد يوجه ضربة بالفرع الحاد نحو غريمه.. لكن مع صعودها، بدأ عابد يشعر بالثقل الشديد على ذراعه بشكل مؤلم، وكاد الحبل يفلت من ذراعه وهو يتسبب بميل نور بشدة بشكل شهقت له بذعر، فانشغل عابد بالحبل للحظات وهو يجذبه عالياً بذراعه مغمغماً "تباً لكل هذا.."

رفعت نور بصرها بقلق للأعلى، فأمكنها رؤية الذراع ذات المخالب التي طوّحها النمر نحو عابد المواجه للحافة، وبعينين مرتعبتين شاهدت الضربة التي أصابته في ظهره والدماء تغرق مخالب النمر الذي حاول الهجوم من جديد.. لكن عابد تمالك نفسه بسرعة رغم ألمه وطوّح الفرع الحاد في وجه النمر بضربة قوية أصابت جانب عنقه.. لكنها لم تكن كافية للتخلص من النمر الذي زأر بألم وهو يلقي بثقله على عابد..

لم يتمكن عابد من تفادي الجسد الضخم فأفلت الحبل وهو يشعر بثقله يتهاوى في تلك الهاوية تبعها صياح نور التي وجدت نفسها تسقط من ذلك الارتفاع بسرعة كبيرة.. وخلال ثوان كان جسدها يرتطم بالمياه الباردة ذات الهدير الهائج فتغوص في عمق النهر قبل أن تدفع جسدها للأعلى متمالكة ألمها الشديد لهذا السقوط.. شهقت نور بقوة وهي تحمد الله على مهارتها المتواضعة في السباحة، والتي اكتسبتها من السباحة في البحيرة الصناعية في جانب مستوطنة آريس منذ كانت طفلة.. تلفتت حولها لتجد أن النهر الهائج قد جرفها في مجراه بسرعته الشديدة.. فبحثت نور ببصرها عن عابد وهي تناديه بأعلى ما تملك.. لكن ضاع صوتها مع الهدير العالي الذي يصمّ الآذان..

بعد لحظات، انتبهت نور للدماء التي بدأت تتلاشى في النهر واستطاعت تبيّن جسد عابد على شيء من المبعدة.. سبحت نور نحوه مستغلة اندفاع المياه لتصل إليه، وفور وصولها تشبثت به بقوة وحاولت رفع رأسه لتبقيه فوق المياه وهي تصيح به "عابد.. استيقظ.. سنغرق نحن الإثنان لو لم تفعل.."

لكنه كان غارقاً في غيبوبة عميقة ولا تدري نور إن كان قد ارتطم بإحدى الصخور أثناء هبوطه.. تلفتت نور حولها بشيء من اليأس، حتى رأت صخرة ضخمة تعترض طريق النهر بصلابة وتشق المياه من حولها بيسر.. وجّهت نور طريقها لتلاقي تلك الصخرة دون أن ترتطم بها بشدة، ولما مرّت قريباً منها مدّت يدها الخالية فتمسكت بما تقدر عليه من الصخرة وهي تتشبث بعابد بقوة.. لكن كان عسيراً عليها الإمساك به مع حجمه الكبير، فقبضت على ملابسه بقوة وهي تجذبه بشدة حتى آلمتها يدها.. ورغماً عنها، أفلتته والمياه تجرفه بسرعتها القوية فابتعد جسده بسرعة كبيرة، وأمام عينيها المرتعبتين رأته يختفي في عمق المياه ولاحظت في الآن ذاته أن الهدير القوي بدا أشد في هذه المنطقة ورذاذ الماء يتطاير حيث يختفي الجزء الأخير من النهر.. حاولت نور التشبث بالصخرة بكلتا يديها وهي تهمس مرتعبة "إنه شلال.. رباه.."

رفعت جسدها بقوة إنما بيدين ترتجفان، لكنها سرعان ما انزلقت عائدة للنهر بسبب الطحالب التي نمت على تلك الصخرة.. تخبطت نور بذراعيها محاولة التشبث بأي صخرة قريبة، لكنها وجدت اندفاعها يزداد نحو الشلال قبل أن تهوي فجأة بقوة من ارتفاع عالٍ وسط مياه ذلك الشلال وتسقط بعنف في بركة المياه التي كوّنها تحته قبل أن يستمر بطريقه بين تلك المنحدرات في رحلته الأبدية..

****

وقف طارق طويلاً قرب التابوت يتأمل وجه رُبى الساكن بصمت تام.. بدت ابتسامة خفيفة على شفتيها المتيبستين وكأنها تدعوه لإتمام ما جاء لأجله دون تردد.. فتمتم طارق وهو يتأمل ملامحها "حان الوقت أيتها الأميرة النائمة.. فهل كنتِ تنتظرين أميراً خاصاً بكِ أم أنني أكفيك عن ذلك؟.."

ساد الصمت التام المكان، وبدت جملته تلك سخيفة بشكل لا يطاق.. فزفر طارق وهو يتقدم نحو لوحة

التحكم الجانبية في التابوت، وضغط عدداً من الأزرار مغيراً الإعدادات الخاصة بالتحكم في حالة الجسد وعملية التجميد.. وعلى الفور سمع هسيساً ضعيفاً وبدأ البخار يتكاثف على الجانب الزجاجي من الغطاء.. فدفع طارق الغطاء الزجاجي جانباً بدوره وركع قرب الصندوق يراقب التغيرات التي تحدث.. لم يطل به الوقت أكثر من عدة دقائق وهو يراقب ما يحدث في التابوت، عندما سمع صوت نوح عبر مكبر الصوت يقول "طارق.. أحتاج وجودك في غرفة القيادة.. هناك شيء ما يظهر على شاشات الرصد.."

قطب طارق مفكراً، ثم تساءل عبر جهاز اتصال جانبي في الغرفة "ما هو؟.. أهو حيوانٌ أم شخصٌ ما؟"

قال نوح بتوتر "بل سفينة.. سفينة فضائية.. وهذا لا يشعرني بالراحة بتاتاً.."

نظر طارق خلفه بقلق شديد.. ما هذا التوقيت السيئ؟.. ثم قال عبر جهاز الاتصال "أنا قادم حالاً.."

وغادر الغرفة مسرعاً نحو غرفة القيادة.. وخلال لحظات، كان يقترب من نوح الذي حدق عبر أجهزة الرصد في السفينة وهو يشير لنقطة في الشاشة قائلاً "أترى؟.. هذه السفينة تتقدم بسرعة من الأرض.. ولو حاولت اختراق الغلاف الجوي، فسيكون موقع هبوطها قريباً منا جداً.."

تساءل طارق بقلق "أي نوع من السفن هي؟.. هل تعرف هويتها؟"

قال نوح "سيبدو هذا لنا بعد أن تقترب من الغلاف الجوي.. لكن، أتظنها تابعة للقراصنة؟.. أم.....؟"

نظر له طارق مقطباً وهو يكمل "مجلس الأمن؟.. أتمنى ألا تكون كذلك.."

غمغم نوح "ما الذي سنفعله الآن؟.. في كلا الحالتين من الخطر بقاؤنا هنا.."

زفر طارق وهو يراقب تلك السفينة التي اقتربت من غلاف الأرض الجوي.. بالفعل، في الحالتين، من الخطر بقاؤهم في هذه السفينة.. فأين يمكنهم المغادرة؟.. وما الذي سيفعله بالفتاة الراقدة في ذلك التابوت؟.. هل يتخلى عنها بعد كل هذا الوقت؟.. أم يخاطر بها في كوكب لا يعرف ما قد يواجههم فيه؟..

قرار طارق سيعتمد عليه مصير الجميع هنا.. البقاء يعرضهم لخطر مباشر من السفينة الغريبة.. والرحيل يعرضهم لخطر مستتر لا يغيب عن أذهانهم جميعاً.. فكيف يمكن لطارق اتخاذ قرارٍ كهذا؟..

****

الفصل الثامن

في تلك الغرفة الجانبية، حيث يقبع التابوت بصمت وسكون كعادته، ظل الهسيس يتردد في المكان بشكل متواصل، بينما بدأ البخار يتكاثف على الغطاء الزجاجي الذي دُفع جانباً.. كان السائل الأزرق في قلب التابوت يسيل عبر فتحات خاصة ليتجمع في حاويات خاصة أسفل التابوت، تاركاً الجسد الجامد والذي يغمره البلل ساكناً في موقعه دون حراك..

أما في غرفة القيادة، فقد ظل طارق ونوح يراقبان شاشات الرصد ويتطلعان لتلك السفينة التي اقتربت من الغلاف الجوي للأرض وكادت تخترقه نحو قلبها.. وبعد أن طال الصمت، قال طارق "أليس من الأفضل إبعاد سفينتنا عن هذا الموقع؟.. علينا إخفاؤها في قلب جبل قريب أو موقع يخفيها عن الأعين حتى نغادر.."

هز نوح رأسه مجيباً "لا.. لابد أن سفينتنا قد ظهرت في أجهزة الرصد عندهم كما حدث عندنا.. لن يكون صعباً عليهم تتبعنا، كما يمكنهم إيقافنا لو رغبوا بذلك.."

فقال طارق بتوتر "إذن هل ننتظرهم حتى يصلوا إلينا بكل بساطة؟.."

مد نوح يده للأجهزة وحاول تقريب الصورة أكثر من السابق لمعرفة هوية تلك السفينة، وبعد عدة محاولات تمكنا من رؤيتها بشكل واضح وهي تدور دورة محدودة قبل المغامرة بدخول الغلاف الجوي للأرض.. وأثناء دورانها، اتسعت عينا نوح وهو يغمغم "رباه.."

ظل بصر طارق معلقاً بالسفينة التي بدت له واضحة بشكل كبير الآن.. وظهر الشعار الواضح على أحد جوانبها ليمحو أي شك لديهما في هويتها.. فقال نوح بارتجافة "إنها دورية لمجلس الأمن الفضائي.."

نظر طارق لها بغير تصديق وقال "كيف؟.. كيف أدركوا وجودنا هنا؟.. متى استطاعوا اللحاق بنا؟"

أجاب نوح بشحوب "تقديري أنهم أدركوا وجهتنا وتبعونا بعد أن اجتزنا ذلك الثقب الفضائي.. لابد أنه خاضع لمراقبتهم باستمرار دون أن ندرك ذلك.. وسرعة سفنهم مقارنة بسفينتنا مكنتهم من اللحاق بنا في

هذا الوقت القصير.."

فصاح طارق بتوتر وهو يهبّ واقفاً "يجب أن نغادر.."

قال نوح "إلى أين؟.. لا يمكننا الرحيل بالسفينة دون أن يدركونا، ولا يزال عابد ونور خارجاً منذ بعض الوقت.."

فقال طارق عاقداً حاجبيه "بل يجب أن نرحل باستخدام إحدى المركبات ونختبئ حتى ترحل سفينة مجلس الأمن.."

غادر طارق مسرعاً، فلحقه نوح وهو يقول بقلق "أليس من الخطر مغادرة السفينة في مثل هذا الوقت؟.. لنبقَ فيها ولنغلق علينا الأبواب.. لن يستطيعوا اقتحام السفينة مهما فعلوا"

فقال طارق "وماذا لو استخدموا القوة؟.. يمكنهم نزع جدار من سفينتك بضربة من أسلحة سفينتهم.. لنغادر فهذا أأمن لنا.."

وصل لغرفة أحمد وميساء التي لا تبعد كثيراً عن غرفة القيادة، وبضربات سريعة على باب غرفة أحمد، فتح الأخير الباب بانزعاج قائلاً "ما الأمر؟.."

خرجت ميساء من غرفتها بدورها بتعجب، بينما قال طارق بعجلة "هناك سفينة لمجلس الأمن تقترب من موقعنا.. علينا الرحيل بسرعة قبل أن يصلوا إلينا.."

بدت الدهشة على وجهيهما، لكن سرعان ما تمالك أحمد نفسه وقال بحزم "هذا جيد.. الآن يمكننا العودة للمستوطنة بواسطة سفينة مجلس الأمن.. لذلك سنبقى هنا لانتظارها دون شك.."

لم يكن طارق يهتم بأمر أحمد وشقيقته بتاتاً، لكنه خشي أن يدرك مجلس الأمن أن رُبى قد جاءت على هذه السفينة بالفعل ويسعون لاستعادتها بأي شكل كان.. فلا بد أن دان قد قلب عليها مستوطنات مجرة ميرا بإلحاح كبير.. ربما كان قدومهم هنا لمجرد الشك، وربما كان فعلاً بسبب كسرهم للحظر المقام على الأرض، لكن وجود أحمد سيؤكد لهم دون شك وجود رُبى على هذه السفينة.. لذلك قال طارق لأحمد بحنق "أتظن الأمر سهلاً حقاً؟.. أولاً، سيحاكمك مجلس الأمن بتهمة مخالفة القوانين والقدوم لهذا الكوكب رغم الحظر عليه، وحجتك بأنك قد أجبرت على ذلك لا يمكن تأكيدها بشكل تام.. ثانياً، أغلب الظن أن تلك

السفينة تسعى خلف الآنسة رُبى بطلب من دان مايدن.. لذلك سيتم اتهامك بالمعاونة في اختطافها أو قد تقضي نحبك أثناء هجوم الدورية على السفينة.. أهذا ما تريد أن يحدث لك ولشقيقتك؟"

نظر أحمد لميساء بتوتر، فقالت ميساء برجاء "لنرحل معهم يا أحمد.. وسنرى ما يمكننا فعله بعد أن تستقر الأمور قليلاً.."

غمغم أحمد بسخط "تباً لكم.."

لم يعبأ طارق بغضبه، بل قال موجهاً حديثه لميساء " غادرا عبر باب السفينة واتجها لتلك المرتفعات الصخرية المواجهة لنا.. سألحق بكم بعد قليل.."

تساءل نوح قبل أن يغادر "أتعرف كيفية استخدام المركبات الصغيرة؟"

أجاب طارق على الفور "لقد استخدمت أحدها سابقاً.."

فأخبره نوح بشفرة فتح قفل المركبات الإلكتروني، ثم غادر عبر ممرات السفينة ونحو القاعة التي تحوي المركبات الصغيرة والتي لا يتجاوز عددها الأربع، مع تلك التي رحل فيها عابد ونور، وسرعان ما لحق أحمد وميساء به دون اعتراض.. بينما انطلق طارق نحو الغرفة التي استقر فيها التابوت في الأيام الأخيرة بعد أن قام طارق بنقله من ذلك الموقع القريب من مدخل السفينة لآخر أكثر أمناً.. أسرع طارق نحو ذلك الموقع محاولاً الوصول إليه قبل أن يصل مجلس الأمن لسفينتهم.. لا يدري كم من الوقت سيمضي قبل أن تهبط سفينة مجلس الأمن، لكنه يأمل بأن تؤخرهم تلك الغيوم الكثيفة قليلاً حتى يتسنى له الفرار بجسد رُبى قبل وصولهم..

بعد وقت قصير، كان طارق يقترب من الغرفة الجانبية التي تحوي التابوت عندما لاحظ شيئاً يلتمع على الأرضية قرب البوابة.. توقف بشيء من الدهشة وهو يدقق النظر في ذلك الشيء، ليكتشف أنه سائل يبلل الأرضية المعدنية في أكثر من موقع.. لم يكن ذلك مجرد ماء، بل كان سائلاً أزرق اللون كثيف القوام مقارنة بالماء، وقد أدرك طارق ماهيته على الفور.. بقلق وقلب خافق، نظر عبر باب الغرفة الجانبية ليتأكد من شكّه، ثم غادر المكان لاحقاً بذلك الأثر من السائل الذي كوّن خطاً شبه متقطع في الممر أمامه..

لم يطُل به البحث كثيراً حتى استطاع أن يرى بعد عدة أمتار ذلك الجسد الذي سقط جالساً أرضاً وسط

الممر منطوياً على نفسه.. فركض طارق نحوه بلهفة وهو يقول "حمداً لله.. عثرتُ عليكِ أخيراً.."

لم يكن ذلك الجسد المبلل إلا لرُبى التي قبعت أرضاً منطوية على نفسها دافنة وجهها بين ذراعيها.. لاحظ أن جسدها يرتجف بقوة، واستطاع أن يسمع الصوت المبحوح يقول بخفوت وانتفاضة "تباً لك يا طارق.. لم تخبرني أن عودتي ستكون بهذا السوء.."

أسرع طارق يخلع سترته ويضعها على كتفي الفتاة ويجثو قربها قائلاً "أأنت بخير؟ لماذا حاولت مغادرة المكان وحيدة؟"

لم تجبه وهي تتشبث بالسترة بقوة بينما تأمل ملامحها الشاحبة وشيء من الراحة يغمره.. لم تكن رؤيتها حية تثير أي صدمة أو دهشة في نفسه مع علمه به منذ البدء، لكن اختفاءها المفاجئ أصابه بقلق شديد خاصة بعد استيقاظها من التجميد وكون جسدها في أضعف حالاته.. ومع الخطر الذي يهددهم بشكل قريب، كان قلقه مضاعفاً..

سألها بعد أن هدأت ارتجافتها قليلاً "هل تقدرين على السير؟.. يجب أن نغادر بأسرع ما نستطيع.."

همست "لا.. لا أستطيع الحراك مع رجفة ساقاي.. بالكاد استطعت الوصول لهذا الموقع بحثاً عنكم قبل أن ينهار جسدي من التعب.."

فغمغم بعجلة "إذن سأحملك.. سفينة من مجلس الأمن على وشك الوصول لموقعنا.."

حملها بعد أن لفّ سترته على جسدها، وسار راكضاً بسرعة نحو مخرج السفينة رغم قلقه من تعثره فسقوط رُبى من يديه سقطة قد تكون عنيفة على جسدها الهش.. سمعها تتساءل بصوت مبحوح "هل نحن على الأرض؟"

أجابها طارق "أجل.."

عادت تتساءل "ما الذي جرى منذ رحيلنا من مستوطنة فينون؟.. هل سارت الأمور على ما يرام؟"

غمغم طارق "إن كنت تعنين الأمور التي خططتِ لها دون إشراكي بالأمر، فكل شيء سار كما خططتِ له بالفعل.."

لاحظ ابتسامة ترتسم على شفتيها وهي تهمس "رائع.."

لم يعلق على قولها، ولم يجد في نفسه ذرة حنق أو غضب لكل ما فعلته، مِن حث نور على الانضمام للسفينة إلى دفع عابد لاختطاف شقيقيها.. رؤية وجهها الشاحب الضعيف قد بدد كل غضب شعر به منذ بدأت الرحلة تخرج عن المخطط الأصلي الذي يعرفه.. ربما يحاول أن يفهم كل أسبابها ويفرغ غضبه لكل ما جرى فيما بعد، أما الآن، فكل ما يعنيه هو أن يحمي هذه الفتاة الضعيفة التي ترتجف بقوة بين ذراعيه، وأن يهرب بها من قبضة مجلس الأمن ومن دان مايدن الذي يسعى خلفها بإصرار..

****

في تلك الأثناء، كان نوح يقبع خلف مجموعة صخور تخفيهم عن الأعين وهو يراقب بعينين متسعتين هبوط سفينة مجلس الأمن قرب سفينته.. كانت رؤية سفينته تقبع بلا حول ولا قوة قرب سفينة مجلس الأمن السوداء تؤلمه، وتشعره في الآن ذاته أنه مقيّد لهذه الأرض الغريبة لوقت يعلم الله كم سيطول.. لم يكن من طبعه البقاء في أي موقع لأكثر من أيام معدودة، وهو الذي قضى الثلاثين عاماً الماضية يجول بين المستوطنات بلا توقف تقريباً.. لذلك فقدان سفينته يعني بالنسبة له ما يفوق مشاعر البقية مجتمعين..

بعد وقت قصير، وبعد استقرار سفينة مجلس الأمن بشكل كامل قرب سفينته، استطاع نوح رؤية تلك الفرقة من رجال الأمن التي خرجت من سفينتهم متجهة نحو سفينته بسرعة.. فظل يتطلع إليهم بقلق مع إدراكه أن طارق لا يزال حبيساً في السفينة.. ما الذي دعاه للبقاء فيها طوال هذا الوقت؟.. لاحظ في تلك اللحظة مركبة من مركبات رجال الأمن الأكثر حداثة وسرعة تنطلق حاملة فرقة أخرى من رجال الأمن، وبدا واضحاً أنها ستتجه نحوهم بشكل مباشر، فقال نوح بارتياع "يبدو أنهم يعلمون بموقعنا.. لنهرب.."

وركض نحو المركبة التي أوقفها قرب مجموعة الصخور تلك، فتبعه أحمد الذي قال بحيرة "ما سبب ذعركم من مجلس الأمن بهذه الصورة؟.. لابد أن خرق قانون حظر التجول في هذا الجزء من المجرة لن يكون عقابه شنيعاً.. ربما ببعض التسوية يمكنكم العودة للمستوطنات بلا أي خسائر.."

قال نوح وهو يقوم بتشغيل المركبة "ليس والآنسة رُبى معنا.."

نظر له أحمد بعدم فهم، فأضاف نوح بعصبية "مجلس الأمن تبعنا بإيعاز من مؤسسة سولاريا ورئيسها دان مايدن.. ما فهمته من طارق أنه يريد الفتاة، حتى بعد موتها.. ونحن تجرأنا على الهرب بها رغماً عنه، لذلك لا أعلم إن كنا سنعود أحياء للعالم الجديد أم لا لو استسلمنا لمجلس الأمن.."

قال أحمد بغير اقتناع "هذه مبالغة.."

لم يعلق نوح وهو يتحرك بالمركبة بشيء من السرعة فيولي ظهره للسفينتين ويتجاوز عدداً من التشكيلات الصخرية ليسلك طريقاً شبه معبد وجده في ذلك الموقع.. قام بتغيير اتجاهه عدة مرات محاولاً الابتعاد عن أعين رجال الأمن قبل أن يلحقوا بهم، لكن مركبة رجال الأمن كانت قد زادت سرعتها وبدأت مطاردتهم بالفعل قبل أن يتمكنوا من الهرب.. وسمع نوح ميساء التي تجلس خلفاً تقول بتوتر "إن مركبتهم تلحق بنا بسرعة.."

قال نوح بنبرة قلقة "لأن مركباتهم تفوق هذه المركبة سرعة وتطوراً.."

حاول نوح استغلال التشكيلات الصخرية وبعض المعالم لتعطيل مركبة رجال الأمن عن اللحاق بهم، لكن ذلك كان عسيراً جداً.. ولم يلبث أن سمع صوت ارتطام حاد بجسم مركبته، بينما هتف أحمد "إنهم يطلقون علينا الرصاص.."

انخفض في أرضية المركبة وهو يدفع ميساء لتنخفض بدورها، بينما قال نوح بحنق "إنهم لا ينتوون قتلنا، ليس الآن على الأقل.. هم يريدون تعطيلنا بأي طريقة، فكف عن هذا الفزع وافعل شيئاً.."

صاح أحمد بحدة "ماذا أفعل وأنا لا أملك أي شيء؟"

صمت نوح وهو يتطلع للمساحات الصخرية أمامه.. كان الهرب مستحيلاً، وهم بحاجة لمعجزة ليتخلصوا من ملاحقيهم.. وبعد بعض المناورة، ومركبة رجال الأمن تقترب منهم بسرعة ومهارة، استطاع نوح أن يسمع صوت زئير يتردد من موقع قريب والتشكيلات الصخرية تردد صداه.. فقال نوح بدهشة "أهذا صوت نمر أم أسد؟.."

تساءلت ميساء بذهول "ألا تزال هناك حيوانات على الأرض؟"

قال أحمد بقلق وهو يتلفت خلفه "أهذا مهم؟.. مركبة رجال الأمن تقترب منا، ونحن غير مسلحين بتاتاً

لنصدّ....."

قطع قوله مع صوت الزئير الذي تردد أقرب من السابق، ثم لمح من بين الصخور غزالاً مذعوراً يقفز بعد أن تجاوزت مركبتهم الموقع بهنيهة، ليفاجأ بها سائق مركبة رجال الأمن الذي أدار المقود محاولاً تفادي ذلك الغزال الغريب بقرونه المتطاولة بشدة بلونها الدموي.. لكن الارتطام كان محتماً من هذا القرب، فاصطدمت مقدمة المركبة بجسد الغزال بقوة بحيث طار فوقها فيما تناثر دمه على مقدمتها..

ظل أحمد وميساء يراقبان المنظر، بينما قال نوح "يا إلهي.. وكأن الله تعالى قد أرسل هذا الغزال ليعيقهم.."

فقال أحمد بتوتر "إذن أسرع بالرحيل بالله عليك.. لا أريد أن أجدهم يلحقون بنا من جديد.."

لم يكذب نوح خبراً وهو يزيد سرعة المركبة بأقصى ما يستطيع، وغيرّ اتجاهه متجاوزاً الطريق المعبّد نحو جهة أخرى.. أما في مركبة رجال الأمن، فقد قام اثنان منهم بدفع جسد الغزال الذي سقط على المركبة أرضاً وأحدهما يقول بسخط "أهذا وقته؟.. من أين ظهر لنا هذا؟"

لم يعلق أحد بكلمة والقائد يدفع مركبته للسير بسرعة مجدداً وهو يمسح الدماء التي تغطي النافذة أمامه وتعيقه عن الرؤية.. كان صوت المركبة التي يلاحقونها يصل لسمعهم خافتاً، لكن كلما ساروا في ذلك الطريق المعبد بدا أن الصمت يسود الموقع أكثر فأكثر..

توقف قائد المركبة ووقف فيها محاولاً أن يرى المركبة التي اختفت من أمامهم، بينما تساءل آخر "ألا تبدو المركبة في شاشة الرصد عندك؟"

قال القائد وهو يجلس في كرسيه مجدداً "لا.. يبدو أنهم ابتعدوا كثيراً، فلا أستطيع رؤيتهم على الشاشة.."

وأضاف "لنكمل طريقنا ونحاول العثور عليهم.. لن يغفر لنا القائد عودتنا بأيدٍ خالية.."

سارت المركبة بأقصى سرعتها حتى غابت في ذلك الطريق.. وفي جانب آخر، قرب بعض الصخور الضخمة التي مرت بها المركبة، كانت مركبة نوح تقف بسكون والصخور تخفيها عن الأعين.. بينما بقي الثلاثة فيها صامتين بأعين متسعة وقلوب واجفة وهم يستمعون للسكون بعد رحيل مركبة رجال الأمن.. ولما اختفى الصوت تماماً، زفر نوح بتوتر بينما تساءل أحمد مقطباً "لماذا أطفأت محرك مركبتك؟.. لو عثر علينا رجال الأمن فلن يكفيك الوقت لتشغيل المركبة والهرب بها من جديد.."

قال نوح بسرعة "لو لم أطفئ محرك المركبة لبدت بوضوح في شاشة الرصد عندهم.. اختفاؤنا خلف الصخور لتضليل أعينهم، وإطفاء المحرك لتضليل شاشة الرصد.."

غمغم أحمد "لست هيّناً أبداً يا نوح.."

فقال نوح بشيء من الاعتداد "ماذا ظننتني؟.."

لكن سرعان ما عاد له توتره وهو يضيف "المهم الآن أن نعثر على موقع آمن نختبئ فيه قبل عودتهم.."

شغل محرك مركبته، واطمأن لعدم وجود مركبة رجال الأمن في شاشة الرصد عنده.. ثم سار بها بحذر شديد وسط تلك المنطقة المجهولة تماماً بالنسبة إليهم دون أن يخفت قلقهم وتوجسهم من هذا المكان..

****

سار طارق عبر ممرات السفينة بأسرع ما يستطيع وهو يحمل جسد رُبى الملتف بسترته بشيء من القلق محاولاً الوصول للمخرج ومغادرة السفينة.. لا يدري متى سيفاجئهم رجال الأمن، وإن كان سيتمكن من الفرار قبل هبوط سفينتهم أم لا.. لو لمحه من في سفينة مجلس الأمن، فهذا يعني أنه لن يفلت من قبضتهم مهما حاول.. وهو مصرّ على الهرب منهم مهما اقتضى منه ذلك، فهو لم يقطع كل هذه المسافة دون أن يحقق الهدف الذي قام لأجله بهذه الرحلة..

أما رُبى، فقد التزمت بالصمت وهي تشعر بشيء من الدفء وببعض المرونة تعود لأعضائها بعد أن وجدتها متيبسة وثقيلة جداً عند استيقاظها.. رأت مخرج السفينة مشرعاً، بينما وضعها طارق على إحدى المركبات الصغيرة وهو ينظر للسماء عبر المخرج بقلق.. لكن رُبى انشغلت عن قلقه بتأمل ما ظهر أمامها من الأرض وأخذت نفساً عميقاً من الهواء العابق برائحة قوية لا يُعرف كنهها.. ثم همست بصوت مبحوح "لطالما حلمت بهذه اللحظة.."

قال طارق بقلق وهو يصعد المركبة بدوره ويبدأ في فتح قفلها الإلكتروني "ادّخري أحلامك هذه لوقت آخر.. نحن في خطر كبير.."

قالت رُبى بابتسامة "نحن في خطر بالفعل.. لكن ليس الآن.."

نظر لها طارق بتوتر، ثم عاد للقفل الإلكتروني بصمت ودون جدال.. أعاد إدخال الرقم مجدداً وتوتره يتزايد.. وللمرة الثانية رفض القفل أن يفتح مؤكداً أن الشفرة خاطئة.. فغمغم طارق "تباً.. هل نسيت الشفرة التي أملاني إياها نوح؟"

سمع صوتاً عالياً يصدر قريباً جداً من السفينة، فاشتعل توتره أضعافاً وهو مدرك أن هذا الصوت لا يمكن أن يصدر إلا من سفينة مجلس الأمن.. هل هبطت قرب سفينتهم؟.. إذن ما عاد الانتظار ممكناً أبداً..

تخلّى طارق عن المركبة وهو يحمل رُبى مجدداً ويعود بها لقلب السفينة راكضاً.. فقالت رُبى باعتراض "هذا يجعلنا صيداً سهلاً لهم.. فهم سيفتشون أرجاء السفينة بتدقيق شديد ولابد.."

غمغم طارق وهو يلتفت خلفه "لماذا أشعر أنك لست قلقة من أي أمر؟"

دفنت وجهها في السترة وهي تقول "هذه الأمور التي تقلقك الآن لا تعتبر شيئاً مذكوراً.."

لم يعلق طارق وهو مدرك أنها لن تفصح عما لا تريد الإفصاح عنه، ولو كانت تريد مشاركته كل ما تعرفه لما فوجئ بكل ما خططت له في هذه الرحلة دون علمه بالأمر..

بعد وقت قصير، وصل طارق للمخزن البعيد حيث أخفى عابد أحمد وأخته في صندوقين سابقاً، فقال وهو يسمح لرُبى بالوقوف على قدميها "هذا هو المكان الأنسب لاختبائنا مؤقتاً.."

أسرع لجانب المخزن حيث الصناديق مكدسة وتحتلّ جانباً كبيراً من المكان، فتجاوز عدداً منها ليختار واحداً يقبع في الخلف وبحجم كبير يسعهما معاً.. ففتحه طارق بعجلة وقام بتفريغ بعض محتوياته في الصناديق القريبة بينما وقفت رُبى قريباً تتلفت خلفها وتستمع للصمت السائد خارجاً.. وبعد لحظات، قال لها طارق بصوت خفيض "هيا.. سنختبئ هنا في الوقت الحالي.."

علقت رُبى وهي تتقدم منه "أنت مدرك أن رجال الأمن لن يغفلوا عن هذا الموقع أبداً.."

غمغم طارق وهو يعينها على ارتقاء صندوق قريب "لنعوّل على غباء رجال مجلس الأمن.. وهم ليسوا بالذكاء الكافي عادة.."

لم تعلق رُبى وهي تنزل في الصندوق الفارغ وتقبع في جانبه، وسرعان ما لحق بها طارق وهو يعيد غطاء

الصندوق فوقهما ليحلّ ظلام جزئي في الصندوق.. بعد بعض الوقت، سمع طارق صوت خطوات تتقدم عبر الممر.. فاستغلّ وجود ثغرة في جدار الصندوق الخشبي تتيح له رؤية جانب من المخزن بوضوح تام دون أن تكشف وجودهما.. وبعد لحظة، رأى رجلين يرتديان زيّ مجلس الأمن الأسود بالشعار المميز بلونه الأحمر والذي يحتلّ جانباً كبيراً من الصدر.. كان الرجلين يحملان أسلحتهما بتحفز وهما يدوران في جوانب المخزن، ولما تأكدا أنه خالٍ تماماً تخليا عن تحفزهما وأحدهما يقول "تبدو السفينة خالية تماماً.. علينا برفع تقرير بذلك للقائد.."

فقال الثاني "مهلاً.. علينا ألا نهمل أي جانب من السفينة.."

رأى الرجل رفيقه يقوم بفتح بعض الصناديق مفتشاً في قلبها بتدقيق، فقال الأول " أأنت جاد؟.. لا يستدعي الأمر تفتيش الصناديق جميعها في هذا المخزن.."

قال الثاني "من يدري؟.. ربما نجد أحدهم مختبئاً فيها.."

كتمت رُبى أنفاسها وهي تسمع ذلك منكمشة قرب طارق، بينما ظل طارق يراقب عبر الفجوة الصغيرة في الصندوق بقلق شديد وهو يقبض على مسدسه بقوة.. لو اقترب الرجل من هذا الصندوق، فهذا يعني أن طارق سيضطر لمواجهته وشق طريقهما بالقوة عبر السفينة.. وهذه مغامرة غير محسوبة وخاسرة على الأرجح.. لكن هل يملك بديلاً آخر؟..

سمع الرجل الأول يقول "لا أظن.. لقد لمحت شاشات الرصد مركبة تخرج من السفينة قبل هبوطنا بدقائق.. ولقد أرسل القائد فرقة من الرجال للحاق بهم.."

عقد طارق حاجبيه بتوتر مفكراً في ما سمعه، بينما أضاف الرجل "سيحضرونهم خلال وقت قصير.. لذلك أرى من العبث تفتيش هذه السفينة.."

قال الثاني وهو مستمر في عمله "هذه أوامر القائد.."

قبض طارق على مسدسه بقوة وهو يرى الرجل يتقدم نحو صندوق كبير قريب من موقعهما، ثم بدأ بتفتيشه بتدقيق شديد.. فتساءل طارق في سرّه إن كان عليه انتظار اقتراب الرجل منهما حتى يباغته بهجمة مفاجئة، أم الأفضل له المبادرة بذلك الآن قبل أن يصبح في متناول قبضته خاصة مع وجود رُبى المنهكة

قربه؟..

نظر طارق لرُبى القريبة، ثم نبّهها لرغبته في الهروب بإشارة من يده.. لم تعلق رُبى وهي تهز رأسها إيجاباً، ولما همّ طارق بالخروج من الصندوق سمع هتافاً أوقفه يقول "انظر ماذا وجدت.."

نظر طارق بتوتر عبر الفجوة، فرأى الرجل الأول يقترب من الصندوق الذي حمل فيه عابد أحمد بعد مغادرتهم آريس، والموضوع خلف مجموعة من الصناديق.. فغادر الرجل الثاني موقعه وهو يقترب ليرى سبب نداء رفيقه له.. ولما رفع الأول غطاء الصندوق وتأمل قلبه الخالي، التفت إلى الثاني قائلاً بانفعال "هذا صندوق مجهز لنقل جسد بشري.. أليس كذلك؟.."

اتسعت عينا الثاني بدهشة، بينما أضاف الأول بحماس "إذن ما قيل لنا كان صحيحاً.. لقد جاءت هذه السفينة حاملة معها جسد تلك الفتاة.."

قطب الثاني متسائلاً "ألم يعلنوا موتها؟.. ما الداعي لإحضارها لهذا الكوكب الميت والمخاطرة بحياة كل من جاء معها على ظهر هذه السفينة؟"

ثم أضاف بحيرة "وما الداعي لوجود صندوق آخر؟"

قال الأول بانفعال "لا أدري.. لكن علينا إبلاغ القائد بذلك بسرعة.. هذا يختصر الكثير من التكهنات ولاشك.."

اشتعل قلق وتوتر طارق أضعافاً لهذا، وأدرك أنهم سيقعان في قبضة مجلس الأمن لا محالة.. معرفتهم بوجود رُبى على الأرض ستجعلهم أكثر استماتة للقبض على من في السفينة..

سمع الأول يقول "سأذهب لإبلاغ القائد بذلك.."

فقال الثاني "أنا سأستمر في بحثي في المواقع القريبة.. من يدري ما الذي قد أعثر عليه؟"

لم يعلق الأول وهو يغادر مسرعاً معالجاً جهاز الاتصال في أذنه، فيما استمر الثاني في تفحص الصناديق القريبة دون ملل.. أشار طارق لرُبى لتستعد وهو يرفع مسدسه بتحفز، فبدت لمحة قلق على وجه رُبى وهي تقبض يديها بشدة.. كانت تشعر بذراعيها وساقيها متيبستان بشدة بعد التجميد، ولا تكاد تستطيع السير بشكل مستقيم، فكيف ستقدر على الهرب عندما يحين الوقت؟..

أرجأت التفكير بذلك وهي متأكدة أن طارق قد وضع في حسبانه عجزها ذلك، بينما ازداد تحفز طارق وهو يشعر بالرجل قريباً من مخبئهما والصمت يسود جوانب السفينة القريبة.. ولما سمع الرجل يعالج غطاء الصندوق الذي هما فيه، قفز طارق واقفاً دافعاً الغطاء بعيداً بشدة فأصاب الغطاء وجه الرجل وألقاه للخلف بعنف.. قفز طارق خارجاً من الصندوق واندفع نحو الرجل الذي لم يتمالك نفسه بعد، فركل سلاحه بعيداً ووضع ركبته على يده بقوة ليثبتها، ثم كمم فمه بإحكام وهو يهمس بحزم "لا تصدر صوتاً وإلا قتلتك في الحال.."

وبحث عن جهاز الاتصال في جيوبه ليمنعه من استخدامه، لكن الرجل لم يتمهل أو يخضع للتهديد وهو يلكم طارق بيده الحرة فيلقيه بعيداً عنه، ثم هبّ واقفاً وقفز نحو سلاحه القريب.. فاندفع طارق نحوه وركله بقوة في بطنه ليبعده عن السلاح، ثم استولى على السلاح ووقف ينظر للرجل بتحفز.. رأى الرجل يرفع يده لأذنه ليجري اتصالاً برفاقه، فرفع طارق يده قائلاً "أتبحث عن هذا؟"

رأى الرجل جهاز الاتصال وقد استولى عليه طارق، فعقد حاجبيه بشدة وتقدم عدة خطوات قائلاً "من أنت يا هذا؟"

رفع طارق السلاح في وجهه بسرعة قائلاً "لا تصدر صوتاً ولا يحق لك طرح أي أسئلة.. لو تركتني أغادر، فلن أصيبك بمكروه.."

توقف الرجل مع مرأى السلاح، بينما بقيت رُبى قابعة في الصندوق وهي تتساءل إن كان عليها أن تخرج من مكمنها أم تنتظر حتى تستقر الأمور.. ثم سمعت طارق يقول "استدر واركع أرضاً وضع يديك خلف رأسك.."

غمغم الرجل بسخرية "من المفترض أن تكون هذه جملتي أنا.."

قال طارق بحدة "أطِع الأمر الآن.."

استدار الرجل وهو يرفع يديه خلف رأسه قائلاً "أتظن أن بمقدورك الإفلات من قبضة مجلس الأمن؟"

لم يمنحه طارق الفرصة ليركع أرضاً وهو يندفع نحوه ويضربه بقوة على مؤخرة رأسه ضربتين متتاليتين سقط بعدها الرجل فاقد الوعي.. فالتفت طارق قائلاً بعجلة "لنغادر من هنا بسرعة يا آنسة.."

وأسرع يعاونها على مغادرة الصندوق، فعلقت وهي ترى الرجل الساقط أرضاً "لوهلة شككت في قدرتك على التغلب على رجل الأمن هذا.."

قال طارق "لست مجرد مساعد كما قد تظنين.. ولم يتم اختياري لأكون بجوارك عبثاً.."

نظرت له بعينيها الزرقاوين بنظرة بدت له حادة، لكنه لم يعلق وهو يركع قائلاً "لابد أنك تجدين عسراً في السير.. سأحملك على ظهري حتى أستطيع استخدام السلاح بيدي الحرة.."

لم تعترض رُبى وهي تجد آلاماً لا تطاق في مفاصلها وعضلاتها.. فأحاطت عنقه بذراعيها، ووجدته ينهض على الفور وهو يقبض على السلاح بيد ويسندها باليد الأخرى، بينما أعاد مسدسه لجيبه.. ثم غادر المخزن بعد أن تفحص الممر للحظات وتأكد أنه آمن تماماً.. لا يعلم عدد رجال الأمن الذين يتفحصون السفينة، لكن هذه الخطوة هي الأسلم في الوقت الحالي، خاصة بعد أن تأكد رجال الأمن من مجيئ رُبى في هذه السفينة.. وتأكدت شكوك طارق من سبب قدوم الدورية خلفهم في هذا الوقت بالذات..

أما رُبى، فقد التزمت الصمت وهي تراقب جانب وجه طارق بتفكير عميق.. دوّت جملته في عقلها بشكل متتالٍ كصخرة سقطت في نبعٍ راكد وأثارت فيه زوابع متتالية.. ودّت لو تستطيع النفاذ بأفكارها لعقله ورؤية هويته حقاً.. ما معنى أن اختياره لم يكن عبثاً؟.. ما معنى قوله أنه ليس مجرد مساعد؟.. لمَ، وكيف، ولأي هدف؟.. لقد اختارته بنفسها بعناية، وكانت واثقة منه ثقة مطلقة، فهل كانت ثقتها في غير محلها؟.. هذا السؤال يثير جنونها في هذا اللحظة، وهي التي تثق بما تعرفه ثقة تامة.. لذلك، وجود أمر لا تعرفه هو كالقبضة القاسية التي تعصر عقلها بشدة.. لكنها أجّلت تساؤلاتها لوقت أكثر ملائمة، وما هم فيه من خطر مجلس الأمن يفوق ما سبق..

وصلوا لنهاية الممر المفضي للقاعة القريبة من بوابة السفينة، فوقف طارق بحذر وهو يطلّ من الممر لرؤية ما يجري في القاعة.. عندها تمكن من رؤية الموقع شبه خالٍ إلا من رجل أمن يفتش في الموقع عن شيء لا يدركه طارق، فأنزل طارق رُبى هامساً "انتظري هنا وكوني حذرة.. فور أن أتغلب على ذلك الرجل سنغادر باستخدام إحدى المركبات.."

لم تعلق رُبى وهي تراقب ما يجري بقلق، بينما انخفض طارق وهو يسير بخطوات خافتة جوار الحائط

المعدني محاولاً الاقتراب من الرجل ومباغتته.. ولكن قبل أن يصل إليه، كان الرجل قد استدار وهو يزفر، ولما رأى طارق الذي لم يكن يبعد عنه إلا خطوات، صاح وهو يرفع سلاحه "قف مكانك.."

لكن طارق قفز نحوه مقدراً أن رجل الأمن لن يطلق النار بهذه السرعة.. فسقط الإثنان أرضاً ورجل الأمن يرتطم بالمركبة خلفه بقوة تألم لها.. عندها قبض طارق على سلاح الرجل ودفعه في وجهه بقوة ليرتطم عقب السلاح بفك الرجل بضربتين أفقدته وعيه..

أشار طارق لرُبى التي قبعت قرب نهاية الممر وأسرع نحو أقرب المركبات إليه ورُبى تتبعه بخطوات ترتجف بتعب.. فعاونها طارق على ركوب المركبة، وحاول تشغيلها من جديد مغمغماً بحنق "تباً لنوح.. أيمكن أن يكون قد أملاني الشفرة خاطئة؟"

همست رُبى "حاول من جديد.. ربما ارتبكت في المرة السابقة بسبب توترك.."

زفر طارق بشدة وهو يتلفت في الموقع خشية قدوم شخص آخر، ثم عصر عقله لتذكر الأرقام التي أملاه إياها نوح على عجالة وهو يدخلها في لوحة تحكم المركبة.. وبعد محاولة خاطئة، جاءت المحاولة الثانية ناجحة والمركبة تعمل بصوت واضح.. عندها تنهد طارق براحة قبل أن يلتفت إلى رُبى قائلاً "الأفضل لك الاختباء في موقعك يا آنسة.. لا أريد أن يلمحك رجال الأمن أو يصيبوك بطلقة طائشة.."

لم تجادله رُبى وهي تقبع في قاع المركبة بصمت، بينما قاد طارق المركبة بسرعة وتهور عبر بوابة السفينة وهو مقدرٌ أن الموقع خارجاً يزخر بالعديد من رجال الأمن.. والسبيل الوحيد للهرب هو في دفع المركبة بينهم بقوة.. وبالفعل، رأى عدداً من رجال الأمن يتوزعون في الموقع وقد انتبهوا له مع قيادته المتهورة.. فصاح بعضهم "أوقف المركبة.."

ارتفعت الأسلحة في مواجهته، لكن طارق لم يعبأ بها وهو يدير المركبة لتسلك طريقها بين مجموعة منهم.. فبدأ رجال الأمن إطلاق رصاصاتهم عليه وعلى المركبة محاولين إيقافها، لكن طارق خفض رأسه دون أن يتوقف وهو يقود المركبة بشكل متعرج لتفادي إصابة أحد إطاراتها وهو الأمر الذي سيعني انقلابها أو انحرافها بشكل خطر..

اندفع طارق بالمركبة مخترقاً بعض رجال الأمن، ورغم أن بعضهم حاولوا الوقوف أمامه لإجباره على

تخفيف سرعته، لكن طارق الذي يخشى من اكتشافهم لوجود رُبى معه لم يتهاون في سيره حتى وجد رجال الأمن يتقافزون من أمامه قبل أن ترتطم بهم المركبة.. ورغم الطلقات التي أصابت جسد المركبة المعدني بصوت يثير الفزع، إلا أن طارق لم يتوقف مخلفاً السفينتين خلفه ومتخذاً طريقاً يعلم تمام العلم أنه يبتعد عن موقع نوح والبقية.. لكن كل هدفه الآن هو الابتعاد حتى يفقد رجال الأمن أثره، ومن ثم يبحث عن البقية بهدوء..

بعد تجاوزه بعض الصخور الضخمة والتشكيلات الصخرية، وجد طارق أمامه غابة كبيرة من الأشجار العالية والتي لم تصمد أمام الظروف القاسية التي مرت بها الأرض، فماتت الأشجار كلها محافظة على انتصاب جذوعها التي غدت بلون رمادي باهت ومجوفة في أكثر من موضع وتخلو من أي أوراق تزين هامتها..

توقف طارق فجأة وسط الغابة وتلفت حوله، فارتفعت رُبى متطلعة حولها وتسائلت "لم توقفت الآن؟.. سيلحقون بنا خلال لحظات.."

هبط طارق وجذبها لتنزل قائلاً بتوتر "ملاحقتهم لنا لن تتوقف مع هروبنا هذا.. وأخشى أن نجاحنا بالهرب قد لا يستمر طويلاً.."

نظرت له رُبى بتساؤل، لكنه لم يجبها وهو يجذبها لشجرة قريبة كبيرة الحجم، ولما اقتربت منها انتبهت أن قلبها أجوف تماماً، وبدا هذا واضحاً عبر فجوة في جانبها.. دفعها طارق عبر الفجوة قائلاً "اختبئي في هذا الموقع ولا تغادريه.. مع حلول الظلام القريب سيصعب عليهم رؤيتك من مركبتهم إلا لو توقفوا وتفحصوا الموقع بتدقيق.."

تساءلت رُبى بشيء من القلق "وأنت؟"

أجابها بسرعة "يجب أن أستمر بسيري بالمركبة لأضللهم عن هذا الموقع.. ومتى ما تمكنت من الفرار من ملاحقتهم الدؤوبة، سأعود إليك ونرحل من هذا الموقع.."

نظرت له رُبى بصمت وهي تشعر أن هذه المحاولة ستبوء بالفشل.. وظلت تفكر بعمق محاولة دفع عقلها ليعمل كما ترجو وكما يفعل عادة حتى لو لم ترغب بذلك.. وتساءلت في نفسها بشيء من السخط "لمَ لا

تؤدي الغرض منك في أحوج أوقاتي إليك؟.. تباً لك.."

لم يعلق طارق على صمتها، بل دفعها لتختبئ في جوف الشجرة، وجذب بعض الأفرع الساقطة قريباً وكوّمها قرب الفتحة ليضلل الأعين عنها، ثم ابتعد راكضاً للمركبة وقادها بسرعة مستمراً في طريقه وهو يتلفت حوله.. حاول حفظ تفاصيل المكان لكي لا يتوه عنه في هذا الموقع الغريب عليه وهذه الظلمة التي تزايدت والتي تضيع معها التفاصيل بسهولة..

بعد سير قصير، سمع طلقة ترتطم بجانب المركبة المعدني، فالتفت خلفه ليرى مركبة مجلس الأمن تتبعه وعليها أربعة من رجال الأمن بأسلحتهم.. فقال بارتياح "جيد.. لم ينتبهوا لاختباء رُبى في ذلك الموقع.."

وأدار مقوده بحدة لتستدير المركبة جانباً وهو يغيّر طريقها محاولاً الابتعاد عن مرمى رصاصاتهم.. كان متأكداً أنهم لن يلجؤوا لإصابته بل سيحاولون إيقافه بشتى السبل.. وبدت له تلك المطاردة طويلة جداً استنفذت صبره بشكل كامل..

****

هبّت نور جالسة فجأة بعينين متسعتين وهي تحاول تمالك دقات قلبها المتسارعة بعد غيبوبة لم تعرف كم دامت.. تلفتت حولها بشيء من الدهشة بعد أن استوعبت أنها لم تعد وسط ذلك النهر الهائج.. وعوضاً عن ذلك، وجدت أنها في كوخ بدائي الصنع مكوناً من بعض الأخشاب المتر اصّة وقد تم تثبيتها بحبال مصنوعة من ألياف الأشجار.. وفي جوانب عديدة تم حشو جدران الكوخ ببعض الطين المتيبس لسدّ فراغاته..

ازداد توتر نور وهي تتلفت حولها وتنظر للكوخ الفارغ بسقفه المنخفض المصنوع بطريقة مشابهة لجدرانه.. كان الظلام شديداً، لكن أمكنها أن ترى معالم الكوخ من حولها عبر نافذة جانبية ينفذ منها نور القمر وهي تنتبه للصمت التام من حولها، ثم انتبهت لوجود عابد قريباً وقد استلقى على بطنه على حشية بدائية وتم لفّ ضمادات حول إصابة ظهره فيما لاحظت نور وجود خليط من الزيوت والأعشاب تتخلل الضمادات

في أكثر من موقع..

هبّت نور نحو عابد قائلة بقلق "عابد.. انهض.. انهض أرجوك.."

هزته بشيء من القوة، لكنه لم يستجب لها وبقي في صمت تام.. فمدت يدها ولمست عنقه بحثاً عن أثر لنبض قلبه أو أي شيء يثبت لها أنه على قيد الحياة.. ولما استطاعت أن تسمع نبضه يتردد بثبات، زفرت بقوة هامسة "حمداً لله.. لا يزال حياً.."

انتبهت في تلك اللحظة لجسد يسدّ باب الكوخ، حيث يتسلل نور ضعيف لنيران أشعلت على مبعدة.. نظرت نور للجسد بقلق، فلاحظت ما جعلها تتراجع شيئاً ما بذعر.. كان الجسد قصيراً نوعاً ما، لا يتجاوزها في الطول بكثير، ورغم الظلام المهيمن عليه إلا أنها تمكنت من رؤية ملامحه الجسدية الواضحة التي أفزعتها..

رأت الجسد يتراجع شيئاً ما ويغيب خارج الكوخ، فاستدارت نور نحو عابد وهزته بقوة أشد هامسة "استيقظ يا عابد.. يجب أن نغادر هذا المكان.."

وجدت بعض الضوء يسقط عليها، ولما التفتت رأت ذلك الشخص يحمل مشعلاً فيضعه في جانب الكوخ على حامل خاص مصنوع من القصب قبل أن يلتفت إليها مدمدماً بشيء لم تفهمه.. اتسعت عينا نور بذعر واضح وهي تتمكن من رؤية ذلك الشخص بوضوح أكبر على نور المشعل، ولم يكن هذا ليهدئها بحال.. كان ذلك الشخص رجلاً لم تتمكن من التكهن بعمره، يرتدي رداءً بسيطاً مصنوعاً بطريقة فجّة وبدائية وقد بدا مستهلكاً وبالٍ بشكل مزرٍ.. لكن ما أثار ارتعابها، بالإضافة لرؤية شخص غريب في هذا المكان المقفر، كان ما بدا من وجهه وجسده.. كان غريباً، بشرته تبدو خشنة وقد غزت الأورام متفاوتة الأحجام أجزاء عديدة من جسده.. فمنها ما بدا في جانب رأسه الذي لم يعد يبدو باستدارته المعهودة، وكذلك في جانب وجهه الأيمن بحيث كانت عينه اليمنى مغلقة بشكل دائم بسبب أحد تلك الأورام.. فمه معوجّ لأحد الجوانب، وشعر رأسه خفيف ولا يغطي إلا الجانب السليم من رأسه، كما اختفى أي أثر لحاجب فوق عينه اليمنى.. وعلى ما ظهر من ذراعيه وساقيه هناك عدد آخر من الأورام بحيث بدت أطرافه غير متناسقة ولا تشبه الشكل البشري كثيراً..

اقترب منها ذلك الشخص وهو يتحدث بصوت عميق أثار رعبها أكثر وكأنه قادم من بئر سحيق.. بدت الأصوات التي أطلقها مجرد مجموعات من الحروف لا معنى لها، ولم يبدُ أنه يعني بها شيئاً بل كان كمن يصدر أصواتاً كيفما اتفق.. تراجعت نور بذعر أكبر وهمست "من أنت؟.. ما الذي تريده منا؟.."

عاد ذلك الشخص يكرر عليها ما قاله سابقاً وهو يشير إليها وإلى عابد وإلى موقع خارج الكوخ.. لكن نور ظلت منكمشة على نفسها وهي تنظر له بذعر واضح.. ظل الرجل يراقبها بصمت قليلاً، ثم استدار وغادر الكوخ من جديد تاركاً المشعل في موقعه.. استردت نور أنفاسها بعد أن كانت تكتمها تلقائياً لشدة فزعها.. وعادت لها القدرة على التفكير وهي تحاول تمالك نفسها.. لقد أفزعتها رؤية ذلك الرجل المشوه، لكن ما سبب ذعرها حقاً؟.. ألمجرد أن له جسداً يثير فزع من يراه؟.. ليس هذا ذنباً معروفاً لتحكم عليه به.. ثم إن هذا الرجل، كما هو واضح، هو من أنقذها وأنقذ عابد من الموت غرقاً في النهر.. كل ما تذكره هو سقوطها في الشلال وبعدها غمرها ظلام تام ولم تدرك متى أخرجها هذا الشخص من النهر وحملها لهذا الكوخ.. وما أراحها أكثر هو عثوره على جسد عابد ونقله لهذا الموقع، رغم ما في هذا من إجهاد له مع فارق الحجم بينهما، وفوق ذلك قام بعلاج جرح عابد وإيقاف نزيفه..

زفرت نور وهي تفرغ توترها مغمغمة لنفسها "لا يمكن أن ينوي لنا شراً.. يجب أن أستغل هذه الفرصة ولا أستسلم للذعر.."

شعرت باقتراب خطواته من الكوخ، وما لبث أن ظهر قرب الباب من جديد حاملاً في يده إناءً طينياً أحمر اللون دفعه أمامها وهو يتمتم بتلك المقاطع الصوتية التي لا تحمل أي معني.. نظرت نور للإناء فوجدت به ما يوحي بأنه طعام، وإن كان خليطاً من أعشاب وشيء مهروس يشبه البطاطا ولا يوحي بأنه صنف يمكن أن يؤكل من قِبل البشر..

نظرت نور للرجل بتوتر ورأته يشير للطعام ويكرر كلامه بإصرار.. ظل يكرر قوله عدة مرات حتى استسلمت وهي تقول مطمئنة نفسها "لا أظنه ينوي شراً.."

كان الطعام دافئاً، ولم تجد ما تأكل طعامها به فاستخدمت أصابعها لتذوقه بشيء من التوجس.. كان بالفعل يشبه البطاطا الحلوة وبعض المذاق الغريب الذي اكتسبه من الأعشاب المختلفة دون أن تجد أثراً للملح أو

لأي من البهارات المعروفة فيه.. لكنه فوق كل ذلك كان مقبولاً.. أكلت نور ما استطاعت أكله والرجل يراقبها عن كثب وبنظرات لا تخلو من فضول، ولما انتهت تناول الإناء من يدها وابتسم ابتسامة مشوهة قبل أن يبتعد وهو يحمل المشعل الخشبي.. وقبل أن يغادر الكوخ نظر إليها وغمغم ببعض الأصوات ثم ابتعد ليحلّ الكوخ في ظلام شبه تام..

تنهدت نور لتتمالك قلقها كلما كان الرجل قريباً، ثم استدارت إلى عابد من جديد وحاولت إيقاظه وهي تهمس "استيقظ يا عابد.. يجب أن نعود للبقية مادمنا قادرين على ذلك.."

لم تجد من عابد أي استجابة، فزفرت وهي تنطوي جانباً بصمت.. لم تكن تطمئن لذلك الرجل بشكل كامل، رغم أنها تشعر بأنه لا ينوي إيذائهما.. وفي الآن ذاته لا تستطيع الرحيل قبل أن يستيقظ عابد ويغادر معها.. حاولت إبقاء نفسها مستيقظة، لكن رغم توترها فقد عادت للنوم من جديد حيث قبعت في زاوية الكوخ وهي تنصت للهدوء الغريب خارجه..

ورغم الأحداث السابقة، إلا أن هذه الليلة بدت لنور هادئة هدوءاً يثير العجب بشكل كبير..

****

الفصل التاسع

استيقظت نور مع شروق الشمس على صوت خافت قربها، فالتفتت جهة عابد لتجده قد استيقظ واستند على إحدى يديه محاولاً الجلوس.. نظرت نور لوجهه براحة، رغم ملامح الألم على ملامحه، بينما غمغم عابد بصوت متعب ووجه بالغ الشحوب "حمداً لله.. لم أكن أظن أنني سأستيقظ وأجد أننا لازلنا على قيد الحياة.."

وجدها تقول بصوت هامس "حمداً لله.. لقد نجونا بمعجزة.."

ثم أضافت باضطراب "كانت حالك سيئة جداً.. وكنت واثقة أنك لن تستيقظ بتاتاً.."

لم يعلق عابد وهو يتلفت حوله بتعجب قائلاً "كيف عثرت على هذا الكوخ المهجور؟.."

قالت نور بتوتر "ليس مهجوراً تماماً.."

نظر لها بدهشة وهي تضيف "في الواقع، صاحب هذا الكوخ هو من أنقذ حياتينا البارحة.."

تضاعفت دهشة عابد دون أن يستوعب ما تقوله، ثم سألها "أتعني أن من أنقذنا أحد أولئك العلماء من الفرقة التي اختفت على الأرض؟"

هزت نور رأسها قائلة "لا أدري حقاً.. أهو منهم أم لا؟.. لم أستطع استخلاص أي شيء منه البارحة.."

ثم أضافت وهي ترى التعجب في عينيه "ستعرف ما أعني عندما تراه.."

لم يعلق عابد وهو يتفحص الأربطة المحيطة بجذعه متسائلاً "أهو من فعل ذلك؟.. تبدو هذه الأربطة أشد تلوثاً من الجرح الذي أصابني.."

قالت نور بقلق "أأنت بخير؟.. بدت إصابتك بليغة عندما هاجمك ذلك النمر.. كما أن سقوطنا في النهر كان عنيفاً.."

غمغم عابد وهو يزيل الأربطة "أشعر بألم شديد وتعب بالغ بسبب ما فقدته من دماء.. لكن أتمنى أن يكون هذا أسوأ ما سيمر بي بسبب هذا الجرح.."

ساعدته نور على تفحص جرح ظهره، بسبب استحالة ذلك على عابد.. ولما أزالت الأربطة بشكل كامل ارتجفت يدها شيئاً ما لرؤية الجرح العميق الذي سببته مخالب النمر على شكل ثلاث خطوط متوازية بشكل مائل من لوح الكتف حتى الخاصرة.. لكنها لم تظهر ذلك في صوتها وهي تقول "على الأقل، توقف نزف دمك من هذا الجرح بشكل جزئي.. سيستغرق بعض الوقت، لكنه سيصبح أفضل ببعض العلاج.. عليك فقط أن تقنع بحمل هذه الندوب لما بقي من حياتك.."

غمغم عابد "وكأن أمر هذه الندوب يهمني..!"

سمعا صوتاً قرب باب الكوخ في تلك اللحظة، فالتفتا إليه ليجدا الرجل الغريب يقف هناك ينظر إليهما.. ولما رأى ما فعلته نور بأربطة عابد أطلق صيحة اعتراض شديدة وهو يتقدم منهما ملوحاً بيديه.. لكن عابد، الذي تمالك صدمته لمنظر الرجل بصعوبة، تلقى الرجل المندفع إليه بضربة قوية على بطنه ألقته جانباً وهو يقول "ما الذي يريده هذا المجنون؟"

أسرعت نور تجذب ذراعه قائلة "لا تؤذه.. هو من اعتنى بك البارحة، وأظنه يعترض على عبثنا بالأربطة التي تحيط جراحك.."

نهض الرجل متألماً وهو يضع يده على موضع الضربة، ثم نظر لعابد بشيء من الحذر وأطلق أصواتاً بشكل متكرر.. تساءل عابد وهو لا يدرك كلمة مما يقولها الرجل "بأي لغة يتحدث هذا؟"

نظرت له نور بتوتر، ثم قالت "لا أظنه يتحدث لغة معينة.. يبدو لي كمن يجاهد لنطق الكلمات بشكل صحيح.. ربما كان التشويه يشمل لسانه وحلقه بحيث يعجز عن نطق الكلمات كما نفعل نحن.."

ثم قالت لعابد "اتركه يعتني بجرحك.. فهذا خير من تركها معرضة للتلوث.."

صمت عابد بغير اعتراض وإن بقي يحدج الرجل بنظرات حذره، بينما حاولت نور إزالة قلق الرجل من عابد وطمأنته ليعود لعمله بكثير من الإشارات والتلويح بالأيدي.. وبعد تردد كبير، عاد الرجل لعابد وتفحص جراحه، ثم خرج من الكوخ لبرهة قبل أن يعود بإناء فيه مزيد من ذلك الخليط الزيتي الذي عالجه به في الليلة السابقة.. ودون اعتراض، استسلم عابد للرجل الذي غمر الجزء المصاب من ظهره بطبقة وافية من الزيت، ثم بدأ لفّ صدره وظهره بمزيد من اللفائف التي لم تكن أحسن حالاً من الأولى..

نظر بعدها الرجل إليهما وهو يصدر أصواتاً متسائلة، ثم غادر الكوخ من جديد دون انتظار إجابة.. فغمغم عابد بوجه متألم "تباً له.. ازداد ألمي بسبب علاجه البدائي هذا.."

تساءلت نور بتعجب "أتظنه حقاً من تلك الفرقة العلمية التي استوطنت الأرض قبل خمس سنوات؟"

أجاب عابد "لا.. أكاد أجزم أنه ليس منهم.. تشوهاته هذه ليست حديثة، وهو مهما بذل من جهد لا ينطق أي كلمة مفهومة أو يحاول كتابة ما يريده.. هذا يوحي بأنه لم يتلقَ أي تعليم يذكر.."

نظرت له نور بدهشة، فأضاف عابد "أغلب ظني أنه ممن بقي على وجه الأرض من البشر.. وما يعانيه من تشوهات ربما حدثت له وهو جنين في بطن أمه بسبب تلوث الأرض بالإشعاعات الذرية.."

قالت نور بصدمة "كيف ذلك؟.. ما أعرفه أن البشر جميعاً قد غادروا الأرض منذ عقود طويلة، وأن أي حياة بقيت عليها مقضيّ عليها خلال سنوات قليلة كما يجزم جميع العلماء.."

قال عابد وهو يحاول ارتداء قميصه دون إثارة ألمه "ألم ترَ ذلك النمر المشوّه بدوره؟.. لقد صمدت بعض الحيوانات في وجه الظروف القاسية طوال تلك المدة، وهذا لا ينفي قدرة البشر على ذلك أيضاً.. لابد أن هناك بضع مئات من سكان الغابات أو الجبال أو الصحارى ممن كان العالم يجهل بوجودهم أو تجاهلهم أثناء الرحيل الكبير.. وقد صمدوا في وجه التلوث رغم استحالة ذلك.."

غمغمت نور "تتحدث بعقلانية رغم أنك....."

صمتت قليلاً، فأكمل عابد بسخرية "ذا أصل وضيع؟.. حسناً، قد أكون مجرد عامل في ميناء، كما كنتَ أنت، لكن هذا لا يثبت أنني لم أتلقَ أي حظ من التعليم أبداً.. ولا يدلّ على وضاعة الأصل بتاتاً.."

غمغمت نور بحرج "لم أعنِ تلك الكلمة بالذات.."

بحث عابد في أرجاء الكوخ، حتى عثر على عصاً معدنية صدئة من مخلفات البشر ملقاة في جانب المكان.. فحملها كسلاح مرتجل وقال لنور "هيا.. لنغادر ما دمنا نملك القدرة على ذلك.."

تبعته نور وهو يغادر الكوخ بخطوات سريعة.. وهناك وقفا وهما يريان عدداً من الأكواخ الشبيهة بهذا الكوخ في دائرة صغيرة تتوسطها ساحة منبسطة.. لم يكن عدد الأكواخ يتجاوز الأربعة، وبدا المكان خالياً بشكل كامل عدا عن ذلك الرجل الذي رأياه يقترب منهما حاملاً إناءً به بعض الطعام، ولما لا حظ

خروجهما من الكوخ دمدم بشيء ما وهو يقترب بما يحمله.. فوجّه عابد العصا نحوه قائلاً بلهجة منذرة "ابتعد يا هذا ودعنا نمر بسلام.."

تراجع الرجل خطوة بشيء من المفاجأة، بينما قالت نور بقلق "لا تؤذه.. لا أظنه ينوي لنا شراً.."

غمغم عابد وهو يسلك طريقه "لا تثق بالآخرين بهذه السرعة.."

لم يعارض الرجل الغريب وهو يراقب ابتعادهما بصمت.. فأسرعت نور تلاحق خطوات عابد الواسعة وتساءلت "أين يمكننا الذهاب من هنا؟.. كيف سنستدلّ على موقع السفينة السابق؟"

قال عابد "سنحاول الوصول للنهر الذي سقطنا فيه، ومنه إلى الطريق الذي سلكناه سابقاً بالمركبة حتى نصل للسفينة.."

ووقف يتأمل الموقع حولهما زافراً، قبل أن يلتفت إلى نور مضيفاً "دعني أنذرك، قد تطول الرحلة أكثر من يوم واحد.. وهذا يعتمد على ما نملكه من طاقة لتحقيق هذا الهدف.."

نظرت له نور بشيء من القلق، فلم يكن بحال تسمح له بالسير مسافات طويلة، ووجهه رغم كل محاولاته يفضح تعبه الشديد.. وإزاء نظراتها، علق عابد وهو يكمل سيره "لا تقلق.. لن أدع مكروهاً يصيبك.."

فغمغمت وهي تتبعه "لكني قلقة على قدرتك أنت على بذل هذا المجهود.."

والتفتت خلفها للأكواخ التي ابتعدا عنها، عندما لاحظت الرجل الذي كان يخطو خلفهما ووقف مع التفاتتها نحوه.. ظلت نور تراقبه بشيء من الدهشة، ثم أسرعت الخطى خلف عابد وهي تتلفت خلفها بين فينة وأخرى.. أما عابد، فقد جدّ السير نحو النهر الذي يسمع هديره على شيء من المبعدة.. بدا له أن ذلك الموقع كان غابة كثيفة في يوم ما، لكن ما بقي منها هو بضع آثار لجذوع خشبية متيبسة خالية من أي روح ومفرغة بحيث بدت لعينيه كتوابيت مصفوفة على مساحات شاسعة.. وبعد سير أصابه بالإنهاك، رأى النهر واضحاً وهدير الشلال الذي ينهمر بشكل مستمر يصمّ الآذان..

وقف عابد يلهث بشدة وهو يراقب الشلال وما جاوره من مرتفع صخري محاولاً معرفة السبيل لتجاوزه والعودة لموقعهم الأصلي، بينما وقفت نور قريباً وهي تتلفت قائلة بشيء من القلق "هذا الرجل يتبعنا بإصرار.."

غمغم عابد "ربما كان يشعر بالوحدة.. لابد أن رؤية شخص غيره في هذا الموقع المقفر يثير فضوله.."

تساءلت نور بدهشة "أتظن ذلك؟"

أجاب عابد "ألم تلاحظ الموقع حول كوخه؟.. يبدو المكان مهجوراً بشكل واضح، ولا أثر لشخص آخر غير هذا الشخص في الموقع كله.."

رأت نور الرجل يقترب منهما متأملاً النهر بدوره، ثم أخذ يصدر الأصوات ويلوّح بيديه بشيء من الانفعال.. لكن عابد لم يُعره اهتماماً وهو يدفع نفسه نحو جانب ذلك المرتفع الصخري، بينما ابتسمت نور للرجل وهي تقول له "أتريد القول أنك قد سعيت لإنقاذنا من هذا المكان؟.. أنا أدرك ذلك، ونحن شاكران لك ذلك.."

ابتسم الرجل لابتسامتها بشكل تلقائي دون أن يفهم كلمة، ولم تجد نور ابتسامته منفرة كما رأتها أول مرة.. لكنها تجاوزت ذلك وهي تسرع خلف عابد وقد عاد لها القلق مع مرأى ملامحه المنهكة.. فقالت "لنرتحْ قليلاً قبل أن نكمل سيرنا.."

غمغم عابد مقطباً "لستُ متعباً.. يجب أن نكمل سيرنا ونعود بأسرع ما يمكن.. بقاؤنا في العراء ليس آمناً.."

صمتت نور دون أن تجادله وهي تراه يدفع نفسه دفعاً بعناد شديد للسير نحو ذلك المنحدر الذي يصبّ منه الشلال بقوة، وقد انتصب المنحدر الصخري بصمود تام متحدياً إياهم بشكل سافر..

سمعت نور عابد يزفر وهو يتأمل المنحدر، ثم قال بحزم "هيا بنا.."

لم تعترض نور وهي تتبع خطاه متسائلة في سرّها كم سيدوم عناده ذاك.. ولم يتردد الرجل الغريب في اللحاق بهما بصمت ودون ملل..

****

عندما أشرقت شمس ذلك النهار، كان طارق يقف بمركبته في جانب منحدر يطلّ على تلك المساحة

الصخرية التي تفرقت فيها الأشجار المجوفة في جميع الجهات.. كان ذلك الموقع هو الذي ترك فيه رُبىٰ مختبئة في إحدىٰ الأشجار، ولم يتمكن من العودة إليها طوال تلك الليلة وهو يراوغ ملاحقيه بجهد شديد.. وقد كانت معجزة حقاً أن تمكن من الخلاص منهم بعد ساعات من الملاحقة الملحّة..

وقف يطل علىٰ تلك المساحة بحثاً عن أثر لرجال الأمن أو إحدىٰ مركباتهم قبل أن يغامر بالعودة لرُبىٰ وانتشالها من مخبئها.. وتساءل في قلق عن حالها طوال الوقت الماضي وهي التي كانت ترتجف بشدة وألم واضحين بعد استيقاظها.. لم تبدُ بحالٍ جيدة أبداً، لكنها ترفض الاعتراف بذلك كما كانت دائماً في مستوطنة فينون..

بعد عدة دقائق تأكد خلالها طارق أن الموقع آمن تماماً، استقل المركبة من جديد وعاد بحذر نحو الشجرة التي ترك رُبىٰ مختبئة فيها وهو يتلفت حوله باستمرار ويحاول معرفة إن كانت إحدىٰ مركبات الأمن قادمة بهذا الاتجاه عبر شاشة الرصد الخاصة بالمركبة.. ولما وصل لذلك الموقع، والصمت يحيط بالمكان بشكل تام، ترجل من المركبة واندفع نحو جذع الشجرة المحدد وقال بتوتر كبير "هيا بنا يا آنسة.. يجب أن نغادر.."

توقف فجأة وهو ينظر لقلب الجذع الخالي، وقد بدا واضحاً لعينيه مع نور الشمس الضعيف الذي أزال ظلمة الليلة السابقة بشكل جزئي.. تلفت طارق حوله بقلق متزايد دون أن يعثر لرُبىٰ علىٰ أثر في مكان قريب، كما أن الأرض الصخرية لم تكن تحمل أي آثار.. فكيف، ولماذا، غادرت موقعها دون أن تنتظره؟..

دار في الموقع بسرعة وهو يخشىٰ أن ينادي عليها فيجذب انتباه رجال مجلس الأمن.. كان الوقت يداهمه ولم يكن باستطاعته البقاء في ذلك الموقع طويلاً، لكن كيف يمكنه المغادرة وترك رُبىٰ في هذا المكان؟..

شعر ببعض السخط ممتزجاً مع قلقه الشديد وهو لا يعلم سبب اختفائها، لكنه ظل يدور في الموقع وهو يتلفت بحثاً عن أثر لرُبىٰ في المكان هامساً لنفسه "أين اختفيتِ الآن؟.. نحن هالكان لا محالة لو لم نهرب خلال لحظات.. أيمكن أن يكون رجال الأمن قد قبضوا عليها؟.."

أصابته تلك الفكرة برجفة شديدة في أعماقه، ثم سمع صوتاً علىٰ شيء من المبعدة.. فالتفت بتوجس كبير ليرىٰ سحابة من الغبار قادمة نحوه بشكل حثيث من الاتجاه الذي يقوده لسفينة مجلس الأمن.. فركض

طارق عائداً لمركبته وقد أدرك أن ما يثير سحابة الغبار تلك هي مركبة لرجال الأمن دون شك.. ولا بد أنهم رأوه على شاشة الرصد في مركبتهم، لذلك من الأسلم له الرحيل قبل اقترابهم منه..

تحرك طارق بالمركبة مبتعداً عن الموقع وهو يحاول زيادة سرعته قبل وصول مركبة رجال الأمن إليه، لكن مركبتهم تتميز بسرعة وقوة تتغلب على مركبته ذات الطراز الأقدم قليلاً، ولم يلبث طارق أن سمع بضع طلقات ترتطم بجسم مركبته المعدني.. التفت طارق خلفه ليرى رجلين من الرجال الأربعة في المركبة يصوبان سلاحيهما نحوه بتهديد واضح، فغمغم طارق وهو يعود ببصره للطريق الذي يسلكه "لا يمكن أن يستهدفوني بطلقاتهم تلك.. أليس كذلك؟"

لم يكد يتمّ قوله وهو يدير المركبة بحدة، حتى فوجئ بصوت انفجار بعد أن أصابت إحدى الطلقات الإطار الأمامي للمركبة.. فمالت المركبة بشدة وطارق يحاول منعها من الانحراف عن طريقها عندما ارتطم إطارها الخلفي بصخرة كبيرة نوعاً ما مما تسبب بانقلابها على جانبها وهي تزحف لمسافة محدودة قبل أن تتوقف في موقعها وسط سحابة من الغبار..

خرج طارق من المركبة بعد أن كان متشبثاً بها بقوة لئلا يرميه السقوط العنيف بعيداً، ونهض بعسر وهو يسعل بشدة بينما تعالت تلك الخطوات التي اقتربت منه راكضة.. فأسرع يرفع السلاح القريب في وجه مهاجميه، لكن أحد رجال الأمن الأقرب إليه ركل السلاح من يده في لحظة ليطير بعيداً، بينما لوّح الرجل بسلاحه في وجه طارق قائلاً "كفّ عن هذه الألعاب وانهض بسرعة.."

تحامل طارق على نفسه وهو يقف مقطباً، فأسرع الرجل يفتشه بتدقيق بحثاً عن أي سلاح آخر، وسرعان ما استولى على المسدس الذي يحتفظ به طارق في جيبه الداخلي بشكل دائم.. ثم قال له رجل الأمن بصرامة "أين البقية؟.. أين اختبؤوا؟"

لم يجب طارق وهو يلتزم الصمت.. معنى هذا أن رُبى ليست في قبضة رجال الأمن.. هذا الخاطر أراحه نوعاً ما رغم جهله لسبب اختفائها، فأخذ يفكر بوسيلة للهرب من تلك الفرقة التي تلاحقه.. كانوا أربع رجال، ورغم عدم مهارته فإنه، ببعض الحظ، يستطيع الإفلات منهم.. لكن كيف يهرب دون مركبة؟..

فوجئ بالرجل يضربه على بطنه بقوة بسلاحه وهو يقول بصرامة "أترفض الحديث يا هذا؟.. لن يكون هذا

في صالحك بتاتاً.."

التزم طارق بالصمت رغم ذلك وهو يفكر بطريقة للهرب بأسرع ما يمكنه، لكنه وجد الرجل يقتاده لمركبة مجلس الأمن قائلاً لرفاقه "لنعد للقائد بسرعة.. سيتمكن من استخلاص كل الأجوبة من هذا الأحمق دون شك.."

حاول طارق مقاومة رجل الأمن والهرب، لكن الرجل سارع لتقييد يديه بقيد إلكتروني وربط القيد في جانب المركبة بحيث لا يتمكن طارق من الخلاص من قيده بتاتاً، ثم قال له بصرامة "صدقني الاستسلام خير لك من محاولاتك هذه.. واستجابتك لأسئلتنا خير لك من مواجهة غضب القائد.."

لكن طارق استمر في صمته وهو يجد الرجال الأربعة يصعدون المركبة بدورهم وقائدها ينطلق بها دون إبطاء عائداً لسفينة مجلس الأمن.. نوعاً ما، رغم عسر موقفه، إلا أن طارق شعر براحة لأن رُبى قد اختفت قبل أن يصل إليها رجال مجلس الأمن.. في تلك اللحظات، كانت سلامتها تحتلّ الدرجة الأولى فوق سلامته الشخصية..

أما بالنسبة له، فعليه تدبر أموره بشكل ما.. مهما كان الأمر عسيراً..

****

لم تكن عدة ساعات قد انقضت من ذلك النهار عندما قرر عابد الاستسلام بعد عدة محاولات فاشلة لصعود المنحدر الصخري.. ففضّل أخيراً الدوران حوله قدر استطاعتهما حتى يتمكنا من العودة لتلك القرية المهجورة.. ومن هناك سيغدو السير نحو السفينة سهلاً، إنما طويلاً، دون عقبات..

ظلت نور تراقب عابد المنهك وهي قلقة مما آل إليه.. ثم قالت بشيء من الاحتجاج "أنت لم تتناول طعاماً منذ غادرنا السفينة، وهذا لن يساعد على استعادتك لقواك بتاتاً.. على الأقل يمكنك أن تشرب بعض الماء من النهر القريب.."

نظر لها عابد باستنكار قائلاً "أحقاً تتوقع مني أن أشرب من هذا النهر الملوث؟.. لا أريد أن أصبح كذاك

الرجل.."

مشيراً إلى الغريب الذي ظل يلاحقهما بخطوات نشطة وخفة واضحة.. فقالت نور "مجرد شرب الماء لن يؤدي بك لتشوّه كهذا.. لم أنتَ متوجس بهذه الطريقة؟"

غمغم عابد وهو مستمر بسيره وقد بدأ الاستناد على العصا التي يحملها معه "كل ما أريده هو مغادرة هذا المكان.."

لم تعلق نور وهي تسير بجواره محاولة مجاراة خطواته المتعبة، وكلما التفتت رأت الرجل يلحقهما وتلتمع عينه كلما التقت بعينيها بشيء لم تفهمه.. أهو متحمس للرحيل معهما؟.. أم أنه يتبعهما لغرض آخر؟..

بعد عدة ساعات من السير المتواصل، استسلم عابد بشكل تام وهو يجلس على جذع مجوف سقط جانباً ويتمتم بإنهاك شديد "تباً لهذا المكان.. كيف يمكننا الاستدلال على موقعنا السابق بهذه الطريقة؟"

سألته نور بقلق "أأنت بخير؟"

هز عابد رأسه إيجاباً، وإن كانت ملامحه المتعبة والألم الواضح فيها دليلاً على بؤس حاله.. نظرت نور حولها بقلق، ثم قالت له "ما رأيك بأن أذهب لاستطلاع الموقع حولنا قليلاً؟.. سيكون هذا أسرع لنا وأكثر راحة لك.."

قال عابد بسرعة "لا.. ماذا لو هاجمك حيوان هائج كذاك النمر؟.. ما الذي تقدر على فعله وحيداً؟.."

تلفتت نور حولها، ثم قالت مشيرة للغريب "سآخذه معي.. يمكنه أن يعينني مادام قد تمكن من البقاء حياً وحيداً.."

نظر عابد للرجل الغريب الذي وقف على شيء من المبعدة، ثم تساءل "أأنت بكامل قواك العقلية؟.. كيف تثق به بهذه السرعة؟"

ابتسمت نور شيئاً ما وهي تقول "لا أدري.. لكنني أثق أنه لا ينوي بنا شراً.."

وإزاء نظرات الاستنكار من عابد، قالت "لو كان يحمل نوايا خبيثة، لوجدنا أنفسنا حبيسين في كوخه ولما أتعب نفسه بعلاج جرحك.. أليس كذلك؟"

لم يعلق عابد وحاجباه يرتفعان بتعجب، بينما استدارت نور واقتربت من الرجل الذي ظل ينظر لها

بفضول.. حاولت نور أن تسأله عن السفينة الفضائية، مرجحة أن هبوط واحدة في هذا العالم الصامت لابد أن يجذب انتباهه مهما كان موقع هبوطها بعيداً.. لكن مع الحيرة البادية على وجه الرجل دون أن يفهم كلمة مما تقوله جعلتها تزفر وهي تحاول معرفة الوسيلة التي يمكنها التواصل معه.. وبعد تفكير، استخدمت عوداً خشبياً لترسم شكلاً للسفينة على الأرض والرجل يراقبها بفضول شديد.. ثم أشارت للسفينة وللسماء بيديها ولوّحت لتوحي له بحجم السفينة الضخم.. وبعد بعض المعاناة، بدا أن الرجل الغريب قد بدأ يفهمها فقد أنار وجهه شيئاً ما وهو يهتف بلهفة بأصوات مختلطة.. فقالت نور بحماس "أجل.. هي ما نبحث عنه.. هل ستدلّني عليها؟"

أشار لها الرجل لتتبعه وركض نحو إحدى الجهات، فسارت نور خلفه دون تردد تاركة عابد الذي صاح خلفها "كوني حذرة يا نور.."

لاحظت نور أنه يخاطبها كفتاة للمرة الأولى، وهذا نوعاً ما دلّها على القلق الذي يشعر به لرحيلها.. لكنها لم تجبه وهي تركض مبتعدة تلاحق خطوات الرجل السريعة.. عليها العثور على طريق العودة بأسرع ما يمكن، ليتمكن عابد من اللجوء للسفينة والحصول على بعض العناية قبل أن يستفحل خطر جرحه العميق..

راقب عابد اختفاءها بشيء من القلق لم يتمكن من تمالكه.. ثم زفر وهو يعبس بألم شديد وقد تزايد ألم جرحه قوة، وتولّد لديه شك بأنه لا يزال ينزف دماً، لكنه لم يجرؤ على نزع الأربطة في هذا المكان.. طال الوقت الذي قضاه عابد وحيداً، لا يسمع إلا صوت الرياح التي تصفر وهي تمرّ في جذع شجرة قريب مفرّغٍ بشكلٍ كامل.. وبدأ القلق يتزايد في صدره لتأخر نور في العودة، فأخذ يشتم بشيء من الحنق لأنه تركها تفعل ما تشاء متذرعة بثقتها بذلك الشخص.. لكن ما الذي يمكن أن يفعله ذلك الغريب بها؟.. نور، الواثقة من نفسها دائماً، مجرد فتاة صغيرة.. يمكن لذلك الرجل أن يتغلب عليها بسهولة تامة.. أيمكن أن يكون قد تبعهم لاستغلال الفرصة للاستفراد بها؟.. أيمكن أن يكون قد أمسك بها في هذه اللحظات وهو بغفلة من هذا؟.. لا يدري لمَ تعاظم هذا الخاطر في صدره، لكنه عجز عن البقاء في موقعه عند ذاك ونهض مستنداً على العصا في يده وصاح "نوووور.. أين أنت؟.."

سمع صوته يتردد بشكل خافت مرتداً من المنحدرات الصخرية القريبة.. فأعاد صياحه بشيء من الحنق "نووووووور.."

بدا له صوت خطوات تقترب منه، فتلفت حوله حتى رأى الرجل الغريب يقترب منه راكضاً، وكان وحيداً.... فصاح به عابد بغيظ وهو يحاول الوصول إليه "ما الذي فعلته بها أيها الدميم؟.."

تراجع الغريب خطوة بشيء من الدهشة، بينما أمسك عابد ثيابه المهلهلة وهزه بقوة هو يصيح "أين هي؟"

سمع صوتاً خلف الغريب يقول "لا تؤذِ بوبو يا عابد.."

نظر خلف الرجل بدهشة، فرأى نور تقترب منهما راكضة بشيء من التعب، ثم وقفت مستندة على ركبتيها بيديها وهي تتنفس بسرعة متلاحقة.. ثم قالت "لا تؤذه.. لقد قادني للسفينة الفضائية حقاً.."

أطلقه عابد وهو يتساءل بتعجب "من هو بوبو؟.."

ابتسمت نور وهي تسترد أنفاسها وقالت "لقد قررت أن أسمّيه بوبو.. لأنه يكثر من نطق تلك الكلمة.. ونحن لا نعرف اسمه الحقيقي.."

غمغم عابد "إنه ليس حيواناً أليفاً.."

اعتدلت نور وهي تقول بلهفة "ليس هذا هو المهم.. لقد قادني بوبو للسفينة الفضائية، ولن يمكنك أن تتصور ما رأيته هناك.. اتبعني بسرعة لترى بنفسك.."

واستدارت عائدة من الطريق الذي جاءت منه، فتحامل عابد على نفسه وأسرع خلفها بخطواته الواسعة عبر طريق حجري يقطع جانباً من المنحدرات الصخرية.. ومع سيرهم، بدأت المنحدرات الصخرية تضيق حولهم بشدة بين وقت وآخر، ثم ما لبثت أن انفرجت مكونة مساحة واسعة صخرية تكاد المنحدرات تغطيها بشكل كامل إلا من فرجة على شيء من الاتساع تبدو من خلفها السماء الرمادية الغائمة بشكل دائم..

وقف عابد فجأة وهو يتأمل ما يراه بدهشة وذهول تامّين بينما راقبت نور انفعالاته وهي تقول "ما رأيك؟.."

لم يجب عابد وهو يتأمل سفينة فضائية موازية لسفينتهم في الحجم لكنها مختلفة في الشكل والصفات

الخارجية، وقد استقرت بصمت تام وسط الساحة الهادئة.. ظل عابد يتفحص السفينة بصمت ودهشة، بينما أضافت نور "لقد صدمت لرؤيتها مثلك تماماً.. ويبدو أن بوبو ظنّني أبحث عن هذه السفينة بالذات ولذلك دلّني عليها.."

تساءل عابد بدهشة "أهي سفينة تلك الفرقة العلمية؟.."

نظرت نور للسفينة قائلة بلهفة "أغلب الظن أنها كذلك.. وهذا معناه أن الفرقة العلمية لن تكون بعيدة عن هذا المكان.."

لم يتعجب عابد للهفة نور للعثور على الفرقة العلمية، لكنه تقدم من السفينة متأملاً المعسكر الصغير الذي أقيم قريباً منها.. بدا بوضوح أن المعسكر مهجور منذ أمد طويل، فالخيَم المؤقتة بدت بحالة سيئة، وقد تهاوت جوانب منها.. والمكان كله يخلو من أي معدات أو أجهزة أو ما يدلّ على وجود ساكنيه من البشر.. لم يتوقف عابد وهو يسير نحو السفينة مباشرة.. فيما غمغمت نور "يبدو المكان مهجوراً.."

فقال عابد "ألم يعلن مجلس الأمن أنه لم يعثر على تلك الفرقة العلمية؟.. كيف تتوقعين أن تفعلي أنت ذلك بهذه البساطة؟"

لم تعلق نور وهي تتبعه بصمت.. وقرب السفينة، توجه عابد نحو الباب آملاً ألا يكون مغلقاً بقفل الكتروني.. وفور أن جذب الرافعة الجانبية، سمعوا صوت هسيسٍ خافتٍ والباب يفتح بهدوء.. ومع الصوت، قفز بوبو عدة أمتار للوراء وهو يتطلع لما يجري بعينين متسعتين.. لم يعلق عابد وهو يدلف السفينة بصمت ملاحظاً الرائحة القوية التي تعبق بها دالة على عدم استخدامها لفترة طويلة، ربما لعدة سنوات.. لكنه لم يفصح عن شكّه ذلك أمام نور لئلا يتسبب بإحباطها.. وبينما انشغلت نور في إقناع بوبو بعدم القلق، تفحص عابد السفينة عن كثب محاولاً الحصول على أي دليل عن مصير من قدِموا فيها، لكنه لم يعثر على شيء.. عندها لم يجد بداً من التوجه إلى غرفة القيادة مباشرة، لعلّه يجد شيئاً في سجلاتها.. ولم تلبث نور أن لحقت به بعد أن عجزت عن إقناع بوبو بالدخول لهذا الجسم الغريب والمخيف بالنسبة له..

كانت السفينة، كما كان واضحاً، خالية من أي أثر لبشري.. لكن عابد التفت إلى نور قائلاً "سأتوجه لغرفة القيادة وأفحص سجلاتها.. ابحث أنت عن أي أثر في جوانب السفينة الأخرى.."

هزت نور رأسها إيجاباً، واستدارت متتبعة ممراً آخر يقودها لجانب آخر من السفينة، بينما تقدم عابد نحو غرفة القيادة ليجد أبوابها مفتوحة هي الأخرى دون حرص.. فقال بتعجب "من البديهي أن صاحب السفينة يجب ألا يترك هذه الغرفة متاحة لكل شخص غريب.. العبث بهذه الغرفة بالذات يمكن أن يجعل السفينة مجرد غرفة معدنية كبيرة الحجم بلا قيمة.."

لاحظ أن الأجهزة سليمة دون ضرر، فاقترب من أجهزة الاتصال بالسفينة وقام بتشغيلها، ليسمع الأزيز الخافت الذي يدلّ على بدء عملها.. عندها تنهد عابد براحة وهو يعالج بعض الرافعات والمؤشرات محاولاً اختيار موجة مناسبة، ثم قام بإرسال بضع إشارات استنجاد متفرقة لعلّ من في سفينة نوح ينتبه لها ويستجيب لهم على إثرها.. طال الوقت وعابد يغيرّ الموجة بين فترة وأخرى ويغيرّ شدتها وطولها على أمل أن تفلح أجهزة سفينة نوح في التقاطها..

ظل عابد على وضعه لما يزيد على نصف ساعة، حتى دلفت نور غرفة القيادة قائلة "بحثت في أرجاء السفينة دون أثر.. يبدو أنهم نبذوا هذه السفينة منذ زمن طويل.."

تساءل عابد وهو يتطلع لملامحها التي لا تحمل لمحة ضيق "ألا يسبب لك هذا الإحباط؟"

أجابت نور وهي تجلس جانباً "بالتأكيد لا.. كنت موقناً أن البحث لن ينتهي بهذه السهولة، كما أن مغادرتهم السفينة لا يعني موتهم بالتأكيد.."

فقال عابد بعد لحظة صمت "عليك أن تكون متأهباً لأسوأ النتائج.."

ونهض مغادراً، فتساءلت نور "إلى أين؟"

أجابها "سأبحث عما يمكننا أكله أو شربه في هذه السفينة.. فما فيها ولا بد أكثر أمناً من تناول طعام من الأرض الملوثة.."

لم تعلق نور وهو يشرح لها وسيلة إرسال تلك الإشارات حتى تستمر في إرسالها أثناء غيابه.. وعند رحيله احتلت نور موقعه قرب أجهزة الاتصالات معاودة إرسال إشارة الاستنجاد عدة مرات بانتظار أي استجابة.. لكن في كل مرة كان الصمت التام هو الجواب الوحيد الذي تحصل عليه من تلك الأجهزة.. وبعد أن فاض بها الصبر بانتظار استجابة لا تأتي، لاحظت أن عابد لم يعد لغرفة القيادة بعد رغم اختفائه

منذ وقت طويل، فغادرت موقعها وانطلقت بحثاً عنه في المطبخ أو المخزن القريب منه.. وبعد بعض البحث، عثرت عليه في موقع آخر من السفينة جالساً وسط قاعة واسعة تحوي بعض المركبات الصغيرة كالتي غادرا فيها من سفينة نوح.. اقتربت منه نور ملاحظة أنه خافضٌ وجهه والعرق يتصبب من صدغيه بشكل واضح، فتساءلت "ما الأمر؟.. أأنت بخير؟"

لوح عابد بيد قائلاً "لا تقلقي.. أنا منهك فقط.."

ثم أضاف بتعب "بحثت عن أي شيء يمكننا أكله في السفينة، لكن مخازنها أنظف مخازن رأيتها في حياتي.. لا وجود لفتات خبز في هذه السفينة كلها.. وهناك مخزن وحيد مغلق بقفل قوي لم أستطع التغلب عليه.."

لاحظت نور رجفة يده الواضحة، فقالت مقطبة "أنت بحالٍ سيئة.. أهذا بسبب جرحك؟"

غمغم عابد وهو يسند رأسه للجدار المعدني خلفه "سأكون على ما يرام بعد بعض الراحة.."

غادرت نور بصمت وجالت السفينة الفضائية بحثاً عن حقائب إسعافات أولية، لكن السفينة كانت تخلو من أي أثر لها، عندها عادت نور لموقع عابد وتفحصت المركبات القريبة قائلة "هل نستطيع الرحيل في إحداها؟.. يجب أن نعيدك للسفينة حتى تحصل على بعض العلاج.. هذه السفينة تخلو من أي حقيبة للإسعافات الأولية.."

قال عابد "بل هي مغلقة بشفرة إلكترونية.. ولا أملك القدرة لتشغيلها الآن.."

فقالت نور وهي تنظر له بقلق "إذن الوسيلة الوحيدة هي في ذهابي لموقع السفينة والعودة بمركبة أخرى.. قد أتأخر في الذهاب والعودة، لكن هذا خير من الانتظار دون فائدة.."

قال عابد بشيء من العصبية "أخبرتك أنني سأكون بخير بعد بعض الراحة، وعندها قد أتمكن من تشغيل المركبة بوسيلة ما.. فلا داعي للقلق.."

نظرت له نور بشيء من الإشفاق والتعجب لعناده، ثم قالت "مهما يكن، من الخطر بقاء جرحك هكذا فقد يتلوث ويزداد حاله سوءاً.. سأذهب وأعود خلال وقت قصير.."

وابتعدت بسرعة خارجة من السفينة.. وهناك، مع الكثير من الإشارات والتلويح باليدين، استطاعت أن تقنع بوبو بالبقاء قرب عابد بينما تغادر هي بحثاً عن طريق لسفينة نوح الفضائية.. لكن بوبو رفض البقاء

وهو يتبعها بإصرار إنما على بعد عدة خطوات منها.. لم تعرف نور حتى الآن هدف بوبو من اللحاق بها، أهو حقاً يشعر بالوحدة في هذا الكوكب الخالي؟.. أم أن فضوله يدفعه لذلك؟.. هل عليها أن تقلق للحاقه بها أم تثق به كما أصرّت أمام عابد؟..

عاد قلقها على عابد، فتناست أمر بوبو وهي تسلك طريقها خارجة من ذلك الموقع الذي تحدّه المنحدرات الصخرية ونحو المساحات المكشوفة أملاً في العثور على موقع سفينة نوح.. بينما بقي عابد في جانب السفينة وهو يضع رأسه على ذراعيه محاولاً مغالبة بعض الدوار الذي ألمّ به.. كان فَقدُ الكثير من دمائه قد أثّر به بشدة، كما أن جرحه يؤلمه كثيراً دون أن يجد علاجاً إلا ذاك العلاج البدائي الذي أفلح في إيقاف النزف لكن لا يضمن أن يكون قد قام بتعقيم الجرح أو منعه من الالتهاب ومعالجته بشكل جدّي..

بعد بعض الراحة، تحامل عابد على نفسه وعاد لغرفة القيادة ونحو أجهزة الاتصال فيها.. فحاول الاتصال بسفينة نوح مجدداً وهو يغمغم "أجب يا نوح تباً لك.. ما الذي دعاك لمغادرة موقعك الآن؟.."

ظل النداء يتردد فترة طويلة دون أن يجد له استجابة.. ولما يئس من ذلك وهو يزفر ويتراجع بظهره في الكرسي، سمع صوتاً عبر جهاز الاتصال بدا مبهماً مع كثير من الشوشرة.. فهبّ عابد نحو جهاز الاتصال من جديد وهو يهتف "من هناك؟.. أهذا أنت يا نوح؟.. أجب بالله عليك.."

جاءه صوت خافت من بين الشوشرة يقول "من الذي يتحدث؟"

أجاب عابد "من تظنني؟!.. أنا عابد.. أأنت طارق؟"

كان الإرسال مشوشاً شيئاً ما مما منعه من تعرّف الصوت الذي اندلع عبر أجهزة الاتصال، ثم سمعه يقول "أأنت من الفرقة العلمية التي بقيت على الأرض؟"

قطب عابد حاجبيه شيئاً ما وهو يتساءل بحذر هذه المرة "من أنت؟.. وما الذي تفعله في سفينة نوح؟"

تساءل الصوت من جديد "أهذا هو اسم صاحب السفينة؟.. لقد اختفى الجميع، فهل تعلم أين هم؟.. وأين هو موقعك بالتحديد؟"

زمجر عابد قائلاً "من أنت يا هذا؟"

أجاب الصوت هذه المرة بصرامة "أنا من مجلس الأمن الفضائي.. آمرك بأن تخبرني بهويتك وموقعك

بالتحديد.."

لكن عابد أنهى الاتصال على الفور بشكل تلقائي وقد غمرته صدمة شديدة.. ثم همس بارتياع وهو يستعيد أفكاره "اللعنة.. نور ذهبت هناك....."

في تلك الأثناء كانت نور قد استدلّت على القرية الصغيرة التي لم تكن تبعد الكثير عن موقع السفينة.. وهناك، يلزمها بعض الوقت لتعود لموقع سفينة نوح.. تساءلت في قلق إن كان عابد سيصمد حتى عودتها، لكنها نبذت قلقها بسرعة وهي تغمغم لنفسها "لن يطول الوقت قبل أن أصل للسفينة.. وعندها، ستكون العودة أكثر سرعة باستخدام إحدى المركبات.."

وأسرعت في سيرها وهي تتمالك التعب الذي ألمّ بها بعد ساعات من السير المتواصل منذ استيقاظهما صباحاً.. لكن ما باليد حيلة، وإصابة عابد أهم من الحصول على بعض الراحة في هذا الكوكب المميت..

****

جلس طارق في إحدى غرف سفينة مجلس الأمن وهو مطرق بإنهاك شديد.. لم يكن قد ذاق لحظة نوم أو راحة منذ هبوطهم على الأرض، والآن منذ دخوله لسفينة مجلس الأمن فإن تعبه وإنهاكه قد تضاعفا مع معاملتهم له.. كان القائد مصرّاً على استخلاص كل ما يعرفه طارق، ولما لم يُبدِ طارق أي تعاون معهم، لم يتورع القائد عن استخدام بعض العنف معه على أمل إفزاعه ودفعه للا عتراف بكل شيء.. لكن كل جهوده قد ضاعت سدىً مع طارق الذي التزم بالصمت وهو موقن أنهم لن يجرؤوا على إيذائه بشكل قد يسبب خطراً على حياته.. أما ما عدا ذلك، فيمكنه احتماله دون شك..

رفع طارق رأسه مع دخول القائد للغرفة.. كان القائد رجلاً يقارب الأربعين من عمره، أسمر اللون بشدة، حليق الرأس، وبعينين حادتين سوداوين وفك عريض ولحية سوداء كثيفة.. رآه طارق يتقدم منه قائلاً " ألن تستسلم بعد كل هذا؟.. لقد بدأت ملامحك الوسيمة تتشوه بشكل بالغ، وهذا يشعرني بالسوء.."

تجاهل طارق قوله وهو يخفض وجهه بتعب، فجلس القائد على الكرسي المقابل وهو يضيف "سأسألك من جديد.. أين الفتاة؟"

التزم طارق الصمت كعادته منذ القبض عليه، فقطب القائد بشدة وهو يقول "أتظنني أجهل من تكون؟.. منذ أن توجهنا للأرض ونحن نحفظ ملامحك وملامح تلك الفتاة عن ظهر قلب.. أتظن أن دان مايدن لا يدري أنك أنت من قام بتهريب الفتاة؟"

نطق طارق للمرة الأولى معلقاً "إذن أنتم حقاً تعملون لصالح دان مايدن بالتحديد.."

ابتسم القائد بجانب فمه معلقاً "ومن لا يعلم بهذا في العالم الجديد؟.. أموال دان كفيلة بشراء كل الضمائر مهما كانت عصيّة، ومن يستعصي عليه فإن رجال المافيا الخاصّين به يتكفلون بأمره بشكل رائع.."

تساءل طارق "وما الذي يريده دان من فتاة ميتة؟"

قال القائد وهو يرفع حاجباً "أهي ميتة حقاً؟"

نظر له طارق بسرعة دون أن يعلق، فقال القائد "دان لديه شكوكه، وهو يريد التثبت منها.. يريد رؤية جسد الفتاة بنفسه فهو يشك أنكم قمتم بخدعة لتهريبها.. وإلا ما معنى اختطاف جسد فتاة ميتة بالفعل؟.."

قال طارق بضيق "ومتى سيقرر دان التخلي عن الفتاة وإطلاق سراحها؟.. حتى متى سيظل قابضاً على عنقها حتى بعد موتها؟"

قال القائد بسخرية "يمكنك سؤال دان بنفسك بعد أن نعيدك إليه.."

ثم أضاف بصرامة "والآن أجبني.. أين الفتاة؟.."

عاد طارق لصمته وهو يحاول التشاغل بأفكاره عن الألم الذي ينبض في رأسه وجسده.. ففوجئ بالقائد يجذبه من قميصه بشيء من العنف عبر الطاولة وهو يقول بحدة "أتظنني سأكتفي بما نلته من تعذيب؟.. ما المصلحة التي تجنيها من إخفاء جثة؟.. ما هدفك من هذا؟"

سمعا الباب يفتح وأحد الرجال يقول "سيدي، هناك اتصال من الدورية التي خرجت للبحث عن الهاربين.."

تخلى القائد عن طارق وهو يقف قائلاً "فكّر فيما ستخسره لو ظللت على عنادك هذا.."

وغادر الغرفة يتبعه الرجل الآخر مغلقاً الباب خلفه، فهبّ طارق على الفور نحو الباب ليحاول فتحه، لكنه وجده مقفلاً.. تلفت حوله بحثاً عن وسيلة للهرب، فما عاد بإمكانه البقاء أكثر من ذلك.. القائد عازم على استخلاص الأجوبة منه مهما كلفه ذلك، ولا يمكن لطارق أن يسمح لمجلس الأمن بالوصول لرُبى بأي حال..

بعد دقائق، سمع قفل الباب يفتح ثم دخل شخص الغرفة متلفتاً فيها ليلاحظ خلوها من أي شخص.. وقبل أن يتصرف، فوجئ بضربة قوية تلقيه أرضاً.. حاول الرجل النهوض من جديد عندما تلقى ضربة أخرى من طارق المختبئ خلف الباب أصابته بدوار للحظات كانت كافية ليندفع فيها طارق نحو الباب ويتجاوزه مغلقاً إياه خلفه.. قام طارق بإغلاق الباب بالمفتاح وركض بعدها عبر الممر محاولاً تذكر الطريق الذي جاء منه مع رجال الأمن سابقاً.. ولم يفته أن يسمع الضربات التي تعالت على ذلك الباب والرجل ينادي بصوتٍ كتمه الباب المعدني بشكل كبير..

تجاوز طارق عدداً من الأبواب وسار عبر ممر آخر بسرعة إنما ملتزماً بالحذر الشديد عند كل منعطف أو زاوية أو باب مفتوح.. ولما اقترب من أحد الأبواب المنفرجة بشكل بسيط، وقف قربها يتفحص بحذر قبل أن يغامر بتجاوزها، عندما سمع صوت القائد يقول "هذه هي أوامر دان، ولابد من تنفيذها.."

توقف طارق رغماً عنه قرب الباب وقد وصل لسمعه اسم دان.. فظل في موقعه ينصت لما يقال ليسمع أحد رجال الأمن يقول "ماذا عن المهمة الأصلية؟"

أجاب القائد "سنتمّها بعد أن ننتهي من أمر الفتاة.."

فتساءل الرجل "لكن أأنتم واثقون أن تلك الفتاة على قيد الحياة؟.. لقد رأينا وثيقة موتها وهي مصدّقة من أكثر الأطباء شهرة وسمعة في مستوطنة فينون.. فكيف يصرّ دان على أنها لم تمت؟"

قال القائد "لدى دان بعض الشكوك.. لابد أنه يحمل تلك الشكوك منذ وقت طويل قبل موتها.. وما أكد تلك الشكوك هو اختفاؤها بعد موتها وقبل الدفن مباشرة.. ما الذي يجعل شخصاً، أي شخص، يسرق جثة مهما كانت أهمية صاحبها؟.. ما الهدف؟.. هذا يؤكد شكوك دان ويجعلنا نعتقد أن الفتاة حية

ولاشك.."

فقال الرجل "إذا نجحنا بالعثور عليها، ما الذي سيحدث؟"

قال القائد "ما سيحدث هو أننا سننال حظوة لدى دان، وهذا كفيل برفعنا عدة درجات في مجلس الأمن.. لذلك لم أتردد في قبول هذه المهمة عندما أبلغني بها دان بشكل شخصي.."

عاد الرجل يتساءل "ماذا عن البقية؟.. هل نسلمهم لدان أيضاً أم لمجلس الأمن؟"

أجاب القائد على الفور "لا هذا ولا ذاك.. وجودهم معنا خطر فقد يلجؤون لاختطاف الفتاة من جديد.. موتهم لن يثير ريبة أحد فهذا متوقع ممن قام برحلة لكوكب خطر مثل هذا.. يمكننا أن ندّعي أن سفينتهم قد انفجرت أثناء الهبوط، والفتاة ميتة بالفعل في السجلات فلن يسأل عنها أحد.."

شعر طارق بنبض قوي في رأسه وهو يستمع لما يقال، وازداد سخطه من تصرفات دان والمصير الذي رسمه للجميع بكل برود وأنانية.. ألم تكفه المكانة التي وصل إليها والإمبراطورية التي أنشأها؟.. إلى أين ينتوي الوصول بهذا الجشع الذي لا يعرف حدوداً؟..

انتبه طارق لصيحة خلفه تقول "ها هو هناك.."

اعتدل طارق بحدة وقد أدرك أن ذلك الرجل قد تمكن من مغادرة تلك الغرفة بمساعدة أحد رفاقه، بينما سكن الحوار الدائر في الغرفة القريبة.. فلم يتمهل طارق وهو يندفع عبر الممر راكضاً بأسرع ما يستطيعه، بينما تعالى الصياح خلفه وعدد من الأقدام تلحقه بإصرار.. وقد خرج القائد مع الصياح الذي وصل لسمعه وهو يهتف بغيظ "كيف تمكن من الفرار من تلك الغرفة؟"

أجابه أحد الرجال "لقد غافلني عندما دخلت الغرفة لاستكمال استجوابه.. وهرب مقفلاً الباب خلفه.."

فقال القائد بحدة "ستخضع للعقوبة على إهمالك هذا.. الأهم الآن اللحاق به والقبض عليه قبل أن يفرّ من السفينة.."

ركض الرجل لاحقاً برفاقه عبر الممر المؤدي لمخرج السفينة والقائد يتبعهم.. وعند البوابة التي كانت مشرعة تطلّ على المساحات الصخرية المحيطة بالسفينة، عثروا على الموقع المحيط بهم خالياً بشكل تام والنسمات الهادئة هي الوحيدة التي تشغل هذا الحيز الفارغ.. تلفت الرجال حولهم والقائد معهم بدهشة،

ثم صاح بهم القائد "ما الذي تنتظرونه؟.. لا بد أن يكون مختبئاً خلف إحدى الصخور الضخمة، أو ربما هرب للسفينة الأخرى.. لا تقفوا هكذا كالحمقى.."

ركض الرجال متفرقين بحثاً عن طارق، بينما وقف القائد يراقب الموقع الخالي حولهم وهو يدمدم بغيظ شديد "حمقى بالفعل.."

****

كانت المسافة التي قطعتها المركبة في اليوم السابق واستغرقت أقل من نصف ساعة، قد استغرقت من نور وقتاً طويلاً في قطعها وهي تحاول تقليل فترات راحتها قدر الاستطاعة.. لم تكد تتوقف عن الركض حتى وصلت قريباً من موقع السفينة.. وبعد وقت رأته طويلاً، تمكنت من لمح السفينة من بين الارتفاعات الصخرية، فوقفت قليلاً محاولة استرداد أنفاسها المتعبة، ونظرت لبوبو القريب مغمغمة "أنت لا تعاني من أي إنهاك جراء هذا المجهود.. هل يجب أن أحسدك على نشاطك هذا؟.."

نظر لها بوبو بعدم فهم، ثم أشار للسفينة الأخرى باهتمام شديد وهو يدمدم بأصوات عديدة.. فقالت نور وهي تعتدل في وقوفها "أجل.. هذه هي السفينة التي نبحث عنها.."

لكنها ما كادت تنتهي من قولها، حتى فوجئت بسماع صوت طلقات نارية تعلو في الجو.. تجمدت نور في موقعها للحظة وهي تتساءل إن كان ما سمعته مجرد هذيان منها بعد كل ذلك التعب الذي مرت به.. ما الذي سيجعل طارق أو نوح يلجآن لاستخدام سلاح في هذا الموقع الهادئ؟!.. أم أنه أحمد؟.. هل كانا يحملان أسلحة على هذه السفينة بخلاف ذلك الذي يحمله طارق؟..

اقتربت من صخرة قريبة تطلّ على الموقع بشيء من الحذر، عندما تعالى صوت الطلقات من جديد بشدة أكبر.. نظرت نور من خلف الصخرة دون أن تظهر نفسها بشكل واضح، عندها تمكنت من رؤية تلك السفينة التي تماثل سفينتهم حجماً وإن كانت مطلية بلون أسود غير لامع وشكلها مألوف بشدة جعل عيناها تتسعان بذعر واضح.. كانت السفينة تحمل شعاراً واضحاً بلون أحمر على جانبها لم تحتج معه نور

لذكاء لتدرك أن تلك السفينة تنتمي لمجلس الأمن..

شعرت نور بعرق بارد يسيل على صدغيها وهي تراقب ما يجري وتستمع للطلقات التي لا تكاد تتوقف.. ثم نظرت خلفها وهي تشعر بحيرة بالغة وقلق شديد.. أين نوح والبقية؟.. ألا زالوا في السفينة؟.. لو كانت نور معهم في السفينة، لربما كان الأمر أقل إثارة لقلقها.. أما الآن، فهي وحيدة في العراء، إن تغاضينا عن بوبو المندسّ بذعر للأصوات العالية.. والسفينة تتعرض لهجوم من مجلس الأمن الذي سيقبض عليهم بتهمة خرق القوانين الدولية.. وعابد بعيد عن الموقع بدوره ويعاني من جرح بالغ السوء.. فما الذي يمكنها فعله في تلك الأحوال؟..

****

الفصل العاشر

في سفينة مجلس الأمن التي ربضت قريباً من سفينة نوح، وقرب مدخلها الذي يقود لقاعة تحمل بعض المركبات الخاصة بمجلس الأمن، اختبأ طارق بين بعض المركبات وهو يستمع لتراكض رجال الأمن خارجين من السفينة.. ووصل لسمعه صياح القائد الذي قال بوضوح "ما الذي تنتظرونه؟.. لا بد أن يكون مختبئاً خلف إحدى الصخور الضخمة، أو ربما هرب للسفينة الأخرى.. لا تقفوا هكذا كالحمقى.."

لم يكن يقدر على رؤية مدخل السفينة من موقعه، لكن مع خفوت الأصوات حوله قدّر أن المكان قد خلا في هذه اللحظة إلا منه.. لكن كم سيدوم ذلك؟.. اقترب طارق من أقرب مركبة منه وحاول تشغيلها ليجدها، مثل أغلب المركبات، مغلقة بقفل إلكتروني.. ولم يجد مفتاحها معلقاً في لوحة التحكم..

مع لحاق رجال الأمن به، قدّر طارق أن هربه عبر تلك المساحات المفتوحة مستحيل تماماً، ووسيلته الوحيدة هي في استخدام إحدى المركبات للهرب منهم قبل أن يتمكنوا من إيقافه كما فعلوا عند القبض عليه.. لكن عليه في البدء تجاوز أمر القفل الإلكتروني دون جذب انتباه الآخرين نحوه.. لكن لم يطل به الوقت عندما سمع صوتاً خلفه يقول "لقد خمّنت أن تكون بهذا الغباء، لكني لم أصدق هذا بالفعل حتى رأيته.."

رفع طارق بصره مقطباً نحو القائد الذي وجه سلاحه نحوه مضيفاً "كنت أحمقاً عندما لم تستغلّ الأبواب المفتوحة للهرب.."

نهض طارق من موقعه معلقاً "لكي أصبح صيداً سهلاً لكلابك؟"

ابتسم القائد قائلاً "كلابي ستسعد لرؤيتك قطعاً.."

فوجئ القائد بطارق يرمي عتلة حديدية وجدها في موقع قريب، فتفاداها القائد بحركة تلقائية ليجد طارق يقفز نحوه بسرعة تابعاً العتلة.. لم يتمكن القائد من التصرف بسرعة وهو يسقط أرضاً وطارق يقبض على سلاحه بقوة.. لكن القائد ركله بقوة على بطنه محاولاً إزاحته، وبالفعل تمكن من رميه خلفاً، لكن طارق

كان قد استولى على السلاح بالفعل وهو يرفعه في وجه القائد.. نظر القائد لطارق الذي واجهه بحزم قائلاً "قم بتشغيل هذه المركبة.."

أجاب القائد بثقة "لن أفعل، ولن تجرؤ على إطلاق الرصاص عليّ.."

صمت طارق للحظة محاولاً تقدير عواقب ما سيفعله.. إطلاق الرصاص سيجذب البقية إليه بسرعة كبيرة ولن يجد وسيلة للإفلات منهم، فما التصرف الأمثل في مثل هذه الحالة؟..

تقدم القائد خطوة قائلاً بسخرية "هيا.. أطلق النار.."

لكنه فوجئ بطارق يرفع يديه بالسلاح عالياً وهو ينظر لمن خلفه قائلاً "لا تطلق النار.. أرجوك لا تطلق.."

نظر القائد خلفه قائلاً "في الوقت المناسب.."

لكنه وجد الموقع خالياً تماماً خلفه، ولم يرَ أي رجل من رجاله كما أوحى له طارق، وقبل أن يتصرف بالسرعة الملائمة وجد ضربة من السلاح تصيب رأسه من الخلف بقوة أسقطته أرضاً.. لم يفقد القائد وعيه بل سقط أرضاً متأوهاً بألم، فاستغل طارق الفرصة ليجذب جهاز الاتصال من أذنه ويرميه بعيداً، ثم فتشه بسرعة حتى عثر على مفتاح أحد المركبات الخاصة بالدورية.. ولما استولى طارق على المفتاح، وجد القائد يقبض على يده بقوة صائحاً "لن تفلت بسهولة.."

عاجله طارق بضربة أخرى أسقطته أرضاً ورأسه يدور بشدة.. بينما ركض طارق لأقرب المركبات وقام بتشغيلها مستخدماً المفتاح الذي استلبه، ثم انطلق بها بسرعة وتهور عابراً بوابة السفينة.. وفور مغادرته، تمكن من رؤية بعض رجال الأمن الذين كانوا عائدين للسفينة.. وقد فوجئوا بالمركبة ولم يتمكن أحدهم من إيقاف طارق الذي مرق من بينهم كالرصاصة.. كان يرجو أن يتمكن من الابتعاد قبل أن تلحق به إحدى مركبات رجال الأمن الأخرى، فقاد مركبته بسرعة وشيء من التهور عبر تلك المساحات الصخرية.. لكن لم تكد السفينة تبتعد عن بصره عندما فوجئ بأزيز خافت يصدر من لوحة التحكم في مركبته.. تطلع طارق بقلق للوحة التحكم وهو يعالج بعض الأزرار محاولاً معرفة سبب ذلك الأزيز، لكن لم يطل به الوقت قبل أن تطفأ أضواء المركبة ويتوقف محركها عن العمل فتقل سرعتها بشكل متسارع قبل أن تقف تماماً.. حاول طارق أن يقوم بتشغيل المحرك من جديد دون نجاح يذكر، عندما لاحظ كلمات

تتراصّ على شاشة وسط لوحة التحكم تقول "المركبة مقفلة من جهاز التحكم المركزي.."

ظلت الكلمات تتراصّ أمام طارق بتكرار يغيظ وهو يدمدم "تباً.."

قفز من المركبة بعد أن أدرك عدم أهمية وجودها في هربه بعد الآن، وركض محاولاً الاختباء خلف إحدى التشكيلات الصخرية القريبة قبل أن يكشفه رجال الأمن..

في تلك اللحظة في سفينة الدورية، كان القائد يستعيد قبعته التي سقطت أرضاً وهو يقول بحنق "أأنت واثق أنك تمكنت من إيقاف عمل المركبة؟.."

أتاه صوت أحد رجاله عبر جهاز الاتصال قائلاً "واثق تماماً.. لقد استخدمت الجهاز المركزي الذي يتحكم ويراقب جميع مركباتنا وقمت بإيقاف محركها وقفلها بحيث يعجز عن تشغيلها مهما بذل من جهد.."

غمغم القائد "جيد.."

ثم غادر السفينة ليجد بعض رجاله قادمين نحوه، فقال لهم بحدة "الحقوا به واقبضوا عليه.. لا بد أن نستعيده مهما كان الثمن.."

ثم التفت إلى أحد الرجال قائلاً "ناولني سلاحك.."

أسرع الرجل يناوله سلاحه عوضاً عن الذي استلبه منه طارق، فدمدم القائد بحنق وهو يبدأ السير عبر الأرض الصخرية مشاركاً في البحث "نحن لم نعرف أي شيء بعد عن الفتاة وعن البقية.. كيف يفلت منا هذا الشاب بسهولة؟.."

في تلك الأثناء، كان طارق يركض بسرعة وسط بعض التشكيلات الصخرية وهو يقفز فوق بعض الصخور ويتجاوز إحدى التشكيلات دون أن يعرف كيف يمكنه الخلاص من ملاحقيه.. وبينما تطايرت الرصاصات حوله، فإن طارق كان موقناً أنهم لا يملكون الإذن بقتله.. أما إصابته، فهذا شيء آخر.. سمع ارتطام بعض الرصاصات بالصخرة التي مر قربها، ثم شعر بألم حارق في ذراعه اليسرى دون أن يتوقف لرؤية الإصابة وهو يندسّ خلف تشكيل صخري كبير الحجم يشبه عش الغراب ويفصله عن ملاحقيه.. لكن حتى متى سيطول اختباؤوه وهو لا يملك سلاحاً ليبعد مطارديه؟..

انتبه في غمرة لهاثه لذلك الهدير القريب خلفه، فالتفت ليرى، عبر حافة الأرض الصخرية القريبة منه، نهراً

يسير في مجرىً ينخفض متراً عن الأرض والمياه تتدافع في ذلك المجرى الذي يشق الأرض لمسافات طويلة.. عندها لم يطل به الأمر أكثر من ثانية ليتخذ قراره، وقفز نحو النهر دون تردد وهو واثق أنه سيكون وسيلته للهرب من ملاحقيه دون خسائر..

وفي الجانب الآخر، جذب أحد رجال الأمن الذي يلاحق طارق سلاح رفيقه بعيداً وهو يقول "لا تقتله.. نحن بحاجة إليه لنستدلّ على البقية.."

فقال الثاني "لكنني أصبته بالفعل.."

اندفع الأول خلف طارق معلقاً "سيقتلنا القائد لو مات بالفعل.."

وصل للموقع الذي اختبأ خلفه طارق وهو يتجاوز ذلك التشكيل الصخري، لكنه توقف فجأة وهو ينظر للموقع الخالي إلا من بقعة من الدماء تناثرت على الأرض الصخرية.. ومن الحافة المنخفضة القريبة منه، استطاع رؤية نهرٍ ضيقٍ يجري بسرعة في مجراه الذي يقطع المساحات الصخرية تلك بعناد شديد.. ورغم ضيق مجراه، إلا أنه كان عميقاً ومياهه شديدة التلوث بحيث لا يستطيع الرجل رؤية ما في عمقه..

زفر الرجل بشدة وهو يتأمل الموقع بتدقيق، ثم قال لرفيقه الذي اقترب منه "إما أن يكون قفز في النهر هرباً منا، أو أنه قد سقط فيه بسبب تلك الضربة التي أصابته.."

فقال الثاني وهو يعود للمركبة القريبة "يمكننا تتبع مجرى النهر بالمركبة.. عندها سنراه لو حاول الهرب عبر ضفة النهر.."

لحق به الرجل الأول وهما يصعدان المركبة وقاما بتشغيلها باتصال قصير لسفينتهم، وسارا بها متتبعين مجرى النهر متفحصين ضفتيه بتدقيق شديد.. وبعد ابتعاد المركبة، ظهر وجه طارق على سطح المياه وهو يشهق بقوة بعد أن بقي فترة طويلة تحت المياه العكرة.. حاول مقاومة مجرى النهر الشديد وهو يعود للضفة متلفتاً حوله ليتأكد من اختفاء المركبة برجال الأمن بعيداً.. ولما أفلح في صعود الضفة، ارتجف بشدة وهو يشعر بالبرد الشديد مع النسمات الهادئة التي أثارت رعشة في جسده المبلل بمياه النهر الباردة.. لكنه تجاهل هذا وهو يركض مغادراً الموقع نحو منحدرات صخرية تبدو له على مبعدة.. كان واثقاً من وجود موقع يمكنه الاختباء فيه عن أعين رجال الأمن حتى يخفت بحثهم بعض الشيء، ومع حلول الظلام يمكنه

الخروج والبحث عن رُبى بأمان أكثر.. لكن، أين اختفت تلك الفتاة في مثل هذه الأوقات؟..

****

لا تدري نور كم طال بها الوقت وهي رابضة في موقعها تراقب السفينتين الواقفتين وسط المساحة المكشوفة أمامها.. كانت تفكر بالوسيلة الأنسب للتصرف في مثل هذا الوقت.. التراجع والعودة لعابد الذي يعاني من جرح بالغ السوء؟.. أم المغامرة بالتسلل للسفينة والاحتماء بها مع البقية رغم صعوبة ذلك في هذا الموقع المكشوف؟.. ثم ما الذي يدعو بنوح وطارق لترك باب السفينة مشرعاً بالصورة التي تراه عليها؟.. أهم حقاً في السفينة؟.. يبدو لها أن مجلس الأمن لم يجد صعوبة في دخول السفينة مع أبوابها المشرعة والهدوء المخيّم على الموقع.. فهل قبض على الجميع؟.. إذن ما سبب إطلاق النيران؟.. ولمن كانت موجهة؟..

ازدادت حيرتها مع مرور الدقائق، بينما بوبو مختبئ شيئاً ما قربها وهو يتمتم بأصوات مختلطة دلّتها على ذعره الشديد مما جرى، حتى بعد أن توقفت الطلقات النارية بشكل تام.. فالتفتت نور إليه هامسة "اهدأ يا بوبو.. نحن بأمان.."

سمعت صوتاً خلفها يقول بسخرية "حقاً؟"

استدارت بسرعة لترى رجلاً لم يسبق لها رؤيته، يرتدي رداء رجال مجلس الأمن بلونه الأسود والشعار الأحمر على صدره، وبقبعة مماثلة في اللون تلقي ظلالها على وجهه.. تراجعت نور حتى التصقت بالصخرة وهي تفكر بما عليها فعله الآن.. ثم قالت بصوت مرتجف "من أنت؟.. ما الذي تريدونه مني؟"

اتسعت ابتسامة الرجل الساخرة وهو يزيح القبعة عن وجهه قائلاً "أأنتَ من يجب أن يطرح هذا السؤال؟"

لم تشعر نور بالراحة وهي ترى ابتسامة الرجل الساخرة ونظراته المحدقة بها.. ولما طال صمتها، تقدم خطوة منها وهو يقول "من الغريب رؤية صبي في مثل هذا المكان.. هل جئت على ظهر هذه السفينة؟.. وأين البقية؟"

أدركت نور أن بقية من في السفينة قد هربوا ولابد، لذلك فرجال الأمن يبحثون عنهم في المكان.. حاولت

نور التفكير في حلّ لهذا الموقف قبل أن يقبض عليها الرجل.. هل تستطيع الإفلات منه لو ركضت قبل أن يقترب منها؟.. إنها أصغر وأخف حجماً بالتأكيد.. ولا تظن أنه سيطلق النار، رغم امتلاكه لسلاح في يده، فهو بحاجة إليها في الوقت الحالي حتى يستدل على البقية..

وقبل أن تضع نور خطتها موضع التنفيذ، ظهر رجلان آخران من موقع قريب وهما يتقدمان وأحدهما يقول للأول الذي بقي واقفاً يتطلع لها بحزم "سيدي.. الموقع خالٍ تماماً.. لم نعثر على الهارب بعد، والفرقة التي تلاحقه تتبع أثره وربما يفلحون بالقبض عليه.."

بدا أن الرجل الأول قائدهم، وبينما تطلع الآخران لنور بتعجب، قال القائد "لا بأس.. وجود هذا الفتى يكفينا حالياً.."

قفزت نور واقفة، لكن القائد كان قد هبّ نحوها بخطوة واحدة وقبض على ذراعها قائلاً "مهلاً.. ليس بهذه السرعة.."

فوجئ الثلاثة ببوبو، الذي كان مختبئاً خلف إحدى الصخور دون أن ينتبهوا له، يخرج من موقعه مع مرأى الذعر الذي ارتسم على وجه نور.. وبقفزة محدودة كان يقبض على ذراع القائد ويغرز أسنانه فيه بقوة شديدة.. فوجئ القائد بالأمر وهو يفلت نور بتلقائية بينما بقي الآخران ينظران لبوبو بدهشة لشكله الصادم.. لكن نور تراجعت خطوات قبل أن تستدير راكضة بأسرع ما تستطيع.. هل من الجُبن الهرب تاركة بوبو في قبضة رجال الأمن؟..

سمعت القائد يصيح بحنق "من أين ظهر هذا المتوحش؟.."

توقفت نور لوهلة وهي تلتفت خلفها، فرأت القائد يلكم بوبو بقوة ويلقيه أرضاً، بينما انطلق أحد الرجلين الآخرين خلفها.. كانت تستطيع الهرب بسهولة منهم في هذه اللحظة، ولأنها تعرف طريقها جيداً، يمكنها الاختباء منهم في أكثر من موقع.. لكن رؤية بوبو الذي يصرخ بألم وهو يسقط أرضاً أوجعتها بشكل جعلها تصرخ وهي تقف "لا تؤذوه.. لن أهرب إن تركتموه يرحل.."

نظر القائد لبوبو المذعور الذي حاول أن ينهض مبتعداً عنه، ثم قال للرجلين الآخرين "اقبضا على الفتى ولنعد للسفينة.. هذا المتوحش لن يفيدنا في شيء.."

تساءل أحد الرجال "قد يسبب بعض الفوضى.. هل نقتله؟"

انتفضت نور وهي تنظر لهم بقلق، لكن القائد قال بحزم "لا.. لقد منعتنا القيادة من قتل المزيد منهم.. قالوا إنهم مادة جيدة لاختبارات الهيئة العليا للعلوم.."

وجدت نور أن أحد الرجلين يدفعها نحو سفينة نوح حيث تربض سفينة مجلس الأمن قربها، بينما سار القائد أمامهم وهو يتحدث في جهاز اتصال في أذنه.. ولما أنهى الاتصال، قالت نور مقطبة "أكنتم تعلمون بوجود بعض البشر على الأرض؟"

نظر لها القائد رافعاً حاجباً، ثم قال "طبعاً نعرف ذلك.. لا شيء يخفى على مجلس الأمن بتاتاً.."

ثم أضاف بابتسامة "يمكنك القول إن هناك من تم تركهم عمداً ليكونوا كعدّاد جايجر.. بمراقبتهم يمكننا أن نعرف متى ستصبح الأرض خالية من الإشعاعات وصالحة لعودة البشر إليها.."

شعرت نور بالدهشة، فقالت "وماذا عن الفرقة العلمية التي غابت منذ خمس سنوات؟.. هل تعلمون موقعها أيضاً؟"

أجاب القائد وهو يكمل طريقه "أنت تكثر من الأسئلة يا صبي.. وكما قلت لك، لا شيء يخفى على مجلس الأمن أبداً.."

تقدمت نور خطوتين سريعتين لتلحق به وهي تهتف "أين هم؟.. أخبرني أرجوك.."

جذبها الرجل الذي يسير خلفها من ذراعها وهو يقول "سر بصمت يا هذا.."

حاولت نور جذب ذراعها من يد الرجل وهو يجبر ها على اللحاق بالقائد.. بدا أن القائد لا ينوي الاستجابة لأسئلتها الكثيرة، فغرقت نور في دوامة أفكارها وهي تتبعهم بصمت.. شعرت بقلبها يغوص في صدرها، والتفتت تنظر خلفها لتجد بوبو قد وقف قرب الصخرة التي كانوا عندها وهو يراقب رحيلها بصمت.. ثم أدارت وجهها للأمام وهي تحاول استيعاب كل ما سمعته من القائد، وما يمكن أن يعنيه بالنسبة لها وللفرقة العلمية الغائبة منذ سنين.. بل ما يمكن أن يعنيه بالنسبة لبوبو وأمثاله على الأرض.. أيمكن أن يكونوا قد نُبِذوا عمداً من قبل المؤسسات الكبرى التي أتمت نقل البشر للعوالم الجديدة؟.. أي قسوة تحلّى بها أولئك لو كان ظنها صحيحاً؟..

وما الذي ينتظرهم على يد أشخاص بتلك القسوة؟..

****

بعد ركض متواصل وقلق كبير، وصل طارق لتلك المنحدرات الصخرية التي تحدّ المساحات الصخرية وتشكل جداراً عالياً من تلك الجهة.. وبعد أن اطمأن لعدم وجود أي من رجال الأمن قريبين منه، بحث عن موقع يمكنه من الاختباء فيه بشكل مؤقت وسط تلك المنحدرات، حتى تمكن من العثور على مغارة صغيرة بمدخل ضيق نوعاً ما يَسَعُه بصعوبة..

عبر طارق ذلك المدخل الضيق ليجد قلب المغارة أكثر اتساعاً ودفئاً من خارجه.. فزفر بشدة وهو يتأمل الموقع خارجاً بتوتر واضح، ثم انتبه لجرح ذراعه الذي لم يزل ينزف دماً حتى سال من أصابعه وبلل الأرضية الصخرية.. فانتزع طارق قطعة من قميصه بقوة وحاول ربط جرحه لإيقاف النزيف، عندما سمع صوتاً خافتاً يهمس "طارق؟.."

رفع رأسه بصدمة وهو يدرك أن الصوت قد جاءه من عمق المغارة.. ثم هبّ واقفاً وهو يرى ذلك الجسد الذي اقترب من موقعه قادماً من جوف المغارة، ولما سقط نور الشمس الضعيف عليه، تبيّن ملامح رُبى بوضوح تام.. فهبّ طارق إليها وأمسك ذراعيها قائلاً "أنت بخير يا آنسة؟.. هل أصبتِ بمكروه؟.."

أجابت رُبى بشيء من القلق "لا.. أنا بخير.. ماذا عنك؟.. أهذه الكدمات على وجهك من فِعْل رجال مجلس الأمن؟.."

فقال طارق بحدة لم يملكها "لماذا غادرتِ موقعك دون أن تنتظريني؟.. قضيت أسوأ أوقاتي وأنا أحاول التكهن بما جرى لك، خاصة بعد أن أدركت أن مجلس الأمن لم يعثر عليك بعد.."

جذبت رُبى القطعة الممزقة من قميصه وبدأت ربط جرح ذراعه بقوة وهي تقول "لم يحدث لي شيء.. لم أستطع البقاء في موقعي مع شكي الشديد بأن رجال الأمن سيعثرون عليّ بسهولة.. لذلك فضلّت البحث عن موقع أكثر أمناً وانتظارك فيه.."

قال طارق بعصبية "وماذا لو لم أعثر عليك بتاتاً؟.. ماذا لو عثر عليك رجال مجلس الأمن قبلي؟.."

ابتسمت رُبى مجيبة "اخترت هذا المخبأ لأنني كنت واثقة أنك ستلجأ إليه.. أو بالأحرى كنت أعلم أنك ستلجأ إليه بالتحديد.."

قطب طارق بشدة دون أن يعلق، بينما فرغت رُبى من ربط جرحه وقالت "عليك بعلاجه لو تمكنا من العودة إلى السفينة.. أي جرح يعتبر خطيراً في هذا الجو الملوث بشدة مع كل لحظة تمضي.."

زفر طارق ليتخلص من العصبية التي شعر بها مع ردود رُبى الهادئة كعادتها، بينما أطلقت رُبى ضحكة صغيرة.. وإزاء نظرات طارق المندهشة بتساؤل، علقت بابتسامة "للمرة الأولى أجدك في فوضى عارمة.. لا تشبه أبداً ذلك الشاب المعتدّ بنفسه وأناقته الذي عرفته سابقاً.."

قال طارق بشيء من الضيق "أهذا ما يهمّ الآن؟"

غمغمت رُبى بابتسامة "لا..."

فتساءل طارق "الآن ما الذي سنفعله؟.. هل نبحث عن البقية؟.. أم نبدأ إنجاز المهمة التي أتينا لأجلها؟.."

أجابت رُبى "لا أريد أن نتفرق، فقريباً ستصبح الأمور أسوأ.. ولذلك نحن بحاجة للجميع معنا.. علينا أن نعود إليهم.."

قال طارق عاقداً حاجبيه " أنت مصرّة على الحديث بالألغاز بعد كل ما جرى؟.. لم لا تفصحين عما سيجري بشكل أوضح؟.."

قالت هازة كتفيها "أتظن أن هذا سيجعل الأمور تسير بشكل أسهل من السابق؟.."

فقال طارق "على الأقل سنتفادى ما سيمر بنا من مصاعب إن أمكننا ذلك.."

علقت رُبى وهي تتأمل المساحات التي تطل عليها المغارة "هناك ما لا يمكن تفاديه مهما حاولنا.. وهذا ما يثير ذعري.."

صمت طارق للحظات محاولاً ابتلاع ضيقه وحيرته، ثم قال "إذن، علينا البحث عن البقية بسرعة قبل أن يعثر عليهم مجلس الأمن.. هذا لو لم يكونوا في قبضته بالفعل.."

استدارت إليه رُبى قائلة بحزم "لا يوجد أي داعٍ للبحث عنهم.. سننتظرهم في موقع محدد.. وهم سيأتون إلينا، طال الوقت أم قصر.."

غمغم طارق بشيء من الضيق "كيف يمكنك أن تكوني واثقة دائماً؟.."

أجابت بابتسامة جانبية "لأن هذا كل ما أفلحت بفعله طوال السنين الماضية.. ألا يمكنك أن تثق بي بعد كل هذه السنين التي أمضيتها قريباً مني؟.."

لم يعلق طارق وهو غير متأكد إن كان عليه أن يشعر بالراحة لما تمتاز به رُبى أم عليه التوجس له.. ثم وجدها تواجهه متسائلة "قبل أن نكمل سيرنا، أريد أن أفهم منك أمراً.. وما سنفعله بعدها سيعتمد على إجابتك بشكل كبير.."

نظر لها طارق بتساؤل، فواجهته بعينيها وهي تسأله "ما الذي تفعله هنا حقاً يا طارق؟"

غمغم طارق "ألم تطلبي مني اصطحابك في هذه المهمة؟.. من واجبي كمساعدك أن....."

قاطعته قائلة بحزم "لا، هذا ليس من واجباتك بتاتاً.. لا شيء يجبرك على التخلي عن حياتك السابقة ورمي نفسك في هذا الكوكب المميت وأنت تدرك أنك قد لا تعود منه حياً.. فلمَ أنت هنا حقاً؟"

صمت طارق وهو يحدق في عينيها وهو واثق أن التلاعب بالألفاظ لن يجعله يفلت من هذا الموقف.. ثم وجدها تقول "لقد قلتَ سابقاً أن وجودك قربي له هدف معينّ.. أن اختيارك لم يكن عبثاً.. فما الذي عنيته بهذا؟"

زفر طارق وقال "وهل يمكن أن تجهلي أمراً كهذا حقاً؟"

قالت ببساطة "لست قارئة للأفكار، ولا أعلم الغيب.. كل ما أعرفه هي رؤيا أراها بين وقت وآخر.. لكن هذا لا يعني أبداً أنني أقرأ الأفكار.."

فواجه طارق عينيها قائلاً بجدية "لقد اختارني دان مايدن لأكون عيناً عليك، لأنه كان يشك بأمور تفعلينها من وراء ظهره.. حاول ذلك مع مساعديك السابقين، لكن شعورهم بأنك تقرئين أفكارهم وتعرفين دخيلة أنفسهم كان يعذبهم.. لذلك لم يستمرّ معك أحدهم لوقت طويل.. وأخيراً، اختارني دان من بين الكثيرين لأداء هذه المهمة.. وتحايل كثيراً ليبدو الأمر وكأن اختياري كان من جهتك أنت.."

كانت عينا رُبى تتسعان وهي تتطلع لوجهه، ثم تساءلت بشيء من الشك "ولماذا لم تهرب أنت كما فعل الآخرون؟"

ابتسم طارق بجانب فمه مجيباً "قمت بتجربة صغيرة لأتأكد إن كنتِ حقاً تقرئين الأفكار أم لا.. أتذكرين تلك القطة الأليفة التي كنتِ متعلقة بها بشكل كبير؟.."

نظرت له رُبى بتساؤل، فأضاف "أنا من قمت بتسميمها.. موت قطتك الأليفة كفيل بأن يخرجك من طورك ويجعلك تكشفين الأمر لو كنت تقرئين أفكاري حقاً.. رغم أنني أنكرت معرفتي بالأمر مراراً أمامك، إلا أنني كنت أؤكد ذلك في ذهني بشكل متكرر.. لكنك عجزت عن قراءة أي فكرة من أفكاري.. وهذا جعلني واثقاً من عدم قدرتك على معرفة ما يدور بذهني.."

خفضت رُبى بصرها وهي عاقدة حاجبيها بشدة، ثم همست "كيف جرؤت على فعل ذلك؟.. لقد كنت أثق بك ثقة مطلقة.. كيف أمكنك أن تكون قاسياً مع ذلك الكائن الصغير؟"

ثم نظرت إليه قائلة بشيء من الحدة "أمازلت تتجسس لصالح دان مايدن؟.. ألهذا السبب تبعنا مجلس الأمن؟.. هذا يفسر الكثير من الأمور بالفعل....."

قاطعها طارق قائلاً بانفعال "كان هذا في البدء.. كنت أريد أن أنال حظوة لدى دان، وربما أحصل على موقع متميز في شركاته العديدة.. لكني بعد أن أمضيت بضع شهور معك، بدأت أراجع قراراتي بشدة.. شعرت أنني لم أعد أرغب بما سيمنحه لي دان، ولم أعد أطيق رؤية ما يفعله بك.. أصبحت بي رغبة صادقة لمعاونتك، ولهذا نحن هنا الآن.. لكن لا شأن لي بتاتاً بمجلس الأمن، وأجهل كيفية لحاقهم بنا بهذه الصورة.."

قالت رُبى بتقطيبة "أتقول الحقيقة أم أنك تحاول المداراة حتى تنجز ما يرضي دان؟"

ابتسم طارق مجيباً "بل الحق هو ما أقول.. يمكنك قراءة أفكاري لتتأكدي من هذا.."

قلت رُبى مقطبة "لكنني لا أقرأ الأفكار.."

لم تزايل الابتسامة شفتي طارق، فأشاحت رُبى بوجهها جانباً وهي تضيف "الغريب أنني لم أرَ ذلك بتاتاً في أحلامي.."

وجدت طارق يتقدم منها خطوة قائلاً بصوت منفعل "لأنني كنت مخلصاً لك بالفعل.. بعد أن عرفتك وتعرفت إلى شخصيتك الحقيقية، لم أستطع تجاهل مشاعري التي تزايدت تجاهك، ولم أستطع خيانتك بتاتاً حتى لو كنت غافلة عن ذلك.. ألا يمكنك تصديق ذلك؟.."

رفعت رُبى بصرها إليه قائلة بحزم "وأنا شاكرة لك ذلك.. وإن كنت أتمنى ألا تتردد في الرحيل متى ما غيرّت رأيك.. لا شيء يجبرك على المخاطرة بحياتك لأجلي.. ووصولي للأرض يكفيني حتى لو لم تعاونني للوصول لهدفي فيها.."

نظر لها طارق بدهشة، وهو يلاحظ رفضها الواضح لمشاعره، ثم سمعها تقول وهي تقف قرب المخرج "علينا الرحيل قبل أن نعجز عن ذلك.. ما يزال بحث مجلس الأمن عنا مستمراً.."

تنهد طارق بحيرة وهو يراقبها، ثم تقدم من مدخل المغارة بدوره قائلاً "علينا انتظار حلول الظلام، فسيرنا بدون مركبة يبدو كدعوة واضحة للقبض علينا في وضح النهار.."

لم تعارض رُبى وهي تقف قرب المدخل بصمت، بينما جلس طارق جانباً ملتزماً بالصمت بدوره.. شعر بحيرة شديدة وبدأ شيء من الضيق يتسلل لنفسه مع كل ما يجري.. ما الذي تريده هذه الفتاة حقاً؟.. ألم يفعل كل ما بوسعه ليرضيها ويحقق ما تحلم به؟.. إذن لمَ لا تبدو سعيدة بكل ما يفعله بمشاعر صادقة؟..

بعد عدة ساعات، كان الظلام قد حلّ بشكل تام غامراً المغارة بعتمة تامة.. عندها نهض طارق قائلاً "انتظري هنا لأطمئن على خلو الموقع من رجال الأمن، وبعدها سننطلق.."

وسار متجاوزاً مدخل المغارة بحذر، بينما بقيت رُبى تراقبه عاضة شفتها السفلى بمرارة، ثم زفرت وهي تعيد خصلات شعرها للوراء مغمغمة لنفسها "ليس الأمر سيئاً كما تصورت.. يمكنني الصمود لمدة أطول.."

حاولت نبذ مرارتها وضيقها بإرادة قوية، وهمست وهي تدير بصرها في الأفق "ليت هذه الرحلة تنتهي بسرعة.. وليت طارق يتمكن من الرحيل بعدها تاركاً الأرض ومن عليها.. عندها سأرتاح أنا من مشاعر الندم هذه التي تملأ صدري.."

بعد قليل، رأته يعود إليها قائلاً "الموقع آمن نسبياً.. يمكننا الرحيل دون قلق.."

فسارت معه نحو المخرج وهي صامتة شاعرة ببعض الألم ينبض في رأسها، ولما لاحظ طارق ملامح الألم في وجهها تساءل بقلق "أأنت بخير؟"

ابتسمت شيئاً ما قائلة "لا تقلق.. أنا بخير.."

تساءل "أين هي وجهتنا الآن؟.. هل تعرفين كيف يمكننا الوصول إليها بالتحديد؟"

أجابت رُبى بهدوء "بالتأكيد.."

وسارت وهي تتطلع للقمر الذي بدا عند الأفق ونوره الخفيف يتغلغل عبر الغيوم الكثيفة بصعوبة بالغة..

ثم غمغمت "أكاد أحفظ الموقع عن ظهر قلب لكثرة ما رأيته في أحلامي.."

****

انحنى عابد أسفل إحدى المركبات في سفينة الفرقة العلمية وهو يعبث بمحركها محاولاً دفعه للعمل بشتى الطرق.. مرت ساعة منذ غادرته نور وهو عاجز عن التواصل معها أو معرفة ما حلّ بها.. وهو نوعاً ما يشعر بالذنب لأنها رحلت بسبب إصابته هو ولعجزه عن إكمال الطريق بنفسه.. كيف يمكنه أن يكون أحمقاً بدرجة كافية ليرسل فتاة صغيرة في هذا العالم الغريب وحدها؟.. وذاك الرجل الغريب لا يعتمد عليه أبداً في أي شيء، فلو كان قد انزوى ذعراً من مرأى هذه السفينة خالية، فما الذي سيفعله في مواجهة أسلحة رجال الأمن؟..

يئس عابد من التحايل على محرك المركبة، فلجأ للعنف مع خبرته البسيطة في التعامل معها.. وبعد أن نزع الغطاء عن المحرك، انتزع بضع أسلاك منه لتعطيل لوحة التحكم المتطورة فيه.. وبهذا، يمكنه دفع المركبة للعمل متجاوزاً الشفرة السرية الخاصة بها.. لكن هذه الوسيلة تعني أن يقوم بهذا الفعل في كل مرة يضطر فيها لتشغيل المحرك..

وبعد أن استخدم الأسلاك في توليد شرارة كهربية تمنح المحرك دفعة صغيرة ليبدأ عمله، تنهد عابد براحة وهو يسمع المحرك يهدر بصوته المكتوم.. فأعاد الغطاء لموقعه وصعد المركبة بعد أن فتح بوابة السفينة..

سار بالمركبة عبر الطريق الضيق بين المنحدرات الصخرية وسلك طريقاً يقوده لأعلى تلك المرتفعات الصخرية، ولما وصل لموقع مرتفع، وقف بالمركبة وتفحص المنطقة بشكل كامل.. كان دليله الوحيد للعودة لسفينة نوح هي القرية المهجورة التي مروا بها، وهو يستطيع رؤيتها على مبعدة من موقعه.. فأسرع بمركبته نحو القرية ومنها للطريق الذي يؤدي لموقع السفينة..

تساءل في نفسه عن بقية من تركوهم في السفينة.. ما الذي حلّ بهم؟.. هل وقعوا في قبضة مجلس الأمن؟.. ثم تذكر سؤال ذلك الرجل عبر جهاز الاتصال ومحاولته معرفة موقعهم.. إذن فقد هرب البقية بالفعل.. فهل ستدرك نور الخطر قبل أن تقع فيه وتتراجع؟.. أم أنها ستقع في قبضتهم بالفعل؟.. وما الذي قد يفعلونه بها للوصول للبقية؟..

وصل للطريق الذي يقطع القرية، والذي مرّ به مع نور في اليوم السابق.. فتجاوزه بأسرع ما يستطيع وهو يفكر بالطريقة التي يمكنه بها أن ينقذ نور من براثن رجال الأمن وهو بهذا الضعف والألم.....

توقف فجأة بالمركبة وهو يلمح شيئاً في أحد جوانب القرية لم يره سابقاً.. فترك مركبته خلف أحد المنازل وتقدم بخفة من ذلك الموقع وهو يلاحظ تلك المركبة التي تم إخفاؤها بين الأزقة، لكنها كانت واضحة له شيئاً ما من موقعه.. وللدهشة، كانت المركبة تشبه التي رحل بها من سفينة نوح.. أهذا يعني أن بقية من في السفينة مختبئين في القرية؟..

تلفت حوله بحثاً عنهم، ثم نادى بصوتٍ عالٍ بعد أن تأكد أن رجال الأمن لم يقتربوا من هذا الموقع بعد.. وبعد بعض الصمت، قال عابد بشيء من الضيق وبصوت أعلى " أين أنتم؟.. أجيبوني إن كنتم تسمعونني.. هذا أنا.. عابد.."

رأى رأساً يظهر من نافذة منزل قريب، ثم تنهد صاحب الرأس وهو يقول "حمداً لله.. ظننتك أحد رجال الأمن.."

تقدم عابد من المنزل وهو يزفر قائلاً "ألم تتعرف صوتي؟.. ثم إن موقعكم مكشوف بشكل واضح للعين.. ألم تستطيعوا إخفاء المركبة بشكل أفضل؟"

قال نوح بشيء من التوتر "ظننت مخبأنا جيداً.. كما أن مركبة مجلس الأمن ابتعدت وكفّت عن البحث

عنا.."

علق عابد وهو يدخل المنزل "هذه القرية من أوائل المناطق التي سيبحثون فيها.. وابتعادهم لا يعني أنهم لن يعودوا.."

تلفت حوله في المنزل، فلاحظ وجود أحمد وميساء في جانب المكان والتوتر واضح على ملامحهم.. لكن لمْ يرَ أحداً غيرهما في المكان.. فتساءل عابد "أين طارق؟.. هل وقع في قبضة رجال الأمن؟"

قال نوح بحيرة "وما أدراني؟.. لقد اختفى بعد أن سبقناه بمغادرة السفينة.. لكن، أين اختفيت مع نور منذ البارحة؟.. ظننت أنكما قد قضيتما نحبيكما، أو ضِعتما في أحسن الظروف.."

قال عابد وهو يجلس جانباً بتعب "لقد بلغنا الموت بدرجة خطيرة.. لكننا نجونا بمعجزة.."

لاحظ نوح الجرح الواضح من تحت الأربطة التي تحيط ظهر عابد من بين قميصه الممزق، فتساءل بقلق "أأنت بخير؟"

تساءل عابد "الأهم من هذا، ألمْ تروا نور؟.. لابد أنها عبرت هذه القرية وهي متجهة للسفينة.."

أجاب أحمد "لا نعرف أي شيء عنه أو عن طارق.. ظننا ه معك..!"

قال عابد بقلق "لقد مضت ساعات منذ تركتني.. فهل هذا يعني أنها قد وقعت في قبضة مجلس الأمن فعلاً؟"

أجاب نوح بحيرة دون أن ينتبه أن عابد يتحدث عنها بصيغة الأنثى "كيف تسمح للفتى بالرحيل وحيداً في هذا الكوكب؟"

علق أحمد قائلاً "حتى لو سقط الفتى في يد مجلس الأمن، أنا واثق أنهم لن يصيبوه بأي أذىً.."

قال عابد بصوت متعب وعبوس ظاهر "إنها فتاة.. وليست فتىً.."

نظر له الاثنان بدهشة وصمت، ثم تساءل أحمد "من تعني؟"

قال عابد وهو يفرك جبينه محاولاً التخفيف من الصداع الذي ألمّ به "نور فتاة وليست فتىً.. لقد تنكرت بهيئة صبي كي تسمحوا لها بالرحيل على ظهر السفينة إلى الأرض.."

نظر له أحمد ونوح مصعوقين، ثم قال نوح بعصبية "أكنت تعلم ذلك؟.. لماذا تكتمت على الأمر؟"

زفر عابد وهو يحاول النهوض مجدداً "لا يهم ذلك الآن.. علينا إنقاذها من قبضة رجال الأمن.."

نهض بعسر وخطا خطوة قبل أن يجد أحمد يقف في طريقه قائلاً "لا فرق إن كان فتىً أم فتاة.. إنه في قبضة مجلس الأمن، ومن الخير لنا ألا نقع في قبضتهم نحن أيضاً.. بالنسبة لها، فلن يعتبروها شريكة في أي شيء وسيحبسونها في سفينتهم حتى يتمكنوا من القبض على بقيتنا.."

وقف عابد عابساً، بينما علق نوح "أنا أؤيد ذلك.."

دفع عابد أحمد من أمامه وهو يقول "لو كنت سأنتظر لما قطعت هذه المسافة وأنا في هذه الحالة.."

ثم أضاف قبل أن يغادر "وأبعدوا تلك المركبة عن هذا الموقع الواضح.. حاولوا تخبئتها في أحد المنازل المتهدمة.."

وغادر بخطوات واسعة وهو يتناسى جرحه وألمه، وتأمل الشمس التي بدأت تميل نحو الأفق متسائلاً في سرّه إن كان عليه انتظار هبوط الظلام.. هل سيكون ذلك في مصلحته فيما هو مقدم عليه أم أنه سيكون نقطة لغير صالحه.. عاد بتفكيره لنور وهو قلق لأمرها.. شعر أن سقوطها في يد مجلس الأمن، لو كان ذلك صحيحاً، فهو المتسبب به.. لو لم تشفق نور عليه لما رحلت وحيدة بحثاً عن وسيلة لعلاجه.. كيف له أن يكون بائساً لهذه الدرجة لتشفق عليه فتاة صغيرة؟.. دمدم وهو يسير نحو مركبته التي أخفاها في موقع قريب "تباً لك يا عابد.. أصبحت بائس الحال بشكلٍ مثير للشفقة.."

وزفر وهو يدفع نفسه دفعاً حتى المركبة، وقام بتفتيشها بحثاً عن أي سلاح في جوانبها أو أي شيء يمكن استخدامه كسلاح مرتجل.. وبعد بعض البحث، وجد سلاحاً صغيراً عبارة عن صاعق كهربي يطلق شرارات كهربية تصعق من يلامسه وتفقده الوعي في الحال.. ولم يكن يفيد إلا في المواجهات القريبة.. لكنه أفضل من لا شيء في نظر عابد.. عندها صعد المركبة وقادها عبر ذلك الطريق متوجهاً نحو موقع سفينة نوح وهو يزفر بشدة.. بجرح كهذا وبسلاح كهذا وبكونه وحيداً، ما الذي يستطيع فعله حقاً؟..

****

الفصل الحادي عشر

جلست نور في جانب إحدى الغرف في سفينة مجلس الأمن بتوتر شديد وهي تتلفت حولها.. كانت الغرفة تحوي القليل من الأثاث، وقد جلس أحد الرجلين اللذين قبضا عليها في جانب المكان يتحدث مع امرأة أخرى ترتدي الزي الخاص بمجلس الأمن.. وبعد انتظارٍ طال، رأت القائد الأسمر يدخل الغرفة فيجلس أمامها قائلاً "حسناً يا فتى.. هلا أخبرتني بكل ما تعرفه عن هذه السفينة الواقفة قريباً؟"

قالت نور بتوتر "ما الذي تريد معرفته؟.. إنها سفينة انضممتُ إليها عندما علمت أن وجهتها هي الأرض، فأنا أبحث عن شقيقي الذي اختفى مع تلك الفرقة العلمية.. ولهذا جئت لهذا الكوكب رغم الحظر المقام عليه.."

قال القائد "وما هدف هذه الرحلة؟.. لا يمكن أن تتحرك السفينة لتقطع نصف المجرة فقط ليبحث صبي عن شقيقه الضائع.."

هزت نور كتفيها مجيبة "لا أعلم.. إنهم لا يفصحون عن أمر لي، فأنا مجرد صبي لا أهمية له.. لكنني استغللت قدومهم للأرض لتحقيق هدفي وهو العثور على شقيقي.."

عندها مال القائد نحوه متسائلاً بحزم "وماذا عن رُبى؟.. ألم تسمع بها من قبل؟"

صمتت نور للحظة وهي تنظر للقائد بدهشة.. بدا لها واضحاً أن كل التحايل الذي قام به القائد في استجواباه كان هدفه الوصول لرُبى.. فما السبب الذي يجعلهم يبحثون عنها بهذا الإلحاح؟.. أليست ميتة؟.. ما الذي يبغونه منها بعد ذلك؟.. ثم طرأت لها فكرة أخرى.. أليس جثمان الفتاة في سفينة نوح؟.. ألم يعثروا عليه بعد؟.. هذا شبه مستحيل نظراً لموقع التابوت الواضح.. هل قام طارق بإخفاء الجسد قبل هربه؟...

أخيراً أجابت نور متظاهرة بالصدق "لا أعرف من تكون هذه التي تسمّى رُبى.. ولم أسمع أحداً يذكرها على السفينة.."

قطب القائد قائلاً "استمع إليّ.. الكذب سيجرّ عليك مشاكل كثيرة.. ولست رجلاً صبوراً لو كنت تفهم ما أعنيه.."

هتفت نور "صدقني أنا لا أكذب.. وما هدفي من الكذب؟.. ربما كان البقية يعلمون بشيء عنها.. لكني لم أعرفها قبلاً.."

ثم تساءلت ببراءة "أهي مجرمة مطلوبة لمجلس الأمن؟.."

عقد القائد ذراعيه على صدره قائلاً "هل أنت هنا لتطرح علينا الأسئلة؟.. أجب يا فتى لئلا تثير غضبي.. أين الآخرون؟.."

نظرت له نور بتردد قائلة "لقد تفرقنا ونحن نستكشف الموقع.. ولما فشلت في العثور عليهم، حاولت العودة للسفينة على أمل أن أجدهم هناك.."

قال القائد بشيء من الحدة "أتستهزئ بي؟.. لقد فررتم البارحة من السفينة وتخلصتم من رجالي الذين لاحقوكم، والآخر الذي قبضنا عليه هذا الصباح قد فرّ بدوره دون أن يجيب أسئلتنا.. أتظن أن ادعاءك البراءة قد يعفيك من العقاب؟"

نظرت نور للرجل بشيء من القلق.. لم تكن تعلم بشيء مما حدث في اليوم السابق، بعدما واجهته مع عابد.. لذلك لا تدري إن كان البقية بخير أم لا.. وهل الآخر الذي قصده القائد هو طارق أم نوح؟..وأين الجميع الآن؟...

نظرت للقائد الذي راقبها بنفاذ صبر، وتذكرت عابد الذي بقي في السفينة القديمة وجرحه يسوء مع مرور الوقت، فما الذي تقدر على فعله لمساعدته؟.. دارت ببصرها في الغرفة حولها وفكرة صغيرة تطرأ لذهنها، لكن رغم بساطة الفكرة، إلا أن التنفيذ لن يكون سهلاً بتاتاً، خاصة مع فتاة لم تبلغ العشرين من عمرها بعد وبجسد ضئيل كجسدها هذا..

زفرت وهي تعتدل في جلوسها، وقالت بعد تردد "حسناً.. سأدلكم على موقع البقية.. لكن بشرط..."

قال القائد بحزم "جيد.. كنت أعلم أنك ستستمع لصوت العقل.."

لاحظت نور أنه تجاهل الشرط الذي تطلبه، فقالت بسرعة "بشرط أن تعدوني ألا تؤذوهم أبداً.."

قطب القائد قائلاً "ليس من حقك اشتراط أي أمر علينا..."

قالت نور بشيء من القلق "إذن كيف تريد مني أن أدلكم عليهم وأتسبب بأذيتهم؟"

أجاب القائد بسرعة "إن كنت لا تريد منا إيذاءك أنت.."

فقالت نور أخيراً "حسناً.. سأدلكم على موقعهم.. هناك قرية قريبة في الاتجاه الذي قدمت منه، وهم مختبؤون في موقع قريب منها في كهف وسط سلسلة جبلية صغيرة.."

لم يعدها القائد بشيء وهو يلتفت للرجل القريب قائلاً "أحضر خارطة لهذا الموقع .."

لم تعلق نور وهي تتساءل في سرها إن كانت خطتها ستنجح.. هل ستتمكن، وهي الفتاة الضعيفة، من الفرار من قبضتهم بسهولة؟.. رأت الرجل الآخر يعود بلوح زجاجي شفاف، وبضغطة خفيفة من يد القائد، أضاءت شاشة اللوح عارضة خارطة للموقع الذي هم فيه بتفاصيله الجيولوجية وببعض العلامات التي تحدد أماكن تجهلها نور.. تفحصت نور الخارطة بشيء من الحيرة الظاهرة على ملامحها، ثم قالت "لا أستطيع الاستدلال عليهم بهذه الخارطة.. فأنا لا أفهمها.."

أشار القائد بإصبعه لبعض المواقع على الخارطة قائلاً "ألم تقل إنهم في موقع قريب من القرية؟.. هذه هي أقرب قرية منا، وهذه السلسلة الجبلية التي قربها.. فأين يمكن أن يكون مخبؤهم هنا؟.."

قالت نور بحيرة ظاهرة "لا أدري.. فأنا لا أستطيع معرفة الموقع إلا لو رأيته بعينيّ.."

نظر له القائد بنظرة متفحصة، ثم قال وهو يقف "لو ظننت لوهلة أنك تستطيع خداعنا والهرب من رجالي، فأنت واهم.. مجرد المحاولة ستكلفك الكثير.. فكن حذراً من إغضابي.."

هتفت نور "لا يمكن أن أفكر بذلك.. كما أنك وعدتني بأنك لن تؤذي أحداً منا.. أليس كذلك؟.."

لم يجبها القائد وهو يلتفت للرجل القريب قائلاً "جهز إحدى المركبات للانطلاق.. سترحل أنت بها مع ثلاثة آخرين.. اصطحب هذا الفتى وعد فور أن تقبضوا على البقية.."

هبّت نور تقول "أيمكننا أخذ حقيبة إسعافات أولية من سفينتنا؟.. هناك شخص مصاب بشدة، ويجب علاجه دون إبطاء.."

قال الرجل بحزم "سيتم علاجه عند عودته.."

فقالت نور برجاء "لكنه ينزف بشدة.. لقد عدت للسفينة على أمل إنقاذه بإحدى حقائب الإسعافات الأولية.."

قال القائد "لا يهمني.."

قطبت نور قائلة "إذن كيف تريد مني أن أدلك عليهم مادمت لا تعبأ بما يجري لهم؟"

وجدت القائد يجذبها من مجمع ملابسها قائلاً بصرامة "لكنك ستدلني عليهم رغم أنفك يا فتى.."

ظلت نور تنظر له بتوتر وهي مدركة أنها لا يجب أن تستنفذ صبر القائد عليها.. لكن كيف يمكنها الهرب دون الحصول على حقيبة الإسعافات الأولية تلك؟..

وقبل أن تستسلم، سمعت الرجل الآخر يقول "لن يضيرنا إحضار حقيبة لعلاج الرجل قبل عودتنا للسفينة.."

لم يعترض القائد وهو يفلت نور ويلتفت للمرأة متسائلاً "ماذا عن الفرقة التي لحقت بذلك الشاب؟.. ماذا فعلوا؟؟.."

لم تستطع نور سماع جواب المرأة والرجل يدفعها أمامه خارجين من الغرفة.. وتمنّت في سرّها أن يكون البقية بخير، وأن تنجح في الفرار دون أن تتسبب بسقوط البقية في قبضة رجال الأمن..

****

في الجانب البعيد من موقع السفينتين، تقدم عابد من إحدى الصخور الضخمة التي تخفيه عن الأعين، فربض قربها وهو يدير بصره في الموقع حوله بحذر بحثاً عمن يمكن أن يغافله.. ثم راقب السفينة لبعض الوقت ملاحظاً الهدوء في الموقع حولها رغم وجود سفينة مجلس الأمن قريبة.. ورغم خفوت نور القمر بشكل كبير، إلا أن أنوار سفينة مجلس الأمن كانت قوية وتمنحه رؤية واضحة للموقع.. لم يكن يعلم إن كانت نور في سفينة مجلس الأمن أم لا، لكنه يرجح ذلك.. بقلة خبرتها فإنه من السهل القبض عليها، ولو لم يحدث ذلك لوجدت طريقة للوصول إلى نوح والبقية كما حدث معه هو.. فكيف يمكنه التسلل وإنقاذها

وحده ولا يملك إلا سلاحاً وحيداً هو ذلك الصاعق الكهربي، وهو لا يفيده في مواجهة رجال مجلس الأمن مجتمعين..

انتبه في تلك اللحظات لخطوات خافتة تقترب منه، فاستدار على الفور مطوحاً سلاحه بقوة على أمل أن يصيب المتسلل قبل أن يهاجمه.. لكنه رأى المتسلل يقفز خلفاً بخفة وكأنه توقع ذلك منه.. تجمد عابد وهو يرى بوبو الذي وقف ينظر له بعينين متسعتين، فقال عابد بصوت خافت "أهو أنت؟.. ما الذي تفعله هنا؟"

اقترب بوبو وهو يطلق أصواتاً مختلطة بانفعال ويشير للسفينة بإلحاح شديد.. فأشار له عابد ليخفض صوته قائلاً "لا بأس.. هذا يؤكد لي أن نور في قبضة رجال مجلس الأمن.. فاخفض صوتك يا هذا ولا تجذب الأنظار إلينا.."

سمع في تلك اللحظة صوتاً مألوفاً جعله يستدير خلفه باهتمام.. ومن سفينة مجلس الأمن، استطاع رؤية تلك المركبة التي غادرتها حاملة على ظهرها أربع من رجال الأمن.. ولراحة عابد الشديدة، استطاع رؤية نور الشاحبة بينهم وأضواء السفينة تلقي نورها على وجهها للحظات قبل أن تغرق المركبة في ظلام الليل.. فأسرع عابد يختبئ وهو يشير لبوبو ليفعل المثل.. إنقاذ نور من المركبة أكثر سهولة من اقتحام السفينة وإخراجها منها.. عليه فقط أن يحسن استغلال عامل المفاجأة قبل أن يتمالك الرجال أنفسهم ويتغلبوا عليه وهم أكثر عدداً وعدّة منه..

لاحظ عابد أن ذعر بوبو قد تضاعف مع مرأى تلك المركبة بشكل أدهشه، لكنه همس "لا تصدر صوتاً يجذب لنا الانتباه يا رجل.."

اختبأ بوبو بين صخرتين، بينما تجاهله عابد وهو يقبض على السلاح في يده ويلتفت حوله، ثم سار متخفياً في الظلمة والصخور التي تخفيه عن الأعين حتى اقترب من الطريق المعبد الذي سلكته تلك المركبة متجهة نحوهم، فاختبأ خلف صخرة عالية في جانب ذلك الطريق.. وخلال لحظات، كانت المركبة تقترب من موقع عابد، وقبل أن تصل إليه وتتجاوزه، ركل عابد صخرة متوسطة الحجم بقوة كانت قربه، فانحدرت بسرعة وسقطت أمام المركبة متسببة في ارتباك القائد وإطارات المركبة تقفز فوق الصخرة وتميل جانباً مع

سرعتها الكبيرة.. حاول قائد المركبة استعادة سيطرته عليها، لكنه لم يفلح بذلك مع الموقع الضيق الذي كانوا يمرون عبره، ولم تلبث المركبة أن ارتطمت بصخرة كبيرة صمدت في وجهها ولم تتزحزح رغم عنف الاصطدام..

اعتدل أحد الجنود الأربعة وهو يصيح "ما الذي جرى؟.."

لكنه لم يسمع جواباً وهو يشعر بذبذبات كهربية قوية تسري في جسده ولم تتركه إلا فاقد الوعي.. استدار الثلاثة لرفيقهم بدهشة، بينما نظرت نور بدهشة لعابد الذي قفز فوق المركبة بعد أن سقط الرجل الأول، ودفع سلاحه في صدر قائد المركبة الذي حاول رفع سلاحه بسرعة ولم يتركه إلا بعد أن أفقده الوعي بدوره.. تمالك الرجلان الباقيان أنفسهما وهما يستلان أسلحتهما، لكن عابد طوّح قبضته في وجه أحدهما، بينما دفع سلاحه في صدر آخر..

لكن الرجل الآخر لم يمهله وهو يضربه بعقب سلاحه ويلقيه من فوق المركبة.. ثم وقف في كرسيه وصوب سلاحه نحو عابد الذي حاول النهوض بسرعة.. وقبل أن يفكر الرجل بإطلاق رصاصاته، قفزت نور وأبعدت فوهة السلاح بعيداً وهي تركل الرجل بقوة.. حاول الرجل إبعادها، بينما نهض الرجل الذي لم يفلح عابد في إفقاده وعيه وقال بعبوس وألم ظاهر "لا تقاوم يا هذا، وإلا لن أتردد في إطلاق النار على أي جزء من جسدك.."

وقف عابد في موقعه ينظر للموقف مقطباً، بينما لطم الرجل الآخر نور ليبعدها عن سلاحه.. زمجر عابد بغضب لرؤية نور التي سقطت جانباً، لكن الرجل جذبها من ملابسها ووضع فوهة سلاحه على رأسها قائلاً لعابد "ارمِ ما بيدك واستسلم يا هذا.."

تردد عابد للحظة محاولاً تقدير موقفه، وقبل أن يتخذ القرار الصحيح فوجئ الجميع بشخص يقفز وسط المركبة ونحو الرجل الذي يمسك بنور، اتسعت عينا نور وهي ترى بوبو الذي قفز على الرجل وتشبث بكتفيه باستخدام ساقيه القصيرتين وهو يحيط عنقه بذراعه بقوة.. اختل توازن الرجل وهو يناضل للخلاص من بوبو، بينما زاد بوبو ضغطه على عنق الرجل الذي شعر باختناق شديد زاغت له عيناه.. ولما تخلى الرجل عن نور، لم تتردد وهي تقفز نحو الآخر الذي يصوب سلاحه نحو عابد وترتطم به ليسقطا من

فوق المركبة.. دفع الرجل نور عنه ولكمها بقوة على وجهها، لكن عابد استغل الفرصة وهو يدفع سلاحه في صدر الرجل ليفقده ما بقي من وعيه.. ثم تخلص من الآخر الذي يناضل للخلاص من بوبو بلكمة قوية أفقدته الوعي على الفور.. قفز بوبو من على الرجل الذي تهاوى أرضاً، بينما استدار عابد لاهثاً ليجد نور الملقاة أرضاً فاقدة الوعي في جانب المكان.. فزفر بشدة وهو يحاول تمالك تعبه وجسده المتهاوي بعد هذا المجهود، ثم تقدم من نور بعسر وربت على خدها قليلاً قائلاً "نور.. استيقظي، يجب أن نغادر.."

لكنها لم تستفق رغم محاولاته، فزفر قائلاً "يا لها من معضلة.."

ركع بوبو قرب نور يتأملها وهو يزوم بألم، فقال عابد "لا تقلق.. هي بخير.."

نظر له بوبو بحيرة، ثم عاد يهزّ نور محاولاً إيقاظها.. أما عابد فقد كان همّه الرحيل من هذا الموقع بأسرع ما يستطيع.. فحاول استخدام مركبة رجال الأمن، لكنها بعد اصطدامها بالصخرة قد أطفئت ورفضت العمل من جديد.. فعاد عابد لنور وحملها برفق فوق كتفه، ثم نهض بتعب وسار مبتعداً عن الموقع بأسرع ما يستطيع، وبوبو يركض خلفه متلفتاً بقلق واضح.. بعد سير بسيط، استعادت نور وعيها فجأة لتجد نفسها على كتف عابد الذي حملها عائداً للموقع الذي يخبئ فيه مركبته، ورأت بوبو يتبعه وقد ابتسم عندما رآها تنظر له.. انتبهت نور أن عابد، رغم ضآلتها، كان يلهث بشدة وهو يعرج في سيره متلفتاً حوله بين وقت وآخر، فأدركت أن إنهاكه راجع للدماء التي فقدها في اليوم السابق، والتي لا يستطيع تعويضها في الظروف التي هم فيها.. فقالت بقلق "عابد.. أنزلني.. أنا بخير الآن.."

توقف عابد وأنزلها أرضاً برفق.. وفور أن وقفت على قدميها، تلفتت حولها باهتمام، ثم عادت راكضة للموقع الذي غادراه منذ لحظات.. فهتف عابد "لا تعودي لذلك الموقع يا نور.. قد يستيقظ رجال الأمن في أي لحظة.."

لكنها لم تستجب له وهي تتسلل للموقع بحذر شديد وتراقب الأجساد التي لم تنهض من الأرض بعد، ثم اندفعت نحو المركبة التي اصطدمت بالصخرة وظلت في موقعها، وبحثت فيها بلهفة حتى تمكنت من العثور على حقيبة الإسعافات الأولية التي أحضرتها معها.. عندها حملتها وهي تقلبها بين يديها متفحصة بقلق خشية أن يكون الاصطدام قد أفسد محتوياتها، لكنها بدت سليمة مع الحشوة السميكة التي تغلف

جوانبها لحمايتها..

سمعت نور في تلك اللحظة صوت تأوه متألم من أحد الرجال القريبين، فقفزت واقفة على قدميها وهي تتلفت حولها بقلق، ثم ابتعدت راكضة بسرعة قبل أن ينتبه لها أحد الرجال ويحاول القبض عليها من جديد.. ولما عادت لموقع عابد، وجدته يستند على إحدى الصخور بإنهاك شديد، فقالت بتوتر "أنت متعب بشدة.. لكن في الآن ذاته لا يمكننا الوقوف هنا للراحة.. رجال الأمن بدؤوا يستيقظون، وسيبحثون عنا فور استيقاظهم.."

لاحظ عابد حقيبة الإسعافات الأولية التي تحملها نور، لكنه لم يعلق وهو يشير لأحد المواقع قائلاً بتعب "المركبة التي جئت بها مخفية خلف تلك الصخور.."

أشارت نور لبوبو القريب ليعاونها، ثم حاولت إسناد عابد من جهة بينما فعل بوبو المثل من الجهة الأخرى.. لكن عابد دفعها بعيداً عنه وهو يقول "لا يمكنك فعل شيء بضآلتك هذه.. اسبقينا إلى المركبة.. قد نضطر للهرب بها بسرعة لو لحق بنا رجال الأمن.."

لم تعارض نور وهي تنظر له ولبوبو بقلق، ثم استدارت مغادرة نحو الموقع الذي أشار له عابد.. وبعد مسافة قصيرة استطاعت أن ترى المركبة المخفيّة في جانب منخفض بين الصخور.. فصعدت عليها وهي تتطلع للوحة التحكم بها.. بدا عبث عابد بلوحة التحكم واضحاً في محاولة لتجاوز شفرتها الإلكترونية، فظهرت الأسلاك التي انتزعها من أسفل لوحة التحكم بكل وضوح.. لم تعلق نور وهي تبدأ تشغيل المركبة بخبرتها الضئيلة في الموضوع.. لكن لم تكن تملك ترف القلق لذلك وهي ترى عابد يقترب بتعب واضح مستنداً إلى بوبو.. ولما وصل للمركبة وجدته يلقي بجسده على الكرسي المجاور للسائق، بينما وقف بوبو على شيء من المبعدة ينظر للمركبة بقلق.. فقال عابد "لنرحل من هنا بسرعة.. يمكن لهذا الرجل أن يتدبر أموره جيداً بدوننا"

قالت نور بقلق "لكن قد يقبض عليه رجال الأمن.. ومما سمعته من قائدهم فإنهم لا يعبؤون بسكان الأرض قيد شعرة، وقد قتلوا العديد منهم في السابق.."

لم يعلق عابد وهو يزفر بتعب، بينما ظلت نور تشير لبوبو بإلحاح ليصعد المركبة بدوره.. ورغم تردد بوبو

الشديد من صوت المركبة، إلا أنه مع بعض الإلحاح استسلم وهو يصعد بتوجس كبير للكرسي الخلفي.. ولما بدأت نور سيرها بالمركبة، قفز بوبو واقفاً في موقعه بعينين متسعتين ذعراً.. لكن نور حاولت جهدها لتبديد فزعه رغم عدم فهمه لأي كلمة مما تقول.. وبعد بعض الجهد، جلس بوبو في موقعه قابضاً على جانبي المركبة بيديه بشدة وكأنه يخشى السقوط.. عندها زادت نور سرعة المركبة وهي توجهها في الجهة التي أشار لها عابد.. ثم سمعت عابد يعلق قائلاً "أنتِ تبذلين الكثير من الجهد مع هذا الرجل.. ما الذي يهمك من أمره؟"

قالت نور بابتسامة جانبية "لقد حاول مساعدتي عندما قبض عليّ رجال الأمن رغم خوفه منهم.. كما أنه أنقذ حياتينا سابقاً، أنسيت؟"

غمغم عابد "وهل أستطيع نسيانه وأنتِ تذكرينني به في كل لحظة؟"

تلفتت نور حولهم بحثاً عن أثر من رجال الأمن، ولما اطمأنت أنهم لا يطاردونهم عادت ببصرها للأمام متسائلة "هل سنكون بمأمن من مجلس الأمن في المخبأ الذي لجأ إليه نوح؟"

أجاب عابد وهو يمسح وجهه بكم قميصه "أفترض ذلك.. وإن كان الحال لن يبقى هكذا طويلاً.. علينا البحث عن مخبأ أكثر أمناً حتى نتخلص من مجلس الأمن نهائياً، ويعلم الله كيف سنتمكن من ذلك.."

ظلت نور تراقبه بإشفاق للحظات، ثم قالت "شكراً لأنك عدت إليّ.. لن أنسى لك ذلك بتاتاً.."

قال عابد بابتسامة جانبية " في الواقع، أنا مدينٌ لكِ بالفعل.. لقد خاطرتِ بنفسك بالعودة للسفينة لإحضار حقيبة الإسعافات الأولية، وأشعر أن ذلك أكبر مما قد يستحقه شخص مثلي.."

نظرت له نور مقطبة وقالت "لِمَ تقول ذلك؟.. كيف يمكنك الظن أنك لا تستحق أي معاونة من الآخرين؟"

ثم أضافت مدمدمة "لا تستهِن بنفسك بهذه الطريقة.."

ابتسم عابد معلقاً "حاضر يا آنستي الصغيرة.. لن أفعل ذلك مرة أخرى.."

فغمغمت وقد ساورها شعور بالذنب لرؤية شحوب وجهه "لكن ما الذي دفعك لذلك؟.. أنت مصاب، وفقدت الكثير من دمائك.. ماذا لو قتلك أولئك الرجال أثناء تلك المحاولة؟"

علق عابد "أكنت تريدين مني تركك معهم؟.. ولو ظننتِ لوهلة أن طارق أو أي شخص من البقية سيسعى لإنقاذك فأنت واهمة"

غمغمت نور "أجل.. لا أظنهم سيقومون بعمل كهذا.."

أضاف عابد "خاصة بعد أن أدرك الجميع أنك خدعتهم بتنكرك.."

رفعت نور حاجبيها وهتفت "هل أخبرتهم بهويتي؟"

هز عابد رأسه إيجاباً، فقالت نور بحنق "لمَ فعلت ذلك؟.. لقد وعدتني أن تحتفظ بذلك سراً.."

فقال عابد "فات الأوان على هذا التأنيب.. ولم يعد ذلك مهماً حقاً.."

زفرت نور بحنق قائلة "تباً لك.. لقد ائتمنتك سرّي.."

اتسعت ابتسامة عابد معلقاً "بل اكتشفته بنفسي.."

عادت نور تزفر وهي تقود المركبة بشيء من الحذر نحو القرية التي يختبئ فيها نوح والبقية.. بعد الآن، ما الذي يمكنهم فعله؟.. منذ وصولهم للأرض لم يتسنّ لها البحث عن شقيقها، فكيف ستفعل ذلك ومجلس الأمن على أعقابهم بصورة دائمة؟..

****

ظل نوح متوتراً في المنزل الذي لجؤوا إليه وهو يدور فيه بشكل مستمر.. وبدت ميساء متوترة بدورها وهي تقول لأحمد "ربما كان من الأفضل معاونتك لعابد في إنقاذ الفتاة.. إنه مصاب وربما لا يتمكن من تحقيق شيء مع إصابته تلك.."

قال أحمد بضيق "لا شأن لي بالأمر.. لقد أكدت له أن الفتاة ستكون بخير، فهم ليسوا مجموعة لصوص ليخشى عليها منهم.."

قالت ميساء بضيق "لماذا عليك أن تكون بهذا البرود؟.. ألا تشفق عليهم لما جرى لهم؟.. ألا تخشى عدم عودتهم إلينا بتاتاً؟"

أجاب أحمد بحزم "ولِمَ عليّ أن أقلق لأمر غرباء لا صلة تجمعني بهم؟"

قالت ميساء محتدة "حتى لو كان الأمر كذلك، ألا تحمل ذرة إشفاق عليهم بعد أن قضينا ما يتجاوز الشهر معهم؟.. أليسوا بشراً بنظرك؟"

قال أحمد مديراً وجهه بعيداً "يمكنك القول إنني أجبرت على قضاء ذلك الشهر معهم رغم إرادتي.."

فقالت ميساء بضيق "حتى متى ستظل هكذا؟.. أتظن هذا يجعل الآخرين يتعاطفون معك ومع قضيتك أكثر؟"

قال أحمد باستنكار "ما الذي تقولينه يا ميساء.. هل أصبحت سيئاً الآن؟.."

قالت ميساء بحدة "لا، لكنك ترفض الخروج من قوقعتك وتستمتع بمظهر الضحية الذي يرفض كل ما جرى له.. استفق وانظر حولك جيداً.. نحن في هذا معاً، ويجب أن نساعد بعضنا البعض حتى نغادر هذا الكوكب.."

قاطعهما نوح الذي قال بخفوت "يسوؤني مقاطعة حواراتكما العائلية، لكني أسمع صوتاً يقترب.."

صمتا كلاهما وهما ينصتان بحذر، فانتبها لصوت خطوات تقترب من مدخل المنزل بسرعة وخفة.. توتر أحمد وميساء بشدة ونوح يهمس "من القادم إلينا الآن؟"

فوجئ برؤية جسم غير متناسق يظهر أمامه قرب المدخل، وزاده الطلام الذي لم يكشف ملامحه وحشة.. فرفع نوح عصا معدنية عثر عليها سابقاً واستخدمها كسلاح مرتجل وهو يطوحها نحو الجسم الغريب صائحاً "من هذا؟.. ابتعد.."

تراجع الجسد الغريب بخفة للخلف، بينما تعالى صوت نور وهي تهتف "لا تخف يا نوح.. إنه معنا.. هو مسالم لن يؤذي أحداً.."

نظر نوح إليها بدهشة، فرآها تحمل حقيبة إسعافات أولية وهي تتقدم من المدخل، بينما بدا عابد خلفها والإنهاك واضح على وجهه.. فهبّ نوح نحو نور وقال بقلق "أأنت بخير يا فتاة؟.. كيف يمكنك أن تخاطري بنفسك في مثل هذه الأوقات؟"

فوجئت نور بالقلق الواضح في ملامح نوح، وهي التي كانت تتوقع غضبه بسبب خدعتها تلك، مهما كان

مبررها.. لكن قلقه كان صادقاً وهو يسألها "هل استجوبوك؟.. هل استعملوا العنف معك؟"

ابتسمت نور بتوتر قائلة " استجوبوني بالفعل، لكنهم لم يعاملوني بعنف لأ ني عرضت أن أدلهم على موقعكم، رغم أني لا أعرفه حقيقة.. ظننت أنني سأقدر على الهرب منهم بخدعة ما عندما نغادر السفينة.."

وأضافت متطلعة لعابد "لحسن حظي كان عابد في موقع قريب، وعاونني على الهرب من قبضتهم.."

جلس عابد جانباً وهو يزفر بشدة، فاقتربت منه نور وناولته حقيبة الإ سعافات الأولية قائلة "عليك الاهتمام بجرحك قبل أن يزداد حاله سوءاً.."

سمعت نوح يقول عاقداً حاجبيه "منذ الآن لا تتفرقي عن البقية مهما حدث.. لا نعلم كم سيطول الوضع مع مجلس الأمن، لكن بقاؤنا معاً خير من الفرقة التي لا لزوم لها.."

تلفتت نور حولها قبل أن تتساءل "ماذا عن طارق؟.. أليس موجوداً معكم؟"

نظر نوح لعابد بدهشة، ثم تساءل بدوره "ألم يكن في قبضة مجلس الأمن بدوره؟"

هزت نور رأسها نفياً قائلة "أنا متأكدة أنني كنت الوحيدة في قبضتهم هذا اليوم... لكن....."

صمتت وهي تفكر للحظة بينما قال نوح بدهشة "إذن أين اختفى؟.. أيمكن أن يكونوا قد..... قتلوه؟"

أسرعت نور تقول "لا.. لقد سمعت القائد يقول إنهم قبضوا على شخص ما ولكنه هرب منهم.. ربما عنى طارق بهذا الحديث.. كما أنني سمعت صوت طلقات رصاص قبل اقترابي من السفينة، وكأنهم كانوا يطاردون شخصاً ما.."

لم يعلق أحدهم بكلمة ونوح يغمغم بضيق "أين اختفى هذا الشاب الآن؟.."

عاونت نور عابد على نزع الضمادات عن جرحه، وكما توقعت، كان الجرح قد عاد ينزف بشكل محدود وهو الذي لم يتلقَ العناية التي يتطلبها ليبرأ بشكل صحيح.. فقالت وهي تفتح حقيبة الإ سعافات الأولية "لحسن الحظ وافقوا على إعطائي هذه الحقيبة قبل هربي.."

أشاحت ميساء بوجهها للمنظر البشع، بينما سأل أحمد بشيء من الدهشة "ما الذي سبب لك هذا الجرح؟"

أجابت نور عوضاً عنه "نمر غريب الشكل هاجمنا بعد مغادرتنا السفينة بوقت قصير.. ولهذا السبب تأخرنا في العودة وفقدنا المركبة التي جئنا بها.. وبسبب ذلك قابلنا بوبو.."

أبدى بوبو ابتسامة حائرة لدى سماعه الاسم الذي تردده نور أمامه بشكل دائم، بينما وجدت نور في حقيبة الإسعافات الأولية جهازاً يحتل مساحة الحقيبة كلها، بالإضافة لبعض الضمادات والأدوية الأساسية مثبتة في الجانب العلوي منها.. وبلمسة لشاشة جانبية في ذلك الجهاز، بدأ عمله بهسيس خفيف ووجدته نور يستخرج عدة مجسات من جانبه.. فجذبت نور أحدها نحو ظهر عابد حيث الجرح الذي يحتلّ جانباً كبيراً منه، وعلى الفور، بدأ الجهاز عمله وهو يفحص الجرح بمجساته ويعرض إحصاءاته على الشاشة الجانبية..

تساءلت ميساء وهي تراقب عمل الجهاز "أهذا الجهاز يكفي لعلاج ذلك الجرح؟"

قالت نور "ألم تري واحداً مثله من قبل؟.. سيقوم هذا الجهاز بفحص الجرح وتقدير الخطوات اللازمة لعلاجه.. وهو يحتوي في قلبه على كل المواد اللازمة لذلك.. سيقوم بتعقيم الجرح وخياطته وتطهير الجلد المحيط به، وقد يحقن جسده بمضاد للالتهاب لو استلزم الأمر.."

لم تعلق ميساء وهي تراقب عمل الجهاز بدهشة، بينما تساءل نوح وهو يجلس جانباً "من هو هذا الشخص الغريب؟.. وكيف عثرتما عليه؟"

أخبرته نور بكل ما جرى لهما منذ سقوطهما في ذلك الشلال وحتى عودتهما لهذا المخبأ.. وفي تلك الأثناء كان عابد يعبس بألم والجهاز يبدأ بخياطة الجرح بإتقان بعد أن قام بتخدير الموضع بشكل محدود.. ورغم ذلك، شعر عابد بالألم الشديد الذي يمكنه احتماله بعسر.. ولما أنهى الجهاز عمله، كان الجرح مضمداً ومعقماً بأفضل ما يمكن.. عندها قالت نور "ستكون بخير مع بعض الراحة يا عابد.. فلا تنهك نفسك كثيراً بعد الآن.."

لم يعلق عابد وهو يرتدي قميصه الذي كان ممزقاً في موضع الإصابة وملطخاً بدمائه، لكن من أين له البديل وهم قد أرغموا على التخلي عن سفينة نوح وما تحتويه؟.. ثم قال أحمد "ماذا عن وضعنا نحن أيضاً؟ مع هرب الفتاة، سينشط رجال الأمن في البحث عنا أكثر من السابق.. وكما عثر عابد علينا، سيعثرون علينا هم أيضاً خلال وقت قصير.."

تساءل عابد "لو كنتم تريدون تغيير المخبأ، أقترح أن يتم هذا قبل طلوع الشمس.. كما أن خروجنا جميعاً فيه مخاطرة كبيرة.. علينا إرسال من يتقصىّ أفضل موقع للاختباء فيه، وبعدها يستدعي البقية.."

قال نوح باعتراض "لا مزيد من التفرق.. لا نملك وسيلة للتواصل، ولو سقط أحدنا في مشكلة فلن يجد من يعينه على تجاوزها بأي شكل من الأشكال.."

علق عابد بضيق قائلاً "ماذا تقترح؟.. أن نخرج كقطيع جاهز للصيد؟.. لن يتوانى رجال الأمن عن استغلال مثل هذه الفرصة.."

نظرت نور لمن حولها، ثم قالت "لكني أعرف أين يمكننا الاختباء في الوقت الحالي.."

نظر لها نوح باهتمام متسائلاً "وأين يمكن أن يكون هذا الموقع؟"

أجابت "في سفينة الفرقة العلمية التي جاءت للأرض قبل خمس سنين.."

غمغم نوح "يبدو الأمر معقولاً.."

قال عابد ملوحاً بيده "هذا الموقع من أوائل المواقع التي سيفتشها مجلس الأمن بحثاً عنا.. علينا التفكير في موقع آخر.."

قالت نور "لكن يمكننا التحصن في السفينة في الوقت الحالي.. فهي تقع في موقع ضيّق بين منحدرات صخرية، لذلك سيكون صعباً على مجلس الأمن مهاجمتها بأسلحة سفينتهم.. ويمكننا محاولة الرحيل بالسفينة لو كانت ما تزال تعمل.."

قال نوح بلهفة "أظن هذا أنسب من البقاء في هذه القرية الخربة وانتظار قبضة مجلس الأمن.."

تساءل أحمد "ألن يعترضنا مجلس الأمن أثناء انتقالنا إلى السفينة؟.."

لم يجبه أحد والقلق يعتريهم جميعاً لذلك الخاطر، ثم تساءل نوح بقلق "ماذا عن طارق؟.. كيف سنستدلّ على موقعه؟.. لو عثرنا عليه، يمكننا أن نغادر هذا الكوكب كله بسفينة العلماء.."

قال عابد بضجر "ولِمَ لا نفعل ذلك الآن؟.. من العبث انتظار ذلك المتأنق.."

قال نوح بضيق "حقاً؟.. يمكنك فعل ذلك بضمير مستريح؟"

علقت نور وهي تنقل بصرها بينهما "عابد يمزح بالتأكيد.. لا يمكننا تركه هنا وحيداً، ولسنا واثقين أن رجال مجلس الأمن سيهتمون بأخذه معهم عائدين للعالم الجديد.."

ثم التفتت إلى عابد قائلة "أتظن أنك بحالٍ تسمح لك بالعودة للسفينة؟.. ربما من الأفضل لنا انتظار بعض

الوقت حتى تأخذ قسطاً من الراحة.."

قال عابد بحزم وهو يقف "لا.. لا نريد المخاطرة بالخروج بعد أن تشرق الشمس.. فلنرحل حالاً ولنترك الراحة عندما نكون بمأمن من قبضة مجلس الأمن.."

لم يعترض أحد بكلمة بينما شددت نور قائلة "لكن لو شعرت بأي تعب أو إنهاك أخبرنا.. لا تلتزم الصمت وتتعب جسدك أكثر من السابق.."

لم يعلق عابد برفض أو إيجاب وهو يتقدمهم خارجاً من المنزل، فتبعه البقية بسرعة وتوزعوا على المركبتين.. رغم الظلام الذي يشكل لهم غطاءً مثالياً، إلا أن قلقهم جعلهم يرون رجال الأمن خلف كل صخرة وفي جوف كل شجرة يمرون بها.. ولم يكن الأمر مريحاً على الإطلاق..

****

عندما وصلت المجموعة إلى المساحة الضيقة التي تحدّها المنحدرات من أغلب الجهات، رأوا سفينة الفضاء التي وقفت بصمت وسكون وسط الموقع كما تركها عابد ونور وضوء القمر الخافت يلقي عليها وعلى الموقع كله وحشة تثير التوجس في النفوس.. تلفت نوح باهتمام متسائلاً "أهذا هو المعسكر الذي أقامته الفرقة العلمية عند وصولها للأرض؟.."

أجاب عابد "يبدو كذلك.."

فغمغم نوح "لماذا تخلوا عن معسكرهم وعن سفينة رائعة كهذه؟..!"

توقفت المركبتان قريباً من السفينة، فهبط ركابها متوجهين إليها ملاحظين الصمت التام الذي يسود المكان.. وصلوا لبوابة السفينة، ففتحها عابد كما فعل سابقاً ودلف عبرها يتبعه البقية بصمت.. بينما نظرت نور لبوبو فوجدته كالعادة قد امتنع عن دخول السفينة وبقي قرب البوابة.. فقالت وهي تشير للداخل "ألن تتجاوز خوفك هذا؟.."

لم يتحرك بوبو وهو يصدر مجموعة من الأصوات، فعلقت نور قائلة "لا ألومك على هذا.. لكن هل ستبقى

هنا؟.. ألن تحصل على بعض الراحة أو الطعام؟.. أنت ترافقنا منذ الصباح.."

ظل بوبو ينظر لها بصمت، فعادت نور تكرر قولها بالكثير من الإشارات محاولة دفعه للرحيل والعودة لمنزله.. فرأت حاجباه يرتفعان بفهم، قبل أن يغادر راكضاً بصمت.. عندها غمغمت نور "الرحيل خير لك بالتأكيد.. فلن تجني من مرافقتنا إلا المتاعب.."

لحقت بالبقية عبر ممرات السفينة حتى وجدتهم يتجهون نحو غرفة القيادة مباشرة، بينما أدار نوح بصره فيما حوله وهو يقول بلهفة "هذه السفينة أكثر تطوراً من سفينتي.. كيف يتخلّون عنها على الأرض بسهولة؟"

أشار له عابد ليخفض صوته قائلاً بخفوت "اخفض صوتك.. لا نعلم من قد ينتظرنا في الداخل.."

ظلت نور تتبعه بقلق واضح ونوح خلفها حاملاً العصا المعدنية بيده بتحفز.. بينما خبأ أحمد ميساء خلفه وهو يهمس "كيف نقتحم الموقع ونحن لا نعلم إن كان رجال الأمن قد كمنوا فيه استعداداً لقدومنا؟"

لم يعلق عابد وهو يتفحص بعض الغرف القريبة، ثم سار نحو غرفة القيادة القريبة ذات الأبواب المغلقة قائلاً بهمس "أنا متأكد أنني تركت باب غرفة القيادة مفتوحاً.."

قالت نور بقلق "هذا يعني أن شخصاً ما قد وصل للسفينة قبلنا.."

غمغم أحمد بعصبية "كنت أدري أن هذه خطة فاشلة.."

همس عابد بحنق "هلا كففت عن التذمر؟"

واقترب من باب غرفة القيادة فحاول أن يستمع لأي صوت بداخلها، لكن أبوابها المعدنية كانت مصمتة وكاتمة للصوت.. فقبض عابد على السلاح الصاعق الذي يملكه، وهو الوحيد الذي يملكه هذا الفريق، ثم فتح الباب واندفع إلى الغرفة متلفتاً حوله بحثاً عن أي شخص فيها.. لكنه فوجئ بفوهة سلاح تلتصق بمؤخرة رأسه وصوتاً يقول "قف مكانك.."

طوّح عابد ذراعه على الفور بسلاحه وهو يستدير نحو مهاجمه، لكنه توقف على بعد سنتيمترات قليلة من جسد مهاجمه وهو يحدق في وجهه قبل أن يهتف "طارق؟"

أبعد طارق السلاح وهو ينتبه لهوية عابد قبل أن يلتفت خلفه ليجد نوح والبقية يتقدمون بدورهم في الغرفة.. فبدا الارتياح على وجه طارق وهو يغمغم "أأنتم بخير؟"

هتف عابد "ماذا عنك أنت؟.. أين اختفيت منذ يومين دون أثر؟.. وما كل هذه الكدمات على وجهك؟.. لقد شككنا أن مجلس الأمن قد قبض عليك، لولا أن نور قد نَفَت ذلك بعد أن أفلتت منهم.."

تساءل طارق بدهشة "هل قبضوا على نور؟.."

ثم التفت إلى عابد وقد انتبه لأمر ما "مهلاً.. لم تتحدث عنه بصيغة فتاة؟"

أجاب نوح وهو يتقدم منهما "لأن نور فتاة بالفعل.. لقد أخفيا الأمر عنا منذ البدء.."

التفت طارق بدهشة إلى نور التي خفضت بصرها بصمت.. وللوهلة الأولى انتبه لملامحها التي لا تمت للصبية بصلة.. لكنه لم يتعجب لذلك، فهو لم ينظر في وجهها لأكثر من ثوانٍ في كل مرة منذ عرفها.. فلم تكن هي، ولا كل من حوله، محط اهتمامه في هذه الرحلة.. سمع عابد يقول له "ما الذي جاء بك إلى هذه السفينة؟.. أكنت مختبئاً فيها منذ البدء؟"

التفت إليه طارق مجيباً "لا.. بل جئت قبل وقت قصير.. ما الذي جاء بكم أنتم إلى هنا بالذات؟.."

سمعوا صوتاً من جانب القاعة يقول "ألم أقل لك أنهم سيأتون لهذا المكان طال الوقت أم قصر؟.. كان عليك أن تثق بقولي.."

استدار الجميع بدهشة وشيء من الصدمة لمصدر الصوت، بعد أن كانوا واثقين من خلو الغرفة من أي شخص غير طارق.. ومعهم استدارت ميساء ورجفة خفيفة تعتريها بعد أن تعرفت الصوت وهي تنظر لذلك الشخص الذي جلس على كرسي جانبي بابتسامة واضحة.. ساد الصمت المكان والأعين متسعة وهي تحدق بالفتاة التي قابلتهم بابتسامة هادئة..

رغم كل المفاجآت، كانت هذه هي المفاجأة الأكثر صدمة لهم منذ هبوط السفينة على الأرض..

وكان هذا هو المنظر الذي لم يحلم أي شخص برؤيته بتاتاً في أشد أفكارهم جموحاً..

رأوا رُبى تبتسم وهي تعلق "ما بكم؟.. وكأنكم رأيتم شيطاناً.."

ولم يعلق فرد بكلمة على هذا..

****

الفصل الثاني عشر

تجمد الهواء بشكل فعلي في غرفة القيادة والفريق كله يحدق برُبى الصامتة بالشحوب الواضح في ملامحها.. بدت في تلك اللحظة كشبح غادر جسد صاحبته ليستمتع بإثارة رعبهم ورؤية ذهولهم.. شعروا وكأن صفعة قد ارتطمت بوجوههم وجمدت ألسنتهم وهم لا يجدون الكلمات لوصف الذهول الذي اعتراهم.. حتى قطع طارق الصمت وهو يجلس جانباً بدوره قائلاً "لا داعي لكل هذه الصدمة يا رفاق.."

التفت إليه عابد بانفعال وهو يصيح "ما معنى هذا؟"

ابتسم طارق مجيباً "ما تراه بالفعل.."

همست نور بصدمة "إنها حية؟.. كانت حية طوال الوقت؟"

قال عابد بذهول مماثل "كيف عادت الفتاة إلى الحياة؟.. ألم نكن سندفن جثمانها عند وصولنا للأرض؟"

قال طارق بهدوء "إنها لم تكن ميتة منذ البداية.."

تقدمت ميساء بسرعة من رُبى ودموع الذهول تسيل على خديها، فاحتضنتها بشدة وهي تبكي قائلة "أأنت حية حقاً؟"

ربتت رُبى على كتفيها مجيبة "طبعاً يا عزيزتي.. هل يسعدك هذا حقاً؟"

لاحظت أن أحمد تجاوز صدمته وهو يشيح بوجهه بضيق ظاهر.. لكنها لم تعلق بينما قال عابد وهو يتقدم نحو طارق " هل تملك تفسيراً لكل ما جرى؟.. كيف ادعيت أنها ميتة بينما كانت الفتاة حيّة طوال الوقت؟.. ولو كانت حيّة، ما كان الداعي لمثل هذه الرحلة التي قمنا بها؟"

أجاب طارق "ستعرف كل شيء في وقته.."

صاح عابد "في وقته؟.. أهذا كل ما تستطيع قوله بعد استغفالنا طوال تلك الأيام؟.. كيف تجرؤ؟!.."

فقال طارق بصرامة "اهدأ ولا داعي للصياح.."

قال عابد بحنق "نحن نطالب بتفسير مقنع لهذا.. لماذا استغفلتمانا طوال هذا الوقت؟.. الآن فهمت لماذا

يلاحقكم مجلس الأمن بهذا الإصرار.. لابد أنهم علموا بخدعتكم الرخيصة هذه.."

عندها زفرت رُبى للحظة قبل أن تقول "لا دخل لطارق بالأمر.. هو ينفذ أوامري بدقة.. أنا من طلب منه أن يفعل ما فعل.."

علق عابد بسخرية قائلاً "كما طلبتِ مني اختطاف هذين الاثنين، وطلبت من نور الانضمام لهذه الرحلة رغم خطورتها.. لمَ لست مندهشاً كثيراً لطلبك من طارق الكذب علينا جميعاً؟"

نظرت له بحزم وقالت "كان بإمكانك رفض طلبي لو لم يعجبك.. ما الداعي للتذمر الآن؟"

زمجر عابد قائلاً "لأنني أنتظر تفسيراً مقنعاً لكل هذا، ولأنك عرضت حياة الجميع للخطر، ولازلنا نعرض أنفسنا للخطر بوجودنا هنا.. فأي تفسير تملكينه لكل ذلك؟ لاحظي أن مجرد الاعتذار لن يكون مقبولاً منك.."

غمغمت رُبى وهي تقف "ومن قال إنني أنوي الاعتذار؟"

ونظرت للمجموعة التي تبادلها النظرات بتساؤل وأحمد يقول بشيء من العصبية " ألن تخبرينا بالسبب الذي جررتنا لأجله للجانب البعيد من المجرة؟؟.. لا يحق لك التصرف بهذه الطريقة، لسنا خدماً لديك لو ظننتِ ذلك لوهلة.."

نظرت له رُبى بصمت وملامح مبهمة، ثم التفتت إلى نور متسائلة "أنت نور، أليس كذلك؟.. ألم يكن الهدف الأساسي من قدومك في هذه الرحلة هو البحث عن شقيقك؟.."

نظر الجميع، بخلاف عابد، إلى نور بدهشة.. ثم أجابت نور بعد لحظة صمت "بلى.. لكن لم يتحقق لي ذلك بعد.."

نظرت رُبى للبقية قائلة "ربما تجدون أن اجتماعكم أنتم الستة، وأنا سابعتكم، عجيباً ولا سبب له.. لكن هناك سبب مقنع ارتأيت أن أتخذ قراراً بشأنه نيابة عنكم.."

قال أحمد بحنق "كيف تسمحين لنفسك بذلك؟.. لطالما صنعت لنفسك هالة ووضعت نفسك في موضع يتفوق على بقية البشر....."

قاطعه طارق بشيء من الحدة قائلاً "تحدث باحترام يا هذا.. لا داعي لهذا التطاول بالحديث.."

صاح أحمد بعصبية "ما الذي يجبرني على ذلك؟.. هي ولية نعمتك أنت، ولا شيء يجبرني على التلطف بالحديث معها.."

قالت رُبى بحزم "ألن تستمع لما عندي قبل إطلاق أحكامك تلك؟.."

نظر لها أحمد عابساً وعابد يقول "اصمت يا رجل لنستمع لما تقوله.."

نظرت له رُبى قائلة "أتذكر شقيقتك التي اختفت قبل سبعة عشر عاماً يا عابد؟"

التفت إليها عابد بدهشة لمعرفة ذلك، ثم غمغم بسخرية "لقد أمضيت السبعة عشر عاماً الماضية أحاول نسيانها.. فكيف عرفتِ بأمرها؟"

لم تجب سؤاله وهي تلتفت لنوح قائلة "ألم يكن لك ابن أخ توليتَ رعايته بعد وفاة والديه يا نوح؟.."

رفع نوح حاجبيه في إجابة صريحة، قبل أن يهتف "أتعرفين أين هو؟.. لقد اختفى منذ عدة سنوات وبحثت عنه في كل المستوطنات بلا فائدة.."

فقالت رُبى بحزم "كل شخص هنا يبحث عن قريب له اختفى منذ مدة.."

علق عابد بضجر "لا تضعيني في ذات الموضع مع البقية.."

لم تعلق رُبى وهي تنظر لميساء القريبة ولأحمد الذي وقف جانباً بضيق ظاهر قائلة "رغم مرور السنوات على افتراقنا، لكنني لم أنسَ أبي الذي غاب دون أثر.. ظللت أبحث عنه بكل ما أملك، حتى عثرت عليه أخيراً.."

صمت أحمد بدهشة بينما هتفت ميساء بانفعال "هل عرفت موقع أبي حقاً يا رُبى؟.."

أضاف أحمد بشيء من الجفاء "ألهذا علاقة باختطافك لنا رغماً عنا؟"

ابتسمت رُبى شيئاً ما وهي تجيب "إحضارك لزيارة أبيك الغائب منذ خمس سنوات ليس اختطافاً يا شقيقي العزيز.."

بدت الدهشة عارمة على وجوه الجميع وهي تضيف "أجل.. أبي هو رئيس الفرقة العلمية التي اختفت في الأرض منذ خمس سنوات وعجز العالم، أو تهاون، في استرجاعها.."

ونظرت للبقية مضيفة "والفرقة تضمّ شقيق نور، وأخت عابد، وابن أخ نوح أيضاً، بالإضافة لأعضاء

آخرين.. لقد حرصت على إحضاركم أنتم معي في هذه الرحلة، لأنكم ستكونون أكثر حماساً للبحث عن تلك الفرقة من غيركم.. لم أرغب بإحضار أشخاص لا علاقة لهم بالأمر وقد يتخلّون عن تلك المهمة عند أقرب خطر.. كما أن خطراً كبيراً يواجه الأرض ومن عليها، لذلك....."

صاح عابد بغيظ مقاطعاً إياها "أخبرتك أنني لست كالآخرين.. لو علمتُ أن الهدف من هذه الرحلة هو البحث عن تلك الحمقاء لتخلّيت عن هذه الرحلة، وذلك الأجر، عن طيب خاطر.."

واستدار ليجلس جانباً بحدة، بينما بقي طارق صامتاً يستمع لما يقال.. لاحظ أن رُبى لم تدخله في القائمة، مما جعله يتساءل عن أهمية وجوده هو بالذات حقاً.. لكنه أرجأ السؤال عن هذا لوقت آخر، محاولاً وأد المشاعر الذي تعتمل في صدره بشكل متزايد.. بينما قال نوح بشيء من الأمل "أتعنين أن هذه الرحلة هدفها العثور على تلك الفرقة العلمية؟.. أتعرفين أين يمكننا العثور عليهم؟.. ألهذا السبب قررتِ الهبوط في هذا الموقع بالذات؟.."

قالت رُبى "ليس تماماً.. الكل يعلم بموقع هبوط سفينة الفرقة العلمية، أما البحث عنهم فهذا أمر آخر.."

بدا شيء من الإحباط على وجه نوح، بينما تساءل عابد بشك "ولماذا قمتم بهذه المسرحية؟.. لماذا ادعيتم أن الفتاة قد ماتت بالفعل؟"

أجابت رُبى "لهذا لديّ أسبابي الخاصة لا أريد الإفصاح عنها حالياً.."

ثم أضاف طارق "كان من الواجب إقناع دان مايدن بموت الآنسة ليكفّ عن البحث عنها عند اختفائها.. ولأننا لم نثق بكم تماماً بعد، فضّلنا إبقاء الأمر سراً عنكم.. لو علمتم أنها لم تمت، وأن دان مايدن يريدها بهذا الإصرار، لا نشك أن أحدكم قد يعمد للإبلاغ عن موقعها طمعاً في العائد المجزي الذي يعرضه دان.."

لاحظ عابد أن طارق كان يعنيه بهذا بقوله وبنظراته الحادة، فقال عابد بجفاء "لو كنت أعلم أن الهدف الحقيقي من هذه الرحلة هو البحث عن أولئك الحمقى، لقمت بالإبلاغ عنها بكل سرور وحصلت على ذلك العائد دون تردد.."

قاطع نوح جدالهم المحتمل قائلاً "إذن كيف علمت بكل هذا عنا جميعاً؟.. كيف علمت أن ابن أخي ضمن

تلك الفرقة؟.. لا أحد هنا يعلم بهذا الأمر، وهو قد اختفى منذ سنوات عدة حتى يئست من البحث عنه.."

اعتدلت رُبى مجيبة بحزم "لا أنكر أنني قمت ببحث مكثف عن أفراد الفرقة العلمية وعنكم جميعاً، لكنني اخترتكم في البدء لأنني رأيت كل هذا.."

نظر لها نوح والبقية بدهشة، ثم علقت نور بتعجب "ماذا تعنين بذلك؟"

أجابت رُبى بابتسامة "أعني ما قلته بالضبط.. لقد رأيت كل ما أخبرتكم عنه.. ومن العادة يكون ما أراه صائباً بنسبة ١٠٠٪.."

قال أحمد بهزء "ما هذا الهراء.."

التفتت رُبى إليه معلقة "أنت كنت ترفض تصديق ذلك رغم كل الدلائل.. لكن ثق بي هذه المرة على الأقل.."

تساءلت نور بدهشة "أتعنين أنك تتنبئين بالمستقبل؟"

هزت رُبى رأسها نفياً وقالت "ليست نبوءات.. أنا أرى بعض الأحداث رأي العين، سمّوها إن شئتم أحلاماً، لكن ما أراه إما أن يكون قد وقع، أو سيقع بالفعل.. وهذا بالتحديد ما يجعل دان مايدن يتشبث بي بهذا الإصرار.."

وإزاء نظرات الدهشة من البقية، قالت موضحة "بمثل هذه القدرة، والتي هذّبتها مع مرور السنوات وتمكنت من تسييرها في أي اتجاه أشاء، أستطيع تسيير تجارة دان في الاتجاه الأفضل ومضاعفة أمواله في أوقات وجيزة والقضاء على خصومه دون مخاطر.. لم يكن دان يملك شيئاً عندما عرف بقدراتي واستعان بي، وخلال هذه السنوات القليلة أصبح إمبراطور المافيا والمالك الأول لأكبر الشركات التجارية في المستوطنات كلها في مجموعة ميرا.. وبرحيلي، يتهدد هذا خطر كبير لو لم يحسن دان إدارة الأمور.. ولذلك يحاول استبقائي قدر ما يستطيع، وتساوره شكوك كبيرة بأنني هربت بهذه الخدعة ولم أمت حقاً.."

تساءل عابد بحدة "أنت عاونت دان ليصبح إمبراطور المافيا؟"

قالت رُبى بهدوء "لا.. هذا كان خياره هو.. كل ما فعلته هو إخباره بما سيجنيه أو سيخسره من خياراته

تلك.. لكني لا أملك التحكم بما سيقرره بنفسه.."

فعلق أحمد بسخرية "هذه كلمات منمقة لإخفاء تورطك بكل الأعمال القذرة التي قام بها دان.."

نظرت له رُبى بضيق واضح، لكن سمعوا في تلك اللحظة صوت نوح يقاطعهم بتوتر شديد "يا رفاق.. هناك عدة مركبات تقترب من السفينة.."

نظروا للنافذة التي تحتل جزءاً كبيراً من غرفة القيادة، فلاحظوا أربع مركبات تقترب من هذا الموقع وكل منها تحمل ما لا يقل على خمس رجال من مجلس الأمن بأسلحتهم وعتادهم.. فصاح عابد وهو يقفز واقفاً "اللعنة.. نسينا بوابة السفينة.. أسرع بإغلاقها يا نوح.."

قال نوح بارتباك وهو ينظر للأجهزة "يحتاج الأمر مني لبعض الوقت حتى أتجاوز أنظمة السفينة الأمنية.."

فقالت نور وهي تركض خارجة من الغرفة "أنا سأغلقها من الداخل.."

راقب عابد المركبات التي اقتربت من سفينتهم، ثم التفت إلى البقية قائلاً بحزم "هناك حل واحد يمكننا القيام به.. علينا الرحيل بهذه السفينة.."

تساءل نوح بقلق "إلى أين؟.. لن نستطيع الهرب من رجال الأمن في أي موقع على الأرض.."

أشار عابد للأعلى قائلاً "بل لنغادر هذه الأرض دون عودة.. لنعد لمستوطنات ميرا ولننسَ هذه المغامرة الخرقاء للأبد.."

عندها قفز طارق واقفاً وهو يهتف "الرحيل؟.. مستحيل.."

فقال عابد بصرامة "بل سنرحل، شئت ذلك أم أبيته.."

****

في الآن ذاته، عبرت نور ممرات السفينة بسرعة، ولما وصلت للبوابة وحاولت إغلاقها انتبهت لوجود بوبو المذعور خارجاً وهو يراقب المركبات المحملة بالرجال من حوله والتي وقفت بطريقة مفاجئة مثيرة الغبار في المنطقة.. فلم تتردد نور في الاندفاع خارج السفينة لتجذب بوبو قسراً رغم ذعره.. سمعت صياح بعض

رجال الأمن آمرينها بالتوقف، لكنها دفعت بوبو داخل السفينة واندفعت خلفه وهي تضرب زر الإغلاق من الداخل.. سمعت في تلك اللحظة بضع رصاصات تتطاير قرب البوابة وترتطم بجسد السفينة المعدنية، بينما تعالت أصوات أقدام تقترب راكضة من البوابة، فاختبأت نور خلف جدران السفينة وهي تجذب بوبو بعيداً حتى أغلقت البوابة بسرعة قبل أن يتمكن أحد رجال الأمن من الاقتراب منها..

زفرت نور وهي تنظر لبوبو الذي تلفت حوله بارتعاب، ثم تساءلت بشيء من الضيق "لِمَ عدت بهذه السرعة؟.. ظننتك قد رحلت.."

نظر إليها بوبو محاولاً استيعاب ما قالته، ثم مد يده نحوها بشيء جعلها تنظر له بدهشة عارمة.. فقد وجدته يحمل سلة من القش مصنوعة بشكل سيئ، وفيها عدد من الفواكه مختلفة الأحجام والألوان بحيث عرفت بعضه وجهلت البعض الآخر.. فابتسمت وهي تقول له "هل أحضرت هذا لنا؟.. شكراً لك يا بوبو.. لكن لم يكن هذا ما عنيته.."

ابتسم بوبو لابتسامتها كعادته، وبدا مسروراً بملامحها التي انفرجت كثيراً مع مرأى تلك الغنيمة، بينما قالت نور "سيسعد البقية لرؤية هذه الوليمة ولاشك.. نحن لم نذق شيئاً منذ البارحة.."

وأشارت له ليسير معها نحو غرفة القيادة، فتردد بوبو لوهلة وهو ينظر للباب المغلق ولجوانب المكان قبل أن يسير بخطوات قلقة تابعاً نور عبر الممرات.. وعندما وصلا غرفة القيادة، تبددت ابتسامة نور على الفور وهي تسمع جدالاً حاداً بين عابد وطارق وهو أمر لم تشهده منذ وصلوا الأرض..

سمعت طارق يقول محتداً "لا يمكننا الرحيل بعد.. لم نتمّ المهمة التي جئنا لها.."

نظر له عابد باستنكار، بينما تساءل أحمد عاقداً حاجبيه "وما هي هذه المهمة؟.. البحث عن الفرقة العلمية؟.. أنتما تحلمان، خاصة مع وجود مجلس الأمن وبحثه عنا، أو عنها بالتحديد، بهذا الإلحاح.."

أضاف عابد بعبوس "لا يحق لكما تحديد مصيرنا بهذه الطريقة.. مادمنا نملك وسيلة للفرار، فسنستغلها مهما عارضتما ذلك.."

نظرت رُبى لطارق الذي قال بعناد "لا يمكن.. علينا انتظار الفرصة السانحة وإتمام البحث قبل رحيلنا من الأرض.. هذا كان اتفاقنا معكما.."

صاح عابد بغضب "ما الذي تهذي به؟.. أبعد كل ما جرى تتحدث عن ذلك الاتفاق؟.."

قطب طارق قائلاً بصرامة "أنت لا شأن لك بالأمر، فالزم الصمت.."

فقال عابد بغيظ شديد "حقاً؟.. أوامر آنستك العزيزة أهم من أرواحنا جميعاً؟.. الكل هنا يودّ الرحيل من الكوكب، ولو كنت مصراً على البقاء، فغادر أنت وتلك الآنسة وابقيا كما يحلو لكما.."

أظهر الكل، عدا رُبى، موافقتهم لهذا القول وأحمد يقول "هذا ما كان يجب أن نفعله منذ البدء.."

بينما صمتت نور وهي تخفض بصرها بشيء من الضيق.. لم تكن تستطيع التدخل، ولم تكن تجرؤ على معارضة ذلك.. لكن أيمكنها الرحيل حقاً وهي لم تلتقِ بشقيقها بعد؟.. أتفشل في مسعاها بعد أن وصلت لهذه المرحلة؟..

أما عابد، فقد التفت إلى نوح المتوتر قائلاً بحدة "قم بتشغيل محرك السفينة وارتفع بها.. سنغادر هذا الكوكب حالاً.."

تقدم طارق أمام عابد قائلاً بحزم "لن يتحرك أحدكم من هذا الكوكب حتى ننهي مهمتنا.. هذا قول قاطع.."

فقال عابد عابساً "تحدث كما يحلو لك.. لن ينصاع أحدنا لأوامرك.. ولا نريد منك أي مال إن كنت تخشى هذا.."

علقت رُبى التي كانت صامتة طوال هذا الوقت "لا داعي لهذا الجدال.. اتركهم يفعلون ما يحلو لهم يا طارق.."

نظر طارق لابتسامتها الواثقة، فأدرك ما تعنيه.. بينما التفت عابد إلى نوح قائلاً بحدة "ارتفع بهذه السفينة اللعينة بسرعة.."

لكن طارق لم يتمكن من الصمت، وهو يواجه عابد الذي يسبب له الغيظ دائماً، فقال بحنق "يبدو أنك مصرّ على إثارة غضبي أيها السفيه.. قلت إن أحداً لن يغادر الأرض حتى ننتهي مما جئنا لأجله.. أفهمت؟"

شدّ عابد قبضتيه بحنق بينما قال نوح بصوت قلق "ألا تفهم الوضع الذي نحن فيه يا طارق؟.. الأمور

تزداد سوءاً مع كل لحظة تمضي.. ولا نريد أن نواجه مجلس الأمن مرة أخرى.. فلن ننجو في كل مرة.."

قال طارق بصرامة "أطع ما أقوله لك فحسب.."

تقدم عابد خطوات نحوه بغيظ واضح، فصاح طارق "لا تحاول اختباري يا هذا.. فلن أتردد في منعك ولو بالقوة.."

اقتربت منهما رُبى في تلك اللحظة قائلة "لا تفعل هذا يا طارق.. لا معنى لكل هذا الجدال.."

نظر لها طارق مقطباً للحظة، فهجم عابد عليه في تلك اللحظة دون توانٍ وأمسك ملابسه بقوة قبل أن يضربه على وجهه ضربتين قويتين بيده الأخرى أسقطته فاقد الوعي.. عندها تركه عابد يسقط أرضاً وهو يقول لنوح الذي يراقبهم مرتعباً "نفّذ ما طلبته منك.. ولنرحل عن هذا الكوكب المشؤوم.."

أسرع نوح ينفذ ما يقوله عابد بمزيج القلق والارتياح.. رغم ارتعابه من عنف عابد، إلا أن رأي عابد وافق قراره بالرحيل من الأرض بأسرع ما يمكن.. فجلّ ما يخشاه في هذه اللحظة هو السقوط في يد مجلس الأمن وتوابع ذلك..

تقدمت رُبى من طارق وجَثَت قربه وهي تقول بضيق شديد "ما كان عليك أن تتعامل معه بهذا العنف.. لم يكن ليؤذيك على أي حال.."

قال عابد بابتسامة ساخرة "هل كنتِ تتوقعين مني أن أرجوه السماح لنا بالرحيل؟.. أنتما تتعاملان معنا كخدم لكما ننفذ كل ما تقولانه دون اعتراض.."

قالت رُبى بحزم "لم أتعمد الاستهانة بأي أحد هنا بتاتاً، لكني مقتنعة أننا لن نتمكن من مغادرة الأرض.. ليس الآن على الأقل.."

علق عابد بهزء "احتفظي بنبوءاتك تلك لنفسك يا آنسة.. فهي لا تفيدنا في واقعنا هذا بتاتاً.."

لم تعلق رُبى وهي تلمس الكدمة التي بدت على وجه طارق بقلق واضح.. بينما جلس عابد بدوره وهو يتأمل ما يجري خارج السفينة عبر الشاشة.. بدت تحركات رجال الأمن واضحة في المنطقة المحيطة بالسفينة، وإن كان عابد يجهل ما سيفعلونه في المرحلة التالية.. لكن لا يشك أن تكون بالعنف الكافي لتعطيل رحيلهم من الأرض..

دام صمتهم وقتاً طويلاً ونوح يعابث أجهزته دون أن يسمعوا صوت المحركات، فقال عابد مقطباً "ما الأمر؟.. لنسرع ما دمنا نملك الفرصة لذلك.."

رأى نوح يتهالك على كرسيه وهو يمسح عنقه، قبل أن يستدير إليهما قائلاً بتوتر "إنها لا تعمل.."

ظلوا ينظرون له بعدم فهم، ثم قال عابد "ما الذي جرى؟"

قال نوح وهو يشير للأجهزة بعصبية "لا أعلم.. لقد استطعت تجاوز النظام الأمني للسفينة بسهولة، والأجهزة تعمل بشكل عادي، لكن المحركات ترفض الاستجابة لها والسفينة لن تنطلق دون محركات.."

شعرت نور ببعض الراحة لذلك، لأنه يعني أن فرصتها في البحث لم تنتهِ بعد، لكنها لم تفصح عن ذلك بينما نهض عابد قائلاً بغيظ "ما الذي جرى الآن؟.. هل المحركات معطلة؟.. لكن هذا مستحيل.."

هز نوح رأسه وهو يقول "لا يبدو لي ذلك، لكن هناك ما يمنعها من البدء، ولا أملك إلا أن أبدأ برنامج الصيانة لأصل للمشكلة.. لكن....."

نظر له عابد بتساؤل، فقال نوح متنهداً " قد يستغرق الأمر ساعات عدة لنعرف المشكلة، ناهيك عن حلّها.. ولست واثقاً إن كان مجلس الأمن سيمنحنا تلك الساعات.."

التفت عابد لرُبى فوجدها تبتسم ابتسامة جانبية بصمت، فنهض وهو يغمغم بغيظ "يا لكِ من شؤم.."

لم تُبدِ رُبى أي حنق لتعليقه، بينما غادر عابد متوجهاً لغرفة المحركات ليبحث عن العطل بنفسه.. وسرعان ما لحقت به نور كالعادة وهي تتساءل بشيء من القلق "أأنت بخير؟.. أنت لم تنل قسطاً من الراحة منذ البارحة.."

قال عابد بضجر "أنا بخير طبعاً.. هلا كففت عن أسئلتك هذه؟"

نظرت له نور بدهشة وهي تقف وتراقب ابتعاده.. كانت تودّ معاونته فيما سيفعله، كما اعتادت دائماً، لكنه بدا كارهاً لذلك.. بدا أنه يتجاهل قلقها عامداً ويتعامل مع موضوع جرحه بجفاء، فما الذي جرى؟..

أما عابد، فقد ابتعد بخطوات سريعة وهو يدمدم "يبدو أنني لن أكف عن إثارة الشفقة.. يا لي من بائس.."

كان يشعر بجسده أفضل من السابق، بعد أن حقنه الجهاز الخاص بالإسعافات الأولية ببعض المواد التي تعوّض فقدان دمه وتبث النشاط في جسده وتعالج أي التهاب محتمل أصاب الجرح.. لكن لا يعلم كم

سيدوم ذلك، ومتى سينهار جسده دفعة واحدة بعد هذا النشاط المباغت..

لم يكد يبتعد كثيراً حتى سمع دويّاً قوياً من جهة بوابة السفينة الخارجية، وهو أضعف نقاطها عادة.. فلم يفُته معنى ذلك مما جعله يستدير راكضاً تجاه البوابة.. وهناك، كانت الأمور لا تختلف عما تركوها عليه، البوابة مغلقة بإحكام رغم الصوت العالي الذي دوّى بين وقت وآخر.. فصاح عابد عبر جهاز الاتصال "ما الذي تفعله يا أبتاه؟.. ألا تملك وسيلة لإيقاف الهجوم الذي يقومون به على السفينة؟"

أتاه صوت نوح قائلاً "لا أعلم حالياً.. أنا أبحث عن هذا الأمر في نظام السفينة.."

ثم أضاف "لكن لا داعي للقلق.. الأسلحة التي تملكها تلك الفرقة من الرجال لا يمكنها أن تسبب أي ضرر للسفينة أو تساعدهم على اقتحامها.. وقوع السفينة في هذا الموقع الضيق يحمينا من هجوم سفينتهم وهو ما سيشكل خطراً علينا عندئذ.."

ظل عابد ينصت للهجوم الذي لم يتوقف بشيء من القلق، ثم استسلم وهو يبتعد عائداً للمهمة التي كان بصددها.. عليهم إصلاح هذه السفينة في أقرب وقت ممكن قبل أن يفاجؤوا بهجوم أكبر من رجال الأمن..

****

بعد بعض الوقت قضاه طارق في الغيبوبة، استعاد وعيه فجأة فهبّ جالساً يتلفّت حوله.. ولما دار ببصره في القاعة، حيث كان ملقىً على أرضها، رأى نوح يزفر بحدة وهو يعبث بأجهزة السفينة، ولم يرَ الآخرين في المكان.. فنهض طارق محاولاً تمالك الدوار الذي حلّ به بعد ضربات عابد، وقال لنوح بغضب "إذن فعلتم ما أردتموه بالفعل؟ ستندمون على هذا.."

التفت إليه نوح ليراه يقترب منه واضعاً يده على رأسه، فقال نوح بشيء من العصبية "لا فائدة من كل هذا الغضب.. انظر لما أمامك.."

رفع طارق بصره للنافذة، فرأى أمامه ذات المنظر يحيط بالسفينة كما كانت قبل فقدان وعيه.. ذات المنحدرات الصخرية التي تحيط بالمكان، ولاحظ وجود مركبات رجال الأمن على مقربة تحيط بالسفينة

إحاطة تامة.. فقال طارق بحيرة "ما معنى هذا؟"

قال نوح عابساً "هناك عطل في السفينة منعنا من الرحيل بها.. ولا نعلم ما هو هذا العطل بالضبط.."

نظر له طارق بدهشة، لكن لم يساوره ضيق لذلك.. على الأقل، هذا العطل يمنحهم فرصة أكبر لتحقيق هدفهم من القدوم للأرض.. رغم أن خطر مجلس الأمن لم ينتهِ بعد..

سمعوا باب غرفة القيادة يفتح في تلك اللحظة، وظهر من خلفه عابد تتبعه نور القلقة.. وقبل أن يعلق شخص على ما جرى، كان عابد يتقدم من طارق ويقبض على مجمع ملابسه ويهزه قائلاً "أأنت من فعل ذلك؟"

لطم طارق يده بعيداً وهو يقول بحدة "ماذا تعني؟"

قال عابد مقطباً "أأنت من قام بتخريب أجهزة السفينة لتمنعنا من الرحيل؟.. هل عبثت بأجهزتها قبل قدومنا؟.. كيف يمكنك فعل ذلك؟!.."

عدّل طارق ملابسه وهو يقول "كنت أتمنى أن أكون هو.. لكني لم ألمس السفينة بأي سوء.. وإن كنت أرى أن هذه فرصة ملائمة لتطيعوا ما أطلبه منكم، مادام الهرب من الأرض قد أصبح مستحيلاً.."

ظل عابد ينظر له بشك، بينما قال نوح وهو يعود لأجهزته "لازالت أجهزة الصيانة تبحث عن العطل في محركات السفينة.. وأتمنى أن يكون العطل بسيطاً يمكن إصلاحه.."

صمت الجميع بغمّ واضح، ثم تساءل طارق وهو يلتفت للشاشة "ما الذي فعله رجال مجلس الأمن؟.."

قال نوح بضيق "يبدو أنهم ينتظرون تحركاتنا، أو أنهم يخططون لهجمة مباغتة.. صمتهم هذا مريب.."

تلفت طارق حوله في تلك اللحظة بقلق، ثم تساءل "أين الآنسة؟"

هز نوح كتفيه بحيرة، فاستدار طارق وأسرع مغادراً غرفة القيادة بقلق واضح.. لا تزال تعتريه شكوك بحالة رُبى، ويشعر بأنها تعاني من أمر تخفيه عنه بإصرار.. لقد أكدت له قبل مغادرتهم مستوطنة فينون أنها بخير وأن مرضها كان مجرد إنهاك لقلة النوم وكثرة العمل.. لكن أهي بخير حقاً؟..

بحث في أرجاء السفينة بعد أن تأكد أن أبوابها مغلقة.. لا يدري لمَ ساوره شك أن تقوم رُبى بتسليم نفسها لمنع مجلس الأمن من إيذائهم، لكن هذا لم يحدث لحسن الحظ.. بعد بعض البحث، وجدها في القاعة

المخصصة للطعام، تجلس على كرسي بصمت، وقبل أن يقترب منها، لاحظ وجود ميساء وأحمد على مقربة وإن كان أحمد يشيح بوجهه عنها كالعادة..

بقي طارق واقفاً بعيداً عن أنظارهم وهو يستمع لما يقال، وقد غلبه قلقه على رُبى فلم يغادر..

سمع ميساء تقول وهي تنظر إليهما "يجب أن نحلّ هذه المشكلة.. لا يمكن أن تظلا هكذا كالقط والفأر طوال الوقت.."

قال أحمد بحنق "من قال إنني يجب أن أتلطف بأي حديث مع هذه الـ....."

صمت بالعاً ما كان سيقوله، فنظرت له رُبى وهي تقول بضيق "ألن تغفر لي ما جرى بعد كل ذلك الوقت؟"

قال أحمد محتداً "أغفر لك اختطاف ميساء؟ كيف استطعت إرسال رجال المافيا أولئك لاختطاف شقيقتك؟.. ماذا لو تسببوا بأذيتها؟.. بل ما الداعي لإثارة ذعري بتلك الطريقة وذعر شقيقتك التي كادت أعصابها تتحطم عندما ظهر أمامها أولئك المجرمون؟"

قالت رُبى بحزم "لم يكن أحدهم سيؤذيها بتاتاً.. مانو حارسي الشخصي كان معهم، وهو من كان سيؤمن سلامتها.. لو لم أثق به لما أرسلته.."

علق أحمد بسخرية "أجل.. وكأن هذا سيزيل كل الذعر الذي شعرنا به وقتها.."

قالت رُبى بضيق "لم أكن سألجأ لهذه الوسيلة لو لم تطردني في كل مرة أتيت فيها لزيارتكم.. أنت أردت نبذي عامداً، وأردت قطع علاقتي بكم بكل السبل.. لكن لو تمكنت من إحضار ميساء إليّ، كنتُ واثقة أنك ستتبعها بالتأكيد.."

فصاح أحمد بحدة "لا تشرفني أي علاقة مع فتاة تعمل مع رجال المافيا.. ألا تدركين حجم الجرائم التي يقوم بها أولئك مع الأبرياء؟"

فاحتدت رُبى بدورها قائلة "أتظن أن العمل معهم كان قراري؟.. لقد اختطفني دان في البدء، ولما رفضت التعامل معه، هدد بقتلكم جميعاً.. لقد كان يعلم موقع أبي، وهددني بأن الموت سيطاله هو أيضاً لو لم أتعاون معه.. كان أبي قد اختفى في تلك الأوقات، وكان ذعري عليه على أشده.. لذلك لم أستطع تجاهل الأمر

أبداً.."

وخفضت بصرها قائلة بمرارة "لقد أكد لي دان أن الأمر لن يزيد على سنة واحدة يؤسس فيها نفسه وتجارته في ذلك العالم، وبعدها سيطلق سراحي.. لكن قبضتة كانت تزداد شدة عليّ مع كل نجاح يحققه.."

لم يظهر أحمد أي تعاطف وهو يزفر مديراً وجهه جانباً، فقالت رُبى متوجهة لميساء التي تنظر لها بإشفاق "كنت أريد أن أبقيكم قريبين مني لأستطيع حمايتكم.. مع الوقت، استطعت الحصول على بضع رجال ولاؤهم لي أشد من ولائهم لدان.. وكنت أثق أنكما ستكونان أكثر أماناً معي.. لكن بعد رفضكما المتكرر لذلك، لم أجد بداً من استخدام هذه الوسيلة لاستقدامكما لفينون.. عندها قد أستطيع استبقائكما معي.."

قال أحمد بجفاء "هذا لا ينفي الجرم الذي قمت به، ولا يعني أنني سأسامحك عليه أبداً.."

وغادر تاركاً ميساء تقبض على يد رُبى وهي تقول بتعاطف "أنا لم أكرهك يوماً يا رُبى.. لكني لم أستطع معارضة أحمد عندما طلب مني نسيانك تماماً.. لقد عانى أحمد الكثير منذ اختفاء أبي، وهو يشعر بمسؤولية كبيرة تجاهنا تفوق ما قد يشعر به أي أخٍ عادي.. لذلك لم أستطع نسيان تضحيته والرحيل.."

خفضت رُبى بصرها بصمت وألم ظاهر، فأضافت ميساء "كنت آمل أن تعودي إلينا يوماً ما.. وكنت واثقة أن أحمد سيتناسى كل ما جرى مع الزمن.. لكنك أفسدت كل شيء باختطافك لنا هذه المرة.."

غمغمت رُبى "كيف كان بإمكاني إقناعه بمرافقتي في هذه الرحلة؟.. لا أظنه سيعبأ بملاقاة أبينا لو أخبرته بوجوده على الأرض.."

قالت ميساء بابتسامة "أنا واثقة أنه لن يفعل.. لكن رغم ذلك، شكراً لك يا رُبى.. الآن، بعد أن علمت بهدفك من إحضارنا لهذه الرحلة، أشعر بامتنان لما فعلته.. لم أكن أحب ألا أجد فرصة لملاقاة أبي ولو لوقت قصير.."

واحتضنت ميساء رُبى بقوة وهي تهمس "أرجوك.. كوني بخير.."

اتسعت عينا رُبى بصمت، ثم وجدت ميساء تنهض قائلة "سأذهب لرؤية ذلك الطفل الكبير.. قد يلين مع بعض الإلحاح.."

وغادرت تاركة رُبى تنظر لها بدهشة.. هل شعرت ميساء بأمرها؟.. ما معنى قولها ذاك؟.. شعرت رُبى

بالدموع تحتشد في عينيها وشفتيها ترتجفان، لكنها أغمضت عينيها بقوة وهي تزفر بشدة محاولة تمالك نفسها وابتلاع دموعها.. ومع شعورها بنبض مؤلم في رأسها لم تجهل سببه، فإنها قد عادت لواقعها بشدة وهي تفكر بما عليها تحقيقه قبل أن تنتهي هذه الرحلة.. ولما التفتت جانباً، رأت طارق يقف قريباً يتأملها بقلق وفي عينيه تساؤلٌ واضح.. فقالت رُبى بهدوء "لا داعي لهذا القلق في عينيك يا طارق.."

تساءل طارق وهو يجلس قريباً "أأنت بخير حقاً؟.. لا يبدو لي أن ما تعانينه من ألم راجع لعملية التجميد تلك.. من المفترض أن يزول أثرها بعد ساعات قليلة.."

هزت رُبى كتفيها قائلة "هذا يختلف من جسد لآخر كما ولابد أنك تعلم.."

تردد طارق للحظة، ثم سألها السؤال الذي دار في ذهنه مدة طويلة "وماذا عني أنا يا آنسة؟.. ما الهدف من وجودي في هذه الرحلة؟.. بخلاف الآخرين، لا أملك شخصاً من عائلتي ضمن تلك المجموعة.. فلماذا أحضرتني أنا بالذات؟"

ابتسمت رُبى قائلة "كنت بحاجة لمن ينفذ خطتي بحذافيرها.. وكما قلتُ سابقاً، أنا أثق بك وبأنك ستطيع كل ما أطلبه منك دون نقاش.."

رغم معرفته بذلك، إلا أنه لوهلة توقع جواباً آخر.. جواب أقل جفافاً من هذا الذي نطقت به بكل هدوء.. فتساءل مقطباً بشدة "فقط؟ أهذا كل ما كان يهمّك؟"

لم تجب رُبى للحظات، بينما قال طارق بشيء من الحدة "ظننت أنك اصطحبتني لهدف ما.. أنك ترغبين بوجودي معك لسبب مهم.. لماذا لم تصطحبي مانو أو أي شخص من الرجال المخلصين لك في فينون؟.."

قالت رُبى بهدوء "لو كنت تأمل أن أوافق توقعاتك عني وأخبرك أنني رغبت بوجودك معي لأنني مدلهة في حبك، فأتمنى أن تيأس الآن.."

فقال طارق بحدة أكبر "إذن لماذا خدعتني بهذه الصورة؟.. لماذا تلاعبت بي وأنت تعلمين بما أكنّه لك؟.. لو كنت تملكين ذرة احترام لي ولمشاعري لحرصتِ على الابتعاد عني بدل جرّي خلفك كأي دمية غير ذات إرادة.."

قالت بهدوء "كل ما كان يهمني عند التخطيط لهذه الرحلة وجود شخص أثق به بشكل تام.. وهذا ينطبق

عليك أنت أكثر من أي شخص آخر.."

فصاح طارق بحنق شديد "أهذا يعني أنك استغللت مشاعري لتضمني ولائي الكامل لك؟.."

لم تجبه رُبى وابتسامة خافتة ترتسم على شفتيها، فاستدار طارق على الفور وغادر غاضباً بينما خفتت ابتسامة رُبى وهي تزفر باضطراب وضيق شديد.. رغم الضيق الذي شعرت به لما سببته لطارق من ألم، إلا أن ما فعلته كان ضرورياً في هذه المرحلة.. حتى لو قرر طارق الرحيل، فهذا خير له من البقاء معها وسط هذا العالم المميت.. لكن، هل سيغفر لها ذلك يوماً ما؟..

سمعت في تلك اللحظة صوت ميساء وهي تقول "هذا غريب.. لم أرَ طارق غاضباً بهذه الشدة من قبل.."

غمغمت رُبى "ما الذي جاء بك مجدداً؟"

لم تجبها ميساء وهي تتساءل مقطبة "ما بالك يا رُبى؟.. لم عاملتِ طارق بهذا الجفاء؟.. طارق كان الأكثر حماسة من بيننا لتنفيذ كل ما خططت له مهما كان غريباً.. لكن صبره نفذ أخيراً بسبب كلماتك القاسية.. كان بإمكانك أن تكوني ألطف قليلاً لئلا تخسري معاونته لك.."

ابتسمت رُبى بجانب فمها وهي تقول "اللطف ليس هو الأفضل دائماً في كل أمر.. ربما من الخير إيصال الحقيقة مهما كانت قاسية.."

قالت ميساء بضيق "هل الأفضل إخباره أنه لا أهمية له إلا بما يوافق أهواءك؟.. هذا قاسٍ جداً على شخص بذل الكثير لتنفيذ كل ما طلبته.."

غمغمت رُبى "ليس أقسى مما سنواجهه بالفعل.."

تساءلت ميساء بقلق "ماذا تعنين؟"

نظرت رُبى لعيني ميساء القلقتين، ثم تنهدت وهي ترجع رأسها للوراء وتتطلع للسقف مجيبة "لا شيء.. هذا مجرد هذيان مني.. فلا تعبئي بي.."

ظلت ميساء تنظر لها بقلق، أهو مجرد هذيان حقاً؟..

****

عندما دخل طارق غرفة القيادة، بصدر مشحون وضيق عارم، سمع صوت عابد العالي وهو يصيح بنوح بحنق.. شعر بغضبه يتزايد أضعافاً فوق ما كان يشعر به بعد أن غادر رُبى، وشعر أن طاقة احتماله لمن حوله قد نفذت بعد أن غاب السبب الرئيسي لها من اهتمامه.. لذلك كان صياح عابد، الذي يسبب له الضيق منذ رآه، أكثر مما يطيقه.. فقال محتداً "هلاّ خفضت صوتك يا هذا؟.. لماذا يجب أن تتعامل بهذه السوقية مع الجميع؟"

قال عابد بهزء "آسف لأن سوقيتي لا تناسبك.."

فقال طارق بغضب "لقد حذرتك مراراً من التعامل مع الآخرين بعصبية.. وأظنني بحاجة لأن ألقنك درساً لتتعلم احترامي واحترام الآخرين.."

رفع عابد حاجباً وهو يقول بسخرية "حقاً؟.."

دمدم طارق وهو يشدّ على قبضة يده ويقترب من عابد بحنق "أيها البغيض.."

لكن عابد كان الأسبق وطارق يجده يقبض على قميصه قائلاً "بالطبع أنا أحترم كل ما تقول، وهذا هو الإثبات على ذلك.."

ولكمه بقوة وعنف دون أن يفلته، فتأوه طارق بألم وهو يشعر بفكه ينبض بشدة.. حاول الإفلات من عابد، لكن الأخير جذبه من جديد ولكمه لكمة أخرى وهو يضيف "أظنني قد كبرت على تلقيني أي دروس.. خاصة من شخص مثلك.."

دفعه طارق بقوة وحاول ركله على بطنه، لكن عابد أمسك قدم طارق قبل أن تصله ورماه جانباً بعنف.. ثم تقدم منه قائلاً "مللتُ من إظهارك لأهمية نفسك.. مللتُ من أناقتك.. مللتُ من اعتدادك بنفسك.. من الجميل رؤية بعض هذه الأشياء التي تتشبث بها بإصرار تتهاوى قليلاً.."

قفز طارق واقفاً رغم آلامه وصاح بحدة "أنت سوقي بغيض.. ما كان يجب أن أقبل بقدومك على هذه السفينة.."

علق عابد بابتسامة ساخرة "ليتك كنت أكثر إصراراً على هذا.."

وطوح قبضته بلكمة أخرى تفاداها طارق بصعوبة، لكن عابد كان قد رمى قبضته الثانية نحو بطنه أثارت ألماً شديداً في طارق وهو ينثني بألم..

نظرت نور لهما بعينين متسعتين وهي لا تعلم ما الذي يدفعهما للعراك بهذه الصورة، وكأن التحضر الذي كانا يتشبثان به قد تهاوى مع التوتر والقلق الذي مروا به خلال اليوم السابق.. نظرت نور نحو نوح فرأته صامتاً بضيق رغم أنه لم يُبد نية بالتدخل في الأمر.. فعادت نور ببصرها نحو الرجلين وصاحت "كفا عن ذلك.."

لم يُظهر أحدهما نيّة بالتوقف وهما يتعاركان، والغلبة لعابد كما هو واضح، فصاحت نور وهي تقبض على ذراع عابد الذي أمسك طارق من مجمع ملابسه وهمّ بلكمه "ألم تكتفيا؟.. لدينا ما يكفي لنقلق لأمره، فلا تتصرفا كالصبية الآن.."

توقف عابد بعبوس ظاهر، فاستغل طارق الفرصة ليركله بقوة على بطنه ويبعده عنه.. زمجر عابد وهو يشدّ قبضته، فقالت نور بعصبية "لو حاولت ضربه مجدداً فلن أسامحك أبداً.."

أنزل عابد قبضته وهو يدمدم "لمَ تحاولين حماية شخص تافه كهذا؟"

قالت بضيق وحدة "لست أحاول حماية أحد.. ألا تدركان أنكما تسببان التوتر للجميع بهذا؟.. ألا يكفي خطر مجلس الأمن الذي يحدق بنا؟"

زفر طارق وهو يمسح فكه الذي يؤلمه، وراوده شعور أنه قد تمادى أكثر من اللازم.. لم يكن عليه أن يظهر غضبه بهذه الطريقة الخرقاء، خاصة أن عابد لم يكن منبع غضبه الحقيقي.. فقال أخيراً "آسف.. يبدو أنني كنت متوتراً وغاضباً أكثر من اللازم لكل ما يجري.."

قال عابد وهو يجلس جانباً "أهذا يعني أنني كنت الوسادة التي تلكمها لتفرغ غضبك؟"

رغماً عنه، ابتسم طارق بجانب فمه معلقاً "ألم أكن أنا من تلقى الضربات اليوم؟.."

ضحك عابد لذلك التعليق، بينما نظرت لهما نور بتعجب.. ألم يتعاركا منذ لحظات معدودة؟.. زفرت وهي تجلس جانباً بدورها، ثم تذكرت أمر بوبو الذي اختفى منذ دخولهما السفينة.. فهبت باحثة عنه وغادرت غرفة القيادة.. وبعد بحث قصير، وجدته في إحدى الغرف يحاول جاهداً فتح النافذة الزجاجية الصغيرة

التي تطلّ على الخارج.. فابتسمت نور معلقة "ما الذي تفعله يا بوبو؟.. أتحاول الفرار؟.. لا يمكنك فتح هذه النافذة أبداً"

نظر لها بوبو بقلق، ثم ظل يتلفت حوله بذعر واضح.. تذكرت نور ما قاله القائد عن البشر على الأرض.. فشعرت بإشفاق شديد مع مرأى ذعر بوبو، وتأكد لها أن له تجارب سابقة مع رجال الأمن كما صرّح القائد.. أكان ذلك منذ خمس سنوات عندما وصلت الفرقة العلمية للأرض بصحبة دوريات من مجلس الأمن؟.. موقع بوبو لا يبعد الكثير عن هذا المكان.. فهل تواجه بوبو، أو من كان معه، مع رجال الأمن سابقاً؟.. لقد ذكر القائد أنهم ممنوعون من قتل المزيد من البشر.. معنى هذا أنهم قد قتلوا بعضهم بالفعل سابقاً.. فكيف لها أن تعرف ما جرى من بوبو الذي لا يستطيع نطق أي كلمة ناهيك عن فهمها؟..

****

ساد الصمت غرفة القيادة وكل من فيها يجلس متطرفاً عن البقية غارقاً في أفكاره.. لم يسمع صوت إلا صوت أصابع نوح وهو يعالج برنامج الصيانة محاولاً الوصول للعطل الذي يمنع المحركات من الاستجابة لأوامره.. حتى بوبو الغريب قد استشعر القلق الدائر في المكان وجلس على الأرض منزوياً قرب أحد الجدران وهو يضمّ ركبتيه إلى صدره بصمت.. وبعد وقت طويل، قال عابد بضيق "هل سنظل غارقين في القلق بهذه الصورة؟.. لقد سئمت الجلوس بقلة حيلة.."

تساءل طارق "أتملك حلاً أفضل؟.."

قال عابد "الحل الوحيد هو في الاستيلاء مجدداً على سفينة نوح والرحيل من هذا الكوكب المشؤوم فوراً.."

قال أحمد "أأنت جاد؟.. الهرب من مجلس الأمن شيء والاستيلاء على السفينة من قبضتهم شيء آخر.."

فقال عابد "ألا تريد الرحيل؟"

قطب أحمد قائلاً بضيق "لا جدال في هذا.. لكن ما الإمكانات التي تملكها؟.. ما المهارات التي ستمكنك من تحقيق هذا الهدف؟.. سفينة مجلس الأمن تحوي ما لا يقل عن عشرين رجلاً مع قائدهم.."

فقال عابد بحنق "إذن ألديكم حل أفضل؟.. كلي آذان صاغية.."

سمعوا صوت رُبى خلفهم وهي تقول بحزم "أنا لدي الحل الملائم.."

التفتوا إليها بدهشة، فأضافت "لدي حل، وعرض في الآن ذاته.."

أسرع عابد يقول "ألن تكفّي عن ذلك؟.. أتظنين أن أحداً سيقبل بأي عرض منك بعد كل ما جرى؟"

قالت بابتسامة "لكننا قد وصلنا لهذا الموقع، فما الضير في إتمام هذه المهمة للنهاية؟"

نظروا لها بصمت وتساؤل، فأضافت " أنا واثقة أن نوح سيتمكن من إصلاح السفينة خلال ساعات معدودة، لكن الرحيل بها مستحيل.. سيلجأ مجلس الأمن لمنعنا بكل السبل.. ثم إن السفينة خالية من أي موارد تعيننا على الرحلة التي تتجاوز الشهر قبل أن نصل لأقرب مستوطنة مأهولة.. هل ستعيشون هذا الشهر على الهواء فقط؟.."

لم يعترض أحد بكلمة وهم يتبادلون النظرات الصامتة، فقالت أخيراً "سنرحل بالسفينة، لكن ليس قبل أن نمنع مجلس الأمن من اللحاق بنا.. ولو تمكنا من العثور على تلك الفرقة العلمية، قد نستطيع التزود منهم بما يكفي للقيام بهذه الرحلة.. بهذا، يمكن للجميع تحقيق أهدافهم.."

قال عابد مقطباً "أنسيت أن أربع مركبات محملة برجال الأمن تحيط بسفينتنا هذه؟.. كيف تتوقعين منا أن نتسلل من بينهم دون أن ينتبهوا لنا؟.."

قالت رُبى بثقة "سيرحلون.. أنا واثقة من ذلك.."

فعلق عابد بسخرية "أهي إحدى تنبؤاتك؟"

لم تعلق رُبى وميساء تقول بقلق "إنها تجربة خطرة على أشخاص اعتياديين لا خبرة لهم بالأمر.. لنفكر في حلٍ آخر.."

قالت رُبى "الأمر يتطلب جهداً ومخاطرة كبيرين بالفعل، لكن هل نملك خياراً آخر؟.. لا تريدون أن تقوم سفينتهم بقصف هذه السفينة ونحن في عرض السماء.."

قال عابد "لن يفعلوا وأنت معنا.."

فقالت رُبى بابتسامة "لكنهم يظنونني ميتة بالفعل.."

ساد الصمت المكان وكل منهم يقلب خياراته بحيرة واضحة.. ثم سألها نوح "كيف يمكننا تحقيق ذلك؟.. أتملكين خطة ما؟.."

أجابت رُبى "كل ما عليكم فعله هو تعطيل محركات سفينتهم بشكل يتطلب عدة ساعات لإصلاحها.. أما عن الوسيلة، فهذا ما عليكم أنتم تقريره.."

غمغم أحمد "ليت الأمر بالسهولة التي تتحدثين بها.."

فأضافت رُبى "لا تنسوا تعطيل سفينة نوح أيضاً.."

هتف نوح "لا.. لا يمكنكم فعل ذلك بسفينتي.."

علق طارق "لكنها لم تعد سفينتك يا نوح.. حتى متى ستنسى ذلك؟.."

فقال نوح بضيق "لكن السفينة مصابة بعطل بالفعل، ولم يتسنّ لي الوقت لإصلاحها عندما باغتنا هجوم دورية مجلس الأمن.."

قال طارق "مهما يكن، علينا التأكد من ذلك قبل المخاطرة بالرحيل بهذه السفينة.."

نظر الجميع لبعضهم البعض دون أن يزايلهم القلق، ثم قطع طارق الصمت قائلاً للبقية "هذا عمل يستلزم تعاوناً بين الجميع هنا رغم كل اختلافاتنا.. فهل أنتم مستعدون للتعاون وبذل الجهد معاً؟.."

قال أحمد "وهل نملك خياراً أفضل؟.."

بينما قال عابد بابتسامة "مرحى.. بدأت الأمور تتخذ سمتاً أكثر إثارة.."

لم يزايل القلق الأعين من حوله، بينما نظرت لهم رُبى بصمت.. لم تجرؤ على قول ما كانت تود قوله منذ استيقاظها، والذي لم تجرؤ على التصريح به حتى لطارق خوفاً من ردة فعله.. لكن لا بأس.. خبر كهذا يمكنه أن ينتظر عدة ساعات بعد..

****

الفصل الثالث عشر

ربضت نور في موقعها خافضة الرأس في المركبة التي جاءت بها وهي تتطلع للمنظر أمامها.. كان المنحدر الصخري الذي تقف فوقه يطلّ على الموقع الذي استكانت فيه سفينة نوح وقربها سفينة مجلس الأمن.. والهدوء يعمّ الموقع مع الظلمة شبه التامة التي لا يفلح نور القمر في تبديدها..

سمعت صوتاً خافتاً قربها، فالتفتت إلى بوبو القابع على الكرسي القريب وابتسمت قائلة بصوت خافت "جميل أنك قد تجاوزت خوفك من هذه المركبات وقمت بمصاحبتنا.. ربما لو تجاوزت خوفك من السفن أيضاً سأصطحبك معنا إلى مستوطنة آريس.. قد تجد الحياة هناك ممتعة أكثر من الحياة هنا.."

أصدر بوبو أصواتاً مختلطة تدل على عدم فهم وقلق في الآن ذاته وهو يشير للسفينتين القريبتين.. فهدأته نور وهي تعود ببصرها للسفينتين متسائلة في سرها كم سيدوم الهدوء هذه الليلة؟..

في الليلة الماضية، لم يكن أحدهم يتخيّل أنهم سيُقْدِمون على مثل هذا الأمر.. حتى طرحت رُبى اقتراحها العجيب ذاك، وهو تعطيل السفينتين ليتسنّى لهم البحث عن الفرقة العلمية دون أن يعترضهم مجلس الأمن.. ورغم غرابته، إلا أن الكل وافق عليه وبدؤوا يعدون العدة لتنفيذه.. وقد اختاروا الليلة التالية لتنفيذ المهمة ليمنحهم الظلام ستاراً مناسباً ضد آلات المراقبة في السفينة..

وببعض الجهد، استطاعت نور إقناعهم بالسماح لها بمرافقتهم.. لم تكن تطيق البقاء في السفينة مع رُبى وميساء، ونوح الذي يتمّ عمله في صيانة السفينة.. لم تكن تملك القدرة على مشاركتهم تلك العملية، لكنها اقترحت أن تبقى في المركبة وتقوم بحراستها لنجدة من قد يحتاجها أثناء الهرب..

والآن، ها هي تنتظرهم بعد غيابهم بصمت وسكون ربما كانا أقسى من انتظارهم في السفينة.. ورغم أنه لم يمضِ على غيابهم أكثر من عشرين دقيقة، إلا أنها بدأت عدّ الدقائق بانتظار عودتهم والرحيل من هذا الموقع، لو قدّر لهم الرحيل بالفعل..

في تلك الأثناء، في السفينة الخاصة بالفرقة العلمية، كانت ميساء تدور في غرفة القيادة بتوتر شديد وهي

تفرك كفيها بقلق، بينما جلست رُبى على أحد الكراسي في الموقع وهي تسند رأسها إليه بصمت تام.. فقالت ميساء بعد أن فاض بها الكيل "ألا تشعرين بالقلق عليهم؟.. أكاد لا أجد القدرة على الجلوس براحة.."

غمغمت رُبى "القلق سيقتلنا دون فائدة.. فلننتظر نتيجة أحداث الليلة.."

همست ميساء بقلق "أتمنى أن تكون النتيجة تستحق المخاطرة التي قاموا بها.."

ثم أضافت بشيء من الضيق "ما كان عليهم اصطحاب تلك الفتاة الصغيرة.. نور مجنونة للمشاركة في هذه العملية.."

علقت رُبى "نور فتاة مميزة كثيراً.. لم تكن شخصيتها تسمح لها بالركون للراحة دون المشاركة في حدث مهم كهذا.."

غمغمت ميساء "لكنها صغيرة جداً.. حتى إنني لم أدرك بتاتاً أنها فتاة قبل أن يكشف عابد ذلك.."

سمعتا باب الغرفة يفتح قبل أن يدلف نوح بشيء من العجلة عائداً لأجهزة السفينة، فتساءلت ميساء بشيء من الأمل "هل اكتشفت العطل؟"

قال نوح بعصبية "لا.. لا يزال السبب مستعصياً على فهمي.. كل الأمور على ما يرام.. المحركات لا تعاني أي أعطال، ونظام القيادة يعمل بكفاءة تامة.."

بدا القلق واضحاً على وجه ميساء وهي تقول "وماذا إن لم تتمكن من إصلاح السفينة؟.. ماذا لو عاد الرجال من مهمتهم والسفينة غير قادرة على الإقلاع بعد؟"

جلس نوح على أحد الكراسي وهو يمسح عرقاً من وجهه، ثم قال بشيء من اليأس "سنواجه غضبة رجال الأمن العارمة بالتأكيد.."

بدا الشحوب واضحاً على وجه ميساء، بينما أغمضت رُبى عينيها بصمت محاولة الحصول على بعض الراحة.. كان النبض المؤلم في عقلها لا يخفت أبداً منذ استيقظت من التجميد، وهذا يبعث في نفسها قلقاً لا محدوداً.. تنهدت وهي تتذكر الحوار القصير الذي دار بينها وبين طارق قبل رحيله لإنجاز هذه المهمة.. تذكرت أنها استوقفته متسائلة بشيء من القلق "لا تجازف كثيراً فيما ستفعله هذه الليلة.. فرغم كل شيء، أنتم لا خبرة لكم بهذه الأمور.."

لكن طارق نظر لها بشيء من الضيق قائلاً "ألستُ أنفذ ما خططتِ له؟.. إذن علام القلق؟.. كل ما يهمك هو الوصول لهدفك... أليس كذلك؟"

وغادر دون أن يعير نظراتها القلقة أي اهتمام، بينما خفضت رُبى بصرها قائلة باضطراب "ليس هذا ما عنيته، ولا ما أهدف إليه.."

لكنها كانت مدركة أنها قد تعمدت أن توحي لطارق بلا مبالاتها لما قد يجري له.. لذلك صمتت ولم تحاول محادثته من جديد حتى غادرت تلك الفرقة الصغيرة السفينة.. قد لا يغفر لها طارق ما تفوهت به سابقاً، لكن ليس هذا هو جلّ همها في هذه الرحلة..

****

في تلك الأثناء، ربض عابد وطارق وأحمد في جانب بعيد من تلك المساحة الواسعة حيث تقف السفينتان بهدوء، وراقبوها لفترة وأحمد يقول بتوتر كبير "هذا جنون.. ما كان عليّ إطاعة ما تقولانه.. من نحن لنتمكن من التسلل لسفينة الدورية ذاتها وتخريبها؟.."

قال عابد بضيق "كف عن التذمر يا هذا.. أنت تسبب لنا التوتر.."

علق طارق "لكن ألم يكن ما حدث مريباً؟.. لقد فوجئنا في بداية هذا النهار أن المركبات التي كانت تحيط السفينة قد تراجعت دون سبب مفهوم.. لماذا؟"

قال عابد "هذا مريب بالفعل.. شككت أنها خدعة منهم لدفعنا لمغادرة السفينة دون خوف، لذلك كان إصراري على تنفيذ هذه العملية ليلاً.. على الأقل بهذه الوسيلة يمكننا التخفي دون أن يرانا أحد.."

قال طارق مفكراً "لكنها كانت تتيح لمن يراقبنا رؤيتنا دون أن نلاحظه.."

نظر لهما أحمد بقلق متزايد، ثم اعترض قائلاً "ربما شعر رجال الدورية باليأس والتعب بعد ليلة طويلة قضوها في مراقبتنا.. لقد حاولوا دخول السفينة باستخدام العنف عدة مرات دون أن ينجحوا في ذلك، ولابد أنهم تراجعوا ليعيدوا المحاولة في وقت آخر.."

غمغم طارق "مستحيل.. لا أظن قائد الدورية بهذه السذاجة.."

قطب أحمد قائلاً بعصبية "أنتما تثيران قلقي أكثر بحديثكما هذا.."

اعتدل عابد قائلاً "المهم الآن أننا تمكنا من الخروج دون أن يلاحظنا أحد.. سنحاول إتمام ما جئنا لأجله والعودة بأسرع ما نستطيع.."

قال أحمد بقلق "أتظن أن الأمر بهذه السهولة؟.. ماذا لو قبضوا على أحدنا؟"

أجاب عابد "سنبحث عن هذا الأمر في حينه.."

وانحنى وهو يركض مبتعداً متخفياً في الصخور التي تحول بينه وبين أجهزة مراقبة السفينة أن تكشفه.. فقال طارق لأحمد "نفذ ما خططنا له.. لو كان تقديري صحيحاً فستتمكن من العودة لسفينة العلماء بسهولة بعدها دون أن يعترض طريقك أحد.."

وابتعد بدوره متخذاً طريقاً مغايراً للذي اتخذه عابد.. بينما زفر أحمد بتوتر كبير وهو يتطلع للسفينة الساكنة سكوناً تاماً.. وهمس لنفسه "هذه خطة سيئة.. لكن هل يمكنني التراجع الآن؟.."

بعد أن استجمع شجاعته، خرج من مخبئه وسار على قدميه قاطعاً تلك المساحات الصخرية وهو يتلفت حوله بحثاً عن أي عين تراقبه.. ولما اقترب من سفينة مجلس الأمن وألقت أضواءها عليه، وجد ثلاثاً من رجال الأمن يخرجون من السفينة بأسلحتهم ويحيطون به بإحكام.. ثم قال أحدهم بصرامة "إياك أن تفكر بالهرب بأي شكل من الأشكال.. لدينا أمر بقتلك على الفور دون هوادة.."

قال أحمد منفعلاً وهو يرفع يديه عالياً "أهرب؟.. مستحيل.. لقد أتيت لرؤية قائدكم، ولدي أمر مهم أقوله له.."

نظر الرجال لبعضهم البعض بصمت، ثم دفع أحدهم سلاحه في ظهر أحمد وهو يقول "تقدم أمامي بصمت.."

تقدم أحمد نحو السفينة دون اعتراض وهو يتلفت حوله بتوتر شديد.. وخلال لحظات، كان يقف أمام القائد الذي قال "ما الأمر؟.. من المريب سقوطك في أيدينا بهذه السهولة.."

لم يعلق أحد الرجال بينما هتف أحمد "أرجوكم، خذوني معكم للعالم الجديد.."

نظر له القائد بدهشة، بينما أضاف أحمد "لا أريد البقاء هنا.. أريد العودة، والبقية يرفضون ذلك بإصرار.."

تساءل القائد "كيف تقنعني بذلك وأنت مشارك في هذه الرحلة؟"

أجاب أحمد بعصبية "لم آتِ هنا بإرادتي.. لقد أجبرت على المشاركة في هذه الرحلة، وقد تم اختطافي من مستوطنة آريس واحتجازي طوال هذه المدة.."

تساءل القائد رافعاً حاجبيه "لماذا؟"

قطب أحمد قائلاً "يمكنك سؤالهم بعد أن تقبض عليهم.."

قال القائد "كيف ذلك؟.. إنهم متحصنون في تلك السفينة الخاصة بفرقة العلماء.."

أجاب أحمد بلهفة "أنا سأعينكم على اقتحامها، إن ضمنتم لي أنهم لن يؤذونني، وأنكم ستعيدوني لآريس بأسرع ما يمكن.. لا أريد البقاء في هذه الكوكب الملوث أكثر مما فعلت.."

ظل القائد ينظر له مفكراً بتقطيبة لوقت طويل اشتعل فيه توتر أحمد أضعافاً مضاعفة.. ثم هز القائد رأسه موافقاً وقال "لا بأس.. سنرى ما يمكنك فعله حالاً.."

وأشار لأحد رجاله قائلاً "خذه مع فرقة من الجنود إلى موقع سفينة الفرقة العلمية.. سأخبرك بتعليماتي عند وصولك إليها.."

بدا لأحمد أن موافقة القائد جاءت بأسرع وأسهل مما توقع، فراوده القلق وهو يقلب بصره بينه وبين رجل الأمن الذي جذبه وهو يغادر تلك الغرفة.. ولما غابا عن بصره، قال القائد لأحد رجاله "استعدوا.. يبدو أنهم ينتوون البدء بعد رحيل الدورية مع ذلك الشاب نحو سفينة الفرقة العلمية.. هل الرجال جاهزون؟"

أجاب أحد رجاله "أجل.. لقد أرسلت أربع فرق تجول الموقع من مبعدة مكونة من رجلين في كل فرقة.. ببعض المراقبة، سنتمكن من العثور عليهم بسهولة.. لكن، كيف يمكنك التأكد من أنهم سيغامرون بالاقتراب من السفينة هذه الليلة؟"

أجاب القائد "لا أظنهم بقادرين على استخدام سفينة العلماء، فهي لم تتحرك من موقعها منذ البارحة.. لذلك سيحاولون استعادة سفينتهم لتأمين خط الرجعة للعالم الجديد دون الوقوع في أيدينا.."

ونهض حاملاً سلاحه مضيفاً "ونحن سنستغل غباءهم هذا.."

تبعه بعض رجاله متسلحين بأسلحتهم، بينما ابتسم القائد مغمغماً لنفسه "سيقعون في أيدينا بكل تأكيد.."

****

مضى وقت طويل منذ وقفت نور بالمركبة في ذلك الموقع بعد أن تركها عابد ومن معه لأداء المهمة الموكلة إليهم.. ظلت نور في موقعها بقلق متزايد والصمت التام يشعرها بتوتر غير محدود، وسمعت بوبو يتململ قربها وهو يزوم بقلق واضح.. فهمست "اهدأ يا بوبو.. لست بحاجة لمزيد من التوتر.."

ظلت في توترها وهي تحاول رؤية شيء من الظلام المخيّم على المنطقة، بينما أطلق بوبو صوتاً أعلى وهو يدور في موقعه بقلق، فهمست نور "قلت لك اهدأ.. ما بك؟.."

لكن الجواب جاءها على صيغة عبارة تساؤل "أهذا أنت من جديد؟"

استدارت نور شاهقة وقد سمعت الصوت من خلفها، فرأت رجلين من رجال الأمن يقتربان منها وكل منهما يحمل سلاحاً في يده بتأهب.. توترت نور مدركة أن هربها مستحيل مع قربهما من المركبة، خاصة مع السلاحين اللذين يحملهما الرجلان بتهديد واضح.. لكن الاستسلام غير وارد بتاتاً..

سارعت نور لتشغيل المركبة وهي تأمل أن تتمكن من الهرب قبل أن يمنعها أيهما، لكنها فوجئت بطلقة تصيب إطار المركبة في اللحظة ذاتها فتفجره ليجعل هربها بها مستحيلاً.. عندها قفزت نور من المركبة وركضت يتبعها بوبو نحو الجانب الآخر حيث مجموعة كبيرة من الأشجار المجوفة التي قد تساعدها على تضليل مطارديها.. سمعت خلفها صيحة من أحد الرجال، لكنها لم تعبأ بها وهي تهرب بأسرع ما تستطيع، لكن قبل ابتعادها بكثير سمعت صوت طلقة نارية ارتطمت بصخرة قربها مما أفزعها وهي تتراجع خطوة فتسقط خلفاً.. نظرت نور خلفها بعينين متسعتين لترى أحد الرجلين يصوب سلاحه نحوها، بينما ركض الآخر حتى قبض على ذراعها قبل أن تعاود الهرب وهو يقول "أظننت الأمر بهذه السهولة؟.."

لم يكن من مصلحتها الاستسلام في هذه المرحلة، فقامت نور بعضّ يد الرجل بكل ما تملك بغية تحرير نفسها، فصرخ الرجل بألم ثم لطمها بقوة حتى سقطت أرضاً، واستخرج سلاحه وهو يصيح بحنق "أيها

الصبي الأحمق.. أتريد أن تموت؟"

مع التهديد الواضح الذي يواجه نور، تخلى بوبو عن ذعره ومخبئه خلف الصخرة القريبة وهو يقفز في وجه الرجل محاولاً إبعاده عن نور.. ومع قفزته المفاجئة التي لم يتوقعها رجل الأمن، فإن أصابعه قد ضغطت على الزناد لتنطلق الرصاصة وتصيب بوبو من موقع قريب.. أطلق بوبو صيحة ألم وجسده يسقط أرضاً على الفور قبل أن يغرق في صمت مريب..

صاحت نور مرتعبة وهي تنهض وتهبّ إلى جسد بوبو، لكن الرجل تجاوز الجسد الساقط أرضاً وقبض على نور من مجمع ثيابها وهو يقول لها بصرامة "ما الذي تفعله هنا؟.. أين البقية؟"

صاحت نور بغضب "لقد قتلته أيها الحقير.. لماذا أطلقت النار؟.."

هزها الرجل بقوة وهو يصيح "أجبني يا أحمق.. أين البقية؟"

قبض الرجل الآخر على يده وهو يقول "لا داعي لهذا العنف.. لن يجيبك الفتى وأنت بهذه العصبية.."

ثم قبض على ذراع نور التي حاولت مقاومته وهو يضيف "ألم تفهم سبب وقوف الفتى بالمركبة هنا؟.. إنهم هنا، وأغلب الظن أنهم يحاولون استعادة سفينتهم.."

اتسعت عينا نور بصدمة وهي تنظر للرجل، فتطلع لوجهها مؤكداً "هم هنا.. أليس كذلك؟"

عادت نور تقاومه وهي تصيح "اتركني.. دعني أذهب.."

لكنه جذبها عائداً للسفينة وهو يقول لرفيقه "أبلغ القائد أننا قبضنا على الصبي، وأن البقية قريبين من السفينة دون شك.."

لم تدرِ نور ما تفعله وهي بصدمة شديدة تتطلع لجسد بوبو الذي لم يتحرك من موقعه وللدماء التي سالت من تحته.. هل مات بوبو حقاً؟.. مات دفاعاً عنها؟.. والصدمة الأخرى أن المهمة قد فشلت قبل أن تبدأ.. أتكون هي السبب في فشل هذه المهمة؟..

شعرت نور بقلبها يتهاوى وهي عاجزة عن المقاومة، عاجزة عن تحذير رفاقها، وعاجزة عن إنقاذ ذلك الشخص الذي لم يتردد في القفز أمام سلاح رجل الأمن دفاعاً عنها.. بدا لها أن كل شيء تم التخطيط له على وشك الانهيار هذه الليلة، أو هو انهار بالفعل.. حاولت نور التخلص من رجل الأمن بالعديد من

الركلات والمقاومة العنيفة، لكن قبضته القوية كانت تلوي ذراعها خلف ظهرها بشكل محكم وهو يقول "إياك التفكير بالهرب يا هذا.. لن أتردد في إطلاق النار عليك.."

جسد بوبو، الذي انغمس في هذه المعركة الصغيرة التي لا دخل له بها، يرقد هامداً على الأرض دون حراك.. أهناك أسوأ مما جرى؟.. شعرت نور بشعور بغيض سيطر عليها وهي تسمع الرجل الذي يرافقهما يقول لصاحبه "القائد لا يستجيب لاتصالاتي.. أتظنهم قد أدركوا ما يحدث؟"

أجاب الرجل الذي يجرّ نور معه "ربما.. علينا أن نسرع بالعودة إليهم وتحذيرهم.."

فقال الأول "سأسرع إلى السفينة وأرى ما يجري.. حاذر أن يهرب منك هذا الفتى فقد نحتاج إليه.."

وركض نحو السفينتين بسرعة تاركاً رفيقه يجرّ نور التي تقاومه بشدة وهو يقول لها "كفّ عن هذه المقاومة.. أنت لا تريد مني إيذاءك.."

قالت بحنق وهي تحاول ركله "أنتم ستؤذونني في كلا الحالتين.."

وحاولت عضّه بقوة، لكنه دفعها بقوة ليبعدها عنه حتى سقطت أرضاً، فاعتدلت بسرعة محاولة الهرب قبل أن يقترب، لكنه قفز نحوها وركل ساقها فور وقوفها بركلة مؤلمة أجبرتها على السقوط على ركبتها بألم شديد.. ولما نظرت للرجل وجدته يقترب وهو يرفع عقب سلاحه قائلاً "من الأسهل حملك فاقد الوعي.."

اتسعت عينا نور وهي ترى السلاح يهوي نحوها في لحظة، وسمعت صوت الارتطام القوي إنما لم تشعر بأي ألم.. كل ما رأته هو ظلٌ يقفز أمامها فيتلقى الضربة على جسده، وشعرت بقطرات لزجة تنتشر مع قفزته على وجهها وملابسها.. ومع سقوط الجسد جانباً، استطاعت تبين جسد بوبو المشوه والغارق بدمه بسبب جرح في جانب بطنه.. لكنه سرعان ما نهض وأطلق صرخة حادة غاضبة قبل أن يقفز على الرجل من جديد ويعضّ جانب رقبته بأسنانه الحادة المشوهة.. أطلق الرجل صرخات ألم عالية وأسنان بوبو الحادة تجرح جانب عنقه بقوة، بينما تمالكت نور نفسها وهي تركل ركبة الرجل من الخلف بقوة.. فسقط أرضاً دون أن يفلته بوبو، عندها قفزت نور نحوه وضربت مؤخرة رأسه بقبضتيها المضمومتين.. ورغم أنها لم تتوقع النتيجة بالنظر لضعف ذراعيها، إلا أن رجل الأمن فقد وعيه وهو يستلقي أرضاً بصمت..

جذبت نور بوبو ليترك الرجل قبل أن يقتله حقاً، فتراجع بوبو متخبطاً وهو يضع يده على موضع الضربة التي أصابت جانب بطنه.. فقالت نور بتوتر وهي تدفعه ليجلس قرب إحدى الصخور "لا تقلق.. ستكون بخير.."

أصدر بوبو أنيناً وهو يلهث بقوة وشحوب واضح في وجهه، بينما تفحصت نور جرحه بقلق وهي تدرك أن الرصاصة لا تزال في جسده.. فكيف ستستخرجها؟..

نظرت خلفها للسفينة، ثم نظرت لبوبو.. كان السبيل الوحيد هو في إعادة بوبو لسفينة العلماء حيث يمكنها أن تعالجه باستخدام حقيبة الإسعافات الأولية التي استخدمها عابد سابقاً.. لماذا لم تحضرها معها في هذه العملية حتى ولو كان لمجرد الاحتياط؟..

حاولت إيقاف نزيفه الذي لم يكد يتوقف بقطعة اقتطعتها من ملابسه المهلهلة، وضغطت على الجرح بقوة وهي تهمس "يجب أن نبتعد عن هذا الموقع.. قد يحضر أحد رجال الأمن ويقبضوا علينا.."

ثم ربطت الجرح كيفما اتفق، عندها وجدته ينهض بأنين واضح ووقف يتلفت حوله بعين زائغة.. فقالت نور "يجب أن نعود بك للسفينة.. هناك ستلقى العلاج الملائم....."

نظر لها بعينيه الزائغتين وهمهم بأصوات مختلطة، ثم فوجئت به يستدير ويغادر بخطوات سريعة متخبطة.. فهتفت نور "مهلاً.. سنذهب بالمركبة.."

لكن بوبو لم يستدر إليها وهو يبتعد والظلام يبتلعه بصمت، وقبل أن تلحق به، سمعت نور صوت رجل الأمن القريب وهو يقول بألم "أيها الصبي المجنون.. ستلقى جزاء ما فعلته.."

نظرت نور للرجل الذي استعاد وعيه ونهض واضعاً يده على جرحه، ثم استدارت محاولة الهرب.. عليها الرحيل.. فوجودها أصبح خطراً.. كما أن بوبو بحاجة لمعاونتها.. لكن كيف يمكنها تحذير البقية؟.. وقبل أن تبتعد، فوجئت نور بطلقة تصيب الأرض أمام قدمها أجبرتها على الوقوف تبعها صياح من خلفها يقول "قف مكانك ولا تحاول الهرب.."

التفتت خلفها بقلق لترى الرجل الثاني الذي تركهم سابقاً قد عاد وهو يرفع سلاحه نحوها بتهديد قائلاً لصاحبة "ما الذي جرى؟.. لقد سمعت صياحك من مبعدة فأتيت لرؤية ما جرى.."

قال الأول بألم وهو يضع يده على موضع الجرح الذي سببته أسنان بوبو "اقبض على ذلك الصبي ولا تدعه يفلت.. ولو رأيت ذلك الرجل المتوحش، فاقتله على الفور.."

غمغم الرجل وهو يتقدم من نور "أهذا الجرح بسبب ذلك البدائي؟.. كيف استطاع التغلب عليك؟.."

حاولت نور استغلال الوضع والهرب، لكن الرجل الثاني كان قد قفز قفزة واسعة نحوها ودفع عقب سلاحه في ظهرها بقوة حتى أسقطها أرضاً على وجهها بحيث أصيبت بعدد من السجحات والكدمات في وجهها وذراعيها.. ثم جذبها من ذراعها بقوة قائلاً "سنعود معاً يا فتى.. فلا تفكر بالهرب من جديد.."

واقتادها نحو سفينة مجلس الأمن يتبعهما الرجل الأول، لتعود الأمور بالنسبة لنور من حيث بدأت..

****

بعد ابتعاد عابد عن رفاقه، ظل يسير متخفياً خلف الصخور وهو يدور دورة كبيرة حول تلك المنطقة محاولاً تقدير أفضل المواقع للاقتراب من سفينة نوح دون أن تكشفه أجهزة المراقبة.. لكن بدا له استحالة هذا فهو لا يعرف المساحة التي تغطيها أجهزة المراقبة ولا آلية عملها.. فكيف يمكنه تجاوز تلك النقطة؟..

ربض في أحد المواقع بين بعض الصخور متخفياً عن الأنظار وظل يراقب السفينة للحظات محاولاً معرفة عدد رجال الأمن المتواجدين قربها قبل أن يغامر بالاقتراب.. وبعد وقت قصير، استطاع أن يرى تلك المركبة المحملة برجال الأمن والتي اصطحبت أحمد معها وغادرت متخذة طريقها نحو سفينة الفرقة العلمية.. أدرك عابد عندها أن أحمد قد نجح في الجزء الخاص به وهو شغل رجال الأمن وصرف انتباههم عما ينتوون فعله في السفينتين، وبقي أن يقوم هو وطارق بعملهما دون إبطاء..

بعد لحظات من المراقبة، سمع عابد صوت حديث خافت يقترب من موقعه، فتحفز بقلق وهو يتلفت حوله بحثاً عن مصدر الصوت.. ثم اختبأ بين صخرتين كبيرتين تمنحانه فرصة مراقبة ما حوله دون أن يكشف نفسه.. وبعد لحظات، رأى رجلين من رجال الأمن يقتربان وهما يتحدثان بصوت خفيض، فتمسك عابد بالسلاح الوحيد الذي يملكه، وهو المسدس الصاعق، وربض في موقعه متأملاً الرجلين من

مخبئه.. ومع اقترابهما، استطاع أن يستمع جانباً من الحديث الدائر بينهما، والذي جذب اهتمامه بشدة.. فسمع أحدهما يقول "أتظن أن أصحاب السفينة سيحاولون التسلل إليها حقاً؟.."

أجاب الآخر "أغلب الظن.. القائد يتوقع أن يعجز أولئك الأشخاص من الرحيل بواسطة سفينة الفرقة العلمية، عندها سيعمدون للتسلل إلى سفينتهم واستعادتها.."

علق الآول "إذن، لهذا السبب طلب منا القائد التراجع عن محاولة اقتحام تلك السفينة؟"

هز الآخر رأسه إيجاباً وقال "تراجعنا عن الحصار سيجعلهم أكثر اطمئناناً وجرأة في تنفيذ ذلك.. خاصة مع خبرتهم القليلة في هذا المجال.."

غمغم الأول "مع قلة خبرتهم، فإنهم قد نجحوا في الإفلات منا عدة مرات.."

قال الآخر "لذلك يمكنك أن تفهم سبب حنق القائد.. لا يمكننا أن نفشل هذه الليلة.. يجب أن نقبض على هذه الشرذمة ونستعيد....."

فوجئ الأول برفيقه ينتفض بألم للحظات قبل أن يهوي أرضاً، ولما انتبه لوجود شخص خلفه استدار رافعاً سلاحه صائحاً "من هناك؟..."

لكن عابد دفع السلاح الصاعق في صدر رجل الأمن الذي لم يتصرف بالسرعة الملائمة، فارتجف جسده بقوة وألم لقوة الشحنات الكهربية التي سرت فيه قبل أن يتكوم أرضاً جوار رفيقه.. فزفر عابد قائلاً "من حسن حظي أنكما اقتربتما من موقعي دون أن تفطنا لوجودي.."

نظر للرجلين الملقيين أرضاً، وطرأت لذهنه فكرة راقت له، فابتسم مغمغماً "لو تعلمان ما سيقدمه لي وجودكما من خدمات، لأصابكما الغيظ لذلك.."

وجذب أحد الرجلين نحو موقع يخفيه عن الأعين وهو يتلفت حوله بحذر، ثم عاد ليجذب الرجل الثاني ويضعه قرب رفيقه.. أسرع يجرد أكبرهما حجماً من ثيابه وارتداها، ليجد أنها بالكاد تناسب حجمه، ثم استولى على سلاحه ووضع القبعة على رأسه على أمل أن تخفي بعض ملامحه عن أعين الآخرين.. تطلع حوله بحثاً عمن يمكن أن يكشف ما فعله، ثم تقدم نحو السفينتين بشيء من الحذر محاولاً ألا يلفت الأنظار إليه.. كان الحوار الذي سمعه من رجلي الأمن يقلقه، لكنه لم يكن يملك أي وسيلة لتحذير رفيقيه

ولا العودة لسفينة الفرقة العلمية بالسرعة المناسبة.. فقرر أن يستمر في أداء المهمة الموكلة إليه على أمل ألا تكون الأمور بالسوء الذي تنذر به.. لا يمكن أن يكون الآخران بالحمق الكافي ليسقطا في مثل هذا الفخ.. عليه فقط أن يأمل ذلك..

خلال وقت قصير، كان يقترب من سفينة نوح مبتعداً عن المواقع التي تنيرها الكشافات الخاصة بسفينة دورية الأمن، معوّلاً أن يتولى الظلام مهمة إخفاء هويته.. لاحظ أن مدخل سفينة نوح مفتوح ودون مراقبة، مما جعله يشك أكثر وهو يتلفت حوله ممسكاً بالسلاح الذي استولى عليه من رجال الأمن.. عليه فقط أن يصل للسفينة، وبعدها يمكنه أن يغلق الأبواب خلفه بإحكام حتى يتم عمله.. أما الهرب، فسيكون أسهل باستخدام إحدى المركبات.. خطة رغم بساطتها، وسذاجتها، إلا أنها يمكن أن تنجح ببعض الحذر والكثير من الحظ..

تلفت عابد حوله بحذر، ثم تقدم من بوابة سفينة نوح مغمغماً لنفسه "قليلاً بعد.."

وفور أن تجاوز البوابة، فوجئ بأحد رجال الأمن أمامه قادماً من قلب السفينة.. وفور رؤيته صاح به "ما الذي عاد بك إلى السفينة يا هذا؟.. ألم تكن مع البقية في جولات مراقبة حول المنطقة؟.."

وقف عابد في موقعه وقد غلبته المفاجأة.. كان يأمل أن يخفي الظلام الجزئي في الموقع هويته، لكن ماذا عن صوته؟.. هذا سيكشفه بسرعة لو كان رجل الأمن يعرف رفاقه معرفة تامة..

تقدم الرجل من عابد بحزم صائحاً "أجبني.. ما الذي عاد بك؟.."

فقال عابد بحزم متمالكاً ارتباكه "إنها أوامر القائد.."

نظر له الرجل محاولاً تبين هويته، ثم رفع يده التي تحمل مصباحاً صغيراً قائلاً " أنت..... أأنت جوليان؟!.."

قبض عابد على سلاحه بقوة وهو مدرك أن المواجهة قادمة بالتأكيد.. لكن جذب انتباههما في تلك اللحظة صوت طلقات نارية متتالية تعالت في المنطقة.. فنظر الرجل خلف عابد قائلاً "يبدو أنهم أفلحوا بالإمساك بهم.."

تعالت عدة صيحات من خلفهم وأصوات طلقات نارية من جديد، فابتعد الرجل قائلاً لعابد "لنذهب..

قد يحتاجون عوننا.."

لكن عابد دفع سلاحه في ظهر الرجل بقوة أسقطته أرضاً، ثم عاجله بضربة أخرى على رأسه أفقدته الوعي.. عندها جذبه جانباً وأخفى جسده وهو يغمغم "تخلصنا من واحد.. لكن ماذا عن البقية؟.."

نظر خلفه لموضع الأصوات العالية مقطباً.. هل مصدر هذه الأصوات هو طارق؟.. هل قبضوا عليه؟.. كيف كشف هذا الأحمق موقعه بهذه السرعة؟!.. ظل يقلب بصره بين سفينة نوح وبين ذلك الجانب البعيد حيث الطلقات النارية تتردد من جديد، وهو يحاول تقرير التصرف الأمثل الذي عليه اتباعه.. ولما استطاع تمييز صوت نور من بين الأصوات العالية، قال بحنق "اللعنة.."

واستدار مغادراً على الفور نحو ذلك الموضع الذي تجمع حوله رجال الأمن..

****

ألقى نوح جسده على أحد الكراسي في غرفة القيادة وهو يتنهد بتعب شديد، بينما تساءلت ميساء "ما الأخبار؟.. هل استطعت تحقيق شيء؟"

قال نوح ملوحاً بيده "من تظنينني؟.. لم أملك خبرة خمساً وثلاثين سنة عبثاً.. لقد اكتشفت العطل، وآلات الصيانة تقوم بعملها على أكمل وجه الآن.. سينتهي الأمر خلال ساعات معدودة.."

ثم اعتدل متسائلاً بدوره "ماذا عن الرفاق؟.. ألم يعد أحد منهم بعد؟"

هزت ميساء رأسها نفياً وهي تقول "لا.. ليس بعد.."

تطلع نوح جانباً ليجد رُبى قد غفت على أحد الكراسي، فقال "تبدو متعبة كثيراً.. أهي بخير؟"

قالت ميساء بحيرة "لا أدري.. إنها لا تفصح لي عن أمر.. عندما ألححت على طارق بالسؤال قبل رحيله، أخبرني أنها كانت بحالة صحية سيئة في فينون، لكنه يجهل نوع مرضها ولا ما حلّ به.."

فتحت رُبى عينيها في تلك اللحظة ونظرت إليها بنظرة متعبة، ثم ابتسمت قائلة "ما أشعر به هو نتاج عملية التجميد.. فلا تقلقي يا ميساء.."

صمتت ميساء بغير اقتناع، بينما التفتت رُبى لنوح الذي يستمع إليها صامتاً وقالت "ما الأخبار يا نوح؟.."

أجاب نوح بابتسامة "كما توقعتِ، اكتشفت العطل وسيتم إصلاحه خلال وقت قصير.. كانت هناك مشكلة في خزانات الوقود الهيدروجيني بحيث لا يصل الوقود للمحركات.. لكن أجهزة الصيانة لم تكشف الأمر في البدء ولذلك تأخرت حتى عرفت السبب.."

غمغمت رُبى بابتسامة "رائع.."

لم تعلق ميساء وهي تنظر للنافذة التي تطل على الموقع خارجاً بقلق واضح.. أحمد مع البقية في هذه المهمة الخطرة.. وكما قال طارق، مجلس الأمن لا ينتوي الحفاظ على حياة أحدهم لو استطاع الوصول إلى رُبى.. فهل سيكونون بخير في مواجهة كهذه؟..

رأت نوح يعتدل بحدة في تلك اللحظة محدقاً في شاشة جانبية، ثم نظر إليهما قائلاً بانفعال "هناك مركبة قادمة.."

اقتربت منه ميساء بسرعة متسائلة بلهفة "أهي مركبتهم؟"

نظر نوح لشاشة الراصد التي تعرض المركبة كنقطة صغيرة وسط تفاصيل الموقع، وغمغم "إما أن تكون هي، أو تكون مركبة رجال الأمن.."

نظرت له ميساء بصدمة، فأضاف متطلعاً إليها "هذا كان جزءاً من خطتنا.."

قالت ميساء بقلق "أتعني الجزء الخاص بأحمد؟"

لم يعلق نوح بينما عادت ميساء ببصرها للنافذة بانتظار أن تظهر تلك المركبة من بين المنحدرات الصخرية التي تحيط بالسفينة.. وبعد لحظات، ظهرت المركبة واضحة أمامهم فأدركوا على الفور هويتها، واستطاعت ميساء أن تلمح أحمد يجلس وسطها بقلق تام..

اقتربت رُبى متطلعة للموقع بدورها قائلة "أأنت مستعد يا نوح؟"

هز نوح رأسه إيجاباً وهو يعبث في أحد أجهزته، بينما رأوا رجال الأمن يهبطون من المركبة برفقة أحمد، وأحدهم يجذب أحمد ليقف أمامه وهو يصيح "أنتم تسمعونني بالتأكيد، وتعرفون ما نريده منكم.. استسلموا وافتحوا أبواب السفينة حالاً إن كنتم تريدون ألا نمسّ هذا الشاب بأذى.."

نظر إليه أحمد بقلق قائلاً "ليس هذا ما اتفقنا عليه.."

لم يعلق رجل الأمن بكلمة بينما نظرت ميساء إلى رُبى ونوح قائلة بتوتر "أأنتما متأكدان من نجاح خطتكما؟"

لم يجب أحدهما ورجل الأمن يصيح من جديد "لن ننتظر جوابكم لوقت طويل.. عليكم الاستسلام خلال دقيقة واحدة وإلا..."

ودفع سلاحه في ظهر أحمد الذي قلب بصره بينهم وبين السفينة بتوتر واضح، فقالت ميساء "ما الذي تفعله يا نوح؟.. نفذ الخطة بسرعة قبل أن يؤذوا أحمد.."

قال نوح بتوتر "لا أدري ما جرى.. حاولت بث ذبذبة صوتية بشدة عالية وأنا متأكد أنها ستتسبب بألم كبير وفقدان وعي لرجال الأمن، بما أنهم يستخدمون أجهزة اتصالات مفتوحة على الدوام لسهولة التواصل مع الجهاز الرئيسي في سفينتهم.. لكن لم يكن لهذا أي تأثير عليهم.."

فقالت ميساء "إذن علينا فعل أي شيء.. لنستسلم لهم في الوقت الحالي ونبحث عن طريقة أخرى للتخلص منهم.."

استوقفتها رُبى قائلة "فتح الأبواب يعني أن نقع جميعاً في قبضتهم.. عندها لن يكون أحدنا بمأمن أبداً.."

قالت ميساء بتوسل "وهل نملك حلاً آخر؟.. لا يمكننا التخلي عن أحمد الآن.."

غمغم نوح وهو ينظر عبر النافذة "لا أظنهم سـ....."

قطع قوله مع تلك الضربة التي أصابت ظهر أحمد وأسقطته أرضاً بعقب السلاح ورجل الأمن يصيح "هذا إنذار أخير.. لا حاجة بنا لهذا الرجل بتاتاً.. لو لم تفتحوا الأبواب الآن، فستندمون على هذا.."

صاح أحمد بهلع "ألم يتفق قائدكم على التعاون معي؟.. لن يكون القائد راضياً عندما تؤذونني بالتأكيد.."

نظر له رجل الأمن بسخرية معلقاً "لقد كانت أوامر القائد أن نجبرهم على فتح أبواب السفينة.. حتى لو اضطررنا لقتلك.."

نظر له أحمد بفزع ورجل الأمن يضيف "أظننت أنك خدعتنا بتمثيليتك الصغيرة هذه؟"

صاحت ميساء بتوسل "أرجوك يا نوح.. افعل شيئاً.."

راقب نوح الوضع للحظات وهو يفكر بحلّ لهذه المعضلة، ثم غمغم وهو يمد يده نحو أحد أجهزته "لا

ضير من تكرار المحاولة للمرة الأخيرة.. وبعدها لا مفر من الاستسلام.."

عبث بمؤشر ذلك الجهاز للحظات قبل أن يضغط زراً فيه.. عندها بدا أثر تلك الذبذبة واضحاً ورجال الأمن يضعون أيديهم على آذانهم متلوين من الألم.. وبدأ بعضهم بخلع أجهزة الاتصال للتخلص من تلك الذبذبة المزعجة.. عندها استغل أحمد الفرصة وهو ينهض ويركض نحو السفينة القريبة في نفس اللحظة التي فتح فيها نوح بوابة السفينة بسرعة..

انتبه بعض رجال الأمن لهروب أحمد بعد تخلصهم من أجهزة الاتصال، فقام بعضهم بتصويب أسلحتهم نحوه محاولين إيقافه، وتطايرت الرصاصات حوله دون أن يتوقف عن الركض ثم قفز متجاوزاً الأمتار القليلة وهو يسقط متدحرجاً في قلب السفينة التي أغلقت أبوابها بالسرعة الكافية قبل أن يصل إليها رجال الأمن..

وقف أحمد في موقعه متألماً، ونظر لساقه ليجد في موضع الألم الحارق بعض الدماء التي سالت من جرح فيها سببته إحدى الرصاصات المتطايرة.. فحاول تجاوز الألم وهو يتجه نحو غرفة القيادة ساحباً ساقه المصابة.. بدت محاولات رجال الأمن لفتح البوابة خلفه واضحة، لكنه لم يعبأ بها وهو يرى ميساء التي اندفعت نحوه قادمة من غرفة القيادة وصاحت فور رؤيته "أأنت بخير؟.. يا إلهي.. إنك مصاب.."

غمغم أحمد "إصابة طفيفة.. سأقوم بعلاجها فور أن ننتهي من هذه المهمة.."

دلف غرفة القيادة ليجد نوح يقوم بإعداد السفينة، بينما ابتسمت رُبى ابتسامة شاحبة وهي تقول له "حمداً لله على سلامتك يا أخي.."

لم يجبها أحمد وهو يتقدم من نوح متسائلاً "هل السفينة جاهزة للرحيل؟"

أجاب نوح بابتسامة "على أتم الاستعداد لذلك.."

فور أن أتمّ قوله، بدأ هدير محركات السفينة بوضوح وبدأت السفينة تتململ بعد طول مكوث في هذا الموقع.. وخلال ثوانٍ معدودة، كان نوح يرتفع بها بحذر بين المنحدرات الصخرية قبل أن يوجهها نحو المساحة الصخرية الواسعة التي ربضت فيها سفينته برفقة سفينة دورية الأمن..

****

عندما رأى طارق مركبة الدورية التي حملت أحمد تبتعد عن الموقع، زفر بشيء من الراحة قائلاً "الآن، يمكننا البدء بهذه المهمة.. لكن، هل رأى عابد رحيل المركبة بدوره؟.."

نهض من موقعه وتسلل بخطوات سريعة خافتة نحو سفينة مجلس الأمن من جانب مغاير للذي اتجه منه عابد.. كانت الخطة تقضي منهما التسلل من جهتين مختلفتين لئلا يقعا في قبضة رجال الأمن معاً لو سقط أحدهما.. بينما يتخلص أحمد من بعض خصومهم باستدراجهم نحو سفينة الفرقة العلمية ليتولى نوح أمرهم.. بهذا، تبقى السفينتان في حراسة عدد أقل من رجال الأمن..

سار طارق متلفتاً حوله وهو يقبض على السلاح الذي يملكه بقوة، وهو ذاته السلاح الذي استلبه من قائد الدورية، ملاحظاً الصمت التام الذي يغلّف الموقع بشكل بدا له مشبوهاً.. ولما بقيت أمتار قليلة تفصل بينه وبين السفينة، وصل لسمعه صوت رصاصة تردد من مبعدة أثارت نفضة في جسده وهو يستدير نحو مصدرها.. وبالنظر لبعد الصوت عنه، فقد خمّن أن الرصاصة قد أطلقت من تلك المرتفعات الصخرية البعيدة التي تطلّ على هذه المساحات الواسعة.. لكن ما مصدر هذه الرصاصة؟.. أهم رجال الأمن؟.. ولمن كانت موجهة؟..

ازداد قلقه وهو مختبئ خلف صخرة كبيرة قريباً من السفينة، عندما ترددت رصاصة أخرى من ذات الموقع أثارت توتره بشدة.. لو كان عابد، أو نور، في ذلك الموقع، فهذا معناه أنهما يحتاجان عونه بشدة.. فهل يعود أدراجه أم يكمل مهمته مهما كان الظرف الحالي؟..

رأى في تلك اللحظة عدداً من رجال الأمن يخرجون من سفينتهم القريبة، فزاد طارق من انحنائه خلف الصخرة خوفاً من أن يروه وهو يراقبهم.. كان عددهم يزيد على عشر رجال، ولما رآهم يقفون صفاً مقابل الصخرة التي يختبئ خلفها، تضاعف قلقه أضعافاً.. رأى القائد يقف خلف الرجال ويصيح "اخرج من مخبئك.. نحن نعلم أنك هنا ونعلم بالسبب الذي دعاك للتسلل لهذا الموقع.."

شدّ طارق قبضته على سلاحه وهو يراقبهم بتوتر مضاعف، بينما صاح به القائد "اخرج قبل أن نأتي إليك

بأنفسنا.."

لم يتحرك طارق من موقعه، عندما سمع صوت طلقات نارية ترتفع في المكان وسمع صدى ارتطامها بالصخرة التي يختبئ خلفها وبالأرض الصخرية حولها.. دام الأمر ثواني قليلة قبل أن يهدأ كل شيء والقائد يصيح من جديد "لو خرجت الآن، فلن نحاول إيذاءك.. أنا أضمن لك هذا.."

جزّ طارق على أسنانه وهو يفكر بالوسيلة المثلى للهرب دون الوقوع في قبضتهم، وتساءل عن حال البقية بقلق.. انتبه في تلك اللحظة للخطوات التي أخذت تقترب من موقعه، فصوّب تجاههم سلاحه محاولاً ألا يبدو لهم من خلف الصخرة وأطلق بضع رصاصات عشوائية لإبعادهم عنه.. فتراجع الرجال خطوات وهم يبادلونه إطلاق النار للحظات.. عاد طارق يختبئ خلف الصخرة وهو يهمس "تباً.. ما الذي يمكنني فعله الآن؟"

سمع صوت القائد يقول في تلك اللحظة "استسلم دون مقاومة فهذا ليس في صالحك.. وليس في صالح رفيقك الصغير هذا.."

نظر طارق من خلف الصخرة بتوتر ليلاحظ رجلي الأمن اللذين تقدما من هذا الموقع بخطوات سريعة، وأحدهما يدفع نور أمامه وهي تقاومه بشدة.. وفور وصولهم، قبض القائد على نور ووجه سلاحه نحوها قائلاً "هذا ليس طلباً.. استسلم قبل أن أفرغ رصاصات سلاحي في جسده.."

أغمض طارق عينيه بقوة وهو مدرك أن سقوطه في أيدي رجال الأمن محتوم منذ البداية.. لقد كانت هذه المهمة فاشلة منذ البدء، لذلك لا يمكنه أن يلوم نور لسقوطها في أيديهم..

زفر وهو ينظر للسلاح في يده، ثم صاح "هل تضمن لي أنك لن تؤذي أحداً منا؟"

أجاب القائد "لا ضمانات عندي إلا بقدر تعاونك معي.."

لم يملك طارق حيلة من أمره، فرمى سلاحه من فوق الصخرة، ثم وقف بهدوء رافعاً يديه.. وعلى الفور، اندفع رجال الأمن يحيطون به بينما أطلق القائد نور ودفعها قرب طارق معلقاً "رائع.. والآن، أين البقية؟.. لا يمكن أن تكون قد حاولت التسلل للسفينة وحيداً وبرفقة هذا الصبي فقط.."

قطب طارق قائلاً "بل نحن وحيدين.. البقية في سفينة الفرقة العلمية كما تعلمون جيداً.."

قال القائد بملل "كف عن الاستهانة بي.."

وجد طارق الأسلحة ترتفع نحوهما بسرعة بينما قال القائد بحزم "أين البقية؟.. أجب عن هذا السؤال الآن.. والأهم من هذا.. أين الفتاة؟"

تجمدت نور بفزع بالغ وهي تجد الأسلحة موجهة نحوها مما لا يقل عن عشرة رجال، بينما تراجع طارق وهو يحميها بجسده ويتلفت حوله بتوتر بالغ.. فهمست نور وهي تشدّ قبضتيها "ما الذي سنفعله الآن؟"

غمغم طارق وهو يشد على قبضتيه بقوة "فليرحمنا الله تعالى.."

دارت نور ببصرها حولها عسى أن تلمح عابد في أي اتجاه.. قد يتمكن من إنقاذهما بوسيلة ما.. لكن كل من رأتهم هم مجموعة من رجال الأمن بأرديتهم السوداء بالشعار الأحمر الذي يحتل صدر الرداء، والقبعة على الرؤوس بحيث بدا الكل متشابهين في نظرها، وزادها الضوء القادم من السفينة خلفهم إثارة لرهبتها، بينما صاح القائد بحدة واضحة "كف عن تجاهلي كلما سألتك عن الفتاة.. نحن نعلم أنها جاءت للأرض معكم، ونعلم أنها ليست ميتة.. فأين هي؟.."

وإزاء صمت طارق المستمر، ابتسم القائد مضيفاً "لا حظ أننا لا نحتاج إليكما معاً للوصول لهدفنا.. شخص واحد يكفينا.."

اتسعت عينا نور بذعر واضح، ولم يخفَ عليها اليأس الذي بدا في عيني طارق.. فضمّت نور يديها لصدرها وهي تدير بصرها فيمن حولها برعب واضح.. من سيختار القائد لاستبقائه؟.. من سيطلق رصاصات سلاحه على الآخر؟.. أين هو الموضع الذي سيصيبها في مقتل برصاصة واحدة؟.. هل ستتألم؟.. كانت كل هذه الأفكار تعصر صدرها بشدة وهي تنقل بصرها بين الأعين الجامدة وبين فوهات الأسلحة الباردة التي تتأهب لاقتناص حياتها بإشارة واحدة..

لاحظت، في تلك اللحظة، أحد رجال الأمن يتقدم بسرعة خلف القائد، وقبل أن يستدير القائد إليه أو يتحرك أحد الرجال حوله، كان ذلك الرجل قد رفع قدمه وركل القائد بقوة شديدة ألقته أمتاراً للأمام في اتجاه طارق ونور.. ثم استغلّ الرجل صدمة رجال الأمن الذين لم يستوعبوا ما جرى في تلك الثانية، فقفز نحو القائد وجذبه ليوقفه محيطاً عنقه بقوة بذراعه ومصوباً أحد الأسلحة نحو رأسه وهو يتراجع بظهره

نحو طارق ونور..

نظرت نور إليه بدهشة وهي تتعرف ملامح عابد من الظلال التي ألقتها القبعة على وجهه، وهي لم تدرك هويته بسبب ارتدائه أحد أردية رجال الأمن.. بينما قال طارق بدهشة "عابد؟.. أين كنت؟"

لم يجبه عابد وهو يضغط على عنق القائد بذراعه ويصيح برجال الأمن "لا يحاول أحدكم إطلاق طلقة من سلاحه.. لن يمكنكم إنقاذ قائدكم بتاتاً عندها.."

كانت الأصابع قد أمسكت الزناد والأسلحة تتوجه لعابد ورفاقه بالفعل، لكن القلق من تهديد عابد قد جعلهم يخفضون الأسلحة وهم يتبادلون النظرات ويتطلعون لقائدهم الذي حاول التخلص من قبضة عابد القوية دون أن يفلح في ذلك.. فقال القائد بحدة "أتظن أنني سأمكّنك من النجاة؟.. محال.."

قال عابد بصرامة "هذا ليس خياراً متاحاً لك.."

حاول طارق استعادة سلاحه الذي سقط على مقربة بشيء من الحذر، فأطلق أحد رجال الأمن رصاصاته لمنعه من ذلك.. لكن طارق الذي كان متوقعاً هذا الأمر قفز بسرعة مبتعداً بعد أن التقط سلاحه بخفة.. ورفعه في وجوه رجال الأمن حوله قائلاً "ما الذي سنفعله الآن؟.. مازلنا محاطين بعشرة رجال منهم.."

ابتسم عابد بهزء قائلاً "عشرة رجال لا فائدة منهم بدون قائدهم.."

علق القائد بسخرية بدوره "لو ظننت أن القبض عليّ سيمكّنك من النجاة، فأنت واهم.."

ثم أضاف بصرامة "قد تستطيع الاختباء خلفي لئلا تصيبك رصاصات رجالي.. لكن ماذا عن البقية؟"

نظر له الثلاثة بقلق وصاح عابد بحدة "لا تجرؤ.. سأقتلك في الحال.."

لكن القائد صاح برجاله "اقتلوا البقية يا رجال.."

شهقت نور بذعر بالغ فيما ارتفعت الأسلحة في جزء من الثانية نحوهم وبتزامن مدهش.. وبدا لها أنها تشهد ثانيتها الأخيرة في هذا العالم..

وكل ما دار بذهنها لحظتها أنها لم تحقق هدفها من هذه الرحلة قط..

****

الفصل الرابع عشر

عندما صاح القائد يأمر بقتل الجميع، أغمضت نور عينيها بشدة والأسلحة ترتفع نحوهم.. انتظرت الألم الذي ستشعر به عندما تخترق الرصاصة جسدها، أو رأسها، في إصابة قاتلة.. أم أن الميت لا يتألم؟..

سمعت الدويّ المزعج يتردد في المكان، لكن لدهشتها لم تشعر بأي ألم، أو حتى غياب لوعيها.. ولما فتحت عينيها بدهشة رأت البقية حولها يتلفتون بدهشة مماثلة.. لكن ما جذب انتباهها في تلك اللحظة ذلك الوميض الذي بدا من خلف جماعة الرجال والذي جذب أنظارهم بشدة.. وبعد ثوانٍ، اندلع انفجار آخر في موضع قريب أضاء الظلمة في ذلك الموقع.. عندها رفع الجميع بتزامن واحد رؤوسهم للأعلى عندما انتبهوا لذلك الصوت الذي يتردد فوقهم، والذي بدا أنه مصدر تلك الانفجارات.. وفي عرض السماء، كانت السفينة التابعة لفرقة العلماء تحلق فوق رؤوسهم بتهديد واضح ونور القمر الشاحب يلتمع على سطحها المعدني..

فصاحت نور بشيء من الارتياح "إنه نوح.."

كان القائد أول من تمالك نفسه وهو يصيح برجاله "لا تعبؤوا بالسفينة واقتلوهم.."

فصاح عابد بصوت أعلى "لو أطلقتم رصاصة واحدة، فستطلق السفينة صواريخها نحو الجميع ولن ينجو أحد.. ما الذي ستحققونه عندها بهذا التهور؟"

وصلت السفينة لموقعهم وهدير محركاتها يعلو بشكل واضح، بينما غمغم نوح متنهداً " في الوقت المناسب.."

تقدمت ميساء متسائلة بقلق "هل الجميع بخير؟.."

أجاب نوح "إنهم بخير كما يبدو.."

تقدمت رُبى من شاشة الرصد بلهفة وهي تراقب المجموعة الصغيرة المحاطة بمجموعة أكبر من رجال الأمن بزيهّم الأسود القاتم في ظلمة هذه الليلة.. دارت ببصرها بين الثلاثة الذين وقفوا في الوسط مولين

ظهورهم لبعضهم البعض وهم يتلفتون حولهم بقلق شديد.. ولما استطاعت أن تلمح طارق، أطلقت تنهيدة راحة كبيرة وهي تهمس "إنه بخير.."

قال نوح مقطباً "علينا أن ننتشلهم من الموقع بسرعة قبل أن يتخذ رجال الأمن إجراءً أكثر حدة.."

لكن رُبى همست من جديد "إنه بخير....."

وتمايلت في وقفتها للحظة قبل أن تسقط فاقدة الوعي.. فأسرعت ميساء القريبة لالتقاطها قبل أن تسقط سقطة قاسية على الأرض.. وهتفت وهي تهزها "رُبى.. ما بك؟.."

ظل أحمد ينظر لها بشيء من القلق، بينما قال نوح بتوتر وهو يدور فوق الموقع بسفينته "ما الذي دهاها؟.. أهو ناجم عن التوتر؟"

أجابت ميساء بذعر "لا.. لا أظنها ستفقد الوعي لهذا.. رُبى.. أرجوك استيقظي.."

سمعت نوح يقول "إنهم يشيرون لي لانتشالهم.."

ثم التفت إلى أحمد مضيفاً بسرعة "عليك أن تساعدني في هذا.. انطلق إلى البوابة، وسأدلك على ما تفعله عندما تصل هناك.."

استجاب له أحمد على الفور وهو يغادر غرفة القيادة، بينما حاولت ميساء جذب رُبى نحو أحد الكراسي في الغرفة دون فائدة.. عندها جلست قربها وهي تضمّها وتهزها بقلق شديد قائلة "استيقظي يا فتاة.. أرجوك لا تفزعيني أكثر من هذا.."

في تلك الأثناء، كان أحمد قد وصل إلى بوابة السفينة، وهناك سمع صوت نوح عبر جهاز الاتصال يدله لما عليه فعله لانتشال البقية من الأرض.. بينما انخفض نوح بسفينته محاولاً إبطاء سيرها قدر استطاعته، وظل يراقب ما يجري من شاشة الرصد.. وبعد لحظات، رأى الجميع حبلاً من ألياف صناعية يهبط من السفينة حتى موقع قريب من الثلاثة الواقفين وسط حلقة من رجال الأمن.. فقال عابد وهو يزيد ضغطه على القائد الذي حاول مقاومته "أسرعا بالرحيل.. سأتبعكما بعدها على الفور.."

أمسك طارق الحبل ووضع قدمه على القاعدة المعدنية التي ينتهي بها، ثم جذب نور لتصعد قربه وأمسك بها بإحكام.. عندها بدأ الحبل يصعد بشيء من السرعة شهقت لها نور حتى وصل بهما لبوابة السفينة التي

كانت مفتوحة بشكل جزئي.. فقفز طارق فور وصولهم ومعه نور قبل أن يلاحظ أحمد الذي وقف قرب رافعة صغيرة عند الآلة التي تطوي الحبل.. فقال طارق "إذن تمكنت من الهرب منهم؟"

أجاب أحمد بتوتر "لم أكن لأفعل لولا مساعدة نوح لي.."

توجه طارق لجهاز الاتصال القريب وقال لنوح "لا يزال عابد في الأسفل يا نوح.. وبعد انضمامه إلينا، عليك أن تفعل شيئاً لتعطيل سفينة مجلس الأمن.. لم نتمكن من تحقيق هدفنا من عملية هذه الليلة بتاتاً.."

جاءه صوت نوح عبر الجهاز يقول "سأرى ما يمكنني فعله.."

وفي الأسفل، لاحظ عابد أن بقاءه وحيداً بعد رحيل طارق ونور قد أغرى الرجال بالهجوم عليه قبل أن يفلح بالهرب.. ولو حدث هذا، فلن يكونوا قد خسروا شيئاً بهروب البقية.. كما تأكد له أن رجال الأمن يعتقدون بوجود رُبى في تلك السفينة، لذلك هو قد غدا عديم الأهمية بالنسبة لهم..

تلفت عابد حوله بحذر وهو يصيح دافعاً السلاح في صدغ القائد " إياكم أن تبدر منكم أي حركة لا تعجبني.."

لم يجد من أحدهم لمحة تردد وهم يتقدمون منه والأيدي متوترة على زناد أسلحتها، لكنهم فوجئوا بطلقة تصيب الموقع خلفهم انفجرت انفجاراً محدوداً أطاح بالرجال الأقرب إليه، بينما كاد الانفجار يطيح بعابد بدوره لولا بعده عنه بعض الشيء.. وفي تلك اللحظة كان الحبل يتدلى قريباً من عابد، فسارع لالتقاطه وهو يجذب القائد بشدة رغم مقاومته قائلاً "أنت ستصحبني في هذه الرحلة.."

قاوم القائد بعنف، لكن كون عابد الأكبر حجماً وقوة كان له الغلبة عليه، وهو يتمسك به بشدة بينما ارتفع الحبل بسرعة نحو السفينة.. كان وجود القائد هو تذكرة أمانه المؤقته حتى وصوله للسفينة، كما أن رجال الأمن لن يجرؤوا على إصابة السفينة بأسلحة سفينتهم مادام القائد فيها..

وما كاد عابد يصل للسفينة، وهو يدفع القائد وسط القاعة بشدة، حتى سمع طارق يصيح عبر جهاز الاتصال "كلنا هنا يا نوح.."

فقال نوح "إذن، بقي أمر واحد.."

سمعوا صوت طلقة مدوية من مقدمة السفينة، فنظروا عبر البوابة المفتوحة ليجدوا تلك الطلقة بحجمها

الكبير تنقذف بسرعة نحو سفينة مجلس الأمن قبل أن تنفلق لنصفين ويخرج من قلبها شبكة من الألياف الصناعية التي أحاطت بالسفينة وأطرافها تنغرز في الأرض.. وفور استقرارها حول السفينة، رأوها تتوهج بوهج خفيف ألقى بضوئه على جدران السفينة المعدنية، بينما سادت البلبلة بين الرجال الذين تخلفوا على الأرض..

سمعوا صوت نوح يقول عبر جهاز الاتصال "هذه شبكة كهرومغناطيسية.. هي كفيلة بتعطيل سفينتهم عدة ساعات حتى نبتعد عن هذا الموقع.."

صاح القائد بسخط "تباً لكم.."

لكمه عابد بشدة على وجهه وهو يقول "هذا لكل ما أصابنا وللفزع الذي أثرته في قلوب الجميع.."

دفعت اللكمة القائد خطوتين للوراء، لكنه تمالك نفسه بسرعة وهو يفرك موضع الضربة، بينما قال طارق بحنق "كيف يمكنك التخطيط لقتل الجميع بهذا البرود؟.. ألا تهمك أرواح البشر بتاتاً؟"

لم يجب القائد وهو يقول بجفاء "ما المطلوب مني الآن بالضبط؟"

اقترب منه عابد قائلاً "المطلوب منك البقاء صامتاً.."

ودفعه أمامه نحو غرفة القيادة، وفور وصولهم إليها لاحظ طارق جسد رُبى الذي افترش الأرض بينما بدا قلق عارم على وجه ميساء القريبة منها.. هبّ طارق إلى رُبى وحاول إيقاظها مراراً دون استجابة، بينما قالت ميساء "لا أعلم ما حلّ بها.. لقد سقطت فاقدة الوعي دون إنذار.."

ظل طارق ينظر لوجه رُبى بشحوبه الظاهر، وهي سمة لم تكد تتغير من ملامحها في الآونة الأخيرة، ثم حملها ليضعها على كرسي قريب.. وفي الآن ذاته، كان القائد الذي دلف الغرفة يتبعه عابد قد صاح بنبرة انتصار "إذن فهي حية بالفعل.."

لم يعلق أحد على قوله وعابد يقول لأحمد "ابحث عما يمكننا تقييده به.."

لم يعترض أحمد وهو يبحث في الغرفة عما يصلح ليكون قيداً، بينما وقف القائد وسط الغرفة باعتداد قائلاً "عليكم بتدبر خطوتكم القادمة جيداً يا سادة.. عندما يقوم رجالي بضربتهم القادمة، لن تحمل أي رحمة أو شفقة.."

ثم أدار بصره بينهم مضيفاً "يحسن بكم تقدير عواقب قراراتكم جيداً، واختيار الجهة الأنسب للانضمام إليها.."

قال طارق عابساً "ليست هناك أي جهات بيننا.. كل ما نريده هو الوصول للفرقة العلمية، وأنتم تمنعوننا عن ذلك بإصرار.."

قال القائد باهتمام "الفرقة العلمية؟.. لماذا؟"

أجاب عابد "وما شأنك أنت؟.. لست هنا لطرح الأسئلة واستجواب الجميع.."

تناول عابد من أحمد حبلاً عثر عليه في موقع قريب، فقام بتقييد يدي القائد بإحكام وربط طرف الحبل بأحد الكراسي المتوزعة في غرفة القيادة.. بينما تساءل نوح "والآن إلى أين؟.. لا يمكننا البقاء هنا طويلاً.."

قال طارق على الفور "ابتعد عن هذا الموقع قدر استطاعتك.. قد نستطيع معرفة وجهتنا الجديدة بعد استيقاظ الآنسة.."

جلست ميساء قريبة من رُبى بقلق ظاهر، بينما انتبه عابد لجلوس نور في زاوية المكان مطرقة، فسألها بشيء من القلق "ما بك يا نور؟.. هل أصبتِ أثناء الهجوم؟"

هزت رأسها نفياً، ثم قالت بمرارة "بوبو أصيب برصاص أحد الرجال وهو يحاول الدفاع عني.. وبعدها اختفى ولا أعلم ما جرى له.."

علق عابد وهو يلاحظ ملامح الأسى في وجهها "لم تكن له قدرة على مواجهة الجنود بأسلحتهم.. لكن ربما لم تكن إصابته خطيرة.."

قالت نور بمرارة شديدة "ماذا لو مات بسبب هذه الإصابة؟.. سيكون هذا بسببي.. كنتُ أريد أن أعيده للمستوطنات، لعله يجد حياة أفضل هناك من البقاء وحيداً هنا.."

علق عابد قائلاً "لو فعلتِ، لتحول لفأر تجارب لإحدى الهيئات العلمية، أو في أحسن الأحوال مهرجاً في سيرك يُضحك الناس بهيئته الغريبة.. لا تحزني على هذا فهو أسعد حالاً ببقائه وموته على هذه الأرض.."

لم يكن لتعليق عابد، رغم صحته، أي أثر في تهدئة حزنها لما جرى.. فظلت قابعة في موقعها بصمت وحزن شديد يتملكها لرؤية ذلك الجسد المشوه الذي غرق في دمائه.. ليته تركهما يرحلان منذ البدء، لربما استطاع

أن يعيش بضع سنوات أخرى حتى لو قضاها وحيداً.. أما الآن، فشعور الذنب يعذبها وهي لا تقدر على مدّ يد المساعدة له كما فعل هو منذ التقيا به..

****

بعد بعض الوقت، استيقظت رُبى من غيبوبتها فجأة وهي تتطلع للسقف بعينين متسعتين، ثم هبّت جالسة بما سمح به جسدها الضعيف وهي تدير بصرها فيمن حولها.. فكان أول من علق على ذلك بعد أن لاحظ البقية نهوضها هو القائد الذي قال مبتسماً "مرحى لك أيتها الأميرة النائمة.. دان يرسل لك تحياته، وهو بشوق لرؤية وجهك من جديد.."

قلّبت رُبى بصرها بين الجميع بصمت إنما بلهفة بدت واضحة لعيني ميساء، ولما رأت طارق الذي جلس جانباً تنهدت بخفوت وهي تخفض بصرها محاولة استجماع مشاعرها المشتتة.. لاحظت ميساء في تلك اللحظة الرجفة الواضحة في يدي رُبى، بينما أغمضت رُبى عينيها وهي تحاول احتمال الألم الذي ينبض برأسها، قبل أن ترفع بصرها إلى القائد قائلة "لا أنوي العودة لدان في أي وقت قريب لو كان هذا يهمك.. لكن ما يهمني أنا هو أمر أود عرضه عليك.."

نظر لها القائد بتعجب، بينما تساءلت رُبى موجهة حديثها للبقية "هل أفلحتم بتعطيل السفينتين؟"

أجاب نوح بتوتر "أجل، وفي اللحظة الأخيرة.. سفينتي معطلة منذ وصولنا للأرض، لكن عطل سفينة مجلس الأمن مؤقت وقد يفلحون باللحاق بنا في أي وقت.."

فقالت رُبى وهي تعتدل في جلوسها "إذن الأحرى بنا إنهاء حديثنا هذا والانطلاق في وجهتنا.. لكن قبل ذلك، أريد معرفة مدى تعاونك معنا أيها القائد.."

قال القائد بشيء من الاستخفاف وهو يشير لقيد يديه "أي تعاون ترجونه مني وأنتم اختطفتموني وتصرون على معاملتي كسجين.."

علق عابد بهزء "كن شاكراً لأنك لست ملقىً في غرفة مظلمة في قاع السفينة.."

فقال القائد بشيء من الحدة وهو يشير لعابد "إن كنتم تطلبون مني التعاون معكم، فأنا أطالب بمعاملتي بشيء من الاحترام.. أنا قائد دورية مجلس الأمن، لذلك لا أرضى بهذه المعاملة.."

قالت رُبى "ليست الرتب مهمة هنا.. فما سنواجهه يحتاج تعاوناً من الجميع دون مطالب أو شروط.. أنتم في هذا معنا سواء، والطبيعة لن تعفيكم من غضبتها لمجرد أنكم تتبعون مجلس الأمن.."

صمت الجميع وهم يتطلعون إليها بدهشة، ثم تساءل القائد "ماذا تعنين بهذا القول؟"

أجابت رُبى "الشتاء سيحلّ على الأرض.. ليس شتاءً عادياً، بل أقسى شتاء قد تكون الأرض شهدته على مر العصور.. وستتساوى فيه مناطق الأرض كلها ولن يسلم منه أحد.."

ظلت الأعين تنظر لها بصدمة ودهشة متزايدين، ثم تساءل نوح بصوت مرتجف "متى سيكون هذا؟.."

قالت وهي تفرك جبينها "لا أدري بالضبط.. قد يبدأ في أي يوم ونجد أنفسنا قد وقعنا في مصيدته.. ما إن يبدأ الشتاء، سيغدو الرحيل عن الأرض عسيراً أكثر فأكثر.."

تبادل الجميع نظرات القلق والذعر، ثم قال نوح بصوت ينتفض "علينا الرحيل إذن قبل أن يحدث ذلك.. لِمَ لَمْ تخبرينا بذلك قبل الآن؟"

قالت رُبى "لم أرِد إثارة ذعركم قبل الأوان.. عندها، سترفضون إتمام المهمة وترحلون قبل الأوان.."

وقلبت بصرها بين نوح وعابد قائلة "أتمنى أن تصبروا قليلاً حتى نتمكن من لقاء الفرقة العلمية، وبعدها سنرحل دون إبطاء.."

قال عابد باستهجان "تتكلمين عن الفرقة العلمية وكأنها مختبئة خلف صخرة.. كيف سنعثر عليهم في هذا الكوكب الكبير؟"

ابتسمت رُبى مجيبة "بل سنلتقي بهم قريباً بإذن الله تعالى.."

ونظرت للقائد مضيفة "أليس كذلك؟"

تعلقت الأعين بالقائد الذي صمت وهو يبادل رُبى النظرات الحذرة، ثم قال بعد لحظات "ربما.. يعتمد هذا على سرعة استجابتهم لنا.."

اتسعت الأعين بدهشة بينما هتفت نور "إذن أنتم تعلمون موقعهم بالضبط!.."

ثم التفتت إلى رُبى مضيفة "أكنت تعلمين بهذا؟.."

هزت رُبى كتفيها معلقة "ليس تماماً.. إنما كان مجرد تخمين أردت التوثق منه.."

فقال القائد بابتسامة هازئة "كيف يمكن لتلك الفرقة البائسة أن تستمر في حياتها على الأرض دون معونة مجلس الأمن؟.. لقد ظللنا للسنوات السابقة نزودهم بكل ما يحتاجونه من إمدادات ومعدات بشكل دوري.. وهذه المرة لا تختلف عن مرات سابقة.."

تساءل نوح "ألستم هنا للقبض على الآنسة؟"

أجاب القائد "القبض على هذه الفتاة كان تحت غطاء معاونة الفرقة العلمية.. أتظن من السهل إرسال دورية مجلس الأمن لمثل هذا الكوكب لأجل فتاة؟.."

تساءل طارق مقطباً "كيف علمتم بوجودها هنا؟"

أجاب القائد بابتسامة "دان لديه وسائله.. والشكر لصديقك العزيز مانو.."

اتسعت عينا طارق بصدمة، ثم هتف "ما الذي فعلتم به؟.."

قال القائد بسخرية "ولِمَ لا تشك بأن يكون قد خانك؟"

أجابت رُبى بحزم هذه المرة "لا.. مانو لن يخونني أبداً.. أنا أثق بهذا أكثر من ثقتي بأي شيء آخر.."

نظر لها القائد متعجباً، بينما تساءلت نور بضيق "ما دام مجلس الأمن يعلم بموقع تلك الفرقة العلمية، لِمَ أعلنتم عن اختفائها وعدم العثور على أفرادها؟.. لِمَ أوهمتم العالم أن أفراد الفرقة اختفوا دون أثر؟"

أجاب القائد هازاً كتفيه "كان استمرار وجود الفرقة العلمية أمام العالم يخلّ بأهداف الهيئة العليا للعلوم من إرسالها، لذلك كان لا بد للعالم أن يدرك أننا غير قادرون على استعادتهم.. ليس من السهل بقاء هؤلاء الأفراد في كوكب ملوث دون أن نقابل باستنكار واحتجاج من هيئات عديدة في مجموعة ميرا.."

رفعت نور حاجبيها قبل أن تهتف "أهو شيء مشابه لما قلته عن الهدف من ترك بعض البشر على الأرض؟"

التفت الجميع إليها بتساؤل وطارق يقول بانزعاج "أي هدف تعنينه؟"

شرحت لهم نور ما سمعته من القائد عن بوبو وغيره من البشر الذين تُركوا على الأرض عمداً لرؤية تأثير تلوث الأرض عليهم بعد أجيال وأجيال من العيش عليها.. فعلق القائد بجفاء "ما يخص تلك الفرقة

العلمية قد قرره رئيسها دون تدخل من أحد.. فاسألوه عندما تلتقون به.."

فسألته رُبى "وأين يمكننا أن نلتقي بهم؟.. أخبرنا بموقعهم كي يتسنى لنا إتمام ما جئنا لأجله والرحيل قبل أن يمنعنا شيء من ذلك.."

تساءل عابد بشيء من القلق "ماذا عن ذلك الشتاء الذي تحدثت عنه؟.. ما الذي سيحدث عندها؟"

أجابت رُبى بهدوء "لا أعلم بالتحديد، كل ما أنا واثقة منه أنه سيكون أقسى شتاء مرّ على الأرض، وأن كل من على وجه الأرض سيواجه خطراً كبيراً بقدومه.."

بدت الصدمة واضحة على الوجوه، ثم غمغم عابد بحدة "لهذا السبب أخفيتِ الأمر عنا؟"

لم تجبه رُبى وهي تستدير للقائد قائلة "هل ستتعاون معنا أم أنك سترفض ذلك؟"

خفض القائد بصره مفكراً للحظات، ثم نظر لرُبى قائلاً "حسناً، لا أمانع ذلك أبداً.."

ابتسمت رُبى بشيء من الراحة، بينما أضاف القائد مادّاً يديه "إذن، في البدء، عليكم منحي بعض الثقة.. فلا معنى لهذا القيد الذي يقيدني.."

نظر عابد لرُبى بصمت، فقالت "أطلق سراحه.. علينا الثقة به مادمنا سنتعاون معه.."

فك عابد قيود يديه، فنهض القائد على الفور وتقدم من نوح قائلاً "سأعطيك إحداثيات أحد المواقع، وهو الموضع المتفق بيننا وبين الفرقة العلمية للقاء.."

ثم التفت إلى رُبى مضيفاً "امنحوني فرصة للحديث مع رجالي وتهدئتهم.. لا بد أنهم في بلبلة كبيرة بعد رحيلي معكم.."

قال طارق مقطباً "لا.. لا نعلم ما الذي ستحاول إيصاله إليهم في غفلة منا.. اتركهم فلن يحدث لهم شيء حتى عودتك.."

قالت رُبى "ربما من الأفضل أن يحدثهم لئلا يحاولوا الهجوم على سفينتنا فور تخلصهم مما يعيقهم.."

كان هذا الاحتمال وارداً، لذلك لم يجد طارق سوى التسليم بالأمر، فصمت وهو يرى القائد يجري اتصالاً برجاله عبر جهاز اتصال في أذنه.. فطلب من رجاله الاستعداد بالسفينة بانتظار أي تعليمات جديدة منه وعدم القيام بأي تصرف دون أمر شخصي منه.. وفور أن أنهى الاتصال، جذب طارق جهاز الاتصال منه

قائلاً "هذا يكفي.. لا نسمح لك بالاتصال برجالك بعد الآن وحتى ننتهي من هذه المهمة.."

علق القائد بسخرية "يا لها من ثقة.."

لم يعلق طارق بكلمة.. بينما تعلقت أبصار الجميع بشاشة الرصد يراقبون المسار الذي تسلكه السفينة نحو هدفها والشمس الوليدة تضيء جانباً من السماء مزيلة ظلمة الليلة السابقة..

بعد تفرق الجميع، التفتت ميساء إلى رُبى بقلق لتراها صامتة سارحة الفكر، فجلست قربها وهي تسألها بقلق واضح "ما الذي جرى لك يا رُبى؟.. ما سبب فقدانك لوعيك؟"

انتبهت لها رُبى، فابتسمت مجيبة "لمَ القلق؟.. لم أحصل على أي طعام يذكر منذ استيقاظي، وهذا أصابني ببعض الدوار.."

غمغمت ميساء بضيق "لا أدري لمَ، لكن يساورني شك بأنك تلجئين للابتسام كلما أردت الكذب.. فأخبريني الحقيقة، أأنت بخير؟"

ربتت رُبى على كتفها مجيبة "أنا بخير يا أختاه.. فلا تقلقي.."

ثم عادت لصمتها وهي تراقب ما بدا من الأرض عبر شاشة الرصد.. وعادت لتسرح في عالمها الخاص.. رغم غرابة فقدانها لوعيها، وهذا العذر الهزيل الذي لم تبتلعه ميساء هو كل ما تفتق عنه ذهن رُبى.. لكن الأغرب من ذلك أنها لم ترَ شيئاً خلاله أبداً.. شعرت بوعيها يغيب ثم يعود في اللحظة ذاتها دون أن تمر بأي حلم من أحلامها أو ترى أي شيء بتاتاً خلال كل ذلك الوقت..

أهذا شيء طبيعي؟..

لقد قضت السنوات الماضية في عذاب حقيقي.. لا تكاد تغمض عينيها حتى تشهد حلماً من هذه الأحلام التي تهاجمها دون هوادة.. لم تحضَ يوماً بنوم هانئ كما قد يصفه البعض.. نومها دائماً قلقٌ ومتعِب بحيث أصبحت تلقائياً تقلل ساعات نومها وتدرب جسدها على البقاء مستيقظة لأطول وقت ممكن..

لكن ما الذي حدث الآن؟.. وهل سيتكرر؟..

أله علاقة بالآلام التي تشعر بها بشكل مستمر في رأسها؟..

****

استغرق نوح بسيره بالسفينة عدة ساعات قضاها البقية في جوانب السفينة.. وقد استطاعوا بعد جهد فتح المخزن المغلق بقفل إلكتروني ليعثروا على مخزون من الأطعمة المحفوظة في حاويات خاصة لتمنح الطعام عمراً أطول.. فلم يتردد أحدهم في تناول بعض الطعام بعد أن قرصهم الجوع لفترات طويلة دون تعويض إلا القليل من الطعام الذي عثروا عليه في الكوكب أو الذي أحضره لهم بوبو سابقاً.. وقد قال عابد وهو يجلس في غرفة القيادة حاملاً بعض ذلك الطعام "لو أصبت بأي تلوث بسبب هذا الطعام، فسأرسل فاتورة علاجي لحسابك يا طارق.. أنت السبب بكل ما مررنا به هنا.."

قطب طارق كعادته كلما تجادل مع عابد وهو يقول "لن تصاب بتلوث من البقاء على الأرض لعدة أيام.. كف عن هذا الوسواس القهري.."

علق عابد قائلاً "وأنت كف عن التشدق بما تعرفه وما لا تعرفه في كل حين.."

قاطعهما صوت نوح وهو يقول بشيء من اللهفة "لقد وصلنا.."

نهضت نور واقفة بلهفة مماثلة، بينما أعلن نوح عن وصولهم عبر مكبرات الصوت في السفينة لإعلام البقية بذلك.. وخلال لحظات، كان الجميع يقفون في غرفة القيادة يتطلعون لذلك الموقع الذي أثار حماساً في قلوبهم، البعض منهم على الأقل.. كان الموقع لا يختلف كثيراً عن غيره من المواقع، فبعد كل هذا السير بالسفينة، بدأت المناظر حولهم تتغير بشكل ملحوظ.. بدأت الأشجار والحشائش تظهر على استحياء، وإن كان الدمار والتلوث ظاهراً بصورة كبيرة رغم ذلك.. وظلت الأشجار العالية خالية من الأوراق والحياة وبقلب أجوف تماماً.. ومع اقترابهم من تلك الأشجار التي بدأت تنبض بالحياة، لاحظوا أنواعاً أخرى من الحياة، واستطاعوا أن يلمحوا عدداً من الطيور متفاوتة الأحجام وهي تهرب فزعة من صوت محركات السفينة..

كان تأمّل المظاهر الطبيعية، رغم دمارها، يثير فضول الكل في السفينة.. فهم قد اعتادوا على المناظر التي خطط لها البشر بإحكام فلا يُرى ما يخالف ذلك.. الحدائق مرسومة بدقة تامة، والأزهار لا تزهر خارج

النطاق المحدد لها.. الحيوانات والطيور لا تتكاثر بأكثر مما سمح لها، ويتم التخلص من العدد الزائد على الفور بنقلها لمحميات خاصة، لحفظ توازن المناطق السكنية والتأكد أن تلك الحيوانات لن تسبب الإزعاج للبشر بأي شكل كان..

أما الطبيعة التي عادت بكراً بعد غياب البشر لعقود طالت، فقد اكتسبت عفوية كاسحة وسطوة واضحة في الأرض بحيث لفتت الأنظار المبهورة إليها من الجميع..

وفي الموقع المحدد، رأى الجميع تلك القرية التي امتدت مساحة كبيرة مقارنة بالقرية الصغيرة التي كانت قريبة من موقع هبوطهم.. كانت أغلب منازل هذه القرية سليمة لم تدمر بشكل كامل، بينما طال التدمير منازل أخرى بشكل كبير بحيث غابت معالمها الأصلية، وفي وسط القرية امتدت مساحة واسعة مرصوفة ووسطها بقايا بركة مياه صناعية يعلوها تمثال حجري طال الدمار بعض أجزائه..

تساءل نوح "أهنا يسكن أفراد الفرقة العلمية؟"

أجاب القائد الذي جلس في جانب المكان "بل هو موقع اللقاء.. إنهم لا يتواجدون في موقع واحد أكثر من عدة أشهر، لكنهم يتلقون منا إشارة فور عبورنا الغلاف الجوي للأرض.. عندها يرسل رئيسهم عدة أفراد لملاقاتنا وتسلّم ما نحمله مقابل ما يملكونه من معلومات وتقارير خاصة بالهيئة العليا للعلوم.."

ثم أضاف "المفترض أن يكونوا بانتظارنا، فقد أرسلنا الإشارة منذ عدة ساعات.."

صمت نوح وهو يتأمل القرية بلهفة واضحة.. وبينما بدا الضيق على وجه عابد، وعدم الاهتمام على وجه طارق يشاركه في ذلك أحمد، فإن البقية كانوا متلهفين لذلك اللقاء بشكل واضح.. وخلال وقت قصير، كان نوح يهبط بالسفينة في موقع بدا مهيئاً بوضوح كمهبط لسفن مجلس الأمن عند أطراف القرية.. وقبل أن يغادر أحدهم، تساءل عابد "كم من الوقت يلزمنا قبل أن نغادر؟"

أجابت رُبى بهدوء "ليس قبل أن نجتمع بأفراد الفرقة العلمية.. كن صبوراً.."

غمغم عابد وهو يتبع البقية "لقد نفذ الصبر مني منذ سنين.."

تقدم الجميع بين المنازل المتفاوتة في الأحجام، ملاحظين أن الطبيعة قد تغلبت على أكثرها والشجيرات المتسلقة تخترق أحجارها وتفتت ما بقي منها.. ولما وصلوا للساحة، وقف القائد في منتصفها يتلفت حوله

قائلاً "لابد أنهم ينتظروننا في موقع ما.."

قالت رُبى وهي تجلس عند حافة بركة المياه الجافة "لا بأس.. سيأتون إلينا فلابد أنهم قد لاحظوا السفينة مع هبوطها المدوي.."

لاحظ طارق وقوف عابد في جانب المكان يتلفت حوله مدققاً النظر في جوانب القرية وشوارعها القريبة.. فسأله "ما الأمر؟.. هل رأيت أحد أفراد الفرقة العلمية؟"

هز عابد رأسه نفياً وقال "بل أشعر بشيء من التوجس الغريب في هذا المكان.. وكأن الموقع يعجّ بعشرات الأشخاص الذين لا أراهم، وهذا يثير ريبتي وضيقي بشدة.."

علق طارق وهو يدير بصره في المكان "أهي غريزتك الحيوانية التي تتحدث الآن؟"

أجاب عابد بابتسامة جانبية "يبدو أنك تتوق للمزيد من اللكمات.."

وتقدم من أحد الطرقات التي تقطع حياً من أحياء القرية وهو يتشبث بالسلاح الذي يملكه، فسأله طارق "أين تنوي الذهاب؟"

قال عابد "سأقوم بجولة محدودة في جوانب القرية للاطمئنان.."

تلفت طارق حوله، ثم قال مشيراً لجهة أخرى "إذن سأسلك أنا هذا الطريق.. لا ضير من الاطمئنان لموقعنا قبل الخلود للراحة فيه.."

سار عابد نحو الشارع الذي اختاره، بينما سلك طارق الطريق المعاكس متفحصاً ببصره المنازل الخالية والطرقات الساكنة التي تصفر فيها الرياح مثيرة برودة شديدة في جسده..

جاب عابد القرية متفحصاً ما يمر به من أزقة ومنازل بعضها سليم وبعضها تهدم بفعل الزمن.. كان حفيف الأشجار التي تخللت أغلب بقاع القرية بسبب الرياح يوتره وهو يتلفت حوله باستمرار، ومع كل خطوة يخطوها يزداد شعوره بتلك الأعين التي تراقبه بحدة واضحة..

أم هو واهم؟..

أهذا بسبب اقتراب لقائهم بالفرقة العلمية، لو لم يكن قائد الدورية كاذباً؟..

زفر عابد وهو يستدير عائداً بعد أن وصل لنهاية القرية، عندما سمع صوتاً خافتاً من جانب الموقع..

فالتفت إليه بحدة قبل أن يسرع إلى ذلك الموقع بخفة محاولاً مفاجأة صاحب الصوت.. ولما استدار خلف ذلك الجدار، رأى الموقع خالياً تماماً إلا من بضع آثار أثارت انتباهه.. وفي اللحظة ذاتها سمع صوت طارق يناديه وهو يقترب منه.. فقال له "الموقع خالٍ تماماً.. لا أثر لأفراد الفرقة العلمية ولا غيرهم.."

أشار عابد لما أمامه قائلاً "انظر لهذا.."

نظر طارق للموقع، فرأى بضع آثار على الأرض الصخرية تكاد الأرض الصخرية تخفي أغلب معالمها.. كانت الآثار لأقدام شبه مطموسة تنتعل نوعاً غريباً من الأحذية وتقف قرب ذلك الجدار المهدم.. فتساءل طارق "ما أهمية بضع آثار مثل هذه؟ نحن لا نعلم أهي قديمة أم حديثة.."

غمغم عابد "هذا حق.. لكن يساورني شعور قلق إزاءها.."

فقال طارق "الأفضل لنا العودة للبقية قبل أن ينتابهم القلق لأمرنا.."

واستدار عائداً للساحة التي تتوسط القرية، فتلفت عابد متفحصاً المنطقة حوله قبل أن يستسلم ويعود للبقية.. من العسير عليه رؤية شيء والتأكد من شكوكه في هذا الموقع المزدحم بالعديد من المنازل والجدران والأشجار..

وربما كان حقاً واهماً..

****

في وسط القرية، حيث وقفت المجموعة بتوتر في الساحة الواسعة مترقبة قدوم أفراد الفرقة العلمية، اقتربت نور تتأمل التمثال الحجري الواقف وسط البركة.. ورغم تحطم الكثير من أجزائه، إلا أنها تمكنت من رؤية هيئة مزارع بثيابه الواسعة وقبعته العريضة حاملاً فأساً في يده وسلة في اليد الأخرى.. كان التمثال بديعاً لعينيها مع بعض الشجيرات التي تسلقت القدمين واحتلت البركة القديمة بشكل كامل.. شعرت نور بشيء من الأسى لرؤية هذا التمثال مع إدراكها أنه قد بقي عشرات السنين وحيداً، وزاد الدمار الذي طال بعض أجزائه شعورها ذاك.. لا تدرِ لِمَ ذكرها هذا التمثال ببوبو الذي لم تمضِ ساعات معدودة على

اختفائه.. والذي سرعان ما تناسته مع اللهفة التي غلبتها للقاء شقيقها الغائب.. أحقاً هو بخير؟..

جلست جانباً تتطلع للسماء المكفهرة بالغيوم ملقية بظلالها على الأرض، رغم أن النهار لم يبدأ إلا منذ ساعات قليلة، حتى سمعت صوت رُبى القريبة تسألها "أأنت سعيدة لقدومك اليوم؟"

نظرت لها نور بشيء من الدهشة، وقالت "ماذا عنك؟.. ألستِ سعيدة للقائك بأبيك اليوم؟.."

غمغمت رُبى "من يدري؟"

غمرتها الدهشة لهذا الجواب، فتساءلت نور محاولة إشباع فضولها من هوية هذه الفتاة التي لا تنطق إلا بمزيد من الغموض في كل مرة "من أنت حقاً؟.. أنت لست قريبة لذلك المدعو دان مايدن، فكيف تملكين كل هذه المبالغ الطائلة التي استهلكتها رحلة واحدة كهذه؟"

أشارت رُبى لعقلها مجيبة "أظننت أنني سأستخدم عقلي لخدمة دان مايدن فقط؟.. كنت أطلب منه بعض العائد الصغير جداً من أرباحه، وهو لشدة سروره بما يكسبه لم يكن يرفض لي ذلك.. وباستخدام ذلك العائد، وببعض التخطيط، استطعت الحصول على أضعاف ذلك المال في جوانب لم يستغلها دان في التجارة بين المستوطنات.. تضاعفت أموالي بسرعة كبيرة، وقد احتفظت بها تحت اسم وهمي وبيانات مزورة لكي لا يستولي عليها دان إن أدرك ما كنت أفعله.. لم يكن يعلم بأمر تلك الأموال إلا طارق وحارسي الشخصي الذي كنت أثق به.."

قالت نور بتعجب "لكن شقيقيك كانا يعيشان بشكل عادي كما علمت.. ألم تضطر ميساء للعمل لإستيفاء متطلبات الحياة في مستوطنة آريس مع أحمد؟.. لماذا لم تشاركيهما ثروتك الطائلة تلك؟"

قالت رُبى "أظننتِ أن الأمر بهذه السهولة؟.. علاقتنا نحن الثلاثة كانت معقدة شيئاً ما، وهما لم يقبلا بأي مبلغ مني ولو كان رمزياً.."

تساءلت نور بفضول "لقد رفضا الإفصاح عن أسباب بغضهما لك سابقاً.. فما هو السبب؟.."

ابتسمت رُبى معلقة "أنت فضولية كثيراً هذه الليلة.."

قالت نور بإصرار "لكني يجب أن أعرف.. لا أفهم كيف يمكن لأشقاء أن يكرهوا بعضهم البعض بهذه الصورة.. لقد سعيت خلف شقيقي قاطعة نصف المجرة دون كلل.. فكيف تنقطع الصلات بين أشقاء في

مستوطنتين قريبتين من بعضهما البعض؟.. هذا ما لم أستطع ابتلاعه قط.."

ابتسمت رُبى قائلة "أنت فتاة استثنائية يا عزيزتي فلا تقارني نفسك بالآخرين.."

ثم أضافت بشيء من المرارة "ما أفسد العلاقة بيني وبينهما، أنني حاولت أن أجتمع بهما وأحميهما، لكن أخطأت اختيار الوسيلة لتحقيق ذلك.. وهذا تسبب في توتر العلاقة بيننا وأحمد يحقد عليّ بشكل بالغ لا يمكن تناسيه.."

بدا أن رُبى ستكتفي بهذا القول، وهذه الحادثة تسبب لها مرارة واضحة، فتجاوزت نور الموضوع بدورها قائلة "ماذا عن طارق؟.. إنه يكنّ لك ولاءً منقطع النظير لا يدلّ على أنه مجرد مساعد لك.."

ابتسمت رُبى وهي تستدير متطلعة لطارق الذي عاد من جولته ووقف على مبعدة يتحدث مع قائد دورية الأمن، وقالت "هذا من حسن حظي.. فقد كنت بحاجة لوجود شخص مثله في حياتي.."

تساءلت نور "ما الذي جعلك تثقين به حقاً؟"

قالت رُبى بعد لحظة صمت "ربما وثقت به من البدء.. لا أدري.. لقد تم تعيينه مساعداً شخصياً لي قبل عدة سنوات، ولأنني كنت أعاني من سمعة سيئة بين الموظفين، والذين أطلقوا عليّ لقب ساحرة، فإن أي مساعد أتعامل معه يهرب خلال وقت وجيز.. أغلبهم يخشى أن أدرك خبايا نفسه أو أقوم بفضحه لأي سبب كان.. كانوا يظنون أنني أعرف كل ما يفعلونه وأقرأ أفكارهم طوال الوقت، وهذا يجعلهم في صراع نفسي طوال الوقت ينتهي بتخلّيهم عني بسرعة.. وعندما أصبح طارق مساعدي، لم أعبأ به كثيراً.. كنت واثقة أنه، مثل الآخرين، سيهرب خلال أسابيع قليلة.. كنت أتعمد التصرف معه بجفاء وبعض الخشونة على أمل أن يغادر في وقت أسرع، لكنه لدهشتي أصرّ على البقاء قربي رغم كل شيء.. كان يبتسم بشكل دائم ويواجهني بعينين حازمتين كلما عاملته بجفاء وكأنه يؤنبني بصمت على محاولاتي الخرقاء تلك.."

ظلت نور تستمع لها باهتمام ملاحظة اتساع ابتسامة رُبى التي أكملت "سواء أكان ذلك بسبب أعمالنا المشتركة أم لا، لكن طارق بدأ يشغل عالمي كله.. إنه ينجز جميع مهامي، وينفذ طلباتي قبل أن أطلبها.. ائتمنته على أسراري، وأصبح شريكاً لي في كل ما أفعله خلف ظهر دان دون أن أقلق من خيانته لي.. وعندما بدأت التخطيط لهذه الرحلة، لم أفكر في شخص أنسب لأن يرافقني فيها من طارق.. وهو لم يخذلني بتاتاً،

فقد تولىّ كل الأمور بنفسه، وقام بحلّ جميع المعضلات التي واجهتني.. ولولا إصراره، لما تمكنت من تحقيق أي شيء أبداً.."

ونظرت لنور مضيفة "إنه جزء من حياتي الآن، ولم أندم يوماً على ثقتي به.."

ظلت نور تستمع لها بدهشة وهي تتطلع لعيني رُبى اللتين تحملان لمعة لم تخفَ عنها.. ثم أدارت بصرها بعيداً وكأنها تهرب مما تراه.. نوعاً ما شعرت بشيء من الغيرة لما تراه في عيني رُبى.. رغم قلة خبرتها بمثل هذه الأمور وعدم مخالطتها للعديد من الفتيات مع عملها الدائم في الميناء، إلا أنها أدركت المشاعر التي تعتمل في صدر رُبى تجاه طارق.. تشعر بسعادتها لمجرد وجوده قريباً ولأنه شغل جزءاً من حياتها.. ورغم أن رُبى عادة تحاول مداراة ذلك، إلا أن جلسة المصارحة الصغيرة التي جمعتها بنور مكّنت الأخيرة من التقاط خيط تلك المشاعر بوضوح تام..

ورغم أن بضع سنوات فقط تفصل بين نور ورُبى، إلا أن رُبى بدت في عالم آخر لم تتمكن نور يوماً من دخوله أو حتى الحلم به.. كل ما كانت تفكر فيه سابقاً هو العمل والعمل والحصول على المال الكافي لمعيشتها، وحماية نفسها فوق ذلك.. وكل ما حلمت به يوماً هو لقاء شقيقها الذي لا تعرفه حقاً..

هل يمكن أن يمر بحياتها شخص يكون بالنسبة لها كما هو طارق بالنسبة لرُبى؟.. أيمكن أن تنشغل مشاعرها بشخص واحد ويملؤها وجوده قربها سعادة لا يمكن إخفاؤها؟.. أيمكن أن يحلق قلب نور في عالم آخر أكثر بهجة دون أن تغادر قدماها الأرض التي يعرفها البشر؟..

قطع تفكيرها صوت عابد الذي توجه للبقية قائلاً "القرية خالية تماماً.. لا أثر لبشري فيها.."

قال القائد وهو يتلفت حوله "ربما تأخروا لسبب ما.."

تساءل طارق مقطباً "ألم تخدعنا بهذه الحيلة؟.."

أجاب القائد باستخفاف "لستُ في موقف الضعيف لأضطر لخداعكم.."

ظل طارق يحدق به بشك واضح، بينما قال نوح وهو ينتفض في وقوفه وسط الساحة "الأفضل أن نلجأ لأحد هذه المنازل القريبة.. الجو شديد البرودة، ولو جاء أفراد الفرقة العلمية، فسنلمحهم بوضوح من هذه المنازل.."

لم يعارضه أحد ونوح يتقدم نحو منزل من المنازل المطلة على الساحة، لكنه توقف فجأة مع تلك القطرة التي سقطت على وجهه بخفه.. رفع نوح رأسه بدهشة للسماء، وشاركه البقية بذلك ملاحظين بضع قطرات متلاحقة تساقطت عليهم.. ومن بين الغيوم الكثيفة التي اتخذت سمتاً سوداوياً بعض الشيء، استطاعوا أن يروا زخات خفيفة من المطر تهبط بهدوء وصوت خافت.. كانت زخات المطر تبلل كل شيء وتعطي الموقع لمحة سوداوية مع الظلمة التي تزايدت رغم أنهم في منتصف النهار.. ورغم أن المطر الخفيف هذا لم يكن نذير سوء، لكن شيئاً من القلق انتاب البقية لمرآه وهم اللذين لم يشهدوا مثله من قبل في تلك القبب المحمية.. وبعد هدوء طال كثيراً، همست ميساء برجفة في صوتها "أهذه علامة لبدء الشتاء؟.."

غمغم عابد "يبدو كذلك.. لسوء حظنا بالتأكيد.."

فقال نوح بشيء من الذعر "إنها البداية.. رباه، ما الذي نستطيع فعله؟"

قال طارق بضيق "وما الذي نقدر على فعله حقاً؟"

قال نوح بإلحاح "ألم تسمع ما قالته الآنسة؟.. الشتاء سيكون أقسى بعشر مرات مما نتوقعه.. وسيكون رحيلنا أصعب بمراحل مع بدئه.."

لم تعلق رُبى على ذلك، بينما نظر نوح للبقية مضيفاً بنبرة مرعوبة "نحن لم نعتد على مثل هذه الأجواء.. عشنا في بيئة محميّة ومحكمة الظروف.. فما الذي سنفعله لو باغتنا الشتاء على الأرض؟"

لاحظ عابد في تلك اللحظة شحوباً في وجه نور وهي تراقب ما يجري بصمت، فصاح عابد في نوح بغيظ "اصمت يا رجل.. أنت تثير فزع الجميع بقولك هذا.."

قال نوح وهو يرتجف في موقعه "لن يغيرّ هذا واقعنا في شيء.. نحن هالكون لا محالة.."

فقال عابد بحدة "وهل هذا يدفعك لليأس؟"

صاح نوح "ماذا لو لم نتمكن من المغادرة بالسفينة الفضائية؟.."

ثم كرر بيأس شديد "إنها النهاية لا محالة.."

ولم يملك أحد التعليق بكلمة مع الشحوب الذي بدا على وجوه الجميع وهم يتطلعون للسماء السوداوية باكفهرارها الذي غدا أسوأ من أي وقت مضى..

****

بعد أن ساد الصمت لوقت طال والكل يتطلع للسماء الغائمة وزخات المطر التي لم تبخل بها الغيوم، التفت القائد إلى البقية قائلاً "هذا يحسم الأمر.. يجب أن أغادر مع رجالي بسفينة الدورية.. لن أستطيع الانتظار أكثر من هذا.."

قالت رُبى مقطبة "لكني لا أنوي العودة الآن.. ليس قبل أن ألتقي أفراد الفرقة العلمية.."

صمت القائد مفكراً للحظات، ثم قال "لا بأس.. لن يطول بقاؤكم هنا أكثر من يوم أو يومين على الأغلب.. سأرحل بسفينة الدورية وسننتظركم قرب القمر.. لا أريد المخاطرة بالبقاء هنا مع بدء الشتاء وتضييع فرصة الرحيل عن الأرض.."

ثم لوّح بإصبعه نحو رُبى مضيفاً "سأكون بانتظارك.. لا تخلفي وعدك معي مهما يكن الأمر.."

قالت رُبى بحزم "لا تقلق.. لا أنوي ذلك.."

نظر لها طارق بقلق لمثل هذا الوعد، بينما قال القائد "سأستدعي رجالي للقرية لإنزال ما أحضرناه للفرقة العلمية في أحد المنازل، وبعدها سنرحل دون إبطاء.. لقد أوصيتهم بالبقاء في موقع قريب من القرية على أهبة الاستعداد لندائي.. مشكلتنا ستكون مع الهيئة العليا للعلوم وانتظارهم لتلك التقارير المهمة من الفرقة العلمية.. لكن لا حيلة لنا في الأمر.."

ثم نظر لطارق مادّاً يده وقال "إن سمحت لي.."

ظل طارق متردداً للحظة، ثم استخرج جهاز الاتصال الخاص بالقائد من جيب قميصه قائلاً "إن حاولت القيام بأي تصرف يسيء لنا، فسنعتبر الاتفاق مُلغىً على الفور.."

ابتسم القائد بجانب فمه قائلاً "لا بأس.. سأتذكر هذا.."

ناوله طارق جهاز الاتصال، وظل يراقبه وهو يجري محادثة سريعة مع رجاله في سفينة الدورية طالباً منهم القدوم إلى موقع اللقاء ليستعدوا للرحيل عن الأرض.. وأنهى الاتصال قائلاً " خبر كهذا كفيل بإسعاد

رجالي بشدة.. فمن سيطيق البقاء في هذا الكوكب البائس؟"

غمغمت رُبى "حقاً.. من سيطيق ذلك؟"

لاحظت نور ابتسامة على وجه رُبى، لكنها لم تعلق وهي تلحق بنوح والبقية إلى أقرب منزل هرباً من زخات المطر التي بللت كل شيء وزادت برودة الجو أضعافاً في لحظات وجيزة.. لكن عابد لم يلحق بهم وهو يفضل أخذ جولة أخرى في القرية وتوجسه لم يخفت رغم مرور بعض الوقت على وصولهم لهذا الموقع..

كانت البرودة قد تزايدت شيئاً ما بعد ذلك التحول في الجو، وشمّ عابد رائحة البلل العالق بالأتربة والأوراق والجذوع الخشبية للأشجار التي يمر بها.. بدت الرائحة منعشة بشكل غريب وهو الذي لم يعتد مثل ذلك التحول الكبير الذي قد يجلبه مطر مفاجئ.. كيف لبضع قطرات تهطل من السماء أن تجعل المكان ينبض بالحياة بهذه الصورة؟.. لو لم تكن هذه الأرض ملوثة بشكل خطير، لفضل عابد البقاء فيها على المستوطنات التي غصّت بمن فيها من البشر وغدت ذات أجواء لا تطاق.. ففي هذا المكان الشاسع، يتضاءل الشعور بالقيود التي يشعر بها المرء عادة في القبب الاصطناعية رغم ضخامة حجمها واتساعها الكبير..

بعد لجوء الآخرين للمنزل بحثاً عن بعض الدفء، فإن نور تراجعت تابعة عابد لتستحثه على العودة بدل البقاء خارجاً في هذا الوقت والتعرض للبلل بهذه الأمطار الباردة.. ولم تكد تبتعد عدة خطوات، حتى فوجئت بمن يمسك يدها، وسمعت صوتاً يقول بالإنجليزية "من أنت يا هذا؟"

شهقت نور بصدمة وهي تستدير لذلك الشخص، وقد دار بذهنها أنه من رجال الأمن الذين جاؤوا بطلب من قائدهم.. وفي الآن ذاته، كان عابد في تلك اللحظات موقنٌ أنه الوحيد الذي لم يلجأ لذلك المنزل من بين البقية.. لذلك كان وقع المفاجأة كبيراً عليه عندما سمع شهقة نور الخافتة من خلفه وصوت شخص آخر يتردد قربها، فاستدار عائداً بشيء من القلق متجاوزاً زاوية المنزل التي تفصلها عنه وقد اشتعل توجسه الذي لم يبارحه منذ وصلوا للقرية..

وصل لموقع نور بخطوات سريعة فرأى شخصاً يقبض على ذراعها دون أن يتبين ملامحه.. فهبّ عابد إليها

بخطوتين واسعتين وقبض على كتف الشخص وهو يدفعه عنها قائلاً بحدة "اتركها يا هذا.."

لكنه توقف مع تلك الشهقة الخافتة التي صدرت من ذلك الشخص.. فوقف عابد في موقعه ينظر له بدهشة قائلاً "أنت؟....."

****

الفصل الخامس عشر

مع التوتر الشديد الذي غمر عابد في ذلك الوقت، ومع الريبة التي بدت على ذلك الشخص الذي يمسك بنور، لم يحاول عابد الترفق به وهو يقبض على كتف ذلك الشخص بقبضة قوية.. لكن مع الشهقة الخافتة التي صدرت من حلقه، تخلى عابد عنه وهو يتراجع خطوة وينظر لذلك الشخص المريب.. ثم سمع ذلك الشخص يقول "أنت من رجال الأمن، أليس كذلك؟.. كنت أبحث عنكم.."

نظر عابد لذلك الشخص بدهشة.. كان الواقف أمامه امرأة في أواخر العشرين من عمرها، لوّحت الشمس بشرتها شيئاً ما، بشعر أشقر وعينين زرقاوين ولكنة ثقيلة رغم تحدثها بإنجليزية واضحة.. ومع الحقيبة متوسطة الحجم على كتفها وملابسها العملية الملائمة للترحال، بدت هويتها واضحة لعابد الذي تساءل "أأنتِ من الفرقة العلمية؟"

ابتسمت المرأة قائلة "هذا بديهي.. أهناك أشخاص متحضرون غيرنا على هذا الكوكب؟.."

ثم نظرت لنور معلقة بتعجب "لكن.. من هذا؟"

سمعا طارق من خلفهم يقول "عابد.. ما الأمر؟.."

نظرت المرأة لطارق، ولمن تبعه من بقية الفريق، بدهشة قبل أن تتساءل " أهؤلاء مدنيون؟.. ما الذي يفعلونه هنا؟"

أدرك عابد أنها تظنه من رجال الأمن بسبب الرداء الذي سرقه منهم، فأجاب "نحن لسنا من رجال الأمن.. جئنا بسفينة منفصلة عنهم بحثاً عن أفراد الفرقة العلمية.. وكنا بانتظاركم هنا.."

نظرت له المرأة بدهشة وقالت "لكننا تلقينا اتصالاً من دورية مجلس الأمن منذ ساعات.. كانت تلك إشارتهم بالتأكيد.."

شرح لها عابد الأمر بكلمات موجزة، بينما وصل طارق ومن خلفه قائد الدورية وبقية الفريق.. التفتت المرأة لقائد الدورية، بزيّه الذي يدل على هويته، وقالت "أين سفينة الدورية؟.. من المفترض ملاقاتنا في هذا الموقع حسب الاتفاق.."

أجاب القائد "ستصل السفينة خلال لحظات.."

اقتربت رُبى من المرأة متسائلة "أأنت وحيدة هنا؟.. أين بقية الفرقة؟"

أجابت المرأة "أنا هنا مع شخصين آخرين.. أتينا لاستلام ما تحمله الدورية لنا وتسليم تقاريرنا عن الشهور الثلاثة الماضية.."

اقتربت نور متسائلة بلهفة "ماذا عن بقية الفريق؟.. أين هم؟"

أجابت المرأة هازة كتفيها "هنا وهناك.."

نظرت لها نور بقلق.. أليسوا في موقع واحد؟.. حتى متى عليها الانتظار؟..

بينما تساءلت المرأة بفضول واضح "ما الذي جاء بمجموعة من المدنيين للأرض وسط الحظر الذي يقيمه مجلس الأمن؟"

قبل أن يجيب أحدهم، سمعوا صوتاً خافتاً من موقع قريب.. ومن بين المنازل، ظهر شاب بثياب مستهلكة وشعر أشعث ومنظار سميك وهو يقول "جيد أنك عثرت عليهم يا آن.. لا أريد البقاء في العراء طويلاً مع هذا البرد القارس.."

علقت المرأة التي تدعى آن "ليسوا من مجلس الأمن.. سفينة الدورية لم تصل بعد.."

كانت نور تتأمل ملامح الشاب وهي تحاول معرفة هويته، عندما وجدت نوح القريب يزيحها من أمامه ويتقدم خطوات قائلاً بلهفة "مازن؟.."

التفت البقية لنوح، بينما تجمد الشاب في موقعه وهو يتطلع لنوح بصدمة.. ثم هتف "هذا محال.."

رمى حقيبته التي يحملها على كتفه أرضاً واندفع نحو نوح الذي تلقفه بالأحضان وهو يهتف "إنه أنت حقاً يا مازن.. يا إلهي، لم أكن أتوقع رؤيتك من جديد بعد كل هذه السنوات.."

عدّل مازن منظاره قائلاً بدهشة "ما الذي جاء بك إلى الأرض؟.. لمَ قمت بهذه المخاطرة؟.. بل كيف علمت بوجودي هنا؟.."

قال نوح وهو يربت على كتفه بقوة "جئت لرؤيتك، بعد أن تخليتَ عن عمك الكهل الذي لم يبقَ له سواك.."

ثم قال بحنق "كيف تقرر الرحيل للأرض دون إبلاغي أو حتى وداعي؟.. يا لك من جاحد.."

ضحك مازن بارتباك، بينما بدت ابتسامة متسعة وسعادة واضحة على وجه نوح وهو يربت على كتف الشاب باستمرار.. وقد انتقلت ابتسامته للبقية تلقائياً وعابد يعلق "مرحى لك يا أبتاه.. هذه لحظات سعيدة بالنسبة لك ولاشك.."

قال نوح بابتسامة وصوت متهدج "ومن يمكنه أن ينكر؟.. لقد اعتنيت بهذا الشاب منذ كان طفلاً، وأعده كابن لي دون شك.."

وسط تلك الانفعالات التي غمرت نوح ومازن وجذبت انتباه الآخرين، لم يلاحظ أحدهم رُبى التي ابتعدت وسارت بهدوء على غير هدىً.. كانت الآلام قد عادت لها وهي تنبض في رأسها بشدة بحيث عجزت عن البقاء بينهم ورغبت بالانفراد بنفسها دون أن تلاحظ النظرات التي لاحقتها باهتمام.. سارت بين المنازل حتى وجدت منطقة صغيرة خالية بينها وفي جنبها جدار عريض يظهر منه جزء من تمثال يمثل وجه أسد، ومن فمه كانت المياه تسيل نحو بركة صغيرة تحته.. جلست رُبى على حافة البركة ووضعت يدها في مجرى المياه لتصدمها برودته بشدة.. لكن أفادها هذا في إبعاد تفكيرها عن هذه الآلام التي لا تبارح رأسها..

حتى متى ستتزايد تلك الآلام؟.. وما هي نهايتها؟..

أهي تعني أن النهاية قريبة حقاً؟..

إذن لماذا لا تشعر بأي انفعال لذلك؟.. وكأن الأمر يحدث لشخص آخر بعيد لا علاقة لها به بتاتاً..

****

في تلك الأثناء، شعرت نور بقلق شديد وهي تتلفت حولها للمجموعة التي انشغلت عنها، ثم التفتت إلى آن قائلة بشيء من اليأس "ألا تعرفين أين أستطيع العثور على أيمن؟.. أتعرفين أين هو؟"

ارتفع حاجبا آن وهي تقول "آه.. أيمن؟.. إنه قادم بعد قليل.."

نظرت لها نور بدهشة، فأضافت آن "إنه يؤمّن المركبة التي جئنا بها قبل اللحاق بنا.. أأنت هنا من أجله؟.. أهو قريب لك؟"

تلفتت نور للموضع الذي جاء منه مازن دون أن تجيب وهي تشعر بتوتر ولهفة شديدين.. إنه قادم.. لحظات قليلة وستلتقي بشقيقها الذي لا تذكره إلا بذكريات مبهمة يغزوها الظلام.. لكنها تشعر بلهفة شديدة لرؤيته بحيث عجزت عن الجلوس وانتظاره كما فعل البقية..

طالت الدقائق وآن منشغلة بالحديث مع قائد الدورية والبقية، ونوح لاهٍ عن الجميع بابن أخيه الذي عثر عليه بعد بحث طويل.. ولما رأت نور ذلك الرجل الذي اقترب من موقعهم وعيناه لا تفارقان الأرض وهو يحمل حقيبة متوسطة الحجم على ظهره، تزايدت دقات قلبها وهي تقف بتوتر وارتباك.. لاحظت مع اقترابه أن وجهه يحمل الكثير من ملا مح أمها، ذات الشعر الأ سود والوجه الطويل والأ نف الدقيق والعينين الحادتين.. هذا جعلها متأكدة من هويته قبل أن تسأله، وقد أعجزها انتظارها الطويل لتلك اللحظة عن معرفة ما عليها فعله حقاً.. أتتقدم منه مبتسمة وهي تقول "مرحباً.. أتتذكر من أكون؟.. أنا شقيقتك التي تركتها منذ سنوات طويلة.."

أم ترتمي بين ذراعيه ذارفة الدموع على السنوات التي قضتها وحيدة في بؤس وشقاء؟..

سمعت آن تقول لها بعد أن انتبهت لقدومه "ها هو أيمن قد جاء أخيراً.."

وقف أيمن لما انتبه للجمع أمامه، ونظر بدهشة عارمة للوجوه الغريبة التي تعلقت أبصارها به، وبينهم وقف ذلك الصبي ينظر له بإلحاح..

تساءل أيمن "ما الذي يجري هنا؟.. من هؤلاء؟.. إنهم لا يرتدون زي مجلس الأمن.."

قفز مازن واقفاً واقترب منه قائلاً بلهفة "هذا لأنهم ليسوا من مجلس الأمن.. إنها فرقة جاءت خصيصاً للبحث عنا.."

وأشار خلفه نحو نوح قائلاً "هذا هو عمي نوح، والذي أعدّه بمثابة أبي.. لقد حدثتك عنه كثيراً، أليس كذلك؟"

تزايدت دهشة أيمن وهو ينظر في وجوه البقية بينما قال مازن "كانت صدمتي شديدة برؤيتهم.. إن عمي لم

يكن يعلم بوجودي على الأرض، لذلك دهشت لرؤيته هنا بالذات.."

علق أيمن رغماً عنه "كيف أمكنكم القيام بمثل هذه الرحلة؟.. هذه حماقة كبيرة.."

كانت نور قد تقدمت خطوة نحوه، لكنها تجمدت مع جملته تلك وهي تتطلع لملامحه التي لم تظهر سروراً برؤيتهم.. هل سيغضب لو علم من تكون؟..

شعر عابد الذي جلس جانباً بشيء من الحنق لتلك الجملة التي ألقاها أيمن بغير اعتبار لمشاعر أحد، ولرؤية الانكسار في عيني نور وترددها الواضح، فقال بصرامة "أهذا كل ما يمكنك أن تقوله بعد أن قطعت شقيقتك نصف المجرة بحثاً عنك؟"

نظر له أيمن بصدمة شديدة، وقال "شقيقتي؟.. من تعني؟"

قال عابد بسخرية "من تظنني أعني؟.. ها هي تقف أمامك.. ألا تعرف شقيقتك عندما تراها؟"

رآه أيمن يشير للصبي الذي وقف وسط المجموعة.. فنظر له أيمن بصدمة أشد ولسانه منعقد عن التعليق.. بينما تقدمت نور خطوة وهي تقول بصوت ضعيف "أيمن.. أنا نور....."

ظل أيمن متجمداً وهو يتطلع إليها وقد تبعثرت أفكاره في كل اتجاه في أقل من ثانية.. شقيقته نور التي تقف بهيئة صبي أمامه؟.. شقيقته التي لا يذكرها إلا كطفلة لم تبلغ العاشرة بعد؟.. شقيقته التي لم يحلم يوماً برؤيتها في هذا الكوكب شبه المهجور والذي لا يطؤه شخص بإرادته الحرة؟.. شقيقته التي يعرفها الكل من حوله ولم يتعرف عليها هو؟..

حاول جمع شتات ذهنه، وهو يحاول تذكر الطفلة التي تركها مع أمه في مستوطنة آريس.. تذكر بشرتها البيضاء الجميلة وعيناها الواسعتان البنيتان ببراءة غير معهودة، والتي لا تقارن بعينيها المتعبتين القلقتين اللتين تحملان انفعالات تتجاوز عمرها الحقيقي، وبشرتها التي اكتسبت سمرة واضحة وخشونة غير معهودة في هذه السن.. تذكر شعرها اللامع بلون البندق والذي ينسدل بتموجات جميلة حتى منتصف ظهرها، والذي لا يقارن بهذه الخصلات القصيرة جداً والمبعثرة والتي لم تلقَ عناية منذ أمد بعيد.. تذكر صوتها الجميل الذي تناديه به بإلحاح كلما رأته وتفرض طلباتها عليه كأي أميرة صغيرة، والذي لا يقارن بصوتها الذي اكتسب بحّة لضغطها عليه والتحدث بخشونة متعمدة لمدة طويلة.. تذكر ذلك الثوب

الجميل بلون الفراولة الذي خاطته أمه لها في سن الخامسة، والذي ارتدته نور بفخر وهي سعيدة بالتموجات التي يكتسبها كلما دارت حول نفسها بفرح.. ولم يكن هذا يقارن بالقميص القديم والبنطال الذي حال لونه ويذكره بلباس الصبية العاملين في الموانئ والذين رآهم في الأحياء الفقيرة من مستوطنة آريس..

قال أيمن بعد لحظة صمت وحيرة واضحة "أنت نور حقاً؟.. كيف؟.. ما الذي جاء بك؟.."

قالت نور بلهفة "أتيت بحثاً عنك.. كانت هذه هي فرصتي الوحيدة.. ولم أستطع تجاهلها.."

قال أيمن بدهشة "ماذا عن أمي؟.. كيف قبلَتْ بقيامك بهذه الرحلة الخطرة؟"

خفضت نور بصرها باضطراب، وقالت بعد قليل بشيء من الرجفة في صوتها "لقد ماتت أمي بعد اختفائك بسنة واحدة.."

اتسعت عينا أيمن بصدمة، ثم خفض وجهه بذهول وصمت للحظات طالت.. فقالت نور "لقد رَجَتْك ألا تذهب في هذه الرحلة.. لو أنك بقيت معنا..... لو أنك....."

قال أيمن بمرارة "فات الأوان على مثل هذا الحديث.."

وأضاف وهو يجلس على صخرة جانبية "لا يمكنني الندم على ما جرى، فهو قرار اتخذته بنفسي.. وعليّ قبول تبعاته مهما كانت.."

اقتربت نور منه ووقفت قريباً وهي بحيرة مما عليها فعله، بينما بدا الأسى واضحاً على ملامح أيمن وهو يسند رأسه ليديه بصمت لوقت طال.. وفي الآن ذاته، تشاغل البقية تاركين للاثنين الفرصة لبعض الحديث الذي قد يصل ما انقطع بينهما منذ عدد لا يحصى من السنين..

بعد أن تمالك أيمن نفسه ورفع رأسه، لاحظ نور التي تقف قربه تراقبه بصمت.. بدا شيء من الانكسار في عينيها وهي تراقب انفعالاته، ورغم اختلاف هيئتها عما كانت عليه سابقاً، إلا أن أيمن تمكن من رؤية ملامح تلك الطفلة التي فارقها منذ وقت طويل.. فتمالك نفسه وهو يبتسم ابتسامة حائرة ويقول "أنت نور حقاً!.. يبدو أنني في حلم واقعي.."

شعرت نور بدموعها تحتشد في عينيها، بعد أن اقتنع أيمن بهويتها، فمنعت دموعها من الهطول بصعوبة

وهي تبتسم بدورها وتجلس قربه بصمت.. لم تكن تريد أن تبدو بائسة مثيرة للشفقة.. فربما يكرهها.. ربما يستاء للحِمْل المزعج الذي ابتُلِيَ به بعد كل تلك السنين.. ورغم شعورها بشيء من الألم لتعامله معها كشخص غريب يراه للمرة الأولى، لكنها عزمت على تجاوز ذلك بإرادة مدهشة.. عليها أن تعرفه أكثر وتقترب منه أكثر مادامت تملك الفرصة لذلك..

سمعوا القائد يقول في تلك اللحظة "ها هي الدورية قد جاءت في موعدها تماماً.."

تطلعوا للأفق ليلاحظوا تلك السفينة التي تقدمت من القرية بسرعة، قبل أن تبدأ الهبوط في موقع قريب من السفينة الأخرى..

فالتفت القائد إلى آن والآخرين قائلاً "سيقوم رجالي بإنزال الصناديق قرب مهبط السفينة.. والآن، هل تملكان تلك التقارير التي تطلبها الهيئة العليا للعلوم؟"

أجابت آن "بل ما هو أكثر من ذلك هذه المرة.. الهيئة تطلب منا بعض العينات مع نهاية كل سنة.. واليوم أحضرنا العينات لإيصالها للهيئة.."

اقتربت من القائد واضعة الحقيبة التي تملكها عند قدميه وتفتحها، فرأى في جوفها عدداً من الأوعية الزجاجية بمختلف أنواع العينات من بيئة الأرض الملوثة.. واقترب مازن وأيمن منه حاملين حقيبتين مماثلتين في الحجم.. وسرعان ما اندمج الثلاثة في جدال عن هذه العينات جذبت انتباههم كله والقائد يقف في موقعه بغير صبر.. بينما ظلت نور واقفة في موقعها بصمت وهي تراقب انفعال أيمن وحماسته الواضحة وابتسامة حائرة ترتسم على شفتيها، ولما طال انشغالهم بالحديث وتطاول الوقت وهي صامتة، استدارت فجأة وابتعدت عن الموقع مدفوعة بمشاعر لم تستطع التحكم فيها.. ولم يلاحظ أيمن اختفاءها وهو منشغل مع مازن وآن بجدال طويل..

وبعد وقت طال، نهض عابد بدوره وقد غاظه انشغال أيمن بحيث لم يلاحظ اختفاء نور لوقت طويل.. بل يبدو أنه لم يستوعب بعد كونها شقيقته التي لم يرها منذ سنوات الله يعلمها.. تبع عابد خطوات نور مخترقاً صفاً من المنازل، ورغماً عنه تساءل عن سر اهتمامه بما يجري لنور.. ألم تعثر على شقيقها؟.. المفترض أن تكون سعيدة سعادة لا تطاق.. فلمَ بدت لعينيه بائسة الحال؟.. ولمَ هو قلق عليها؟.. لطالما بدت لعينيه

(مجرد فتاة)، لكنه مع الوقت أصبح يلاحظها أكثر، ويهتم بها أكثر، ويقلق لشأنها أكثر فأكثر.. مع الوقت بدأ يرى في عينيها لمحة من طفلٍ سمين مذعورٍ على الدوام.. فهل تجاوز عابد الخط الذي رسمه لنفسه في تعامله مع الآخرين؟..

صرف تلك الأفكار من ذهنه وهو يرى نور الجالسة على أحد الجدران المتداعية، وقد بدا جسدها منكمشاً وهي تنشج بصوت واضح.. بدت تحاول كتم بكائها قدر استطاعتها، ولما اقترب منها رأى دموعها التي بللت وجهها ويديها اللتين ضمّتهما بقبضة قوية في حجرها.. فقال عابد بضيق "لِمَ البكاء وحيدة هنا؟"

أجفلت نور قليلاً لرؤيته، ثم خفضت وجهها بملامح تحمل الكثير من الأسى والحزن.. عندها زفر عابد وهو يقول "أليس هو سبب دموعك هذه؟.. أليست هذه دموعاً اختزنتِها أياماً وسنواتٍ طوال منذ موت أمك وأنت تبحثين عن هذا الشقيق؟.. لِمَ لمْ تذرفيها أمامه ليدرك كم كانت حياتك قاسية بعد أن نبذ مسؤوليتك بإهمال؟"

قالت نور بصوت مرتجف "كيف تعرف ذلك؟"

أجابها "لأنني أعرف.. لست أحمقاً كما قد تظنين.."

فقالت نور وهي تمسح دموعها "لم أستطع البكاء أمامه.. خشيت أن يكرهني.. خشيت أن يراني تعيسة ويضيق بوجودي.."

فقال عابد بسرعة "لا يحق له ذلك.."

خفضت نور وجهها أكثر وهي تقول باكية "أدرك ذلك.. لكنني لا أستطيع.. ليس بعد.. كما أنه عاملني بشيء من البرود.. وكأنني لا أعني له شيئاً.. لم أشعر أنه شقيقي الذي كنت أبحث عنه منذ مدة طويلة.."

فقال عابد بتعجب "أظننتِ أنه سيتلقاك بالأحضان وهو بالكاد تعرّفك؟.. كوني واقعية يا فتاة.."

لم تعلق وهي تغطي وجهها بيديها من جديد محاولة تمالك دموعها التي لم تكف عن الانهمار.. بينما تطلع إليها عابد بشفقة كبيرة.. كان يرى انكسارها للمرة الأولى منذ تعرف عليها.. طوال الوقت الماضي كانت تتصرف بحزم ونباهة تفوق عمرها، وتتصرف بثقة شديدة ولّدها اعتمادها على نفسها في سن صغيرة.. فكيف أصابتها رؤية شقيقها بهذا التغيير الكبير في لحظات معدودة؟..

ودّ لو يضمها ويربت على رأسها لعلّها تهدأ قليلاً وتخفت التعاسة البادية في ملامحها، لكنه أحجم عن ذلك وهو يتذكر نفورها منه ومن البقية في السابق.. وهو لم يرغب بأن يسبب لها المزيد من الضيق فوق ما تشعر به.. ثم قال بعد أن منحها بعض الوقت لتفرغ مشاعرها مع دموعها "هيا.. البكاء لا يناسبك بتاتاً.. لنعد إليهم، ويحسن بك أن لا تكتمي شيئاً عنه أبداً.. الأفضل أن تخبريه بكل شيء، وعندها ستعرفين إن كان يستحق بحثك هذا عنه أم لا.."

نظرت له نور بصمت وحيرة، عندما تعالى صوت أيمن يقول "ما الذي تفعله هنا يا هذا؟"

استدار عابد ليرى أيمن يقترب منهما باستنكار واضح في ملامحه.. فلم يملك نفسه أن قال بسماجة "ليس من شأنك.."

تزايد استنكار أيمن وهو ينظر لدموع نور والسماجة على وجه عابد الذي ابتعد عنهما عائداً للبقية.. فاقترب أيمن من نور متسائلاً بقلق "ما الذي جرى يا نور؟.. هل فعل بك ذلك الرجل شيئاً؟.. هل آذاك؟"

هزت نور رأسها نفياً وهي بدهشة لهذا الشك الذي أبداه أيمن تجاه عابد، فتساءل أيمن بحيرة "إذن لِمَ البكاء؟.. لا تُخفي عني شيئاً مهما كان صغيراً.."

قالت نور وهي تمسح دموعها "لا تقلق.. ليس أمراً مهماً.. عابد كان قلقاً لأمري فقط.."

قطب أيمن شيئاً ما، ثم قال "ما الذي جاء بك على ظهر هذه السفينة وحيدة؟.. كان الأحرى بك القلق لما قد يجري لك في مثل هذه الرحلة.. كيف رضي قائد السفينة باصطحاب مراهقة بعمرك في رحلة خطرة كهذه؟"

نظرت له نور بضيق وقالت "لقد أتيت بحثاً عنك.. قمت بهذه المخاطرة التي تستنكرها لأنني كنت واثقة أنك لا تنوي العودة في وقت قريب.. وأنك لا تعلم بأي شيء مما حل بنا بعد رحيلك.."

اعترض أيمن قائلاً "هذا ليس عذراً.. كان بإمكانك إرسال رسالة نصية مع أحدهم، بما أن الإرسال مقطوع بيننا وبين العالم الجديد.. هناك عشرات الطرق التي تُغنيكِ عن القدوم شخصياً في هذه المخاطرة.."

غلبها الاستياء وهي خافضة وجهها بينما ظل أيمن يكرر قوله بعشرات الصِيَغ.. وكأنه ينبذ اللوم عن نفسه

كونه سبب قيامها بهذه المخاطرة.. أما نور، فقد صمتت وهي تتجنب النظر إليه.. كانت تود لو تتحدث معه حديثاً مطولاً.. تحدثه عن أيام أمها الأخيرة.. تحدثه عن حزن أمها لغيابه قبل موتها.. تحدثه عما فعلته هي منذ أصبحت وحيدة في العالم الجديد.. تحدثه عن الكثير من الأشياء.. لكن هل سيصغي؟.. دهشت لأنها لم تجد في نفسها القدرة على مصارحته بأي شيء، بينما استطاعت أن تبوح بمعظمها لعابد بكل بساطة.. أتجد أيمن بهذا السوء؟.. أم أنه بعيد عنها رغم أن سنتيمترات معدودة تفصله عنها فعلياً؟..

انتبهت من أفكارها على صمت أيمن التام، فرفعت بصرها إليه أخيراً لتراه من بين عينيها الغائمتين يتلفت حوله بتوتر ملحوظ.. وشعرت بقبضته تعتصر ذراعها حتى قالت متألمة "أيمن.. ما بك؟"

التفت أيمن إليها هاتفاً "إنهم قادمون.. ألا تسمعينهم؟"

نظرت له نور بدهشة، ثم انتبهت لذلك الصوت المدوّي في المكان بشكل خافت إنما بوضوح أثار قشعريرة في جسدها وهي تتلفت بدورها بحثاً عن مصدره.. بدا كبوق خافت يتردد في المكان والجبال تردد صداه بشكل يثير التوجس، ثم وجدت أيمن يركض عائداً للبقية وهو يجرها خلفه، فصاحت "ما معنى هذا الصوت؟.."

لم يجبها أيمن وهو يقترب من وسط الساحة ليجد الارتباك ظاهراً على آن ومازن بدورهما، فصاح أيمن "أسمعتم هذا؟.. يبدو أنهم عادوا للهجوم.."

قالت آن بتوتر "علينا الرحيل إذاً.."

قال عابد بحدة "هلا فسرتم لنا الأمر؟.. ما الذي يجري هنا؟.."

قال مازن وهو يتلفت حوله بقلق "إنه هجوم من بعض سكان الأرض المحليين.. ومن الخير لنا ألا نبقى حتى نشهده.."

نظر البقية لبعضهم البعض بدهشة، بينما تلفتت آن قائلة "علينا تأجيل استلام تلك الصناديق حتى رحيلهم.. مهلاً، أين اختفى قائد الدورية؟.."

نظروا خلفهم فلم يعثروا له على أثر، ولم يلبث طارق أن صاح بصدمة "أين رُبى؟.."

لم يكن لرُبى بدورها أي أثر، فلم يتريث طارق ثواني وهو يركض باتجاه مهبط السفينتين، بينما هتف أيمن

"إلى أين؟.. هجوم المحليين سيتركز قرب سفينة رجال الأمن.."

لم يلتفت إليه طارق وهو يعدو بأقصى سرعته محاولاً اللحاق بالقائد ورُبى، ولم يلبث عابد أن لحق به مغمغماً "ما الذي يرجو أن يفعله ذلك الأحمق وحيداً؟.."

فقال نوح بتوتر وهو يراقب ابتعادهما "ما الذي سنفعله الآن؟.. هل يمكننا العودة لسفينتنا؟.."

قال مازن باعتراض "لا.. الأفضل لنا الرحيل باستخدام مركبتنا، بدل خوض غمار ذلك الهجوم.."

كان صوت البوق يدوي بحدة، بينما بدأت أصوات صراخ من عشرات الحناجر تندلع من حول القرية وتقترب من موقعهم بسرعة.. فقالت آن بقلق "لكن المركبة لا تحمل إلا أربعة أشخاص فقط.. ونحن الآن سبعة.."

نظروا لبعضهم البعض بتوتر، ثم قال أيمن "سنقرر هذا فيما بعد.. لنرحل من هنا.."

حمل كل من أيمن ومازن وآن حقائبهما وغادروا ساحة القرية يتبعها نوح ونور ومن خلفهم أحمد وميساء.. بينما تردد الصوت العالي الذي بدا كصدى بوقٍ عميق والجبال القريبة ترددُه بشكل متواتر زاد شعورهم بالتوجس والذعر عشرات المرات..

****

ضربت رُبى ظهر القائد بقبضتيها وركلت وهو يحملها على كتفه ويسرع بها نحو مهبط سفينة الدورية..

حاولت رُبى الإفلات بأي طريقة وهي تصيح "اتركني.. كيف تجرؤ على خرق اتفاقنا معك؟.."

غمغم القائد بسخرية "أكنتِ جادة في تصديق ذلك الاتفاق؟.. من أي عالمٍ أنت؟.."

قالت رُبى بحدة "من عالمٍ يحتفظ فيه المرء بكلمته مهما كانت توابعها.."

علق القائد وهو يلتفت خلفه "في مثل ذاك العالم لا يحتفظ المرء برأسه فوق كتفيه لأكثر من ثوانٍ معدودة.."

اطمأن أن أحداً لا يتبعهما، ثم أنصت لصوت البوق المدوّي للحظات ورُبى تتساءل بقلق "ما هذا الصوت؟.."

أجابها وهو يسرع نحو مهبط السفينة "بعض المحليين قرروا الهجوم علينا.. كالعادة.."

فقالت رُبى بحنق "أنزلني.. لا أنوي الرحيل معكم أبداً، ولن أكون ذات فائدة لدان أبداً.."

قال القائد "دعي دان يقرر هذا.."

فقالت بشدة أكبر "لكنني فقدت قدراتي.. لم أعد أرى أي شيء ولا أعرف ما السبب.."

لم يعلق القائد وهو يلمح سفينة مجلس الأمن من بين المنازل التي تفصله عن نهاية القرية.. فزفر مدمدماً "قليلاً بعد وينتهي كل شيء.."

فوجئ في تلك اللحظة بظهور طارق من بين المنازل القريبة بعد أن لحق بهما ركضاً، فتوقف القائد بحذر متطلعاً للسلاح الذي رفعه طارق وهو يصيح "اترك الفتاة.."

قال القائد بسخرية "هل ستطلق النار عليّ وأنا أحملها؟"

أجاب طارق وهو يقترب منه "هناك طرق أخرى.."

تراجع القائد خطوات وهو يقلب بصره بين طارق وبين السفينة التي لا تبعد عنه الكثير، عندما فوجئ بمن يركل ساقه من الخلف فأسقطه على وجهه وسقطت رُبى بدورها أرضاً.. قفز القائد واقفاً من جديد ليرى عابد يتقدم منه من الخلف، بينما هبّ طارق نحو رُبى ليعينها على النهوض.. لكن القائد كان الأسرع إليها وهو يجذبها ويحيط عنقها بذراعه، وتراجع قائلاً بصرامة "لا تقتربا.. يمكنني قتلها بيدي دون الحاجة لأي أسلحة.."

وقف طارق بتوتر، بينما تقدم عابد مزمجراً "لا يمكنك فعل ذلك.. فسيقتلك دان عندها.."

قال القائد بسخرية "حياتي أهم عندي مما يريده دان.."

فقال طارق بصرامة "إذن لو كانت حياتك تهمك، أطلق سراحها فوراً.."

ظل القائد ينظر لهما بسخرية وحذر واضح، بينما لاحظت رُبى الصراخ العالي من عشرات الحناجر والذي اقترب منهم أكثر فأكثر مع مرور الثواني.. ولم يكن هذا يريحها البتة في هذا الموقف الذي هم فيه..

****

بعد أن تجاوز أيمن والبقية معه عدداً من المنازل، وصلوا للمركبة التي أبقاها أيمن في بداية الطريق الذي يقطع القرية قادماً من جانب تلك السلسلة الجبلية ومنتهياً عند الأفق.. رمىٰ أيمن حقيبته في المركبة قائلاً "آن.. عليك أن تتولي القيادة أنت.."

استجابت له آن وهي تحتل كرسي السائق وتبدأ تشغيل المركبة علىٰ الفور، فيما دفع أيمن نور لتصعد المركبة مضيفاً بتوتر "المهم أن تحمل المركبة الأضعف منا.. فور ابتعادكِ يا آن اتصلي بالمعسكر وأبلغي الرئيس بما جرىٰ.. فليحاول إرسال مركبة أخرىٰ إلينا بأسرع ما يمكن.."

تلفت البقية حولهم بقلق وأحمد يعاون ميساء للصعود بدورها، بينما تساءلت نور بقلق "لِمَ لا نلجأ كلنا لسفينتنا؟.. بهذه الطريقة يمكننا الرحيل بواسطتها بعيداً عن الخطر.."

قال أيمن "الهجوم موجه لسفينة الدورية، وسفينتكم قربها، أليس كذلك؟.. لن يسعفنا الوقت للوصول للسفينة والاحتماء بها.."

فغمغمت نور بقلق أكبر "إذن ما الذي جرىٰ للبقية؟.. هل سيكون عابد وطارق ورُبىٰ بخير؟.."

لم يجبها أحدهم والصياح الصادر عن الهجوم بدا أقرب من السابق، فقال مازن بتوتر "اصعد أنت أيضاً يا عماه.. يجب أن تنطلقوا بسرعة قبل اقترابهم.."

قال نوح باعتراض "محال.. لن أتركك في مثل هذه الأوقات.."

ورغم الذعر الواضح في ملامح نوح من هذا الهجوم، إلا أنه أصرّ علىٰ البقاء قريباً من مازن للاطمئنان عليه.. ورغم الإلحاح، فإنه تشبث بموقفه بعناد تام ونور تنقل بصره بينهما وبين أيمن، ثم قفزت من المركبة قائلة "لترحلا أنتما الإثنان.."

صاح أيمن معترضاً "لا يمكنك البقاء يا نور.."

قالت نور "أنا أخف وأسرع من نوح حتماً لو فوجئنا بهذا الهجوم، ثم إنني لن أتركك أبداً.."

قال أيمن بشيء من القلق والضيق "لن أستطيع حمايتك لو حدث هذا.. عليك الرحيل.."

قالت بشكل قاطع "لا.."

فقالت آن بتوتر "مهما يكن، عليّ الرحيل حالاً.. فليركب من يُرِد الرحيل وليبقَ من يُرِد البقاء.."

عندها قال أحمد "لا بأس، رحيل نوح ومازن خير من بقائهما معاً.."

ونظر لأيمن مضيفاً "وماذا عنا نحن؟.."

قال أيمن باقتضاب "سنتدبر أمورنا حتى قدوم المركبة.."

لم يكن قوله مطمئناً، لكن لم يكن بالإمكان توقع أكثر من ذلك.. ورغم معارضته، فقد رضخ مازن أخيراً وصعد المركبة مع نوح والبقية.. وسرعان ما ابتعدت آن بالمركبة بسرعة كبيرة تاركة الباقين في صمت ووحشة لا تطاق وسط الصرخات التي لا تكاد تنقطع..

تساءل أحمد قاطعاً الصمت "أتملك وسيلة اتصال معهم؟"

أجاب أيمن "لا.. وسيلة الاتصال الوحيدة التي نملكها في المركبة.. لكن لا تقلق.. سنتدبر أمورنا.."

ثم التفت إلى نور قائلاً بحدة "هلا كففت عن التصرف كصبي؟.. أنت فتاة، وليس عليك المخاطرة بنفسك في مثل هذه الأوقات.."

نظرت له نور بصمت وتقطيبة ظاهره، فقال أيمن بحدة "لنرحل من هنا.."

تساءل أحمد وهو يلحق به "ما سبب هجوم هؤلاء البشر عليكم؟.. هل هم كثر؟.. الأرض تبدو لي خالية من البشر، وهذا ما أشيع زمناً طويلاً في العوالم الجديدة.."

أجاب أيمن وهو يتلفت حوله ويسلك طريقه عائداً لساحة القرية "بل الأرض تحوي عدداً لا بأس به من البشر المتفرقين، والذين نبذهم العالم المتحضر عند رحيله نحو العوالم الجديدة.. تلك حكاية تطول وليس هذا وقتها.."

ثم أضاف "الهجوم موجه لمهبط السفن.. من الأفضل لنا الاختباء فوق أحد المنازل المطلة على الساحة لنراقب ما يجري بوضوح أكبر.."

تبعه أحمد ونور بصمت ودون اعتراض، وهم يقلبون الأبصار بين طرقات القرية بحثاً لأي أثر من مهاجميهم الخفيين..

****

في ذلك الموقع القريب من مهبط السفينتين، لاحظت رُبى أن القائد يجذبها معه متراجعاً نحو السفينة التي لم تكن بعيدة وهو ينظر للرجلين بتهديد واضح.. وبينما كان طارق وعابد عاجزين نوعاً ما عن التدخل، فإن القائد كان يقدر على استدعاء رجاله القريبين لمساندته في أي وقت.. عندها حاولت التملص به وهي تعضه وتركله بشدة، فلوى القائد ذراعها خلفها بقوة حتى صاحت بألم.. وفور أن تخلص من مقاومتها، عاد ببصره للرجلين لتتلقاه لكمة قوية من عابد الذي انتهز انشغاله القصير برُبى.. فألقته اللكمة للوراء بينما أفلتت رُبى من قبضته.. لم تتوانَ رُبى عندها عن الابتعاد عنه لتقف قرب طارق الذي سألها بقلق "أأنت بخير؟.."

هزت رأسها إيجاباً وهي تلاحظ الصراخ الذي اقترب منهم بسرعة، وفي الآن ذاته كان القائد قد تحامل على نفسه ووقف على قدميه وعابد يقول له بصرامة "إياك أن تحاول معاودة الكرة من جديد.."

لكن القائد تلفت حوله بتوتر شديد، ثم أدار لهم ظهره وغادر الموقع راكضاً وسط نظرات الدهشة من البقية رغم السلاح الذي يملكه طارق.. لكن طارق، كما قدر القائد، لن يملك سبباً لإطلاق النار عليه بعد أن استطاع إنقاذ رُبى منه.. ولكم كان طارق مخطئاً في هذا..

ولما اقترب من السفينة، حيث رأى عدداً من الصناديق التي كانت تحملها وقد صفّت جانباً لتسليمها للفرقة العلمية، صاح برجاله الذين وقفوا قربها "عودوا للسفينة ولنرحل من هنا.."

أطاعه الرجال على الفور وهم يعودون للسفينة.. وفور أن ضمّته السفينة، قال أحد الرجال القريبين "هل نرسل بعض الرجال لاستعادة الفتاة قبل رحيلنا؟"

قال القائد بحدة "لا.. لنرتفع بهذه السفينة.. أولئك الأوغاد قد قرروا الهجوم علينا من جديد، وأعدادهم أكبر من السابق بكثير كما يبدو.."

وتوجه إلى غرفة القيادة مضيفاً " سنحاول تفريقهم في البدء، ثم نرسل مركبة لا ستعادة الفتاة.. لن يستطيعوا الهرب بها بعيداً مهما حاولوا.."

في تلك الأثناء، كان طارق يمسك رُبى بتوتر ويشارك عابد في التطلع لسفينة مجلس الأمن التي ارتفعت بسرعة.. فعلق عابد على هذا قائلاً "ما سبب هذا الهروب؟.. لقد تراجع رجال الأمن رغم أنهم يملكون القدرة على انتزاع الفتاة منا بكثرة عددهم.."

غمغم طارق "علينا أن نحمد الله على هذا.."

قطب عابد قائلاً "لكن هذا يدلنا أن هجوم المحليين لا يستهان به.. وإلا ما هرب رجال الأمن بهذه الصورة المخزية.."

لم يعلق طارق وهو يقول لرُبى "سنكون بخير الآن، فلا تقلقي.."

علق عابد على قوله بتوتر شديد "عليك أن تراجع قولك هذا يا رجل.."

التفت طارق إليه باستفهام، فرآه يقف متحفزاً وهو يقبض على سلاحه بشدة.. ولما نظر طارق حوله، وقف متجمداً في موقعه بقلق شديد ورُبى تتطلع حولها بفزع..

ومع النور الضعيف الذي تسلل من الغيوم التي تكاثفت بشكل أكثر من السابق، استطاعوا رؤية العديد من الرجال المحليين يقتربون منهم راكضين من جميع الاتجاهات مخترقين الطرقات التي تتشعب بين المنازل بسرعة وعزم واضحين، وبعضهم يطلق صرخات تثير الفزع في النفوس.. ربما تجاوز عددهم خمسون شخصاً وكل منهم مسلحٌ بأسلحة بدائية متنوعة الأشكال والأحجام.. كانت أشكال أولئك المحليين بثيابهم الغريبة وشعورهم الطويلة والتشوهات التي طالت بعضهم بدرجات مختلفة تثير الرعب في نفوس الناظرين إليهم.. وقد تمالك عابد نفسه بصعوبة وهو يقول بتوتر "علينا الرحيل.. ومن الأفضل اللجوء لسفينة الفرقة العلمية عن العودة للبقية.."

جذب طارق رُبى وانطلق محاولاً العودة للسفينة يتبعه عابد.. لم يحاول عابد استخدام سلاحه فلم يبدُ أنه سيؤثر في هذه الجموع، كما أنه لم يكن يريد إصابة أحدهم في هذه المعمعة دون أن يعرف هدفهم من هذا الهجوم..

ومن بين المنازل القريبة، رأى طارق بضع رجال يتجاوزونهم بخفة وسرعة كبيرة، بينما ظهر رجلان فجأة من أقرب المنازل إليهم وقطعا عليه الطريق وهما يصرخان بحدة.. لم يتردد طارق في إطلاق بضع

رصاصات من سلاحه على الأرض عند قدمي الرجلين محاولاً إثارة الفزع في نفسيهما.. وفي الآن ذاته، وجد عابد بضع رجال يلحقون بهم بخفة أجسادهم مقارنة بعابد ومن معه.. توقف عابد عن الركض فجأة وهو يرفع سلاحه ويوجهه بضربة قوية نحو صدر أقرب الرجال إليه.. فأطاحته الضربة المباغتة عدة أمتار للوراء بينما ركل عابد رجلاً آخر وهو يصيح بطارق "اهرب إلى السفينة.."

لم يكذب طارق خبراً وهو يستغل ابتعاد الرجلين من أمامه وانشغال من خلفه بعابد، بينما حاول عابد تعطيل كل من يقترب منه لئلا يلحق أحدهم بطارق ورُبى.. فلو تمكن طارق من الوصول للسفينة، لن يعدم وسيلة لتفريق هذه الجموع ومعاونة عابد.. لكن الرجال سرعان ما تكالبوا على عابد وأحدهم يقفز على كتفيه ويعتصر عنقه بذراعيه، بينما تشبث آخر بسلاحه محاولاً انتزاعه منه.. طوّح عابد جسده يميناً ويساراً وهو يلكم كل من يقترب منه ويحاول الخلاص من الرجل الذي يخنق أنفاسه بعزم مدهش.. لكنه فشل في الخلاص منه وأنفاسه تتلاحق بعسر شديد حتى سقط على ركبتيه، فعاجله أحد الرجال بركلة قوية في بطنه جعلته ينثني بقوة والألم يزداد قوة في جسده بشكل أقوى من السابق..

في تلك الأثناء، وجد طارق عدداً من الرجال يتجاوزون عابد ويلحقون به بسرعة، فدفع رُبى أمامه وحاول تشتيت الرجال بطلقات أخرى، لكنهم لحقوا به بإصرار وأحدهم يرفع عصاً خشبية ثقيلة فيضرب رأس طارق بها بقوة ألقته للوراء.. شهقت رُبى بذعر وهي ترى جسد طارق يرتمي أرضاً، وقبل أن يتسنى له وقت للنهوض، كان الرجل يضربه على ظهره ليعيده للأرض، بينما تقدم آخران من رُبى التي تراجعت وهي تصيح "لِمَ تهاجموننا؟.. ما الذي تريدونه منا؟.."

قطع صياحها صوت انفجار وقع على مقربة والموجة التضاغطية ترمي برُبى ومن حولها أرضاً.. رفع طارق رأسه ينظر لمصدر الانفجار، فرأى سفينة مجلس الأمن تحلق فوق رؤوسهم بتهديد واضح.. وفي غرفة القيادة، كان القائد يصيح بأحد رجاله "قلت لك أبعد هؤلاء المتوحشين عن الفتاة ولم أطلب منك قتلها!.."

قال الرجل بتوتر "إنهم قريبون جداً منها ويصعب تفريقهم من هذه المسافة.. من الأفضل أن يواجههم رجالنا مباشرة.."

قال القائد عاقداً حاجبيه "ليس بعد.. أريد إثارة ذعرهم وتذكيرهم بما خسروه في المرات السابقة.. كيف يجرؤون على مهاجمتنا بهذه الصورة السافرة؟.."

تحامل طارق على نفسه وركض نحو رُبى قبل أن يتمالك المحليون أنفسهم ويصلوا إليها، فساعدها على الوقوف وهو يلتفت بتوتر إلى عابد.. فرآه قد تخلص من مهاجميه مع ذلك الانفجار وحاول الركض مبتعداً وهو يضرب أقرب الرجال إليه ضربة قوية.. فاستدار طارق جاذباً رُبى وهو يغمغم "لو نصل للسفينة فقط....."

فوجئ برجل يقف أمامه بينما اقترب آخران من خلفه، عندها قال لرُبى "استغلي أي فرجة بينهم واهربي للسفينة القريبة.."

همست رُبى بقلق "الوضع يائس تماماً.."

فوجئ الرجلان خلف طارق بهجوم عابد عليهما وهو يطوّح بأحدهما بعيداً بقبضته، ويشغل الآخر في عراك محدود، بينما قفز الرجل في المقدمة على طارق وحاول ضربه بمعول.. تجاوز طارق الضربة بصعوبة وهو مدرك أنها لو أصابته فستهشم رأسه بالتأكيد.. وقبل أن يتجاوزه الرجل ركله طارق بقوة على ساقه أخلّت توازنه، ثم ضربه بقبضتي يديه على رأسه أسقطته أرضاً.. ومع سقوطه، كان الطريق خالياً أمامهما للوصول للسفينة، لو تمكن عابد من تعطيل الآخرين..

انطلق طارق مع رُبى دون إبطاء نحو السفينة، وقبل أن يقتربا منها، فوجئا بانفجار محدود يندلع بينهما وبين السفينة ويمنعهما من الاقتراب منها.. فوقف طارق بتوتر وهو يرفع بصره للسفينة التي تجوب السماء فوق رأسيهما، بينما صاح عابد وهو يحاول التخلص ممن يلحق بهم من المحليين "ما الذي تفعله يا طارق؟.. اهرب للسفينة.."

قال طارق بتوتر "لكن رجال الأمن....."

قاطعه عابد صائحاً "لن يجرؤوا على المساس بالفتاة.. ارحلا بسرعة.."

تشجع طارق وهو يركض للسفينة جاذباً رُبى، ورغم ثقته أن رجال الأمن لن يحاولوا إصابتهما مباشرة مع وجود رُبى معه، إلا أن وصولهما للسفينة كان أمراً آخر.. فقبل أن يتجاوز الإثنان الأمتار القليلة الباقية

بينهما وبين بوابة السفينة، فوجئا بطلقة أخرى تصيب جانب السفينة بانفجار قوي والصخور تتطاير نحوهما حاملة معها أجزاءً معدنية من جسم السفينة.. فوقف طارق وهو ينحني مولياً ظهره للانفجار حامياً رُبى بجسده وهي تضع ذراعيها على رأسها وصوت الانفجار القوي يدوّي في رأسها.. ومع صوت الانفجار الثاني، التفت طارق خلفه بصدمة ليجده قد أصاب مؤخرة السفينة في موضع محركاتها.. وفي قلب سفينة دورية الأمن، قال رجل الأمن بقلق "أكان علينا فعل هذا؟.. لن ننجو من المساءلة.."

قال القائد بسخرية "ليس عندما نلقي باللائمة على هذه الشرذمة.. لا تقلق.. كل ما يهم الآن ألا تفلت الفتاة من أيدينا.."

استغرق ابتلاع هذا التطور الجديد لحظات طويلة من طارق الذي وقف في موقعه بصدمة شاركته فيها رُبى قائلة بصوت مرتجف "هذه كانت فرصتنا الوحيدة.."

لم يعلق طارق وهو يستدير خلفاً ليجد طلقة أخرى من سفينة الدورية تنفجر على بعد عدة أمتار من عابد ألقته للخلف بعنف هو ومن معه من المحليين في تهديد واضح.. نظر طارق إلى جسد عابد الذي افترش الأرض وهو عابس يكتم أنينه بعسر، وقد تناثرت أجساد المحليين قربه وبعضهم يحاول النهوض والهرب قبل حدوث انفجار آخر قد يودي بحياته..

بينما قالت رُبى بذعر "ما الذي سنفعله الآن؟.. فقدنا وسيلة نجاتنا الوحيدة والهجوم لا يزال مستمراً.. ولا أظن القائد يعبأ بحياة عابد أو الآخرين.."

رأيا طلقة أخرى موجهة نحو فريق من المهاجمين حاول الاقتراب من السفينة وصياحهم يتردد صداه في المكان.. فاندلع الانفجار وسطهم ملقياً بأجسادهم في دائرة واسعة دون أن يخلو الأمر من إصابات متفاوتة.. عبس طارق بقلق شديد بينما شهقت رُبى وهي تدير بصرها جانباً، وهمست وهي تحاول إيقاف رجفة يديها "إنهم مجرمون.."

غمغم طارق "لا يمكننا التخلي عن عابد الآن.. يجب أن نساعده ونحاول الهرب بأي وسيلة ممكنة.."

وأضاف متطلعاً إليها "حاولي الابتعاد عن هذا الموقع.. سألحق بك فور أن أستعيد عابد.."

واندفع نحو موقع عابد ليحاول معاونته على الهرب، لكنه وجد رُبى تلحق به على الفور وقلق واضح على

وجهها، فصاح بها "طلبت منك أن تبتعدي.."

صاحت بدورها باعتراض "بدوني، ستقصفك سفينة مجلس الأمن لا محالة.."

وأضافت وهي تسرع إلى عابد بدورها "أنا كصمام الأمان بالنسبة إليكما، لذلك يحسن بنا استغلال هذا في الوقت الحالي.."

لم يعلق طارق وهو يحاول معاونة عابد الذي بقي في موقعه بألم واضح، وقال له بتوتر "هيا يا رجل.. علينا الرحيل.."

كانت الدنيا شبه مظلمة لعيني عابد، والدوار يعصف به والأصوات يسمعها بصدىً يتكرر بحيث أثارت في رأسه صداعاً حاداً.. لكنه حاول النهوض جاداً رغم ذلك عندما سمع طارق يقول بصدمة "يا إلهي.."

نظر عابد حوله بما يقدر على رؤيته وهو يلحظ الشهقة المذعورة التي أطلقتها رُبى، بينما تلفت طارق بعينين متسعتين للهراوات والمعاول التي يحملها المحليون وفريق منهم يتجاوز عشر أفراد يقتربون بنظرات حادة وغضب واضح بعد كل الإصابات التي نالها رفاقهم من سفينة مجلس الأمن.. دار طارق ببصره بقلق كبير وهو يدفع رُبى خلفه دون أن يدري كيف سيقدر على حمايتها من مثل هذا الهجوم.. من هذه المسافة القريبة، سيكون من المستحيل على سفينة رجال الأمن تفريق المحليين من حولهم دون المخاطرة بإصابة رُبى إصابة قد تكون مميتة.. أما عابد فهو بالكاد يقاوم غيبوبة قوية تهاجم رأسه دون هوادة.. وبهذا، غدا من المستحيل الهرب من هذا الموقف..

كان هذا رأي طارق عندما فاجأه ذلك الضوء المبهر الذي اندلع فوق رؤوسهم شاقاً الغيوم الكثيفة يصحبه صوتٍ مدوٍ كاد أن يصمّ آذانهم، وجمّد الجميع في أماكنهم دون حراك..

****

الفصل السادس عشر

وسط تلك الحلقة من الرجال المحليين بتشوهاتهم المختلفة والتي ضاقت عليهم خطوة بعد خطوة، فوجئ طارق وعابد ورُبى بذلك الضوء المبهر الذي انشق من بين الغيوم تبعه صوتٌ مدوٍ تردد بقوة صمّ آذانهم والجبال تردد صداه بشكل متكرر للحظات طالت.. تجمد الوضع تماماً في الموقع والكل يرفع بصره للسماء برهبة واضحة.. وسرعان ما رأوا ذلك البرق الخاطف يلتمع بقوة من بين الغيوم شاقاً عرض السماء وهدر الرعد بعده بعنف أثار فزع رُبى التي سدت أذنيها بيديها بقوة.. كان الموقف أكبر من أن تصفه الكلمات والأرض تعلن عن سطوتها بقوة.. وكان الأمر أكثر إثارة للرعب لسكان المستوطنات الصناعية الذين لم يشهدوا عاصفة رعدية من قبل، ناهيك عن أن تكون بهذا العنف..

ورغم اعتيادهم على هذا، أبدى الرجال المحليون توتراً أكبر من المعتاد وأغلبهم يتراجعون عدة خطوات وهم ينظرون للسماء برهبة واضحة.. فقال طارق لعابد وهو يعينه على النهوض "هيا بنا، لا يمكننا الانتظار أكثر من هذا.."

فوجئوا بطلقة من سفينة مجلس الأمن تنفجر وسط بضع رجال محليين تراجعوا مع العاصفة، فرمتهم جانباً بإصابات مختلفة والصخور المتناثرة تتطاير فتصيب البقية المتحلقين حول رُبى ومن معها وتكاد تصيبها هي أيضاً.. حمَت رُبى رأسها بذراعيها، بينما اندلع انفجار آخر في موقع أبعد قليلاً ونحو بضع رجال حاولوا التراجع هاربين من الهجومين، هجوم السفينة وهجوم الطبيعة..

وكأن الطبيعة تحاول أن تعلن عن ضراوتها، انهمر سيل من الأمطار ببرودة صقيعية مغرقة الموجودات ببلل لا يكاد ينقطع.. تفرق الرجال على الفور محاولين تفادي مثل هذه الهجمة القاسية بينما دارت سفينة مجلس الأمن دورة وقائدها يصيح بقلبها "أطلقوا طلقة أخرى.."

قال الرجل الذي يقود السفينة بقلق "أليس من الأفضل لنا الرحيل قبل اشتداد العاصفة؟.. موقعنا لا يخلو من خطر.."

صاح القائد عاقداً حاجبيه "ليس قبل أن نلقن هؤلاء البدائيين درساً لن ينسوه.. امنعهم من الفرار لجحورهم قبل أن ننتهي منهم....."

لم يكد قائد السفينة ينفذ طلبه والشاشة تلتمع ببارق قوي أعشى الأعين وجعل القائد ورجاله يديرون وجوههم بألم والقائد يصيح "تباً.. ما هذا؟"

فوجئوا بسماع صوت انفجار قوي اندلع من جانب السفينة ارتجت له بقوة قبل أن يختل توازنها وتميل جانباً.. فصاح قائد السفينة بذعر "البرق أصاب جانب السفينة، وأحد محركاتها قد انفجر تماماً.."

صاح القائد "سيطر على السفينة لئلا تهوي.."

لم يكد الانفجار الأول يخفت حتى سمعوا صوت انفجار آخر من موقع قريب وأحد المحركات الجانبية القريب من الانفجار الأول ينفجر بدوره مسبباً ميلان السفينة بقوة وهي تهوي نحو الأرض بسرعة.. اندلعت صيحات رجال الأمن المذعورة في السفينة بينما قائدها يحاول السيطرة عليها قدر استطاعته.. لكن المسافة القريبة التي تفصلهم عن الأرض لم تكن تسمح له بذلك، وأمام عيني قائد رجال الأمن المذعورتين، اقتربت منهم الأرض الصخرية بتسارع مخيف أصابته بصدمة شديدة وهو يهمس "يا إلهي.."

وأمام عيني طارق ورُبى، هوت تلك السفينة من حالق ونحو موقع بعيد عنهم باهتزاز شديد، حتى ارتطمت بالأرض بشيء من العنف ومؤخرتها تنفجر بدويّ عالٍ وأجزاء منها تتطاير بسبب الانفجار.. زفر طارق وهو يراقب الانفجار.. رغم أن هذا يعني نجاتهم من خطر واحد، لكن مقتل العشرات في السفينة لا يسعده بأي حال..

لا حظ طارق أن الرجال المحليين يلملمون جرحاهم بسرعة ويبدؤون التراجع بصمت، ولا حظ أن أحدهم قد ضرب عابد على رأسه معيداً إياه للأرض من جديد قبل أن يبدأ المقاومة.. فصاح طارق وهو يندفع إليهم "اتركوه أيها الأوغاد.."

وجد أربعة رجال يتحلقون حوله وأحدهم يلطمه على وجهه بقوة بعصا خشبية كادت أن تخلع فكه لعنفها.. فسقط أرضاً وهو يشعر بدوار شديد عندما التمعت السماء بقوة صاحبها هدير قوي للرعد تردد فوق رؤوسهم بالضبط.. شعر طارق بمن يركل سلاحه من يده، رغم أنه كان فارغاً بالفعل، وينهضه واقفاً

بشدة، ثم يدفعه ورُبى معه ليتبعا بقية الرجال.. حاول طارق المقاومة رغم الدوار الذي ألمّ برأسه، لكن رُبى أوقفته صائحة "يكفي هذا يا طارق.. ستؤذي نفسك أكثر دون أن تتغلب عليهم.."

لم يملك طارق إلا أن يستسلم لهم وهم يلكزونه ليتبع الآخرين بسرعة، بعد أن تخلى عابد عن المقاومة بدوره وسار خلفهم بدوار عنيف في رأسه.. فسارت المجموعة بخطوات سريعة وتوتر واضح مبتعدين عن القرية ونحو سلسلة جبلية قريبة.. فيما زمجرت العاصفة بدويّ جديد وموميض أقوى من السابق هزّ الجبال القريبة بوضوح..

****

بعد أن وصل المحليون إلى السلسلة الجبلية التي تقع القرية عند سفحها، سلكوا طريقاً شبه ممهد يخترق الجبال بسرعة وتوتر واضح مع تزايد قوة العاصفة وسطوتها.. كان انهمار الأمطار بغزارة يزيد الأمور سوءاً، بينما تدفعهم الرياح القوية وتعبث بتوازنهم بشدة..

لم يجرؤ طارق والبقية على الاعتراض مع تلك الرماح والهراوات المصوّبة إليهم، فالتزموا الصمت وهم يتبعون أولئك الرجال في مسيرهم والرجال المحليين يصرخون بهم لئلا يبطئوا وسط العاصفة التي لم تهدأ وتزداد شدة مع كل لحظة تمضي..

وبعد سير مضني وسط تلك الأجواء العاصفة، وجدوا أن المحليين قد اتخذوا طريقاً يرتقي أحد الجبال القريبة حتى يصل بهم لموقع منبسط قليلاً.. وفي جانب الجبل بدا مدخل كهف واضح بمساحة معقولة.. تقدم الرجال عبر الفتحة بعجلة هاربين من الأمطار التي بللتهم وجعلت البرودة تتغلغل في عظامهم، بينما غمغم عابد بتعب "هل سنختبئ في هذا الكهف حتى انتهاء العاصفة؟"

لم يجبه أحد والرجال يتوغلون في الكهف أكثر فأكثر، وسرعان ما تحول الكهف لممر يخترق الجبل ويزداد ضيقاً مع مرور الوقت حتى أصبح الطريق لا يسمح إلا بمرور شخص واحد في كل مرة.. طال سيرهم وسط الظلمة المخيمة في المكان، بينما لم يتردد الرجال في اختراق قلب الجبل دون أي وجل وصوت

العاصفة يزداد بعداً مع كل خطوة يخطونها..

همست رُبى لطارق الذي يسير خلفها "كيف سيستدلّ الآخرون على موقعنا هنا؟"

أجاب طارق "لا أظن شخصاً سيتوقع وجودنا في قلب هذا الجبل.."

بعد سير طويل دون أن يتبادل الرجال فيه حرفاً، أو حتى صوتاً مبهماً، وصلت المجموعة لموضع اتسع فيه الممر والثلاثة ينتبهون لأصوات عديدة تندلع من موقع أمامهم.. كان الصوت يوحي بتجمع مجموعة كبيرة من البشر في موقع واحد وصدى الصوت يصل إليهم مضخماً عشرات المرات.. ثم وجدوا الممر يفضي لكهف واسع عالي السقف بترسبات تتدلى من سقفه وصوت خرير خفيف يصل لسمعهم من جانب المكان.. وفي وسط وجوانب ذلك الكهف، انتشرت عشرات وعشرات الأكواخ بدائية الشكل، مقارنة بما يعرفه سكان المستوطنات.. كانت أكواخاً بائسة الحال مريعة المنظر وفي جو دافئ مقارنة بالخارج لكنه كئيب مع كل تلك المشاعل التي تضيئه بنورها البرتقالي القاتم..

وجدوا الرجال يتجهون لموقع يتوسط ذلك الكهف، بينما اصطحب ثلاثة رجال طارق وعابد ورُبى عبر طريق جانبي حتى وصلوا لكوخ مظلم صغير الحجم.. ففتح أحدهم الباب بينما وقف طارق يتساءل بقلق "ما الذي تنوون فعله بنا؟"

لم يجبه أحدهم وهم يدفعونه نحو مدخل الكوخ فيسقط على الأرض الصخرية مؤلماً ظهره الذي أصيب بضربة من الرجال سابقاً، وتبعته رُبى محاولة عدم السقوط أرضاً بسبب الدفعة التي تلقتها، بينما زمجر عابد وهو يقول "ما الداعي لهذا العنف؟..نحن لسنا أجولة قمح لترموها بهذه الطريقة.."

لكزه أحدهم بطرف العصا في ظهره حتى دخل الكوخ، ثم أغلقوا الباب خلفه ليعمّ ظلام جزئي في المكان إلا من نور خفيف يدخل من النافذة القريبة.. نهض طارق وتطلع عبر النافذة ليرى مشعلاً تم وضعه على الأرض قرب الكوخ، ولاحظ تراكض بعض السكان المحليين من رجال ونساء، وأطفال لا يقلون عن آبائهم تشوهاً، نحو جانب المكان حيث بدا تجمع أكبر من المحليين هناك.. قال طارق وهو يراقب ما يجري "هناك العشرات من هؤلاء المحليين.. ربما يتجاوز من في هذه القرية البدائية مائتي شخص على الأقل.."

ثم زفر بحدة قائلاً "ما الذي ينتوون فعله بنا؟.."

غمغمت رُبى "الله أعلم.."

نظر لها طارق بحدة، فابتسمت شيئاً ما قائلة "هل يصدمك قولي هذا؟"

علق قائلاً "لا.. لكن من الغريب رؤيتك تفقدين الثقة بما سيحدث.."

فقالت بشحوب "هذا لأني لم أعد أستطيع رؤية شيء أبداً.. منذ فقدت وعيي الليلة الماضية، توقفت الرؤى تماماً.."

أصابته دهشة لقولها هذا، ورغم ذلك فقد تمالك نفسه مع مرأى القلق على وجهها وغمغم "ربما ذلك راجع لما نمر به، وقد تعود الأمور لطبيعتها بعد ذلك.."

قالت رُبى "لا أدري.. لكن هذا الأمر لا يريحني بتاتاً.."

لاحظ طارق صمت عابد وهو يجلس جانباً، وأمكنه رؤية ملامحه المتعبة والعرق الذي يسيل على صدغيه رغم البرودة الشديدة، فتساءل طارق "ما بك؟.. أأنت بخير؟.."

أجاب عابد بشيء من العصبية "أنا بخير.."

لم يكن قوله مقنعاً، لكن طارق اكتفى بهذا القول وهو يتلفت حوله معلقاً "ما الذي سيجري لنا منذ الآن؟.."

قال عابد "ربما يمكننا المفاوضة مع رئيسهم.. أغلب الظن هجومهم كان موجهاً نحو دورية مجلس الأمن، وربما ظنوا أننا منهم.. قد يطلقون سراحنا لو أخبرناهم ألا علاقة لنا بمجلس الأمن.."

غمغم طارق "لا أظن الأمر بسيطاً لهذه الدرجة.."

فعلق عابد "لا ضير من المحاولة.."

لم يعترض طارق وهو يتوجه للباب المغلق بإحكام.. فقام بضربه بقبضة يده بشدة وهو يهتف "أخرجونا من هنا.. نريد التحدث مع رئيسكم.."

تساءلت رُبى "أتظنهم يفهمون لغتنا؟.. ربما لهم لغة خاصة لا نعرفها.."

قال طارق بحنق "سنعرف ذلك عندما يحاول أحدهم الحديث معنا.. لماذا يتجاهلوننا بهذه الصورة؟.."

ظل يحاول جذب الانتباه إليهم، بينما التزم كل من عابد ورُبى الصمت التام.. بدا ما يشغل كل منهما يتفوق

على قلقهم من وجودهم في هذا المكان الغريب.. فرُبى تعاني آلاماً شديدة في رأسها ألزمتها الصمت وهي تحاول الحصول على بعض الراحة.. لاحظت تزايد تلك الآلام بعد فقدان وعيها ذاك، وتزامن مع تراجع الرؤى التي تراها بشكل كبير.. فكيف لهذا أن يكون مطمئناً؟..

أما عابد، فقد انشغل بجرح ظهره الذي اشتعل بآلام لا تطاق، وكأن شخصاً يحاول أن يكوي الموضع بالنار.. والأسوأ أنه لم يستطع العناية بهذا الجرح بشكل صحيح منذ إصابته به، فهل تلوث الأرض يؤثر على جرحه بشكل أكبر أم أن بعض العناية تكفيه ليعود جسده كما كان؟..

بعد أن يئس طارق من استجابة أحد له، جلس جانباً بدوره وهو يلتزم الصمت بقلق واضح.. وبعد ساعة تقريباً، وجدوا الباب يفتح ويظهر منه أحد المحليين ومن خلفه بدا ثلاثة آخرون يحملون حراباً وهراوات بتحفز.. وبإشارة من الرجل الأول، قام الثلاثة باقتياد طارق ورُبى وعابد خارج الكوخ بصمت تام.. فاجتازوا عدداً من الأكواخ المتفاوتة في الأحجام حتى وصلوا لساحة وسط هذه القرية البدائية قبل أن يصلوا منصة خشبية أقيمت وسطها يقف عليها جماعة من الرجال.. شق طارق ومن معه تلك الجموع خلف أحد الرجال حتى وصلوا منتصفها حيث يتوسط المجلس رجل تجاوز السبعين من عمره بلحية بيضاء وحاجبين غليظين وحروق واضحة على وجهه وما ظهر من جسده، وقربه رجل يقارب الأربعين من عمره إنما واضح القوة وبجسد طويل وعضلات واضحة رغم أنه لم يسلم من التشويه بدوره..

أجبر الثلاثة على الركوع أرضاً والرجلان ينظران إليهم بتفحص، ثم تقدم منهم رجل نحيل وقال بصوت واضح ولكنة غريبة رغم حديثه باللغة الإنجليزية "أيها الأسرى، أنتم في حضرة زعيم القرية، وحكيمها.. من مصلحتكم عدم إخفاء أي أمر عنهما والإجابة على كل الأسئلة دون كذب أو مداراة.."

قال طارق متلفتاً حوله "أنتم تتحدثون الإنجليزية؟.."

أجاب النحيل "القليل منا فقط.. لغتنا مختلفة، وهي لغة لا يعرفها أولئك القادمون من الفضاء.."

تساءل طارق "أتعني رجال الأمن؟.."

لم يجبه الرجل وهم يسمعون هدير الرعد واضحاً رغم موقعهم البعيد عن العاصفة خارجاً.. بل إن الصدى قد بدا أشد وأقوى من السابق بحيث أثار ذعر الثلاثة دون أن يؤثر في بقية الرجال المحليين وهم

ينظرون للحكيم والزعيم بانتظار أوامرهما.. وبعد أن ساد الصمت للحظات، قال الحكيم من خلال المترجم "هذه هي المرة الأولى التي تحضر فيها سفينتان من الفضاء.. المعتاد أن تأتي سفينة واحدة كل بضعة أشهر.. فمن أنتم حقاً؟.. وما الذي جاء بكم للأرض؟"

قال طارق بتوتر "كل ما جئنا لأجله هو البحث عن جماعة من العلماء جاؤوا للأرض منذ خمس سنين.. وفوجئنا بهجومكم علينا دون سبب مفهوم.."

تقدم الزعيم قائلاً بحنق "نحن إنما ننتقم لكل ما فعله أولئك الرجال من الفضاء منذ قدومهم إلينا.. ألا تعلمون كم منزلاً دمروا وكم شخصاً قتلوا؟.. ولأجل ماذا؟.. إنهم يعاملوننا كحيوانات بدائية لا حق لها بالحياة.. بل إنهم كادوا يحرقون هذه القرية كاملة في إحدى المرات.."

قال طارق بإلحاح "لكننا لسنا منهم.. جئنا للقاء تلك الجماعة التي بقيت على سطح الأرض، ولا علاقة لنا بما يفعله رجال مجلس الأمن.."

نظر الزعيم للحكيم مقطباً، ثم عاد ببصره إليهم قائلاً "هذا لا يعني أننا سنطلق سراحكم بهذه البساطة.."

فقال عابد بهزء "إذن ستشنقوننا علناً جزاء ما حدث لكم؟.."

قال الزعيم مبتسماً "لا.. ليس بهذا الأسلوب.."

نظروا له بتوجس كبير، ثم تساءل طارق "ما الذي تنوون فعله إذاً؟.."

أجاب الزعيم "الشتاء على الأبواب، ونحن بحاجة لكل ما يمكننا الحصول عليه.. سنرى إن كانت أرواحكم تساوي شيئاً.."

نظر له طارق بدهشة وعدم فهم، بينما أضاف الزعيم وهو ينظر جانباً "وها هي الغنيمة تزداد بالفعل.."

نظروا خلفهم بدهشة، ليروا جماعة الرجال المتحلقين حولهم تنزاح ويظهر من بينهم أيمن تتبعه نور وأحمد.. بدت بعض الإصابات والكدمات ظاهرة على وجهي أيمن وأحمد، كما لم تنجُ نور من كدمة غطت معظم خدها.. عندها قال عابد بسخط "كيف وقعتم في قبضتهم؟.."

أجاب أيمن مقطباً "كما وقعتم أنتم.."

تساءل طارق بقلق "والبقية؟"

أجاب أحمد "لا تقلق.. هربوا بالمركبة قبل أن نسقط نحن.."

أجبرهم الرجال على الانضمام لهم والركوع أرضاً، بينما قال الزعيم موجهاً حديثه لأيمن "لقد رأيتك سابقاً مع أولئك الرجال الذين استوطنوا الهضبة الحمراء.. ما الذي تفعلونه هنا؟.. وما الذي جاء بكم بعد عقود نبذ فيها البشر هذه الأرض ومن عليها؟.."

أجاب أيمن بتوتر "نحن علماء، أتينا لرؤية ما حل بالأرض وما يمكن فعله لإعادتها لسابق عهدها.."

ضحك الزعيم بسخرية لما ترجم له المترجم هذا القول، وقال "ما يمكن فعله؟.. لقد فعل البشر كل ما يقدرون عليه لتدمير هذه الأرض.. ولن تنجو من هذا الدمار إلا بعد أن تقضي على كل من يعيش عليها.. نحن مستمرون بحياتنا البائسة بالكاد، ولسنا بحاجة لكم لتحسين حياتنا هذه.. الأفضل لكم الرحيل عن الأرض وتركها بسلام.."

قال أيمن باعتراض "لكننا لا نسبب الأذى لأحد.. نحن مجرد....."

قاطعه الزعيم بصرامة "أنتم لا تسببون الأذية، لكن بوجودكم يعود أولئك ذوي الرداء الأسود كل فترة.. وهم لا يعبؤون بحياة سكان الأرض ولا بقسوة معيشتهم.. لقد سئمنا وجودكم على الأرض، كما سئمت الأرض منكم منذ زمن بعيد.."

قال أيمن متعللاً بإحدى الحجج "لكن لا نملك إلا سفينة واحدة.. وهي صغيرة ولا تكفي لحملنا جميعاً.."

غمغم طارق بضيق "لقد دمرها رجال الأمن بالفعل.."

نظر له أيمن بصدمة كبيرة، ثم تجاوز صدمته وهو يلتفت إلى الزعيم الحانق ليقول بشيء من التوتر "يمكننا القيام ببعض المقايضة.. أطلقوا سراحنا وسنزودكم ببعض الطعام والمواد التي ستعينكم في الشتاء القادم.. هذه صفقة رابحة، أليس كذلك؟"

أطلق الزعيم ضحكة ساخرة بعد أن استمع للترجمة وقال "نقايض أرواحكم ببضائع رخيصة يمكننا الحصول عليها مجاناً؟.. أهذا عرض من المفترض أن يسيل له لعابنا؟"

تساءل أيمن بقلق "ماذا تعني؟"

لم يجبه الزعيم وهو ينظر خلفه، فاستدار أيمن بدوره متتبعاً نظراته ليشاهد من بين جمع المحليين جماعة من الرجال تتقدم من المنصة يحمل كل اثنان منهم صندوقاً كبير الحجم ثقيل الوزن كما بدا من التعب الواضح على وجوههم.. ولم يكن أيمن غافلاً عن ماهية تلك الصناديق مع شعار الهيئة العليا للعلوم الواضح على جوانب تلك الصناديق.. بينما تساءل طارق "أهذا ما أنزلته دورية مجلس الأمن؟"

لم يجبه أيمن وهو يلتفت إلى الزعيم صائحاً "لا يمكنكم الاستيلاء على هذه الصناديق؟.. إنها تخصنا، وفيها الكثير من المعدات التي لا تفيدكم بتاتاً.."

وضع الرجال الصناديق أرضاً، فأحصى أيمن خمسة عشر صندوقاً متفاوتاً في الحجم واللون.. كان يعرف محتويات تلك الصناديق جيداً، فهو وبقية أفراد الفرقة من قام بتجهيز قائمة باحتياجاتهم وسلموها للدورية التي زارت الأرض قبل ثلاثة أشهر.. تلك الصناديق تحتوي بقلبها على بعض الملابس والبطانيات الثقيلة، وعلى أطعمة ومعلبات تكفي لعدة أشهر، بالإضافة لبعض الأدوية والمعدات الطبية التي تعوّض النقص لديهم، وبعض البطاريات التي تعتمد على الطاقة الذرية الحديثة وعدد من الأجهزة المطورة التي تتفوق على ما أحضروه معهم من أجهزة.. قد يكون الأمر مفهوماً بالنسبة للملابس والأطعمة، لكم ما الذي سيفعله المحليون بالأجهزة والمعدات الأخرى؟.. إنها لن تفيدهم بأي صورة، وقد يعمدون لتخريبها بجهل منهم وبهذا العنف الذي يتعاملون به مع الصناديق..

التفت أيمن إلى الزعيم قائلاً بمحاولة أخيرة " سنتنازل عن كل الأطعمة والملابس الموجودة في هذه الصناديق مقابل إطلاق سراحنا.. أما باقي محتوياتها، فهي لن تفيدكم في شيء.."

نظر له الزعيم رافعاً حاجبيه وقال "يبدو أنك لا تعرف موقعك حقاً.."

وبإشارة منه، وجد رجلين يجذبانه بقوة ليقف، ثم دفعاه أمامهما ليغادر المنصة، لكن أيمن رفض التحرك وهو يقول بانفعال "ما الذي ستفعلونه بي؟.. إلى أين ستأخذونني؟.."

قال الزعيم " ستعود أنت لمحبسك حتى يأتي من هو مستعد للمقايضة بما يملكه بك، هذا إن كنت محظوظاً.."

فصاح أيمن "وماذا عن البقية؟.. ما الذي تنتوون فعله بهم؟"

لم يجبه الزعيم والرجلان يدفعانه بقوة أمامهما، بينما ظل طارق يتلفت حوله بتوتر شديد ونور تهمس بقلق "هل سيكون أيمن بخير حقاً؟"

غمغم عابد "عليك أن تقلقي لأمرنا نحن، فلا يبدو أنهم ينتوون به شراً.."

وجدوا طارق يقف صائحاً وهو يشير لرُبى "هذه الفتاة أيضاً تنتمي لتلك الفرقة.. إنها ابنة رئيسهم وهو سيقايض حياتها بكل ما تطلبونه.."

نظر له البقية بدهشة بينما نظر الزعيم لرُبى بشيء من الشك قائلاً "أتحاول خداعنا يا هذا؟"

قال طارق بإلحاح "لا.. إنها ابنة رئيسهم بالفعل.."

نظر الزعيم إلى أيمن بلا اقتناع، فحاول أيمن تمالك دهشته الواضحة على ملامحه وهو يتأمل رُبى ملاحظاً الشبه الواضح بينها وبين رئيس الفرقة العلمية.. ثم تحدث الحكيم بصوته العميق ذا البحة الخفيفة "لا بأس.. اثنان أفضل من واحد.. خذوها هي أيضاً.."

غمغم الزعيم "أتصدق ما يقوله؟"

لم يعلق الحكيم بينما قالت رُبى بقلق "ليس عليك فعل ذلك يا طارق.. سأبقى معكم.."

لكن طارق ساعدها على الوقوف وهو يقول بحزم "بل اذهبي مع أيمن.. هذا خير لك بالتأكيد.."

وجدت أحد الرجال يجذبها لتلحق بأيمن نحو الكوخ الذي سيتم سجنهما فيه.. ظلت تلتفت خلفها بين خطوة وأخرى وقلق واضح يعتريها لما سيجري للبقية، وبالمثل فإن نور كانت تتلفت حولها بقلق وتوتر بينما قال عابد "لم فعلت ذلك؟.. أتصدق ما يقوله هؤلاء الهمج؟.. قد يعمدون لقتلها وقتل أيمن لو لم يحصلوا على المقايضة التي يتوقعونها.."

قال طارق بتوتر "لا.. رئيس الفرقة العلمية لن يتوانى عن القدوم عندما يعلم بما حل برجاله، وبالأخص عندما يعلم بوجود ابنته في قبضة المحليين.."

ثم دار ببصره فيما حوله مضيفاً "ما سيحدث لها سيكون أفضل بالتأكيد مما سيحدث لنا.."

لم يعلق عابد وهو ينظر للأعين التي تلتمع بغضب وحنق واضحين في وجوه من حولهم، وبدا له أن مصيرهم قد تحدد سلفاً ولن يجدي أي جدال أو مقاومة منهم خاصة مع التعب الذي يشعرون به بعد

المواجهة القصيرة التي خاضوها سابقاً.. التفت إلى نور بقلق وهو يلاحظ نظراتها المتوجسة لمن حولها.. لا يهمه ما سيجري له، والأمر ذاته بالنسبة لطارق وأحمد فكل منهما يمكنه أن يتحمل مصيره.. لكن ماذا عن نور؟.. يعلم الله ما سيفعل بها هؤلاء الهمجيين للانتقام لما جرى لنسائهم وأطفالهم وشبابهم على يد رجال الأمن طوال السنوات الماضية.. فهل يمكنه أن يصمت لما سيجري لها؟..

نظر حوله مفكراً للحظات، ثم قال لنور بالعربية وهو واثق أن المترجم لا يعرف حرفاً منها "عندما تحين الفرصة، سأحاول إحداث بعض البلبلة.. عليكِ عندها استغلال ما يجري والتسلل هاربة من هذا الوضع.."

نظرت له نور بصدمة، بينما قال طارق "لا تفعل.. ربما لا ينتوون إيذاءنا حقاً، لكن بما تفعله فإنهم قد يعمدون لقتلك أو الإطاحة بك بأي صورة كانت.."

تجاهله عابد وهو متأكد أن تلك أحلام لا واقع لها من الصحة، وقال لنور "لا تتواني عن الهرب عندما تعثرين على ثغرة تبيح لك ذلك.. أفهمت يا نور؟"

قالت نور بشيء من الاعتراض "ماذا عنكم؟"

نظر لها عابد قائلاً بحزم "اهربي دون أن تلفتي إليك الأنظار.. ولا تلتفتي للوراء أبداً.. أفهمت؟"

خفضت نور بصرها بشحوب، ثم هزت رأسها موافقة.. لم تكن راضية عن فكرة هروبها وحيدة وترك البقية لمصيرهم، لكن ما الذي تقدر هي على فعله بينما لا يقدر هؤلاء الرجال الثلاثة على تحقيقه؟.. على الأقل، لن تكون عبئاً على أحد منهم ولن يتحمل مسؤوليتها أحد.. هذا ما حاولت تأكيده لنفسها مراراً وهي تتطلع في الوجوه الغاضبة من حولها..

سمعوا الزعيم يتذمر وهو ينظر لأيمن ورُبى اللذين قادهما بعض الرجال نحو أحد الأكواخ الجانبية، ودار بينه وبين الحكيم جدال قصير حول قرار الاحتفاظ بأيمن ورُبى كما يبدو.. ولما وجد فرصة لذلك، بادر طارق متسائلاً "ما الذي يمكن لأربعة أشخاص فعله لتعويض ما جرى بينكم وبين رجال الأمن؟.. حتى لو سلبتمونا حياتنا، فهذا لن يغير من واقع ما جرى لكم شيئاً.. أليس الأفضل لكم التركيز على ما سيجري لكم مع الشتاء القادم؟"

قال الزعيم بسخرية "دعنا نواجه أمورنا بأنفسنا ولا شأن لك بها.. ما سنقرره بكم لا تراجع فيه مهما حاولتم.."

واستدار عائداً للحكيم فجلس قربه ودار بينهما حوار طويل استمع إليه البقية دون أن يفهم طارق ومن معه حرفاً منه.. وهذا ما جعل الرجلين مطمئنين لكون الأسرى لن يفقهوا كلمة مما ستقال مهما كانت الأصوات عالية.. وبعد حديث طال، تعالت صيحات الاستحسان من الجموع حولهم مما أثار في نفس عابد توجساً شديداً وهو يغمغم "هذا لا يبشر بخير.."

قال طارق وهو يتطلع حوله "لا تستبق الأحداث.."

سمعوا الزعيم يصدر أمراً للرجال حوله، فتقدم بعضهم وأنهض طارق وعابد ونور وأحمد بشيء من القسوة ثم اقتادوهم بعيداً عن الساحة وسط نظرات التشفي التي بدت واضحة في الأعين من حولهم.. لاحظوا مع ابتعادهم عن الساحة أن جماعة من المحليين كانت تحيط بهم وهم يهتفون ويصيحون بشيء ما، وحاول بعضهم التطاول على الأسرى بالأيدي بشتى الطرق لولا أن منعهم بعض رجال الزعيم من ذلك.. انتاب نور رعب واضح للابتسامات المتسعة التي رأتها وللأيدي التي حاولت الوصول لأي جزء من جسدها.. ظلت تتلفت حولها وهي تتساءل عن المصير الذي قرره الزعيم عليهم والذي أثار هذه البهجة في نفوس المحليين بهذه الصورة..

فوجئت، في تلك اللحظة وبعد أن خفّ الزحام حولهم شيئاً ما، باندفاع عابد نحو أقرب الرجال إليه فيدفعه بقوة حتى أسقطه أرضاً وركض محاولاً التخلص ممن حوله.. وجّه عابد نفسه نحو ثغرة بين المحليين الذين يتبعونهم، لكن تدافع نحوه الرجال القريبين محاولين الإمساك به.. فدمدم طارق بضيق "ذلك الأحمق.."

لم يكد يتم جملته حتى رأى تلك الضربة التي تلقاها عابد على صدره وأوقفت هربه، بينما تكالب البقية عليه وتلقى عدة ضربات أجبرته على السقوط على ركبتيه وخيط من الدماء يسيل من جبهته ويغرق جانب وجهه.. كف عابد أخيراً عن المقاومة وهو يستمع للصراخ الغاضب من حوله بلغة لم يفهم منها حرفاً، بينما حاول بعض الرجال إزاحة المحليين من حول عابد وإبعادهم عنه.. التفت عابد خلفه للموقع الذي وقف

فيه البقية، عندها قال طارق الذي كان يراقب ما يجري بتقطيبة "أكان الأمر يستحق هذا؟.."

ابتسم عابد بجانب فمه معلقاً "ما رأيك أنت؟.."

حوّل طارق بصره لنور القريبة منه، ليجد موقعها خالياً دون أثر لها، بينما همس أحمد "لقد تمكنت من الهرب بالفعل.."

سمعا صيحة من أحد الرجال وهو يشير لموقع نور الخالي، وسرعان ما دار جدال عصبي من الرجال قبل أن ينطلق ثلاثة منهم للبحث عن نور، فعلق طارق "لن يطول هروبها كثيراً.. نحن وسط الكهف، ولا بد أن يلاحظها أحد لو حاولت الهرب عبر المدخل الآن.."

فغمغم عابد وهو ينهض واقفاً بشيء من التعب "نور ليست بهذا الغباء.."

تلفت أحمد حوله قائلاً بقلق "المهم الآن، ما الذي سيجري لنا؟.."

في الآن ذاته، كانت نور تطلّ على الموقع من سطح أحد الأكواخ القريبة منهم، بعد أن استغلت ضآلتها وانشغال الرجال والمحليين القريبين بمحاولة عابد الواضحة للهرب، فاندست بين الأقدام وتسللت نحو أقرب الأكواخ في بقعة لا تلقي عليها المشاعل القريبة أي ضوء.. وبدل الهرب نحو مدخل الكهف مع كل هذا التحفز الواضح لدى المحليين، فإنها فضّلت الصعود على أحد الأكواخ والاختباء فوق سطحه بصمت معوّلة على انشغال المحليين بالبقية.. وهناك، ظلت في موقعها بصمت ويدين ترتجفان وهي تنظر لتكالب الرجال على عابد والضربات التي سالت لها الدماء من جرح جبهته.. آلمها العنف الذي تعرض له عابد في سبيل تهريبها، لكنها لم تخفض بصرها وهي تراقب ما يجري بقلق حتى رأت المحليين يقتادونه مع طارق وأحمد مبتعدين دون أن يقاوم أحدهم هذه المرة، وفي الآن ذاته بدأت جماعة منهم البحث عنها قرب مدخل الكهف وخارجها وبين الأكواخ..

تلقائياً، كتمت نور أنفاسها كلما اقترب شخص من الكوخ الذي تعتليه وهي تحرص على البقاء في موضع لا تلقي عليه المشاعل ضوءها ويسود الظلام بشكل جزئي.. لم تعلم كم من الوقت عليها الاختباء دون حراك، ولا ما الذي ستفعله للهرب من هذا المكان الذي يعج بالمحليين.. وبينما تعالى اللغط بين الأكواخ وقرب المنصة مع اختبائها، فإن نور شغلت نفسها بالبحث عن أفضل تصرف يمكنها القيام به عندما تهدأ

الأجواء في الكهف.. هل تتسلل هاربة عبر المدخل؟.. أم تحاول مساعدة أيمن ورُبى على الهرب واللجوء للفرقة العلمية؟.. ماذا عن عابد وطارق وأحمد؟.. ما الذي يمكنها فعله لمساعدتهم على الهرب؟.. لا يمكنها التخلي عنهم وهي لا تعلم المصير الذي رسمه زعيم المحليين لهم، خاصة بعدما بذله عابد من جهد لتأمين هربها هي.. فكيف تتخلى عنه بعد كل هذا؟..

ظلت تراقب الثلاثة الذي اقتادتهم جماعة من الرجال المحليين عبر الكهف دون أن يتمكن أحدهم من المقاومة.. ولما غابوا عن بصرها تلفتت نور حولها وهي تلاحظ أن البحث عنها لم يخفت بعد.. فزفرت هامسة "يبدو أن لحاقي بهم أو الهرب من هذا المكان مستحيل حالياً.."

التزمت بالصمت وهي تراقب ما يدور حولها وتحاول ترتيب خطوتها القادمة لئلا تقع في قبضتهم من جديد..

****

بعد أن أعيد أيمن ورُبى للكوخ السابق، غمغم أيمن بضيق شديد وهو ينظر عبر نافذة الكوخ الصغيرة "ما كان للأمور أن تصبح أسوأ من هذا.."

تساءلت رُبى بقلق "ما الذي سيفعلونه بهم؟.."

علق أيمن زافراً "لا أعلم ذلك.. لكن لن يطول بقاؤنا هنا.. لا بد أن يحاول الرفاق إخراجنا من هنا.. وعندها قد يستطيعون فعل شيء بخصوص نور والبقية.."

ساد الصمت للحظات والقلق يعمّهما بخصوص ما سيجري لبقية المجموعة.. لو علموا بمصيرهم، لربما كان قلقهما وتوترهما أقل حدة عما هو عليه الآن.. وبعد لحظة صمت تساءلت رُبى "ما سبب وجود هؤلاء البشر هنا؟.. لم أتوقع وجود هذا العدد من البشر في هذه الأرض المهجورة.. وما سبب هجومهم عليكم بهذه الصورة؟.."

قال أيمن "تلك قصة تطول.. بدايتها ربما تكون عندما قرر البشر الانتقال للعوالم الجديدة ونبذ هذه

الأرض التي كانت شديدة التلوث وقتها.. في ذلك الوقت، رفضت بعض القرى مغادرة موطنها.. كانوا قلة من البشر، لا يتعدى عددهم بضع آلاف.. عندها وجدتها الهيئة العليا للعلوم فرصة لتحقيق أمر لن تتمكن من تحقيقه برحيل الجميع عن الأرض.. فبقاء هذه الجماعة من البشر يمكّن الهيئة من دراسة تأثير تلوث الأرض على البشر والحيوانات والبيئة، ومعرفة إن كانت الأرض ستتعافى من هذا المرض الذي تسبب فيه البشر أنفسهم.."

قالت رُبى بصدمة "كان عليهم إقناع أولئك البشر بالرحيل.. كيف يمكنهم التخلي عن كل هؤلاء لأغراضهم العلمية؟"

أجاب أيمن "كما قلت لك، هذا وافق أهواء الهيئة العليا للعلوم، لذلك لم تبذل جهداً لنقل من بقي من البشر على الأرض.. بل وفرت لهم مساعدات جمّة ما كانوا يحلمون بها لو رحلوا مع بقية البشر.. وبقيت الهيئة طوال عقود ترتب زيارات للأرض لفحص أولئك البشر ورؤية التغيرات التي حصلت لهم.. إنما أبقوا زياراتهم سرية لكيلا يدرك العالم المتحضر وجود أولئك البشر وأنها تستخدمهم كفئران تجارب.. وكانت تستميل هؤلاء البشر ببعض العطايا التي تظهرها بمظهر المحسن الكريم.."

تساءلت "إذن ما سبب هذه الهجمات التي يقوم بها المحليون، كما تسمونهم، على رجال مجلس الأمن؟.. المفترض أن هناك تعاوناً بينكم وبينهم.."

هز أيمن رأسه بأسف قائلاً "في السنوات الأخيرة، حصلت بعض التجاوزات من بعض دوريات مجلس الأمن تسببت في نشوب خلافات بين رجالها وبين المحليين.. ولأن رجال الأمن يعتقدون أن هؤلاء البشر لا أهمية لهم، لم يتورعوا عند أقل خلاف من قتل بعض المحليين والتخلص من عائلاتهم.. حصلت بعض المآسي التي لا يمكن تصديقها بسبب أن مجلس الأمن لم يحسن اختيار الرجال الذين أرسلهم في تلك الدوريات.. ومن هنا نبع كره المحليين لرجال الأمن بالذات.. كما أن مثل هذا الهجوم، إن كان ناجحاً، ينتج عنه حصول المحليين على الموارد والمعدات التي يحضرها مجلس الأمن لنا في كل مرة.. ومثل هذه الموارد تفيد المحليين بشكل كبير في عيشهم القاسي على هذه الأرض.."

قالت رُبى بغير تصديق "وهل تمت معاقبة رجال الأمن الذين ارتكبوا تلك الجرائم؟"

أجاب أيمن "أغلب الظن أن ذلك لم يحدث.. فلا بد أن رجال الأمن الذين عادوا من الأرض لم يرفعوا تقريراً بما جرى هنا للجهات العليا.. أو أنهم رفعوا تقريراً زائفاً لووا فيه الحقائق لتصبّ في صالحهم.."

اعترضت رُبى قائلة "كيف يمكنهم ذلك؟.. كان على مجلس الأمن أن يتحرى ما جرى في الأرض بشكل أفضل.. كيف يستهينون بحياة أولئك الأبرياء بهذه الصورة؟"

علق أيمن قائلاً "أتظنين أن حياة مثل أولئك البشر تهم مجلس الأمن في شيء؟.. أنت واهمة.."

لم يكن حديثه بعيداً عن التصديق، ولا مبعث استنكار رُبى.. فساد صمت مرير وهي تفكر في حال طارق والبقية.. هي مدركة أن الجزاء الذي سيحصلون عليه في هذا المكان سيكون نتيجة أعمال رجال مجلس الأمن طوال سنوات.. فكيف يمكنهم إقناع السكان المحليين بألا علاقة لهم بكل ما جرى سابقاً؟.. ثم غمغمت بتردد "أتظن أنهم سيقتلونهم؟"

نظر لها أيمن بقلق، ثم قال بسرعة "لا.. لو كان القتل هو مرادهم لقتلوهم في تلك اللحظة أمامنا ليكونوا عبرة لنا.."

وأخذ يدور في الكوخ بتوتر وهو يقول محاولاً إقناع نفسه في المقام الأول "لا أظن القتل هو هدفهم.. فما الذي سيفعلونه بهم؟.. الأسوأ أن نور معهم.. تلك الحمقاء رفضت الرحيل عندما طلبت منها ذلك.."

غمغمت رُبى وهي تنظر من النافذة الصغيرة في جانب الكوخ "إنها ليست وحيدة.. البقية معها وهم لن يسمحوا لهم بإيذائها.."

قال أيمن بضيق "هل يملكون من أمرهم شيئاً؟.. لا يقدرون الآن على إنقاذ أنفسهم، فكيف بإنقاذها؟.."

نظرت له رُبى مجيبة "على الأقل، أنا واثقة أن من معها سيحاولون ما بوسعهم لمنع الأذى عنها.. هذا ما أظنه.."

قال أيمن مقطباً "كيف يمكنني أن أثق بأولئك الغرباء؟.. أنا لا أرتاح لأحدهم أبداً.. خاصة ذلك الضخم بنظراته الحادة التي لا تشعرني بأي طمأنينة.."

علقت رُبى "لو أردت الحكم على الرجل بسبب عيناه الحادتان، فهذا شأنك.."

سمعت رُبى في تلك اللحظة همساً قرب النافذة، فنظرت عبرها بدهشة لترى رأساً صغيراً يطل من النافذة

بدوره دون أن تتمكن من رؤية ملامحه بسبب النور الخافت خلفه.. تراجعت رُبى خطوة متفاجئة، بينما تعالى الصوت من ذلك الشخص بشكل أوضح "أأنت رُبى؟.. أين أيمن؟.."

تعرف أيمن على صوت نور، فتقدم من النافذة بسرعة قائلاً "نور؟.. ما الذي جاء بك؟.. كيف فررت من المحليين؟.."

شرحت له نور بكلمات موجزة ما جرى وهي تتلفت حولها بقلق، ثم قالت "حاولت تتبع الآخرين لمعرفة أين سيأخذونهم، لكن ذلك كان كفيلاً بكشف موقعي.. لذلك ارتأيت أن أساعدكم على الهرب أولاً قبل البحث عن البقية.."

فقال أيمن بقلق "لا تفعلي.. اهربي قبل أن يعثروا عليك.. نحن بأمان ماداموا يأملون بمقايضتنا بما يملكه الرفاق، أما أنت ففي خطر كبير.."

تساءلت بتوتر "ماذا عن الباقين؟.. هل نتركهم لمصيرهم؟.."

قال بتقطيبة "بعد قدوم الرئيس سنحاول البحث عنهم.. عاصم لديه أسلوبه للتفاهم مع هؤلاء المحليين، ولابد أن يجد طريقة للوصول إليهم.."

قالت نور بضيق وعصبية "لا يمكنني ذلك.. لا أستطيع التخلي عنهم بهذه السهولة.."

أشار لها أيمن لتصمت وهو ينظر خلفها بتوتر، فصمتت نور وهي تستدير بقلق ليصل لسمعها صوت حديث خافت.. عادت ببصرها لأيمن بتوتر وقلق وهو يقول لها بهمس "اهربي يا نور ولا تلتفتي للوراء.."

نظرت نور له ولرُبى الصامتة بقلق متزايد، ثم استدارت وهي تخفض جسدها وتتسلل هاربة بين الأكواخ وشيء من الضيق يعتريها.. الكل يطالبها بالهرب.. ألأنها لا تقدر على مد يد المساعدة لهم بأي شكل كان؟.. سمعت صوتاً آخر من خلف الكوخ الذي تسير بجواره، فوقفت بتوتر وهي تتلفت حولها.. فرغم الظلام المخيّم على الكهف إلا أن المشاعل الموزعة في جوانبه تكشفها بسهولة، والبحث عنها لا يزال جارياً كما هو واضح..

انتاب نور قلق شديد من رؤية أحد المحليين لها والقبض عليها بالتالي، وهذا سيرمي بتضحية عابد لتهريبها

أدراج الرياح.. ومنظره والدماء تسيل على وجهه لم تزل تشعرها بالذنب لأنها سببها.. هي لا تسمح لنفسها بالاعتماد على أحد، فكيف بها عندما تسبب الأذى لمن حولها؟.. هذا أكبر من قدرتها على الاحتمال.. نظرت نور حولها وهي تقلب خياراتها، والصوت يقترب منها أكثر فأكثر، عندما لاحظت كوخاً مظلماً قربها وبابه موارب دون أن يبدو فيه أي شخص.. فاندفعت نور نحوه عازمة على الاختباء فيه حتى يخلو الموقع وتتمكن من التسلل بأمان أكثر، ولما فتحت باب الكوخ ودلفت إليه بعجلة مواربة بابه خلفها، لاحظت في اللحظة التي سقط فيها نور المشعل القريب ليضيئ قلب الكوخ تلك الفتاة الصغيرة التي لا تتجاوز العاشرة والتي كانت تجلس وسط الكوخ بصمت.. كان الوقت متأخراً للتراجع والفتاة تلتفت إليها بينما تعالى صوت رجلين قرب الباب الذي دلفت منه.. عندها قفزت نور قرب الفتاة وأحاطت فمها بيد بينما لوت ذراعها خلف ظهرها باليد الأخرى بتهديد واضح..

انتفضت الفتاة بشيء من الذعر وحاولت تخليص نفسها أو الصراخ، لكن نور كانت تقيد حركتها بإحكام وتمنعها من لفت انتباه الرجلين اللذين يمران في تلك اللحظة من جانب الكوخ دون أن يبتعدا كثيراً.. وبعد انتظار طال وقلق متزايد، سمعت الأصوات تخفت تدريجياً ليعمّ الصمت المكان إلا من الأصوات الصادرة عن ساحة القرية الصغيرة وسط الكهف.. فزفرت نور وهي تجد الفتاة لا تكف عن مقوامتها، ثم همست بلهجة تحذيرية "إياك والصراخ.."

كانت مدركة أن الفتاة لا تفهم حرفاً مما تقوله، لكنها أملت أن تؤدي لهجتها التحذيرية الغرض المطلوب.. فوجدت الفتاة تربت على يدها التي تكمم فمها بعد أن كفت عن المقاومة.. وبعد أن كررت تلك الحركة عدة مرات، أبعدت نور يدها وهي تغمغم "لو حاولت الصراخ فلن أتردد في إفقادك لوعيك.."

وجدت الفتاة تقول بعد أن أبعدت نور يدها "أأنت من الفضائيين؟"

نظرت لها نور بدهشة، وقد سمعت الفتاة تتحدث بلغة إنجليزية واضحة بلكنة غريبة.. فتساءلت نور بتعجب "أتفهمين هذه اللغة؟"

هزت الفتاة رأسها إيجاباً قائلة "أبي يحرص على تعليمي هذه اللغة، ويقول إنني سأحتاجها يوماً ما دون شك.."

صمتت نور بدهشة وهي تلاحظ أن لغة الفتاة لا بأس بها رغم اللكنة الثقيلة التي أثرت على حروفها، بينما استدارت الفتاة نحو نور بعد أن أفلتتها الأخيرة مضيفة "لكنه يكتفي بتعليمي الحديث بها، فالقراءة والكتابة مستحيلة بالنسبة لي.."

لاحظت نور عندما واجهتها الفتاة، على ضوء ضعيف قادم من النافذة شبه المغلقة، أن الفتاة التي بدت لها سليمة في البدء لم تنجُ من التشوهات التي طالت أغلب أفراد هذه القرية.. فوجهها الصغير الذي يحمل ملامح ناعمة ويحيطه شعر ناعم بلون أسود فاحم، كان مشوهاً بعينيها اللتين التحمت جفونهما بشكل تام وخلتا من أي رموش أو حاجب.. بدت لها في تلك اللحظة التي سادها الصمت كأنها تطالع وجه دمية خالية من التعابير، وأثار هذا فيها قشعريرة واضحة..

وإزاء صمت نور وهي تتطلع للفتاة بشيء من الصدمة، قالت الفتاة "هل تتعجبين لمنظري؟"

قالت نور بعد صمت "كل من رأيتهم على الأرض يثيرون تعجبي.."

فقالت الفتاة بشيء من اللهفة "أأنت من الفضاء حقاً؟.. في أي عالم تعيشون؟.. كيف يختلف عالمكم عن عالمنا هذا؟.."

قالت نور بسرعة "نحن بشر من أهل الأرض سابقاً.. ألم تدركي ذلك؟"

ثم أضافت وهي تلتفت خلفها "المهم الآن أن أهرب قبل قدوم أحد من المحليين.. لا أريد أن يقبضوا عليّ من جديد.."

فتشبثت بها الفتاة قائلة "مهلاً.. لو حاولت الخروج الآن فسيقبضون عليك.. وعندها لن يختلف مصيرك عن مصير البقية.."

انتاب نور شيء من القلق وهي تسألها "أتعرفين ما الذي سيفعلونه برفاقي؟"

لم تجبها الفتاة وملامحها تنقبض بشيء من الضيق، فأمسكت نور ذراعيها وهي تقول بإلحاح "ما الذي سيفعلونه بمن قبضوا عليهم؟.. أخبريني بسرعة.."

قالت الفتاة بإصرار "لن يمكنك تحقيق شيء لهم.. لقد حدد الزعيم مصيرهم، كما فعل سابقاً بعدد من الرجال القادمين من الفضاء، ولن تقف قوة في وجه تنفيذ ذلك القرار.."

قالت نور باستياء ممتزج بالقلق "ماذا تعنين؟.."

قالت الفتاة بتردد "الزعيم يستخدمهم لاستمالة أهل القرية، كي لا يطاله غضبهم الذي يصبّونه على الغرباء عادة.."

نظرت لها نور بصدمة وهلع، ثم هتفت "لماذا؟.. ما الذي سيفعلونه بهم؟.."

ظلت الفتاة مطرقة وهي تبدو لعيني نور كمن يصيخ السمع، ثم ابتسمت قائلة "لا تخشي شيئاً.. أنت في أمان هنا.. لن يطالك ما سيطالهم.. ستبقين في حمايتنا.."

نظرت لها نور بدهشة وعدم فهم دون أن تنتبه للخطوات الخافتة التي اقتربت من الكوخ، ثم نهضت واقفة وهي تقول بارتباك "حمايتكم؟.. ماذا تعنين؟.."

قالت الفتاة بابتسامة "لا تخافي.. أنت بأمان..."

كانت نور تدير ظهرها للباب وتقف وسط الكوخ المظلم.. ولما انتبهت للضوء الذي تسلل من خلفها بعد أن فتح الباب، حاولت أن تستدير بسرعة لترى من القادم، لكنها فوجئت بضربة تصيب رأسها من الخلف وتكومها أرضاً بصمت.. ظلت الفتاة في موقعها دون أن تتحرك ورجل نحيل يتقدم من نور متسائلاً بلغته "من أين ظهر هذا؟"

أجابت الفتاة "هي فتاة.. لقد هربت من الرجال وحاولت الاختباء هنا.."

وضع الرجل مشعلاً كان يحمله جانباً، وجذب جسد نور نحو جانب الكوخ قائلاً "لقد وفرت عليّ عناءً كبيراً.. والميزة الأهم أنها صغيرة الحجم ولن يمكنها المقاومة.."

تساءلت الفتاة "أأنت واثق من هذا؟.. ماذا لو اعترض الزعيم على ما سنفعله؟.."

قال الرجل "لا يهمني ذلك.. هذه فرصة لن تتكرر كثيراً.. ونحن راحلون غداً بالفعل.."

ثم ركع قرب الفتاة وربت على خدها مغمغماً "أنا أفعل هذا لأجلك يا ابنتي.. لابد أن تكون هناك خيارات أفضل بالنسبة لك من هذا الواقع القاسي.."

ابتسمت له الفتاة بسعادة وغمغمت "لا بأس.. أنا سعيدة ببقاء هذه الفتاة معي.. وأنا واثقة أننا سنصبح صديقتان.."

وأضافت بابتسامة متسعة "لابد سنصبح كذلك.. فأمامنا وقت طويل نقضيه معاً.."

****

بعد أن اختفت نور متسللة بين الأكواخ القريبة، غمغم أيمن بقلق "ما الذي سيجري لها الآن؟.. أتمنى أن تتمكن من الهرب قبل أن يعثروا عليها.."

همست رُبى "أتمنى ذلك.."

سمعا خطوات تقترب من الكوخ، ولم يلبث بابه أن فتح ودلف منه شخص وضع أمامهما بعض الطعام وقليل من الماء.. لكن أحداً منهما لم يمسّ شيئاً منه مع التوتر والقلق المخيّم في المكان.. وبعد أن ظل أيمن يدور في الكوخ ويتطلع من النافذة بحثاً عن أي أثر لنور، غمره يأس بعد مرور ما يزيد على الساعة، وحاول إقناع نفسه أنها تمكنت من الهرب من الكهف رغم كل شيء.. عندها زفر وهو يجلس جانباً ملاحظاً أن رُبى قد أغمضت عينيها في جلوسها وكأنها نائمة.. بينما كانت في الواقع تحاول النوم بإلحاح.. لعلّها في نومها ترى ما يتهدد طارق ومن معه.. أما أيمن فلم يقاربه النوم طوال الوقت الذي مضى والصمت يخيّم على الكوخ وعلى المنطقة المحيطة به..

في ذلك الوقت، وفي جانب آخر من الكهف، كان الرجال يدفعون السجناء الثلاثة عبر طريق ضيق يمتد بهم في عمق الكهف وعبر تشكيلات كلسية كوّنت أشكالاً مبهمة زادت الموقع وحشة.. سار عابد بخطوات متثاقلة وهو يلهث بشدة ودوار شديد يكتنف رأسه بعد الضربات التي تلقاها.. زفر بشدة وهو يشعر بدفقة النشاط التي انتابته بعد استخدامه لحقيبة الإسعافات الأولية قد بدأت تنحسر بسرعة شديدة.. ومعها شعر أن جسده يتهاوى مع كل خطوة يخطوها..

سمع طارق الذي كان يتبعه يقول "أأنت بخير؟.. تبدو منهكاً.."

قال عابد بشيء من الحنق لم يملكه "هل يجب أن تكرر هذا السؤال كلما رأيتني؟"

فقال طارق مقطباً "لكنك لست على ما يرام يا رجل.. لم هذا الإنكار؟"

أشاح عابد بوجهه مغمغماً "اعفني من هذا الحديث.. أنا بخير.."

سمعا أحمد من خلفهما يقول بصوت يرتجف "وما المهم في ذلك؟"

التفتا إليه ليجداه شاحب الوجه وهو يقول "نحن مقضيّ علينا في كل حال.."

فقال طارق "كف عن هذا البؤس قبل الأوان.."

نظر له أحمد بحنق قائلاً "بؤس؟.. أتظنهم يصطحبوننا في نزهة؟.. أنت السبب في كل هذا.."

زفر طارق بضيق بينما قال أحمد بحدة متزايدة "ما كان عليك إحضاري وإحضار ميساء رغماً عن إرادتنا.. ما كان عليك إطاعة رُبى في طلبها الغريب هذا.. أنت سبب هذه المأساة التي نعيشها.."

صمت طارق متجاهلاً تذمر أحمد المتواصل، بينما زفر عابد وهو يجرّ خطواته جراً ويتأمل الطريق الضيق الذي سلكوه في عمق الكهف.. كان جرح ظهره مشتعلاً وينبض بألم متواصل، والألم يصل لأطراف جسده ويشعره بتخاذل شديد.. شعر بالعرق يتصبب من جبينه، وبالرؤية تتذبذب أمامه بين وقت وآخر، إضافة للدوار الذي يشعر به بسبب الضربة التي أصابته في رأسه، لكنه لم يتمكن من التذمر وطرف الرمح الذي يحمله أحد الرجال يلكزه في كل مرة يخفت سيره فيها..

سارت تلك الفرقة الصغيرة من الرجال في الممر الضيق حتى وصلوا بالسجناء الثلاثة لمنطقة متفرعة من ذلك الكهف، على اتساع أقل من الكهف الرئيسي، وتحوي حفرة شبه عميقة منخفضة.. وقف الثلاثة ينظرون لتلك البقعة المنخفضة بشيء من التوجس والمشاعل القريبة لا تكشف جوانبها بشكل كامل، ملاحظين عدة مدرجات نحتت حولها من جميع الجهات..

وجدوا الرجال يلكزونهم طالبين منهم التقدم، ولم يكن الطريق الذي ساروا فيه يؤدي إلا لتلك الحفرة المنخفضة.. وبينما نظر أحمد للموقع أمامه برعب، فإن طارق صاح "ما الذي تريدونه منا؟"

لم يفهم الرجال حوله كلمة وهم يصرخون بوجهه في إلحاح.. وبينما قاومهم طارق رافضاً تنفيذ ما يطلبون منه، فوجئ بعابد الذي تلقى لكزة من رمح قريب يفقد سيطرته على قدميه مع الدوار الذي لم ينفك يلحّ على رأسه.. فتهاوى من ذلك الموقع المرتفع ليسقط بصمت في الحفرة سقطة بدت لعيني طارق قاسية..

وفي لحظة، ساد الظلام من حول عابد بعد السقوط القاسي الذي لم يملك القوة لتفاديه.. وآخر ما وصل

لسمعه هتاف طارق الذي ناداه بقلق واضح، وتلك الصرخات التي اكتسبت شراسة وحدة واضحة وهي تجبر رفيقيه على اللحاق به في الحفرة التي تضفي عليها المشاعل القريبة وحشة قاسية..

بعد عدة ساعات، وصمت تام ساد الكوخ الذي سجن فيه أيمن ورُبى، سمع أيمن أصوات أقدام تقترب من باب الكوخ والحديث يدور بلغة إنجليزية لا بتلك اللغة التي يتحدث بها السكان المحليون.. فتعلق بصر رُبى وأيمن بالباب بشيء من الرجاء، حتى رأياه يفتح ويدلف منه رجلان من سكان الكهف، تبعهم رجل آخر نظر حوله متفحصاً المكان وهو يقول "البضاعة كاملة كما أرجو.."

رفعت رُبى بصرها إلى الرجل الطويل الذي وقف وسط الكوخ والبلل يغمره بشكل كبير من أثر العاصفة التي هدأت إنما لم تتوقف بشكل كامل.. فارتجفت شفتاها وعيناها تتسعان وهي تتأمل ذلك الشخص الذي بادلها النظرات للحظات.. ثم ابتسم قائلاً "مرحى لك يا فتاة.."

فهمست رُبى بصوت مرتجف "أبي؟....."

****

الفصل السابع عشر

عندما وجد طارق وأحمد أنهما مدفوعان دفعاً للهبوط في تلك الحفرة شبه العميقة، نزلا بشيء من الحذر رغم الرماح التي تلكزهما بحدة.. وفور وصولهما لقاع الحفرة، هرع طارق إلى عابد الذي ظل مستلقياً على وجهه دون حراك.. حاول إيقاظه عبثاً للحظات، ثم تفحصه بقلق لم يملكه مع مرأى الدماء التي سالت من جرح رأسه السابق بالإضافة لعدة جراح متفاوتة أصيب بها من سقوطه العنيف.. اقترب أحمد متسائلاً "ما الذي جرى له؟.."

قال طارق "لا أدري.. علينا أن نعود به سريعاً ليلقى العلاج الملائم.."

غمغم أحمد بضيق وهو يتأمل جوانب الحفرة "وكأن الأمر بأيدينا.."

ثم أضاف بشيء من الحنق "لماذا علينا أن ندفع ثمن ما فعله رجال الأمن؟.. ماذنبنا في ما جرى على الأرض؟.."

قال طارق وهو يعدل جسد عابد ليستلقي على ظهره "لا أحد سيفهم ما تقوله، ناهيك عن الاقتناع به.."

سمع أحمد يقول بعد لحظة صمت بصوت مرتجف "ليس المهم أن يقتنعوا به، المهم أن ننجو من المصير الذي يعدونه لنا.."

التفت طارق إليه فلاحظ وقوفه المتوتر في الجانب البعيد من الحفرة، وعلى ضوء المشاعل التي تلقي ظلالاً مرعبة في الموقع، انتبه لما أثار اهتمامه ودفعه للاقتراب لتفحصه عن كثب.. وهناك، استطاع أن يتبين بكثير من العسر تلك الأجساد التي تكومت جانباً فاقدة الحياة ومثيرة الهلع في نفسيهما..

لم يتبين طارق هوية تلك الأجساد التي تحللت بشكل كامل ولم يبقَ منها إلا كومة عظام، إلا من ملابسها المهترئة بلونها الأسود الذي حال لونه والشعار الأحمر الذي بهت بحيث غدا مطموساً وإن لم يغب عنهم هويته.. نظر طارق لها بصدمة فيما قال أحمد بشحوب "رباه.. ما الذي ينتوونه لنا؟.. هل سيقتلوننا؟.."

غمغم طارق "هذا شبه مؤكد الآن.. لكن ما لا نعرفه، هو الوسيلة التي اختاروها لتنفيذ هذا.."

نظر له أحمد قائلاً بعصبية "هل هذا مهم؟.. بغض النظر عن الوسيلة، علينا ألا نسمح بحدوث هذا مهما يكن الأمر.."

ثم كرر متلفتاً حولهم بقلق "لنحاول الهرب مادمنا نملك الفرصة لهذا.. لقد غاب الرجال من حولنا وغدونا بلا حراسة.. هذه فرصتنا.."

زفر طارق وهو يلتفت لعابد بحيرة.. ثم قال لأحمد "ربما كان ما تقوله هو القرار الأمثل.. لكن ماذا عن عابد؟"

أجاب أحمد بسرعة "لنرحل ثم نبحث عمن يساعدنا في استعادته.. لنأمل أن يتأخر المحليون في مخططهم الذي قرروه علينا حتى نتمكن من إخراج عابد من هذا المكان.."

لم يعترض طارق رغم استيائه من الفكرة.. لا ينكر طارق ضيقه بوجود عابد منذ لقائهما، لكن هذا الضيق تراجع شيئاً ما بعد وصولهم للأرض وتعاونهم لتعطيل سفينة مجلس الأمن تلك الليلة.. ولا يستطيع نسيان معاونة عابد له لاستعادة رُبى بعد أن اختطفها قائد الدورية.. فهل يكون رد الجميل بالتخلي عنه في أشد أوقات عابد احتياجاً للمعونة؟.. لكن ما البديل؟..

رأى أحمد يقترب من جدار الحفرة الصخري ويبدأ تسلقها بشيء من الصعوبة، وبعد أن ارتفع ما يقارب المترين، وجد أن قدمه تنزلق بسهولة ويعود للأرض بسقطة مؤلمة.. لكنه عاود المحاولة من جديد دون يأس ليواجه مصيراً مشابهاً كما في المرة الأولى.. اقترب طارق بدوره قائلاً "ربما لهذا السبب يخلو الموقع من أي حراسة.. مع الجدران العالية والتي تخلو من مواضع يمكن التشبث فيها أثناء الصعود، يغدو الهرب من هذه الحفرة مستحيلاً.."

قال أحمد بحنق "لا يمكن أن تجزم بذلك دون محاولة.."

لم يعارض طارق وهو يحاول بدوره ارتقاء هذه الجدران الصخرية.. لكنه بعد عدة خطوات وقف متأكداً أن صعوده أكثر من ذلك الارتفاع مستحيل.. بدا له الموضع وكأنه تعرض للتعديل بأيدٍ بشرية لتصبح الجدران ملساء في نصفها العلوي.. حاول بشتى الطرق تجاوز هذا الموضع دون فائدة، فعاد لقلب الحفرة قائلاً "تباً.. ما من وسيلة للخروج أبداً دون معونة.."

جلس جانباً بتعب، بينما وقف أحمد قائلاً بتوتر بالغ "لا يمكننا الاستسلام.. رباه.. هل سيصل أفراد الفرقة العلمية في الوقت الملائم لإنقاذنا؟"

لم يملك طارق جواباً لهذا السؤال.. فصمت محاولاً أخذ قسط من الراحة مع السكون الذي خيّم على الموقع.. والتزم أحمد بالصمت بدوره متأملاً جوانب الحفرة بحثاً عن طريقة للهرب وتجاوز هذه المعضلة.. مر وقت طويل والصمت يسود الموقع، وقد خفت هدير الرعد بشكل كبير بعد أن كان يهز أرجاء الكهف بقوة في كل مرة يشق البرق فيها الغيوم الكثيفة..

وبعد بعض الوقت، وبعد كل ذلك الصمت، انتبه طارق لصوت عالٍ يقترب من موقعهم من قلب الكهف.. نهض طارق واقفاً يصيح السمع شاركه بذلك أحمد وهو يتمتم "ما هذا الصوت؟"

انتبهوا مع اقتراب الصوت لهويته، فسادهم القلق وهم يدركون أنه صياح يندلع من عشرات الحناجر التي اقتربت من هذا الموضع من الكهف وصوتها يتردد عبر جنباته بشكل مثير للفزع.. ولم يطل بهم الوقت قبل أن يروا أفراد القرية من المحليين، من رجال ونساء وأطفال وشيوخ أيضاً، يقتربون فيحيطون بالحفرة وهم ينظرون للثلاثة في قلبها بشيء من الحماس.. وبدأ أحد الرجال يصيح بكلمات لم يدرك أحد الثلاثة معناها إنما أثارت حماس المحليين وموافقتهم الشديدة.. فعلق طارق "يبدو أن احتفالهم سيبدأ حالاً.."

لم يعلق أحمد وهو يدير بصره فيمن حولهم من المحليين بقلق عارم.. ولما لاحظ أن الحديث الذي يلقيه الرجل في الجموع قد توقف، اندلعت صيحات شامتة صاخبة زادت القلق في نفسيهما أضعافاً.. وبعد لحظات، رأى أحمد بضع أفراد من المحليين يحملون صخوراً متفاوتة الأحجام في أيديهم.. فقال بشحوب "لا تقل لي....."

لم يحتج الأمر لتفسير وأولئك الأفراد يرمون الصخور بكل قوتهم نحو الحفرة ومن فيها.. ولم يلبث العشرات منهم أن قاموا بتكرار الفعل ذاته والصخور القاسية تندفع نحو الثلاثة الذين وقفوا وسط الحفرة بلا حول ولا قوة.. وقد حمّلها المحليون غضبهم ومرارتهم وحقدهم العارم لكل ما يحيط بهم.. لمعاملة رجال الأمن الظالمة لهم.. للقسوة المحيطة بهم.. ولحياتهم التي لا يمكنها أن تصبح أفضل في يوم من الأيام..

****

تأملت رُبى، وسط الكوخ المتداعي الذي سجنت فيه مع أيمن، وعلى ضوء مشاعل حملها بعض الرجال المحليين، ذلك الرجل الذي يفوق البقية بطوله رغم نحافته.. كان بشعر أسود خالطه قليل من البياض، وجهه شاحب وطويل بأنف مستقيم وعينين حادتين سوداوين يخفف من حدتهما ذلك المنظار الذي يرتديه.. فمه يميل جانباً بابتسامة لا تشي بأي سعادة، وهو إجمالاً يملك ملامح وسيمة، رغم عمره..

تجاوز أيمن مفاجأته برؤية عاصم، رئيس الفرقة العلمية، وهو يأتي بنفسه لإخراجهما من سجنهما.. فقال "كيف وصلتم بهذه السرعة؟.. لم تمضِ ساعات قليلة منذ ذلك الهجوم.."

أجاب عاصم وهو يقترب من رُبى "أبلغتني آن بما جرى.. ولك أن تدرك صدمتي برؤية ابنتي ميساء ومعرفة أن شقيقيها العزيزين قد سقطا في أيدي المحليين.."

ومسح وجه رُبى المترِّب بيده وهو يغمغم "يا لكِ من حمقاء.."

لم تعلق رُبى وهي تتطلع له بنظرات مليئة بمشاعر متباينة.. اللهفة واللوم كانا أبرز ما بدا فيهما، فلم يعلق وهو يلتفت حوله قائلاً "أين أحمد؟.. سمعت أنه هنا أيضاً.."

قال أيمن "لقد أخذهم المحليون لموقع آخر ونحن لا نعلم ما الذي سيفعلونه بهم.."

تساءل عاصم بدهشة "كم شخصاً هم؟"

أجاب أيمن "ثلاثة.."

ثم تساءل بقلق "هل رأيت شقيقتي؟.. لقد هربت من قبضتهم وطلبت منها الفرار من الكهف.. لكن لا أدري ما جرى لها منذ ذلك الوقت.. فهل قابلتماها أثناء قدومكم؟"

أجاب عاصم "لا.. لم نرَ أي فتاة أو شخص في طريقنا إلى هنا.. أأنت واثق أنهم لم يقبضوا عليها مجدداً؟"

قال أيمن وقد تضاعف قلقه "لست أدري.."

فقال عاصم وهو يجذب رُبى معه "هناك وسيلة سريعة لمعرفة ما جرى لهم.."

تبعه أيمن بسرعة خارج الكوخ دون أن يجدوا اعتراضاً من جمع الرجال الواقفين قرب المدخل، رغم النظرات الحارقة التي كانت مصوّبة إليهم وكأن الإفراج عنهم خطيئة كبيرة.. وفور خروجه، قال عاصم لأحد الرجال قربه بحزم "أريد التحدث مع زعيمكم.."

قال الرجل بلغة إنجليزية يمكن فهمها بصعوبة " وما الداعي لذلك؟.. لقد حصلت على من جئت لأجلهم.."

لاحظ أيمن أن ذلك الرجل يختلف عن المترجم الذي كان في الساحة في الوقت السابق، لكنه لم يعلق فيما قال عاصم بشدة "أريد لقاء زعيمكم في الحال.. خذني إليه الآن.."

نظر له الرجل بضيق وكره، ثم استدار متخذاً طريقه بين الأكواخ عائداً نحو الساحة، فلم يتردد عاصم في اللحاق به بين الأكواخ وعبر الساحة التي كانت خالية في ذلك الوقت، حتى وصلوا لكوخ جانبي يجلس أمامه بضع رجال.. لم يتردد الرجل الذي يعمل مترجماً بدخول الكوخ وعاصم يتبعه دون انتظار الإذن.. وفي الداخل، وجد الرجل الذي يتزعم القرية يجلس مع رجال آخرين، وقد نظر لعاصم بدهشة قائلاً بصرامة "ما الذي يبقيك في القرية؟.. غادر مادمت قد حصلت على ما جئت لأجله.."

قال عاصم بحزم "أين البقية؟.. أين أخذتم الرجال الثلاثة والفتاة الصغيرة؟.."

قال الزعيم باستخفاف "وما شأنك بهم؟.. ثم إنني لم أرَ أي فتاة معهم.. كان معهم صبي وقد هرب ببعض الحظ.."

انتاب القلق الشديد أيمن القريب الذي كان يستمع للحديث بصمت.. أين اختفت نور في مثل هذه الأوقات؟.. سمع عاصم يقول بصرامة "شأني أنهم ينتمون لفريقي.. وبينهم ابني.. فأين أخذتموهم؟.."

أجاب الزعيم بابتسامة "فات الأوان على هذا.. لقد تقرر مصيرهم ولا يمكنك تغييره.."

قال عاصم بتقطيبة "أين ذهبتم بهم؟.. لا تقل لي....."

اتسعت عيناه للحظات وهو يتذكر أمراً ما.. ثم قال بصدمة "لا تقل أنكم تنتون تكرار ما فعلتموه سابقاً مع رجال الأمن؟.."

اتسعت ابتسامة الزعيم دون أن ينكر ذلك، بينما تقدم عاصم خطوة وهو يقول بسرعة "سأضاعف لك ما

قدمته آنفاً.. سيحضر رجالي الصناديق المطلوبة خلال ساعة من الآن.. لكن أوقف رجالك وامنعهم من المساس برجالي.."

غمغم الزعيم "كما قلت لك.. فات الأوان على ذلك.."

صاح عاصم بحدة "عليك أن تستجيب لي.. أرسل أحد رجالك حالاً.. إن لم تفعل، فاعتبر اتفاقنا ملغىً ولن تحصل حتى على صندوق واحد.."

قطب الزعيم بشدة وهو يقف يتبعه رجاله ونظراتهم الحادة مصوبة إلى عاصم.. ثم قال الزعيم بصرامة "كيف تجرؤ على تهديدي وأنت بين رجالي؟.. أتظن أننا نخشى من إلغاء الاتفاق؟.. يمكن بأمر واحد مني أن يقضي رجالي عليك وعلى كل رفاقك في لحظة واحدة.."

غمغم أيمن بتوتر "لم يكن من اللازم استثارة غضبهم بهذه الصورة.."

لكن عاصم لم يتراجع وهو يقف بطوله الذي يبزّ الآخرين وحزم يرتسم على ملامحه.. كان يدرك أنه في موقف الضعيف في هذه اللحظة.. لكنه لم يكن ليستسلم ويترك ابنه أحمد يهلك دون سبب مقنع.. لذلك قال بحزم "يمكنك طبعاً القضاء علينا جميعاً، لكن أظننت أن رجال الأمن لا يقدرون على القضاء على هذه القرية بضربة واحدة؟.. أنا من يمنعهم من المساس بهذه القرية منذ زمن طويل رغم هجماتكم المتكررة، والقضاء عليّ لن يكون ذا فائدة لكم بالتأكيد، إنما سيزيل ذلك العائق من أمام رجال الأمن الذين يتوقون بدورهم للانتقام.."

لاحظ أن الزعيم قد شدّ قبضتيه بصمت لوقت قصير، بينما انبرى أحد الرجال قربه يخاطبه دون أن يترجم المترجم قوله.. وبعد مداولات قصيرة، قال الزعيم "لا بأس.. لو ظللت على وعدك لنا بمضاعفة ما طلبناه منك، فسأطلق سراح رجالك.. لكني لا أضمن لك حياتهم في هذه اللحظة أبداً.."

هز عاصم رأسه موافقاً، فخاطب الزعيم أحد رجاله بكلمات قليلة انطلق الرجل بعدها خارجاً من الكوخ.. فاستدار عاصم على الفور قائلاً "هيا بنا.. يجب أن نستعيد البقية بسرعة.."

لحقته رُبى بخطوات سريعة بينما قال أيمن بقلق "ماذا عنى بأن نور ليست معهم؟.. إن لم تتمكن من الهرب، فأين هي الآن؟"

أجاب عاصم "سنعثر عليها بالتأكيد.. المهم الآن أن نوقف المذبحة التي توشك أن تقع.."

تساءلت رُبى بشيء من الذعر "ماذا تعني بالمذبحة؟ ما الذي سيفعلونه بهم؟"

لم يعلق عاصم وهو يجدّ الخطى خلف ذلك الرجل الذي سار بهم بين الأكواخ وعبر طريق يقطعها نحو موقع تعالى عنده صياح عشرات الأشخاص بحماس وثورة أثارت رجفة في جسد رُبى.. فتساءلت بإلحاح "إلى أين تم أخذهم؟.. ما الذي سيفعلونه بهم؟"

قال عاصم بتوتر "ستعرفين بعد قليل.. هذا إن لحقنا بهم أحياء.."

وصلوا لذلك الطريق الضيق الذي يفضي بهم لموقع الحفرة والتي اندلعت عندها الأصوات العالية والصراخ الوحشي بوضوح تام.. ولما وصلوا للموقع، استطاعت رُبى أن ترى تلك الحفرة متوسطة العمق والتي حَوَت بقلبها على جسد عابد الذي لم يستفق من غيبوبته، بالإضافة لطارق وأحمد.. وحولها، تجمع عشرات المحليين من رجال ونساء وأطفال كذلك، وهم يصرخون بحماس ممارسين عملاً بدا لعينيها مسلياً لهم أكثر من أي شيء آخر.. فباستخدام صخور متفاوتة الأحجام من الموقع حولهم، قام المحليون برجم الثلاثة المسجونين وسط الحفرة بأقسى ما يملكون وبعضهم يضحك ساخراً من محاولاتهم للهرب من هذا المصير..

وبينما حاول أحمد تفادي ضربات الصخور القاسية بذراعيه اللتين أحاط بهما رأسه، حاول طارق إبعاد عابد عن ذلك الموقع نحو جانب الحفرة حتى وضعه بين بعض الصخور البارزة التي حمَت رأسه لكن بقي جسده مكشوفاً أمام الضربات التي لم تحاول الترفق به..

صاحت رُبى مرتعبة لهذا المنظر ولرؤية الدماء التي سالت من شجّ في رأس طارق "ما هذه الوحشية؟"

قطب عاصم دون أن يعلق، ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها حدثاً كهذا، وذكريات الأحداث السابقة ما تزال ماثلة أمام عينيه كلما اقترب من هذه القرية.. بينما تقدم الرجل من الجموع وهو يصيح ناقلاً لهم أوامر الزعيم، لكن الجموع لم تنتبه له ولم تسمع كلمة مما يقولها وسط الصياح الذي تردد بقوة في المكان.. جذبت رُبى ذراع عاصم وهي تقول بذعر "افعل شيئاً يا أبي.."

غمغم عاصم وهو يمد يده لجيبه "هناك طريقة واحدة فقط.."

واستخرج مسدساً صغيراً من جيبه فرفعه للأعلى وأطلق رصاصة دوّت في الموقع بقوة وصوتها يتردد في الكهف العميق بينما تسببت الرصاصة في سقوط بعض حجارة سقف الكهف إنما لم تصب أحداً لحسن الحظ.. ساد الصمت والدهشة المكان والجموع تلتفت لمصدر الصوت، بينما قال عاصم للرجل "أخبرهم بما أمرك به زعيمكم.."

سمع عاصم من خلفه صوتاً يقول بحدة "ما الذي تظن نفسك فاعله؟"

التفت عاصم ليرى الزعيم يقترب منه برفقة المترجم، وأضاف الزعيم بحنق "هل تريد تهييج أهالي القرية أكثر من هذا؟.. ماذا لو أصبت أحداً؟"

أجاب عاصم بحزم "ما يهمني هو سلامة رجالي.."

حدجه الزعيم بضيق، ثم أشار للرجل الذي أرسله مع عاصم.. فعاد الرجل يكرر ما قاله سابقاً بصوت أعلى مواجهاً أهالي القرية.. بدا السخط واضحاً على وجوه أهل القرية بينما تعالى صياح معترض من المجموعة القريبة منهم، وبدا واضحاً أنهم لا ينتوون إطاعة هذا الأمر.. فاستدار إليهم الزعيم وصاح بكلمات لم يفهموها.. لكن مع بعض المحاولة، بدا أن أهل القرية قد استساغوا عرضه فاختفى السخط من وجوههم وحلّ محله شيء من القناعة والرضى.. وفي الآن ذاته، عاون بعض الرجال طارق وأحمد على الخروج من هذه الحفرة حتى وقفا أمام عاصم بعدة كدمات ودماء تسيل من بضع جراح سببتها الصخور القاسية..

تساءل عاصم "أأنتما بخير؟"

هز طارق رأسه إيجاباً وهو يضع يده على الشج في رأسه، بينما صمت أحمد وهو يمسح خطاً من الدماء سال على جبينه.. ظلت رُبى تنظر لطارق بمزيج القلق لما أصابه، والراحة لوصولهم في الوقت المناسب لإنقاذه وإنقاذ أحمد.. ثم وجدت عاصم يدفعها أمامه قائلاً بشيء من التوتر "لنغادر ما دمنا قادرين على ذلك.. لو أرادت تلك الجموع الهجوم عليها، فلن توقفها أي كلمات أو منطق.."

وجدوا عدداً من الرجال يقفون في طريقهم، فقال عاصم مقطباً "ما الأمر؟.. ألم نتفق على كل شيء؟"

وجدوا الزعيم في تلك اللحظة يتقدم منهم قائلاً بحزم "لن أسمح لكم بالمغادرة قبل أن أقبض ثمن هؤلاء

الرجال.."

نظر له عاصم مقطباً بعد أن ترجم له المترجم ما قاله الزعيم، ثم قال "سيستغرق الأمر ساعة حتى أتمكن من توفير ما تطلبونه.. لكن لا أملك جهاز اتصال لأبلغ رجالي بالأمر.. جهاز الاتصال الوحيد الذي نملكه هو في المركبة التي تركناها خارجاً.."

نظر الزعيم لبضع رجال حوله وألقى إليهم بأمره، ثم قال لعاصم "لا بأس.. سيأتي رجالي معك حتى تعودوا للمركبة.. لكن لا تحاول خداعهم فلن يتوانوا عن قتل رجالك.."

هز عاصم رأسه إيجاباً، واستدار مغادراً برفقة البقية.. لكن طارق استوقفه قائلاً "ماذا عن عابد؟.. هل سنتركه هنا؟"

أجاب عاصم وهو يتأمل عابد الذي لم يستعد وعيه بعد " سنطلب منهم أن يعينونا على نقله للمركبة.. وعندما نصل للمعسكر، يمكنكم علاجه والاطمئنان لما جرى له.."

صمت طارق والمجموعة تتبع عاصم عبر طرقات الكهف والممر الضيق المؤدي إليه حتى خرجوا منه إلى تلك السلسلة الجبلية التي شكلت جداراً ضخماً قرب القرية القريبة.. فور خروجهم، صدمتهم البرودة الشديدة بعد مغادرتهم الكهف الذي كان أكثر دفئاً من الجو خارجه.. وبدا أن الأمطار التي انهمرت بغزارة قد غسلت الأرض كاملة وتجمعت في بضع مواقع مشكلة بركاً متفاوتة الأحجام.. وبينما ساد الظلام في ذلك الموقع مع حلول تلك الليلة ومع تكاثف الغيوم بشكل لا يخترقه نور القمر، فإن عاصم قال وهو يضيئ مصباحاً يدوياً يملكه "لقد تركنا المركبة قرب تلك القرية.. فلنذهب إليها بسرعة قبل أن يزداد وضعنا سوءاً.."

ونظر لرُبى القريبة متسائلاً "هل تستطيعين قطع هذه المسافة؟"

هزت رُبى رأسها إيجاباً، وأسرعت خلفه وهي تلتفت خلفها لتراقب طارق الذي استعان بحاملة خشبية بدائية الصنع لنقل عابد مع رجل آخر.. ومع مرأى التعب والكدمات التي نالته، فإن شعورها بالذنب قد تزايد أكثر فأكثر.. لأجل رغبتها الشخصية، وتلبية لأهوائها، فإن طارق قد انغمس في مخاطر لم يحسب لها حساباً.. فهل يمكنها أن ترجو منه غفراناً لما ساقته إليه؟.. خاصة بعد كلماتها القاسية التي تعلم تمام العلم

ما سببته له من ألم..

****

عند وصولهم للقرية القريبة، والتي كانت مسرحاً للهجوم الذي قام به المحليون، لاحظوا تلك المركبة التي وقفت وسط ساحتها وأحد رجال عاصم يقف قربها متحفزاً.. سار عاصم إلى ذلك الرجل وتحدث معه للحظات، بينما أنزل طارق ورجل آخر الحمالة التي كانت تحمل عابد أرضاً.. حاول طارق إعادة الوعي لعابد، لكن الأخير بقي في غيبوبته دون أن يعرف ما جرى له.. لكنه لاحظ الحرارة الشديدة التي تنبع من بشرته والعرق الذي يتصبب من جبينه.. فنظر طارق لعاصم قائلاً بقلق "ألا يمكننا العودة لمعسكركم بسرعة؟.. لا يبدو عابد بأحسن حال وهو بحاجة لعلاج سريع.."

أجاب عاصم "للأسف، هؤلاء المحليين لن يسمحوا لنا بنقله بعيداً قبل أن يحصلوا على ما وعدناهم به.. فلننتظر قليلاً حتى يصل رجالي وعندها سنتمكن من الرحيل بأمان.."

عندها تساءل طارق "لماذا لا تملكون أي أجهزة اتصالات بخلاف التي في المركبات؟.. ألا تحتفظون بأي وسيلة للتواصل فيما بينكم عادة؟"

أجاب عاصم "مع الاضطراب الذي هو سمة عامة في جو الأرض، فإن إجراء أي نوع من الاتصالات محكوم بالفشل إن لم يكن باستخدام جهاز إرسال واستقبال قوي.. ونحن لا نملك مثل هذه الأجهزة إلا ما هو في مركباتنا التي تنتمي لمجلس الأمن بالأساس.. لا بد أنك تعلم أن مجلس الأمن يملك أكثر الأجهزة تطوراً في سفنه ومركباته.."

فتساءل طارق "بمَ قايضت السكان ليطلقوا سراحنا؟"

مط عاصم شفتيه قائلاً "اضطررت للتنازل عن الكثير مما نملكه، وهو يتضمن المواد الغذائية والملابس المناسبة للشتاء القادم.. بالإضافة إلى رفضهم التنازل عما أحضرته سفينة مجلس الأمن واستولوا عليه أثناء ذلك الهجوم.. والآن علينا الانتظار حتى تحضر سفينة أخرى بعد ثلاثة أشهر على الأقل.."

تساءلت رُبى "أكنتم تعلمون بأمر الشتاء القادم؟"

أجاب عاصم "بالطبع لا نجهل أمر الشتاء العنيف الذي تستعد الأرض لاستقباله، فقد بدأت طلائعه مبكراً، وقد شاهدنا دلائل كثيرة عليه في الشهور الماضية.. لذلك نحاول الاستعداد لاستقباله كما يجب.."

نظرت له رُبى بدهشة لعدم اهتمامه بهذا الأمر، وتساءلت "لم لا ترحلون قبل بدء الشتاء بالفعل؟.. ألا تخشون مما سيجري لكم؟"

أجاب عاصم "هذه فرصة نادرة لدراسة هذا التغير الكبير الذي حلّ بالأرض.. ففي كل سنة يزداد الشتاء قسوة ويتمدد أكثر فأكثر.. لكن هذه السنة، بدأت طلائعه مبكراً جداً.. ألا تعلمين أننا الآن، حسب التقويم القديم، في منتصف فصل الصيف؟.. ومع ذلك، كل الدلائل تشير إلى أن الشتاء سيبدأ خلال الأسابيع القليلة القادمة.."

قالت رُبى باعتراض "هذا أدعى للقلق على ما سيجري لكم.. كيف تخاطر بمن معك لأجل دراسة هذا الأمر؟.. ألا تخشى على حياتك وحياة الآخرين؟.."

علق أحمد بشيء من السخرية "أتظنين أمر الآخرين يهمه حقاً؟"

نظر له عاصم بشيء من التأنيب، ثم جذب رُبى من ذراعها قائلاً لأحمد "تعال أيها الشاب.. لديّ حديث صغير لكما.."

وابتعد عن المجموعة التي توزعت في المكان محاولة اتقاء البرد المتزايد، فتبعه أحمد بصمت وشيء من الضيق، وقد بدا غير مرحّب بوجود أبيه بتاتاً.. وفور ابتعاد عاصم مع ابنته وابنه جانباً، حتى أجبر رُبى على الجلوس قائلاً "انظري كيف أصبحت.. تبدين كمن سيسقط جثة هامدة على الفور.."

غمغمت رُبى "ربما يحدث هذا فعلاً.."

نظر لها عاصم بدهشة، ثم قال "كيف تقومين بهذه المغامرة الحمقاء؟.. لقد أخبرتني ميساء بالأمر كله، وأبلغتني أن هذه الرحلة كلها من تخطيطك أنت.. كيف تخاطرين بنفسك وبشقيقيك، وبكل من قام بهذه الرحلة؟.."

نظرت له رُبى بحزم قائلة "أكنت تتوقع أن أعرف موقعك دون أن أحاول ملاقاتك؟.. أنت اختفيت منذ

خمس سنوات مثيراً ذعر الجميع، وقد أتينا لرؤيتك ومعرفة السبب الذي دعاك لهذا.. بالإضافة لخشيتي من أمر الشتاء القادم، وقد تيقنت أنك بخطر كبير بسببه.."

زفر عاصم مديراً بصره بين رُبى وأحمد، ثم جلس قربها قائلاً "كيف تريدين مني إبلاغكم بقرار قيامي برحلة يصفها الجميع بالجنون؟.. ثم إنها سنوات قليلة بعد ونعود للعالم الجديد مرة أخرى، فلم نكن ننوي البقاء أكثر من عشر سنوات.."

غمغم أحمد بسخط "عشر سنوات فقط؟.. وكأنك تتحدث عن عشرة أيام لا يجب أن نعبأ لها أبداً.."

نظر عاصم لأحمد الذي أدار وجهه جانباً، ثم قال "أتكرهني يا أحمد؟.. أكرهت المسؤولية التي ألقيتها على عاتقك؟.."

قال أحمد بغضب "طبعاً كرهت كل ذلك.. ما الذي يجبرني على التخلي عن فرصتي في الحصول على شهادة جامعية لأركض كالمجنون من عمل لآخر لأجد قوت يومي ولأعتني بشقيقتيّ؟.. تركت لنا ذلك المنزل وفوقه دين كبير كان لزاماً عليّ دفعه لئلا نفقد المنزل ونجد أنفسنا في الشارع.. أي سعادة تظنني عشت فيها في السنوات الماضية؟.."

ثم تساءل بحنق "لماذا فعلت كل هذا؟.. لتأتي وتجمع بضع صخور من الأرض وترسلها للهيئة العليا للعلوم؟.. أهذا هو المجد الذي كنت تحلم به؟"

قال عاصم بحزم "لو كان الأمر كما تقول، لأرسلت الهيئة أشخاصاً أقل أهمية وعلماً.."

فقالت رُبى بإلحاح "إذن لِمَ كان عليك أنت الذهاب؟.."

صمت عاصم وهو ينقل بصره بينهما، ثم قال "الهدف الحقيقي من إرسالنا، بجانب فحص الأرض ورؤية التأثيرات التي حصلت فيها ونسبة التلوث الذي طالها، هو في دراسة ما يمكن لهذا التلوث أن يؤثر على البشر لو فكروا بالعودة والسكنى فيها.."

نظرا له بصدمة، ثم قال أحمد باستنكار "أي أنكم باختصار عينات تجارب.."

ابتسم عاصم معلقاً "يمكنك القول بأننا كذلك.."

ثم اعتدل قائلاً "لقد عرضنا الأمر على أفراد الفرقة، وهم قد قبلوا بإجراء هذه التجربة لعدد من السنوات،

على أن نقوم بفحص دوري عليهم لرؤية مدى تأثرهم بالتلوث في الهواء وفي موارد الأرض.. كل من قام بهذه الرحلة كان يدرك عواقبها ومخاطرها.. لكنهم قبلوها مدفوعين بفضولهم العلمي وبرغبة كبيرة في رؤية الأرض وما يمكن أن تقدمه للإنسان من جديد.."

نظر له أحمد باستنكار، ثم قال "كيف يمكنكم قبول ذلك؟.. لقد رميتم بحيواتكم وعائلاتكم عرض الحائط للحصول على هذه النتائج، فهل المقابل يستحق بأي شكل من الأشكال؟"

أجاب عاصم بهدوء "طبعاً.. نحن لا نزيد على خمسة عشر شخصاً، لكن لو كانت النتائج التي نحملها مبشرّة، فهي ستفتح طريقاً للملايين الراغبين بالعودة والهرب من المستوطنات المحدودة والخانقة.."

ثم أضاف "ونحن لا نختلف عن هؤلاء البشر الذي تركهم العالم عامداً لرؤية تأثير التلوث عليهم على مدى العقود السابقة.."

نظر له أحمد باستنكار وارتعاب واضحين، بينما صمتت رُبى التي سمعت بالأمر سابقاً من أيمن.. وبعد أن تمالك أحمد ارتعابه، صاح "أتعني أن هؤلاء البشر قد تُركوا عمداً وليس غفلة من العالم؟.. من امتلك هذه القسوة ليتخلى عن قرية كاملة أو ربما ما هو أكثر لتوفير عينات للفحص العلمي؟.. ألا يعتبرهم العالم بشراً؟!.."

تنهد عاصم مغمغماً "أنت لن تفهم ذلك.."

قال أحمد محتداً "طبعاً لا يمكنني أن أفهم.. ألم ترَ أشكال أولئك البشر؟.. ألم ترَ التشوهات التي طالتهم بلا رحمة؟.. كم شخصاً مات متأثراً بتلك التشوهات؟.. كم شخصاً وجد أنه غير قادر على أن يعيش حياة طبيعية؟.."

قال عاصم بحزم "ما قيمة حياة بضع عشرات أو مئات من البشر مقابل البلايين الذين يمكن إنقاذهم بهذه التضحية؟.. المستوطنات غصّت بمن فيها من البشر، وبناء مستوطنات جديدة لن تغني عن الواقع شيئاً.. ثقب واحد في القبة الزجاجية سيودي بحياة الملايين بضربة واحدة.. وهناك من لا يريد أن يشهد كارثة كهذه.. لذلك وجد بعضهم أن العودة للأرض أكثر أماناً للبشر من البقاء في الفضاء، مهما كان ذلك مغرياً.."

قال أحمد بشيء من الحنق "ولماذا على أولئك العشرات والمئات من البشر أن يعيشوا حياة مزرية ويواجهوا الموت مقابل استمتاع البلايين برغد العيش وبكل ما يلهيها عن التفكير في تلك التضحية؟.. أتظن أن شخصاً ما سيعلم أو يقدر مثل تلك التضحيات منك أو ممن بقي على الأرض؟....."

خفضت رُبى بصرها وهي تستمع لما يقال بشيء من الوجوم، ثم قاطعت أحمد وهي تقول بهدوء "ليس هذا غريباً على شخص قام بالتضحية بابنته التي لم تولد بعد.. لذلك لا يمكنني حقاً أن أتعجب لمثل هذا القرار منك يا أبي.."

نظر لها أحمد بدهشة، بينما قال عاصم بشيء من الصدمة "أعلمتِ بذلك؟"

نظرت له رُبى بثبات قائلة "أجل.. أخبرتني به أمي قبل موتها بمدة وجيزة.. كانت تبكي بلا انقطاع وهي تحكي لي ما جرى.. وتأسفت لي عشرات المرات، رغم أنها بلا ذنب فيما جرى.."

أطرق عاصم بصمت لفترة طالت وأحمد ينقل بصره بينهما، ثم تساءل "ما الذي تعنينه يا رُبى؟.. ما الذي أخبرتك به أمي؟"

لم تجب رُبى وهي تتطلع لأبيها الذي ظل مطرقاً بصمت، ثم رفع رأسه بعد مدة قائلاً "الحقيقة يا أحمد، أن هذه ليست المرة الأولى التي آتي فيها للأرض.."

نظر له أحمد بدهشة، فقال عاصم "حدث هذا قبل أن تبلغ أنت من العمر خمس سنوات، وميساء كانت في الثالثة.. في ذلك الوقت تركتكما لدى جدتكما، واصطحبت أمك في رحلة إلى الأرض لم تكن تضمّ إلا مجموعة صغيرة من العلماء لا يتجاوزون الخمس.."

ثم زفر مضيفاً "صدمتني رؤية التشوهات التي حدثت لسكان الأرض، وقررت تفحص ذلك بشكل مكثف.. حاولت معرفة كم من الوقت يستلزم الأرض لتؤثر علينا، وغامرت باستخدام موارد الأرض في طعامنا وشرابنا دون مراعاة.. ولم يطل الوقت قبل أن يبدأ تأثير الأرض في الظهور علينا.. وإن كان تأثيراً طفيفاً لا يذكر.."

غمغم أحمد بغير تصديق "هذا جنون.."

لم يعلق عاصم وهو يخفض بصره قائلاً "لم أكن أعلم أن أمك كانت حاملاً برُبى وقتها، ولم تظهر عليها

علامات الحمل إلا بعد أن أتمت أربع شهور وبدأت الصغيرة في الحركة التي تعلن بها عن وجودها.. عندها كانت صدمتنا شديدة بذلك، وكان قلقنا لا يضاهى لما قد تعانيه الطفلة من تشوهات كالتي رأيناها في سكان الأرض.. لكننا لم نكن نملك أي أجهزة فحص للحمل، ولا وسيلة للعودة بعد أن غادرت السفينة الفضائية التي جاءت بنا على وعد بالعودة بعد أربعة أشهر.. لذلك، لك أن تتخيل الذعر الذي عشنا به طوال تلك الشهور.."

فقال أحمد بحدة "ألهذا السبب كانت أمي ضعيفة الجسد؟.. أبسبب هذه الرحلة ماتت وهي في الخامسة والثلاثين ورفضتم إخبارنا بالمرض الذي أصابها؟.."

تنهد عاصم وجهه قائلاً "ربما، رغم أن التأثير لم يظهر عليها إلا متأخراً جداً.. عندما أدركت ما أصابها من جراء تعرضها للتلوث على الأرض، كان الوقت قد فات على علاجها.. كانت أجهزة جسدها الداخلية تتهاوى رغماً عنا، ولم يفلح الطب في علاجها بتاتاً حتى ماتت قبل أن تبلغ رُبى الثانية عشرة من عمرها.."

ظل أحمد مقطباً بغير اقتناع، بينما قالت رُبى محاولة تجاوز هذه النقطة المؤلمة في حديثهم "أتظن أن تعرضي لتلوث الأرض هو سبب القدرة التي أملكها على رؤية المستقبل؟"

ابتسم عاصم معلقاً "ربما كنت تملكين هذه القدرة بالفعل، لكن ما تعرضت له على الأرض وأنت في رحم أمك قد جعلها أكثر حدة ووضوحاً.. هذا شيء لا يمكن قياسه علمياً، ولم أكن أعلم حقاً ما تأثير الأرض عليك إلا بعد سنوات طوال.."

غمغمت رُبى "بالفعل.. لا أذكر أنني كنت أرى تلك الأحلام إلا بعد أن تجاوزت العاشرة من عمري.. عندها بدأت تلك الرؤى تأتيني، واستغرقت وقتاً طويلاً للاقتناع بها.."

فقال عاصم "لقد أصابني ما حدث لك بالدهشة، لكن أمك رفضت بإصرار أن أخضعك للفحص لمعرفة ما جرى لك.. كانت مصرة على حمايتك، وعلى جعلك تعيشين حياة عادية لا تختلف عن حياة شقيقيك.. كانت تشعر بالذنب الشديد لما جرى لك وبأننا سبب كل ما ستمرين به بسبب مثل هذه الموهبة.."

قالت رُبى باعتراض "لكنني لم أهتم يوماً بهذا.. ولم أشعر بالغضب لما عرفت ما جرى.."

وأضافت وهي تتشبث بذراعه "كل ما أردته هو بعض الاهتمام.. بعض الشعور بأهميتي لديك.. كنتَ

تتجاهلني، وكنت تتفادى أي حوار معي بشكل واضح.. أظننت أنني لن أعبأ بهذا وأنا طفلة؟"

قال عاصم وهو يخفض رأسه "كيف تريدينني التطلع في وجهك بعدما حدث؟.. بعد ولادتك، ورغم أنك خلوتِ من أي تشوهات واضحة، إلا أنني شعرت أنني ارتكبت إثماً شنيعاً في حقك.. وغزاني الندم كلما تطلعت لعينيك الباسمتين والحيرة واضحة فيهما.."

ونظر لعينيها مضيفاً "ربما زاد ندمي أنني حرمتك من حنان أمك في سن صغيرة جداً.. موتها كان بسببي، ولم أكن أطيق تلك الفكرة أبداً.. لذلك سعيت للرحيل فور أن اشتد ساعد أحمد وغدا قادراً على العناية بكما.."

ونظر لأحمد الذي وقف على مبعدة قائلاً "ربما تجدونني قاسياً لكل ما فعلته، لكنني لم أتعمد القسوة بقدر رغبتي بتحقيق شيء قد يزيل شعوري بالندم على ما جرى.."

ونظر للقرية من حوله مضيفاً "وجودي هنا، وشعوري أنني أستطيع تحقيق شيء للبشرية كلها، كان أفضل من تقوقعي في إحدى المستوطنات وإحساس الذنب يقتلني ببطء.."

قال أحمد بغضب "لو كنت نادماً لما جرى لأمي، لأوليت عنايتك للأطفال الذين تركتهم صغاراً.. أتظن أمي ستكون أسعد برؤيتك تتخلى عن أطفالها وتقضي وقتك في هذا الكوكب المميت؟.."

غمغم عاصم "من يدري ما قد يسعدها بعد أن ماتت؟.."

ثم نظر إليهما نافضاً تلك الذكرى وهو يقول بابتسامة جانبية "رغم أن هذا جاء متأخراً، لكن مرحباً بكما على الأرض.. أتمنى أن تستمتعا بما بقي لديكما من وقت قبل الرحيل، وقبل العودة لتلك المستوطنات الخانقة.. هذه التجربة لكما على الأرض قد لا تتكرر مرة أخرى.."

ظلت رُبى تنظر له بصمت وهي ترى تبدل حاله السريع، وكأنه رمى بكل ما يثقل كاهله خلف كتفه وغدا شخصاً آخر، بينما صمت أحمد وهو يدير وجهه جانباً بضيق.. وفي تلك اللحظة، تقدم أحد الرجلين اللذين صاحبا عاصم وهو يقول "هناك اتصال من إحدى المركبات التي انطلقت لرؤية ما جرى لسفينة مجلس الأمن.."

نهض عاصم بنشاط قائلاً "حسناً.. سآتي حالاً.."

وابتعد عنهما تاركاً أحمد يقف بصمت ورُبى تخفض وجهها بهدوء.. أخيراً، زفر أحمد قائلاً "لماذا كان علينا أن نمر بكل هذا الشقاء لأجل البشرية؟.."

لم تعلق رُبى وهي تحدق في أصابعها بصمت.. رغم كل ما قيل، فهي لم تشعر بالغضب يوماً لما حدث لها، ولما أصبحت عليه حياتها وحياة شقيقيها.. كل ما مر بها هو ما جعلها من هي الآن، ولا يمكنها أن تشعر بالحنق لهذا..

وجدت أحمد يقترب فيجلس قربها، للمرة الأولى منذ رأته في هذه الرحلة، ويقول "لقد كنتُ قاسياً في التعامل معك في هذه الرحلة.. وأنا آسف لذلك.. كان عليّ أن أكون أكثر تفهماً لما أردتِه.. وربما أنا من دفعك لفعل كل ما فعلته سابقاً.."

غمغمت رُبى وهي تنظر له بابتسامة "هل أدركت هذا أخيراً؟.."

لاحظ الدموع الحائرة المعلقة بأهدابها، فمد ذراعيه وعانقها وهو يربت على رأسها قائلاً "كل ما أرجوه أن تكون الأمور كلها على ما يرام بعد الآن.. وربما ستكون كذلك بالفعل.."

سالت دموع رُبى بصمت وهي تستكين على كتفه.. لم تكن رُبى تشعر بأي تفاؤل حيال ذلك، لكنها لم تذكر ذلك.. لم تتوقع يوماً أن تعود الأمور بينها وبين أحمد لسابق عهدها، ولا أن تتمكن من رؤية أبيها في مثل هذا المكان.. لذلك أرادت أن تستمتع بهذه اللحظات دون أن تفكر في المستقبل الذي تخشاه بشدة.. وبعد أن طال الصمت، قالت بصوت مبتسم "لو رأتنا ميساء الآن لبكت سعيدة بهذا التطور.."

علق أحمد "ستبكي في كل الأحوال عندما نجتمع من جديد بعد كل ما جرى.."

غمغمت رُبى "أتمنى أن يكون هذا آخر أحزاننا على هذا الكوكب.."

نظر أحمد لوجهها قائلاً "هل تعدينني ألا تعتمدي على تلك النبوءات الغامضة التي ترينها؟.. لا تفسدي حياتك بسبب أحلام قد لا يكون لها واقع من الصحة"

ابتسمت رُبى وهي تحجم عن إخباره بانقطاع تلك الأحلام عنها، وقالت "أعدك بذلك.."

فأضاف مقطباً "وتعدينني بألا تقومي بمثل هذه المغامرات الجنونية مرة أخرى؟.."

اتسعت ابتسامتها مجيبة "أعدك بذلك.."

فربت على كتفها قائلاً "ستكون الأمور كلها على ما يرام.. عندما نعود، لا تعودي لتلك المافيا مرة أخرى.. سنهرب نحن الثلاثة، ونرحل لمستوطنة بعيدة لا يطالك فيها دان.. بهذا، يمكنك أن تعيشي كفتاة عادية وتكفي عن لعب دور بطلة قصة بوليسية.."

استمعت له رُبى بصمت وابتسامتها لا تخفت.. بدت لها أحلامه بسيطة وساذجة نوعاً ما.. لكنها لا تلومه.. هو لا يعلم من أمرها شيئاً، وربما من الأفضل له ألا يعلم بذلك الآن..

****

استيقظت نور فجأة من غيبوبتها وهي تشعر بالحركة القاسية تحت جسدها.. فتحت عينيها ونظرت حولها لتجد نفسها على ظهر بغلة تسير بها وسط أحد وديان تلك السلسلة الجبلية وقد تبدّت الموجودات حولها بشيء من الوضوح مع نور النهار الوليد.. رفعت نور رأسها بتوتر وهي ملقاة على بطنها على ظهر البغلة، ولاحظت القيد في يديها خلف ظهرها.. ولما نظرت حولها لاحظت ذلك الرجل الذي قام بالترجمة لهم أمام زعيم المحليين وهو يقود البغلة، وخلفها وجدت بغلة أخرى تركبها تلك الفتاة ذات التشويه في عينيها وحبل يربط البغلتين ببعض لتسيرا معاً خلف ذلك الرجل.. ومن حولهم رأت نور عشرات الأشخاص بأعمار وهيئات مختلفة يسيرون معاً على الأقدام أو على ظهور الحيوانات نحو وجهة واحدة..

لم تتمهل نور لتسأل عن موقعها أو سبب وجودها ضمن هذه المجموعة، بل كل ما دار في ذهنها في تلك اللحظة هو رغبتها الشديدة بالفرار.. ولما انتبه الرجل إليها التفت قائلاً "كفّي عن الحركة لئلا تسقطي أرضاً.."

لكن نور ركلت بقدميها حتى سقطت أرضاً، ورغم عنف السقطة على الأرض الحجرية، فإنها نهضت على الفور واخترقت صفاً من المحليين الذين نظروا لها بصمت دون أن يعترضوا طريقها.. لكنها سرعان ما وجدت الرجل يقبض على ذراعها بقوة قائلاً "إلى أين؟.."

قاومته نور صائحة "اتركني.. لماذا اختطفتني؟.. ما الذي تبغيه مني؟.."

جذبها عائداً لموقع البغلتين قائلاً "سنتحدث عن هذا فيما بعد.. لدينا الشتاء بطوله لنتحدث عن كل شيء.."

نظرت له نور باستنكار وصدمة قائلة "ماذا تعني؟.. إلى أين ستأخذني؟.."

تلفتت حولها ملاحظة الجبال التي تحيط بموقعهم، والتي جعلتها غير قادرة على معرفة موقع القرية التي تركوها ولا موقع السفينة الفضائية.. وجدت الرجل يفك يديها من خلف ظهرها ثم يقيدهما في لجام البغلة قائلاً "لا تحاولي الهرب لئلا أتعامل معك بعنف.. أطيعي ما يطلب منك بصمت.."

تلفتت نور حولها ملاحظة تجاهل الآخرين لما يحدث لها وهم مستمرون بسيرهم نحو وجهة واحدة دون توقف.. بينما قالت لها الفتاة "لم أنت قلقة؟.. ستكونين بأمان معنا.. سنرحل لموقع يكون فيه الشتاء أقل وطأة وعنفاً كما نرجو.."

صاحت نور باعتراض "من قال إنني أرغب بحمايتكم أو بالذهاب معكم؟.. أطلقوا قيدي حالاً.."

تجاهلها الرجل وهو يجذب الحبل الذي يقيد البغلة خلفه، بينما لم يبدُ على الآخرين أي اهتمام أو فهم لما تقوله.. فحاولت نور التملص وفك قيد يديها بعنف أو إجبار البغلة على الوقوف في موقعها، لكن كل جهودها باءت بالفشل.. فنظرت حولها بيأس شديد ملاحظة النظرات التحذيرية التي ألقاها عليها الرجل.. عندها قالت له بتوسل "ما الذي تهدف إليه من اختطافي؟.. ما الذي تبغيه مني أنا بالذات؟.."

لم يجبها الرجل وهو مستمر بسيره بصمت، فقالت نور "أهناك أي معنىً لاصطحابي معكم؟.. أم أن الهدف كان هو الانتقام؟"

أجاب الرجل عندها "لا.. لو كان الانتقام هو هدفنا لتركتك تلقين مصيرك مع بقية رفاقك.. لكن ليس هذا ما أبغيه.."

نظرت له نور بشيء من التوجس وتساءلت "ما الذي حل برفاقي؟.."

قال الرجل "لا بد أنهم قد قضوا نحبهم الآن.. لذلك عليك أن تكوني شاكرة لأنني أنقذتك من ذلك المصير.."

صاحت نور "أنت تكذب.. ما الذي جرى لهم حقاً؟.."

قال الرجل ببرود "لست بحاجة للكذب لإقناعك بالبقاء.. التزمي الصمت مادمتُ أملك الصبر الكافي لمحادثتك بهدوء.."

نظرت له نور بشيء من اليأس وهو يجذب البغلتين دون كلل، ونظرت نحو الفتاة التي ظلت على هدوئها على البغلة القريبة، بينما تجاهل المحليون أمرها بشكل تام.. فظلت نور تقلب بصرها في الموقع حولها وفي القيد حول يديها وهي تفكر بوسيلة للفرار.. لابد أن تهرب.. لابد أن تعود لمن تركتهم خلفها.. هل حقاً قضى عليهم المحليون؟.. رباه.. لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً..

لكن، حتى لو كان الأمر كذباً، كيف سيستدلون على موقعها ويأتون لإنقاذها؟.. هذا مستحيل.. لا يجب أن تنتظر معونة من أي شخص لتهرب.. لو لم تفعل ذلك بنفسها، فهذا يعني أنها لن تتمكن من الفرار من هذا المصير بتاتاً مهما طال انتظارها..

****

الفصل الثامن عشر

عندما وصلت المركبة الأخرى للقرية، كانت الشمس تعلن على استحياء بدء ذلك النهار، دون أن تتمكن من إزالة البرودة التي ازدادت شدة مع مضيّ تلك الليلة الطويلة.. رأوا المركبة تجذب خلفها عربة معدنية متوسطة الحجم تحمل بضع صناديق متفاوتة الأحجام، وحال وقوفها قرب مركبتهم سارع المحليون الذين صاحبوا عاصم ومن معه بحمل تلك الصناديق دون انتظار إذن من أحد..

تعاون طارق مع الرجلين اللذين جاءا مع عاصم لحمل عابد للمركبة ووضعه على العربة المعدنية المسطحة.. وصعد طارق قربه ليتأكد أنه لن يسقط أثناء رحلة العودة بعد أن بقي في غيبوبته دون أن يستيقظ.. بينما وقف أيمن قائلاً لعاصم "سأبقى لأبحث عن نور.. لا بد أنها في مكان قريب من هذا الموقع.. فرغم بحثي عنها طوال الليلة الماضية لم أعثر لها على أثر.."

هز عاصم رأسه موافقاً وقال "لا بأس.. سأترك المركبة الأخرى معك، وسيبقى ليان معك ليساعدك في بحثك عن الفتاة.. لكن احرص على ألا تتأخر كثيراً.."

راقبهم أيمن أثناء ابتعادهم بينما وقف ليان قربه وهو يربت على كتفه قائلاً "لابد أننا سنعثر على الفتاة.. ربما كانت مختبئة خوفاً من المحليين، لكنها ستظهر عندما تراك دون شك.."

غمغم أيمن "أتمنى ذلك.."

استغرقت المركبة بعاصم ومن معه ساعة في السير وسط تلك الجبال، وبعد أن غادرتها، في قطع بضع سهول عشبية حتى استطاعوا رؤية هضبة صخرية تنتصب وسط السهول بشكل واضح للعيان من مبعدة.. وعبر طريق خاص مائل للأعلى، استطاعت المركبة أن تصل لسطح الهضبة حيث رأوا معسكر الفرقة العلمية الذي استغل قرية قديمة ذات منازل حجرية بسيطة خلت من أصحابها.. لم يكن عدد المنازل يتجاوز خمسة عشر منزلاً، بالإضافة لحظائر خالية تم استغلالها في حفظ الأجهزة التي جلبها الفريق معه.. وقد امتدت الهضبة على مساحة كبيرة تكفي لتضمّ قرية تفوق تلك التي تركوها حجماً..

تعاون طارق وأحمد مع رجلين آخرين لحمل عابد حتى وضعوه على سرير في أحد منازل القرية الذي تم تجهيزه كعيادة طبية مصغرة مجهزة بأحدث الأجهزة الطبية.. وفور مغادرة الرجال رأى طارق امرأة في أوسط العمر ترتدي منظاراً طبياً تقترب من عابد متسائلة "ما الذي جرى له؟"

أخبرها طارق بما حدث لعابد وبالجرح في ظهره، بينما تفحصته المرأة بسرعة وخبرة.. ثم قال "أتظنين أنه سيكون بخير؟.."

أجابت المرأة "لا تقلق.. سيكون كذلك بإذن الله تعالى.."

رأى طارق نوح يدخل المنزل قائلاً "حمداً لله على سلامتكم.. لقد صدمت عندما علمت بما جرى لكم من أحمد.."

وأضاف وهو يتطلع لعابد بقلق متسائلاً "ما الذي جرى لعابد؟.. هل سيكون بخير؟"

لاحظ طارق نفضة خفيفة في يد المرأة قبل أن تنظر إليه مبهوتة وهي تهمس "عابد؟؟.. هل اسمه عابد؟.."

ثم همست "ما هذه المصادفة؟"

سمعوا صوت رُبى من خلفهم تقول "هذه ليست مصادفة أبداً.."

نظرت المرأة لرُبى التي دخلت المنزل واقتربت منهم قائلة "أنتِ عالية، أليس كذلك؟.."

نظرت لها المرأة بدهشة واضحة، فأضافت رُبى "لابد أنك تعرفين شقيقك عابد حق المعرفة.."

نظرت عالية لوجه عابد الساكن بصمت ورجفة واضحة، ثم قالت بعدم تصديق "كيف وصل إلى هنا؟.. ولماذا؟.."

أجابت رُبى "في الواقع لم تبدُ عليه الرغبة في القدوم بعد أن علم باحتمال لقائه بك.."

لم تعلق عالية وهي تتأمل وجه عابد، ثم تنهدت والتفتت إلى رُبى قائلة "المهم الآن أن أتولى علاجه.. غادروا الآن واتركوني أنجز عملي.."

لم يعلق أحدهم وعالية تنشغل بمعالجة أحد الأجهزة العديدة في العيادة المصغرة، فلم يجد الآخرون بداً من المغادرة بصمت.. وفي الخارج، توجه طارق إلى رُبى متسائلاً "أكنت تعرفين تلك المرأة؟.."

أجابت رُبى "لم أكن أعرف إلا اسمها، وقد أمكنني تخمين هويتها بعد رؤية انفعالها لمعرفة هويته.."

جلس طارق معلقاً "أهي شقيقته التي لم يرها منذ سبعة عشر عاماً؟"

قالت رُبى "يبدو كذلك.."

غمغم طارق "إذن لِمَ بدا كارهاً لرؤيتها رغم كل تلك السنوات؟.."

تنهدت رُبى مجيبة "من يعلم ما جرى في حياته سابقاً؟.. العلاقات البشرية غريبة وغير متوقعة.. لا تسير بتاتاً كما نتوقع منها أو نتمنى.."

صمت طارق دون أن ينظر إلى رُبى.. ربما كان هذا الوصف أقرب إلى علاقته مع رُبى، ورغم كل محاولات طارق، لم تسرِ علاقته مع رُبى كما يحب ويتمنى.. ولم يعد يعرف ما عليه فعله بعد هذا..

سمعها تقول بشيء من الخفوت "أنا آسفة لما جرى لك.. كل هذا بسبب إصراري على المجيء للأرض.."

قال طارق بهدوء "ليس هذا ذنبك.. فلا داعي للأسف.."

عاد الصمت يخيّم عليهما حتى لم يعودا يعرفان ما عليهما قوله.. وأصبح الصمت ثقيلاً أكثر مما ينبغي..

****

مع انقضاء ذلك النهار، وجدت نور المنهكة من السير المتواصل بيدين مقيدتين أنهم وصلوا لموضع منبسط من تلك السلسلة الجبلية التي لا يبدو لها أي نهاية.. كان الموقع جزءاً من وادٍ على شيء من الاتساع تغزوه الأشجار الخضراء الوارفة وفي جانب الموقع يجري جدول صغير من المياه الباردة الصافية القادمة من قمة جبل قريب.. كانت نور متعبة بشدة بعد المسافة التي قطعوها، ولم تكد تصدق أنها تستطيع التوقف للراحة في تلك الليلة..

قام الرجل بفك رباطها عن البغلة، لكنه قيدها لشجرة قريبة كي يضمن ألا تتمكن من الهرب.. وحولها، انتشر بقية تلك القافلة الصغيرة مفترشين الأرض وبعضهم يبدأ بإشعال بعض النيران للتدفئة وطهو الطعام.. تلفتت نور حولها بقلق وهي مدركة أنهم أمسوا في موقع بعيد جداً عن القرية التي لجأت إليها سابقاً مع رفاقها وحيث التقت بشقيقها أيمن.. وما يزيد قلقها أن الرجل يحتفظ بصمته أغلب الأوقات

ولا يحاول تفسير سبب اختطافها بهذه الصورة..

ولما وجدته يقوم بإشعال النيران في كومة أخشاب جمعها من هذا الموقع، سألته "إلى أين تنوون الرحيل جماعات بهذه الصورة؟.. أأنتم هاربون من أمر ما؟.."

نظر لها الرجل قائلاً "أنت لا تعرفين شيئاً بتاتاً مما يحدث في هذا الوقت؟.."

وعاد لعمله مضيفاً "نحن نرحل للجنوب الأكثر دفئاً مع قدوم الشتاء في كل سنة.. وقد بكرنا الرحيل هذه المرة لأن الشتاء جاء أبكر من المعتاد.."

تساءلت "وماذا عن البقية؟.. قريتكم كانت تضم عدداً أكبر من البشر.."

قال وهو يغذي النار الوليدة بمزيد من الحطب "نحن نرحل جماعات عادة، فمن الصعب انتقال قرية كاملة على دفعة واحدة.."

تجرأت نور لسؤاله بعد أن وجدته يتجاوب معها "ألن تخبرني بالسبب الذي لأجله اختطفتني؟.. ما الذي تبغيه مني؟.."

نظر لها بصمت للحظات، ثم عاد لعمله دون أن يجيبها.. فقالت بتوسل "ما الذي تبغيه مني؟.. أرجوك أطلقني.. أنا لا ذنب لي في أي شيء مما جرى لكم على يد رجال الأمن.."

نظر لها الرجل قائلاً "ألازلت مقتنعة أن هدفي هو الانتقام؟.."

صاحت نور "إذن لِمَ تفعل بي هذا؟.."

أشار الرجل لابنته التي جلست على مقربة تستمع بصمت لما يقال "كما ترين، ولدت ابنتي بتشويه حرمها الإبصار دون أدنى أمل في إيجاد حل لها.. وهاهي قد أكملت العاشرة من عمرها دون أن تتمكن من الرؤية يوماً واحداً في عمرها.."

قالت نور بتوتر "وما الذي ستحققه لها باختطافي؟.."

أجاب الرجل "باستخدامك، يمكنني أن أحصل على فرصة لتخليص ابنتي من هذه العاهه.."

انكمشت نور قائلة بتوجس "ماذا تعني؟.. ما الذي ستفعله بي؟.."

قال "بوجودك، يمكنني أن أضمن لي ولابنتي مكاناً في إحدى تلك السفن التي تطير بكم عبر الفضاء.. لو

استطعت الذهاب إلى عالمكم، لربما وجدت من يستطيع علاج ابنتي عن هذا التشوه.."

نظرت له نور بدهشة وهو يضيف "لقد تحدثت مع عدد من الرجال ذوي الزي الأسود، وقد أخبرني أحدهم أن ابنتي قد تلقى علاجاً يعيد لها البصر في عالمكم الأكثر تطوراً.. لذلك أنا مصمم على الذهاب بها هناك مهما كلفني ذلك.."

هتفت نور بعد أن فهمت مبتغاه "أظننت أنك باختطافي تستطيع إقناع رجال الأمن باصطحابك وابنتك في سفينتهم؟.. أنت واهم.."

قطب الرجل قائلاً "لم أخبرك بهذا لآخذ رأيك في الأمر.."

قالت بإصرار "أولئك الرجال لا يعبؤون لأمري قيد شعرة.. حتى لو قتلتني، فلن يحرك ذلك فيهم ساكناً.. أرجوك صدقني.."

فقال لها الرجل بجمود "كل ما أطلبه منك إطاعتي وعدم عصيان أوامري.. بعد أن ينقضي الشتاء، سنعود لذلك الكهف وننتظر إحدى تلك السفن.. عندها، بعد أن يوافقوا على مطالبي، سأطلق سراحك دون تأخير.."

تساءلت بشيء من الأمل "لِمَ لا تفعل هذا الآن؟.. خذني لموقع الفرقة العلمية واعرض عليهم ذلك.."

هز الرجل رأسه نفياً وقال "سفينتهم قد تحطمت في هجوم الليلة الماضية.. ولذلك سننتظر قدوم سفينة أخرى وهذا لا يحدث عادة إلا بعد ثلاثة أشهر.."

نظرت له نور بتوتر وهي تفكر بالكيفية التي يمكنها إقناعه بفشل مخططه المزعوم هذا.. من المستحيل أن يصطحب رجال الأمن أحد المحليين معهم مهما كانت الأسباب.. ولا يبدو أن الفرقة العلمية أكثر اهتماماً بهم من رجال الأمن.. فكيف تقدر نور على إقناع الرجل بهذا الأمر؟ أم أن السبيل الوحيد أمامها هو الهرب منه، مهما كانت العواقب؟..

****

عندما فتح عابد عينيه، بعد ما بدا كدهر كامل، وجد نفسه في ذلك المنزل البسيط الذي تم تحويله لعيادة طبية مصغرة ملاحظاً الأجهزة والمعدات الطبية التي توزعت في المكان.. كانت الإنارة خافتة نوعاً، وبدا من النافذة القريبة أن الظلام قد حلّ على الأرض وهذا ما زاد من الضياع الذي يشعر به.. كل ما كان يذكره هو سقوطه في تلك الحفرة وارتطام رأسه بقوة أفقدته وعيه.. فما الذي جرى في ذلك النهار؟.. من الذي أنقذه؟.. وأين هو الآن؟.. وما الذي جرى للبقية؟..

آلمه رأسه من جديد، فزفر وهو يضع يده على رأسه دون أن يملك القوة للنهوض من موقعه بعد.. ثم لاحظ جسداً يدخل مجال بصره، فاستدار إلى ذلك الشخص ليجد رجلاً يتجاوز الأربعين من عمره وهو على النقيض من عابد في كل شيء.. شاحب البشرة هادئ الملامح على شيء من القصر ويرتدي منظاراً..

وقد أدرك عابد من ملابس الرجل البسيطة أنه ليس من سكان الأرض المحليين.. سمع الرجل يقول والابتسامة ترتسم على شفتيه "أأنت بخير؟.. كيف تشعر الآن؟"

غمغم عابد "بخير والحمدلله.."

علق الرجل "لازلت بحاجة للراحة.. فجسدك منهك بشدة.."

أغمض عابد عينيه وهو لا يزال يشعر بالآلام التي تنتشر في أعضائه كلها، لكنها لم تكن سيئة كالسابق.. بدا جسده أقل ثقلاً وتيبساً، لكنه لم يكن بحال تسمح له بالنهوض بعد.. عاد عابد ببصره للرجل الذي كان يتأمله باهتمام غريب.. فسأله عابد "من أنت؟.. أأنت طبيب؟"

أجاب الرجل "لا.. لست طبياً.."

فقال عابد "أنت من أفراد الفرقة العلمية.. ألست كذلك؟.. هل نحن في معسكركم؟"

ابتسم الرجل قائلاً "بلى.. أنا منهم، واسمي قاسم.. في الواقع، أنا زوج عالية.."

اتسعت عينا عابد بدهشة وقد سرت موجة من التوجس والضيق في جسده مع سماعه لذلك الاسم، وقبل أن يضيف قاسم كلمة، سمعا صوتاً من باب المنزل يقول بهمس "عابد؟"

التفت قاسم قائلاً بابتسامة متسعة "لقد استيقظ للتو.. يبدو أنه في أفضل حال ولا يستدعي قلقنا عليه.."

لم يتفوه عابد بكلمة وهو يرى تلك المرأة التي اقتربت منه بتوتر واضح.. كانت تتجاوز منتصف العقد

الرابع من عمرها، ورغم التبدل الكبير في ملامحها عما يذكره فقد أدرك هويتها على الفور.. كيف له أن ينسى ملامح شقيقته عالية؟.. شقيقته التي تكبره بسبعة أعوام، والتي استيقظ في صباح أحد الأيام ليجدها قد تبخرت دون أثر؟..

ظل عابد يحدق بوجهها، بينما وقفت عالية قريباً وهي تقول بصوت متهدج " إنه أنت حقاً.. أليس كذلك؟.. انظر إليك.. لقد أصبحت رجلاً تفوقني طولاً بمراحل.. لم تعد ذلك الطفل السمين القصير الذي كنته.."

تمالك عابد صدمته لرؤيتها بصعوبة، وغمغم مديراً بصره جانباً "هذا هو الوجه الذي لم أرد رؤيته أبداً لما بقي لي من حياة.."

دهش قاسم لقوله بينما تجمدت عالية للحظات وهي تحدق به، ثم قالت باضطراب "لماذا؟.. ألم تنسَ ما سبق أبداً؟.."

لم يجبها عابد، فقالت بصوت مرتجف "لقد مرت سبعة عشر عاماً، وقد أصبحت رجلاً قادراً على تحمل مسؤولية نفسك.. أما زلت تحقد عليّ بسبب ما قلته لك منذ وقت طويل جداً؟.."

نهض عابد فجأة متحاملاً على نفسه رغم الآلام العنيفة التي تقيّده بقوة، وارتدى قميصه بصمت بينما هتفت عالية "إلى أين؟.. جرحك بالغ السوء ويجب....."

وجدته يتجاهلها تماماً وهو يغادر المنزل، فزفرت عالية باضطراب وهي تجلس جانباً.. وبعد لحظة صمت علق قاسم قائلاً "إنه بالفعل يبغضك بشدة، كما كنت تتوقعين.. فما الذي ستفعلينه الآن؟"

همست عالية وهي تضع رأسها على راحتي يديها "لا أدري.. لا أستطيع تجاهل ما يشعر به أبداً.. بعد كل تلك السنوات، ربما كانت هذه هي الفرصة التي أملكها للتخلص من شعور الذنب الذي يلازمني.."

تساءل قاسم "وهل سيتجاوب عابد معك؟"

لم تجبه عالية وهي تغمض عينيها بأسىً، بينما لاحظ قاسم أصواتاً عالية تندلع من وسط المعسكر حيث تجمع بقية أفراد الفرقة العلمية مع جماعة الغرباء أولئك.. فغادر قاسم العيادة قائلاً "يبدو أن الأمور لن تعود للهدوء أبداً هذا اليوم.."

لم تغادر عالية موقعها وهي تزفر بضيق شديد، ثم همست "حتى متى يا عابد؟.. حتى متى ستكرهني؟"

****

بعد أن غادر عابد العيادة وقف قليلاً يتأمل المعسكر الصغير على ضوء الكشافات الصغيرة الموزعة في أرجائه.. شعر بتثاقل في قدميه وبرغبة شديدة بالجلوس والراحة رغم أنه لم يتجاوز عشر خطوات منذ غادر ذلك السرير.. لكنه تجاوز هذا التعب والآلام في جسده وهو يبتعد عن العيادة ومن فيها وضيق شديد يكتنفه.. لم يكن يرغب برؤيتها، ولم يكن يرغب بمثل هذه المواجهة.. ليته رفض القدوم في هذه الرحلة عندما عرضت عليه رُبى ذلك، عندها كان سيتجنب كل المتاعب التي مر بها في هذا الكوكب بالإضافة لهذه الخاتمة التي لا تزيد الأمور إلا سوءاً..

أثناء سيره بغير هدىً في هذا المعسكر، توقف عندما انتبه لأصوات عالية ترتفع من وسط المكان.. انتبه لصوت طارق بينها، فاقترب من ذلك الموقع ليجد جماعة من الفرقة العلمية متحلقين حول نار أشعلت وسط المعسكر لمدهم ببعض الدفء.. ووسطهم وجد رفاقه يجلسون بصمت بينما وقف أيمن في جانب المكان يجادل طارق بعصبية.. اقترب عابد بصمت وهو يستمع لأيمن الذي قال "كل ما جرى بسببكم أنتم.. لماذا قمتم بهذه الرحلة الخطرة؟.. كان عليكم تقدير العواقب جيداً قبل الإقدام عليها.."

قال طارق بهدوء "لكننا قمنا بها بالفعل.. لا داعي لهذا التأنيب فهو لن يحلّ شيئاً.."

قال أيمن بعصبية "أتقصد أنني لا أملك الحق بلومكم؟.. كيف يمكنك أن تتحلى بمثل هذا الهدوء في هذه الأوقات؟"

استمع عابد لما يقال للحظات، عندما وجد نوح يقترب منه متسائلاً بقلق واضح "أأنت بخير يا عابد؟.. لماذا غادرت العيادة ولم تمضِ ساعات معدودة على معالجة جرحك؟"

غمغم عابد "لم أطق البقاء هناك.. ثم إنني بخير والحمدلله.."

فقال نوح بابتسامة وهو يربت على كتفه "حمداً لله على سلامتك.. بقاؤك حياً حتى الآن هي معجزة مع سوء

جرحك البليغ.."

التفت عابد إليه قائلاً "ما الذي يجري هنا؟.. ما سبب هذا الجدال بين أيمن وطارق؟"

أجاب نوح بضيق "إن أيمن يلقي باللائمة على طارق لما حدث لنور.. وكأنه سبب كل ما جرى لها.. وهو يشملنا جميعاً بتأنيبه بسبب ضمّنا لها في هذه الرحلة.."

تساءل عابد بقلق متزايد "لماذا؟.. ما الذي جرى لنور؟ أنا لم أرها منذ استيقاظي في هذا المعسكر، فأين هي؟.."

أجاب نوح "ألم تعرف ما حدث؟.. لقد اختفت نور تماماً منذ هربها من قبضة أولئك الهمجيين.."

رفع عابد حاجبيه بدهشة وصدمة وقال "كيف حدث ذلك؟.. ألم يبحثوا عنها؟.. لابد أنها كانت مختبئة في ذلك المكان أو في موقع قريب من تلك القرية.."

قال نوح هازاً رأسه "لقد بحثوا عنها في كل الأماكن التي يمكن تخيلها.. في القرية والمغارة وكل ما حولها.. لكنها اختفت تماماً.. لم يعثر أحدهم لها على أي أثر.."

فقال عابد بقلق "كيف يمكن ذلك؟.. لن تختفي الفتاة دون سبب مفهوم.."

سمع أيمن يقول بشيء من العصبية "كل هذا بسببكم أنتم.. لو أنكم رفضتم اصطحابها في هذه الرحلة، لما واجهت مثل هذا المصير.. كيف تصطحبون فتاة صغيرة في رحلة خطرة كهذه؟.."

فقال طارق مقطباً "نور ألحّت إلحاحاً كبيراً للانضمام للرحلة.. ولو لم تأتِ معنا، فقد تلجأ لطرق أخرى لتصل للأرض.."

قال أيمن بحنق "لكنكم ساعدتموها على هذا الجنون دون اعتراض.."

فقال عاصم الذي كان يجلس جانباً "هذا الجدال لا يقدم لنا حلاً لهذه المشكلة.. الفتاة مفقودة ولن يفيدها هذا الغضب بشيء.."

تقدم عابد في تلك اللحظة من وسط الحلقة ناظراً إلى رُبى التي تجلس قرب عاصم بقلق، فقال لها "لو كان هناك شخص يجب أن يلام على ما جرى لنور، فهو أنت يا آنسة.."

تطلع البقية لرُبى المتوترة بدهشة بينما قال طارق بضيق "ما الذي سنستفيده من إلقاء الاتهامات بهذه

الصورة؟"

أجاب عابد وهو يثبت بصره على رُبى "لأن الآنسة تملك الحل الوحيد لإنقاذ نور قبل أن نفقد أثرها نهائياً.."

نظرت له رُبى بصمت ودهشة، فأضاف عابد "أجل.. يمكنك أن تنقذي نور لو أخبرتنا بموقعها الآن وبما جرى لها.."

خفضت رُبى بصرها قائلة "للأسف لم يعد هذا ممكناً.. فقدت هذه القدرة بشكل كامل منذ سقطت في تلك الغيبوبة.."

نظر لها عاصم متسائلاً بدهشة "لماذا؟.. ما السبب؟.."

ابتسمت له مجيبة "الله أعلم بذلك.."

تقدم عابد منها قائلاً باعتراض "وهل ستستسلمين لذلك؟.. أنت مدركة أن البحث عن نور مستحيل ونحن لا نعلم في أي اتجاه ذهبت ولا ما الذي جرى لها.. أنت الوحيدة التي تستطيع أن تقودنا للاتجاه الصحيح.."

قالت رُبى بتوتر "لكني كما قلت لك لا أستطيع....."

فقال عابد بحدة "لو كنتِ ستنهزمين بهذه السهولة، لماذا أقنعت نور بالانضمام لهذه الرحلة؟.. لماذا أحضرتها للأرض وأنت لستِ متأكدة مما قد تواجهه عليها؟.."

فركت رُبى كفيها بتوتر، بينما قال عابد بإصرار "لو حدث شيء لها.. لو أصيبت نور بمكروه، فسيكون الذنب ذنبك.."

قال طارق بضيق "كفى يا عابد.."

لكن عابد قال دون أن يلتفت إليه "لماذا؟.. أتخشى أن أؤذي مشاعرها؟.."

خفضت رُبى وجهها قائلة بتوتر "لكنني لم أجبرها على القدوم.. كل ما فعلته هو وضع الخيارات أمامها، وهي من اختار القيام بهذه المخاطرة.."

فقال عابد بجفاء "هذا لا يلغي مسؤوليتك من الأمر.. ولا يزال مصير نور بين يديك.."

نظرت رُبى له وللآخرين ملاحظة نظرات الأمل في عيني أيمن، بينما قال عابد بإصرار "لا تستسلمي الآن بعد أن أوصلتنا لما نحن فيه.. عليك أن تتحملي مسؤولية قراراتك أنت أيضاً.."

دفع طارق عابد في كتفه قائلاً بحدة "كفى.. هذا الإلحاح لن يؤدي لشيء.."

قال أيمن باعتراض "لماذا؟.. مادام بالإمكان التوصل لموقع نور وتسهيل بحثنا، فلم لا تجرب الفتاة ذلك؟.."

قال طارق بضيق "أنت أيضاً؟"

سمعوا رُبى تقول "سأفعل ذلك.."

نظروا إليها، فوجدوها تنظر للسماء المظلمة للحظات قبل أن تأخذ نفساً عميقاً مضيفة "سأحاول فعل ذلك.. لكني لا أضمن أن أحصل على نتيجة بتاتاً.."

لاحظت القلق الشديد في ملامح طارق، لكنها تجاهلته بينما علق عاصم على الأمر "قد أستطيع معاونتك في هذا الأمر.."

التفتت إليه رُبى بتساؤل، فقال "يمكنني باستخدام مزيج من الأعشاب المحلية أن أساعدك على تصفية ذهنك وتحفيز عقلك لاستخدام طاقاته بأفضل شكل ممكن.. اكتشفته عند تعاملي مع بعض المحليين الذين برعوا في التعامل مع الأعشاب والعقاقير الطبية المصنّعة يدوياً.."

ثم نظر إليها مضيفاً "لكن لو لم ترغبي بتجربته، فلا يمكنني الضغط عليك.."

قالت رُبى "بل سأجربه.. سأفعل كل ما بوسعي للاستدلال على موقع نور.."

ثم نهضت لتتبع عاصم نحو منزله الخاص وهي غارقة في مستنقع القلق الذي لم يكد يغادرها منذ فقدانها للوعي في السفينة.. إنها ليست على ما يرام.. تشعر بأن حالة جسدها تسوء يوماً بعد يوم.. فما نتائج ما ستفعله الآن على عقلها وجسدها؟.. لكنها تذكرت صوت نور الملهوف وهي تستمع لعرض رُبى للرحيل في سفينة نوح.. ولأجل ذلك، لم تستطع التخلي عنها الآن.. لا تستحق الفتاة ما يجري لها على الأرض.. ومادام هناك أمل ولو ضئيل بالعثور عليها، فما الذي يمنع أن تقوم بهذه المخاطرة؟..

شعرت رُبى في تلك اللحظة بمن يقبض على معصمها ويوقف سيرها، فرفعت رأسها تتطلع لطارق الذي

نظر لها بقلق واضح وهو يقول "لا تفعلي يا آنسة.. يمكننا البحث عن نور بأنفسنا، وأنا واثق أننا سنعثر عليها.. لكن لا تخاطري بنفسك تحت ضغوط أي أحد.."

ابتسمت رُبى قائلة "إنه مجرد حلم يا طارق.. لا داعي لهذا القلق.."

قال طارق باعتراض "ولكن....."

قاطعته وهي تدير وجهها جانباً "ثم إن هذا قراري، ولا يحق لأحد التدخل فيه.."

وسحبت يدها من قبضته وهي تتبع عاصم بهدوء.. وسرعان ما تبعتهما ميساء القلقة دوماً داخلة المنزل الذي حوّله عاصم إلى مختبر صغير، فوقفت أمام عاصم قائلة بضيق "هل ستفعل هذا حقاً يا أبي؟"

قال عاصم بدهشة "ماذا تعنين؟.. ألا تريدين البحث عن شقيقة أيمن؟"

قالت "ليس هذا ما عنيته.. أتريد تجربة عقارك هذا على رُبى بغض النظر عن حالتها الصحية؟.. ماذا لو كانت هذه التجربة ستضرّ بها أكثر مما ستفيدنا؟"

هدأتها رُبى قائلة "لكنني أريد فعل ذلك.. يقلقني اختفاء نور، ولا يمكنني الجلوس بصمت وأنا أقدر على المشاركة في إنقاذها ولو بقدر ضئيل.."

نظرت لها ميساء قائلة "ماذا عن النتائج؟"

ابتسمت رُبى مجيبة "سأتحملها مهما كانت.. لذلك أرجوك لا تكوني عائقاً في طريقي الآن.."

خفضت ميساء بصرها بضيق، فربت عاصم على كتفها قائلاً "لا أظن أن الأعراض التي ستمر بها رُبى نتيجة هذه التجربة ستكون كبيرة.. قد لا يتجاوز الأمر صداع في الرأس أو رجفة في الجسد أو تسارع دقات القلب.. وهذا ما حدث في تجاربنا السابقة.. فلا تقلقي.."

قالت ميساء بضيق "لا يهمك ما سيجري لرُبى مادام سيوفر هذا لك عينة جديدة للتجربة.. أليس كذلك؟"

فوجئ عاصم بكلماتها القاسية، بينما غادرت ميساء الموقع لتعود للبقية المتحلقين حول النار.. فجلست في موقعها السابق وهي تحدق بالأرض عند قدميها وضيق شديد يعتريها.. لم يكن من عادتها بغض أحد أو الشعور بضيق مما يجري لها.. لكن ما رأته من لامبالاة أبيها، والتي غلفها باهتمامه بما جرى لنور، أكثر مما

تطيقه.. يمكنها أن تؤكد استمتاعه بما يجري من مرأى لهفته لتجربة ذلك العقار على ابنته التي يكاد يجزم أنها في حالة جسدية ضعيفة..

سمعت أحمد القريب يقول "ليس من عادتك انعقاد حاجبيك بهذه الطريقة.. أهذا قلق على ما سيجري لرُبى؟"

غمغمت ميساء بعد لحظة صمت "ربما كنتَ محقاً.. قدومنا للأرض لملاقاة أبينا أكبر خطأ اقترفناه.. ربما كان من الخير لنا لو بقينا على ذكراه السابقة ولم نأتِ لرؤية الواقع الذي آل إليه.."

نظر لها أحمد بعجب وقال "وهل اقتنعت بهذا الآن فقط؟.. متى ستدركين أن كل ما أقوله هو حق؟"

لم تبتسم ميساء لدعابته وهي تنظر لذلك المنزل الذي يحوي في قلبه عاصم ورُبى، وتنهدت قائلة "أتمنى أن تمر هذه التجربة على خير.. لا أريد أن أكره أبي.. حقاً لا أريد ذلك.."

في تلك الأثناء، كانت رُبى تنظر للسائل الذي صبّه عاصم في كوب صغير، وفوجئت بكميته القليلة التي جعلتها تتساءل "أهذا كافٍ لتحقيق هدفنا؟"

أجاب عاصم "هذا أكثر من كافٍ.. أخشى لو حاولنا زيادة الجرعة أن تؤثر عليك تأثيراً سلبياً.."

غمغمت رُبى "ظننت أنك ستحقنني به.."

قال عاصم "لا داعي لذلك.. المفعول سيكون أبطأ عندما تشربينه، وكذلك ستكون الأعراض الجانبية.. لذلك هذا أفضل لك بالتأكيد.."

نظرت رُبى للسائل من جديد بغير اقتناع للحظات، ثم شربت الجرعة كاملة لتفاجأ بطعمه الحاذق.. لكنها لم تعلق وهي تضع الكوب جانباً وتتساءل "والآن ماذا؟"

جلس عاصم جانباً وقال "والآن ننتظر النتيجة.. كيف تأتيك تلك الرؤى سابقاً؟"

أجابت "عادة ما أراها أثناء نومي.. هذا ما يحدث على الأغلب.. أما عندما أكون شديدة الانفعال أو التوتر، فإنني أراها كلمحة سريعة في ذهني حتى وأنا مستيقظة.. هذا لم يحدث لي سابقاً، لكنه تكرر كثيراً منذ جئت الأرض.."

نظر لها عاصم رافعاً حاجبيه وهي تضيف "ربما كان الخوف على شقيقيّ ورفاقي الذين خاضوا هذه الرحلة

بناء على طلبي هو سبب هذا التغيير.. هذا ولّد فيّ انفعالاً وتوتراً قوياً جعل المشاهد تظهر لي أحياناً دون أن أستطيع التحكم بها.. لكن ذلك صاحب صداعاً قوياً كان يعتصر عقلي، وبعدها فقدت تلك القدرة تماماً مع سقوطي فاقدة الوعي دون سبب أعلمه.."

تساءل عاصم "ألا تعرفين سبب انقطاعها؟.. ربما لو كان السبب واضحاً استطعنا علاج هذه المشكلة.."

غمغمت رُبى "ومن قال إنني أريد استعادة تلك القدرة؟.. أنا أفضل حالاً بعودتي لأصبح إنسانة عادية.."

نظر لها عاصم بدهشة قائلاً "كيف يمكنك ذلك؟.. أنت مميزة.. كيف يمكنك أن ترمي بمثل هذا التميز أدراج....."

بدأ صوته يخفت مع كل كلمة يقولها، وبدأت الرؤية تصبح عائمة رغم أن رُبى لم تكن تشعر بالنعاس فعلاً.. ظلت تراقب ما يجري لها بدهشة ووعي كامل حتى وجدت الظلام يسود عقلها، وكأن شخصاً ما أسدل ستارة سوداء قاتمة على عقلها وكتم أفكارها.. ومن زاوية ما، لاحظت ضوءاً خافتاً يزداد لا تراه بعينيها.. بدأ منظر مغاير في جو مغاير لم يسبق لها رؤية مثيل له من قبل يظهر أمامها.. ورغماً عنها، انتفض جسدها شيئاً ما وهي ترى تلك الصور تتلاحق أمام بصرها لفترة طويلة لم تمرّ بها سابقاً.. طال بها الوقت وهي تتوتر مع مرأى تلك المناظر التي تظهر أمام عينيها لدقائق معدودة ثم تعود من نقطة البداية وكأن شخصاً ما أعاد اللقطة من جديد.. ظلت ترى ذات اللقطات مراراً وتكراراً بشكل سبب لها قلقاً وتوتراً وهي تقبض على يديها بشدة.. وتساءلت في نفسها.. كم مرة يجب أن ترى تلك اللقطات قبل أن تستيقظ لتنذر البقية مما سيجري؟..

****

بعد أن طال جلوسها خارجاً وازداد قلقها على شقيقتها، نهضت ميساء من موقعها عائدة للمنزل الذي تركت فيه رُبى وعاصم لترى ما حدث لتلك التجربة.. وفور اقترابها من باب المنزل استطاعت أن تسمع تنفس رُبى المتلاحق ودمدمتها بكلمات لا تفهمها.. أسرعت ميساء داخلة من الباب لتجد رُبى جالسة على

أحد المقاعد في جانب المكان والعرق يسيل على جبينها وجسدها يتوتر بوضوح دون أن تفتح عينيها.. بدت لها كمن يقاوم شيئاً ما، لكن ما أقلقها وأثار ضيقها كانت رؤية ذلك الطوق الذي يحيط برأسها والذي يتصل بجهاز قريب وقف قربه عاصم يراقب ما يدونه على شاشته.. أسرعت ميساء إلى رُبى متسائلة بتوتر "ما الذي يجري لها؟"

أجاب عاصم "إنها تمرّ بتلك الأحلام أو النبوءات التي تراها دوماً.. ويبدو أن الحلم هذه المرة ليس بالسلاسة التي نرجوها.."

نظرت ميساء لرُبى بقلق، ثم مدت يدها لذلك الطوق قائلة "ألن يؤذيها هذا؟.. أبعده عن رأسها.."

هتف بها عاصم "لا تفعلي.."

نظرت له بصدمة، فيما أضاف "هذا جهاز يقيس ذبذبات عقلها في هذه اللحظة.. من المهم انتظار انتهاء هذا الحلم حتى نستطيع معرفة التغيرات التي تطرأ على عقلها قبل، وأثناء، وبعد هذه التجربة.. عندها ستكون لدينا فرصة نادرة لـ....."

صاحت ميساء "أأنت مجنون؟"

نظر لها عاصم باستنكار وميساء تضيف بعصبية "أهذا كل ما تفكر فيه؟.. ألا يهمك ما يجري لها؟.. ألا ترى العذاب على وجهها؟"

قال عاصم بتقطيبة "كيف تحدثيني بهذه الطريقة؟"

قالت ميساء بحدة "وكيف تتوقع مني أن أخاطبك؟.. إنك تتعامل مع ابنتك التي لم ترها لسنوات عديدة بقسوة لم أتخيلها قط.."

قال عاصم بضيق "لست قاسياً كما يحلو لك وصفي، وأنا قلق على رُبى بالفعل.. لكن هذه فرصة لن تتكرر.. وليس من حقي، ولا من حق أي شخص آخر، أن نحجب مثل هذه المعلومات النادرة التي قد تفيد الكثيرين.."

قالت ميساء بحنق "وماذا عن ابنتك؟.. أنت حتى لم تحاول معرفة المرض الذي يؤذي جسدها والذي ترفض هي الإفصاح عنه.."

أجاب عاصم "سأعرفه بالتأكيد.. لكن ما بأيدينا هام ومستعجل.. وبعد أن ننتهي من أمر تلك الفتاة سنبحث أمر رُبى ونعرف مرضها بالتأكيد.."

ثم اقترب من رُبى التي كانت تهذي في نومها بكلام غير مفهوم، وسألها "رُبى.. أين ذهبت نور؟.. من اختطفها؟"

ظلت رُبى تهذي بشكل محموم وهي تدير رأسها ذات اليمين وذات اليسار بانفعال دون أن تفتح عينيها.. فأعاد عاصم تساؤله بصوت أكثر وضوحاً وإلحاح أكبر، عندها هزت رُبى رأسها بقوة وهي تقول "لا.. لا.. لا تذهبي هناك.. لا تذهبي هناك.."

لمس عاصم كتفها وهزها قليلاً قائلاً "أين نور؟.. أين هي الآن؟"

سمعها تقول من بين هذيانها "المقابر.. آلاف المقابر في ذلك الوادي.. لمن هذه القبور؟.."

نظر لها باهتمام وهي تقول عابسة "نور.. لا تذهبي لتلك المدينة.. لا تدخلي تلك البناية.. رباه.. اهربي يا نور.. اهربي قبل أن ينتهي كل شيء.."

نظرت ميساء لعاصم متسائلة "أتعرف تلك المدينة التي تتحدث عنها رُبى؟"

أجاب عاصم مفكراً "هناك الكثير من المدن حولنا على مسافات متفاوتة.. وأشك أن تقدر رُبى على تحديد أحدها فهي لا تعرف أسماءها القديمة.. لكن ذكرها للمقابر هذا يوحي لي بموقع تلك المدينة.. فهناك وادٍ وحيد في السلسلة الجبلية القريبة حيث تم دفن الآلاف فيها منذ زمن طويل.. ربما كانت هذه هي المقابر التي رأتها رُبى.."

تساءلت ميساء "والمدينة؟"

قال عاصم "هناك مدينة قريبة من تلك المقابر تقع في قلب السلسلة الجبلية تلك.. أظنها هي المقصودة.."

ثم مال نحو رُبى قائلاً "رُبى.. أين ذهبت نور في تلك المدينة؟.. في أي بناية هي موجودة؟"

عبست رُبى بشدة وهي تعض شفتها السفلى بمعاناة شديدة، ثم قالت بصوت متعب "بناية طويلة.. ذات واجهات زجاجية محطمة بالكامل.. إنها الأطول في المنطقة.. لكن ذلك لن يكفي في مواجهة ما سيجري.. يجب ألا تدخل نور تلك المدينة.. يجب ألا تدخلها.."

نظر عاصم لرُبى مقطباً، ثم حاول إيقاظها على أمل الحصول على معلومات أكثر تفصيلاً لما رأته.. ولما عجز عن ذلك التفت إلى ميساء قائلاً "هذا كل ما سنحصل عليه كما يبدو.. سأذهب لإبلاغ الآخرين.."

اقتربت ميساء من رُبى تطمئن عليها بقلق وتحاول إيقاظها بينما استدار عاصم مغادراً المنزل نحو الجماعة المتحلقة حول النيران وسط المعسكر.. وهناك، قفز أيمن واقفاً وتساءل بلهفة "هل علمَت أي شيء عن نور؟"

أجاب عاصم "أجل، رغم أنه وصف عائم كثيراً لكنه يفي بالغرض.."

وأخبره بما سمعه من رُبى بكلمات موجزة وأيمن، والبقية، يستمعون له باهتمام.. وبعد أن أخبرهم بما استنتجه من هذا الوصف، تساءل عابد بدهشة "ما الذي ذهب بالفتاة هناك؟"

أجاب أيمن مفكراً "أليست تلك المدينة إحدى المحطات التي يتخذها رجال القرية أثناء رحيلهم للجنوب؟.. إذاً أحد رجال القرية هو من اختطفها وأبعدها أثناء وقوعنا في السجن.."

ثم قال بقلق شديد "علينا اللحاق بهم بسرعة قبل أن يؤذيها.. وقبل أن يتجاوزوا تلك المدينة فلا نعلم بعدها أين سذهب بها.."

قال عاصم "أقترح أن تبدؤوا رحلتكم فجر الغد.."

صاح أيمن باعتراض "لا يمكن.. لقد اختفت شقيقتي يوماً كاملاً.. أتظن أنني أستطيع الراحة قبل الانطلاق للبحث عنها؟"

قال عاصم بحزم " هذا أفضل للجميع.. أنت مدرك أن العديد من المحليين يقومون برحلاتهم نحو الجنوب عابرين تلك السلسلة الجبلية.. ورحيلكم في الليل وباستخدام أنوار المركبة فإنكم ستكونون هدفاً سهلاً للصوص منهم.. وهذا لن يفيد الفتاة في شيء.. عليكم الاطمئنان لا ستعدادات المركبة التي ستحملكم في تلك الرحلة الطويلة وانتظار النهار لتنطلقوا وأنتم مطمئنون أكثر.. من سيذهب في هذه المهمة؟.."

قال أيمن "أنا سأذهب طبعاً.. أريد أن يصحبني شخصان أو ثلاثة لمعاونتي في استعادة نور.."

قال طارق "أنا سأذهب أيضاً.."

علق أيمن "جيد.. نريد شخصاً أو شخصين آخرين فلا نعلم كم سنواجه قبل أن نتمكن من استعادة نور من مختطفيها.."

تقدم عابد منهم قائلاً "أنا سأذهب.."

نظروا له بدهشة، ثم قال نوح بقلق "لكنك مصاب.. الأفضل لك البقاء والحصول على الرعاية الملائمة لعلاج جرح ظهرك.."

علق عابد "لكني بخير.. وأنا أصرّ على الذهاب.."

فقال طارق "لا.. لا نريد أن تفقد الوعي مرة أخرى ونحن بعيدون عن المعسكر.. سيكون من الصعب العناية بك والبحث عن نور في آن واحد.."

قال عابد بضيق "وهل تظنني أنتظر رعاية منك؟.."

فقال طارق بحدة "وما أهمية قدومك؟ ألا يكفي وجود أيمن ووجودي لننقذها؟.. سنصطحب معنا شخصين آخرين لمعاونتنا، وهذا أكثر من اللازم بالفعل.."

قال عابد بحنق "لا يحق لك تقرير ذلك.. سأذهب في هذه المهمة رغبت بذلك أم أبيت.."

صاح طارق "لماذا؟.. لا أفهم كيف يمكنك الإصرار على هذا بالحالة التي أنت فيها.. ألمَ ترَ وجهك في المرآة؟.. أنا واثق أنك هربت من العيادة فور استيقاظك دون أن تتيح لجسدك أن يتعافى.."

فقال عابد بعناد "لا شأن لك.. يمكنك البقاء لو لم يكن وجودي يعجبك.."

نظروا لبعضهم بصمت، ثم التفت أيمن إلى عاصم قائلاً "سأقوم بتعيين الموقع على جهاز الملاحة الخاص بأحد المركبات.. وسننطلق فور طلوع شمس الغد.."

لاحظ طارق أن عابد قد جلس جانباً وهو يستخرج إحدى لفافات التبغ ويديرها بأصابعه بعصبية دون أن يشعلها، فاقترب منه وتساءل بحيرة "لماذا تصرّ على الرحيل معنا يا عابد؟.. أيهمك أمر نور لهذه الدرجة؟"

زفر عابد بضيق شديد، ثم قال أخيراً "لقد كنتُ السبب فيما حدث لها.."

نظر له طارق بدهشة وقال "كيف ذلك؟.. أنت حاولت إنقاذها بكل ما تملك.."

قال عابد بحنق "ربما.. لكنها اختُطفت بسبب محاولتي الخرقاء تلك.. أنا مسؤول عما جرى لها ولا يمكن

أن أرتاح حتى أذهب للبحث عنها بنفسي.."

غمغم طارق "هذا جنون.."

فقال عابد "قل ما بدا لك.."

تنهد طارق مفكراً للحظات، ثم قال "سنرحل مع شروق شمس الغد بإذن الله تعالى.. خذ قسطاً من الراحة حتى ذلك الوقت.. تكاد تسقط على وجهك من التعب.."

هز عابد رأسه موافقاً وهو يزفر بتعب، عندما رأوا ميساء تسرع نحوهم صائحة "أبي.. رُبى....."

التفتوا إليها وعاصم يسأل مقطباً "ما بالها رُبى؟"

تشبثت بذراعه قائلة بشحوب "إنها لا تستيقظ.. حاولت إيقاظها عدة مرات دون أن أفلح في ذلك.. ما الذي جرى لها؟.."

رفع عاصم حاجبيه للحظة، ثم قال بسرعة "لا بد أن ذلك العقار يسبب استغراقها في نوم عميق.. ستستيقظ من نومها بعد أن يزول تأثيره بالتأكيد.."

نظرت له ميساء بقلق وغير اقتناع، بينما التفت عاصم للبقية قائلاً "تأكدوا من استعداداتكم قبل الرحيل، وخذوا ما يكفيكم من الراحة.."

وغادر عائداً للمنزل تتبعه ميساء وأحمد بينما وقف طارق يراقبهم بقلق شديد.. لكنه كان يدرك أن وجوده لا صفة له في تلك اللحظات، وربما تسبب استياء عاصم منه.. لذلك فضّل الابتعاد في تلك اللحظة وهو يقنع نفسه أن رُبى ستكون بخير بالتأكيد.. ما كانت لتقوم بتلك التجربة لو شكّت بأنها ستتسبب لها بأي ضرر.. ورغم عدم اقتناعه بهذه الفكرة، إلا أنه حاول أن يقنع نفسه بها بإلحاح كبير..

****

تلك الليلة، ورغم كل مخططاتها، فإن نور غرقت في النوم فور أن جلست قرب الشجرة التي ربط الرجل يدها في جذعها.. كان المجهود الذي بذلته، وقلة النوم في الأيام الماضية، قد تضافرت لتجعل نومها ثقيلاً

جداً منذ غروب الشمس حتى فجر اليوم التالي.. لكن ما أيقظها من نومها فجأة، والفجر لم ينبلج بعد، كان الجوع الشديد الذي عصر معدتها عصراً.. اعتدلت نور جالسة تتلفت حولها لتجد الموقع ساكناً والنيران التي كانت مشتعلة في بدء تلك الليلة قد انطفأ معظمها والجماعة المحدودة التي شاركتهم تلك الرحلة غارقة في النوم..

نظرت نور للقيد في يديها وهي تفكر في إمكانية الهرب هذه اللحظة.. إنها لا تبعد الكثير عن ذلك الكهف وعن القرية القريبة.. لو أمكنها الهرب الآن فستستغرق بعض الوقت للوصول إليها لكن هذا لن يكون صعباً.. حاولت جهدها تخليص يدها من ذلك الحبل الغليظ، وقامت بمختلف المحاولات وهي تتلفت حولها بقلق حتى تمكنت من جذب يدها من القيد الذي لم يكن ضيقاً على رسغها.. ورغم نجاحها، فإن الحبل الخشن قد جرح يدها شيئاً ما أثناء المحاولة، لكنها تجاهلته وهي تتلفت حولها بحذر قبل أن تنهض من موقعها وتبتعد بخفة محاذرة إصدار صوت يوقظ مختطفها.. وقبل أن تبتعد كثيراً، سمعت صوت الفتاة تقول "إلى أين أنت ذاهبة؟"

نظرت لها نور بصدمة، ثم أدركت أن غياب عيني الفتاة قد جعلها تظن أنها نائمة كما كان حال البقية.. استدارت نور بسرعة وركضت مبتعدة بخطوات خفيفة دون أن تجيب تساؤل الفتاة.. كان الجوع ينهكها بسرعة والتعب السابق يجعل أي مجهود تقوم به صعباً.. لكنها لم تتوانَ عن استغلال هذه الفرصة للهرب.. وهي فرصة تتضاءل كلما ابتعدت عن موقع رفاقها مع كل يوم يمضي..

شعرت نور، بعد عدة أمتار، بخطوات تلاحقها بسرعة وخفة.. ولما ألقت نظرة سريعة خلفها خفق قلبها بقوة مع مرأى مختطفها الذي نبهته الفتاة لهروبها وركض محاولاً اللحاق بها.. حاولت نور أن تزيد من سرعتها وتهرب مستغلة صغر جسدها وخفّتها مقارنة به.. وبعد مسافة قصيرة، وجدت أنه قد رمى صخرة متوسطة الحجم أصابت ساقها بضربة مؤلمة وجعلتها تتعثر فتسقط أرضاً سقطة مؤلمة والأرض الحجرية تتسبب بعدة سجحات في ذراعيها وساقيها..

استدارت نور خلفاً متطلعة للرجل الذي اقترب منها بعينين متسعتين وقد أدركت أن فرصتها قد تبددت في لحظات قصيرة.. وجدته يقترب قائلاً بغضب وأنفاس لاهثة "أتجرؤين على الهرب بعد تحذيري

السابق؟.. يا لك من حمقاء.."

قالت نور بتوتر وقلق "كيف تتوقع مني أن أرضخ لك وأنت اختطفتني عنوة؟.. لا يمكنني أن أصمت على ما تنتويه لي أبداً.."

ركع الرجل قربها وقبض على يدها اليمنى وهو يقول بنظرات جامدة "يبدو أنك لم تأخذي تحذيري على محمل الجد.."

نظرت له نور بتوجس وهي تحاول جذب يدها، عندما وجدته يثني أصابعها بقوة وسرعة في الاتجاه المعاكس حتى شعرت بتهشم عظامها وسمعت الصوت بوضوح.. فلم تملك نور مع الألم المفاجئ في يدها أن أطلقت صيحة متألمة وهي تحاول جذب يدها من قبضته.. لكنه لم يفلتها وهو يقول لها بلهجة شديدة "إن حاولت الهرب مرة أخرى، فلن أتردد في كسر إحدى ساقيك.. أفهمت؟"

أفلت يدها فابتعدت نور عنه خطوات وهي تبكي وتمسك يدها منثنية على نفسها من الألم.. شعرت بصداع قوي مع نبض مؤلم بسبب ذلك التصرف العنيف الذي فاجأها، ولكنها حاولت كتم ألمها بشدة خشية من ردة فعل الرجل على صياحها المتألم..

وجدت الرجل ينهضها بقوة ويجذبها خلفه غير عابئ بألمها عائداً لموقعهم السابق حيث دفعها قرب الشجرة من جديد.. ومع صوت بكاء نور الواضح، تحدثت الفتاة بشيء من العصبية مع أبيها بلغتها، ثم اقتربت من نور متلمسة طريقها وقالت بإشفاق "أأنت بخير؟.."

دفعتها نور بعيداً وهي تشعر ببغض شديد لها، وظلت ممسكة يدها اليمنى بيدها اليسرى منثنية على نفسها بانتظار أن يهدأ الألم الذي لم يخفت للحظة ودموعها تسيل على خديها بغزارة.. فقالت الفتاة بحزن "لماذا؟"

صاحت نور بألم "بل لماذا تفعلون بي هذا؟.. لماذا تصرّ على إيذائي بهذه الصورة؟.. ألم يكن من الطبيعي أن أحاول الهرب ممن اختطفني؟"

وجدت الرجل يجذبها من عنق قميصها حتى أوقفها وجرّها خلفه قائلاً "يبدو أنك لم تفهمي الأمر بعد.."

حاولت نور مقاومته دون أن تتمكن من تخليص نفسها من قبضته.. وبعد أن ارتقى جزءاً من ذلك الجبل، وجدت أنهما أصبحا يشرفان على وادٍ على شيء من الاتساع تغزوه الحشائش بشكل كامل.. وفي ذلك

الوادي، وعلى امتداده الواسع، رأت نور مئات وآلاف القبور التي اصطفت بشكل متوازٍ وكل قبر يحمل علامة تميزه.. بدأ الأمر بقبور تحمل شواهد حجرية، ثم بدأ الترتيب يختل بشكل واضح والشواهد تصبح مجرد ألواحٍ خشبية عليها بعض الكتابة أو تخلو من أي علامة مميزة.. وإزاء ذلك المنظر، قال الرجل "كم بشرياً تعتقدين أنه مات أبكر من المعتاد بسبب الظروف القاسية التي نعيش فيها أو بسبب تشوهات خطيرة لم يمكن معها أن تستمر حياته دون مصاعب؟.. كيف تتوقعين من فتاة صغيرة لا تكاد ترى ما أمامها أن تعيش في هذا العالم القاسي؟.. لو أصابني أي مكروه، فلن تطول حياتها بعدي كثيراً.. نحن الإثنان ندرك ذلك، لذلك نسعى لتحقيق هذا الحلم بإعادة البصر إليها.. ولا بد أن حياتكم في ذلك العالم المتقدم أفضل من الحياة على هذه الأرض.. فلو تمكنت من تأمين حياتها ومعالجتها هناك، عندها لا يهمني ما سيحدث لي بعدها.."

وتخلى عنها بينما وقفت نور تتطلع للقبور المصطفة أمامها بصدمة وأسىً ودموعها لا تكف عن الانهمار.. كيف يمكن لها أن تكون وسيلة لجعل حياتهما أفضل؟.. إنها مجرد نكرة، ودورية الأمن لن تعبأ لما سيجري لها بتاتاً.. بل إنها تشك أن أحداً سيسعى خلفها أو يحاول الوصول إليها وإنقاذها مما هي فيه.. ولما قال لها الرجل "هل فهمت ما أحاول فعله الآن؟"

خفضت نور بصرها قائلة بصوت مرير "أنت واهم.. لا أحد يعبأ لأمري، ولن يقايض أحدهم حياتي ولو بعملة واحدة.. هذه خطة فاشلة منذ اخترتني أنا لأكون وسيلتك لتحقيقها.."

نظر لها الرجل بصمت، ثم جذبها عائداً لموضع ابنته وقال "لا يمكن أن تكون خطتي فاشلة أبداً.. وسترين ذلك.."

قبضت نور على يدها اليمنى التي تنبض بألم شديد وهي تعض شفتها بصمت.. يبدو أن شقاءها على هذا الكوكب سيطول لأمد بعيد.. ولم تعُد ترى أي بصيص أمل فيما حولها..

****

الفصل التاسع عشر

قبل طلوع شمس اليوم التالي، تجمع الثلاثة، طارق وأيمن وعابد، قرب إحدى المركبات التي تم تجهيزها لهذه المهمة.. فتساءل طارق متأملاً ملامح عابد "أأنت أفضل حالاً اليوم؟.. لم يمضِ يوم كامل منذ فقدت وعيك.."

أجاب عابد "لا داعي لهذا القلق.. أنا بخير.. لا أحتاج وقتاً طويلاً لأستعيد صحتي.."

علق طارق قائلاً "أتمنى أن يكون ما تقوله صحيحاً.."

كان أيمن قد استطاع معرفة الموقع الذي ذكرته رُبى في أحلامها، وقام بتحديده على جهاز الملاحة في المركبة استعداداً للرحلة .. ثم قال لعاصم الذي وقف قريباً مع أحد رجاله "أنا واثق أن هذا هو الموقع الصحيح.. لكن أتظن أنها ستكون هناك حقاً؟.."

أجاب عاصم "لنأمل ذلك.. والآن، تذكر أن محاولتكم استعادة الفتاة قد تجبركم على مواجهة بعض المحليين، خاصة لو عثرتم عليها في تلك المدينة.. كل ما أريده منكم أن تتجنبوا مثل تلك المواجهات قدر استطاعتكم.. لا نريد إيذاءهم ولا نريد لهم أن يؤذوكم.."

هز أيمن رأسه موافقاً وعلق "كل ما نريده هو استعادة نور.."

وصعد المركبة مع عابد، بينما وقف طارق قرب عاصم وسأله بعد تردد كبير "كيف هي الآنسة؟.. هل استيقظت؟"

نظر له عاصم بصمت للحظات، ثم ربت على كتفه قائلاً "لا تقلق.. هي بخير.. غادروا دون إبطاء وابقوا على تواصل معنا قدر الإمكان.."

لم يتمكن طارق من الإلحاح في تساؤلاته، ولم يشعر بالراحة لجواب عاصم العائم.. لكن لم يكن بيده فعل شيء آخر، فصعد المركبة بدوره وأيمن يتحرك بها مغادراً الهضبة التي يستقر عليها معسكر الفرقة العلمية.. وبعد ابتعاد المركبة، لاحظ عاصم اقتراب نوح يتبعه مازن.. فعلق عاصم "ما الذي أيقظكم باكراً هذا

اليوم؟"

قال نوح "نحن نريد العودة لمجموعة ميرا فقد طال بقاؤنا هنا.. للأسف سفينتي، وهي الوحيدة الصالحة للعمل على الأرض، قد تعرضت لبعض الأعطال.. لذلك أرغب بأن تأخذونني إليها حتى أتمكن من إصلاحها والعودة بها للمعسكر على أمل أن نرحل فور عودة نور مع البقية.."

قال عاصم مفكراً "للأسف هذه السفينة هي الوحيدة التي بقيت بعد دمار سفينتنا على أيدي رجال الأمن الأغبياء.. برحيلكم سنغدو منقطعين عن العالم المتحضر تماماً.."

قال نوح "لكن مجلس الأمن سيرسل سفينة أخرى بالتأكيد.. أليس كذلك؟"

غمغم عاصم "لن يكون هذا قبل شهرين أو ثلاثة.."

فقال نوح بإلحاح "لكن هذه هي وسيلتنا الوحيدة.. لا يمكننا البقاء أكثر مما فعلنا، وقد واجهنا مخاطر تفوق ما توقعناه في هذه الرحلة.. لا يمكنكم منعنا الآن.. كما أننا بحاجة لبعض المؤونة منكم حتى نجتاز المجموعة الشمسية ونعبر الثقب الفضائي إلى مجموعة ميرا.."

صمت عاصم وهو مطرق بتفكير، بينما غمغم الرجل القريب منه بقلق "لا أحب فكرة أن تنقص مواردنا بعد كل ما جرى مع السكان المحليين.. الشتاء قادم، ولا نعلم ما الذي سيحدث لنا فيه.."

فقال نوح بحزم "لو كنت قلقاً من البقاء هنا، يمكننا اصطحابك معنا للعالم الجديد.."

اعترض الرجل بشيء من الحدة "لقد فقدنا الكثير بالفعل لنخلصكم من أيدي المحليين.. وأنتم تطالبوننا بالمزيد؟"

قطب نوح قائلاً بحدة بدورة "لقد سقط رفاقي في أيديهم بسبب صراع لا دخل لهم به.. أنتم من استثار غضبة المحليين، وهم تلقوا جزاء ذلك رغماً عنهم.."

صمت الرجل، بينما تعلقت الأبصار بعاصم الذي ظل على صمته يقلب الخيارات في عقله..ثم قال "أظن أن رحيلهم بالسفينة خيار طبيعي.. يبقى أمر المؤونة ونحن في وضع حرج إزاءها مع الشتاء الذي سيحل علينا قريباً.."

نظر إليه نوح بقلق، بينما قال الرجل "كيف سنتدبر أمورنا لو تنازلنا عما نملكه بالكاد؟"

أجاب عاصم بحزم "يمكننا أن نتدبر أمورنا بموارد الأرض مهما كانت قليلة.. يمكننا أن نطلب منهم إبلاغ الهيئة العليا للعلوم بما جرى لنا وبحاجتنا الماسة لتعويض ما فقدناه.."

ابتسم نوح معلقاً "وأنا أعدكم بإبلاغ الهيئة مهما كلفني ذلك.."

ثم ربت على كتف مازن القريب قائلاً "كما أنني أرجو منك السماح لهذا الشاب بالعودة معي.. لا يمكنني....."

قاطعه مازن قائلاً بحزم "لكنني لست راحلاً يا عماه.."

نظر له نوح باستنكار، فقال مازن "لقد أتيت إلى الأرض بإرادتي منذ خمس سنوات، وسأبقى فيها حتى أنهي مهمتي وتعود الفرقة جميعها لمجموعة ميرا.."

قال نوح بعصبية "وماذا عن الشتاء القادم؟.. ماذا لو قضيت نحبك هنا؟"

ابتسم مازن معلقاً "نحن نتخذ احتياطاتنا بالنسبة للشتاء.. أما بالنسبة للموت والحياة فهما ليسا بيديّ أو بيد شخص آخر.."

خفض نوح بصره بضيق إنما كف عن الاعتراض، فأضاف عاصم "نحن ننوي تغيير موقعنا لنكون أكثر حصانة ضد العواصف الشتوية القوية.. بعد رحيل السكان المحليين للجنوب حيث الطبيعة أكثر دفئاً من هذه البقاع، فإن ذلك الكهف يخلو بشكل تام من أي بشري.. لذلك، قررنا الانتقال لذلك الكهف وقضاء الشتاء فيه حتى عودة المحليين مع قدوم الصيف.. لا نعلم كم سيدوم هذا، لكنه سيكون أكثر دفئاً وثباتاً من هذه القرية الصغيرة.."

ونظر لنوح مضيفاً "لذلك، لا داعي للقلق بتاتاً.."

زفر نوح بشيء من الضيق، ثم نظر لعاصم قائلاً "لا بأس.. أريدكم أن تأخذوني لموقع سفينتي بأسرع ما يمكن.. سأحاول إصلاحها في أقرب وقت قبل العودة للمعسكر والرحيل بها من الأرض.."

ثم أضاف "ماذا عن رجال الأمن؟.. ما الذي حدث لهم؟"

أجاب عاصم "هناك من قضى نحبه في ذلك الانفجار، لكن أغلبهم مصاب بإصابات تتراوح بين خطيرة وخفيفة.. لقد أقام بعض من أرسلتهم من رجالي معسكراً مؤقتاً قرب حطام السفينة للعناية بالمصابين

منهم قبل أن نتمكن من نقلهم لمعسكرنا هذا.."

تساءل نوح "هل سيرحلون معنا؟"

أجاب عاصم "يمكنهم الانتظار حتى قدوم سفينة أخرى من سفن رجال الأمن.. إلا لو كنتم تفضلون انتظارهم لعدة أيام.."

غمغم نوح بشيء من الارتياح "لا.. نفضّل الرحيل في أقرب وقت.. كما أن قدومهم معنا قد يثير عدة مشاكل بعد كل ما جرى لنا معهم، وقد يحاولون احتجازنا بتهمة مخالفة القوانين.. فنحن لا نأمنهم بتاتاً.."

فقال عاصم لمازن "اطلب من سام أن يأخذه بإحدى المركبات إلى موقع سفينته ثم يعود إلينا بأسرع ما يستطيع.. لدينا الكثير من الأمور المعلقة التي تأخرت بسبب الأحداث الأخيرة.."

ونظر لنوح مضيفاً "هل ستكون بخير وحيداً هناك؟"

علق مازن "سأذهب معه لمعاونته في عمله.."

هز عاصم رأسه موافقاً، ثم استدار عائداً للمنزل الذي أجرى فيه تجربة اليوم السابق وهو يزفر مغمغماً "ما تزال لدينا مسألة رُبى.. أتمنى ألا أكون قد ارتكبت ذنباً جديداً لتلك الفتاة بهذه التجربة.."

وعند دخوله المنزل، وعلى سرير جانبي، رأى رُبى التي تستلقي بصمت وكأنها غارقة في نوم عميق، وقربها جلست ميساء بغمّ واضح وأحمد يقف في جانب المكان قائلاً بضيق "لماذا خاضت تلك التجربة دون أن تعرف عواقبها؟.. هذا جنون.."

فقال عاصم "لا تقلق.. سأعيد رُبى لوعيها مهما تطلب مني ذلك.."

هبّت ميساء واقفة وهي تصيح بعصبية "أتريد أن تجري المزيد من التجارب عليها؟.. من أي شيء خلقت أنت؟.."

قال عاصم بصرامة "أريد أن أعيد لها وعيها.. أم أنك لا ترغبين بهذا؟.."

قالت ميساء بغضب "أريد أن تستعيد وعيها بأسرع ما يمكن.. لكن لا أريدها أن تخضع لوسائلك أنت.. اتركها كما هي وأنا واثقة بأنها ستكون أفضل حالاً بدون معونتك.."

قال عاصم بشيء من الحدة "كيف تحدثينني بهذا الأسلوب؟.."

أشاحت ميساء بوجهها جانباً، ثم قالت بصوت غاضب "لو حدث لرُبى أي سوء، فلن أسامحك بتاتاً.. أنت السبب في ما جرى لها سابقاً، وأنت سبب ما تعانيه الآن.."

ونظرت له ببغض ظاهر مكررة "لن أسامحك أبداً يا أبي.."

فقال عاصم بضيق "أتظنين أنني لا أعبأ برُبى حقاً؟.. أليست ابنتي؟"

أشاحت ميساء بوجهها بصمت، فزفر عاصم وهو عازف عن جدالها، ثم نظر لأحمد قائلاً "لو احتجتم معونتي، فلا تتردد في مناداتي.."

وغادر بصمت تاركاً ميساء تقف وهي تشدّ قبضة يديها بقوة، ثم همست بغضب "لقد أخطأنا بقدومنا للأرض حقاً.. ليتني لم أره مرة أخرى.."

ربت أحمد على كتفها قائلاً "لا تفعلي هذا يا ميساء.. أنت فتاة طيبة، فلا تجعلي خوفك على رُبى يؤجج كرهك لأبينا مهما كان سبب ما يجري لها.."

زفرت ميساء وهي تجلس قرب سرير رُبى دون أن تعلق، بينما مسح أحمد على شعر رُبى الناعم مضيفاً "ستكون بخير.. لابد أن تكون كذلك.."

****

بعد رحيل أيمن والبقية للبحث عن نور بوقت قصير، كان نوح ومعه مازن يرحلان باستخدام مركبة أخرى من المركبات التابعة للفرقة العلمية، يقودها ذلك الرجل الذي يدعى سام.. وجّه سام المركبة نحو موقع سفينة نوح التي تركوها في تلك الساحة الصخرية منذ هبوطهم على الأرض لأول مرة.. ورغم الهدوء الذي ساد بعد تلك الأحداث، فإن نوح ظل على قلقه وهو يقول "أتمنى ألا يحاول السكان المحليون الهجوم علينا عند اقتراب المركبة من تلك القرية.. لا أريد أن نتواجه معهم الآن.."

قال مازن "لا تقلق.. لا أظنهم سيفعلون ذلك.."

علق سام قائلاً "أنا معك في هذا.. لا أظنهم سيستهدفوننا.. هم يرغبون بالحصول على الموارد التي توفرها

لنا الهيئة كل فترة، ولذلك يستهدفون دورية مجلس الأمن بغية الحصول على ما يمكنهم سرقته.."

لم يزايل القلق نوح طوال الوقت الذي استلزمهم للوصول للسفينة.. وهناك، أوقف سام المركبة قريباً وهبط الثلاثة إلى السفينة التي وقفت بهدوء وصمت كعادتها رغم الأحداث الحافلة التي حدثت قريباً منها.. فأسرع نوح إلى السفينة يتبعه مازن الذي علق قائلاً "لا أصدق أنك قمت بهذه الرحلة الطويلة باستخدام سفينتك القديمة هذه.."

لم يعلق نوح وهو يدخل السفينة ويتفحصها بتدقيق.. ثم أطلق زفرة ارتياح قائلاً "يبدو أن أحداً لم يدخل السفينة ويعبث بها.. والآن بقي أمر تلك الأعطال وإن كانت أجهزة الصيانة قادرة على إصلاحها.."

تساءل مازن وهو يتبعه إلى غرفة القيادة "هل ستتمكن من العودة بها للمعسكر؟.."

قال نوح "لن يمكنني التحرك بها قبل أن أتفحصها وأتأكد من الأعطال التي أصابتها.. فور وصولنا للأرض فوجئنا باقتراب سفينة مجلس الأمن منا ولم أتمكن من معرفة ما أصاب السفينة بدقة.."

انشغل نوح على الفور بالسفينة وقام بتشغيل محركاتها ليطمئن أنها لم تتضرر من ذلك السقوط.. ولما وجدها تعمل بأفضل ما يمكن، قال بارتياح "على الأقل، لن أحمل همّ المحركات.. أي عطل آخر يمكن إصلاحه بقليل من الجهد.."

فقال سام الذي وقف يراقب عمله "إذن، سأرحل بالمركبة عائداً للمعسكر.. يمكنكم الاتصال بنا في حالة احتياجكم لأي معونة.."

شكره مازن وراقب ابتعاده، ثم عاد ببصره لنوح الذي قام بتشغيل أجهزة الفحص لمعرفة الأضرار في السفينة.. وعلق "لم أتوقع أن تقوم بهذه الرحلة الخطرة بحثاً عني.. لقد صدمت برؤيتك تماماً.."

غمغم نوح وهو منشغل بأجهزته "لقد حدث هذا بترتيب من الآنسة دون أن أعرف عنه شيئاً.. فوجئت عندما أخبرتني بوجودك على الأرض، وبأنها سهلت لي العثور عليك ولقاءك.."

ونظر له مبتسماً وهو يضيف "أنا مدين لها بذلك.. وأنا واثق أن بقية أفراد الفريق يشعرون بالأمر ذاته.."

قال مازن "إذن، سترحلون فور عثورهم على الفتاة الصغيرة؟.. أتظن أنهم سيعثرون عليها؟"

أجاب نوح "من تجربتي الضئيلة مع الآنسة، فإن توقعاتها تكون صائبة بنسبة كبيرة.. وفوق هذا، لا نملك

إلا الرجاء بأن تكون الصغيرة نور بخير وأن تعود إلينا سالمة.."

عاد مازن يتساءل "وإن لم يعثروا عليها.. هل سترحلون رغم ذلك؟"

نظر له نوح بقلق شديد، ثم زفر مغمغماً "لنترك هذا لوقته.."

وانغمس مع أجهزته محاولاً وأد هذا القلق الذي تزايد في صدره.. لو لم يعثروا على نور، هل سيقدر على الرحيل وتركها في هذا العالم المميت؟.. هل يملك الشجاعة ليفعل هذا حقاً؟..

****

في وقت آخر من ذلك اليوم، بعد نصف يوم من السير المتواصل وقبل أن تزول الشمس من كبد السماء، وجدت نور أن الجبال المتطاولة قد انفرجت عن مدينة كبيرة احتلت أحد الوديان الشاسعة في قلب تلك السلسلة الجبلية.. فوسط تلك الجبال، وقريباً من ثلاث قمم عالية يغزو الثلج جزءاً منها، امتدت مدينة كبيرة متحدية الموقع القاسي والجبال الشامخة، وفردت أجزاءها في كل جانب ممكن والمنازل القريبة تبدو لها كامتداد للمنازل التي تعلوها.. وعلى مسافة من موقعهم، بدأت البنايات العالية تتخذ مواقع المنازل البسيطة وبدت الشوارع المعبدة واضحة كأثر من العالم القديم الذي نبذه الإنسان منذ عقود.. ولذلك، كان الدمار والتهدم سمة واحدة في المباني والمنازل والطرقات.. واختل تنظيم المدينة مع الحشائش والأشجار التي غطت كل شيء تقريباً.. والطريق الذي يقفون عليه في ذلك الوقت كان مدمراً في أجزاء عديدة منه والشقوق في الإسمنت قد تخللتها الحشائش بكثافة غير معقولة..

نظرت نور حولها بدهشة لمنظر هذه المدينة التي يبدو الدمار فيها بأوضح صوره.. ولم يفتها رؤية بعض المركبات المعطلة والتي أصابها الصدأ وتحطمت أجزاؤها بفعل الزمن.. سمعت الفتاة من خلفها تقول "هل وصلنا للمدينة؟.."

سمعت الرجل من خلفها يقول وهو يتلفت حوله "علينا الإسراع.. أرى نذر عاصفة شديدة ستهبّ علينا.. ولا أريد مواجهتها في العراء.."

وسار وهو يجذب البغلتين خلفه، بينما قالت الفتاة "كم يوماً سنبقى في هذه المدينة؟.."

أجاب الرجل "سنبقى حتى تنجلي تلك العاصفة ويغدو الجو آمناً لإكمال سيرنا نحو الجنوب.."

تلفتت نور حولها وهي تتبع البغلة رغماً عنها مع القيد الذي يقيدها بها، ورغم صمتها وصمودها فإنها شعرت بتعاسة تامة.. وجودهم في هذه المدينة لن يجعل هربها من مختطفيها أسهل من السابق بل سيعيقه كثيراً.. ووجود بشر آخرين في هذه المدينة يشعرها أنها ستكون محاصرة بشكل كامل.. ولو أضفنا لها العاصفة الوشيكة، فهذا يجعل موقفها عسيراً بشدة.. فما هو الحل يا ترى؟.. هل تستسلم لما يجري لها؟.. هل تتناسى من تركتهم خلفها وتتناسى عودتها لآريس حتى يقرر هذا الرجل إطلاق سراحها؟.. لكن، كم زمناً سيدوم هذا؟..

بدأت خطوات أفراد القافلة الصغيرة تتسارع من حولها وهم يتقدمون من المدينة المدمرة.. واتخذوا طريقاً يخترق المنازل والبنايات القريبة ويمر بعدد من الأحياء التي كانت راقية في الأزمان الغابرة، وغدت الآن ملجأ للعشرات من المحليين الذين استعمروا ما بقي صامداً من المنازل والبنايات.. فوجئت نور برؤية هذا العدد الكبير من البشر، وتأكد لها أن من تخلى عنهم العالم المتحضر ليسوا جماعة منسية لا يتجاوز عددهم المئات.. لا يمكن أن يغفل العالم عن كل هؤلاء دون سبب مقنع..

وجدت أنهم وصلوا لموقع تحيطه البنايات العالية التي تحمل في واجهاتها لوحات إعلانية ضخمة حال لونها وتقطعت أجزاؤها، مما دلها أن هذا كان حياً تجارياً في الأزمان الغابرة، ثم وجدت أن تلك القافلة الصغيرة قد اختارت مبنىً شاهق الارتفاع يغلب في بنيانه الزجاج الذهبي الذي لم يبقَ منه إلا أثر قليل.. وفي قلب المبنى، ربط الرجل بغلتيه في قاعة واسعة كما تخلى البقية عن حيواناتهم في الموقع ذاته.. عندها قالت نور بقلق "ألم تقل إننا على مشارف عاصفة عاتية؟.. كيف لهذا المبنى ذي الواجهات المحطمة بالكامل من درء العاصفة عنا؟.."

قالت الفتاة مبتسمة "لا تقلقي.. لن تؤذينا العاصفة في الموقع الذي سنلجأ إليه.."

تمسكت الفتاة بأبيها ليعينها على السير، بينما جذب الرجل الحبل الذي يقيد نور خلفه..وفي جانب القاعة، رأت نور سلم الطوارئ ينتصب أمامهم، لكن عوضاً عن الارتفاع للطوابق العلوية، فإنهم سلكوا طريقهم

للطوابق السفلية التي تحتل مساحة مشابهة لمساحة المبنى تحت الأرض.. ولدى رؤية ذلك الموقع، أدركت نور أن القافلة تنتوي اللجوء لمواقف السيارات الواقعة أسفل المبنى.. نظرت نور حولها بقلق وقد شعرت بتوجس من وجودها تحت الأرض، واعترضت قائلة للرجل "لماذا تلجؤون لهذا الموقع؟.. أليس الأفضل لنا اللجوء للطوابق العلوية؟"

قال الرجل بهدوء "نحن آمنون هنا تماماً.. اللجوء للمواقع العلوية قد يجعلنا عرضة لبعض اللصوص والمجرمين.. ثم إن هذا الموقع أكثر نظافة واتساعاً من غيره.."

صمتت نور وهي تجلس جانباً والبرد يتسلل عبر ملابسها الخفيفة فيجمد عظامها بنجاح كبير.. ارتجفت شيئاً ما وهي تحاول ضمّ جسدها بذراعيها رغم القيد الذي لم يفكه الرجل، كما أنه لم يتعطف بمنحها معطفاً أو دثاراً تتدثر به من القليل الذي يملكه.. فظلت في موقعها منطوية على نفسها تسمع الحوارات الجانبية حولها بلغة لم تفهم منها كلمة.. ورغم أن ذلك الرجل وابنته يتحدثان اللغة الإنجليزية أحياناً لئلا يفقدانها مع قلة الممارسة، إلا أن البقية كانوا يجهلون تلك اللغة بشكل كامل واحتفظوا بلغتهم المحلية في أحاديثهم..

زفرت نور بشدة وهي تحاول الاستلقاء جانباً بتعب وإن ظلت تنظر حولها متوجسة خشية اقتراب أحدهم منها وهي غافلة.. لم تكن تشعر بالأمان بتاتاً، وودت لو تتمكن من الهرب مستغلة نوم الآخرين بعد أن غلبهم التعب من السير الطويل.. لكن ذلك الرجل ظل مستيقظاً لوقت طويل أشعرها أنه سيقضي الوقت كله يحرسها.. وهذا أشعرها بعدم راحة..

ومع تطاول الوقت، بدأت نور تشعر بنعاس بعد المجهود الذي بذلته، ومع الهدوء الذي حلّ في الموقع وأغلب البشر من حولها يخلدون للنوم بدورهم.. وبينما هي تتأرجح بين النوم واليقظة، فوجئت بدويٍّ أفزعها وأثار رجفة في جسدها وهي تعتدل بذعر.. ومع تكرر الدويّ بين لحظة وأخرى مع صوت آخر أكثر خفوتاً بدأ يتعالى بتكرار واضح، سمعت الرجل يقول "إنها مجرد عاصفة.. عودي للنوم فرحلتنا غداً ستكون متعبة.."

جلست نور في موقعها وهي تستمع لدويّ الرعد يتكرر من جديد بينما ازداد صوت المطر قوة بشكل أقلقها.. ومع التوتر الذي شعرت به، لم تجد في نفسها القدرة على الاستسلام للنوم من جديد..

في تلك الأثناء، كانت المركبة التي تحمل عابد وطارق وأيمن قد وصلت لموقع قريب من تلك المقابر التي احتلت وادياً بأكمله، وعثروا على آثار المخيم الذي أقامته تلك القافلة الصغيرة في الليلة السابقة.. فقال عابد "من حسن الحظ أنهم يسيرون على الأقدام، وإلا ما تمكنا من اللحاق بهم بالسرعة الكافية.."

تساءل أيمن بقلق "أتظن أن نور معهم حقاً؟.. ربما كانت في موقع آخر بعيد بينما نحن نلحق دليلاً خاطئاً.. كيف لنا أن نثق بقول تلك الفتاة؟"

نظر له طارق بضيق، وكأن اتهام رُبى بالخطأ هو اتهام له أيضاً، بينما قال عابد "لا يهم إن كان قولها صحيحاً أم خاطئاً.. هذا هو الدليل الوحيد الذي نملكه، لذلك سنتبعه حتى نتأكد من كون نور مع تلك الجماعة من المحليين أم لا.."

تساءل طارق "وأين هي تلك المدينة؟.. لا أرى أي علامات عليها حتي الآن.."

أجاب أيمن وهو يعود للمركبة "هي ليست بعيدة عن هنا.. قد نستغرق ساعة أو أكثر للوصول إليها بالمركبة لو كان الطريق سالكاً.. لقد أقمنا معسكرنا السنة الماضية فيها وأنا متأكد من الطريق الذي سنسلكه.."

نظر الاثنان للموقع الذي يشير إليه أيمن، ولم يفتهما رؤية الغيوم السوداء التي ظللت الأفق والبرق ينبثق من بينها بين لحظة وأخرى بحماس كبير.. فزفر عابد معلقاً "يبدو أن الأمور مشتعلة هناك.. هل سنتمكن من الوصول للمدينة بسلاسة؟"

غمغم أيمن "أتمنى ذلك.."

فتساءل طارق "لو كانت في تلك المدينة حقاً، كيف سنبحث عنها؟.."

أجاب أيمن "الحل الوحيد هو أن نتفرق ونبحث في كل بناية تطابق الأوصاف التي دلتنا عليها الفتاة.. لا يمكننا طرق الأبواب والسؤال عنها ولا يمكننا الدوران في شوارع المدينة دون هدىً.."

لم يعلق أحدهما بكلمة وهم يصعدون المركبة من جديد، وبدأ طارق السير بها عبر طريق وعر من مخلفات البشر القديمة قبل أن يغيب عنهم التحضر مع رحيل الجزء الأعظم منهم منذ عقود..

****

بعد بعض الوقت ومع اشتداد العاصفة، لاحظت نور أن الهدوء قد ساد الموقع حولها مع نوم الجميع.. كما أن الرجل قد خلد للنوم بدوره مطمئناً أنها لن تحاول الهرب في مثل هذه العاصفة.. كان النوم قد طار من عيني نور، ورغم خوفها من الأجواء الثائرة خارجاً إلا أنها وجدتها فرصة مثالية للفرار قد لا تتكرر قبل وقت طويل.. عودتها للمعسكر مستحيلة في الآونة الحالية، لكن على الأقل هربها هو بداية الطريق.. ورغم أن الرجل عمد لإيذائها كي تكف عن مثل تلك المحاولات، إلا أن هذا يجعلها أكثر إصراراً على الهرب من قبضته لئلا تواجه الأسوأ..

نظرت حولها بصمت بحثاً عن وسيلة لفك قيد يديها وقدميها، فعثرت في موقع قريب على قطع زجاجية متناثرة بأحجام مختلفة.. نظرت نور للرجل الذي غرق في نوم عميق، ثم تناولت قطعة زجاجية ولفتها بكم قميصها لئلا تجرح يديها.. وببعض الجهد، حاولت قطع الحبل الذي يربط قدميها بإحكام وتوترها يشتعل خشية أن يراها الرجل فيعاقبها من جديد..

كان كمها غير كافٍ لتفادي الجزء الحاد من الزجاج المكسور، وسرعان ما وجدت نور أن الزجاج يجرح أصابع يدها اليسرى التي اعتمدت بها في عملها.. لكن الاهتمام بحال أصابعها ليس الأهم في تلك اللحظة، فتجاهلت نور الدماء التي سالت ولطخت كمها وهي تعمل بأسرع ما تستطيع حتى تمكنت من قطع تلك الحبال التي ربطها الرجل بقوة حول قدميها.. لكن القيد الذي في يديها كان أمراً آخر.. ومع الكسر في أصابع يدها اليمنى والجرح في يدها اليسرى غدا التخلص منه مستحيلاً مما اضطر نور لتأجيله لوقت آخر..

نظرت نور حولها بحذر حتى اطمئنت أن جميع من في الموقع قد خلدوا للنوم رغم دويّ الرعد المتكرر.. عندها نهضت بخفة وحاولت عدم إصدار صوت وهي تسرع نحو تلك الدرجات المؤدية للطوابق العلوية وللقاعة التي ستقودها خارج المبنى.. ولما وصلت لموضع سلم الطوارئ ووضعت قدمها على أول الدرجات، نظرت خلفها بقلق وهي تأمل أن يكون هربها قد تكلل بالنجاح.. لكن لصدمتها رأت الرجل

يقفز واقفاً باحثاً عنها، ولما رآها صاح "قفي مكانك.."

تمالكت نور نفسها واستدارت راكضة نحو الأعلى ودقات قلبها تتسارع بفزع.. رغم أنه شخص واحد، إلا أنها شعرت أن فرارها من قبضته مستحيلة.. بدا لها أن البشر المتواجدين في هذه المدينة سيتضافرون ضدها، وأن أحدهم لن يتردد في القبض عليها وإعادتها له لو عثروا عليها..

تزايد ذعرها وهي تسمع الخطوات تلحقها بعد وقت قصير، وسمعت الرجل يصيح خلفها آمراً إياها بالوقوف مما جعلها مرتبكة أكثر في هربها.. بعد أن تجاوزت تلك الدرجات التي صعدت بها طابقين، رأت القاعة التي ربط فيها الرجل بغلتيه واللتين وقفتا جانباً مذعورتين للأجواء العاصفة خارج المبنى.. كان الجو قد أظلم مع حلول الليل والمطر الغزير قد تسلل من النوافذ المهشمة بشكل غمرها بشيء من التردد.. لكنها تجاوزت ترددها بسرعة وهي تتجه نحو أقرب نافذة من التي ترتفع بطول جدران القاعة ذاتها، وتجاوزت عدداً من الأثاث المحطم البالي والزجاج المهشم أرضاً وهي تسمع الخطوات تقترب من خلفها أكثر فأكثر.. لكنها لم تتوقف واقترابها من النافذة يمنحها أملاً بإمكانية هربها من هذا المبنى، رغم أنها لا تعرف حقاً كيف ستتخلص من ملاحقته لها بعد ذلك..

تجاوزت نور النافذة دون تردد رغم أجزاء الزجاج البارزة في جانبيها، ورغم البرق الذي التمع في المكان يتبعه صوت رعد دوّى وأرجاء القاعة تردده بشكل مرعب.. لكنها لم تتراجع، وفور خروجها من المبنى، انزلقت نور على الطريق الإسمنتي بسبب المياه التي سالت في جداول صغيرة من الأمطار المنهمرة بغزارة.. وقبل أن تعتدل هاربة، فوجئت بالرجل يمسك ساقها ليمنعها من النهوض قائلاً بحنق "لقد حذرتك من تكرار الهرب.."

تمالكت نور نفسها بسرعة، واستدارت نحوه وهي تركل وجهه بأقوى ما تستطيع صائحة "اتركني يا هذا.."

ألقته ركلتها خلفاً، فانتصبت نور واقفة وركضت نحو زقاق جانبي محاذرة من الانزلاق من جديد، ومتجاوزة الألم الذي شعرت به في يدها اليمنى مع سقوطها السابق واستنادها بيدها على الأرض بشكل تلقائي.. وقبل أن تبتعد كثيراً، وجدت يداً تقبض على ذراعها من جديد وتوقف ركضها بحدة، فاستدارت

نور بغضب ولده ذعرها وهي تركل الرجل بقوة وتصرخ "قلت لك اتركني.."

أصابت ركلتها ساق من يقبض عليها، لكنه لم يتخلّ عنها وهو يقبض ذراعيها بقوة قائلاً بالعربية "مهلاً.. هذا أنا يا نور.."

خفتت مقاومة نور وهي ترفع بصرها من بين الأمطار التي بللتها تماماً وسالت على وجهها تتأمل الشخص الطويل أمامها، فاستطاعت تبينّ وجه عابد بصعوبة.. ارتجفت شفتاها لرؤيته وهي التي لم تتوقع ذلك، بعد أن كادت تيأس من قدوم شخص لنجدتها، بينما وصل الرجل الذي يلحق بها في تلك اللحظة لموقعهما.. نظرت نور للرجل بعينين متسعتين وشيء من القلق مع مرأى ذلك اللوح الخشبي في يده بتهديد واضح، ولم تملك نفسها أن تراجعت خطوة للوراء وهي تمسك أصابعها الملفوفة بيدها اليسرى.. بينما نظر الرجل مقطباً لعابد الذي ظهر فجأة وحال بينه وبين نور، فقال له بتهديد "ابتعد عن طريقي.. وإلا لن أتردد في إيذائك.."

نظر عابد للرجل سائلاً نور "أهو من اختطفك؟.."

هزت نور رأسها إيجاباً وهي تندس خلفه شادة على أصابعها المكسورة التي أخذت تنبض بألم.. فنظر عابد لملامحها المتألمة وقال مقطباً "ما الذي فعله بك؟.."

وجد الرجل يطوح اللوح نحوه قائلاً بحنق "لقد حذرتك.."

رفع عابد ذراعه اليمنى ليصيبه اللوح بضربة قوية، لكنه لم يهتم بالضربة وهو يدير ذراعه بسرعة ويقبض على اللوح بيده ليجذبه من يد الرجل قبل أن يعيد الضربة إليه فتصيبه في صدره بعنف وتلقيه للوراء.. حاول الرجل النهوض والألم ظاهر على ملامحه، والرعد يدوي من جديد بعد التماعة برق مفاجئة.. نظرت نور للرجل بصمت وقد فوجئت بأن القلق والذعر الذي شعرت به من ذلك الرجل قد تبخر مع سقوطه المؤلم أرضاً، بينما قال لها عابد بحدة "ما الذي فعله بك يا نور؟.."

أجابت نور بصوت مضطرب "عندما حاولت الهرب قبل وصولنا لهذه المدينة، كسر أصابع يدي.. وحذرني أنه سيؤذيني بشكل أكبر لو كررت المحاولة.."

نظر عابد للرجل بغضب شديد، ثم تقدم منه قبل أن ينهض مدمدماً "سحقاً لك أيها المأفون.."

حاول الرجل اتقاء ضربة محتملة من عابد بيده اليمنى، لكن عابد أمسك يده بقوة ولوى أصابعه بعنف حتى سمع صوت تكسرهما بوضوح والرجل يصرخ بألم.. لكن عابد لم يطلقه وهو يلكمه بقوة على فكه لكمة ثم أخرى ثم أخرى.. تراجعت نور خطوات مع العنف الذي أبداه عابد ومع صرخات الرجل المتألمة ومرأى الدماء التي تصببت من أنفه وفمه، وبدا لها أن عابد لا ينتوي التوقف عند هذا الحد.. فصاحت وهي تغطي وجهها بيديها "كفى كفى.."

تخلى عابد عن الرجل الذي سقط أرضاً بإنهاك دون أن يصدر منه صوت، بينما قالت نور والدموع تسيل من عينيها "لمَ فعلت ذلك؟.. ليس هذا ما أردته.."

قال عابد بحنق "هذا ما يستحقه.."

واقترب منها ففك قيد يديها، ثم أمسك يدها اليمنى يتفحص أصابعها.. ورغم العناية البسيطة التي قامت بها نور، فإن أصابعها كانت متورمة بلون أزرق قاتم.. كما لاحظ الدماء التي لطخت كمها من يدها اليسرى، فحاول عابد أن يضمد يدها بإحكام حتى عودتهم للمعسكر لتلقى العناية الملائمة.. ومع مرأى دموع نور التي امتزجت بقطرات المطر والألم الظاهر على وجهها، قال بشيء من الندم "آسف لأنني لم آت إليك قبل أن تخوضي هذه التجربة المؤلمة.. ربما كان قراري تهريبك في ذلك الكهف خاطئاً كما قال طارق.."

دهشت نور من اعتذاره، فقالت بصوت مرتجف "لم يكن هذا بسببك أنت، فلا داعي للاعتذار.."

ثم خفضت بصرها قائلة وقد تهدج صوتها "لنغادر هذا المكان.. لم أعد أطيق البقاء فيه لحظة واحدة.."

غمغم عابد وهو يخلع قبعته ويضعها على رأسها لدرء الأمطار المنهمرة بغزارة "يمكنك القول إن البقاء في الأرض كلها أصبح لا يطاق.."

ونظر خلفه للرجل الذي لم يبارح موقعه، ثم جذب نور من يدها اليسرى قائلاً "لنذهب.."

ضمّت نور يدها اليمنى لصدرها وهي تشعر بالألم يتزايد فيها، بينما لم تسحب يدها اليسرى من يد عابد وهي تتبعه محاولة مجاراة خطواته الواسعة وهو يسلك طريقه عبر ذلك الزقاق ونحو شارع آخر محاولاً السير تحت أي سقف يحميهما من الأمطار المنهمرة دون أن يوقف تقدمه.. شعرت نور بدموعها تسيل بصمت، وامتزج ذلك بشعور لم تتوقعه بالأمان لوجود شخص تستطيع الثقة به قريباً منها، وبدأ ذعرها

وقلقها يزول بعد أن راودها خاطرٌ أنها لن تتمكن من الهرب والعودة للبقية.. وخاطرٌ أسوأ بأنهم سيغادرون الأرض في أقرب فرصة دون أن يعبؤوا لأمرها.. لكن مع رؤية عابد الذي لحق بها واستعادها من قبضة ذلك الرجل، فإن الهدوء قد عاد إليها وشعرت بامتنان شديد له وبأنها مدينة له بالكثير..

بعد أن سارا عبر بضع شوارع تقطع تلك المدينة دون أن يلاقيهما من يعترض طريقهما، لاحظت نور شخصان يقتربان منهما بسرعة والرؤية لا تبدو لها واضحة من الأمطار المنهمرة بغزارة والتي لم تخفت ولو للحظة.. وسمعت أحدهما يقول عند اقترابهما منهما "هل عثرت عليها؟"

انتبهت أن أحدهما هو طارق، بينما اقترب الآخر الذي لم يكن إلا أيمن منها بلهفة وأمسك كتفيها متسائلاً "أأنت بخير؟.. هل أصبت بأي أذىٰ؟"

أجابت نور "لا تقلق.. أنا بخير.."

فقال أيمن بانزعاج "وماذا عن يدك اليمنىٰ؟.. ما الذي جرىٰ لها؟"

جذبت نور يدها من قبضة أيمن قائلة "مهلاً.. أنت تؤلمني.. لقد كُسِرَت أصابعي، وهي متورمة بشدة.."

قال أيمن بقلق "يجب أن نعالجها بسرعة.. تبدو سيئة.."

ثم أضاف بشيء من الضيق "ألم أخبرك أن تهربي في ذلك الوقت؟.. كيف استطاعوا اختطافك رغم إرادتك وإحضارك لهذا المكان؟.."

أدارت نور وجهها جانباً بشيء من الضيق وهي تمسح المطر الذي سال علىٰ وجهها، بينما قال عابد بحدة "ألا تملك ما تقوله إلا لومها؟.. يا لك من أخٍ حنون!!!.."

وجذب نور وهو يكمل طريقه مضيفاً "لنغادر هذا المكان الآن.. لقد تبللت حتىٰ النخاع.."

تبعته نور بصمت بينما صاح أيمن "مهلاً.. ما الذي تظن نفسك فاعله؟"

أمسكه طارق وهو يقول "لا داعي لهذه العصبية.. ما كان عليك أن تلوم نور في هذا الوقت.."

قال أيمن بضيق "لم أقصد ذلك.. لقد تفوهت بهذا لشدة قلقي عليها.."

فقال طارق "لكنك بدوت كمن يلومها لأنها سببت لك المتاعب.. وهذا ما جعل عابد يحتد لما قلته.."

واتخذ طريقه خلف عابد ونور اللذين سبقاهما بمسافة، فلحقه أيمن وهو يقول بحنق " ومن هو هذا

البغيض؟.. لمَ يتدخل في أموري وأمور شقيقتي؟.."

أما نور، فقد تبعت عابد بصمت وهي تحاول تجاوز مرارتها لمعاملة أيمن لها بتلك الطريقة.. رغم أنه أظهر قلقاً لأمرها، لكن تأنيبه لها أشعرها أن ما حدث كان خطأها.. أنها تلام لاستسلامها لما جرى، كما لامها لأنها حاولت الوصول للأرض للقائه رغم خطورة هذه الرحلة.. ألا يملك أيمن ما يقوله إزاء نبذها وأمها إلا لومها هي؟..

سمعت عابد يقول لها "لا عليك يا نور.. إن هي إلا ساعات معدودة ونغادر هذه الأرض بلا عودة....."

ثم نظر إليها مضيفاً "أنت راحلة معنا.. أليس كذلك؟"

ابتسمت نور ابتسامة خافتة وهي تقول "طبعاً سأرحل.. ما الذي يغريني بالبقاء هنا أكثر من هذا؟"

غمغم عابد وهو يدير بصره للأمام "جيد.."

لاحظت نور وجود عدد من البشر في أحد المباني القريبة ينظرون لهم بدهشة لخروجهم في مثل هذه الأجواء العاصفة، يمتزج بها بغض واضح لم تجهل نور سببه.. فتأملت الموقع حولها بقلق خشية أن يبادر بعضهم بالهجوم عليهم للانتقام.. وكأنه شعر بقلقها، وجدت عابد يشد على يدها وهو ينظر لمن حوله بحذر وتحدٍ واضح.. ونوعاً ما، زال خوفها بسرعة وعاد لها الهدوء بوجوده قريباً منها.. فالتفتت خلفها لترى طارق وأيمن يلحقان بهما بسرعة، وفي داخلها دارت فكرة واحدة.. إنها لم تشعر بالطمأنينة بوجود أيمن ولم تبحث عن الأمان قربه بتاتاً.. وفي هذا الموقف الذي تلا ساعات قضتها في ذعر، فإن مرأى أيمن لم تبعث في نفسها أي راحة ولم يكن لوجوده أي أهمية.. عكس ما حدث لدى رؤيتها لعابد.. هل أصبح عابد أقرب إليها من شقيقها أيمن؟.. أم أن ما أوحى لها بذلك هو شعوره بالمسؤولية تجاهها، وهو شعور لا تكاد تشعر به من أيمن بتاتاً؟.. كيف تضاءل وجود أيمن في محيطها بهذه الصورة؟..

ومع الأجواء العاصفة التي تزيد الأمور سوءاً، بدا لها وجودها على هذا الكوكب خطأ قد تندم عليه لما بقي من حياتها.. خطأ لابد من تصحيحه..

****

عندما فتحت رُبى عينيها، اندهشت كثيراً لمرأى خطي الدموع التي سالت من عيني ميساء والقلق الواضح في عيني أحمد.. حاولت أن تعتدل جالسة بيدين ترتجفان وهي تغمغم "ما الذي جرى؟.."

أسرعت إليها ميساء لتعيدها للسرير قائلة بصوت يرتجف "لا تتحركي.. تبدين في أسوأ حال.."

تساءلت رُبى بدهشة "لِمَ تبكين؟.. هل علمتم بشيء مما جرى لنور؟"

أجاب أحمد "ميساء تبكي قلقاً عليك.."

نظرت له رُبى بدهشة مضاعفة، وأحمد يضيف "لقد استغرقت في غيبوبتك هذه يوماً كاملاً دون لمحة لكونك ستستعيدين وعيك في وقت قريب.."

اعتدلت رُبى جالسة وغمغمت "ربما كان تأثير العقار أقوى مما توقعنا.."

ثم التفتت إلى ميساء القلقة دوماً قائلة بابتسامة "لكنني بخير.. لا تقلقي.."

شدّت ميساء على يد رُبى بصمت، بينما تعالى صوت عاصم قائلاً "أأنت بخير يا فتاة؟.. لقد طال نومك أكثر من اللازم.."

لاحظت رُبى الضيق الواضح في ملامح ميساء، بينما اقترب منها عاصم مضيفاً "ما الذي تشعرين به الآن؟.. لقد أقلقت الجميع بعد غيابك عن الوعي طوال يوم وليلة.. وبعد هذيانك الذي أصابنا بالذعر.."

تذكرت رُبى المقاطع التي رأتها مراراً وتكراراً في غيبوبتها، فجاءت الذكريات تلك كلطمة قاسية جعلتها تهب نحو أبيها قائلة بقلق "هل ذهبوا للبحث عن نور؟.. يجب أن يسرعوا قبل أن تحتدم الأمور أسوأ من اللازم.."

شعرت بساقيها لينتين مع نهوضها المفاجئ، ففقدت توازنها وعاصم يسندها قائلاً "لا تقلقي.. لقد رحلوا منذ بداية النهار للبحث عنها، ومما علمته من آخر اتصال لهم أنهم قد وصلوا للمدينة وسيبحثون عن الفتاة فيها.."

تساءل أحمد "أتظن أنهم سيكونون بخير؟.. ألن يتعرض لهم سكان المدينة بسوء؟.. ثلاثة أشخاص غير كافين لصدّ مثل ذلك....."

قاطعته رُبى هاتفة "اتصل بهم يا أبي.. أخبرهم أن عليهم مغادرة تلك المدينة بأسرع ما يستطيعون.."

أعادها عاصم لسريرها قائلاً" سيفعلون ذلك حتى لو لم نتصل بهم.. لا تقلقي سينقذون الفتاة بالتأكيد....."

قاطعته رُبى صائحة "أنت لا تفهم.. تلك المدينة ستواجه مصيراً بشعاً.. ولا أريد أن يحدث ذلك وهم هناك.."

نظر لها الثلاثة بدهشة وهي تضيف بإلحاح "أرجوك.. اتصل بهم بأسرع ما تستطيع.."

تساءل عاصم "ما الذي سيحدث؟.. ما الذي رأيته في غيبوبتك هذه؟"

أجابت بصوت مرتجف "مياه.. سيلٌ من المياه سيندفع من الجبال القريبة ويغمر تلك المدينة بسرعة البرق.. يبدو أن الأمر سيبدأ بأمطار غزيرة، ولن تتوقف الأمطار حتى تغمر المياه المدينة وتجرف كل ما يعترض طريقها.."

اتسعت الأعين حولها بقلق ورُبى تضع يداً مرتجفة على جبهتها وهي تقول "رأيت الكثير من الأجساد طافية مع المياه المندفعة.. رأيت خراباً يفوق ما شهدته على الأرض منذ قدومنا.."

وتشبثت بعاصم قائلة بتوسل "أرجوك يا أبي.. اتصل بهم وأخبرهم بالأمر قبل بدء الكارثة....."

صمتت رُبى فجأة وعيناها تتسعان، وقد بدأت بعض المقاطع التي رأتها في نومها تعود لها بشكل أوضح من السابق، بينما قال عاصم بتوتر كبير "لا بأس، سأقوم بتحذيرهم من هذا الأمر.."

واندفع خارجاً من المبنى يتبعه أحمد تاركاً الفتاتين صامتتين بصدمة.. ثم التفتت رُبى إلى ميساء متسائلة بصوت مرتجف "من الذي ذهب؟"

أجابتها ميساء "ذهب شقيقها طبعاً.. ورافقه طارق وعابد..."

اتسعت عينا رُبى بذعر واضح وهي تتذكر إحدى اللقطات التي رأتها في نومها.. ثم همست وهي تضمّ قبضتيها بشدة "يا إلهي...."

التفتت إليها ميساء متسائلة بقلق "أأنت بخير؟ أتشعرين بأي ألم؟.."

أخفت رُبى وجهها خلف يديها بصمت تام، فازداد قلق ميساء مع هذا الصمت.. فأمسكت كتفيها قائلة

بإلحاح "ما بك يا رُبى؟.. أخبريني.."

بعد لحظات، سمعت رُبى تقول "أتظنين أن طارق سيموت؟.."

تجمدت يد ميساء وهي تحدق في رُبى، قبل أن تقول بتوتر "ما الذي تقولينه؟.. لا يمكن أن يحدث هذا.."

قالت رُبى بصوت مرتجف "لا داعي للكذب.. طارق سيموت.. الفيضان الذي رأيته في حلمي كان بشعاً.. رأيت الكثير من الأجساد الميتة بعدد لم أستطع إحصاؤه.. ورأيت مركبة مشابهة للتي يملكها أبي تجرفها المياه بقوة.. فما الذي يعنيه هذا؟"

ونظرت لميساء مضيفة بيأس "لابد أن طارق سيواجه مصيراً بشعاً في تلك المدينة.. فما الذي يمكنني فعله لمنع ذلك؟.."

تطلعت ميساء لخطي الدموع التي سالت على خدي رُبى، ثم قالت رافعة حاجبيها "ما هذا القول يا رُبى؟.. نحن لا نعلم الغيب.. قد يكون طارق والبقية في خطر، لكن لا يمكنك الجزم بأن أحدهم سيموت بالتأكيد.. كل ما بيدنا هو الدعاء لهم بعودتهم سالمين.."

قالت رُبى بعصبية "أخبرتك أن ما رأيته كان شيئاً بشعاً.. كيف يمكن أن ينجو أي شخص من مثل هذه الكارثة؟.."

قطبت ميساء قائلة "لازلتِ متشبثة بعنادك القديم.. وهذا ما يدهشني.."

نظرت لها رُبى بضيق، فأضافت ميساء بحزم "هل رأيت طارق ميتاً بالفعل؟.. كيف تتنبئين بموته، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى؟.. كفي عن هذا القلق وانسي كل ما رأيته.. لندعو الله أن يعودوا سالمين، وأن يتمكنوا من إنقاذ نور الصغيرة، فلابد أنها بغاية الفزع الآن.."

خفضت رُبى بصرها دون أن تتوقف دموعها، فابتسمت ميساء شيئاً ما وهي تقول محاولة تغيير الموضوع "مادام أمر طارق يهمك لدرجة أن تهطل دموعك خوفاً عليه، لماذا عاملته بتلك القسوة سابقاً؟.. لقد أشعرتِه بأنه كمٌّ مهمل لا أهمية له.."

ظلت رُبى خافضة بصرها ودموعها تنحدر بصمت، فقالت ميساء "ربما عليك أن تصححي هذا الخطأ عند عودته.. من المؤسف أن يبقى على ظنه بأنك لا تعبئين به حقاً.."

بقيت رُبى على صمتها وهي شادة قبضتيها بقوة، ثم مسحت دموعها وأبعدت خصلات شعرها بعيداً عن وجهها وهي تتنهد، وقالت بخفوت "لو علم بذلك، فلن يغادر الأرض.."

نظرت لها ميساء بدهشة، بينما خفضت رُبى وجهها وهي تقول بصوت مرتجف "أنا أريده أن يرحل.. لا أريده أن يختارني نابذاً حياته ذاتها، وهو ما لا أشك أنه سيفعله لو منحته بعض الأمل.."

ابتسمت ميساء معلقة "أحسدك على ثقتك هذه.."

ثم أضافت بعد أن أدركت أمراً "ماذا تعنين بأنه سيختارك ولن يرحل؟.. ألا تنوين الرحيل عن الأرض يا رُبى؟"

غصبت ابتسامة على شفتيها وهي تقول "من يعلم إن كان أحدنا سيقدر على مغادرة الأرض بالفعل؟.."

نظرت لها ميساء بتوجس لم تملكه، ثم زفرت وهي تجلس جانباً بصمت.. فلتمر هذه الليلة على خير، وبعدها يمكنهم أن يقلقوا لأمر مغادرتهم الأرض كما يحلو لهم..

****

بعد وصول طارق والبقية لموقع المركبة، دون أن يعترض أحد سكان المدينة طريقهم، قال عابد وهو يضع يده فوق جبينه محاولاً اتقاء الأمطار التي لم تخفت للحظة "هل علينا الرحيل بهذه المركبة المكشوفة في مثل هذه الأجواء؟.. يمكننا اللجوء لأي بناء قريب بسقف يحمينا من هذه الأمطار حتى انجلاء العاصفة.."

قال طارق بقلق "ماذا عن الأشخاص الذين اختطفوا نور؟.. ألن يلحقوا بنا؟"

أجاب عابد "لا تقلق.. ليس في حالة تسمح له بالتفكير بذلك.."

فتساءل أيمن "ما السبب الذي جعلهم يختطفون نور بالذات؟.. ولماذا أحضروها هنا؟"

أخبرتهم نور بما كان ينتويه الرجل الذي اختطفها، وبحالة ابنته الصغيرة، فقال طارق بتعجب "أكان يظن أن دورية مجلس الأمن ستوافق على اصطحابه لمجرد احتجازه لك؟.. ألم يعلم أنك بغير أهمية بالنسبة لهم؟"

قالت نور "حاولت إفهامه ذلك، لكنه لم يكن يصغي إليّ أبداً.."

تلفت عابد حوله للحظات قبل أن يقول "أترون هذا المبنى؟.. لنلجأ إليه بصورة مؤقته.. يبدو كحظيرة مهجورة.. وهو أفضل من البقاء وسط هذه الأمطار المنهمرة والتي لا يبدو أنها ستتوقف في وقت قريب.."

لم يعترض طارق وهو يقول "اسبقوني إليه وأنا سأقود المركبة خلفكم.. عليّ الاتصال بالمعسكر وإبلاغهم بنجاح مهمتنا وعودتنا بعد انقضاء العاصفة لئلا نسبب لهم أي قلق.."

ركض الثلاثة نحو الحظيرة المهجورة بينما اتجه طارق للمركبة القريبة وقام بتشغيلها مغمغماً "ألا يصيبها هذا المطر بأي عطل؟.. أتمنى ألا يكون حظنا سيئاً لهذه الدرجة.."

لكن صوت هدير المحرك الذي تعالى غمره براحة، فتحرك بالمركبة موجهاً إياها نحو الحظيرة بدوره وهو لا يكاد يرى الطريق الذي يسير فيه بسبب الأمطار.. وفور وصوله للحظيرة دخل بالمركبة من بوابتها الواسعة حتى أوقفها في جانبها.. نظر طارق حوله للحظيرة الواسعة بسقفها العالي والدمار الذي طال بعض جوانبها إنما احتفظت بانتصابها في هذا الموقع المهجور رغم كل الظروف.. وفي جانبها وقف رفاقه الثلاثة ينفضون المياه عن ملابسهم ونور تتساءل بقلق "أنحن بخير هنا حقاً؟.."

أجاب طارق "لنفترض ذلك حالياً.."

وعالج جهاز الإرسال الملحق في المركبة محاولاً الاتصال بمعسكر الفرقة العلمية رغم التشويش الكبير الذي أعاق إتمام ذلك.. وفي تلك الأثناء، اقترب أيمن من عابد قائلاً له "تعال معي.. لدي حديث صغير معك.."

نظرت نور بدهشة لأيمن، بينما قال عابد "قل ما بدا لك.. أتخشى أن يسمع الآخرون ما تقوله؟.."

قال أيمن بتقطيبة وضيق "لماذا عليك أن تكون سمجاً بهذه الصورة؟.. لا تعقّد الأمور أكثر مما هي معقدة واتبعني.."

وغادر الحظيرة بحدة، فأطلق عابد تنهيدة ضيق وهو يتبعه ليجده قد وقف في جانب الحظيرة من الخارج محتمياً بحائطها عن الأمطار.. وفي الداخل، اقتربت نور من نافذة صغيرة تطل على ذلك الموقع دون أن تظهر نفسها وهي تستمع لما يقال.. مما بدا على وجه أيمن، أيقنت أن ما سيقوله لن يكون ساراً أبداً.. فسمعته، فور اقتراب عابد منه، يقول له بصرامة "اسمع يا هذا.. أريدك أن تبتعد عن نور وتكف عن

الاهتمام بها.."

رفع عابد حاجباً بتعجب وقال "أتلومني لأنني أتيت بحثاً عنها لاستعادتها؟.."

قال أيمن "لست أعني ذلك، لكن مما يبدو لي أنك تولي نور اهتماماً يفوق اهتمام أي شخص آخر.. فما هدفك؟.. ما الذي تبغيه منها؟.."

قال عابد بسخرية " وما الذي قد أبغيه منها برأيك؟.. أهدفك من هذا الحديث هو إلقاء الاتهامات فقط؟.."

قال أيمن بعصبية "ليست مجرد اتهامات.. وجودك مع نور لا يريحني.. كما أنها تتصرف معي بطريقة غريبة منذ رأيتها.. إنها تلومني بوضوح لكل ما جرى لها.. أأنت من وضع في ذهنها أنني مذنب لأنني تخليت عنها طوال السنوات الماضية؟.. لابد أن تكون أنت المسؤول عن مثل تلك الأفكار.."

فقال عابد بحدة "لا تلُمني إن كانت الأمور لا تسير بينك وبين نور كما تتوقع.. ولو كنت تشعر بالذنب حيال ما جرى، فليس لي دخل فيه.. أنت، حتى الآن، لا تفهم ما تريده الفتاة منك حقاً.."

قال أيمن بحنق "أتريد إقناعي أنك تفهمها أكثر مني؟.. كيف يمكن لشخص مثلك أن يفعل ذلك؟"

فقال عابد بغيظ "وما ذنبي إن كنت متحجراً لا تكاد ترى ما حولك؟.. أنت لم تلاحظها عندما كانت على وشك البكاء.. لم تلاحظ ما كانت تريده منك.. لم تلاحظ وجودها البتة أغلب الأوقات.. فلمَ تلومني؟"

خفضت نور وجهها بصمت واضطراب وهي تستمع للحديث الدائر بينهما، بينما علق أيمن بسخرية "حقاً؟.. إذن ما الذي عرفته أنت بعقلك الاستثنائي هذا وفشلت أنا في ملاحظته؟"

زفر عابد وهو مدرك أن الجدال مع هذا الشقيق مستحيل.. ثم قال بضيق "كل ما تريده تلك الفتاة منك هو احتضانها وبعض الطبطبة على كتفها.. تريد البكاء على كتفك وذرف الشقاء الذي عانته لسنوات وحيدة.. طفولتها صعبة، وكونها فتاة جعلها أصعب بمراحل مما لو كانت فتىً.. بينما لم تكف أنت عن لومها منذ رأيتها وكأن الذنب ذنبها هي.."

ظل أيمن ينظر له مقطباً، ثم تساءل "كيف تعرف هذا أنت؟"

قال عابد بجفاء "صدقني، ما مرّت به نور ليس غريباً عني بتاتاً، لذلك لا يعرف هذا أحد أكثر مني.."

وقف أيمن في موقعه مقطباً بشدة، محاولاً تجاوز مشاعر الذنب الواضحة التي حاول توجيهها باتهامات نحو عابد.. لكن تلك المشاعر كانت تعود في كل مرة بشكل أقسى رغم كل محاولاته.. لكن ما الذي بيده فعله حقاً؟.. كيف يستطيع أن يعوّض شقيقته عما قاسته طوال سنوات من العيش وحيدة؟.. والأهم من ذلك، هل يتخلى عن المهمة التي جاء لأجلها وينسى السنوات التي قضاها هنا ليعود للعالم الجديد خالي الوفاض؟..

غادر أيمن بحنق تاركاً عابد يزفر وهو يستخرج من جيبه لفافة تبغ من القليل الذي بقي معه، ولما رأى اللفافة مبللة أعادها لجيبه وهو يشتم بحنق وينظر للسماء السوداء التي تلتمع بوميض البرق بين لحظة وأخرى، وغمغم "يا له من كوكب بائس.."

أما أيمن، فقد دخل الحظيرة وهو ينفض البلل عن شعره والضيق ظاهر على ملامحه، عندما رأى نور تقف قرب المدخل وهي تحدجه بنظرات اتهام صريحة.. عندها أدرك أنها قد استمعت لما دار بينه وبين عابد، فاقترب منها قائلاً "نور.. لا أريد منك مخالطة هذا الرجل بعد الآن.."

قالت نور بجفاء "لماذا؟.."

قال أيمن بضيق "أنا لا أرتاح له وأخشى عليك منه.."

فاحتدت نور قائلة "لماذا؟.. ألأنه ضخم؟.. ألأنه يبدو سوقياً بتصرفاته؟.. ألأنه لا يتحلى بالتهذيب الكافي ليروق لك؟"

دهش أيمن لغضبها الواضح دون سبب يفهمه، ثم اعترض قائلاً "لا داعي للجدال في الأمر وأطيعي ما أقوله فحسب.."

أشعرها هذا بغيظ شديد.. كيف يحق لأيمن التصرف بهذه الطريقة بعد كل السنوات التي اختفى فيها دون أثر ودون أن يعبأ بما يجري لها حقاً؟.. عندها قالت نور بحنق "ولماذا يجب أن أستمع لشقيق لم يفكر بأداء واجبه نحوي طوال سني عمري؟.. لماذا بعد أن نبذتني أنا وأمي تحاول الآن فرض سيطرتك عليّ؟.."

نظر لها أيمن بدهشة لكلماتها الصريحة التي لم يتوقعها، بينما أضافت نور بحزم "ربما كنت صغيرة السن في نظرك، لكني أستطيع تمييز البشر بشكل أفضل منك أنت.. لقد خالطتُ العديد منهم في سنواتي الأخيرة

دون أن أجد من يصنف لي الأشخاص في تصنيفات محددة.. وهذا الذي لا يروق لك قد أنقذ حياتي عدة مرات وعاونني بأفضل مما فعلت أنت طوال حياتك.."

قال أيمن بضيق "لا داعي لهذا الجدال يا نور.."

سمعوا طارق يقترب منهما قائلاً بتوتر "يا رفاق.. يكفي هذا الجدال.. أمامنا ورطة كبيرة، وعلينا التفكير بحل لها.."

قال عابد الذي دخل من بوابة الحظيرة في تلك اللحظة "ما الأمر؟.. هل أصاب المركبة أي عطل؟.."

أجاب طارق "لا.. الخطر لا يحيق بنا نحن فقط.. وليته كان كذلك، لما كان بهذه الصعوبة التي تواجهنا.."

نظر الثلاثة لطارق بدهشة وهو يخبرهم بما أبلغهم إياه عاصم خلال الاتصال القصير الذي دار بينهما..

عندها قال أيمن بقلق شديد "إذن علينا الهرب من هذا الموقع بسرعة قبل أن يحدث هذا بالفعل.."

نظر له طارق بشيء من الاستغراب قائلاً "وماذا عن مئات البشر الذين استوطنوا هذه المدينة؟.."

علق عابد قائلاً "لا تقل لي أنك تنوي إنقاذهم جميعاً؟!.."

أجاب طارق بسرعة "أليس حلاً طبيعياً؟.. لا يمكننا ترك البشر في هذا المكان وهم يجهلون ما سيجري لهم.."

فقال أيمن بضيق "أتظن أن أحداً منهم سيهتم بما تقوله؟.. هذا إن فهموك أصلاً.. وفوق هذا لا يمكننا أن نتأكد أن ما قالته الفتاة صحيح قطعاً.."

قال طارق بحزم "سنجزم بصحته في الوقت الحالي ونتصرف على هذا الأساس.. اتخاذ احتياطاتنا لن يضرّ أحداً أبداً.."

غمغم عابد "أنت مثالي أكثر من اللازم.."

قال طارق بضيق "هل يمكنك الرحيل من هذه المدينة وأنت مدرك أن المئات سيقضون نحبهم خلال ساعات معدودة؟.."

أجاب عابد "لا.. لا أظنني قادر على فعل ذلك.. لكن عليك أن تتأهب للأسوأ.. قد تكون جهودنا كلها بلا طائل.."

قال طارق "سنبذل ما بوسعنا.."

غمغم أيمن بغير تصديق "أنتما مجنونان.."

فقال عابد بجفاء "لا بأس.. احتفظ بعقلك لنفسك ولا تحاول منعنا مما سنفعله.."

نظر أيمن لعابد بحنق، بينما غمغم طارق "لكن كيف سنقنع أولئك المحليين بالرحيل؟.. إنهم لا يفهمون لغتنا على الأغلب.."

فقال عابد "دع لي هذا.. أملك حلاً ملائماً.."

التفت طارق إلى أيمن قائلاً "ابقَ هنا حتى تخفت العاصفة.. هذا الموقع مرتفع ولن يتضرر من ذلك الفيضان المحتمل.. سنحاول العودة بعد أن ننجز ما نقدر عليه.."

انبرت نور قائلة "أريد الذهاب معكما.."

قال أيمن بسرعة "لا.. ابقي هنا فهذا أأمن لك.."

هزت نور رأسها قائلة "بل أريد الذهاب ومعاونتهما.."

ونظرت لعابد مضيفة "ستذهبان لذلك الرجل.. أليس كذلك؟.."

أجاب عابد "بالفعل، هذا ما أنوي فعله.."

فقالت نور "لديه ابنة تعاني تشويهاً في عينيها ولا تستطيع الرؤية.. أريد معاونتها على الفرار حتى تتمكنا من تحذير سكان المدينة.."

صاح أيمن بغير تصديق "هل تنوين معاونة من اختطفوك؟.. أأنت حمقاء؟"

غمرها ضيق لأسلوب حديثه معها، فقالت "إنني أشفق عليها فحسب.. أليس هذا أمراً طبيعياً؟"

قال أيمن بإصرار "لا يمكنك اللحاق بهما.. لا ندري ما الذي قد يجري لك لو عدت لذلك الموقع.."

فقالت نور بحزم "يمكنك أن تأتي معي لتطمئن على سلامتي.... لو كان هذا الأمر يهمك حقاً.."

صمت أيمن على مضض بينما قال طارق "لنذهب.. لا ندري متى ستغرق المدينة في ذلك الفيضان.. يستحسن أن نحذر أهل المدينة بأسرع ما نستطيع.."

غادر الإثنان تتبعهما نور بخطوات سريعة.. فتبعهما أيمن رغماً عنه مدفوعاً بقلقه على نور وما قد يجري لها..

ونظر للسماء السوداء فوق رؤوسهم وشك يساوره أن الثورة التي تبديها السماء هذه الليلة ليست معتادة أبداً، ولا يشك أن تكون عواقبها وخيمة عليهم وعلى سكان هذه المدينة الغافية أمام أعينهم..

****

الفصل العشرون

ظلت الأمطار تنهمر بغزارة تامة وحماسة شديدة على تلك المدينة التي اتخذت موقعاً وسطاً بين جبال عالية تكسو قممها الثلوج.. ومع الغيوم المتكاثفة، بدت الليلة مظلمة أشد من كل الليالي السابقة، وساعد المطر الغزير على تعطيل الرؤية أكثر فأكثر جاعلاً السير في العراء شبه مستحيل.. لكن ذلك لم يعطل همّة طارق وعابد ونور تتبعهما عائدين إلى الموقع الذي وجدت نور نفسها سجينة فيه في اليوم السابق.. وخلفهم، سار أيمن بقلق وتوتر تامين وهو يتذمر من سوء الأحوال الجوية ومن غباء ما ينتوون فعله..

وخلال أقصر وقت ممكن، كان الأربعة يدخلون ذلك المبنى ذي الواجهات المهشمة والمطر قد بللهم بشكل كامل دون أن يخف انهماره حتى ذلك الوقت.. فقال عابد وهو ينفض البلل عن ملابسه "لا عجب أن تكون المدينة مهددة بمثل ذلك الفيضان.. مع هذه الأمطار التي لا تكاد تتوقف ومع موقعها المنخفض وسط الجبال، تبدو المدينة مهيأة لتصبح حوض سمك كبير الحجم.."

تساءل طارق "أين يختبئ ذلك الرجل؟.."

قادتهم نور إلى السلالم التي تقود للطوابق السفلية، وفور وصولهم لمواقف السيارات الواسع تمكنوا من رؤية تلك الجماعة من البشر الذين انطووا في جوانب المكان محاولين الحصول على بعض الدفء دون أن يتمكنوا من إشعال أي نيران مع البلل الذي غمر كل شيء.. وفي جانب المكان رأوا الرجل الذي اختطف نور وهو يجلس جانباً وقربه فتاة صغيرة تحدثه بقلق.. لم يتعجب طارق لرؤية التورم الذي طال وجه الرجل والدماء التي بدت آثارها في وجهه ويده الملفوفة.. من سوء حظه أن عابد هو من عثر على نور، فلا يظن طارق أن عابد سيتعامل مع الرجل بأي عقلانية خاصة مع شعوره بمسؤولية ما جرى لها..

ولدى اقترابهم منه، توتر الرجل وهو يرفع بصره إليهم بدهشة وتوجس.. ثم قال وهو ينهض واقفاً ويداري الفتاة خلف ظهره "ما الذي أعادكم إلينا؟.. أما زلت تريد الانتقام؟.."

تقدم طارق قائلاً "اهدأ.. نحن نبغي معاونتك في أمر مهم.."

قال الرجل بتهكم "حقاً؟.."

شرح له طارق ما سيجري للمدينة والذي بدت نذره بوضوح مع هذه العاصفة العاتية ومع الجداول التي رأوها تسيل بغزارة في عدد من شوارع المدينة.. لكن الرجل لم يبدُ عليه أي اهتمام وهو يقول بجفاء "أهذا ما جئتم لأجله؟.. أم أنكم تريدون إقناعي بأنكم تهتمون لأمر سكان المدينة حقاً؟.."

قال طارق بحدة " اسمع.. لا نملك الوقت الكافي لإقناعك، فأمامنا مئات البشر ممن علينا إقناعهم بدورهم ليغادروا المدينة.. وقد يبدأ الفيضان في أي لحظة من الآن فالأمطار تتصبب منذ ساعات دون توقف.. عندما تتجمع مياه الأمطار في الوديان القريبة، فإنها ستسيل دفعة واحدة بقوة كبيرة عندما تعجز الوديان عن احتوائها.."

قال الرجل بجمود "يمكنكم أن تفعلوا ما طاب لكم.. لكن اتركوني وشأني فلا دخل لي بما ستفعلونه.."

صاح طارق "ألا تفهم؟.. ستغرقون تحت سيل من المياه الهائجة.. ألا تخشى على ابنتك الصغيرة؟.."

التفتت الأعين القريبة لمن حولهم من السكان بنظرات بغض واضحة، فوضع عابد يده على كتف طارق قائلاً "يكفي هذا.. لا فائدة من محاولة إقناعه.. أنت رقيق أكثر من اللازم يا طارق.."

وتقدم من الرجل فقبض على مجمع ملابسه بقوة بينما أمسك يده الملفوفة بيده الأخرى قائلاً " اسمع يا هذا.. نحن لم نأتِ لنرجوك التعاون معنا، وحياتك لا تهمنا قيد شعرة.. لو كنا نعرف شخصاً آخر يتقن الإنجليزية لما لجأنا إليك بتاتاً.. ولو كنا نتقن اللغة المحلية لقمنا بتحذير سكان المدينة بأنفسنا.. فهل ستتعاون معنا وتحذر السكان من هذا الخطر أم نحاول إقناعك بطرق أخرى؟.."

عبس الرجل بألم مع ضغط عابد على يده المكسورة.. وصاح بعد أن عجز عن مقاومته "يكفي هذا.. سأفعل ما تطلبونه.."

أطلقه عابد قائلاً "إذن ابدأ بمن حولك.. أنذرهم أن المدينة ستغرق تحت مياه الأمطار التي تتراكم في الجبال والوديان القريبة.. وليبدأ كل شخص منهم بإنذار سكان المدينة بدورهم حتى يغادروها بشكل كامل.. فليلجؤوا للمناطق المرتفعة من الجبال القريبة في الوقت الحالي.."

زفر الرجل وهو يمسك يده المكسورة بألم، ثم استدار إلى المجموعة التي شاركته ذلك الموقع وبدأ يخاطبهم

بصوت مرتفع لجذب انتباه النائمين منهم.. بينما قال عابد لطارق "أرأيت؟.. هذه فائدة أن تكون مرعب المظهر.. لابد أنك تحسدني على ما حباني الله به.."

ابتسم طارق بجانب فمه مغمغماً "يا لك من....."

قاطعتهما أصوات اعتراضات عالية ارتفعت من البشر القريبين وهم يجادلون المترجم باستنكار واضح..

فعلق أيمن "كما تنبأت، لن يطيعوا ما تقولونه بسهولة.. نحن نضيّع وقتنا هنا بلا فائدة.."

لم يعلق عابد أو طارق على قوله وهم يراقبون ما يجري بين المحليين بصمت، ثم لاحظا البلبلة التي سادت تلك الجموع التي استوطنت هذا الموقع وقد قام أغلبهم بلملمة حاجياتهم البسيطة والاستعداد للرحيل بسرعة.. فأدركا أن المترجم قد أفلح في إقناعهم بالخطر الوشيك.. ورأوه يقترب منهم قائلاً "بقي الآن أن نغادر هذا المكان.. أتمنى ألا تكون توقعاتكما خاطئة لئلا نواجه غضبهم.."

قال عابد " بل أتمنى أن تكون مخطئة حقاً.. أتريد مواجهة فيضان هائج لأ نك تخشى غضب بعض البشر؟.."

اقترب الرجل من ابنته وساعدها على لملمة الأغراض قائلاً "في كل الأحوال، لا يمكننا البقاء وانتظار الأسوأ.."

تقدم طارق خطوة متسائلاً "مهلاً.. من سيقوم بتحذير بقية سكان المدينة؟.."

نظر له الرجل مقطباً وقال "أتظن أننا نستطيع تحذير المئات في وقت وجيز؟.. هذا سيجعلنا في قلب الخطر.."

قال طارق باعتراض "ليس هذا ما اتفقنا عليه.. حاول تحذير من تستطيع وهم بدورهم عليهم تحذير البقية.. قبل هذا، لا يمكننا مغادرة المدينة.."

قال الرجل بانزعاج "هذا مستحيل.. ماذا عن ابنتي؟.. لا أستطيع تركها هنا حتى أقوم بما تطلبانه مني، ولا أستطيع حملها وتأدية هذا العمل بالسرعة اللازمة.."

فقالت نور "أنا سآخذها لموقع آمن حتى تتمكنوا من تحذير سكان المدينة.."

نظر لها الرجل قائلاً بسخرية "حقاً؟.. كيف تتوقعين مني تصديق ذلك؟.."

قال أيمن "كل ما يهم الآن هو إنقاذ البشر من مصير بشع، فكيف تتوقع منا أن نحاول إيذاء فتاة صغيرة؟.. لم يكن هدفنا من القدوم إليك هو الانتقام.."

ظل الرجل مقطباً وهو يقلب بصره بينهم، فقالت نور بإلحاح "ليس الوقت ملائماً لهذا التأخير.. عليكم أن تسرعوا بتحذير سكان المدينة قبل فوات الأوان.."

عندها نظرت الفتاة لأبيها قائلة "سأذهب معهم يا أبي.."

نظر لها بقلق وهي تضيف "مهما سيحدث لي، فنحن نستحقه بعد ما فعلناه.. ربما كان إنقاذ سكان المدينة هو تكفير ملائم للخطأ الذي ارتكبناه.."

زفر الرجل بحيرة بينما قال طارق "المشكلة هي في الوصول لأكبر عدد من البشر في أقصر وقت ممكن.. تحذيرهم بشكل فردي لن يؤدي بنا لأي مكان.."

فقال عابد "المدينة معطلة تماماً، لذلك لا أمل من استخدام نظام بث أو مكبرات صوت في أي جانب منها.."

فقال أيمن "بالحديث عن مكبرات الصوت....."

نظروا إليه بتساؤل وهو يضيف "المركبة التي أتينا بها هي من المركبات الخاصة بمجلس الأمن.. وكل مركبات مجلس الأمن مزودة بمكبرات صوت.."

هتف طارق "لِمَ لَمْ تقل هذا منذ البدء؟.."

غمغم أيمن "لم يدر بذهني أننا قد نحتاجه لهذا الأمر.."

فقال عابد "طارق.. خذ الفتاتين معك للحظيرة التي كنا فيها، ثم عد إليّ بالمركبة.. سنحاول تحذير السكان في البنايات القريبة حتى عودتك.."

هز طارق رأسه موافقاً، فيما اعترض أيمن "كيف نتركهما وحيدتين؟.. لا ندري ما الذي سيحدث لهما أثناء غيابنا.."

علق طارق "يمكنك البقاء معهما.. فأنت لم تكن تريد المشاركة منذ البدء.."

نظر الرجل بقلق لابنته فيما قالت لها نور "هيا بنا.. يجب أن نبتعد عن هذا المكان.."

فقال الرجل بصرامة "لو حاولتِ إيذاء ابنتي، فلن أتردد في قتلك.."

قطبت نور قائلة "لا تقلق.. لست قاسية القلب كما تظنني وليس الانتقام هو هدفي.."

ضغطت الفتاة على يد أبيها قائلة "كن بخير يا أبي.."

ثم تقدمت نحو نور التي أمسكت يدها قائلة "لا تخافي.. سيكونون بخير.."

لم تكن نور تدرك مخاطر الفيضان المفاجئ وهي التي لم ترَ، أو تشهد، واحداً من قبل.. لذلك لم تكن قلقة كثيراً لمصير البقية.. فجذبت الفتاة معها وسارت خلف طارق وأيمن نحو الطابق الأرضي وهي تنبّه الفتاة للطريق أمامها كي تتمكن من مجاراتهم في السير.. ولما غادروا المبنى، قام طارق بحمل الفتاة على كتفيه ليستطيع العودة بسرعة لموقع الحظيرة وسط الأجواء الهائجة خارجاً..

أما عابد، فقد تطلع حوله للموقع الذي خلا من البقية بعد أن تدافعت الجماعة التي احتلت الموقع مغادرة قبل وقت قصير.. ثم قال للرجل القريب منه "هيا بنا.. علينا تحذير السكان القريبين من هذا الموقع حتى عودة البقية.."

اعترض الرجل قائلاً "لم لا نطلب منهم اللجوء للمواقع العالية من هذه البنايات؟.. سيكون هذا أكثر سهولة وسرعة.."

قال عابد "نحن لا نعرف مخاطر هذا الفيضان ولا منسوب المياه الذي سيبلغه في هذه المدينة المنخفضة.. أيمكنك أن تضمن ألا تغمر المياه أغلب هذه البنايات بمن فيها؟"

غمغم الرجل "هذه جهود عقيمة.."

علق عابد "سنبذل جهدنا حتى يعود طارق بالمركبة.. ثم إنك قد استطعت إقناع رفاقك بالهرب من المدينة، فلن يكون صعباً عليك إقناع البقية.."

قال الرجل "رفاقي يعرفونني منذ سنوات عديدة ويثقون بما أقوله مهما كان جامحاً.. لكن سكان المدينة لن يتصرفوا بالأسلوب ذاته بالتأكيد.."

فقال عابد وهو يجتاز السلالم المؤدية للطوابق العلوية ركضاً "لن نعرف حتى نحاول.."

****

نوعاً ما، أدرك طارق الكارثة الوشيكة مع رؤية الجداول التي سالت في شوارع وطرقات المدينة باندفاع مثير للقلق بعد أن تزايد منسوبها عما كان عليه عند قدومهم لأول مرة.. كما أن الأمطار الغزيرة لم تتوقف لوقت طويل حتى تساءل في سره كم سيطول بهم الوقت قبل أن تفرغ الغيوم ما بأحشائها من أمطار..

وعند وصولهم للحظيرة، ساعدت نور الفتاة لتجلس جانباً بينما تفحص طارق المركبة قائلاً لأيمن "كيف يمكنني تشغيل مكبرات الصوت؟"

نظر أيمن للوحة التحكم في المركبة مغمغماً "لقد رأيت أحد رجال الأمن يستخدمه سابقاً لتفريق بعض المحليين لكني لم أستخدمه قط.."

مد يده يضغط زراً ثم حمل الأداة الملحقة قائلاً "أتظنه يعمل بهذه الطريقة؟"

فوجئ طارق بالصوت العالي فسدّ أذنيه بسرعة وقال بعبوس "يبدو لي أنه يعمل بأفضل صورة.."

أعاد أيمن الجهاز لما كان عليه، بينما قفز طارق في المركبة قائلاً "سأعود إليهما، فابقَ أنت هنا مع الفتاتين.. لكن كن حذراً فلا ندري ما قد يحلّ بهذا الموقع لو حدث الفيضان بالفعل.."

وغادر بالمركبة بأسرع ما يستطيع، بينما قالت نور بضيق "ألم يكن من الأفضل لك لو مددت يد العون لهما؟.."

أجاب أيمن بسرعة "وأتركك بعد أن استعدتك بصعوبة؟.. ماذا لو اختطفك شخص آخر من سكان هذه المدينة؟"

غمغمت نور وهي تجلس جانباً "هذا عذر ملائم بالنسبة لك.."

التفتت إلى الفتاة القريبة تتأمل ملامحها الساكنة، ثم تساءلت "أأنت قلقة على أبيك؟"

أجابت الفتاة "لا.. لم يحدث شيء بعد.. فعلام القلق؟.. إنه يعدني دائماً أنه لن يتخلى عني، ولم يخلف وعده لي سابقاً.. وأنا واثقة أنه سيفي بوعده هذه المرة أيضاً.."

صمتت نور دون تعليق وهي تتأمل السماء السوداء التي تفرغ أحشاءها باستمرار ومثابرة.. وتنهدت وهي

تسند رأسها للجدار الخشبي خلفها.. مع الأحداث الوشيكة، كيف لهم أن يلجؤوا للراحة؟..

****

عندما عاد طارق بالمركبة، عثر على عابد في مبنى قريب والمترجم منخرط بحديث حاد مع المحليين الذين التجؤوا لذلك المبنى.. ولم تلبث تلك الجماعة منهم أن غادرت بارتباك وسرعة بينما عاد عابد والمترجم إلى طارق الذي قال "الأمور لا تبشر بخير.. المياه تسيل في جوانب المدينة بغزارة والأمطار لا تكاد تخفت للحظة.. لن يطول الوقت قبل أن يبدأ الفيضان.."

قال الرجل بقلق "هل يكفينا الوقت لإخلاء المدينة والهرب منها بأنفسنا؟"

أجاب عابد "سنفعل ما نقدر عليه.."

وصعد المركبة في الكرسي الخلفي تاركاً المترجم يصعد جوار طارق.. وبكلمات قصيرة، شرح طارق للرجل كيفية استخدامه لمكبر الصوت، ثم سار بالمركبة بسرعة متوسطة والرجل يستخدم مكبر الصوت لتحذير سكان المدينة باللهجة المحلية.. تعالى الصوت الغريب متجاوزاً صوت الأمطار الغزيرة ومتسللاً بين المباني التي لا تحمل أغلبها نوافذ وأبواب تحجزه.. لذلك، جذب تحذير المترجم أغلب السكان المحليين وهم ينظرون من النوافذ المهشمة بخامرهم تعجب مما يرونه بالإضافة للقلق مما يسمعونه من هؤلاء الغرباء..

بعضهم اقتنع بسرعة بما يسمعه، أو أنه أخذ جانب الحذر، وجمع أغراضه وعائلته وغادر مسرعاً.. والبعض الآخر تجاهل الأمر وانزوى في موقعه دون تعليق.. أما الغالبية فقد خرجت تستطلع الأمر وتجادل بشدة مقتنعة أن ما يقوله الغرباء هو محض جنون.. المدينة معتادة على أمطار غزيرة كل عام ولا يتسبب هذا إلا ببعض الخسائر.. ورغم كل محاولاته، لم يفلح المترجم في إقناع الجميع بسرعة التصرف والرحيل من المدينة قبل أن تبدأ طلائع الفيضان..

وبعد وقت طويل قضاه الثلاثة يجوبون أرجاء المدينة، قال عابد بضيق وهو يرمق السماء التي خفتت أمطارها إنما لم تتوقف تماماً "ما بهم هؤلاء الحمقى لا يطيعون ما يطلب منهم بصمت؟.. لا نملك الوقت

الكافي لإقناع كل فرد بما يجب فعله.."

علق طارق وهو يستدير بالمركبة في حيّ من أحياء المدينة "هذا كل ما بيدنا فعله للأسف.."

لاحظ بعض المحليين الذين وصلهم نبأ ما يجري، وبدأوا الرحيل بخطوات سريعة مخترقين ذلك الحيّ نحو الجبل القريب.. ثم جذب انتباه طارق صياح وبكاء من جانب المكان، فأوقف المركبة وتطلع لمصدر البكاء بينما قال المترجم "ما الذي جرى؟.. علينا أن نكمل مهمتنا بسرعة.."

أشار طارق لذلك الموقع قائلاً "انظرا.."

وقرب بناية متوسطة، رأوا عائلة كبيرة تتكون من عدد من كبار السن وبعض الأطفال بالإضافة لرجلين وثلاث نساء.. كانت النسوة يحملن بعض الأطفال بينما يحاول الرجلين مساعدة كبار السن على السير بسرعة تابعين الآخرين.. لكن بدا أن هذه مهمة مستحيلة في هذا الجو العاصف.. فغمغم طارق "علينا أن نفعل شيئاً.."

قطب المترجم وهو يرى طارق يقترب بمركبته من تلك العائلة قائلاً له "أخبرهم أننا سننقلهم لموضع آمن بهذه المركبة.."

علق عابد قائلاً "هذه المركبة لن تسعهم جميعاً.."

قال طارق "سأتركك مع هذا الرجل هنا حتى أنقل من أستطيع نقله.. سأحمل الأطفال وكبار السن ومن يمكنني حمله من النسوة.. على البقية أن يسيروا وحدهم لأقرب موضع آمن.."

نقل المترجم قوله لتلك العائلة التي وقفت بتردد كبير، بينما هبط عابد قائلاً "لا تتأخر كثيراً في العودة إلينا.. علينا أن ننهي عملنا فيما بقي من أحياء المدينة.."

هز طارق رأسه موافقاً، بينما هبط المترجم بدوره قائلاً "سيحملون الأطفال وكبار السن في المركبة.. وهم يعربون عن شكرهم العميق لك لذلك.."

لم يعلق طارق وهو يعاون إحدى النسوة ممن يتجاوز عمرها سبعون عاماً على صعود المركبة بمشقة.. ولما استقر من يمكن أن تضمّهم المركبة في ثناياها، وتكدس الأطفال عند أقدام الكبار، قال طارق لعابد "سأعود لهذا المكان بعد أن أوصلهم.. حاولا تحذير من تقدرا على الوصول إليه حتى عودتي.."

وقاد المركبة بشيء من الحذر وسط بكاء بعض الصبية ممن فزعوا من حركتها، بينما قال عابد للمترجم "هيا بنا.. يحسن بنا أن نكمل ما بدأناه.."

تبعه المترجم بصمت بينما نظر عابد للسماء من جديد بقلق لم يكد يخفت..

****

عندما بدأ كل شيء، لم يكن سكان المدينة قد تهيؤوا للحدث بشكل كامل.. توقفت الحركة في الشوارع مع ذلك الهدير العالي الذي صدر من أحد الجبال القريبة.. بقيت الأعين معلقة بذلك الموقع بتوجس كبير وقد تجمدوا في أماكنهم حتى بدأت طلائع الفيضان وهم يرون المياه المندفعة تخترق أحد الشوارع القريبة من ذلك الجبل ساحبة معها عدداً من السيارات وجذوع أشجار المهشمة.. عندها تعالت صيحات الفزع والجموع القريبة تتراكض من أمام ذلك التيار الهائج لاجئين لأقرب موقع عالٍ سواء أكان بناية أم عمود إنارة أم شجرة عالية.. أفلح أغلبهم بالهرب من هذه الكارثة، لكن القليل منهم وجد نفسه أمام تيار قوي لا يرحم جرفه بكل قوته كدمية غير ذات إرادة.. كان صوت هدير المياه يصمّ الآذان وارتطام ما تجرفه بالبنايات وأعمدة الإنارة القريبة تثير فزع من نجا من المحليين.. ومع تزايد قوة السيل وغزارته، بدأ منسوب المياه يرتفع ليغمر الطوابق السفلية من البنايات التي يمر بها.. لم يتمكن أحد من معرفة إلى أي مدى سيستمر هذا السيل، رغم توقف الأمطار بالفعل، لكن المياه المندفعة أشعرتهم أنها قادرة على تغطية المدينة كاملة في وقت قصير..

عندما اقترب السيل من مركبة طارق، كان الأخير عائداً للموقع الذي اتفق عليه مع عابد بعد أن تمكن من نقل تلك الجماعة من كبار السن والأطفال نحو موقع خارج المدينة على مرتفع يحميهم من السيل.. ولما رأى المياه المندفعة من أحد الطرقات القريبة، حاول طارق تجاوزه وهو يدفع مركبته للسير بكل قوتها مستغلاً خلو الطريق من سيارات أخرى قد تعيقه.. ناور بمركبته متجاوزاً عدداً من الحفر في الشارع الإسفلتي وبعض الحجارة الساقطة من البنايات القريبة، وكان هذا سبباً في تبطئة سرعته بشكل محدود

حتى وجد المياه المندفعة تصل إليه فتدفع المركبة أمامها بقوة وهي تميل جانباً بحدة.. نظر طارق حوله متوتراً وهو مدرك أن صمود المركبة لن يطول إلا للحظات معدودة، عندها سيكون موته محتماً مع هذا العنف الذي تهدر به المياه في الشارع المنحدر لجزء سفلي من المدينة.. وخلال هنيهة، تساءل طارق إن كان سينجو حقاً من هذه الهجمة الغاضبة التي فاجأتهم بها الأمطار في هذه البقعة البعيدة..

بعد أن كاد طارق ييأس من نجاته من هذا المصير، لاحظ أن المركبة تميل بحدة نحو أحد المباني القريبة وتكاد ترتطم بها بقوة.. فاستقر على قرار سريع لا يدري إن كان سيصبّ في صالحه أم سيكون سبباً في موته.. لكنه لم يتردد وهو ينهض واقفاً في المركبة بشيء من الثبات مراقباً اقتراب مركبته من المبنى، وقبل أن ترتطم بجدار المبنى بالفعل قفز طارق بأقوى ما يملك وتعلق بإطار حديدي لشرفة منخفضة في الطابق العلوي.. سمع طارق الارتطام القوي أسفل المبنى ورأى المركبة وهي تنقلب بقوة عدة مرات والسيل يجرفها معه بسرعة، فزفر طارق وهو يستنفر قواه محاولاً الوصول لتلك الشرفة دون أن يسقط في المياه الهائجة..

وبعد عدة محاولات، تمكن طارق من رفع جسده للأعلى واللجوء للشرفة بسرعة بعد أن شعر بالمياه تلمس قدمه وتكاد تجذبه معها.. ولما نظر تحته، لاحظ أن منسوب المياه بدأ يرتفع قريباً من الشرفة مهدداً بغمر هذا الطابق كله تحتها.. فلم يبطئ طارق وهو يستدير ويلج المبنى من النافذة المحطمة محاولاً الوصول للطوابق العلوية منه.. بعد أن فقد مركبته، عليه أن يعود لموقع الحظيرة حيث ينتظره رفاقه على قدميه.. لكن، ما الذي جرى لعابد والرجل الآخر؟.. لقد جرفه السيل بعيداً عن موقعهما، ولم تعد لديه وسيلة لمعرفة مصيرهما في هذه اللحظة..

زفر طارق وهو يتأمل السيل من شرفة أحد طوابق المبنى العلوية، ثم غمغم "سيلومني أيمن لفقد المركبة ولاشك.."

****

في جانب آخر من المدينة، كان المترجم يركض خلف عابد صائحاً "علينا أن نغادر.. لقد قمنا بما علينا القيام به بالفعل، وبقي أن ننجو بحياتنا.."

نظر عابد حوله مقطباً وقال "لكن هناك الكثير من المواقع التي لم نتمكن من الوصول إليها.. ما الذي سنفعله إزاء ذلك؟"

قال المترجم بقلق "لن يفيدهم موتنا في شيء لو أصررت على البقاء.. هذا الموقع أصبح خطراً، وعلينا الابتعاد والبحث عن بقعة مرتفعة لا تصلها المياه.."

زفر عابد بشيء من الضيق.. رغم كل محاولاتهم، إلا أن المدينة أكبر من أن يتمكنوا من تغطيتها بثلا ثة أشخاص فقط في وقت وجيز ودون وسائل تساعدهم على ذلك.. فما الذي يمكنهم فعله؟..

في تلك اللحظة، سمعا الهدير العالي من موقع مرتفع من المدينة يقترب منهما بسرعة كبيرة.. فنظرا لذلك الموقع بشيء من الصدمة وهما يريان طلائع ذلك السيل الذي جرف كل ما يمر به وهو يندفع كقبضة قوية قاسية ترتطم بما يعترض طريقها.. وساعد موقع المدينة المنخفض على تجمع المياه بشكل أكبر والصخور الصماء تحتها لا تتمكن من تصريف المياه بالسرعة الكافية..

صاح الرجل في تلك اللحظة مع المنظر المرعب الذي يقترب منهما "نحن هالكان لا محالة.."

لكن عابد لم يستسلم وهو يجذبه من ملابسه نحو أقرب عمود معدني يحمل إشارات ضوئية فقدت عملها منذ أمد طويل.. فسارع عابد لارتقاء العمود الذي كان أقرب إليهما يتبعه الرجل بسرعة بينما هجمت المياه على موقعهما السابق بقوة جعلت العمود يرتجف بشكل واضح وصورة أقلقت عابد بشدة..

نظر عابد للمياه الثائرة وقال "لو تأخرنا ثانية واحدة لغمرتنا المياه بشكل كامل.."

قال الرجل بشيء من السخط "أخبرتك أن علينا الرحيل....."

قطع قوله وقدمه تزل فجأة أثناء صعوده ذلك العمود الأملس، فسقط في المياه الهائجة تحته وهو يشهق بقوة.. لكن سقوطه لم يكتمل وعابد يقبض على ملابسه بقوة لئلا تجرفه المياه المندفعة وصاح به "تشبث بسرعة.."

حاول الرجل التشبث بالعمود القريب، لكن قوة المياه كانت عنيفة وهي تمنعه من مقاومتها والارتفاع من

جديد.. بذل عابد جهده لتخطي ذلك العائق، لكنه لم يكن بكامل قواه مع ذلك الجرح الذي عاد يؤلمه مع هذا المجهود، ومع العمود الذي كان خالياً مما يمكن التشبث به.. تلفت حوله بشيء من اليأس بعد أن خفتت الأمطار بشكل كبير، ثم صاح بالرجل من بين الهدير العالي للمياه القريبة "أترىٰ تلك الشجرة؟.. سنحاول التشبث بها وتسلقها لنصل للمبنىٰ القريب منها.."

نظر الرجل للموقع الذي أشار إليه عابد، وهو يبعد عنهما عدة أمتار في اتجاه السيل الهائج، ثم صاح برعب "أنت تهذي.. لو سقطنا في هذه المياه الهائجة فلن ننجو أبداً.."

صاح عابد "ليس إن عملنا معاً.. لا أستطيع رفعك من هذا الموقع، كما أن العمود لن يصمد طويلاً.."

ظل الرجل ينظر للمياه الهائجة برعب، بينما لاحظ عابد حافلة متوسطة الحجم تندفع نحوهما بسرعة مع المياه الجارية.. فصاح "ارتطام تلك الحافلة سيسقطنا معاً وقد يطيح بالعمود ذاته.. إما أن نفعل هذا الآن أو نجد أنفسنا تحت رحمة المياه الثائرة.."

ثم قفز في المياه الهائجة دون أن يفلت الرجل.. فوجد المياه تدفعهما معها بقوة وتقلبهما بقوة قبل أن يتمكن عابد من رفع رأسه فوق المياه بصعوبة.. جذب الرجل القريب ليرفع رأسه فوق المياه، ومن بين شهقاته المتسارعة صاح به عابد "كن مستعداً.."

وأمسك ذراع الرجل الذي تخبط شيئاً ما محاولاً موازنة نفسه فوق المياه التي دفعتهما نحو تلك الشجرة ذات الجذع الضخم والذي مكنها من الوقوف في وجه الفيضان.. وفور وصولهما لذلك الجذع، تشبث به الاثنان بأقوىٰ ما يستطيعان مقاومين التيار العنيف الذي حاول انتزاعهما من موقعهما.. وبصعوبة، تمكن عابد من التثبت من موقعه وهو يقول للرجل محاولاً تجاوز الهدير العالي "استند عليّ وارتفع بسرعة.. لن يمكننا الصمود لوقت طويل.."

نظر له الرجل وللشجرة العالية بقلق، ثم شد عزمه وهو يستند علىٰ ساعد عابد ويرفع نفسه فوق المياه المندفعة.. تأكد من ثبات قبضته قبل أن يرتفع خطوة أخرىٰ للأعلىٰ وعابد يمسكه لئلا يزل من جديد.. وبعد جهد، تمكن من الوصول لأدنىٰ فروع الشجرة فتشبث به بقوة وهو يرفع جسده النحيل عليها.. وعندما تأكد من ثباته صاح بعابد "حان دورك.."

لم يكن الأمر بالسهولة ذاتها بالنسبة لعابد، فرغم أنه يفوق الرجل قوة إلا أن جسده أكثر ثقلاً أثناء تسلق الشجرة.. والمياه التي تصرّ على جذبه معها لا تجعل الأمر أكثر سهولة.. شد عابد عزمه وتأكد من ثبات قبضته وهو يرفع نفسه خطوة فخطوة ببطء.. وقبل أن يتخلص من سطوة المياه ويرفع جسده فوقها، سمع صيحة الرجل قائلاً "انتبه.."

نظر عابد حوله، فلاحظ جذعاً خشبياً يطفو على المياه مندفعاً نحوه بقوة.. ارتطام ذلك الجذع به كان كفيلاً بإعادته للمياه وإفقاده توازنه، وعندها قد لا يتمكن من إنقاذ نفسه قبل أن يغرق تحت المياه التي تجذب ضحاياها للأسفل بغير رحمة..

تمالك عابد نفسه بسرعة ورفع جسده خطوة قبل أن يقفز بأقوى ما يملك متشبثاً بفرع الشجرة القريب.. كاد يزلّ مع الألم الذي شعر به في ذراعيه، لكنه أجبرهما على عدم الاستسلام وهو يسمع ارتطام الجذع الخشبي بالشجرة بعد مغادرته موقعه بلحظة قصيرة، ولم يلبث الجذع أن أكمل سيره تاركاً مصيره للتيار القوي.. زفر عابد وهو يجذب نفسه فوق الفرع بمجهود شاق، بينما قال الرجل "نجونا بأعجوبة.."

نظر عابد حوله لاهثاً بتعب، ثم أشار للمبنى القريب قائلاً "يبدو هذا المبنى ثابتاً كفاية.. فلنحاول الوصول إليه قبل أن تهوي هذه الشجرة أيضاً.."

كانت أفرع الشجرة تصل حتى ذلك المبنى المتوسط والذي بقي على حاله وإن تهشمت أغلب نوافذه، فنهض الرجل وسار بحذر متمسكاً بما يطاله من أفرع حتى اقترب من المبنى ومن نافذة قريبة فيه.. وببعض الجهد، وصل للنافذة واعتلاها محاذراً أن يؤذيه الزجاج المهشم.. ومنها وصل لغرفة شبه فارغة إلا من بعض الأثاث القديم المكوّم جانباً.. وبعد قليل، تبعه عابد بحذر أكبر وهو يخشى ألا يتمكن ذلك الفرع من تحمل ثقله عندما يبتعد عن جذع الشجرة الذي يسند الفرع بثبات.. وبقلق، راقب الرجل مغامرة عابد التي كانت غير محسوبة، وقال له بصوت مرتفع "ربما من الخير لك أن تبحث عن فرع أكثر قوة وثباتاً.."

لكن عابد غامر بحظه وهو يقترب من النافذة بخطوات وئيدة.. ولما سمع صوت تهشم الفرع من تحته، أدرك أن حظه قد بدأ ينفذ.. لكن التراجع لا يقل خطورة عن التقدم في هذه اللحظة، فرفع عابد رأسه للأعلى بقلق قبل أن يقفز بقوة متشبثاً بفرع آخر فوق رأسه، ثم طوّح جسده بقوة متأرجحاً عدة مرات قبل

أن يقفز نحو النافذة القريبة..

تراجع الرجل بعد أن رأى ما يفعله عابد، ولما رأى جسده يسقط على أرضية الغرفة الإسمنتية ويتدحرج للحظات، تنهد قائلاً "أخيراً أصبحنا بأمان.."

اعتدل عابد وهو يدلك رقبته بألم محاولاً تجاهل الآلام التي اندلعت في جرح ظهره مع سقوطه على الأرض القاسية، ثم قال "يجب أن نكون حذرين من ارتفاع منسوب المياه.. قد تغمر هذا الطابق بسهولة لو لم ننتبه لها.."

تساءل الرجل "أما من وسيلة لمغادرة هذا المبنى؟"

أجاب عابد وهو يقترب من النافذة "أشك بهذا.. الأمطار خفتت كثيراً وتكاد تتوقف.. يبقى أن ننتظر استقرار الأمور وتوقف اندفاع المياه قبل أن نبحث عن وسيلة لمغادرة المدينة.."

لاحظ عابد حجم الخراب الذي حلّ بالمدينة المدمرة، ولم يفته رؤية بعض الأجساد التي طفت بسكون والتيار يجذبها معه دون مقاومة منها.. فعبس عابد مغمغماً "رغم كل جهودنا، إلا أن عدداً من البشر لم يتمكنوا من تفادي هذا المصير.."

جلس جانباً بتعب شديد وهو يفكر بمصير البقية بقلق.. من سوء حظهم أنهم لا يملكون وسيلة للتواصل إلا ما تحمله تلك المركبة، ولا من سبيل لمعرفة ما جرى لهم إلا بعد أن تهدأ العاصفة ويتمكنوا من مغادرة موقعهم بأمان..

****

انقضت عدة ساعات منذ بدأ الفيضان ونور تقف قرب بوابة الحظيرة تنظر لما بدا لها من المدينة القريبة بقلق.. رأت توافد جماعة كبيرة من سكان المدينة ولجوئهم لبعض الأكواخ القريبة هرباً من الأمطار المستمرة.. لكنها لم تجد أثراً من عابد أو طارق.. سمعت الفتاة قربها تتساءل بقلق "ألم يعودوا بعد؟.. هل سيكونون بخير؟"

أجابت نور بشيء من عدم الثقة "لابد أن يكونوا بخير.. لكن لابد أن تحذير من بقي من السكان يستغرق منهم وقتاً أطول.."

تساءلت الفتاة بصوت مرتجف "لكني سمعت هدير المياه بوضوح منذ وقت طويل.. ألا يمكن أن تكون المياه قد حاصرتهم في أحد مواقع المدينة؟.. ماذا لو جرفتهم المياه معها؟.. أهذا يعني أنهم قد ماتوا؟"

قالت نور بشيء من العصبية "لا يمكن أن يكون ذلك قد حدث.. لابد أنهم بخير بإذن الله تعالى.."

ارتجفت شفتا الفتاة وهي على وشك البكاء هامسة "ماذا لو لم يعد أبي أبداً؟.. لا أحد لي بعده، ولا يمكنني الوثوق بأحد أبداً ونحن بعيدان عن القرية.. ماذا سأفعل عندها؟"

نظرت لها نور بإشفاق لم تملكه، عندما سمعت صوت خطوات راكضة تقترب من الحظيرة، فنظرت بلهفة للقادم لترى طارق يقترب منهما راكضاً والطين يبلل ملابسه بشكل كامل، فيما قالت الفتاة بأمل "أهو أبي؟.."

غمغمت نور "لا.. إنه لم يعد بعد.."

خفضت الفتاة وجهها بقلق ظاهر، بينما اندفع طارق من بوابة الحظيرة وقال "هل عادا؟.."

أجابت نور "لا.. ليس بعد.. ألم يكونا معك؟.."

أجاب طارق وهو يجلس جانباً بتعب "لقد افترقنا عندما قمت بنقل جماعة من كبار السن والأطفال باستخدام المركبة، وعندما حاولت العودة إليهما فوجئت بالمياه المندفعة والتي جرفت معها المركبة ولم أنجُ إلا بأعجوبة بعد أن خسرت المركبة.."

تساءلت نور بقلق "إذاً ما الذي جرى لهما؟.. أيمكن أن تكون المياه قد حاصرتهما؟.."

قلب طارق يديه بجهل، فصمتت نور بقلق شديد وهي تحاول عدم التفكير في إمكانية موتهما غرقاً.. لا يمكن أن يموت عابد بعد أن تكبد لإنقاذها واستعادتها.. سيكون هذا قاسياً بشدة.. ولا تريد التفكير في حال الفتاة لو قضى أبوها نحبه..

سمعت أيمن يقول وهو يقترب من طارق بضيق "كيف تتسبب بخسارتنا للمركبة؟.. الآن كيف سنتمكن من العودة للمعسكر أو الاتصال بهم؟.."

قال طارق "أتظنني فعلت هذا عمداً؟.."

قال أيمن بحنق "لقد كنت رافضاً لقيامكم بهذا العمل.. الآن نحن في أسوأ حال ممكن.."

لم يعلق طارق على قوله، بينما بدا الضيق ظاهراً على ملامحه.. نور أيضاً استاءت مما قاله أيمن وأشاحت بوجهها بضيق، عندما وجدت الفتاة تقبض على يدها قائلة بلهفة "لقد عادا.."

نظرت لها نور بدهشة متسائلة "ما أدراك؟.."

قالت الفتاة"أسمع أصوات خطواتهما.. أبي قد عاد.."

واستدارت متلمسة طريقها للخارج بانفعال، بينما قالت نور وهي تلحق بها "أنا لا أسمع شيئاً.."

وفي الخارج، لم تتمكن نور من رؤية شخص للحظات والفتاة تزداد لهفة وهي تقول "إنه يقترب.. أشعر بهذا.."

رفعت نور حاجبيها بدهشة، ولما أمعنت النظر، استطاعت رؤية جسدين لم تتبينهما جيداً يقتربان من هذا الموقع.. وقفت نور قرب الفتاة وهي تتطلع للجسدين بأمل، ولما استطاعت تبينهما تنهدت قائلة "إنهما هما بالفعل.."

أشرق وجه الفتاة بسعادة وهي تسرع لملاقاة أبيها بمعاونة نور.. وعندما وصلت إليه ارتمت عليه معانقة إياه بقوة، بينما تقدمت نور من عابد قائلة بقلق "أأنت بخير؟"

غمغم عابد "ما بالي لا أسمع إلا هذا السؤال منذ وصلنا للأرض؟"

ابتسمت نور شيئاً ما وعلقت "حمداً لله على سلامتك.. ظننتك لن تعود أبداً بعد كل ما جرى.."

قال عابد زافراً "عدنا بمعجزة.. هل عاد طارق؟.."

هزت رأسها إيجاباً، وأضافت بابتسامة "تبدو بحالٍ يرثى لها.."

لم ينكر عابد ذلك وهو يتبع الرجل وابنته نحو الحظيرة.. ورغم أن الأمطار قد توقفت تماماً، إلا أن البلل قد غمر كل شيء بشكل لن تتمكن الشمس الضعيفة من تبخيره بسهولة..

وفي الحظيرة، تلفت عابد حوله متسائلاً " أقترح أن نرحل حالاً قبل أن تداهمنا مصيبة أخرى.. أين المركبة؟.."

قال طارق بأسف "لقد فقدتها أثناء هربي من الفيضان.."

نظر له عابد بصدمة، ثم قال بسخط "أيعني هذا أننا يجب أن نعود سيراً على الأقدام؟"

أجاب طارق "لا.. لقد تحدثت مع عاصم قبل بدء الفيضان بقليل، وهو قد أبلغني عن نيته إرسال مركبة أخرى إلينا على سبيل الاحتياط.. فلنبقَ في موقعنا عند الحظيرة حتى تصل المركبة الأخرى.."

التفتت نور إلى الرجل وابنته متسائلة "ماذا ستفعلون بعد الآن؟"

أجاب الرجل "سنكمل طريقنا نحو الجنوب.. لا أعرف أين بقية رجال القرية، لكني أتمنى أن ألاقيهم لو انطلقت في الطريق الذي اعتدنا سلكه كل عام.."

فقالت نور للفتاة "كوني بخير يا صغيرة.."

تساءلت الفتاة ببراءة "ألا تكرهيننا؟"

ابتسمت نور مجيبة "لا يمكنني ذلك.. أنا أدرك أن أباك فعل ذلك خوفاً عليك وحرصاً على سلامتك.. ونوعاً ما أنا أحسدك على ذلك.."

تساءل الرجل "لماذا قمتم بإنقاذ سكان المدينة رغم خطورة ذلك؟.. ما عهدناه من القادمين من الفضاء عدم اهتمامهم بحياة سكان الأرض واستهتارهم في التعامل معنا.. فلماذا بذلتم كل هذا الجهد لأجلنا؟"

أجاب طارق "لأننا كلنا بشر من موطن واحد.. ولا يمكنك أن تقيس الجميع بتصرفات جماعة صغيرة منا.."

خفض الرجل رأسه قائلاً "ليت الجميع يتعامل مع سكان الأرض مثلكم.. إنهم يزيدون معاناتنا أضعافاً مضاعفة دون سبب مفهوم.."

ثم نظر إليهم مضيفاً "أنا شاكر لكم عودتكم لنا.. وسأبقى ممتناً لكم مدى الحياة.."

غمغم عابد معلقاً "أتمنى ألا تطول حياتنا على هذا الكوكب أكثر مما فعلت.."

تساءل طارق بابتسامة "أهذا يعني أنك مستعد للموت هنا؟"

أجاب عابد بحنق "بل عنيت أن نرحل بأسرع ما يمكن.. أنت تحب أن تسيء فهمي دائماً.."

ابتسمت نور لجدالهما الدائم، منذ عرفتهما، بينما جلس أيمن جانباً وهو ينظر إليها بقلق.. ثم زفر وهو ينظر

للسماء الغائمة كعادتها والتي توقفت عن صبّ المياه على رؤوسهم وبدأ نور خفيف يتسلل منها معلناً بداية يوم جديد قد لا يختلف كثيراً عن سابقيه..

❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊

الفصل الحادي والعشرون

في ذلك المنزل الصغير الذي تم تحويله كعيادة مصغرة، والواقعة في جانب معسكر الفرقة العلمية، جلست نور أمام عالية التي أخذت تتفحص أصابعها وهي تغمغم بإشفاق "ما الذي فعله أولئك الهمج بك يا صغيرة؟.. هذا شيء لا يصدق.."

لم تعلق نور وهي تراقب عمل عالية بصمت، بينما حاولت عالية جهدها ألا تؤلم نور وهي تتفحص الكسور قبل أن تبدأ علاجها.. لم تصدق نور أنها ستعود للبقية، ولم تصدق أنهم سينتظرونها ولن يغادروا الأرض بدونها.. شعرت بالحرج، وشيء من السعادة، للحفاوة التي استقبلها بها نوح وربُى وميساء وللقلق الذي بدا على وجوههم لما حل بها.. وسرعان ما تناست ذلك الخوف والرعب الذي شعرت به في الأوقات التي قضتها في قبضة ذلك الرجل.. ورغماً عنها، تساءلت عن حال تلك الفتاة الصغيرة التي لم ترَ النور منذ مولدها.. أحقاً يمكن للعلم الحديث أن يعالج تشوهاً مثل الذي تملكه؟.. هل تستطيع استعادة بصرها المفقود لو رحلت للمستوطنات؟.. لكن من سيهتم بعلاجها؟.. ما لا يدركه ذلك الرجل أن الهيئات والمؤسسات الطبية لن تقوم بعلاج ابنته مجاناً مهما كانت الفتاة بحاجة لذلك العلاج.. ما لم يملك الرجل مالاً يمكنه من تغطية نفقات علاجه، فإن ذهابه للعالم الجديد لا مغزى له بتاتاً..

بعد أن أنجزت عالية عملها، كانت يد نور ملفوفة بالجبس بشكل محكم ومعلقة في رقبتها.. وقالت لها عالية "إن شعرت بالألم في أي وقت تعالي إليّ وسأعطيك مهدئاً.."

هزت نور رأسها شاكرة وهو تزفر متطلعة ليدها.. كم يوماً ستبقى يدها بهذه الصورة؟.. رحلتهم للعالم الجديد ستدوم شهراً تقريباً، فهل ستحتفظ بهذا الجبس لشهر كامل؟..

قاطع أفكارها رؤية عابد الذي وقف قرب باب العيادة بتردد كبير.. ثم وجدته يتقدم فيقف قربها متسائلاً "أأنت بخير الآن؟"

لاحظت نور الانفعال على وجه عالية، وهو أمر أدهشها، لكنها تجاوزت ذلك وهي تجيب عابد "أجل.. أنا

أفضل حالاً الآن.."

ثم غمغمت خافضة رأسها "شكراً لأنك أتيت لاستعادتي.. وآسفة لما سببته لك من متاعب.."

ربت عابد على رأسها برفق قائلاً "لا داعي لكل هذا الامتنان الظاهر في صوتك.. من الطبيعي أن آتي للبحث عنك فأنا لا أتخلى عن مساعدي الوحيد.."

رأت نور عالية تتقدم منهما سائلة عابد بصوت متوتر "أأنت أفضل حالاً الآن؟.. عليّ تفحص جرح ظهرك لأطمئن عليه.."

تجاهلها عابد بشكل واضح ولم يلتفت إليها، فمدت يدها ولمست ذراعه قائلة بابتسامة خفيفة "لا بد أن مجهوداً كالذي بذلته لا ستعادة الفتاة أثر على جرحك الذي لم يبرأ بعد.. دعني أتفحصه لأطمئن على....."

لطم عابد يدها قائلاً بجفاء "لا داعي لادّعاء الاهتمام لشأني.. لن تجدي من يلومك لو أنك تصرفت على طبيعتك هنا وكففتِ عن هذا الادّعاء المزيف.."

غلبت الدهشة نور لهذا التصرف المفاجئ من عابد، بينما قالت عالية بصوت يرتجف "لماذا؟.. لماذا تعاملني بهذه الصورة؟.."

قال عابد بسخرية "أتريدين مني تناسي ما سبق ومعاملتك باللطف الذي يروق لك؟.."

صاحت عالية "ألا زلت حاقداً عليّ؟.. أنت لم تعد طفلاً.. متى ستتصرف كالرجل الذي أصبحت عليه؟"

غمغم عابد "ربما كنت طفلاً بالفعل لسوء حظك.."

وغادر بحنق واضح بينما زفرت عالية وهي تراقبه بضيق.. أما نور، فقد ظلت صامتة طوال الحوار الذي دار بينهما وهي بدهشة من جفاء عابد وكرهه الواضح لهذه المرأة التي لا تعرفها.. ولم يبدُ لها أن السبب حديث تماماً.. فتساءلت بعد غياب عابد "هل كنت تعرفين عابد قبل الآن؟.."

أجابت عالية بشيء من الانكسار "عابد شقيقي.."

رفعت نور حاجبيها بدهشة كبيرة وهي تتأمل ملامح عالية بحثاً عن شبه بينها وبين عابد، بينما أضافت عالية "إنه يصغرني بسبع سنين، وأنا لم أره منذ سبعة عشر سنة.. ومع ذلك، يعاملني بهذا العداء الواضح

وكأنني لا أعني له شيئاً.."

تذكرت نور رد فعل عابد عندما عرف بوجود شقيقته على الأرض واحتمال لقائه بها.. وهذا زاد تعجبها أكثر مما دفعها لتقول "ما الذي حدث بينك وبينه قبل افتراقك عنه؟.. يبدو لي أن ذلك قد أثر فيه بشكل عميق، لذلك يعاملك بهذه الصورة.."

قالت عالية بشيء من العصبية "لا أدري لِمَ هو متشبث بهذا العناد.. لقد كنتُ فتاة صغيرة لم أتجاوز السابعة عشر من عمري، وكنت أمر باختيارات عسيرة وظروف صعبة.. من يمكنه أن يلومني على شيء تفوهت به؟"

علقت نور بحزم "أنا في السادسة عشر من عمري، لكنني أتحمل مسؤولية أقوالي وأفعالي بشكل تام.. لا أعتبر نفسي طفلة كما تتذرعين أنت.."

صمتت عالية بعصبية واضحة، بينما ألحّت نور قائلة "ما الذي جرى بينك وبين عابد قبل افتراقك عنه؟"

استسلمت عالية وهي تخفض وجهها وتقول بصوت خافت "لقد تمنيتُ أن يموت عابد.."

اتسعت عينا نور بصدمة وهي تراقب ملامح الذنب على وجه عالية، ثم هتفت "كيف أمكنك فعل ذلك؟.."

نهضت عالية بعصبية وهي تدور في الغرفة قائلة بانفعال "في ذلك السن، فقدت أمي للتو، وأنيطت بي مهمة العناية بعابد مع عمل أبي المستمر وبدء انغماسه في إدمان عدة أنواع من المخدرات والتي لم يتخلّ عنها حتى موته.. كنت متفوقة وذات مستقبل علمي يبشر بنجاح كبير، لكن تراجع كل هذا مع اضطراري للانشغال بأخي الصغير الذي لم يكد يبلغ العاشرة من العمر.."

وزفرت وهي تنظر عبر الباب مضيفة "بعد موت أمي بسنتين، حصلت على منحة دراسية لإكمال تعليمي في أرقى الجامعات في مستوطنة ساتور، وهو حلم لم أكن أحلم به قط بسبب تواضعي المادي وعدم اهتمام أبي بتفوقي.. شعرت بوجود عابد كقيد يقيدني لواقعي المتواضع، رافق هذا رفض أبي قبول تلك المنحة لئلا أتخلى عن المسؤوليات التي تخلى عنها هو بدوره.. لهذا السبب كنت أكره عابد بشدة وأتمنى موته صراحة في كل لحظة أراه فيها.. لولاه، لما وجدت عسراً في مغادرة البيت.."

قالت نور مقطبة "لكنك رحلت رغم كل ذلك!.."

خفضت عالية بصرها وهي تقول "أجل، قبلت تلك المنحة بالتحايل للحصول على توقيع أبي، وهربت في موعد الرحيل دون علم أحد.. في الواقع كنت سعيدة لأن أبي، رغم علمه بموقعي، لم يحاول استعادتي قط.. وبعد ما علمته من دخول أبي مصحة للعلاج من الإدمان وموته بعد ذلك، لم أجد ما يجبرني على العودة لعالمي القديم بتاتاً.."

علقت نور محتدة "أي أنك أمضيت السنوات الماضية تلاحقين حلمك ومجدك الشخصي دون أن تعبئي بما جرى لأخيك الصغير.. والآن تتملكك الدهشة لأنه لم يقابلك بالاحتفاء الذي تتوقعينه؟!.. ألم تفكري بما قد يشعر به صبي فقد أمه ثم وجد نفسه مكروهاً من شقيقته الوحيدة التي تتمنى موته؟.."

التفتت عالية إلى نور قائلة بانفعال "قد تسمّينها أنانية، لكن هل كان عليّ التخلي عن هذا المستقبل الذي حلمت بالحصول عليه لأصبح ربة منزل فقير متداعٍ؟.. هل كان عليّ الانتظار حتى يزوجني أبي أحد رفاقه المدمنين لأبقى حبيسة ذلك الحيّ الفقير؟.."

قالت نور بحدة "وأين هذا المستقبل العلمي وأنت منبوذة في هذا الكوكب المقفر؟"

أشاحت عالية بوجهها شيئاً ما، ثم قالت "لم أستطع رفض القدوم إلى الأرض لحاقاً بزوجي وهو أحد رجال هذه الفرقة العلمية، خاصة أنهم كانوا يبحثون عن طبيبة ترافقهم.. لكن هذه مرحلة مؤقتة، وسنعود بعدها للعالم المتحضر.."

ثم نظرت إلى نور بانفعال محاولة نبذ الشعور بالذنب الذي تشعر به "لكني مؤمنة أنني لم أكن مخطئة عندها.. أكنتِ ستقومين بمثل هذه التضحية لو كنتِ في موقعي؟.."

صاحت نور بحنق "طبعاً سأقبل بمثل تلك التضحية لو كانت في سبيل شخص عزيز عليّ.. كيف أمكنك إيذاءه بهذه الصورة؟.. شخص جاحد مثلك لن يفهم مشاعر من نُبذوا من أقرب الناس إليهم ووجدوا أنفسهم في أتون عالم لا يرحم في سن صغيرة.."

وغادرت المكان راكضة تاركة عالية تخفض رأسها وإحساس بالذنب لا يمكنها مقاومته يعتمل في نفسها.. أما نور، فقد ركضت بعيداً بغضب لم تستطع التحكم به.. شعرت أن حكاية عابد تكرار لحكايتها التي لا

تختلف إلا ببعض التفاصيل القليلة.. ألهذا السبب أظهر عابد اهتماماً بها من بين الآخرين؟.. لابد أنها كانت تذكره بنفسه بشدة، ولابد أنه أشفق عليها لما كانت تمر به.. أم أن وجودها كان يسبب له الضيق لهذا السبب بالذات؟.. لماذا اعتصر الألم صدرها بهذه الصورة المقيتة وهي تستمع لحكايته؟..

ظلت نور تجول في المناطق القريبة من المعسكر دون هدف، وبعد أن أعادت التفكير مراراً بما سمعته من عالية، استدارت باحثة عن عابد.. فوجدته في موقع بعيد بعض الشيء عن المعسكر، وكان كعادته يدخن إحدى اللفافات بصمت تام، وهو أمر لم يفعله منذ وصولهم للكوكب.. ورغم صمته، إلا أنها شعرت باضطرابه وضيقه الشديدين وهو لا يحوّل بصره عن الأفق حتى مع اقترابها.. فقالت بهدوء "الفائدة الوحيدة لهذا التبغ الذي تدخنه أنه يدلني على موقعك برائحته.."

لم يعلق عابد أو يتوقف عن تدخين لفافته، بينما جلست نور في جانب المكان ملتزمة بالصمت بدورها وهي تتساءل في سرها ما الذي يمكنها قوله دون أن تسبب له أي ضيق.. وبعد أن طال الصمت وأصبح ثقيلاً، همست نور "أنا آسفة.."

عندها قطع عابد صمته قائلاً بهدوء "لِمَ عليك أنت الاعتذار؟.."

أجابت خافضة بصرها "آسفة لأن وجودي يذكرك بماضٍ كنت تحاول تناسيه.. أدركت الآن مقدار الضيق الذي كنت تشعر به برؤية من يذكرك بماضيك القاسي.."

صمت عابد وهو يدير بصره جانباً، فقالت نور بشيء من الانفعال "لكني ألومك أيضاً.. كان عليك أن تخبرني بالشيء القليل عن حياتك.. أنت تعلم كل شيء عني بينما لم أكن أعلم بأي شيء عنك.."

قال عابد بهدوء "وما الذي أستطيع أن أحكيه؟.. فقدان أمي في سن صغيرة؟.. هرب شقيقتي التي كانت تتجاهل وجودي أغلب الأوقات وتتمنى موتي صراحة؟.. التطاول الذي كان ينالني من أبي المدمن دائم الغضب والذي لا يجد أمامه إلا ذلك الصبي الذي لم يتعدّ العاشرة ليفرغ غضبه وثورته فيه؟.. لم أتمكن من الفرار من قبضته أبداً، ولم يدر بذهني يوماً أن قسوته معي ستكون سبباً في خلاصي منه.. عندما وجدني بعض الأشخاص ملقىً في أحد الأزقة القريبة من منزل أبي بكسور وكدمات واضحة، نقلوني لأقرب مستشفى للعلاج.. وهذه كانت فرصتي الوحيدة للفرار من ذلك المنزل الكئيب.."

ظلت نور تستمع له بعينين متسعتين وارتعاب واضح وعابد يضيف "ربما كان أجمل ما حدث في حياتي هو موت أبي بعد فراري من ذلك المنزل بوقت وجيز، عندها شعرت أن القيد الذي يقيدني لماضيّ قد انقطع.. من البؤس أن يكون ما أسعدني حقاً بعد سنوات من الشقاء هو معرفة خبر كهذا.."

نظر لنور فرآها مطرقة وهي تنشج باكية، ومع دهشته لهذا، فإنه شعر بشيء من الضيق.. لم يكن هدفه مما قاله أن يشعرها بتعاسته، لذلك لم يملك أن يعلق بضيق "علامَ البكاء؟.. لا أظن أن شخصاً مثلي يستحق البكاء عليه؟.."

قالت نور بعصبية "شخص مثلك.. شخص مثلك..... هذا كل ما أسمعه منك منذ عرفتك.. أهذا كل ما يمكنك أن تصف نفسك به؟.."

غمغم عابد "وما الذي يمكن أن يوصف به شخص عديم الأهمية مثلي؟.."

قالت نور محتدة "لا يحق لك تقرير أهميتك لدى الآخرين، ولا يحق لك تصنيف نفسك كما تشاء.. اترك تقرير هذا لمن يعرفك حق المعرفة.."

غمغم عابد وهو يعود ببصره للسماء "وهل يعرفني أي شخص حقاً؟!.. أشك بهذا.."

مسحت نور دموعها وهي لا تعلم السبب الذي لأجله يصرّ عابد على أنه بغير أهمية تذكر.. لماذا يبخس نفسه حقها؟.. لماذا ينظر لنفسه هذه النظرة الدونية؟.. لم تتوقع أن يصدر هذا من رجل بشخصية تجدها متسلطة نوعاً ما كعابد.. أكل هذا بسبب معاملة شقيقته له في سنه الصغيرة تلك؟..

لاحظت أنه قد عاد لصمته وهو يرمي لفافته ويشعل غيرها.. فنظرت نور إليه وهمست "ما الذي ستفعله الآن؟"

غمغم عابد "وهل يمكنني فعل شيء حقاً؟"

قالت محاولة بعث بعض الأمل في نفسه "إن هي ساعات أو يوم على الأكثر ونرحل عن الأرض.. وستتخلص من كل ما يصيبك بالضيق هنا.."

قال عابد بضيق "لو كان الأمر بيدي لرحلت هذه اللحظة.."

وتخلل شعره بيده وهو يزفر بحنق قائلاً "كل ما أريده الآن هو الابتعاد.. الرحيل لأبعد موقع يمكن أن

تحملني إليه قدماي.. تباً لهذه الرحلة التي تزداد شؤماً مع كل لحظة تمضي.. ليتني لكمت طارق على وجهه في اللحظة التي رأيته فيها، وقد كنت أتوق لذلك بشدة وقتها.. لربما كنت الآن أجوب مستوطنات مجموعة ميرا وأستمتع بحياة هانئة لا مفاجآت فيها..."

غمغمت نور "لا أظنني سأكون سعيدة بهذا الاحتمال.."

ثم وجدها عابد تقفز واقفة فتربت على رأسه مضيفة "لا تقلق.. لن يمر بنا أسوأ مما حدث.. إن هي ساعات معدودة ونغادر هذه الأرض لنعود لحياتنا السابقة، فكن صبوراً.."

غمغم عابد بشيء من الاستنكار لتربيتِها على رأسه "أتريني طفلاً؟.."

ابتسمت نور معلقة "بلى.. أنت لم تنكر كونك طفلاً.. طفلٌ ضخمٌ يفوقني طولاً بمراحل.."

ثم قالت بشيء من الرجاء "الكآبة لا تليق بك.. يمكنك أن تثور وتصرخ وترمي اللكمات كما تشاء.. لكن هذا الصمت مرعب أكثر من أي ثورة قد تقوم بها.."

لم يعلق عابد ونور تنظر إليه.. وإزاء صمته الطويل تنهدت واستدارت مبتعدة وقد أدركت أنه يفضل البقاء وحيداً في تلك اللحظة.. ظل عابد يراقبها بصمت، قبل أن يرمي لفافته ويتطلع للسماء مغمغماً بابتسامة لم يستطع منعها "يبدو أنني أقفز من سيئ لأسوأ في هذا الكوكب.."

وأطلق زفرة حارة وهو يراقب الأفق.. ربما بدا كطفل فعلاً بتصرفه مع تلك المرأة.. ما كان عليه وهو الرجل البالغ أن يُظهر تأثره بجملة أو تصرف قامت به أخته قبل سبعة عشر عاماً، حتى لو كانت تتمنى رؤية موته وقتها.. حتى متى سيظل متعلقاً بتلك الذكرى رغماً عنه؟..

****

عندما تعالى ذلك الهدير الواضح في السماء الغائمة، اقترب أفراد الفريق الذي رافق رُبى في هذه الرحلة نحو جانب المعسكر والأمل يحدوهم بانتهاء هذه الرحلة التي تزداد سوءاً مع كل لحظة تمضي.. وأمام أعينهم، هبطت السفينة الخاصة بنوح بشيء من السلاسة في جانب المعسكر على الهضبة الواسعة.. وفور استقرارها

أرضاً، فتحت بوابتها ولم يلبث نوح أن غادرها يتبعه مازن وهو يقول بارتياح "لقد انقضى أصعب جزء في إصلاح السفينة.. الحمدلله أن الأضرار لم تَطَلْ المحركات ولم تكن بليغة.."

قال طارق الذي اقترب مع البقية منه "أأنت واثق من هذا؟.. لا نريد أن نواجه مشكلة بمرورنا عبر هذه الغيوم الكثيفة كما حدث عند قدومنا.."

قال نوح مفكراً "هذا أغلب ما أخشاه.. السفر عبر الفضاء لن يكون خطراً لو تمكنا من تجاوز هذه الغيوم الغريبة.."

علق عاصم الذي اقترب بدوره مراقباً السفينة "هل قمت بإعداد السفينة بالشكل اللازم عند قدومكم؟"

نظر له نوح باستغراب واضح، فشرح عاصم الأمر قائلاً "عندما وصلنا للأرض للمرة الأولى، قمنا بفحص شامل لغلافها الجوي والتغيرات التي طرأت عليه قبل المغامرة بالمرور عبره.. ونتيجة للمعلومات التي حصلنا عليها، قمنا بإعداد السفينة وأجهزتها لتواكب التغيرات التي تمر بها هذه الغيوم الكثيفة وتفادي الاضطراب الذي يؤثر على الأجهزة كافة.."

قال نوح "لقد عبرت بالسفينة عبر الغيوم دون أن أتخذ احتياطات كافية.. لذلك كدنا نهلك في ذلك الهبوط الخطر بعد أن توقفت الأجهزة والمحركات عن العمل بشكل تام.."

قال عاصم "سأرسل لك قائد سفينتنا ليخبرك بما عليك فعله بالتفصيل لتفادي كارثة كهذه.."

هز نوح رأسه موافقاً.. بينما تساءل عابد "كم من الوقت سيطول الأمر قبل أن نقدر على الرحيل بهذه السفينة؟"

أجاب نوح متطلعاً إليها "لست واثقاً.. لكن الأمر يحتاج ليوم كامل على الأقل قبل أن نرحل بها ونحن مطمئنين.."

ثم نظر لعابد مضيفاً بابتسامة "لقد صبرت الأيام الماضية، فلن يضيرك أن تصبر يوماً آخر بالتأكيد.."

لكن ملامح عابد لم تكن تحمل أي راحة لمثل هذا الخبر.. السيئ أن يضطر للصبر أكثر مما فعل، والأسوأ أن يبقى في ذات الموقع مع المرأة التي يبغضها بكل ما يملك..

وفي جانب المكان، التفت أيمن إلى نور قائلاً بصوت خافت "هل تنوين الرحيل أنت أيضاً يا نور؟"

نظرت له نور بصمت للحظات، ثم قالت وهي تدير بصرها للسفينة القريبة "أجل.. لا أريد قضاء السنوات القادمة على الأرض.. أفضل العودة للعالم الجديد، ولحياتي السابقة التي لا تحفل بمثل هذه المفاجآت.."

ظل أيمن ينظر لها بقلق بينما غمغمت آن القريبة "البقاء هنا ليس سيئاً.."

تذكرت نور أمراً ما، فالتفتت إلى أيمن قائلة برجاء "هل يمكنني الرحيل لموقع سفينتكم السابقة؟.. هناك أمر أريد تفقده بشدة قبل رحيلنا.."

تساءل أيمن بدهشة "موقع السفينة السابق؟.. هذا سيستغرق من المركبة ساعات طويلة من السير قبل الوصول إليها.. ما الذي تريدين تفقده هناك؟"

أخبرته نور عن بوبو الذي أنقذ حياتها عدة مرات، وختمت حديثها قائلة برجاء "لابد أنه عاد لمسكنه في موقع قريب من السفينة.. أريد الذهاب إليه والاطمئنان لما جرى له.. قد يكون بحاجة لمساعدتنا بعد الجرح الذي أصابه.."

ظل أيمن ينظر لها بصمت وتفكير، ثم نظر لآن للحظات قبل أن يقول بابتسامة "طبعاً يمكنك ذلك.. لم لا نطلب من آن اصطحابك إلى هناك بإحدى المركبات؟.."

نظرت نور إلى آن التي قالت "لا أرى مانعاً من ذلك.."

عادت نور ببصرها لأيمن متسائلة "ماذا عن السفينة؟.. ألن يرحلوا أثناء غيابي؟"

أجاب أيمن "قطعاً لن يفعلوا.. لقد قال قائدها إن الأمر سيستغرق منه نهاراً كاملاً قبل أن يتمكن من الرحيل بالسفينة.. وسأحرص على التأكد من انتظارهم لك حتى عودتك، وبهذا تحققين ما رغبت به قبل رحيلك.. ألن يكون هذا رائعاً؟"

لا تدري نور سر حماسة أيمن لهذا الأمر، لكنها غمغمت "سيكون هذا رائعاً بكل تأكيد، لو عثرنا عليه على قيد الحياة.."

فقال أيمن "إذن دعي أمر السفينة لي وارحلي مع بداية نهار الغد حتى يتسنى لك العودة بسرعة.."

هزت نور رأسها موافقة وصمتت وهي تتأمل التماعة ضوء الشمس الغاربة على جدران السفينة المعدنية..

سيكون الأمر رائعاً حقاً لو استطاعت أن تتخلص من إحساس الذنب الذي تشعر به كلما تذكرت وجه بوبو المشوه وابتسامته الحائرة التي يلاقيها بها في كل مرة..

****

في تلك الليلة، لم تتوقف زخات المطر عن الهطول أغلب الوقت مبللة المعسكر كاملاً والبرودة تتزايد بشكل كبير.. فعلقت آن وهي تنظر من باب المنزل الذي احتلته هي وأربع نساء أخريات من الفريق "يبدو أن الوقت لن يطول قبل أن تبدأ هجمة الشتاء الحقيقية.. لقد بدأت علاماته أبكر من المعتاد.."

تساءلت نور التي شاركتها غرفتها في هذا المنزل "ألن يعيق هذا المطر رحيلنا غداً؟.."

أجابت آن بابتسامة "لا أعتقد ذلك.. ستكون الأمور كلها على ما يرام.."

ظلت نور تراقب السماء بقلق حقيقي.. لم تكن تعني رحيلهم للبحث عن بوبو فقط، بل عَنَت أيضاً رحيل السفينة من الأرض.. أيمكن أن تكون الأمور كلها على ما يرام حقاً؟..

في اليوم التالي، وقبل أن تطلع الشمس حيث ساد الضباب القرية الصغيرة التي اتخذوها معسكراً لهم، استقلت آن إحدى المركبات وهي تستحث نور قائلة "هيا بنا.. لا نريد التأخر في الذهاب لئلا نتأخر في العودة.."

تلفتت نور حولها في المعسكر الخالي الذي ساده الصمت والسكون مغمغمة "أليس من الأفضل إبلاغ أي شخص برحيلنا؟.. لست أدري إن كان أيمن قد أبلغ البقية بذهابي.."

ابتسمت آن معلقة "لابد سيفعل.. هيا ولا داعي لهذا القلق.."

استسلمت نور وهي تصعد المركبة بدورها، فانطلقت بها آن دون إبطاء نحو بداية الطريق المؤدي لسطح الهضبة الصغيرة، ومنها للمساحات العشبية التي أحاطت بالموقع لمساحات شاسعة.. لم تكن المركبة قد وصلت القرية التي هاجمهم فيها السكان المحليون عندما بدأت الشمس تشرق ونورها يزيل الظلمة بشكل واضح دون أن تتمكن من إزالة البرد المخيّم على الأرض.. وإزاء رجفة أصابت نور، علقت آن "يبدو أنك

لا تملكين ملابس مناسبة للشتاء.. لو أنكم باقون هنا لوقت أطول لقمت بحياكة بعض القفازات لك من الصوف.. فأنا ماهرة بذلك.."

ابتسمت نور بتعجب معلقة "أنت تحيكين؟.."

ضحكت آن قائلة "ألا يناسبني ذلك؟.. لقد تعلمته من أمي منذ زمن طويل.. وأقوم بالحياكة بين فترة وأخرى لئلا أنسى الطريقة.. وأنوي تعليمها لابنتي عندما أرزق بواحدة.."

غمغمت نور وهي تتلفت حولها "هذا جميل.. لا أذكر أن أمي كانت تجد الوقت لتعليمي أي شيء في السابق.."

نظرت لها آن بشيء من الإشفاق، ثم غمغمت "ربما كانت تود ذلك.."

صمتت نور إزاء ذلك ولم تكد تنبس بكلمة طوال الطريق الذي قادهم عبر تفاصيل طبيعية لم ترَ لها نور من قبل مثيلاً.. رغم رحلاتها السابقة بين المستوطنات، إلا أن التفاصيل لم تكن تتبدل بين مستوطنة وأخرى.. ما يتبدل هو حجم مستوطنة مقارنة بأخرى، الرفاهية التي تقدمها لسكانها، واختلاف ميناء إحداها عن الأخرى وهو أول ما تلاحظه نور عند وصولها..

بعد عدة ساعات، وقد انتصف النهار، وصلت المركبة لموقع قريب من المنحدرات الصخرية التي كانت السفينة تقبع وسطها لعدد من السنين.. وباتباع توجيهات نور، قادت آن المركبة بحثاً عن الموقع القريب من الشلال الذي سقطت فيه نور وعابد في أول يوم لهما على الأرض.. لم يكن الموقع بعيداً، كما لم يكن الا ستدلال عليه صعباً.. لذلك، وخلال وقت قصير، كانت المركبة تقف في جانب المكان حيث تلك الأكواخ البائسة التي استقر بوبو في إحداها.. وعلى الفور قفزت نور من المركبة وتوجهت نحو الكوخ الخاص به ملاحظة أثر الدماء المتجمدة التي لطخت الأرض قرب بابه.. فدخلت الكوخ بقلق وقد غمرها خوف من رؤية جثة بوبو تفترش أرضية الكوخ، وكادت تحجم عن الدخول وتفرّ بصمت لولا أن دفعت نفسها دفعاً لتجاوز الباب والنظر في الكوخ الصغير المظلم..

وعلى الحشية القديمة التي تفترش الأرضية، رأت نور جسد بوبو ملقىً عليها بسكون أثار روعها.. لكن بعد لحظة انتبهت لتنفسه الواضح بعلو صدره وهبوطه، ولاحظت الضمادات التي تحيط بخصره وتضمد

جرحه بشكل غير محكم، لكنه يفي بالغرض.. هبّت نور نحوه وهي تهمس "بوبو.. استيقظ أرجوك.."

وصلت آن للباب فنظرت عبره مغمغمة "أهذا هو؟"

فتح بوبو عينيه في تلك اللحظة ونظر لنور بدهشة وشحوب واضح.. بينما تساءلت نور بقلق "أأنت بخير؟.. كيف استطعت العودة إلى الكوخ بهذا الجرح؟"

حاول بوبو الجلوس بألم ظاهر، بينما لاحظت نور تلك الخلطة من الأعشاب والزيوت التي استخدمها بوبو لإيقاف النزيف.. لكن بدا أن هذا كل ما استطاع فعله.. وهو في أسوأ حال ممكن بعد مرور هذه الفترة دون أن يلقى أي عناية..

التفتت نور لآن قائلة "يجب أن نأخذه للمعسكر بسرعة.. يبدو بحالٍ سيئة.."

قالت آن وهي ترفع يدها "في البدء، يمكننا علاجه هنا.."

رأت نور حقيبة إسعافات أولية أحضرتها آن معها مضيفة "عندما أخبرتني عن جرحه، فضلت إحضار حقيبة الإسعافات بدل الانتظار حتى عودتنا للمعسكر.."

واقتربت آن متفحصة بوبو الذي نظر لها بدهشة وللحقيبة التي بدأ الجهاز فيها بالعمل بذعر.. وبإشارة من يديها، طلبت منه نور الهدوء والاستسلام لآن التي قالت بعد أن نزعت الضماد عن جرحه "يبدو أن الرصاصة لا تزال في جسده، وهذا خطير بالنظر للوقت الذي مضى منذ أصيب بها.."

تساءلت نور بقلق "أيمكن أن يصبح بخير بعد أن نتمّ علاجه؟"

ابتسمت آن معلقة "أظنه سيصبح كذلك.. المهم أن النزيف توقف، والجرح رغم كل شيء ليس ملتهباً.."

أظهر بوبو ذعراً كبيراً من المجسات التي قربتها آن من جسده، فحاولت نور لوقت طويل تهدئته، بينما علقت آن "علينا تخديره ولو بشكل جزئي.. إنه سيعطل عمل الجهاز بهذه الطريقة.."

استخرجت حقنة من جانب الحقيبة بها جرعة من عقار مخدر، وبإشارة منها أمسكت نور ذراعي بوبو المذعور بينما حقنته بها آن بسرعة مفرغة محتواها في جسده.. وخلال وقت قصير، بدأ تأثير العقار على بوبو الذي ثار بشدة بعد ما فعلته آن.. ولما بدأ يهدأ، أعادت آن تشغيل جهاز الإسعافات الأولية ليقوم بعلاج جرحه، بينما راقبتها نور بقلق شديد.. ثم قالت لآن "عندما ينتهي الجهاز من علاجه، أريد أخذه معنا إلى

المعسكر.."

نظرت لها آن بتعجب قائلة "أتظنين أنه سيقبل بذلك؟"

قالت نور "لا يهمني أن يقبل أم لا.. هو سيطيعني، وبعودتنا للمعسكر سنتمكن من علاجه بصورة أفضل.."

فقالت آن "كما تشائين يا صغيرة.."

نظرت نور لبوبو الذي غاب في نوم عميق وصمت تام.. مع اقتراب موعد رحيلها عن الأرض، لم تكن تستطيع المغادرة قبل الاطمئنان لمآل إليه حال بوبو.. وتحمد الله أنها لاقت الفرصة لفعل ذلك.. كيف لها ألا تكف عن القلق بعد رحيلها وهي قد تخلت عنه بعد أن أنقذها عدة مرات؟.. يبدو أنها مدينة لحياتها للعديد من الأشخاص منذ وطأت قدماها هذه الأرض القديمة..

****

بعد ساعات طويلة من العمل المتواصل، زفر نوح بقوة وهو يغمغم لنفسه "أخيراً.. لم أتوقع أن يطول الأمر لهذا الحد.. لكن النهاية تستحق دون شك.."

ثم قال لطارق القريب وهو يراجع أنظمة السفينة "الآن يمكننا الرحيل بكل اطمئنان.. أبلغ الآخرين بذلك رجاء يا طارق.."

فقال طارق "أتمنى ألا يكون صبر الآخرين قد نفذ في هذا الوقت.."

وغادر السفينة لتلقاه البرودة التي تزايدت بشدة مع كل يوم يمضي، وهبوب نسمات باردة تزيد الأمور سوءاً.. شعر طارق بشيء من الراحة لأن موعد رحيلهم قد أزف، فلم يكن يود البقاء والتعرض لهذه البرودة التي لم يعتدها سابقاً في حياته.. وسرعان ما تبعه نوح عائدين للمعسكر القريب لإبلاغ البقية باقتراب موعد رحيلهم، وليقوم نوح بتوديع ابن أخيه الذي أصرّ على البقاء على الأرض مهما حاول إقناعه..

بعد وصول طارق للمعسكر وتنبيهه لبقية الفريق، توجه لرُبى التي كانت تجلس وحيدة في جانب المعسكر تنظر من ذلك الموقع المرتفع نحو المساحات العشبية التي تحتل الموقع حول الهضبة.. لاحظ طارق عند اقترابه أن جسد رُبى ينتفض بشكل ملحوظ، ورغم البرودة المتزايدة، إلا أن شيئاً ما قد أوحى إليه أنها ليست السبب في هذه الرجفة.. فقال طارق بشيء من القلق "أأنت بخير؟"

زفرت رُبى للحظات لتفريغ الضيق الذي تشعر به من الصداع الذي لا يكاد يهدأ، ثم قالت "لم يحدث أسوأ ما توقعته.. مازلتُ بخير وحية أرزق.. وأحمد الله على ذلك.."

فقال طارق "علينا الرحيل بالسفينة من هنا.. لقد انتهى نوح من استعداداته، وسيقلع بها بعد قليل.. تكفينا المغامرات التي خضناها حتى الآن.."

صمتت رُبى وهي تغمض عينيها بألم ظاهر، ثم زفرت من جديد وطارق يقول بقلق أكبر "هيا.. علينا الرحيل.. لم تعدْ بنا حاجة للبقاء في هذا الكوكب الميت.."

قالت رُبى دون أن تنظر إليه "لستُ راحلة.."

نظر لها طارق بدهشة كبيرة، ثم قال بسرعة "حتى متى تنوين البقاء هنا؟.. التأخير ليس في مصلحتنا بتاتاً.. ولا أظن البقية سيوافقون على تأخير الرحلة أكثر من هذا.."

قالت رُبى بإصرار "لست راحلة أبداً من الأرض.."

بدت الصدمة ظاهرة على وجه طارق، ثم قال بانفعال "لماذا؟.. لستُ أفهم شيئاً.."

أجابت رُبى "لقد اتفقت مع أبي حول هذا الأمر، وهو لم يمانع بعد أن عرف الأمر كله.."

نظر لها طارق بصدمة وحيرة، فرفعت رُبى بصرها أخيراً ونظرت إليه بصمت للحظات، ثم قالت بهدوء "أنا لم أكذب عليكم بتاتاً منذ بدأت هذه الرحلة.. الهدف الذي كنت أنتويه حقاً بهذه الرحلة هو أن أدفن هنا.. في الأرض.."

قال طارق بانفعال "لكنكِ لست ميتة.. لن تموتي في وقت قريب بإذن الله تعالى.. وبقاؤك هنا أخطر من عودتك للمستوطنات.."

هزت رأسها نفياً وقالت "لا أظنني سأبقى لأشهد عودتي للوطن.. ما لا تعلمه أنت أن المرض قد استفحل

في جسدي ولم أعد أملك الكثير من الوقت.. وخوضي التجميد كان لتأخير نهايتي حتى أستطيع لقاء أبي وأنا بصحة واقفة على قدمي.."

صاح طارق "هذا كذب.."

قالت رُبى مبتسمة "بل هي حقيقة.. لقد أخبرني الطبيب في فينون أنني لا إملك إلا سنة واحدة من عمري.. وقد انقضى منها ما يزيد على الستة أشهر بالفعل.."

نظر لها طارق بصدمة وجزع ظاهرين، فيما خفضت رُبى مضيفة "آسفة لأنني كنت أعاملك بشيء من الجفاء.. كانت محاولة بائسة مني لإبعادك عني، ولئلا تكشف دخيلة نفسي.."

تساءل طارق "ماذا تعنين؟.."

ابتسمت رُبى ابتسامة مريرة وهي تقول "لمَ تظنني قررت أن تكون أنت من سيتولى هذه المهمة؟.. لو كنت أبحث عن مجرد شخص يطيع تعليماتي لاستخدمت مانو لهذا الغرض، فهو لا يقل إخلاصاً لي عنك.. وهو أكثر قدرة على حمايتي.."

نظر لها طارق رافعاً حاجبيه، فأضافت رُبى وهي تخفض بصرها "كنتُ على يقين أنني لن أعود من هذه الرحلة حية بتاتاً.. دائماً تقف أحلامي عند لقائي بأبي ولا تتعداها، مما جعلني أشعر أنني لن أعيش طويلاً بعدها.."

ونظرت إليه قائلة بهمس "ألا يدلك هذا أنني أردتك أنت معي؟.. أردتك أن تكون معي لنهاية الرحلة، وأن تكون أنت من يشهد نهايتي.."

قال طارق بضيق "لم حاولت خداعي إذاً؟.."

قالت رُبى وهي تطرق "خشيت أن أجني عليك بأنانيتي هذه.. لم أتمنَ أن تنغمس معي فيما سأمر به.. ولا زلت أشعر أن من الخطأ انشغالك بأموري.. لذلك أنصحك بالرحيل مع البقية في السفينة بأسرع ما يمكنكم....."

قال طارق بعصبية "من قال إنني راحل الآن.. لن أرحل بدونك.."

نظرت له بصمت وانفعال فيما قال وهو يركع قريباً منها "لقد أتيتُ لأداء مهمة محدودة وقد انجزتها

أخيراً.. لذلك سأعود بك كما وعدتك سابقاً.. لنعد معاً.. ليس لدان مايدن من جديد، لكن لنرحل بعيداً حيث لا تصلنا قبضته.. أطيعيني لمرة واحدة فقط.."

غمغمت رُبى بضعف "لن يمتد بي العمر لنفعل ذلك يا طارق.."

ازداد حدة وهو يقول "لا تحكمي بذلك قبل الأوان.. هناك مئة وسيلة للعلاج، ولن يعدم الطب وسيلة لعلاج مرضك مهما كان مستعصياً.."

نظرت رُبى للأرض من حولها وقالت بخفوت "بل أفضل البقاء هنا.."

صاح طارق بحنق "رُبى..."

نظرت له رُبى بعينيها الزرقاوين اللتين لم تخبُ التماعتهما، ثم ابتسمت ابتسامة عذبة قائلة "أريد أن أدفن في هذه الأرض يا طارق.. أريد أن أشهد نهايتي بين ثناياها.. قد لا تعني هذه الأرض للجنس البشري شيئاً بعد كل تلك العقود، لكنها تعني لي الكثير.. لطالما حلمت بها منذ استوطنها أبي.. لطالما رأيته على أرضها، ولطالما شهدت تقلباتها.."

ونظرت حولها بنظرة حانية قائلة "قد تراني عتيقة التفكير، لكني أحب هذه الأرض كثيراً.. وهي أول ما فكرت فيه عندما أخبرني الطبيب بقرب موتي.. عندما أخبرني أنني لازلت أملك فرصة لتحقيق ما أملكه من أحلام، لم أذكر شيئاً وددت فعله في حياتي سوى رؤية هذه الأرض.."

ثم عادت ببصرها لطارق الذي ينظر لها بمرارة، وقالت "آسفة لأنني جررتك معي في مغامرة رعناء كهذه، لكن دعني أكن حمقاء لمرة واحدة وأعترف لك بأنها كانت لحظات سعيدة لن أنساها لما بقي لي من العمر.."

خفض طارق رأسه بضيق شديد وغـمّ واضـح، فهمست رُبى "شكراً لك لأنك ناديتني باسمي للمرة الأولى، وربما تكون الأخيرة أيضاً.."

ظل طارق خافضاً رأسه وهي صامتة بانتظار أي رد فعل منه، ثم فوجئت به ينهض واقفاً ويدير ظهره لها مغادراً بصمت.. فهمست بشيء من الضعف "ستغادر دون أي وداع؟..."

قال طارق دون أن يلتفت إليها "لا يمكننا ترك الآخرين ينتظروننا لوقت طويل.. سأذهب لأخبرهم بخبر بقائنا هنا.."

وجدت رُبى دمعتين تسيلان على خديها وهي تخفض وجهها قائلة بصوت يرتجف "هذا أكثر مما طمحت به في خيالاتي.. فهل يمكنني قبول هذه التضحية منك؟.."

التفت طارق إليها ليجدها خافضة رأسها وخطين من الدموع ينحدران على خديها الشاحبين، وقالت من بين نشيجها "طارق.. لا تفعل هذا أرجوك.. ارحل فهذا خير لك بالتأكيد.."

قال طارق مقطباً "أنا لا أعمل لديك الآن لذلك ليس عليّ إطاعة ما ترغبين به.."

قالت رُبى بحزن "لكن تضحية مثل هذه هي أكبر مما يمكنني قبولها.."

تقدم منها وأمسك يديها بيديه قائلاً "لكن هذا ما أريد أنا فعله حقاً.. ليس لك الحق بمنعي من ذلك.."

نظرت له بصمت دون أن تتوقف دموعها من الانهمار فشدّ على يديها مضيفاً "أهذا يعني أنك تكرهين وجودي لهذه الدرجة؟.."

هزت رأسها نفياً بقوة وهي تقول خافضة وجهها "لن يكون هناك من هو أسعد مني بذلك.. لكن لو كانت الظروف مخالفة لما نحن فيه.. لو لم أكن مصابة بهذا المرض....."

قاطعها طارق قائلاً بحزم "هذا لا يلغي من الواقع شيئاً.. نحن فيما نحن فيه الآن.. وأنا واثق من قراري هذا مهما كانت نتائجه.."

رأى في تلك اللحظة نوح وعابد يقتربان منهما، فقال عابد فور اقترابهما "هيا بنا.. سنغادر خلال لحظات.. سئمت هذا العالم الموحش ولا أطيق البقاء لحظة أخرى.."

ثم التفت إلى رُبى الصامتة مضيفاً "أواثقة من قرارك بالبقاء هنا؟.. ربما عليك مراجعة مثل هذا القرار.."

لم تجب رُبى بينما قال طارق بهدوء "قررتُ البقاء هنا أنا أيضاً.. لذلك، ارحلوا دون إبطاء، وليحفظكم الله تعالى.."

نظر له نوح بدهشة، بينما ظلت رُبى خافضة وجهها بصمت.. أما عابد، فقد حدق في وجه طارق بصمت وصدمة قبل أن يعلق قائلاً "أأنت أحمق؟"

عقد طارق حاجبيه قائلاً "هذا قراري، ولا شأن لأحد به.."

تقدم منه عابد وجذبه بقوة بعيداً عن سمع الآخرين، فقال طارق بحدة "ما الذي تفعله؟"

قال عابد بحنق "أأنت بكامل قواك العقلية؟.. ما الذي يدفعك للبقاء هنا معها؟.. هذا جنون.."

أشاح طارق بوجهه جانباً وهو يقول "لن تفهم هذا أبداً.."

فقال عابد مقطباً "من قال إنني لا أفهم ذلك؟.. أنا أدرك أنك غارق في هواها منذ أمد بعيد، لكن ما الذي يجبرك على الاستجابة لأهوائها الغريبة لهذه الدرجة؟.. كيف ترمي حياتك بكل هذه البساطة؟"

علق طارق ساخراً "إذن ماذا تقترح؟.. أن أدير ظهري لها وأبحث عن سعادتي بعيداً تاركاً إياها في هذا الكوكب المميت؟.. أهذا ما تعرفه عن الحب؟"

قال عابد بجدية "لا، ليس هذا ما عنيته.. ما الذي يجبرك على إطاعتها في رغبتها البقاء؟.. يمكنك أن تأخذها معنا في السفينة بعد تخديرها أو حتى عنوة.. ألستَ مقتنعاً أن رحيلها خير لها؟.."

قال طارق بضيق "وهل هذا سيجعلها مدلهة في حبي؟.. ستكرهني بالتأكيد، لأنني حرمتها من أمنية كانت تتمنى تحقيقها.."

فقال عابد "لكنها ستنسى ذلك بعد بعض الوقت.. صدقني بقاؤك هنا هو محض جنون.. وعندما يراودك الندم على قرارك هذا، سيكون الوقت قد فات للرحيل.."

زفر طارق وهو يتأمل رُبى المنطوية على نفسها بصمت جانباً، ثم قال أخيراً "لا.. لا أظنني سأندم على هذا يوماً ما.."

غمغم عابد "كيف يمكنك أن تكون واثقاً؟.."

ربت طارق على ذراع عابد قائلاً "شكراً لاهتمامك، وشكراً لمعاونتك لنا طوال هذا الوقت.. لن أنسى لك هذا بتاتاً.."

صمت عابد بدهشة لهذا التصرف المفاجئ، فابتسم طارق معلقاً "لا داعي لهذه الدهشة، أنا أدرك أنك تبغضني.. لكن أتمنى أن نفترق كأصدقاء على الأقل.."

ابتسم عابد بشيء من الحيرة، ثم قال "ما زلت أظنه قراراً خاطئاً.."

ضحك طارق واستدار مغادراً دون تعليق، ولما عاد للبقية قال لنوح "شكراً لك على كل شيء يا نوح.. أتمنى أن تكون رحلتكم موفقة.."

قال نوح وهو يصافح طارق "أتمنى لكما التوفيق على هذه الأرض يا طارق.. وأتمنى لك الشفاء يا آنسة.."

ابتسمت رُبى دون تعليق، فقد بدت لها كلماته بلا هدف سوى المواساة بلا معنى.. كيف يمكنها أن تكون أفضل في هذا العالم المهجور؟.. إنها لم تكن أفضل حالاً في العالم المتحضر حيث تطور العلم بشكل كبير مكنه من القضاء على أغلب الأمراض المميتة.. لكنه عجز عن علاج مرضها هذا.. لذلك كان قرارها الموت في موطن البشر وبين أحضان عالم قديم كهذا، عن الموت على فراش بارد في عالم متحضر لن يعبأ لموتها ولا لحياتها..

****

قبل أن تبدأ الرحلة بالفعل، لاقى عابد شقيقته عالية التي استوقفته قبل مغادرته بتوتر كبير.. فوقف عابد بصمت مديراً وجهه جانباً، بينما قالت عالية بتوتر "جرحك لا يزال بالغ السوء.. يجب أن تقوم بتنظيفه بشكل دوري أثناء الرحلة، وفور وصولك للمستوطنات اذهب إلى المستشفى لتلقى العلاج الملائم.."

قال عابد بجفاء "أنا لست طفلاً لتغرقيني بهذه النصائح.."

نظرت له عالية باضطراب، ثم قالت برجاء "لا تكرهني يا عابد.. أرجوك.."

صمت عابد للحظات طالت حتى ظنت أنه سيتجاهلها، لكنه قال أخيراً بصوت أجش "لستُ مثلك أبداً.."

وابتعد مغادراً ليتبع نوح الذي سبقه نحو السفينة، فرأى قاسم يقف في جانب المكان يراقبهما.. لكن عابد تجاهله بشكل تام وهو يغادر بخطوات واسعة.. لم يعد يريد أي اتصال بينه وبين شقيقته المزعومة وكل من لهم علاقة بها.. لم يعد بحاجة لأي اعتذار منها، وما عادت بقادرة على جرحه كما فعلت بذلك الصبي الذي لم يتعدّ العاشرة من عمره والذي فقد أمه للتو..

وفي موقع السفينة الذي كان يبعد القليل عن المعسكر، استطاع نوح عند وصوله رؤية أحمد وميساء يقفان قرب بابها بانتظاره.. فقال أحمد "كنا ننتظركما منذ مدة.. أين عابد ونور؟"

أجاب نوح "لا أعلم أين هي نور، ربما تودع شقيقها.. كما أن عابد قد لاقى شقيقته الطبيبة، وسيأتي بعد قليل.."

ثم تساءل "ماذا عنكما؟.. ألا تنويان توديع أبيكما وشقيقتكما؟"

قال أحمد بهدوء "لقد فعلنا ذلك بالفعل.."

خفضت ميساء وجهها بصمت ووجه مضطرب وقد بدا احمرار عينيها دليل بكائها السابق.. وقبل أن يعلق نوح على الأمر، سمع شخصاً يناديه من جانب الموقع.. استدار الثلاثة نحو صاحب النداء فاستطاعوا رؤية أيمن الذي تقدم منهم مسرعاً.. نظر له نوح قائلاً "هل قررت الرحيل معنا أخيراً؟"

قال أيمن وهو يحاول التقاط أنفاسه "لا.. لن يحدث هذا أبداً.. لكن جئت لأبلغكم أمراً.."

تبادل نوح النظرات مع أحمد وميساء، بينما قال أيمن وهو يعتدل واقفاً "نور ستبقى معي.. لذلك لا تهتموا لأمرها وارحلوا بالسفينة.."

نظر له نوح بدهشة وقال "أهي قررت هذا؟.. لم أسمع بهذا من قبل.."

قال أيمن بتقطيبة ظاهرة "لا يهم إن كنت تعلم بهذا أم لا.. لقد جئت أخبرك بقرارها نيابة عنها.. نور لن ترحل.. لذلك لا تأتوا بحثاً عنها.."

واستدار راحلاً من فوره تاركاً البقية يتطلعون إليه بدهشة، ثم نظر نوح لأحمد وغمغم "أتظن أن عابد سيصمت على هذا؟"

قال أحمد بدهشة "وما شأن عابد بالأمر؟.. شأن نور خاص بشقيقها وبها هي نفسها.. وعابد لا علاقة له بها.."

قال نوح "أدرك ذلك، لكن عابد يعتبر نفسه مسؤولاً عن نور نوعاً ما، وهذا واضح من قلقه الدائم لأمرها وإصراره على إنقاذها بنفسه في كل مرة.. قد يغضب لهذا القرار الذي لا معنى له.. كنتُ سأفعل ذلك لو كنت مكانه.."

قال أحمد وهو يتقدم نحو السفينة "لا علاقة له أو لنا بالأمر.. عليه التسليم بذلك.. لنرحل وننهي هذه الرحلة التي طالت أكثر مما يجب.."

تبعته ميساء على الفور، بينما تأخر نوح وهو يتلفت حوله متطلعاً للسماء الملبدة بالغيوم بشكل أبدي.. ورغم أنه جلس مع قائد سفينة فرقة العلوم وتحدث معه عن الطريقة المثلى لتجاوز مثل ذلك الخطر الذي واجههم عند هبوطهم، لكن لا يزال يساوره قلق من مرور السفينة عبر هذه الغيوم .. ألن تؤثر عليها أو تصيبها بأي عطل؟.. ماذا لو توقفت المحركات أثناء الطيران كما حصل عند قدومهم؟..

ارتجف نوح للفكرة، ثم سمع صوت عابد من خلفه يتساءل "أأنت قلق من مرور السفينة عبر هذه الغيوم؟"

غمغم نوح "بالفعل.. خطأ واحد سيكون كارثياً.."

ربت عابد على كتفه قائلاً "لكني أثق بك يا أبتاه.. هيا ارحل بنا من هذا الكوكب، فقد مللته حتى الثمالة.."

ابتسم نوح شيئاً ما وهو يقول "وهذا ما أنوي فعله.."

سمعوا أحمد يستعجلهما، فعبرا بوابة السفينة وأحمد يتقدمهما عبر الممر وهو يقول "جيد، الجميع هنا.. علينا الرحيل بسرعة قبل أن تتلاشى فرصتنا الأخيرة بالفرار.."

تلفت عابد حوله في تلك اللحظة متسائلاً "مهلاً.. أين نور؟"

نظر نوح لأحمد بشيء من القلق، فقطب عابد لذلك وتساءل من جديد "أين هي؟"

أجاب أحمد "لقد أبلغنا أيمن أنها ستبقى معه.. وأن علينا الرحيل بدونها.."

نظر له عابد باستنكار قائلاً "ستبقى؟.. إنها لم تذكر ذلك سابقاً.."

علق أحمد قائلاً "ربما غيرّت رأيها.. ولا نملك رأياً في ما سيحدث للفتاة فهو شقيقها والمسؤول عنها.."

قال عابد مقطباً "من قال ذلك؟.. ألا تملك نور الحق في تقرير مصيرها؟"

واستدار مغادراً، فناداه نوح قائلاً "إلى أين أنت ذاهب؟.. سنرحل خلال دقائق، فالوقت يداهمنا.."

قال عابد "سأعود خلال عشر دقائق.. إياك والرحيل بدوني، أتفهم؟"

وغادر بسرعة نحو مخرج السفينة، فقال أحمد بضيق "هل سيفعل هذا حقاً؟.."

قال نوح "لا بأس.. فلننتظره.. لابد أنه سيعود في وقته دون إبطاء.. فهو ليس من النوع الذي قد يضحّي بفرصته الأخيرة للنجاة لأي سبب.."

في تلك الأثناء، وصل أيمن المعسكر فوقف يلهث بشدة وتعب مستنداً على ركبتيه، عندما رأى المركبة التي أقلت آن ونور تقف وسط للمعسكر.. فغمغم أيمن بقلق "بهذه السرعة؟.. ما الذي تفعلينه يا آن.. ليس هذا ما اتفقنا عليه.."

أما نور، فكانت في العيادة الطبية المصغرة حيث بدأت عالية بالاعتناء ببوبو معلقة "جيد أنكم قد عالجتم جرحه بشكل أولي.. إن الجرح يعاني من تلوث واضح بعد كل هذا الوقت الذي مضى عليه.."

غمغمت نور بقلق "هل سيكون بخير؟"

أجابت عالية "بإذن الله تعالى.."

لاحظت نور أن بوبو بدأ يستعيد وعيه وهو يفتح عينيه ويدور بهما في الموقع بصمت.. فأمسكت نور يده قائلة "لا أعلم أي لغة تتحدث يا بوبو، لكني أريد أن أشكرك على كل شيء.. وأعتذر من كل شيء في الآن ذاته.. لقد قدمت لي الكثير دون أن تعلم هذا، لكن لم ينلك منا إلا المصائب تلو الأخرى.."

نظر لها بوبو بقلق وهو يصدر أصواتاً مختلطة، ويشير لعالية التي تقترب منه، فأشارت له نور لتهدئته ومنح ثقته لعالية وهي تقول "أتظنين أن لن يمانع البقاء هنا بعد رحيلي؟.. بقاؤه معكم حتى تشفى جراحه أفضل له بالتأكيد.."

علقت عالية وهي منشغلة بجرح بوبو الذي استسلم لها شيئاً ما "بالحديث عن الرحيل، ألم يحن وقت انطلاقك بعد؟.. لقد غادر الجميع للسفينة بالفعل.."

نظرت لها نور بعينين متسعتين، ثم هتفت "متى؟.. ألم ينتظروني؟"

علقت عالية قائلة "لا أدري.. لكن أسرعي للحاق بهم قبل أن يغادروا بالفعل.."

نظرت نور لبوبو الذي ظل يراقبها بصمت، فأمسكت يده وابتسمت بتوتر قائلة "كن بخير يا بوبو.. وشكراً لك على كل شيء.."

أمسك بوبو يدها وهو يكرر تلك الأصوات التي لا تفهم لها أي معنىً، لكنها ابتسمت ثم جذبت يدها وغادرت العيادة بسرعة وقد غمرها قلق من رحيل البقية بدونها.. هل سيرحلون حقاً دون أن يعبؤوا لأمرها؟.. لكنها لم تكد تغادر حتى وجدت أيمن يتجه إليها في اللحظة ذاتها.. فهتفت نور "لماذا لم تخبر

نوح والآخرين عن رحيلي للبحث عن بوبو؟.. موعد رحيل السفينة قد اقترب.. ماذا لو رحلوا بدوني؟.."

فقال أيمن وهو يتقدم منها "أليس هذا أفضل لنا؟.."

صاحت نور "لماذا؟.. لم نتفق على هذا.. طلبت منك التحدث إليهم، وأنت وعدتني بذلك.."

استدارت محاولة الانطلاق للسفينة، لكن أيمن قبض على يدها قائلاً "لكني قد أبلغتهم أنك لست راحلة.. وأنك ستبقين معي.."

نظرت له نور بصدمة قائلة "أبقى؟.."

تشبث أيمن بذراعي نور قائلاً بلهفة "أجل.. أنت ستبقين معي يا نور.. أليس كذلك؟"

نظرت له نور بدهشة كبيرة وصدمة أكبر وهو يضيف بانفعال " بدلاً من العودة لتلك الحياة البائسة، يمكنك البقاء معي.. تخيّلي الحياة التي سنحياها هنا، في حرية تامة وبلا حدود.. سيخلد التاريخ اسمك معي كأصغر عضو في فريقنا العلمي.. تخيلي المتعة التي سنجدها في هذه الفترة.. ما رأيك يا عزيزتي؟"

حاولت نور جذب ذراعيها وهي تقول بتوتر "أبقى معك؟.. هذا جنون، وبقاؤك في هذا المكان جنون أكبر.."

تشبث أيمن بها بقوة أكبر وهو يقول بشيء من العصبية "جنون؟.. ماذا تعرفين أنت عن ما نفعله هنا؟.. لا يهمني أن أخسر حياتي مقابل أن أقدم شيئاً للعلم.."

قالت نور بشيء من الحدة وقد آلمتها قبضة يده "هذا اختيارك أنت وليس أنا.. حتى لو كانت حياتي السابقة بائسة، فأنا أفضل أن أعيشها بدل الموت هنا لأجل مجدك أنت.."

فقال أيمن بإلحاح "لكن يجب أن تبقي معي.. لا يمكنني الرحيل معك، ولا يمكنني بتاتاً تركك تعيشين في ذلك العالم القاسي وحيدة.. ستكونين بخير معي.."

أشعرتها كلماته بقلق شديد.. لم يكن أيمن في تلك اللحظة يستمع للمنطق بتاتاً، وكل فكره منصبّ على مجده العلمي والمعرفة التي سيقضي نحبه في سبيل الحصول عليها.. وإلحاحه على جرّها معه في هذا العالم الميت جعلها تقلق أكثر وهي تنظر لعيناه الملتمعتان بشيء لا تفهمه..

قالت نور وهي تحاول الإفلات منه "لكني أرفض البقاء.. دعني أذهب.."

قال أيمن بعصبية "لكن يجب أن تفعلي.. ستبقين معي ولو اضطررت لاستخدام القوة يا نور.."

نظرت نور حولها بيأس شديد وهي مدركة أنه قادر على فعل ذلك.. حاولت نور ركله بقوة على ساقه، وبذلت جهدها لمقاومته وهي تصيح "تباً.. لقد خدعتني.."

لكن أيمن لم يتخلّ عنها رغم ذلك وهو يصيح "نور....."

وجدت نور في تلك اللحظة يداً توضع على كتفها وتثبتها بقوة، ثم وجدت قبضة تصيب وجه أيمن بقوة فتلقيه للوراء عدة أمتار بعنف.. نظرت نور لأيمن الذي تأوه بألم شديد، ثم نظرت لعابد الذي وقف قربها قائلاً بحنق "يا لك من أحمق.. لو كنتَ تريد الموت، فمُت وحدك.."

ثم أضاف قائلاً "لنعد للسفينة بسرعة قبل أن يرحلوا عنا.."

استدار مغادراً الموقع، فركضت نور خلفه دون اعتراض متجهين للسفينة وهي صامتة بشيء من الذهول.. وسمعت عابد يقول بعد ابتعادهما عن موقع أيمن "لماذا لم تتخلصي منه بسرعة أكبر؟.. لم أعهدك ضعيفة بهذا الشكل.. ماذا لو رحلت السفينة بدونك؟"

همست نور بعد لحظة صمت "لست ضعيفة.. لكن أفزعتني عصبية أيمن، وأفزعني إصراره.."

وخفضت بصرها بمرارة مضيفة "لم أكن أرغب بأن يكون هذا آخر لقاء بيني وبينه قبل رحيلي.. لكنه كان أسوأ لقاء.."

قال عابد بسرعة "وجود أيمن غير مهم في حياتك حقاً.. لقد عشتِ حياتك بدونه، ولن يكون عسيراً عليك أن تعيشي ما بقي لك من حياة بدونه أيضاً.."

لم تعلق نور والمرارة تتزايد في حلقها، بينما أسرع عابد عائداً لموقع السفينة وصوت محركاتها يبدو لسمعه بوضوح.. فغمغم عابد مقطباً "تباً لك يا نوح.. لن تجرؤ على الرحيل.."

لم تعلق نور وهي تشعر بالقلق بدورها لهذا الخاطر.. وبعد أن وصلا السفينة، عبرا الممر المعدني المفضي إلى قلبها وصاح عابد عبر جهاز الاتصال الملحق بالبوابة "هل الجميع هنا؟"

أتاه صوت نوح قائلاً "أجل.. حمداً لله أنك لم تتأخر.. هل عادت نور؟"

فقال عابد "أجل.. سأغلق البوابة الآن.. وارحل بنا من هذا الكوكب يا نوح.."

جاءه صوت نوح المبتسم قائلاً "جميل أن تتذكر اسمي بعد كل هذا الوقت.. سنرحل حالاً بإذن الله تعالى.."

ضغط عابد زر إغلاق البوابة، ثم التفت لنور التي انطوت في جانب المكان وهي تدفن وجهها بين ذراعيها.. فزفر عابد وقال لها "هل تبكين عليه؟.. لا أظن أنه يستحق ذلك.."

غمغمت نور بصوت متغير "لا أستطيع البكاء حتى لو أردت ذلك.. منذ رأيته، كان أيمن يصدمني بكل تصرف يقوم به.. حتى إنني الآن لا أشعر بأي أسي لرحيلي بعيداً عنه.."

غمغم عابد "جيد.."

بدأ هدير المحركات يتزايد والسفينة ترتفع وهي تهتز كعادتها، بينما لم تغادر نور موقعها وهي صامتة.. شعرت بأسىً بالغ، وربما كان الأسى على سنوات عمرها التي قضتها في البحث عن ذلك الشقيق، يراودها الأمل أن الحياة بعدها ستكون أفضل بالنسبة لها.. لكن الأمور عادت لما كانت عليه.. وعادت هي وحيدة في هذا العالم منبوذة من الجميع.. وبعد أن تصل هذه السفينة لآريس، لو قدّر لها ذلك، ستعود هي لمعركة الحياة أو الموت التي تخوضها بشكل يومي في عالمٍ قاسٍ لا يعبأ بصغير أو ضعيف.. هل أخطأت بالرحيل عن الأرض رغم إلحاح أيمن؟.. أم أخطأت لأنها بحثت عنه في البدء؟.. لم تعد تدري حقاً..

في تلك الأثناء، وقف طارق يراقب السفينة التي هدرت محركاتها بصوت قوي وارتفعت نحو السماء بسرعة وشيء من الثبات مخلّفة سحابة من الدخان خلفها، بينما قبعت رُبى في موقعها قريباً وهي تهمس "ألستَ نادماً؟"

جلس قربها وأمسك يدها دون أن يحوّل بصره عن السفينة التي بدأت تغيب وسط الغيوم قائلاً "نادم لأنني سأبقى معك؟.. أم نادم لأنني حققت إحدى أمنياتي أنا؟.."

غمرت حمرة خدي رُبى رغم شحوبها وهي تقول "أصبحت أكثر صراحة في التعبير عن مشاعرك.."

تساءل وهو يتأمل ملامحها "أيسبب لك هذا الضيق؟"

تزايدت الحمرة في خديها مع ابتسامتها المتسعة وهي تجيب "لا.. بل يسعدني أيما سعادة.."

تأمل طارق عينيها الزرقاوين اللتين التمعتا ببهجة لا يمكن إخطاؤها، وتساءل في سرّه كم زمناً سيبقى

قادراً على رؤيتهما؟.. متى سيفقد هذه البهجة التي تملأ صدره وتشعره بأنه يملك ما يتطلع له في الحياة؟..

قطع أفكاره فجأة مع صوت مدوٍ انفجر على مبعدة جعله ينتفض في موقعه وهو يدير بصره نحو السماء بتلقائية.. ووسط الغيوم الكثيفة التي تكاد تحجب نور الشمس، بدا وهج الانفجار واضحاً في المسار التي اتخذته السفينة محاولة مغادرة الغلاف الجوي، وظل الموقع يتوهج وكأن النيران قد شبّت في الغيوم الكثيفة.. تردد صوت الانفجار قوياً من حولهما، وبدأت قطع من السفينة تتطاير في عشرات الاتجاهات وهي تعود للأرض التي غادرتها منذ ثوانٍ قليلة..

ظل طارق متجمداً في موقعه وهو يراقب الانفجار بذهول شديد، بينما همست رُبى بذعر "رباه.. لقد انفجرت السفينة.."

وهزت طارق قائلة "ما الذي حدث لهم يا طارق؟.. أيمكن أن....."

قال طارق بخفوت وهو يتأمل الحطام المتناثر على مبعدة من موقعهم "لا أظن شخصاً بقادر على الإفلات من انفجار عنيف كهذا.."

عادت رُبى ببصرها نحو موقع الانفجار الذي خفت وعادت السماء لظلمتها المعتادة، وهمست بارتياع "يا إلهي.. ميساء وأحمد....."

لم تجد الكلمات لتقولها بينما سالت دموعها على خديها بغزارة، فخفضت وجهها وهي تبكي بصدمة شديدة.. بينما وقف طارق يراقب ما جرى بمرارة شديدة وهو يقبض على يديه بشدة.. لم يكن مصدوماً لأنه نجا من هذا المصير بمعجزة، لكنه يشعر بألم لأجل أولئك الذين رغبوا بمغادرة هذه الأرض بكل ما يملكونه، لكنها أبَتْ إلا أن تودي بهم لحتفهم بهذه الطريقة المفاجئة.. وكأنها استكثرت عليهم أن يعودوا لحياتهم السابقة بعد أن وصلوا إليها.. وكأن مصير كل من يقترب منها هو الموت لا محالة.. أكان خيراً لهم البقاء والحصول على موت بطيء عوضاً عن مثل هذا الموت المفاجئ؟.. إذن ما كانت فائدة نضالهم السابق على تراب هذه الأرض طوال الأيام الماضية؟.....

****

الفصل الثاني والعشرون

بعد أن تأكد نوح من إعدادات السفينة، قال لمن يقف قربه "سنبدأ الرحيل بالسفينة.. كونوا حذرين.."

تساءل أحمد بشيء من القلق "أهناك خطر في رحلتنا هذه؟"

أجاب نوح وهو يبدأ تشغيل المحركات "لا.. لقد هيأت السفينة لهذه الرحلة بمعاونة قائد سفينة الفرقة العلمية.. لذلك آمل أن تكون الأمور أفضل من هبوطنا العنيف ذاك.."

جلس أحمد جانباً بانتظار إقلاع السفينة، بينما انشغل نوح بالاطمئنان على حالة السفينة ومحركاتها وأنظمتها قبل الإقلاع.. ثم، بعد لحظات، دفع المحركات لتعمل بأقصى قوتها.. فارتفعت بسلاسة تامة، دون اهتزازات عنيفة كما حدث في المرة السابقة، ووجهها نوح نحو السماء الشاسعة فوق رؤوسهم والتي بدت مظلمة كئيبة أكثر من السابق..

لم يكن تجاوز الغلاف الجوي يستغرق إلا وقتاً قصيراً، لكنه بدا لعيني أحمد طويلاً بشكل مقلق والسفينة تخترق الغيوم الكثيفة التي تشكل طوقاً سميكاً حول الأرض تنفذ منه أشعة الشمس الغاربة بشيء من الصعوبة.. وبعد لحظات قصيرة، فوجئوا بالسفينة ترتج بقوة مع صوت انفجار بدا مكتوماً لهم.. فقفز نوح نحو أجهزته يتفحصها بينما هبّ أحمد واقفاً وهو يصيح بهلع "ما الذي جرى؟"

جاء التساؤل نفسه من عابد عبر أجهزة الاتصال، فرفع نوح وجهاً شاحباً إلى أحمد قائلاً "هناك ما أصاب محرك السفينة الرئيسي بعطل.. وهو أسوأ مما توقعت.."

فقال أحمد بسرعة "هل يمكن إصلاحه؟"

لم يكد يتم قوله، حتى سمعوا هدير المحركات يعلو بشكل مزعج وصرير قوي يدل على أن الأمور ليست على أتم ما يرام، فقفز أحمد وميساء واقفين والأخيرة تهتف بذعر "ما الذي سيجري لنا الآن؟"

سمعوا صياح عابد عبر جهاز الاتصال وهو يقول "ما الذي جرى يا نوح؟.. ألن تنفجر المحركات بهذه الصورة؟"

نظر الجميع لنوح بأعين متسعة، فأجاب نوح والعرق يسيل من صدغيه "هذا احتمال وارد بشدة.."

فشهقت ميساء بذعر، بينما صرخ عابد "ما الذي سنفعله إذاً؟.. هل ننتظر حتى يقضي علينا الانفجار؟"

صاح نوح عبر جهاز الاتصال "بل علينا أن نفر من هنا.."

قال أحمد بشيء من الذعر "نفرّ ونحن في عرض السماء؟.. كيف؟"

أجاب نوح بسرعة "وسيلتنا الوحيدة هي الطائرة التي تحملها السفينة.. انطلقا إليها بسرعة وسنلاقيكم هناك.."

لم يكذب عابد خبراً وهو يجذب نور معه للموقع الذي أشار إليه نوح، والذي يعرفه من تفحصه السابق للسفينة في أول مرة وضع قدمه عليها.. أما نوح، فقد ركض ومعه أحمد وميساء والأول يقول بصوت عالٍ ليغطي على هدير المحركات الذي علا بشكل مزعج "هل سيكفينا الوقت للهرب؟"

أجاب نوح بشحوب "نرجو الله أن نجد الوقت الكافي لذلك.."

وجدوا أنفسهم، بعد أن التقوا بعابد ونور، في قاعة صغيرة تحتوي على طائرة صغيرة الحجم من النوع الحديث الذي صمم بشكل دائري ويحتوي على أربعة مقاعد ضيقة.. نظرت ميساء للطائرة الصغيرة بشيء من الشحوب قائلة "هل ستحملنا كلنا؟"

قال عابد بحزم وهو يفتح بابها "يجب أن تفعل.. سننحشر كلنا فيها حتى لو هَوَت بنا أرضاً.."

ارتجفت ميساء للفكرة، بينما صعد عابد الطائرة وبدأ تشغيلها صائحاً بهم "أسرعوا.. لا نملك الكثير من الوقت.."

صعد أحمد وميساء في المقعد الخلفي، وانحشرت نور بينهما بصعوبة مما جعلها تحمد الله على جسدها الضئيل وإلا ما وجدت لها مكاناً بينهما في الطائرة الضيقة.. ومع الاهتزاز الشديد الذي تزايد في السفينة، فإن القلوب قد ازدادت رجفتها وهم يتطلعون حولهم لجدران السفينة بذعر شديد.. وبعد أن استقروا في المركبة، قام نوح بفتح مخرج الطائرات الذي سيسمح لطائرتهم بالمغادرة باستخدام لوحة تحكم في جانب القاعة.. وعلى الفور اندفع الهواء بقوة خارجاً من المخرج وتزايد اهتزاز الجدران من حولهم.. ورغم أن نوح كان في موقع قريب، إلا أن اندفاع الهواء القوي قد أسقطه أرضاً عندما حاول العودة إليهم وكاد يجذبه

معه بقوة رغم تشبث نوح بجزء بارز من أحد الجدران..

كانت الأضواء المتراقصة وصوت الإنذار المتعالي يزيد الرعب فيهم، بينما حاول نوح بقوة العودة للطائرة وذعره من انفجار السفينة المحتمل يتزايد مع كل جزء من الثانية يمر.. خطأ واحد، وسيجد نفسه يهوي على ارتفاع آلاف الأمتار عن الأرض، عندها لن ينفعه هروبه من انفجار السفينة.. وخلال لحظات، فوجئ بمن يقبض على ذراعه ورأى عابد الذي وصل إليه يجذبه بقوة وهو يصيح من بين الضجيج الذي عمّ الموقع "هيا بنا.."

وبالاعتماد على عابد الذي مكنه جسده القوي من الثبات في وجه الهواء المندفع خارجاً من السفينة، عاد الاثنان إلى الطائرة بسرعة.. فصعد نوح في مقعد القائد وعابد قربه صائحاً "لنرحل قبل فوات الأوان.."

لم يكن نوح ينتظر مثل هذا التنبيه، فقام بالانطلاق بالطائرة فور إغلاق أبوابها، واندفع بها نحو المخرج.. وفور تجاوزها مخرج السفينة، انطلق نوح بالطائرة بسرعتها القصوى ليبتعد بها عن السفينة قدر استطاعته.. ولم يكد يفعل حتى سمع الجميع صوت الانفجار العالي الذي صمّ آذانهم ونوره يعشي الأعين لقوته وقربه منهم.. وبينما غطى ركاب الطائرة آذانهم من قوة الصوت، فإن الموجة التضاغطية ولهب الانفجار قد لحق بالطائرة فدفعها دفعة قوية للأمام بحيث فقد نوح السيطرة عليها وهي تدور حول نفسها وتنقلب بشكل سريع..

تشبث الخمسة بما يمكنهم التشبث به وسط صراخ ميساء المذعور والضجيج الصادر عن الانفجار.. بينما حاول نوح استعادة سيطرته على الطائرة قبل أن تهوي بهم والابتعاد عن الانفجار بأسرع ما يستطيعون.. ورغم أن دوران الطائرة لم يدُم إلا ثوانٍ، لكنه بدا كدهر كامل حتى استقرت الطائرة نوعاً ما في طيرانها ونوح يحاول اختراق الغيوم بها عائداً للأرض.. ولما تمكن من ذلك، تنهد براحة عندما باغتته صرخة نور "انتبه.."

نظر نوح لحيث تشير، حيث سقف الطائرة الزجاجي يتيح لهم رؤية ما يعلوها، وفي جزء من الثانية رأى لوحاً معدنياً ضخماً من أجزاء السفينة التي تساقطت حولهم يهوي فوق رؤوسهم مباشرة.. ووسط شهقات الذعر التي صدرت من البقية، فإن نوح قد أدار مقود الطائرة بشدة لتميل عن مسارها السابق مبتعدة عن

ذلك اللوح الذي سيهشم طائرتهم بسهولة.. ورغم أنه أفلح بذلك بالفعل، إلا أن جزءاً من ذلك اللوح قد أصاب ذيل الطائرة بضربة قوية هشمه وجعل الطائرة تدور حول نفسها عدة مرات قبل أن تهوي بسرعة كبيرة مخترقة الغيوم السوداء من حولهم..

تعالت صرخات ميساء من جديد تزيدهم ذعراً ونور تشهق بقوة وهي تتلفت حولها، بينما صاح أحمد بذعر "سنصطدم بالأرض.."

فصرخ عابد "افعل شيئاً يا نوح.."

ضغط نوح أسنانه بقوة وهو يجذب المقود محاولاً رفع مقدمة الطائرة لئلا ترتطم بالأرض بشكل عمودي.. وكما فعل سابقاً مع السفينة، فإنه نجح في تكرار ذلك مع الطائرة التي ارتفعت شيئاً ما إنما لم يتوقف تسارعها نحو الأرض.. وخلافاً لحجم السفينة الكبير الذي مكنها من الثبات في هبوطها العنيف نحو الأرض، فإن حجم الطائرة الصغير يفتقر لذلك الثبات.. ففور ما لامس بطنها الأرض العشبية حتى انقلبت بقوة وعنف عدة مرات قبل أن تستقر على جانبها وتزحف لمسافة طويلة مثيرة سحابة من الغبار على شكل خط طويل حتى استقرت أرضاً بسكون ظاهري والغبار يغطي المنطقة لعدة ثوانٍ..

استجمع عابد نفسه بعسر وهو يصيح بالبقية "هل الجميع بخير؟"

لم يجبه أحد رغم الشهقات التي صدرت منهم وهم يحاولون تمالك أنفسهم بعد هذا الهبوط العنيف.. بينما حاول عابد فتح الباب المجاور له والذي أصبح يواجه السماء عدة مرات قبل أن يركله بعنف وبأقوى ما يستطيع حتى سقط الباب أرضاً على مبعدة.. عندها جذب عابد جسده خارجاً وهو لشدة الآلام التي يشعر بها لا يدري إن كان مصاباً إصابة خطيرة أو كان ما يشعر به هو مجرد رضوض بسبب الارتطام.. ولم يكن الوقت يسعفه لتفحص جسده وهو يهرع للباب الخلفي فيستنفر عضلاته ليفتحه ثم جذب ميساء وأخرجها وجذب نور بعدها صائحاً بأحمد "غادروا الطائرة بسرعة.. لا ندري إن كانت ستنفجر بعد ارتطام كهذا.."

أطاعه أحمد وهو يغادر الطائرة وينزلق من فوقها مع ميساء ونور قبل أن يبتعدوا عن الطائرة وسط تلك السهول.. بينما عاد عابد للباب الأمامي ملاحظاً صمت نوح، وبنظرة سريعة لاحظ الإصابة التي أصابته

في رأسه وهو يمسك المقود بشدة ودوار يكتنفه.. لكن عابد لم يترفق به وهو يجذبه ليخرجه من الطائرة صائحاً بالبقية "ابتعدوا عن الموقع.."

تراجع الجميع مسافة معقولة، بينما جذب عابد نوح الذي كان يسير بساقين متعثرتين.. لكن لحسن حظهم، فإن الطائرة ربضت في موقعها بصمت وسحابة خفيفة من الدخان تنبع من مؤخرتها دون أن تنفجر.. أجبر عابد نوح على الجلوس بعد مسافة آمنة من الطائرة وتفحص جرحه قائلاً "لا يبدو خطيراً.. المهم أننا جميعاً أحياء بعد هذا الانفجار.."

جلس أحمد أرضاً ووضع رأسه على يديه مغمغماً "حمداً لله.. كنا سنقضي نحبنا في ذلك الانفجار.."

نظر عابد لميساء ونور ليطمئن عليهما، وبينما كانت ميساء بخير عدا عن ارتجافة جسدها الواضحة والدموع التي سالت بذعر على خديها، فإن نور كانت تمسك يدها اليمنى بألم شديد دون أن تنبس بكلمة.. وفور انتهائه من تضميد جرح نوح كيفما اتفق، باستخدام جزء انتزعه من قميص نوح، اقترب من نور قائلاً "ما الذي جرى لك؟ هل أصيبت يدك من جديد؟"

لم تجبه نور وهي تقبض على يدها بقوة وألم واضح، فتفحص عابد يدها وتأكد أن الجبس الذي يحيط بها لم يتضرر من هذا الهبوط العنيف.. ثم قال بتوتر "علينا العودة بسرعة للمعسكر لنفحص يدك ولنعالج جرح نوح.."

لم تعلق نور وهي شاحبة الوجه.. فربت عابد على رأسها مهدئاً وهو يغمغم "الحمدلله.. الجميع بخير.."

سمعوا في تلك اللحظة صوت المركبة التابعة للفرقة العلمية والتي تقدمت من موقعهم بسرعة كبيرة.. لم يكن هبوطهم بالطائرة في موقع يبعد الكثير عن الهضبة الحمراء وسط تلك المساحات العشبية.. وفور اقتراب المركبة، لاحظ عابد وجود طارق ورُبى مع مازن وشخص آخر يتولى القيادة.. وفور وقوف المركبة قريباً منهم، قفز منها طارق ومازن تتبعهم رُبى التي كانت تهتف بانفعال واضح "حمداً لله على نجاتكم من ذلك الانفجار.."

اقترب طارق منهم متسائلاً بتوتر واضح "ما الذي جرى للسفينة؟.. إنها معجزة أنكم قد تمكنتم من الهروب من انفجار كالذي أصاب السفينة.."

شرح له عابد ما جرى بكلمات مقتضبة، بينما ركع مازن قرب نوح الذي لم يستعد صفاء ذهنه مع ضربة رأسه.. وتقدمت رُبى من ميساء واحتضنتها بقوة وهي تهمس براحة "حمداً لله على سلامتكم.. حمداً لله.."

وبعد أن اطمأنت على أحمد، لاحظت نور التي ظلت واقفة برجفة وشحوب وهي تمسك يدها اليمنى بيدها الأخرى.. فاقتربت رُبى منها متسائلة "أأنت بخير يا عزيزتي؟"

احتضنتها محاولة تهدئتها، فسالت دموع نور وهي تحاول كتم بكائها ودموعها.. شعرت رُبى بإشفاق كبير عليها وربتت على كتفها قائلة برفق "هل أفزعك الانفجار يا نور؟.. أم أن ذراعك تؤلمك؟.. لِمَ تبكين؟.."

لكن نور لم تكن تملك الإجابة وقد اختلطت مشاعر عديدة في صدرها لم تعرف كيف تصنفها.. ولم تجد طريقة للتعبير عنها سوى بهذه الدموع والبكاء بحرقة.. شعرت أنها ضائعة، ولا تعرف ما تريده أو ما تخشاه حقاً.. كل ما يهمها هو التخلص من هذه المشاعر البغيضة التي تحتشد في صدرها وتسيل لها دموعها دون انقطاع..

بعد تلك الأحداث، وعند عودتهم للمعسكر، تلقاهم عاصم مع بقية أفراد فريقه والذين جذبهم الانفجار العالي للسفينة.. وبعد أن اطمئن على ميساء وأحمد، قال عاصم بشيء من الحدة "ما الذي جرى؟.. لقد بدا انفجار السفينة واضحاً من هذه المسافة.. فكيف حدث ذلك؟"

لم يتمكن أحد من إجابته، بينما قال نوح بشحوب "رغم الفحص الذي أجريته على السفينة سابقاً، إلا أن محرك السفينة الرئيسي كان به عطل كبير لم أدرك وجوده.. ولم يتضح إلا بعد أن ارتفعت السفينة وبدأ المرور من الغلاف الجوي يسبب ضغطاً على عمل المحرك.."

قال عاصم بحدة أكبر "لكنك تملك خبرة طويلة في قيادة السفن، أليس كذلك؟.. كيف أمكنك أن تقع في مثل هذه الهفوة التي كادت تودي بحياتكم؟"

قال نوح بعصبية "لا قدرة لي على التكهن بهذه الأشياء، ولم أدرك أن هبوطنا العنيف سابقاً قد أثر على المحرك ذاته رغم كل الفحوصات التي أجريتها.. فكيف تتهمني بالإهمال؟"

قاطع أحمد جدالهما قائلاً "لا يمكننا لوم نوح، فهو قد بذل ما في وسعه بالفعل.."

وربت على كتف نوح مضيفاً "على الأقل، نجونا من هذه الكارثة بمعجزة.. فلنحمد الله تعالى على ذلك.."

دمدم نوح بكلمات غير مفهومة وهو يبتعد عن الموقع ومازن يلحق به ليطمئن عليه، بينما زفر عاصم وهو يغمغم "وفوق الخطر الذي مررتم به، فقد خسرتم السفينة الوحيدة على الأرض دون أن تحققوا شيئاً.."

فقال عابد بشيء من الجفاء "أهذا كل ما يهمك؟.. كدنا نهلك في هذا الانفجار، ولو لم تلاحظ، فإن اثنين من أبنائك كانا معنا.. أم أنك تظننا تكبدنا عناء الرحيل بالسفينة لنقوم بتفجيرها في عرض السماء؟!.."

قال عاصم بشيء من الصرامة "لا يسعدني ما مررتم به بتاتاً.. لكنكم بخير والحمدلله.. ولا تزال مشكلة السفينة قائمة، بالإضافة لأمر المؤونة التي احترقت في ذلك الانفجار.."

فغمغم عابد وهو يبتعد "تباً للعلماء.."

لم يعلق عاصم رغم النظرات المستنكرة التي ألقاها على عابد.. وبينما اقتاد مازن نوح ونور إلى العيادة لعلاجهما، غمغم عاصم بضيق شديد "هذه هي السفينة الثالثة التي تدمر على ظهر الأرض خلال أيام قليلة.. ما هذا الفأل السيئ؟.."

****

جلست نور قرب نار أشعلت وسط المعسكر وهي تتأمل اللهب بصمت وسكون.. بعد عودتهم التي صاحبتها ضجة كبيرة، وبعد أن اطمأن أيمن لحال نور وقد عجز عن اللحاق بالمركبة التي انطلق بها طارق والبقية، أظهر أيمن سعادته بنجاتها وأخبرها أن هذا دليل على وجوب بقائها هنا، وأن الله تعالى قد لمّ شملهما ليبقيا معاً في هذه الأرض.. لكن نور، بعد بكائها السابق، وبعد أن قامت عالية بتفحص حالة يديها والتأكد أن جبيرتها سليمة، فقد التزمت نور بالصمت وتجنبت النظر في وجه أيمن رغم محاولته التحدث معها، وبقيت ساكنة حتى انتهى النهار وبدأ الليل الهادئ في المعسكر.. والآن، بعد أن فقدوا سفينتهم الأخيرة ووسيلتهم الوحيدة للرحيل، هل سيكون عليهم البقاء هنا حتى تصل إحدى دوريات مجلس الأمن؟.. أم أن بقاءهم على هذه الأرض سيطول أكثر من ذلك؟..

لاحظت جلوس رُبى قربها بابتسامة على وجهها، وهذا نوعاً ما أشعر نور بالغيظ، مما جعلها تدير وجهها

جانباً بصمت وضيق ظاهر.. فعلقت رُبى "لِمَ تُبدين هذه العدائية نحوي؟.. ما الذي جرى؟"

قالت نور بحدة "مخططك هذا هو ما أوقعنا في كل هذه المشاكل، وكاد يودي بحياة الجميع عدة مرات.. فهل أنتِ راضية عن كل ما قمتِ به؟"

ابتسمت رُبى قائلة "وهل ستكونين أسعد حالاً لو ظللت علي جهلك بموقع شقيقك ولو لم تريه بقية حياتك؟.. أنا فقط منحتك الفرصة، وأنت من اخترتِ اقتناصها.. فعلى ماذا تلومينني؟"

خفضت نور وجهها قائلة بمرارة "ألومك على هذه الفرصة التي لم تزِدني إلا ألماً وحسرة على ما ضيّعت عمري فيه.. وفي النهاية، ها نحن مسجونون في هذا الكوكب ننتظر موتنا بصمت واستسلام.."

قالت رُبى "ومن قال إن عمرك قد ضاع في شيء؟.. نحن نعيش أعمارنا وفق اختياراتنا، لذلك لا يجب أن نندم على ما قمنا به.. أنتِ اخترت البحث عن شقيقك، وهذا كان أكبر دافع لك للنضال وحيدة، فلا تندمي على ذلك.. هذا الدافع والسنوات التي قضيتِها لتحقيقه هي ما شكلت شخصيتك الحالية.. وأنا أراك فتاة ذات شخصية رائعة، فعلام الندم إذاً؟.."

غمغمت نور "يا لها من كلمات منمقة.."

قالت رُبى هازة كتفيها "ربما، لكنها هي الحقيقة.."

ساد الصمت بينهما وهما تتطلعان إلى السماء المظلمة التي خلت من أي نجوم تضيؤها، إلا من قمر بدا شاحباً وسط الغيوم.. وبعد صمت قصير، تساءلت نور "لماذا حرصت على أن أرافقكم في هذه الرحلة؟.. قد أفهم حاجتك لنوح لقيادة السفينة، وحاجتك لعابد لمعاونته في الرحلة الطويلة حتى وصول السفينة للأرض.. طارق أمره سهل بما أنه مساعدك وسيتكفل بكل أمورك عند الوصول.. لكن ماذا عني أنا؟.. ما أهمية وجودي في هذه الرحلة؟.."

نظرت لها رُبى بصمت للحظات، حتى شكّت نور أن رُبى ستمتنع عن الإجابة.. ثم ابتسمت رُبى مجيبة "من بين أحلامي العديدة عن هذه الرحلة، كنت أرى فتاة متنكرة بزي صبي صغير تنظر للسفينة ودموعها تسيل على خديها.. أدركت بعد أن تكرر الحلم كثيراً أن لهفتك للوصول للأرض قد جعلتني أراك بتلك الصورة.. وقد تطلب الأمر مني بحثاً طويلاً حتى عثر عليك من كلفتهم بالأمر.. ولولا أنني تعرفت على

ميناء آريس لما عرفت في أي مستوطنة من مجموعة ميرا يجب أن أبحث فيها، ولولا حصولي على معلومات عن أفراد الفرقة العلمية وأهاليهم لما عثرت عليك بتاتاً.."

فتنهدت نور قائلة "ما الذي سيجري لنا بعد الآن؟"

أجابت رُبى "هذا ما لا أعرفه.. لقد فقدت قدراتي السابقة.. أنا مجرد فتاة عادية تنتظر موتها بصبر.."

لم تلمح نور أي مرارة في نبرة رُبى، فنظرت لملامحها بدهشة وتساءلت "أتظنين أننا كسبنا شيئاً من هذه الرحلة الغريبة؟"

ابتسمت رُبى قائلة "من قال إنك لم تكتسبي شيئاً من هذه الرحلة بتاتاً؟.. لستُ بحاجةٍ لأي قدرات لأدرك ذلك.."

نظرت لها نور بدهشة، فأضافت رُبى "ألم تدركي بعد أنك لم تعودي وحيدة كما كنت؟.."

قالت نور بشيء من المرارة "أتعنين شقيقي الذي لا يرى من الدنيا سوى مجده الشخصي؟"

قالت رُبى بابتسامة متسعة "لا.. لم أكن أعنيه بتاتاً.."

اتسعت عينا نور بدهشة أكبر، بينما نهضت رُبى واقفة وقالت "الحياة مليئة بالمفاجئآت.. وهي تدهشنا دائماً.."

نادتها نور قبل أن تغادر متسائلة "وماذا عنكِ؟.. ما الذي كسبته من مثل هذه الرحلة؟"

لم تلتفت إليها رُبى وهي تنظر إلى السماء بصمت، ثم قالت "كسبت قناعة كنت أفتقر إليها.. لم أعد أشعر بضيق لما جرى وسيجري لي، وأصبحت أرى الجانب المشرق من حياتي مهما كان مسارها.."

ونظرت لنور مبتسمة وهي تضيف "وهذا يجعلني أكثر جدية في اتخاذ المسار الذي أريده، ولم أعد مترددة في اقتناص سعادتي أينما كانت.."

وغادرت وهي تدندن بانشراح تام تاركة نور تنظر لها بصمت وتعجب كبيرين.. ثم تنهدت وهي تنظر للسماء المظلمة هامسة "أنت متفائلة كثيراً.. وهو شيء لا أملكه بتاتاً.."

ظلت سارحة ببصرها في الفضاء وهي تفكر في كلمات رُبى.. أهي نبوءات كما اعتادت أن تفعل سابقاً؟.. أم أنها مجرد كلمات تشجيعية لا تعني شيئاً؟.. ما الذي كسبته هي من هذه الرحلة؟.. طوال الوقت كان فكرها

منشغلاً بما خسرته، ولم يطرأ لذهنها أن تفكر بشيء كسبته بتاتاً.. فهل كسبت شيئاً حقاً من هذه الرحلة العجيبة؟..

****

"وما الذي تظنني كسبته من هذه الرحلة المشؤومة؟ بضع جراح وذكريات بغيضة وبعض الحظ السيئ.."

ابتسم طارق وهو يراقب ثورة عابد، ثم قال "أتسمي هذا حظاً سيئاً؟.. كم مرة نجوت من خطر محدق؟.. كم مرة أفلتَ من قبضة رجال الأمن وانتقام المحليين؟.. وفوق هذا نجاتك من ذلك الفيضان العارم في المدينة المدمرة.. لو لم يكن هذا حظاً جيداً، فما هو الحظ فعلاً؟"

قال عابد بسخط "كف عن محاولة إقناعي بأنني سعيد الحظ بالبقاء في هذا الكوكب المميت.. هذه كانت رغبتك أنت، لا رغبتي، لذلك هي لا تسعدني بتاتاً.."

قال طارق متنهداً "أتظن أن رغبتي كانت بالبقاء في هذا الكوكب القاسي؟.."

نظر له عابد بدهشة، فابتسم طارق موضحاً "رغبتي كانت بالبقاء معها هي.. أينما كان هذا.."

دمدم عابد وهو يستلقي أرضاً متطلعاً للغيوم الكئيبة فوق رأسه "هذا جنون.. أعترف الآن أنني لا أفهم هذا الشيء المسمى حباً بتاتاً.."

تساءل طارق وهو ينظر للسماء بدوره "ألم تشعر بالحب أبداً يا عابد؟"

قال عابد بجفاء "لا يمكن.. أنا لا أنغمس بمشاعري مع أحد بتاتاً، وقد قطعت علاقتي بالبشر منذ هربت تلك الحمقاء من المنزل وسقط أبي ضحية إدمانه.."

ثم أضاف بسخط "مثل تلك العلاقات لا أحصل منها إلا على همّ يزيد عمري سنوات لا حصر لها.."

فتساءل طارق بتعجب "وماذا عن نور؟.. ألست منغمساً بمشاعرك معها؟"

قطب عابد قائلاً بحدة "لا.. هي تثير شفقتي لا أكثر.."

ابتسم طارق بجانب فمه معلقاً "الشفقة هي جزء من مشاعر لا يمكنك إنكارها.. أنت منغمس حتى

النخاع يا رجل.. لكنك ترفض الاعتراف بهذا.."

أدار عابد وجهه جانباً وهو يقول "كفّ عن هذا الحديث المثير للأعصاب، فليست بي طاقة للا ستماع إليك.."

ضحك طارق وهو يقول "لا بأس.. ما تزال أيام طويلة أمامنا لنتبادل فيها الكثير من الأحاديث.. فلا تقلق.."

ظل عابد يدمدم ساخطاً، بينما نظر طارق خلفاً للموقع الذي احتلته رُبى وهي منشغلة بالحديث مع نور.. ورغم انقباض قلبه بشكل مؤلم كلما نظر لرُبى، إلا أنه لا ينكر أنه سعيد.. ربما لم يحظَ بمثل هذه السعادة قط في حياته كلها.. ولا يعلم كم سيدوم به هذا..

****

تأملت نور شروق الشمس بصمت وسط ذلك السكون الذي يفرضه الشتاء على الأرض.. خفتت أصوات العصافير والحشرات منذ بدأ الشتاء القاسي، ومنذ انتقل المعسكر لذلك الكهف الواسع الذي خلّفه السكان المحليون خلفهم مع هجرتهم للجنوب.. وكما يبدو، دأب المحليون على القيام بهذه الهجرة طوال مدة الشتاء كل سنة، ويعودون مع تفتح الأزهار ونمو الحشائش التي تغزو الموقع عند سفح الجبل..

نظرت نور للشمس الوليدة والتي بدا نورها أكثر خفوتاً وتذبذباً مع حلول الشتاء وازدياد الغيوم كثافة وكآبة.. لا تدري نور كم شروقاً رأت، وكم غروباً شهدت طوال الأيام التي مضت منذ حدثت لهم تلك الحادثة واضطروا بعدها للاستسلام لبقائهم على الأرض رغم إرادتهم.. ومع تطاول الأيام والسكون يسود المواقع حولهم، فلا أصوات حيوانات ولا بشر ولا أثر لأي سفن فضائية، ساد نور قناعة أنها لن تجد وسيلة للرحيل عن الأرض مهما حاولت.. وأن عليها أن تقنع بحياتها على هذه الأرض مهما كانت تودّ الفرار منها..

ورغم إصرار عاصم على أن الشتاء لم يبدأ فعلياً بعد، وأن ما هو قادم أقسى بكثير مما رأوه، إلا أن ما شهدته

نور في الأيام الماضية، من مكمنها في ذلك الكهف الذي وفّر لهم حماية نوعية، كان أشد عنفاً وسطوة من أي خيال جامح قد يراودها.. عواصف رعدية مرعبة، وعواصف ثلجية تعوي في جنبات الكهف، ودرجات حرارة متدنية لم تشهد مثلها من قبل.. فما هو الشتاء الذي يتنبؤون به بعد كل ما مرّ بهم؟..

وبعد وقوف طال، استدارت نور عائدة للكهف عبر الممر الطويل، ولاحظت فور وصولها إليه أن المعسكر بدأ يستيقظ مع بداية النهار.. بدا أفراد الفرقة العلمية منشغلين بإتمام دورهم بصمت وتزامن معتاد، وهم يقومون بالتحضير لعمل طويل يستغرق هذا النهار بأكمله..

توجهت نور من فورها لنار أشعلت وسط الساحة التي تتوسط المنازل، والتي تنشر الدفء في المكان مع حرص عاصم على تقنين استخدام المولدات التي جلبوها معهم لأدنى الحدود.. فجلست قرب النار وحيدة وهي تحاول تدفئة جسدها بعد البرودة الشديدة التي واجهتها خارج الكهف، وزفرت بشيء من الضيق وهي تخلع القفازين السميكين من يديها وتنظر لأصابعها التي بدأت الزرقة تصيب أطرافها.. كانت أصابعها متورمة شيئاً ما بشكل غريب وبدت على شيء من التشويه جعلها تتأفف وهي تعيد القفازين لموضعهما وتنطوي على نفسها محاولة احتمال الرجفة في أوصالها..

شعرت بحركة خافتة قريبة، ثم وجدت بوبو يجلس قرب النار مرتجفاً وهو يصدر أصواتاً مختلطة.. ورغم الثياب السميكة التي منحه إياها أيمن، إلا أن بوبو ظل يرتجف بشدة مما جعلها تقول بإشفاق "كان عليك الرحيل للجنوب كما فعل البقية.. لِمَ لَمْ ترحل بعد؟"

سمعت آن تقول من خلفها "ما الذي أيقظك باكراً في هذا الجو الصقيعي؟.."

غمغمت نور "لم تسمح لي البرودة بالنوم براحة.. درجات الحرارة تنخفض بشكل سريع كل يوم.."

علقت آن وهي تجلس قرب النار بدورها "هذا كان متوقعاً.. لكن لا أعلم كم سنقدر على احتماله.."

تساءلت نور "لطالما ذكرت رُبى أن الشتاء القاسي سيطال سكان الأرض جميعاً.. أتظنين أننا سنموت؟"

أجابت آن بموضوعية "ربما.. وربما لا.. الإنسان يثبت أن له إرادة تتفوق على إرادة الصر صور للبقاء حياً.."

ضحكت نور لذلك الوصف وقالت "لا أريد أن أتحول صر صوراً بسبب هذه الظروف الصعبة.. لكن

يبدو أن هذا ما سيحدث شئت ذلك أم أبيت.."

قالت آن بهدوء "أتعنين ما حلّ بأصابعك؟"

نظرت لها نور بدهشة، ثم غمغمت "هل لاحظت؟"

ابتسمت آن مجيبة وهي تعبث بشعر نور الذي استطال حتى تجاوز أذنيها "طبعاً لاحظت ذلك.. بودي لو أستطيع مواساتك، لكن كل ما أقوله لك أن بقاءك في هذه الأرض سيجعل الأمور أسوأ مع كل يوم يمر.."

نظرت نور لما ظهر من ذراعي آن التي أصبحت خشنة ذات جلد يابس متقشر مما جعلها تشبه الحراشف السميكة، ثم زفرت نور معلقة "وهل البقاء أو الرحيل خيار متاح لي؟.."

شعرت بمن يلقي معطفه على كتفيها، فنظرت خلفاً لترى أيمن يتقدم ليجلس قريباً وهو يقول بابتسامة "يبدو أنك لم تعودي قادرة على احتمال هذا البرد.."

صمتت نور وهي تتشبث بالمعطف محاولة الحصول على بعض الدفء.. بدا لها أن أيمن يحاول التودد لها بشدة أكثر من قبل، وكأنه يعتذر لها عن تصرفه السابق قبل رحيل السفينة.. أو أنه يحاول إقناعها بأن بقاءها على الأرض ليس بهذا السوء حقاً..

انتبهت لسؤاله وهو يقول لها باهتمام "ماذا قررتِ؟.. هل تريدين الرحيل معنا نحو الجنوب؟"

نظرت له نور بصمت وتردد، فأضاف بشيء من الحماس "لقد وافق عاصم على قيامنا بهذه الرحلة.. سنرافق جماعة من المحليين ممن نثق بهم في رحلتهم السنوية للجنوب، ونقوم بتسجيل كل ما نراه ونمر به في هذه الرحلة الاستثنائية.. ما رأيك؟.. ستكون رحلة خيالية قد لا تتكرر بالنسبة لك.."

نظرت نور إلى بوبو الذي مدّ يديه نحو النار محاولاً الحصول على مزيد من الدفء، ثم غمغمت بعد لحظة صمت "لا أرى مانعاً من ذلك.."

فقال أيمن بحماس "رائع.."

قاطعته مضيفة "ألا يمكنكم أخذ بوبو إلى الجنوب معنا؟.. لابد أنه يعاني من هذا الجو القاسي بشدة.. من الأفضل له الاجتماع مع بقية السكان المحليين.."

قال أيمن "لا بأس.. لن يضيرنا وجوده معنا.. سننطلق بعد ساعة من الآن، وثقي أنك لن تندمي على هذا القرار.. صدقيني.."

لم تعلق نور وهي تراقبه وهو يراجع خططه مع آن لرحلتهم القادمة بحماس وعينين تلتمعان.. كانت أغلب الترتيبات قد تمّت لتلك الرحلة، ولم يبقَ إلا القليل وتنطلق تلك الفرقة الصغيرة المكونة من أيمن وآن واثنين آخرين نحو مناطق أكثر دفئاً وحياة من هذه المناطق متتبعين خطى المحليين الذين يقومون بهذه الرحلة كل عام.. فتساءلت نور في سرّها وهي تراقبه إن كان عليها أن تظهر بعض الحماسة لمخططاته تلك والمشاركة فيها.. فربما تغدو تلك الحماسة حقيقية وليست تمثيلاً، عندها قد تبدأ بالاستمتاع بحياتها التي طالت وغدت مملة كثيراً في هذا الكوكب الصامت..

****

في موضع آخر، خارج ذلك الكهف وبعيداً عن الجبل بأكمله حيث ترتمي القرية عند سفحه، ظل طارق جاثياً في موضعه على الأرض بصمت تام، دون أن يبالي ببرودة الأرض القارسة وبأكوام الثلج التي كست كل ما حوله بلون أبيض يعشي الأعين، والبرودة تتخلل العظام وتفتتها لقسوتها.. زفر بحرارة شديدة وهو يتأمل الساحة التي تحيط به والشمس الوليدة، رغم خفوت أشعتها، تنير الموجودات من حوله بوضوح تام.. عاد ببصره للأرض وهو يزفر من جديد عندما سمع خطوات خلفه قبل أن يصل إليه صوت عابد الذي قال "مازلت تحرص على القدوم إلى هذا المكان كل صباح.. ألم تملّ ذلك بتاتاً؟"

غمغم طارق بشيء من الضيق "وكيف يمكنك أن تفهم ما قد أشعر به؟.."

جلس عابد على صخرة قريبة ملتفاً بمعطف جلدي وقال "حاول.. قد أدهشك.."

قال طارق متنهداً "السبب الذي يجيء بي هنا في هذا الوقت بالذات أنني مدرك كم تحب رُبى هذا الوقت بالذات، وكم تحب نور الشمس مهما كان ضعيفاً.."

ورفع بصره للسماء مضيفاً "لذلك أحاول الإبقاء على ما يربطني بها قدر المستطاع.."

قال عابد بعد لحظة صمت "ومتى ستنسى؟.."

غمغم طارق "ولماذا يجب أن أنساها؟.. لم يمضِ على رحيلها أكثر من ثلاث أسابيع، وهي فترة قصيرة بالنظر للسنوات التي بقيت أراقبها فيها وأكتم مشاعري عنها.."

نهض عابد قائلاً "لا أظن رُبى ستكون سعيدة برؤيتك جاثياً قرب قبرها كل صباح.. لو واتتك الفرصة للرحيل، ألن تنتهز تلك الفرصة بتاتاً؟.."

صمت طارق وبصره معلق بتراب الأرض في البقعة التي أزاح عنها الثلج المتكوم ليسمح للضوء الخافت بالوصول إليها، فاقترب عابد منه وربت على كتفه بقوة قائلاً "رحيلك لا يعني نسيانك لها ونكران مشاعرك تجاهها.. لكن الدنيا تدور ولا تقف لموت أحد مهما كان عزيزاً على قلوبنا.."

غمغم طارق "تتحدث عن الرحيل وكأنك واثق منه.. لقد أمضينا ثلاثة أشهر في عزلة تامة عن العالم المعروف، فما الذي سيتغير الآن؟.."

ابتسم عابد ابتسامة متسعة وهو يجيب "لأن أمراً ما قد تغيّر بالفعل.."

نظر له طارق بصمت، فقال عابد بابتسامة "لقد عثرنا على استجابة للإشارة التي ظل نوح يطلقها لثلاث شهور متتالية عبر أجهزة الاتصال الخاصة بالفرقة العلمية.."

اتسعت عينا طارق بدهشة متزايدة بينما أضاف عابد بحبور "لقد أزف موعد رحيلنا حقاً.. وهذه المرة سنرحل من هذا الكوكب المميت بالفعل.."

صمت طارق بدهشة لما يسمعه، ثم عاد ببصره للأفق هامساً "وكأنها قد ماتت لتمنحني فرصة للفرار من هذا الجحيم.."

فقال عابد "وعليك ألا تضيّع هذه الفرصة مهما كان الأمر.."

لم يعترض طارق وهو يتأمل الأرض الترابية أمامه بصمت طال، حتى شك عابد أنه سيبقى بهذه الحال أمداً طويلاً.. لكن طارق بعدها تنهد ونهض قائلاً "لم يعد هناك ما يربطني بهذه الأرض.. وسبب بقائي فيها قد واريته التراب بنفسي.."

ربت عابد على كتفه بشيء من التعاطف، ثم انطلق عائداً للجبل القريب.. وسرعان ما تبعه طارق

بصمت..

وخلال وقت وجيز، كان الإثنان يقتربان من برج صخري تهدم جزءٌ منه وبقي الجزء الآخر صامداً أمام الرياح العاتية في هذا الموقع المرتفع.. كان البرج مقاماً على مساحة منبسطة في أعلى نقاط الجبل القريب، وقد بدا أن الهدف منه أن يكون برج مراقبة ورصد قبل أن تنال منه الظروف الجوية القاسية التي مرت على الأرض..

وفي موقع مرتفع من ذلك البرج، في غرفة متوسطة الحجم، اقترب عابد وطارق ليقفا قرب أحمد وميساء وسط الغرفة.. وقد استغل نوح ذلك الموقع لوضع جهاز اتصالات فيه واستخدامه لبث إشارة مترددة لا تكاد تنقطع آملاً أن تتمكن، في لحظة من اللحظات، من اختراق تلك الغيوم وبلوغ الطرف الآخر من المجرة..

وقف الأربعة قرب نوح الذي قال بحماس "إنها سفينة تابعة للهيئة العليا للعلوم.. أبلغوني أنهم جاؤوا بعد تأخر سفينة الدورية التي انفجرت على الأرض، وأن بعض الوقت قد استغرقهم لأخذ الإذن بالقدوم للأرض من مجلس الأمن.."

صمت طارق وهو يستمع إليه، بينما تساءل عابد "ومتى سيصلون؟"

أجاب نوح بحماس "لقد وصلوا بالفعل.. لقد تمكنوا من التقاط إشارتي عند اقترابهم من الغلاف الجوي للأرض، وهم سيبدؤون استعداداتهم للهبوط على الفور.."

همست ميساء بعينين دامعتين "لو أنهم جاؤوا في وقت أبكر.. ربما لم تكن رُبى لتلقى ذلك المصير.."

قال طارق على الفور بحزم "لم تكن رُبى سترضى بالرحيل هذه المرة كما رفضت ذلك في المرة الأولى.. التفكير في ما كان سيحدث لو كانت الخيارات مختلفة لن يجلب لك إلا الحسرة.. مصير رُبى قد تحدد منذ مولدها.. الأهم أنها لم تكن نادمة أو تعيسة في لحظاتها الأخيرة.."

سالت دمعة من عين ميساء دارتها وهي تشيح جانباً، بينما قال أحمد محاولاً تغيير هذا الموضوع الذي لن يسبب لهم إلا التعاسة "هل سنرحل عند هبوطهم على الفور؟"

سمعوا خلفهم صوتاً يقول "لا تحلموا بذلك.."

نظروا خلفهم بدهشة، ليروا قائد دورية مجلس الأمن الذي نجا من انفجار سفينته بأعجوبه، والذي اقترب منهم مع رجلين من رجاله مضيفاً "لا يمكن أن ترحل سفينة الهيئة العليا للعلوم قبل أن تتواصل مع الفرقة العلمية وتستلم تقاريرها المتأخرة.. كما أنها ستقوم بمعاينة سفينة الدورية التي، بفضلكم، قد دمّرت نهائياً.."

قال عابد بشيء من الحدة "أنت المسؤول الوحيد عما جرى للسفينة، ولا شأن لنا بما حدث لها.."

قاطعهما نوح قائلاً "ما علمته أن السفينة ستبقى لمدة أربع وعشرين ساعة قبل أن تنتشلنا مع رجال الأمن وتغادر الأرض عائدة لمجموعة ميرا.."

غمغم عابد بشيء من الإحباط "أربعاً وعشرين ساعة؟.. هذه تبدو كدهر بالنسبة لي.."

قال طارق بهدوء "هذا أفضل من الشهور الثلاثة التي قضيناها وسط الشتاء القارس.."

وأضاف متطلعاً عبر نافذة قريبة "وأفضل من بقائنا منتظرين بلا أدنى أمل.."

****

بعد ساعة من شروق الشمس، وفي كوخ متوسط في الجانب القصيّ من الكهف، راقبت نور المعدات والحقائب التي وضعت جانباً استعداداً للرحلة الوشيكة، والتي وافقت نور على مصاحبتهم فيها بعد إلحاح من أيمن ساندته فيه آن.. التفتت نور إلى آن القريبة متسائلة "ماذا عن بقية رفاقي؟.. هل سيبقون هنا؟"

أجابت آن "هذا شأنهم.. نحن سنصطحبك لأنك شقيقة أيمن، أما الباقين فليس علينا اتخاذ أي قرارات عنهم.."

قالت نور بشيء من القلق "لكن حتماً الجو في الجنوب سيكون أكثر دفئاً وملائمة لنا، كما قال أيمن من قبل.. أليس من الأفضل لهم اللحاق بنا عن البقاء في هذا الموقع القارس؟"

علق أيمن وهو يحمل إحدى الحقائب ويضعها جانباً "لا تهتمي لأمرهم يا نور.. كل شخصٍ مسؤولٌ عن قراراته على الأرض.."

صمتت نور وهي تراه يدقق في محتويات حقيبته ويتأكد من اكتمال عدته وأجهزته قبل بدء الرحلة بالفعل.. بينما ظلت هي واقفة تراقبه وآن وهي حائرة فيما يجب عليها فعله.. أحقاً هذا هو القرار الأنسب لها؟.. لا تدري لِمَ تشعر بضيق من قرار الافتراق عن البقية، وكأنها بهذا تقطع على نفسها سبيل العودة لمستوطنة آريس ولعالمها السابق.. صحيح أن ذلك الخاطر قد غدا مجرد حلم، بعد أن انقطعوا عن العالم الجديد بالفعل، لكنها لا تزال متشبثة به يراودها أمل أن تعود للعالم المتحضر، وتغادر هذا العالم الذي يصرّ على الموت مع كل يوم يمضي..

نهض أيمن حاملاً بعض الحقائب، واتجه بها نحو مخرج ذلك الكوخ ليفاجأ بوجود عابد قرب المدخل..

توقف أيمن بشكل مفاجئ بينما تساءل عابد وهو يتطلع للحقائب المعدّة "إلى أين تنوي الذهاب؟"

قال أيمن بشيء من الضيق "ألن تكفّ عن التدخل في أمورنا يا هذا؟.."

قال عابد بتقطيبة "هذا لا يجيب سؤالي.. إلى أين ستذهب؟"

أجابت نور بشيء من الخفوت "إلى الجنوب.. وأنا سأذهب معهما.."

نظر لها عابد بدهشة، بينما صمتت نور وهي نوعاً ما متعجبة من أمرها.. لا تدري لِمَ اندفعت لإبلاغ عابد بما ينوي أيمن فعله.. وكأنها تتمنى أن يقوم بالاختيار بدلاً عنها، رغم أن لا شيء يجبره على ذلك فلا تربطه بها أي علاقة وثيقة تجعلها ترجو ذلك.. لكن رغم ذلك، تمنّت أن يدلهّا عابد للخيار الصحيح.. عندها قد تكون أكثر راحة وطمأنينة في اتخاذ ذلك القرار، بدل الحيرة والضيق الذي تشعر به الآن.. قد يكون هذا ضعفٌ غير معهودٍ منها، لكنها لا تتعجب له في هذه الأوقات.. لقد عاشت حياتها معتمدة على نفسها وواثقة بقراراتها فقط دون الاعتماد على الآخرين.. لكن الظروف ما عادت كما كانت تألفها سابقاً.. والعبء النفسي الذي خاضته في هذه الرحلة جعل ثقتها بنفسها تهتزّ بشكل كبير، ويشعرها بحيرة دائمة مما يجب عليها فعله..

رأت عابد يتجاوز دهشته وهو يتقدم منها بحزم، لكن أيمن وقد أدرك ما يرمي إليه وقف في وجهه قائلاً بصرامة "إلى أين؟.. لو كنت تريد قول شيء فقله لي أنا.."

تجاهله عابد وهو ينظر إلى نور متسائلاً "نور.. أهذا قرارك أنتِ؟"

صمتت نور وهي تخفض وجهها، فيما قال أيمن محتداً "ما الذي تبغيه منها يا هذا؟"

التفت إليه عابد قائلاً ببرود "كيف تريد مني احترامك وأنت تمتنع عن مناداتي إلا بيا هذا؟.."

والتفت إلى نور مضيفاً "لا يحق لشخص أن يتدخل في قراراتك يا نور.. فهل هذا ما تريدينه؟.. أهذه هي الحياة التي اخترتها؟"

ظلت نور على صمتها، فقال عابد أخيراً "لو كان الأمر كذلك، فلا يحق لي التدخل في الأمر.. لكن لو كانت الشكوك تملأ نفسك بخصوص هذا القرار، فلا تترددي في التصريح به.. ربما كان البديل أقرب مما تتوقعين.."

نظرت له نور بشيء من الدهشة، بينما غادر عابد دون أن يضيف كلمة أخرى.. فالتفت أيمن إلى نور قائلاً بقلق "دعكِ من هذا الرجل يا نور.. ما أدراه هو بما يجب عليك فعله؟"

غمغمت نور "لكنه نصحني بعدم التردد في اتخاذ القرار الذي يناسبني.. فما الخطأ في ذلك؟"

نظر لها أيمن بقلق متزايد، بينما راقبتها آن بصمت.. ثم رفعت نور رأسها مضيفة بصوت أكثر ثباتاً وحزماً "وقد اتخذت قراري بالفعل.. لذلك أرجو أن تغفر لي أنانيتي هذه المرة يا أخي.. لكني لست راحلة.."

وجدت آن تبتسم ابتسامة جانبية دون أن تعلق، بينما هتف أيمن "لماذا تغيرّين رأيك لأجل جملة من ذاك التافه؟.. ألا تثقين بي؟"

ابتسمت نور وهي تجيبه "بل أثق بك حقاً يا أخي.. لكني أثق بعابد أكثر مما قد تتخيّل.."

نظر لها بصدمة، لكن نور لم تترك له مجالاً للاعتراض وهي تغادر الكوخ بخطوات راكضة وقد انزاح ثقل كبير من صدرها.. ليس عليها مجاملة أيمن بعد الآن، وليس عليها الانقياد له لمجرد أنه شقيقها.. هي لم تعد طفلة، وتستطيع اتخاذ قراراتها بنفسها حتماً مهما عارض أيمن ذلك..

خمّنت أن عابد سيعود للبقية في ذلك الموقع الذي نصب نوح فيه أجهزته، حيث يقضي عابد والبقية أغلب أوقاتهم فيه، فتوجهت إلى مدخل الكهف بخطوات راكضة آملة باللحاق به.. وبعد أن تجاوزت الممر ووصلت لمدخل الكهف، سمعت صوتاً من موقع قريب يقول لها "كنت واثقاً أنك لن تخذليني يا فتاة.."

توقفت فجأة واستدارت لتجد عابد يجلس على إحدى الصخور الضخمة قرب المدخل، وقد استخرج

إحدىٰ ما بقي لديه من لفافات تبغ ووضعها في فمه دون أن يشعلها كعادته مؤخراً.. فقالت نور وهي تتمالك أنفاسها "ألم تطلب مني عدم التردد في اتخاذ قراراتي؟.. لقد نفذت ما تقوله فقط.."

ابتسم عابد معلقاً "وهذا ما عهدته فيكِ دائماً.. لكن لا أدري ما الذي اعتراك منذ قابلتِ شقيقك هذا.. وكأنك أصبحت فتاة أخرىٰ ضعيفة الشخصية بشكل لا يطاق.."

أدارت نور وجهها جانباً دون اعتراض.. لا تدري حقاً ما الذي اعتراها آنذاك.. ألأنها شعرت بحاجتها لوجوده؟.. أم راودها شعور بأن إطاعة شقيقها واجبة عليها مهما كانت قراراته؟..

شمّت رائحة التبغ المميزة، فالتفتت إلىٰ عابد لتجده قد أشعل لفافته باستمتاع كبير.. فتساءلت بدهشة "ما الذي جرىٰ؟.. ظننتك قد كففت عن التدخين قدر استطاعتك لئلا تنفذ لفافات التبغ منك علىٰ الأرض.."

ابتسم عابد معلقاً "لأن أحداث اليوم تستحق الاحتفال بها ولاشك.."

نظرت له نور بتعجب ودهشة كبيرين، فيما هبط عابد من فوق الصخرة وهو يضيف "موعد نجاتنا قد اقترب أخيراً.. هناك من استجاب لإشارة نوح في وقت مبكر من هذا النهار.."

وربت علىٰ كتفها قائلاً بابتسامة متسعة "سنعود للوطن أخيراً يا نور.."

لا تدري نور كيف تصف مشاعرها آنذاك.. السعادة الواضحة في ملامح عابد قد انعكست عليها بشكل كبير ودقات قلبها تتسارع بشدة.. شدّت قبضتي يديها بقوة وهي تشعر بالألم الشديد في أصابعها جراء ذلك، وكأنها تذكر نفسها أن هذه المعاناة ستنقضي أخيراً، وأنها تستطيع أن تأمل بغدٍ أفضل من هذا الحاضر القاسي بشدة.. شعرت أنها خفيفة كريشة وكأن القيود التي تقيّدها لهذا العالم قد بدأت تنقطع بشكل متتالٍ وسرعة كبيرة.. ركضت مجارية خطوات عابد الواسعة وهما يصعدان عبر طريق ضيق يخترق الجبل نحو قمته..

بعد أن وصلا قريباً من القمة، توقفت نور ودارت ببصرها في ذلك العالم الميّت الذي يحيط بهما إحاطة تامة، وتأملت السماء الغائمة بشكل كئيب منذ عقود لا تحصىٰ.. أخيراً يمكنها أن تشعر بالسعادة لرؤية هذه المناظر وهي ترجو أن تكون المرة الأخيرة التي تراها فيها.. ورغم أن قسوة وأنانية الإنسان هي ما أودت بهذا العالم الذي كان يزهو بالحياة سابقاً، إلا أن ما آل إليه هذا العالم كان أقسىٰ من احتمالها هي والبقية دون

شك..

لاحظ عابد وقوفها وهي تتأمل الموقع حولها، فوقف بدوره متسائلاً "ما بك؟.. هل نسيت شيئاً؟"

غمغمت نور "لا.. أتأمل هذه الأرض براحة وسعادة للمرة الأولى منذ قدومي إليها.. وأرجو ألا يخيب ظننا هذه المرة أيضاً.."

سمعا في تلك اللحظة صوتاً عالياً منبعه السماء التي تعلو رأسيهما، فنظرا للأعلى ليريا تلك السفينة الفضائية التي تفوق سفينة نوح، وسفينة فرقة العلماء، ضخامة بمراحل وهي تظهر بثبات من بين الغيوم الكثيفة وتشرع بالهبوط بهدوء في المهبط القريب من القرية والذي خلا من أي سفن فيه.. خفق قلب نور وهي تراقب السفينة، بينما غمغم عابد بسرور واضح "يا إلهي.. ما أضخمها!.. مع سفينة كهذه لا يمكن أن نواجه أي مشاكل أثناء الرحيل.."

همست نور متممة على قوله "بإذن الله تعالى.."

ذكرها هبوط هذه السفينة بهبوط سفينة نوح على أرض الكوكب عند قدومهم للمرة الأولى.. هل كانت لهفتها آنذاك بالقدوم للأرض تعادل لهفتها الآن للرحيل عنها؟.. ليتها كانت تعلم ما سيؤول إليه أمرها منذ مجيئها لهذا الكوكب، عندها قد تفكر ملياً قبل القيام بهذه المخاطرة.. خاصة عندما يكون العائد الذي لطالما تلهفت له، والمتمثل في لقائها بأخيها، لا يرقى لآمالها التي بنتها في عالم الأحلام والتي هيأت لها أن كل معاناتها ستزول بمجرد أن يتحقق هذا اللقاء..

لكن، كما كانت رُبى تقول، قراراتنا وخياراتنا، وكل ما نمر به من مآسٍ، هي ما يصنع شخصياتنا.. وهي ما تشكل ما نصبح عليه بعد أن نجتازها.. فهل كانت نور تتمنى أن تصبح شخصاً آخر غير ما هي عليه الآن؟.. هل جعلتها الأحداث التي مرت بها شخصاً أسوأ مما سبق؟.. أم كانت تلك الأحداث كالأداة التي تصقل حجراً كريماً مزيلة طبقات الصخور عليه لتظهر قلبه البراق؟..

شاركت نور عابد مراقبة السفينة التي استقرت وسط عاصفة من الغبار والثلج الذي أثارته في الموقع.. رغم أن أمنيتها التي حملتها لهذه الأرض قد غدت بلا أهمية بالنسبة لها، إلا أن هذا لا يمنع أن تتطلع لتحقيق أمنيات أخرى في أيامها وسنواتها القادمة.. وأولها، والتي بدأت تتحقق بالفعل، هي مغادرة هذه الأرض

التي لم تعد ترحّب بسكانها السابقين كما كانت تفعل سابقاً.. ومنذ الآن، كما فعلت في السنوات الأخيرة من حياتها، عليها أن تشق طريقها بنفسها وتخوض غمار ذلك المستقبل الذي تجهل إلى أين سيسير بها وبمن سيجمعها أو يفرقها..

ورغم كل ما جرى، فإنها لا تشعر بكره لهذه الأرض التي تنبذهم بكل قسوة.. ولا تشعر بحنق لكل ما مرت به عليها.. رغم قسوة كل ما جرى، كيف يمكنها الندم على هذه التجربة؟..

بعد بعض الصمت، سألت عابد القريب "أأنت نادم على قدومك في هذه الرحلة؟.."

غمغم عابد "ربما لو سألتني هذا السؤال في الأيام الأولى لوجودنا على الأرض.. لأجبت بنعم بكل تأكيد.."

وأضاف بابتسامة جانبية مربتاً على رأسها برفق "أما الآن.. فمن يدري؟..."

****

§ النهـــايـة §